المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

الجزء الثامن

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

٨

المفصل

في

تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الثامن
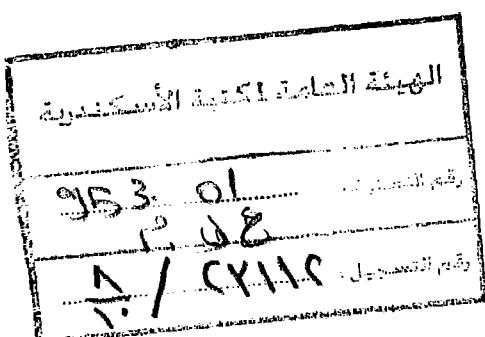
الفصل السادس عشر بعد المئة

الفن الجاهلي

العمارة :

لظهور الفن وازدهاره في مكان ما لا بد من توفر تربة خصبة فيه تموّنه بالمواد الأولية اللازمة ، ولا بد من وجود جو يساعد على نمو بذوره وانمائها وازدهارها . وجزيرة العرب أرض كما نعلم غلب عليها الجفاف وتحكمت فيها أشعة الشمس المحرقة والسموم الحارة الجافة ، وهي ذات جو مشرق صاف صاحٍ في الغالب ، ولكنه جاف يابس ، لا تبكيه السماء في الغالب إلا بمقدار ، فإذا سالت دموعه، انهمرت انهماراً ، وتحولت الى سيول جارفة عارمة سرعان ما تختفي وتزول ، بأن تغور في باطن الأرض ، وقد تنزل الأمطار نزولاً لا بأس به ، فتخضر الأرض وتنبت الأزهار والأعشاب ، وتضحك ويضحك الناس معها ، وتهيج قرائحهم لفرحهم وطربهم من حصولهم على هذه النعمة الكبرى ، التي لا تدوم طويلاً ، وهذا أمر يؤسف له ، أو قد لا تعود اليهم ثانية إلا بعدَ أجل ، لانحباس البخار مولد المطر ، فيلجأ المخلوق الى خالقه يتوسل اليه أن يغيثه بانزال الغيث عليه بكل الوسائل التي يتوصل اليها عقله لاقناعه آلهته بإنزال المطر ليغيث الانسان والحيوان والنبات .

ولظهور العمارة وفن النحت والزخرف ، لا بد من وجود أحجار صالحة للبناء أو للنحت والحفر ، حتى يكون في امكان المعمار أو النحات تحويلها الى أبنية أو

أصنام وتماثيل أو ما شاكل ذلك . وأرض سهلة لا حجر طبيعي فيها لا يمكن أن يظهر فيها بناء أو فن إلا اذا كانت قريبة من مواطن الحجر أو من مواطن الحضارة حيث تستوردها عندئذ من تلك الأماكن . لذا نجد الفن الجاهلي قد تركز وانحصر وبرز في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية وفي المواضع القريبة من مواضع الحجر ومن أهل المدر في الغالب .

وفي اليمن أنواع من الأحجار الصالحة للبناء وللنحت ، كما توفرت فيها ، المواد المساعدة الأخرى التي تدخل في انشاء العمارات مثل الجبس . ولهذا قامت فيها بيوت مرتفعة ذات طوابق متعددة،ولا يزال أهل اليمن وبعض أهل المواضع الأخرى من العربية الجنوبية يبنون البيوت والقصور المرتفعة السامقة ، وما كان بوسعهم ذلك لولا وجود المواد الصالحة للبناء ، التي تستطيع البقاء ومقاومة الطبيعة أمداً [1] . وبفضل المواد المذكورة بقيت أبنية من أبنية الجاهليين اليمانيين الى الإسلام بقيت محافظة على نفسها وعلى شكلها العام ، ولولا يد الإنسان التي لعبت بها وخربت أكثرها لبقيت أزمنة طويلة أخرى ولا شك . ولو كانت تلك الأبنية قد بنيت بالطابوق أو باللبن وبالمواد المستعملة في البناء في وسط وفي جنوب العراق ، لما تمكنت من البقاء طويلاً ، لأنها مواد لا تتحمل معاركة الطبيعة زماناً طويلاً ، لذلك تنهار بسرعة إذا لم ترعاها يد الإنسان دوماً بالاصلاح والتعمير [2] .

وقد ساعدت وفرة الرخام والحجارة الصلدة في اليمن في التعويض عن استعمال الخشب القوي الصلد في البناء فاستعمل المعمارون الأعمدة العالية الجميلة ذوات التيجان في رفع السقوف وفي إقامة الردهات الكبيرة وفي « الطارمات » أمام الأبنية ، وفي واجهات المعابد بصورة خاصة ، استعملوها بدلاً من الخشب الذي لا يتحمل الثقل كما يتحمله الحجر ، والذي لا يعمر طويلاً كما يعمر الحجر . وبفضل هذه الحجارة استطاع المعمارون أن يستفيدوا من الماء بإقامة السدود القوية التي تتحمل ضغط السيول العالي عليها ، وهذه ميزة لا نجدها بالطبع في العراق .

وقد ساعدت طبيعة اليمن عامل البناء في نحت الحجر وقطعه وصقله وتكييفه بالشكل الذي يريده . وتمكن بذلك من وضع أحجار مصقولة بعضها فوق بعض

---

١ A. Grohmann, S. 140.

٢ A. Grohmann, S. 140.

لتكوين أعمدة منها أو جدر معبد أو حيطان سدود أو قصور بحيث يوضع حجر فوق حجر ، فيجلس فوقه بصورة يصعب على الإنسان أن يتبين منها مواضع اتصال الحجر بعضه ببعض . ولولا وجود الحجر الجيد لديه لما تمكن من القيام بإنشاء الأبنية الضخمة المؤلفة من جملة طوابق والتي قاومت الدهر ، ولكان بناؤه من الطابوق ، أي من اللبن الذي حُجّر بالنار ، والطابوق لا يمكن أن يقوم مقام الحجر في البناء ، ولا أن يقاوم الطبيعة وأن يعمر طويلاً . ونظراً لصغر حجمه بالنسبة الى الحجر ، ولضرورة ربطه بعضه ببعض بمادة ماسكة مثل الجبس فإن البناء به لا يمكن أن يكون متيناً ، ولا يمكن أن يقاوم الرطوبة والعوامل الجوية الأخرى ، فيتآكل ويتداعى ، ولا سيما في المواضع السهلة ذات الرطوبة ، أو التي تتساقط عليها الأمطار بكثرة، فتكوّن سيولاً عارمة تكتسح ما تجده أمامها من أبنية مبناة بمادة غير متينة متانة الحجر .

وتفيدنا دراسة المباني اليمانية في الزمن الحاضر فائدة كبيرة في تكوين فكرة عن البناء عن أهل اليمن قبل الاسلام.ففي هذا البناء الذي نراه عناصر عديدة لا تزال حيّة باقية ، هي من بقايا البناء اليماني الجاهلي . وما قاله « الهمداني » في صفة بعض المباني والقصور الجاهلية التي كانت قائمة في أيامه ثم زالت ، ينطبق على أوصاف القصور والمباني القائمة الآن ، كما أن في دراسة أسماء أجزاء البناء وما يستعمل فيه فائدة كبيرة في حلّ كثير من المعضلات الفنية المتعلقة بفن العمارة عند الجاهليين .

وقد زال أكثر المباني الجاهلية ، ويا للأسف ، بسبب اعتداء الانسان بجهله ، عليها . فقد حمله كسله وجهله على تدمير تلك الأبنية ، لاستعمال حجارتها في بناء بيوت جديدة ولأغراض أخرى . ونجد في الأبنية الحديثة ، وأكثرها أبنية رديئة قبيحة بالقياس الى القصور القديمة ، حجارة ضخمة ، بعضها مكتوب كتابة كاملة انتزعت من الأبنية الجاهلية ، وبعضها ناقص الكتابة لتلف الكتابة المكملة أو لنقلها إلى موضع آخر . ونجد حجارة مكتوبة وقد طليت بالجبس ، لاعطاء الجدار الذي دخلت فيه وجهاً أملس . ونجد في الكتب القديمة مثل كتب الهمداني إشارات الى مثل هذه الأعمال ، التي ما تزال جارية مستمرة بالرغم من قرار الحكومات المعنية بمنع هذه الأعمال . وقد حطمت تماثيل جميلة عثر عليها بين الرمال ولا تزال تحطم ، لأنها في نظر العاثرين عليها أصنام لقوم كفرة ، وتماثيل قوم ممسوخين

غضب الله عليهم ، فلا يجوز الاحتفاظ بها ، فهشمت وعبث بها ، وبذلك خسر العرب كنوزاً فنية وذخائر لا تقدر بثمن، كان في وسعنا الاستفادة منها في تدوين تأريخ الجاهليين .

وقد حطمت ودمرت قصور عظيمة في اليمن، بقيت بعضها قائمة الى الاسلام، مثل قصر (غمدان) بصنعاء ، الذي يبالغ أهل الأخبار في وصف ارتفاعه وضخامته، وقد كان مؤلفاً من طبقات بعضها فوق بعض ، ثم هدم وقلّ في الاسلام ، أمر الخليفة (عثمان) بهدمه ، فزالت معالمه ، ولو بقي إلى اليوم لكان من المفاخر[1] ، ومثل المعابد الضخمة، وقصور الأسر الحاكمة ، مثل قصر (شمر) بذي ريدان ، وأبنية أخرى قوضت لأسباب عديدة ، فضاع بذلك علينا تراث مهم . وفعل مثل ذلك في الأبنية الأخرى . ففي العراق مثلاً ، هدمت قصور الحيرة وبيوتها، لاتخاذ حجارتها مادة لبناء الكوفة ، و « وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر ، ان المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم »[2]. وقد أضاعت علينا هذه الأعمال معالم قيّمة من تراث الجاهليين .

وقد هدم قصر (بهر) (ذي بهر) ببيت حنبص ، وهو أثر جاهلي مهم ، بقي قائماً الى حوالى سنة (٢٩٥) للهجرة ، فأمر بإحراقه (ابن أبي الملاحف) القرمطي ، فأحرق ، وظلت أخشابه تحترق أربعة أشهر على مـــا يزعمه الرواة ، مبالغة منهم بالطبع[3] .

ولأهل اليمن عادات جميلة أفادتنا فائدة طيبة ، وذلك بوضعهم عـــلى الجدر حجارة مكتوبة تحمل اسم الدار أحياناً واسم صاحبها واسم الإلـه الذي تبرك صاحب المبنى بتقدمه اليه تيمناً به ، حتى الترميمات والاصلاحات التي يقوم بهـــا أصحاب البناء تدوّن على هذه الحجارة ، ولا سيما الترميمات والاصلاحات التي تدخل على المعابد والمباني العامة ، تعين عليها بدقة تامة ، فيذكر الموضع الذي ابتدأ بـــه والموضع الذي انتهى منـــه ، ويذكر مقدار ما صرف عليه في بعض الأحيان .

---

١ تاج العروس (٢/٤٤٦) ، (غمد) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٢٨٤) .
٣ الاكليل (١/١٢) (حاشية رقم ١) .

ومن هذه الكتابات أخذ معظم علمنا بتأريخ اليمن القديم .

ويظهر أن أهل الحجاز لم يكونوا على شاكلة أهل اليمن في بناء البيوت الضخمة من الحجارة والمواد البنائية الأخرى التي يعمّر بها البناء عمراً طويلاً ، بدليل ما نشاهده في اليمن وفي مواطن أخرى من الجزيرة العربية من بقايا معابد ومبانٍ ضخمة ، وعدم وجود شيء من ذلك في الحجاز ، وبدليل ما أورده أهل الأخبار من قصص عن مباني اليمن العادية ، وما شاهدوه من بقاياها في أيامهم هناك ، وهي تتحدث عن فن عمراني متقدم ، على حين خلت أخبارهم من هذا القصص عن الحجاز ، بل يظهر منها أن أكثر أبنية مكة ويثرب لم تكن إلا أبنية صغيرة ضيقة ،أكثرها من اللبن أو الطين ، وقد عرشت بجريد النخل وبالعيدان وبالأخشاب المحتطبة من التلال والجبال . وقد عرفت بيوت أهل الحاجة في مكة بـ (عروش مكة)[1] .

وقد امتازت (يثرب) عن مكة بوجود (الأطم) بها ، والأطم ، هي قصور تتكون من طابقين في الغالب ، أو ثلاثة طوابق ، تكون ضخمة نوعاً ما يعيش فيها سادتها ، وتكون حصوناً لأهل المدينة يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، ويحمون أموالهم بها . وقد بنيت بالآجر وباللبن أحياناً ، وبالطين أحياناً أخرى ، حيث تجعل الجدر عريضة ، لتقف صامدة أمام الدهر وأمام المهاجمين، وتتخذ في أعلى الأطم مواضع يقف عليها المدافعون لرشق المحاصر بالسهام ، أو بالحجارة ، وبصب الماء الحار أو النار عليه ان قرب من جدار الأطم . وقد اتخذت الأطم في يثرب ، لعدم وجود سور حولها يحميها من الأعداء ، ولكونها مكشوفة ، لا تحميها حواجز طبيعية ، يتحصن بها أهل المدينة عند دنو الخطر منهم ، فلم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى بناء هذه الأطم للدفاع عن أنفسهم ، على نحو ما فعل أهل الحيرة في مدينتهم ، حيث بنوا القصور .

وتوجد في أعالي يثرب إلى فلسطين بقايا حصون وقصور ومواضع قديمة ، كانت آهلة عامرة ، أما الآن فلم تبق منها غير بقية من آثارها ، وهي لا تزال مادة (خاماً) لم تكتشف ، ولم تدخلها بعثات علمية منتظمة ، وتشاهد عندها بعض

---

١ المغرب (٢/٣٧) ، « عروش مكة ، بيوتها لانها كانت عيدانا تنصب ويظال عليها »، شرح القاموس (٤/٣٢٢) .

أحجار مكتوبة ، بقلم مشتق من المسند ، وبلهجات عربية تختلف عن لهجة (ال)، أي عن العربية التي نزل بها القرآن ، مما يدل على انها كانت في الأصل لقبائل كانت لهجاتها لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية من عربية أهل البوادي، ولكنها كانت متأثرة بالثقافة التي تدون بالقلم المسند ، ثم تأثرت بلغة الأعراب الذين جاءوها من البوادي وذلك قبيل الاسلام ، فنزلت هذه المواضع ، وزاحمت أهلها، ثم غلبتهم على أمرهم ، فاختفت اللهجات العربية القديمة، وحلت محلها لهجة (ال). وسيجد المنقبون الذين سينقبون في المستقبل في هذه المواضع آثاراً ستحدد لهم الاتجاهات الثقافية والحضارية التي دخلت جزيرة العرب ، واللغات التي كانت سائدة فيها .

وفي المسند مصطلحات كثيرة خاصة بالبناء وبالآلات والمواد التي تستعمل فيه، وفي أجزاء البناء . واللهجات العربية الجنوبية هي أغنى بمصطلحات البناء من العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وذلك لأن أهل العربية الجنوبية كانوا حضراً في الغالب وأهل مدر ، حتى أن أعرابهم كانوا يقيمون في أكواخ وعشش ثابتة مستقرة . لهذا كثرت في لغتهم ألفاظ الحضارة التي تقوم على الإقامة والاستقرار. وظهرت عندهم ألفاظ لمواد تستعمل في البناء مثل أنواع الصخور والحجارة ، وكيفية قطعها ، وأنواع الخشب المستعمل فيه ، وآلات القطع أو آلات المعار وغير ذلك من مصطلحات لا نجد لها مقابلاً في هذه العربية التي نتكلم بها . وذلك لأن حضارة البناء التي ظهرت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية للأسباب المذكورة لم يظهر ما يماثلها في المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، حيث قام عمرانها على المدر بالنسبة للحضر . أي على الأبنية المتخذة من المدر أو من اللبن أو من الآجر. ومثل هذه الأبنية ، لا تحتاج الى مصطلحات والى آلات كثيرة ، ولما كانت الحاجة هي أم الاختراع في اللغات ، لذلك قلّت مصطلحات العمران في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، بينما كثرت فيها مصطلحات أهل الوبر ومصطلحات البداوة ، في مثل أجزاء الخيمة وما يتعلق بحياة الفرس والجمل ، حيث قصرت دونها هنا لغة المسند .

وقد درس الآثاريون في الأيام المتأخرة موضوع الفن العربي الجنوبي ووضعوا بحوثاً فيه ، استندت على الملاحظات والدراسات التي قاموا بها في مواطن الآثار أو من ملاحظاتهم للقطع الأثرية وللصور التي أخذت لها . وقد وجد بعضهم مثل

الباحثة (جاكلين بيرين) Jacqueline Pirenne ، ان الحضارة العربية الجنوبية انما برزت وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد ، برزت بتأثير الحضارة اليونانية — الفارسية عليها . وقد زعمت ان القلم العربي الجنوبي أخذ من القلم اليوناني في ابتداء القرن الخامس قبل الميلاد ، وان عناصر الحضارة العربية الجنوبية ، وخاصة الفن منها مثل النحت والعمارة ، قد غرفت من مناهل يونانية — فارسية . أما ما قبل هذا الوقت ، فلم يكن لشعوب الشرق الأدنى أي أثر حضاري أو ثقافي على أهل العربية الجنوبية [1] .

وقد درست باحثة أخرى موضوع الفن العربي الجنوبي ، هي (برتا سيكال) Berta Segall . ذهب اجتهادها بها إلى أن هنالك مؤثرات حضارية خارجية أثرت على الحضارة العربية الجنوبية ، وأرجعت هذه المؤثرات إلى أثر يوناني هيلليني ، وأثر سوري حثي وأثر فينيقي وإلى عناصر حضارية أخرى . وذكرت ان هذه المؤثرات أثرت على الحضارة العربية الجنوبية ، وتولد من هذا المزيج الأجنبي والعربي حضارة العرب الجنوبيين [2] .

لقد تبين من دراسة الفخار الذي عثر عليه في العربية الجنوبية انه من صنع محلي ومن تصميم محلي أيضاً . وقد تبين أيضاً انه لا يخلو مع ذلك من المؤثرات الأجنبية التي أثرت عليه ، ولا سيما على المظهر الخارجي للفخار في مثل الزخرفة والشكل . فقد أثر الفخار العراقي والسوري على الفخار العربي الجنوبي . ويظهر من الفخار الذي عثر عليه في (هجر بن حميد) ، انه قد تأثر بمؤثرات شمالية سورية وعراقية [3] .

وتقدمت معارفنا بعض التقدم بالنسبة للفن المعماري عند العرب الجنوبيين.وتوجد

---

١ Jacqueline Pirenne, La Grèce et Sabe, Paris, 1955, The Bible and the Ancient Near East, by G. E. Wright, p. 313, 319.

٢ Berta Segall, Sculpture from Arabia Felix, American Journal of Archaeology, 59, 1955, p. 207., Ars Orientalis, II, 1957, p. 37, Promlems of Copy and Adaptation in the second quarter of the First Millennium B.C., American Journal of Archaeology, 60, 1956, p. 165, The Lion Riders from Timna, in Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 155, The Bible and the Ancient Near East, p. 319.

٣ The Bible and the Ancient Near East, p. 320, Belletin of the American Schools of Oriental Research, 172, 1963, p. 55.

لدينا فكرة عامة عن فن هندسة المعابد ، أخذناها من فحص معابد (حقه) و (مأرب) و (تمنع) و (حريضة) و (خور روري) . وتقدمت معارفنا أيضاً في موضوع أبنية المقابر والأضرحة عند الجاهليين ، وكذلك عن هندسة البيوت . وقد وجد أيضاً أن الفن المعماري قد تأثر بمؤثرات خارجية كذلك . بمؤثرات عراقية وسورية وفينيقية ويونانية ومصرية [1] .

ويظهر الأثر اليوناني على سك العملة عند العرب الجنوبيين . فقد ضرب النقد على شاكلة النقد اليوناني ، لا يختلف عنه إلا في وجود الحروف العربية الجنوبية على ذلك النقد . فالنقد العربي الجنوبي ، هو تقليد ومحاكاة للنقد اليوناني ، الذي ظهر في أيام (البطالمة) و (السلوقيين) ، ويكاد يكون قالباً لها ، أضيفت عليه حروف المسند . فالبومة التي تمثل (أثينا) ، والتي كانت تضرب على العملة اليونانية ، ضربت على النقد العربي الجنوبي ، الى غير ذلك من أمور بحث عنها علماء (النميّات) .

ولكننا لا نستطيع أن نقول اليوم ان معارفنا عن الحضارة العربية الجنوبية قد تقدمت تقدماً مرضياً ، وانها صارت واضحة مفهومة ، وسوف تبقى معارفنا عن هذه الناحية وعن النواحي الأخرى ناقصة ما دامت أكثر الآثار مدفونة تحت طبقات كثيفة من التربة لم تلمسها الأيدي حتى الآن . لقد تقدمت معارفنا عن هذه النواحي على نحو ما ذكرت بسبب قيام بعض الباحثين المحدثين بالتنقيب في بعض المواضع بصورة جدّية علمية وبشيء من التعمق في باطن الأرض ، ويمكن أن نتصور ما سيحصل عليه الباحثون من معلومات عن الجاهلية لو سمح لهم في التنقيب بأسلوب جدي علمي في باطن الأرض وفي مواطن الآثار .

استعمل اللحيانيون لفظة (بنى) (بنا) للتعبير عن بناء شيء . وذلك كما نفعل نحن في عربيتنا . وتشمل اللفظة بناء كل الأبنية ، من بناء بيوت أو قبور أو غير ذلك . وقد وردت في عدد من النصوص [2] .

ويعبر عن المبنى بالتعبير نفسه في العربيات الجنوبية ، فيقال (مبنى) . وإذا

---

١ The Bible and the Ancient Near East, p. 320.

٢ راجع النصوص ١٦ ، ٢٦ ، ٧٤ ، ٩٠ من كتاب : W. Caskel, S. 133.

أريد التعبير عن تقديم البناء الى إلـه أو جماعـة ، كأن يسمى باسم الإلـه ويحبس عليه ، فيعبر عن ذلك بلفظة (قتدم) أي قدم بهذا المعنى المفهوم منها في عربيتنا، وبمعنى أهدى[1] . وأما الفعل فهو (بنى) ، وذلك كما في هذه الجملة : « عسى وبنى »[2] ، أي « تملك وبنى » . و (هبنى) ، وذلك كما في هذه الجملة : « هبنا عقبتهن قلت »[3] ، أي « بنى قلعة قلت » . ويراد بـ (عقبت) (عقبة) القلعة . وللفظة علاقة بكلمة (عقبة) التي نستعملها نحـن بمعنى صعوبة وعائق ، ونجمعها على (عقبات) .

واستعمل اللحيانيون لفظـة (حفر) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربيتنا . استعملت لكل أنواع الحفر : حفر الأسس أو الآبار أو العيون ، أو الحفر على الأحجار والخشب ، لغرض النقش والزخرفة ، أو لأي هدف آخر[4] .

ويشق المعماريون أسساً في الأرض للأبنية الفخمة ، كالبيوت المؤلفة من طبقات عدة كالمعابد ، لتحمل الأرض ثقل البناء . ويختلف عمق الأساس وعرضه باختلاف سمك الجدار وثقل البنـاء . ويحفر العمال الأرض بالقدر الذي يعينه البناء ، حتى إذا ما بلغوا العمق المقرر ، وضعوا المواد اللازمة كالحجـارة أو الكلس المخلوط بمواد أخرى ، ثم يترك الأساس مدة حتى يجف ويستقر ، ثم يقام عليه الجدار . ويقال لهذا الأساس في العربيات الجنوبية (موثر)،وهي بمعنى (الأس) والأساس والأسس في عربية القرآن الكريم[5] .

وقد ورد في كتب اللغة ، (والوثير) : الفراش الواطىء ، وكذلك الـوثر كل شي جلست عليه أو نمت عليه فوجدته وطيئاً ، فهو وثير[6] .

وتؤدي لفظة (مبحر) معنى : (أساس) وسناد . فـ (مبحر) كل بناء هو أساسه وسناده في لغة السبئيين[7] .

---

١ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـ : ثقب الحجر .
٢ راجع النص الموسوم بـ Glaser 1089, 1660, Halevy 208. وهو من معين
٣ الجملة الثانية من نص أبنة ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.
٤ راجع النص ٦١ من كتاب : W. Caskel, S. 133.
٥ شرح القاموس (٩٦/٤) ، ابن سلام ، كتاب الاجناس من كلام العرب (ص ١٣) .
٦ تاج العروس (٥٩٨/٣) .
٧ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 439.

وترد لفظة (برا) بمعنى بنى وأنشأ وأقام وشقّ وما شابه ذلك[1] . وترد بعدها لفظة : (هشقر) في الغالب . ومن هذا الأصل لفظة : (مبرام) (مبرا) بمعنى بريء من الدين ، وبراءة الذمة[2] . وترد لفظة (برأ) في كتب اللغة بمعنى الخلق . و (البرية) : الخلق ، وأصله الهمن ، والجمع البرايا والبرّيات. والبرى: التراب[3] .

وأما (هشقر) فمعناها أكمل الشيء ، وانتهى منه ، وأتمه وغطاه وستره . وهي من أصل : (شقر) ، وترد من هذا الأصل لفظة (تشقر) و (شقرم) ، بمعنى الأعلى والنهاية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بتوربم اد شقرم »[4] ، أي من الأساس إلى الأعلى ، أو إلى النهاية . و (ربب) معناها الأساس[5] .

أما أعلى البناء ونهايته ، أي تاجه الذي ينتهي عنده ، فيقال له (تفرع) . و (تفرع) نهاية الجدار وأعلاه ، والمكان الذي ينتهي فيه[6] .

ومن العبارات الواردة في بعض النصوص المتعلقـــة بالبناء ، هذه العبـــارة : (بن موثر هو عـــدي مريمن) ، وهي في معنى العبارة : (بن أشرس عد شقرن) التي ترد في النصوص المعينية ، ومعناها من (الأساس الى أعلى)[7]. فلفظة (موثر) وكذلك لفظة (أشرس) هما بمعنى الأساس أي أساس البناء ، و(عد) حرف جرّ بمعنى الى ، و (مريمن) و (شقرن) كلاهما بمعنى أعلى ، أي أعلى البناء .

ويقال لتعلية البناء (تعلى) . أما تقوية البناء والجدر وحمايتها من السقوط ، فيعبر عنه بـ (تصور) ، من أصل (صور) ومعناها وضع أوتدة وأعمدة عند

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 87.

٢ المصدر نفسه (ص ٤٧ حاشية ٤٢) . hodokanakis, Bodenwirtschaft, S. 24.

٣ شرح القاموس (٣٦/١٠) .

٤ الفقرة الخامسة من نص أبنة .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 486.

مجلة المجمع العلمي العراقي ، (المجلد الرابع ، الجزء الاول) ، (١٩٥٦) ، (ص ٢٠٧) « السطر ١٠٣ من نص أبرهة » ،

Mordtmann und mittwoch, Sab. Inschr., S. 45. f.

٦ راجع النص الموسوم بـ : Sab. Denkma., S., 31, CIH 325.

٧ Mordtmann und mittwoch, Alt. Inschr., S. 25.

الجدار أو البناء للتقويـــة والإحكام[١] . وهي بذلك قريبة من معنى (الظئر) في لهجة القرآن الكريم .

ويعبر عن إتمام بناء ما أو اكمال شيء آخر بلفظة (تقه) و (قه)، بمعنى (وقه) أي أكمل وأنجز . وهي مرادفة للفظة : (تفرع) ، وللفظة (هوعب) أيضاً . وكلها بمعنى الإنجاز والإكمال والانتهاء من عمل ما . ولفظة (قه) هي من أصل (وقه) . وتعني جملة: (إتقه عن) انتهى[٢] . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (وكن) هي بهذا المعنى أي اكمل وانجز في بعض الأحيان[٣] .

ويعبر عن اصلاح البناء وترميمه بلفظة (هحدث) ، وهي فعل ماض أي (أحدث) ، ومعناها أقام ورمم وأحدث وأنشأ . أما سقوط حائط أو سقف أو ما شابه ذلك ، فيعبر عنه بلفظة (تل) و (تلت) ، ومن هذا الأصل لفظة (تلو) ، أي الخرائب والتلال ، وتقابلها لفظة (خيل) في المعينية ، و (ذخبل)[٤]، أي تداعى وسقط ووقع .

وفي معنى الاصلاح والترميم أيضاً لفظة (غوث) الواردة في الكتابات المعينية[٥]. وقريب من هذا المعنى معنى (غوث) في لهجة القرآن الكريم ، ففي الإغاثة معنى المساعدة والاصلاح وترميم التصدع وإصلاحه .

وترد مع هذه اللفظة لفظة أخرى ، هي (سعذب) ، وهي فعل ماض بمعنى أعاد وأرجع الشيء إلى ما كان عليه[٦] ، من أصل (عذب) . وأما حرف السين الداخل على أول اللفظة فإنه في مقام حرف الهاء في السبئية ، يدخلان على المصدر فيحولانه إلى فعل ماض .

ويقال لمقدم كل بناء (صلوتن) (الصلوة)[٧] . وقد وردت اللفظة في كتابات

---

١ راجع النص الموسوم بـ : Glaser 1150, Halevy 192, 199.
وكذلـك : Rhodokanakis, Stud., II, S. 54.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٧) .

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٥ راجع النص : Glaser 1144, Halevy 353,
Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 31.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

٧ Rhodokanakis, Stud., II, S. 31.

دوّنت لمناسبة إقامــة سدود كذلك . ووردت في بعض الكتابات هذه الجملة :
(بن ذت هورتن عدي صلوت بن ذن محرمن وميسلن)[1] ، ومعناها : « من هذه الجهة الخلفية الى الجهة الأمامية أو الصالة الأمامية بين هــذا الحرم وموقد النار » .

ويقال للجهة الخلفية من البناء (هورتن) . من أصل : (ورت) ، بمعنى وراء . و (ورّه) في لغة أهل العراق ، وذلك كما نرى في هذا النص .

وتؤدي لفظة (صلوت) معنى (فناء) أيضاً ، وقد تؤدي معنى موضع منعزل أو مكان للصلاة . وقد يراد به فِناء يؤدي إلى (مبسل) يقع مقابله تماماً[2] .

وللفظة (صلوتن) (صلت) (صلوت) معنى آخر بعيد عن هــذا المعنى بعداً كبيراً ، هو (وثيقة) و (شهادة) و (عقد) ، فتكون في معنى (سمع) و (اسمع) التي تطلق على هذا المعنى أيضاً في العربيات الجنوبية[3] .

ويقال للبـاب (خلف) و (خلفتن) في السبئية . ويــراد بـ (خلف) و (خلفتن) (الخلفة) الشباك كذلك[4] . وقد كان أصحاب القصور يستعملون الشبابيك كثيراً في قصورهم ، ويزينونها بالرخام الرقيق وبالزخارف لتظهر جميلة خلابة . ويقصد بـ (خلف) و (خلفتن) المنافذ الخلفية كذلك .

وتتكون الأبواب من (مصرع) ، أو من (مصرعي) ، ويراد بذلك (مصراع) واحد أو مصراعان[5] .

ويعبر عن الباب بـ (الخلف) في عربيتنا كذلك[6] . وأما لفظــة (مصرع الباب) و (المصرع) و (مصراعا الباب) فمعروفة في عربيتنا كذلك[7] .

ويعبر عن الباب العظيم ، أو الباب المغلق وفيه باب صغير : أو عما يغلق به

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 45.
٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.
٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44, Der Grundsatz der affentlichkeit, S. 21, 24, Stud., I, S. 63.
٤ Rhodkanakis, Stud., I, S. 70. والجملة الرابعة من نص أبنة .
٥ راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1144, Halevy 353.
٦ اللسان (٩٣/٩) .
٧ اللسان (١٩٩/٨) .

الباب بلفظة (رتج) (رتاج) في اللحيانية [1] . ولفظة (رتاج) لفظة معروفة في عربيتنا كذلك .

ويعبر عن السلالم والدرجات بلفظة (احلبن) ، تطلق على السلالم من أية مادة مصنوعة ، من الحجر أو الخشب [2] ، كما يعبر عنها بلفظة (علوم) و (علوه) أيضاً ، لأنها طريق يؤدي إلى أعلى [3] .

ولفظة (علية) ، والجمع (علالي) ، هي عند أهل الحجاز بمعنى غرفة أيضاً ، والجمع (غرف) و (غرفات) . وقد وردت لفظة (غرف) و (غرفات) في القرآن الكريم [4] .

وعبر عن السقف وسطح البناء بلفظة (ظلّن) و (ظلل) أي (الظلة) [5] و (الظل) . وذلك لاستظلال الإنسان بالسقوف وحمايتها للبيوت والغرف من وهج الشمس .

ويعبر عن الشيء المسقوف مثل ذي سقف أو ما شابه ذلك بلفظة (مسقفن) [6] ، أي (المسقف) ، من أصل (سقف) [7] . ووردت لفظة (مسقف) بمعنى الموضع المسقوف [8] .

ويعرف المكان الذي ينفذ منه النور الى مكان ما (مصبح) في الحضرمية . ويمكن أن نقرأها (مصباح) كذلك . فالمصبح الكوة أو النافذة التي ينفذ منها النور الى مكان ما . والنور هو (صبحت) في الحضرمية ، وذلك كما ورد في هذه الجملة : (صبحت عينو) [9] ، أي (نور عينه) [10] .

---

١ النص رقم ٢٢ و ٨٥ من كتاب : W. Caskel, S. 134.

٢ راجع الجملة الرابعة من النص : Glaser 1144, Halevy 353, Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, Glaser 283, Halevy 238.

٣ Rhodokanakis, Stud., S. 47.

٤ البيان (١/١٩) « لجنة » .

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 30, 54.

٦ CIH, 182.

٧ Mordmann, Himj. Inschr., S. 36.

٨ Glaser, 799, CIH 132, Rhodokanakis, Stud., II, S. 34.

٩ Osiander 29.

١٠ Rhodokanakis, Stud., II, S. 28.

وأما الموضع الذي ينفذ النور اليه ، ويستقر فيه ، وقد يكون مسقوفاً وربما لا يكون مسقوفاً ، فيقال له (منحل)[1] . وعلى هذا المنحل يكون المصبح أي المنفذ الذي ينفذ النور منه [2] .

ويعبر عن الجدار والسور بلفظة (جنا) في لغة المسند[3] .

وقد فسر بعض علماء العربيات الجنوبية لفظة (بره) بمعنى مجاز[4] . ومن هذا الأصل أخذت كلمة (ابرى)[5] ، ولعلها تؤدي معنى خارج كذلك .

وترد لفظة (أدرف) في مصطلحات البناء كذلك[6] ، وتعني طرف البناء ، وطرف كل شيء . وقد استعملت للتعبير عن تحصين جانب القلعة أو الحصن مثلاً ، أو تحصين جوانب وأطراف برج ما [7] .

ويعرف مقدم البناء أو مقدم أي شيء بـ (قدم) وبـ (انف) . أما الجهة المضادة للمقدمة فيقال لها (معذر) ، فمعذر أي بناء أو أي شيء هو الجهة الخلفية لذلك البناء أو لذلك الشيء ، كما تطلق هذه اللفظة على الأسوار الخلفية للمدينة [8] .

ويقال للطابق الأعلى من البناء (علوهو) (علوه)[9] ، و (علن) (عليان)، لعلوّه بالقياس إلى الطابق الذي تحته . أما الطابق الأسفل ، فيقال له (سفله) (سفلهو)[10] .

ويقال للبيت إذا كان فوق البيت (علية) والجمع (علالي) . وتقابل لفظة (علية) لفظة (غرفة) والجمع (غرف) و (غرفات) . والغرفة عُلّية من

---

١ راجع الجملة الثانية من النص : Glaser 1089, 1660, Halevy 208.
٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.
٣ راجع أيضا الجملة الثالثة من نص أبنة .
٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٥ المصدر نفسه .
٦ Müller, in DMG., 37, 383, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٧ CIH, 197, Glaser 181, Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.
٨ Rhodokanakis, Stud., II, S. 64.
٩ راجع النص الموسوم بـ : CIH 325, Rhodokanakis, Stud., II, S. 46 f.
١٠ المورد نفسه .

البناء . وسميت منازل الجنة (غرفاً)[1] .

ويعبر عن العمل الفني المتقن بلفظة (نكل) ، ومن هذا الأصل لفظة (نكلو) و (نكلتو) في الأشورية[2] .

وقد كان أصحاب الأبنية يذكرون المواد التي استخدموها في الأبنية بكل تفصيل لا يكتفون بذكر أسماء المواد حسب ، بل يذكرون حتى صفاتها . فإذا كان الحجر غير مهندس ولا مصقول ذكروه ، وإذا كان مصقولاً ومهندساً ومقطوعاً عبروا عن ذلك بلفظة (تقرم)[3] .

ويقال للحجارة الحادة أو الملساء (زلت) ، وهي تقابل لفظة (زِلّة) في لهجتنا[4] وهي بمعنى أرض ذات حجارة ملساء أو حادة في اللهجتين المعينية والسبئية كذلك ، وتعني لفظة (صلال) ألواحاً من الحجر في اللهجة الحضرمية . وأما الجمع فهو (ازلت)[5] .

وتؤدي لفظة (زلت) معنى سيلان الزفت أو القار على أرض ما كأرض غرفة مثلاً أو أرض شارع أو حمّام لتبليط الأرض بهذه المواد . وذلك كما يفهم من هذه الجملة : (زلت أوسطهس) أي (وزفت أو وقير الأواسط) ، ويراد بالأواسط وسط الأشياء أو الشيء[6] .

ويقال للحجارة المكسرة الناتجة عن تكسير الأحجار الأخرى أو عن القلع (جرم) (جرب) . ويراد بها الحجارة المقطوعة أيضاً . وتوضع هذه الحجارة في أماكنها على نحو ما قلعت من المقلع ، فلا تصقل ، ولا تمسها آلات الصقل . أما الحجارة المقلوعة التي تصقلها الأيدي وتنقحها ، فتعرف بـ (منهمم) (منهمة) . وتبنى هذه الحجارة مع الحجارة الأخرى ، وتوضع بينها مواد البناء التي تلزم تلك الحجارة . والعادة هي أن توضع الحجارة المصقولة المعمولة المهندسة

---

١ البيان والتبيين (١٩/١) « لجنة » ، المفردات (ص ٣٦٥) .
٢ Rhodokanakis, Stud., I, S. 26.
٣ راجع الجملة الثانية من النص الموسوم بـ : Glaser, 1089, 1660, Halevy 208.
٤ CIH, II, p. 23, Rhodokanakis, Stud., II, S. 35.
٥ راجع الجملة الثالثة من النص : Glaser 144, Halevy 353.
٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 36.

في جبهة الجدار لتكسبه منظراً جميلاً حسناً ، توضع وراءها الحجـارة الأخرى المقطوعة ، وذلك لأن صقل جميع الحجارة التي تدخل في البناء يستنفد وقتاً كبيراً كما يكلف ثمناً باهظاً . ويضع المعمار الحجارة بالطبع وضعاً متناسباً بحيث لا تكون مرتفعة أو منخفضة وتملأ الفرج ومواضع اتصال الحجارة بمواد البنـاء التي تلزمه وتمسكه بين الحجارة [١] .

وقد توضع الحجارة لـ (جرب) على شكل طبقة واحدة في الجدار أو عـلى هيأة طبقات وصفوف للزينة . ونجد هذه الطريقة في أبنية الحبشة كذلك [٢] .

ومن هذا الأصل جاءت لفظة (جربة) و (جروب) بمعنى المدرجات التي يضعها الفلاحون على الجبل ، وذلك لزرعها بأنواع المزروعات ، ولا سيما الكروم [٣]. وكذلك الأسوار التي تحيط بالبساتين .

وهناك من يرى أن (منهمتم) من (منهمت) (منهمة) تعني على العكس الحجارة المقلوعة غير المصقولة . و (حجر منهوم) بمعنى مقطوع غير مصقول [٤].

وهناك لفظة أخرى تطلق على الحجارة المنحوتة المهندسة باليد هي (تقرم) من أصل (تقر) [٥] . وهناك نوع آخر من الحجر يقال له (بلق) [٦] . وقد ذكر علماء اللغة أن (البلق) الرخام وحجارة باليمن تضيء ما وراءها كالزجاج [٧] .

ويعبر عن قطع الحجارة من الصخر وعن صقلها لجعلها صالحة للبناء ، بلفظة (اثع) في اللحيانية [٨] . وأرض اللحيانيين أرض صلدة صخرية ، لذلك استخرج اللحيانيون حجر أبنيتهم منها فبنوا بها بيوتهم ، كما نحتوا الصخور وجعلوها على هيأة كهوف لكي تكون ملاجيء لهم .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, SE 48, 92, Ryckmans 340, BASOR, Nu. 83, 1961, p. 24.

٤ Glaser Zwei Inschriften, 47, Rhodokanakis, Stud., II, S. 47. f.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 54, 63.

٦ المصدر نفسه (ص ٦٤) .

٧ شرح القاموس (٦/٢٩٨) .

٨ النص ٧٢ من كتاب : W. Caskel, S. 110.

ويعبر عن تكسير الصخور وثقبها وعمل خرق بها بلفظة (جوبن) ، وتعني (الجوب) . والجوب هو عمل نقب في الحجر ، أو ممر . وأما لفظة (جوب) فجمع (جوبة) ، ويراد بها الفراغ بين شيئين[1] .

ويُستعان بفؤوس ومطارق في تكسير الحجارة وهندستها واصلاحها لتتخذ الشكل المطلوب . فتستخدم المطارق الثقيلة في كسر الحجارة . وتكون ذات رؤوس مختلفة الأشكال تناسب المهمة التي تؤدى بها . وتستعمل الفؤوس في هندسة جوانب الحجارة وصقلها ، وهي ذات أشكال مختلفة كذلك ، ، منها ذات رأس حاد نابت يتصل بقاعدة عريضة وتستخدم في نقر الحجارة ، ومنها ذات رأسين حادين عريضين ، ولها خصر في الوسط وتستخدم في شذب أطراف الحجارة وصقلها . ولا تزال هذه المطارق والفؤوس مستعملة في مثل الأعمال التي قام بها الجاهليون .

ويعبر عن تزيين الحائط وزخرفته بالحجارة أو بالأخشاب التي يوضع بين حجر الجدار وطابوقه بحيث تبرز للعيان وتوضع في أبعاد متناسقة ، يعبر عن ذلك بلفظة (موسم) . ومن هنا لفظة (وسم) التي تعني التزيين والتزويق أيضاً[2] . فلفظة (موسم) تعني الزخرفة والنقش في البناء[3] .

وأما الحجارة المصنوعة وما يقال له (طابوق) في العراق ، أي الحجارة المكوّنة من الطين المشوي ، فيقال لها (لبنّ) (لبت)[4] . ويراد بها اللبن كذلك أي الطين المجفف . وعادة مزج الحجارة المصنوعة أي الطابوق بالحجارة الطبيعية المقلوعة سواء أكانت مصقولة أم غير مصقولة هي عادة معروفة في البناء في الشرق[5] .

وأما اللبن ، أي الطين المجفف بالهواء وبأشعة الشمس والمصنوع بقوالب ولكنه لم يوضع في النار لإحراقه ، فيقال له : (لبن) أيضاً . وقد ورد (لبن شمس) أيضاً[6] . ويطلق العبرانيون لفظة لبنة على اللبن ، وعلى الطابوق أي اللبن المفخور بالنار .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 63.

٣ المصدر نفسه (ص ٦٤) .

٤ راجع النص الموسوم بـ : CIH 325, Sab. Denkm., 31.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43, 54.

٦ راجع الجملة الخامسة من النص ، Hommel, Aufs. und abh., S. 167, anm. 5.

وقد عثر المنقبون على لبن جاهلي في أماكن متعددة من جزيرة العرب . وقد كان أهل الحجاز يستعملونه في أبنيتهم ، لم ينفردوا بالطبع في ذلك وحدهم ، بل كان يفعل ذلك كل الجاهليين ، وقد بني مسجد الرسول باللبن . وكان الرسول ينقله مع الناقلين وهو مختلف الحجم . بعضه واسع ثخين ، وبعضه متوسط أو صغير . ويكثر استعماله في الأمكنة التي تقل فيها الحجارة ، وتتقلب على طبيعة أرضها التربة الطينية ، فيكون من السهل على أهلها اقامة ابنيتهم باللبن بارتفاعات مختلفة تبعاً لمتانة البناء ورغبة صاحب البناء في الارتفاع . وقد عثر على آثار قلاع وحصون وأسوار بنيت باللبن . ويمكن لمثل هذه الأبنية البقاء مدة طويلة ، لجفاف أجواء الشرق الأوسط وقلة الأمطار فيه ، ولا سيما اذا كانت ذات أسس وقواعد وجدر ثخينة وفي أماكن جافة بعيدة عن رطوبة الأرض .

أما الطابوق ، أي الآجر ، فيتكون من طبخ اللبن في الكورة أي الأتون ، أو بتكديس اللبن طبقات وصفوفاً ، ووضع الوقود بينها ، فإذا اشتعلت النار يصلد اللبن ويشوى فيكون آجراً . وطريقة صنع الآجر بإحراق اللبن في الأتون ، لا تزال شائعة معروفة في جزيرة العرب . وهي طريقة صنع الطابوق عند الفراعنة والسومريين والأشوريين والبابليين وغيرهم من الشعوب .

ولم يكن في استطاعة الفقير بناء بيته باللبن أو بالطابوق ، بل كان يشيد بيته بنفسه بالطين ، فيقيم جدره بالطين طبقة طبقة ، اذا جفت طبقة وضع فوقها طبقة أخرى ، وهكذا ، ويسقف بيته بالأغصان ، وبسعف النخل ، ويضع فوقها طبقة من الطين لتخفف عنه وهج الحرّ في أيام الصيف ، وتمنع عنه سقوط المطر عليه عند نزوله . أما الأعرابي فلم يكن له بيت دائم ، لا من الآجر ولا من اللبن، بل كان بيته خيمة تتنقل معه حيث يشاء ، يستظل بها وينام تحتها ، فهي بيته الحقيقي .

ويقوّى الطين الذي يصنع منه اللبن أو تقام به جدر البيوت أو تفرش به سقوف البيوت بالتبن ، يخلط مقدار مناسب منه بالتراب ، ثم يعجن الخليط ويترك مدة حتى يختمر ، ثم يستعمل عندئذ ، فيكون أقوى وأدوم بقاءً من اللبن أو الطوف المصنوعين من التراب الصرف . وهذه الطريقة معروفة أيضاً عند العراقيين والمصريين وعند غيرهم من الشعوب في العهود القديمة ولا تزال مستعملة عند

حفدتهم . ويعرف التبن بـ (تبن teben) عند العبرانيين[1] .

وتطين جدر البيوت الفقيرة والريفية بالطين ، وذلك لتكون مُلْساً خالية من الثقوب . ويستعمل الطيّانون آلة تسمى المِسجة . ويذكر علماء اللغة أنها يمانية ، وأنها خشبة يطين بها ، وهي المالجة بالفارسية . ويعبر عن تطيين الحائط بلفظة وسج ، وذلك اذا مسح الحائط بالطين الرقيق . وقد ذكر علماء اللغة أن السجة والسجة صنمان[2] .

ويقال للحجارة المربعة ، سواء أكانت مقلوعة أم مصنوعة ، (ربعتم) (ربعت) (ربعة) أي (مربعة)[3] . وهي تدخل في البناء إما مستقلة ، وإما مع أنواع أخرى من الطابوق والحجارة . وقد توضع على مسافات وأبعاد متناسبة ومتناسقة ، لتكوّن نوعاً من أنواع الزخرف في الجدر . وقد ذكر (الهمداني) في صدد ذلك هذه الجملة: « المكعب وذلك بكعاب خارجة في معارب حجارته على هيأة الدروق الصغار »[4] . وهذا النوع من الزخرفة معروف في اليمن . أما في الحبشة ، فقد كانوا يضعون حجارة منحوتة على هيأة رؤوس قردة للزينة[5] .

ويعبر عن إدخال الحجارة بين حجارة أخرى للزينة أو الزخرفة أو ملء الفراغ بين جبهتي جدار بحجارة صغيرة لسدّ الفراغات (ولج) . أما (مولجم) (مولج)، فتعني الموضع الذي وضعت تلك الحجارة فيه[6] . والايلاج هو إدخال شيء في شيء.

وأما الحفر على الحجر أو الجدار ، بقصد التزيين والزخرفة ، فيعبر عنه بلفظة (فتخ)،وتقابل بلفظة (بتاخو Patahu) . والحفر والنقش العميق على الحجارة والطابوق من مذاهب التزيين المتبعة في الشرق حتى الآن . وقد ذهب (رودوكناكس) إلى أنها تعني معنى (ولج) كذلك ، أي ادخال الحجارة المحفورة والمنقوشة والمنحوتة بين حجارة جدار ما مثلاً للتزيين والتزويق[7] .

---

١ Smith, Vol., III, p. 1386.

٢ شرح القاموس (٢/٥٦) .

٣ CIH 325.

٤ الاكليل (٨٠) « طبعة Müller »

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 44.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

٧ Rhodokanakis, Stud., II, S. 43.

وتؤدي لفظة : (فلزتم) (فلزت) (فلزة) ، معنى : أبعاد وطريق جانبي واخلاء وحفر ونقب. وقد أريد بها عمل ثقب في جدار في بعض الكتابات[1].

وكان من عادة أهل اليمن صهر الرصاص وصبه بين حجارة الأعمدة وفي أسسها ، وذلك لربطها وتقويتها ، ويقال لذلك : (صهرم)[2] من (صهر) ، التي تعني جعل الرصاص مائعاً يصب في المكان المراد تقويته أو تثبيته ، أو لأي غرض آخر من هذ الصهر . وقد استعملوا الرصاص المصهور في سدّ (مأرب) كذلك ، استعملوه مادة ماسكة تمسك بعض الصخور التي تؤلف الجدر الأمامية وفي مواضع أخرى منه[3] .

وقد استعمل المهندسون العرب الجنوبيون (القيطران) القار في البناء. استعملوه خاصة في الأماكن الرطبة والتي تسيل عليها المياه وفي الأسس لمنع الرطوبة ، كما استخدموه في رصف الشوارع ورصف قيعان السدود . فقد وجدت آثار قيعان بعض السدود وهي مرصوفة ومكسوة بطبقة من القطران .

وفي معنى (قطر) ترد لفظة (قتر) ، و (قتّر) أيضاً . و (القتار) بمعنى الدخان . ومن هذا المعنى جاءت جملة: (قتر اللحم) أي شُوي وظهرت رائحته . وفي معنى (قطر) لفظة (هيع) أيضاً . ومعناها (سال) و(ماع). ولهذا استعملت في النصوص ذات الصبغة الدينية في القرابين حيث تسيل دماؤها ، وفي الري لسيلان الماء ، وفي صهر المعادن[4] .

وفسر بعض الباحثين لفظة (هيع) ، بمعنى بنى ، أي أنشأ بناءً ، وفي مقابل لفظة (برا) في المسند[5] .

واستعملت مواد دهنية مستخرجة من زيوت بعض الأشجار في منع الرطوبة أو الماء من التسرب الى الأسس والجدر والسقوف .

والخشب هو (عض)[6] في العربيات الجنوبية . وقد استعمله العرب الجنوبيون

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 47.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 48.

٣ Wissmann-Hofner, S. 25.

٤ شرح القاموس (٣/٤٧٩) ، Rhodokanakis, Stud., II, S. 168.

٥ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 427, 433.

٦ Rhodokanakis, Stud., II, S. 26.

في تسقيف بيوتهم ، ولعمل الأبواب ، كما أدخلوها في البناء كذلك لتقويتــه . أما لفظة (عضن) (العض) ، فقد ذهب (رودوكناكس) الى أن المراد بها نوع خاص من الخشب ، نوع ذو رائحــة زكية ، يستعمل خاصة للحرق في مذابح المعابد[1] .

ويلاحظ من فحص بقايا بعض الأبنية القديمة من عهود ما قبل الاسلام أنهــا خالية من المواد الماسكة التي توضع عادة بين الحجر لتثبيته بعضه على بعض . ومعنى هذا أن المهندسين المعماريين كانوا قد وضعوا هذه الحجارة بعضها فوق بعض على نحو يجعلها كأنها متداخلة بعضها في بعض فتثبت مدة طويلة وتتماسك وتصبح وكأنها قد لصق بعضها ببعض بمادة من المواد المستعملة في العادة في تثبيت الحجارة مثل الجص أو الكلس أو الطين ، ويسمى بـ (الخلب) عند أهل اليمن اليوم[2] .
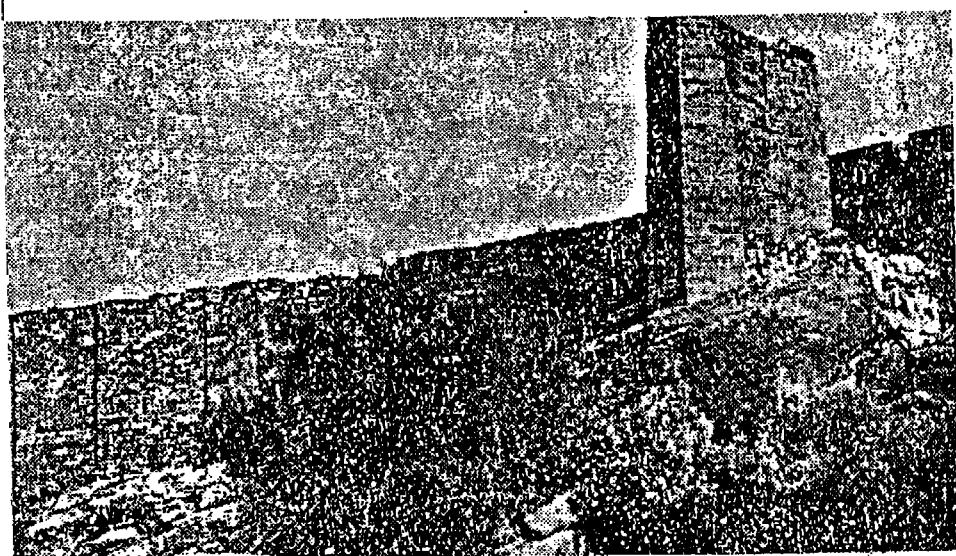
من بقايا سد مأرب

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٢١)

والحجارة التي أقصدها هي صخور اقتطعت من الجبال ، وأكثرها هي صخور كبيرة وهي بعد أن تسوى وتشذب وتهذب يوضع بعضها فوق بعض بحيث تتثبت

---

١ المصدر نفسه (ص ٣٩) .
٢ المعظم (ص ١٣٣) .

بعامل الثقل وبهذه الطريقة تقام الجُدُر، ويجري ذلك في المباني الضخمة الكبيرة التي تستعمل فيها الصخور . وأما أوجه الجدر من الداخل فقد تملج بمـادة كالجص لتجعلها مُلْساً ناعمة ، وبذلك تسد الفرج بين محال اتصال الصخور .

واستعملت في مبـاني أخرى المواد البنائية التي توضع بين الآجر والصخور الصغيرة والحجارة لتثبيتها ولضمان تماسكها . ومن هذه المواد الجص والطين والكلس، وقد تكحل الفواصل التي بين الأحجار بالكلس وبالجص لسدّ الفرج بينها وللزينة أيضاً . وأما الجدر الداخلية فتكسى بطبقة لتجعلها جميلة مُلْساً على نحو ما يفعله أهل اليمن وما يفعله غيرهم في الزمن الحاضر . وقد وجدت البعثات الأثرية التي نقبت في العربية الجنوبية بقايا جدران بيوت ، وقد كسيت بطبقة ملساء من الجص، تدل على مهارة البناء في ذلك الوقت . وقد تزخرف المواضع البارزة من الجـدار بزخرف يصنع بقوالب خاصة توضع عليها المادة اللينة التي يراد زخرفتها ، فإذا جفت رفع القالب عنها ، فتظهر بارزة بالحفر التي تكون حولها .

وتكسى الجدر الخارجية للبناء بالجص والكلس في بعض الأحيان . فإذا كسيت بالجص ، ظهرت بيضاً ترى من مسافات بعيدة ، جاء في شعر لعدي بن زيد :

شاده مرمراً وجللـه كِلْساً فللطير في ذراه وكـور[1]

وقد ورد أن الجص لغة ، والعرب تسميه القصة[2] .

ولم يكتفِ المتفنن العربي الجنوبي بإقامة الأبنية حسب ، بل استخدم الحجارة للتعبير عن شعوره وعن خواطره ، ينحتها على الصخور ويبثها على ألواح الحجر. وإذا كان العربي الصحراوي قد عبر عن شعوره وعن خواطره بالشعر ينظمـه أبياتاً أو مقاطع أو قصائد ، يسر نفسه بها ، ويسر الآخرين ، فقد عبر العربي الجنوبي عن مشاعره وخواطره بنوع آخر من الشعر ، هو الشعر المادي المتمثل في البناء وفي النحت والتصوير بالإضافة الى الشعر المعروف الذي لم يترك لنا أثراً مكتوباً منه ويا للأسف .

---

١ الكامل (١/٥٩) .

٢ شمس العلوم (حـ ١ ق ٢ ص ٢٧٩) .

والعربي الجنوبي متفنن بطبعه مذواق ، لم يكتف بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها ، بل اهتم بالألوان كذلك وبالمظاهر الخارجية للبناء . فاتخذ الحجارة الملونة للبناء ، وكوّن منها مناظر متعددة الألوان ، محاكاةً للطبيعة ، وتأثيراً على النظر. وبنى جدران قصر غمدان من حجارة ذات ألوان مختلفة ، فبنى سافاً بالحجارة البيضاء ، وبنى سافاً آخر بحجارة سُود ، وبنى سافاً ثالثاً بحجر أحمر ، وسافاً آخر بحجر أخضر[1] وهكذا ، وذلك إمعاناً في التفنن وفي التزويق ولا شك. وكسا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح الذهب والفضة وبالحجارة الكريمة وبسن العاج والأخشاب الغالية الثمينة،فأكسب البناء روعة وجمالاً وخشوعاً. ونجد ذلك في المعابد وفي القصور[2] .

واستعمل المعمار العربي الجنوبي الرخام لإكساء أوجه الجدران أو في فرش أرض الغرف والمعابد ليكسبها بهجة وجمالاً ، واستعمله ألواحاً رقيقة تزخرف بالصور والنقوش ، لتعبر عن مباهج الحياة ، كما استعمل ألواحاً رقيقة شفافة منه لتكون مكان الزجاج المستعمل في النوافذ في وقتنا الحاضر . ولا يزال أهل اليمن يستعملون الرخام المرقق في نوافذهم ، توارثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم، وهو يعطي النافذة رونقاً وجمالاً لا يتوافران في الزجاج .

وتكون النوافذ والشبابيك في جدار الغرفة المطل على صحن الدار . أما الجدر المقامة على الطرقات والأزقة ، فتكون خالية منها وذلك لئلا ينفذ منها اللصوص أو الأعداء الى الدار ، وليمنع المارة من التطلع الى داخل الغرف والبيوت . أما البيوت المرتفعة المكونة من طابقين فأكثر، فقد حليت بالنوافذ ، ومن هذه النوافذ ما كان يصنع من الخشب ومنها ما كان يصنع من الحجارة ، ولا سيما الرخام . وجعل العربي الجنوبي الطوابق العليا مواضع للدفاع عند الحاجة ، ولا سيما في الأماكن المنعزلة النائية ، وجعل لمزارعه مواضع مرتفعة مبنية أو من الأخشاب أو على الأشجار لمراقبة من يحاول السرقة وسلب الفلاح ثمار أتعابه .

والنافذة ضرورية جداً بالنسبة للأبنية العالية التي عرفت بها العربية الجنوبية ،

---

١ D.H. Müller, Burgen und Schlösser, I, S. 348.

٢ Strabo, X, 778, Hand. der altar, altir., I, S. 146.

وذلك للدفاع بواسطتها عن البيوت ولدخول النور والهواء اليها ، وقد صنعت من لوح مرقق من الرخام ، عملت فيه ثقوب ، لدخول الهواء منها . وتعمل الألواح المصنوعة من الرخام ألواحاً رقيقة جداً ، وقد تكون شفافة كالزجاج ، لتنير الغرف . ولا تزال نوافذ بيوت العربية الجنوبية محافظة على طرازها القديم . وقد استخدمت بعض النوافذ الجاهلية في البناء . وقد صنعوا النوافذ من الخشب أيضاً، زخرفوها بزخارف جميلة وأحاطوها بأحجار أو بمرمر لتمسكها ولتعطيها منظراً جميلاً .
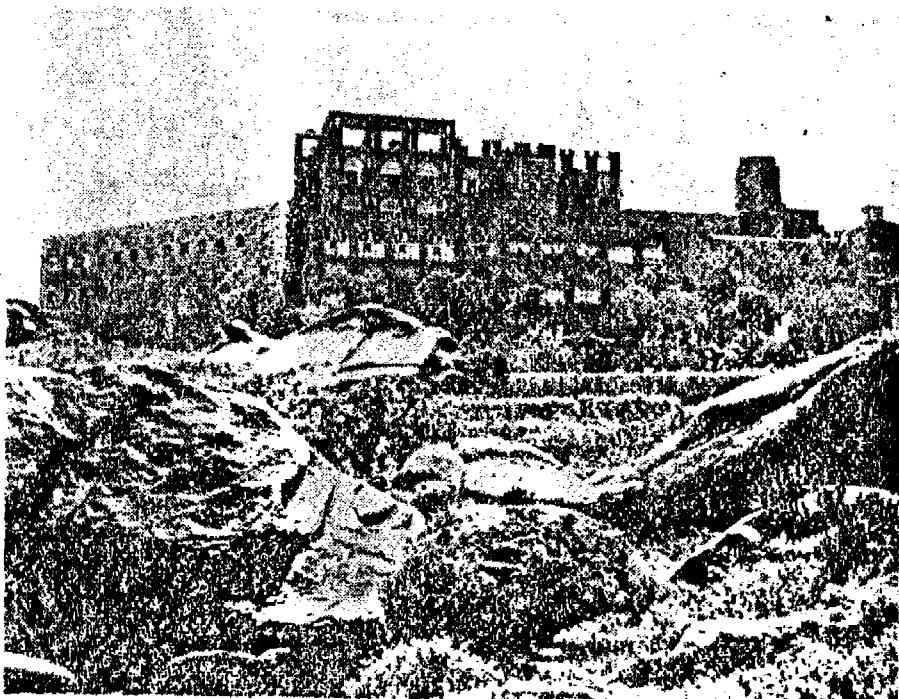
قصر الامام أحمد بمدينة « تعز » ، وترى نوافذه وهي ذات طابع يماني قديم
من كتاب : Gunther Pawelke, Jemen. (ص ٥٧)

ويعبر في اللحيانية بلفظة (بت) ، أي (بيت) عن معنيين ، عن معنى (بيت) ، أي موضع سكن ، وعن معنى معبد . وذلك كما في هذه الجملة : « بنيو بت هصن لذ غبت »[1] ومعناها : « بنوا بيت هصن لذي غابة » ،

١ النص رقم ٢٦ من كتاب : W. Caskel, S. 88.

و (ذو غابة) هو إلّه اللحيانيين ، أو بتعبير آخر : (بنوا معبد هصن للإلّه ذي غابة) .

ويعبر عن البناء والبناية بلفظة (مبنى) في لغة سبأ [1] . وهي من أصل (بنا) (بنى) .

وقد ذكر علماء اللغة اسماء الدور بحسب نوع بنائها من حيث المادة أو المساحة أو الارتفاع وغير ذلك. ويقال للدار المنزل كذلك والدارة والمنزلة والمباءة والمَعان والوطن والمغنى والمثوى والمربع [2]. والصرح هو كل بناء مرتفع . وأما الأطم والأجم فالحصن .

والدار المسكن والبيت،وترد اللفظة في النصوص اللحيانية ، قال (ابن الكلبي): « بيوت العرب ستة : قبة من أدم ، ومظلة من شعر ، وخباء من صوف ، وبجاد من وبر ، وخيمة من شجر ، وقنة من حجر ، وسوط من شعر ، وهو أصغرها » . وقال البغدادي : الخباء بيت يعمل من وبر أو صوف ، أو شعر، ويكون على عمود أو ثلاثة ، والبيت يكون على ستة أعمدة الى تسعة . والخيمة في عرف العرب : كل بيت من بيوت الأعراب مستدير ، أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر ، أو أعواد تنصب وتجعل لها عوارض وتظلل بالشجر فتكون أبرد من الأخبية . أو عيدان تبنى عليها الخيام ، أو ما يبنى من الشجر والسعف يستظل به الرجل اذا أورد إبله الماء. والخيمة عند العرب البيت والمنزل وسميت خيمة [3] لأن صاحبها يتخذها كالمنزل الأصلي . وورد أن الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ، ثم تسقف بالثمام ولا تكون من ثياب ، وأما المظلة ، فمن الثياب وغيرها [4] .

و (القبة) من البناء ومن الأدم . وقيل : القبة من الخباء بيت صغير مستدير وهو من بيوت العرب [5] . و (المظلة) : الكبير من الأخبية ، قيل : لا تكون إلاّ من الثياب ، وهي كبيرة ذات رواق ، وربما كانت شقة وشقتين وثلاثاً ،

---

١ Jamme, South Arabian. Inscriptions, p. 439.

٢ بلوغ الارب (٣/٣٨٩ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (١/٥٢٩) ، (بيت) .

٤ تاج العروس (٨/٢٨٥) ، (خيم) .

٥ تاج العروس (١/٤١٩) ، (قبب) .

وربما كان لها كفاء ، وهو مؤخرها . قال بعض العلماء لا تكون المظلة إلا من الشعر خاصة . إلى غير ذلك من آراء[1] . والخباء : ما يعمل من صوف أو وبر ، وقد يكون من شعر ، وقد يكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك ، فهو بيت[2] .

ويظهر من تضارب آراء العلماء في تعريف الأسماء المذكورة ، انهم أخذوا معانيها من موارد مختلفة من رعاة ومن شبه حضر ومن أعراب ، ومن جهات مختلفة ،فكان كل مورد يفسر الشيء تفسيراً يختلف عنه عند مورد آخر ، فتضاربت من ثم تلك الآراء .

ويقال لصحن الدار : حرّ الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبحبوحتها. وفي الدار البيت . والمخدع ، وهو البيت في البيت ، والنفق والسرب ، فالبيت تحت البيت ويتألف البيت من غرف . والغرفة في أعلى هي (العلية) والجمع علالي. والخزانة هي التي يحفظ فيها الشيء . والمرقد ، هو المضجع[3] .

وما يحيط بالبناء هو الحائط والجدار . والأُس هو أصل الحائط . والرهص ، هو البناء من الطين الموطوء ، ينضد بعضه فوق بعض ، ويقال للنضدة الواحدة دمص ، أما النضدة السفلى،فيقال لها رهص[4] . والخط الواحد من الحائط ساف ، ويقال للصف الواحد من اللبن أيضاً ساف[5] . وإذا أقيم الآجر بعضه فوق بعض، فهو السميط[6] . ويقال للحائط حين يبلغ العقد أو التثقيف أو التقبيب ، ارتفع الحائط . ويقال للعقد : عقد الأزج وللبيت مغمى إذا سقف بالخشب ، وبيت مقبب إذا كان ذا قباب . أما إذا كان على هيأة السنام ، فيقال له بيت مسنم. والبرزخ الفرجة بين الأزَجَين في صهوة البيت ، والهدف ترس الأزج .

وتقوى الجدر بالأوتاد ، وذلك برز الوتد في الحائط عند البناء ، وقد عثر

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ظلل) .
٢ تاج العروس (٦٠/١) ، (خبأ) .
٣ بلوغ الارب (٣٨٩/٣) .
٤ « والدمص بالكسر : كل عرق من الحائط خلا العرق الاسفل فانه رهص » شرح القاموس (٣٩٦/٤) ، بلوغ الارب (٣٩٠/٣) .
٥ شرح القاموس (١٤٧/٦) .
٦ شرح القاموس (١٦١/٥) .

على أوتاد من الخشب مرزوزة في بقايا أبنية السبئيين والمعينيين وغيرهم لتقوية الجدر ، أو لاستعمالها لأغراض أخرى ، مثل تعليق أشياء عليها ، أو استعمالها بمثابة السلالم للتسلق إلى أعلى .

وفي الدار الصُفَّة ، وتسمى بحسب الجهة المتجهة اليها . ويقال صفة فراتية إذا كانت الشمس لا تقع فيها رأساً . و (المقنوءة) مكان ظلـه دائم ويكون بارد الهواء . والزاوية ملتقى الحائطين في البيت . والكوة الثقب في أعالي البيت . ويقال لهـا الشاروق . والمشكاة التي في الحائط . ويقال لها الأوقة ويقال بيت مأوَّق[1] .

ويقال للسطح الإجار والصهوة . وسقف البيت أعلاه الداخل . وأما سمكه ، فما كان بين قراره الى سقفه . والطّاية السطح . والـدرج المرتقى الى السطح إن كان من خشب دعي بـ (سلم) . وكل مرقاة عتبة . والفرغ الخلاء بين المرقاتين. والعلاوة هي أعلى الحائط الذي لا يغمى . والتفاريج والطنف آجر أو نحوه يجتح به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه . وهو الكثة والافريز . والهرادة من الخشب لأعالي الحيطان ، والنجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره[2] .

ويسقف البيت بالخشب ، يوضع عليه عُرضـاً ، ويسمى (العراص) ، ثم تلقى عليه أطراف الخشب الصغار[3] . وقد يطيَّن ، أو يجصّص ، أو يبنى فوقه ليمنع المطر من السقوط من خلال الخشب على البيت ، وحرّ أشعة الشمس من النفاذ اليه .

وكانت بيوت أزواج النبي من اللبن ، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين، وعلى أبوابها مسوح الشعر[4] . وهذه كانت صفة معظم بيوت أهل يثرب والمدينة، ما عدا بيوت الأثرياء ، فقد كانت من حجر وكلس ولها كل وسائل الترفيـه والراحة المتوفرة بالقياس الى ذلك الزمان .

واللبن جمع لبنة . وأما الذي يعمل اللبن ، فهو اللبان . والملبن الآلـة التي

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٩٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٩١) .
٣ البرقوقي (ص ١٣٧) .
٤ طبقات ابن سعد (١/٤٩٩ وما بعدها) .

يضرب بها . والسابل ، الأداة التي ينقل عليها . والسميقان والأسمقة خشبات يدخلن في السابل . والطوب هو الآجر ، والطباخ هو الذي يطبخ أتونه، والأطيمة: أتون الجرار والقصاع وأمثالها . والبلاط : الحجارة تفرش بها الأرض . ويقال أرض مبلطة ، إذا فرشت بالبلاط[1] .

وقد عرف بعض علماء اللغة اللبن بأنه المضروب من الطين مربعاً للبناء[2]، وتقابل لفظة (اللبنة) كلمة Libbatu في الأشورية ، و (لبيتو) و (لبنتو) في الإرمية[3] .

والطيّان ، الذي يعمل الطين ، ويطين الحائط أو السطح ، ويشتغل بالطين . والملاط ما رق من الطين . ونحوه السيّاع . ويقال للمالج الذي يمسح به وجه الحائط المسجّة والمسيعة . وأما الخيط الذي يقدر به البناء ، فيقال له (المطمر) . والشيّد والشص الجص . والجصّاصة موضع الجص . والملاّحة مجمد الملح . والجيار والكلّس الصاروج . والصاروج النورة وأخلاطها . والثلاجة مكبس الثلج[4] .

وتوضع في سطوح الدور ميازيب لتسيل منها مياه الأمطار إلى أسفل ، وتعرف بـ (المثاعب) ، وواحدها (مثعب) ، ويكون من خشب وغيره . ويسيل الماء إلى (البالوعة) ويقال لها (البلّوعة) كذلك[5] . ولفظة (مثزاب) و (مرزاب) من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، ولكنها من الألفاظ القديمة الداخلة إلى العربية[6] .

وموضع الطبخ في الدار هو المطبخ . وأما المخبز فهو موضع التنور . ويقال للتنور الوطيس والهيلم والمِسعر كذلك . والكرامة طبق التنور ، والمناقة حجره . وأما الساعور، فتنور صغير في الأرض[7] .

---

١ بلوغ الارب (٣٩١/٣) .
٢ شرح القاموس (٣٢٨/٩) .
٣ برصوم (ص ٢٦٩) .
٤ بلوغ الارب (٣٩١/٣) .
٥ بلوغ الارب (٣٩١/٣ وما بعدها) .
٦ المعرب (ص ٣٢٦) ، المغرب (ص ١٤) ، شرح القاموس (٢٦٩/٣) .
٧ بلوغ الارب (٣٩٢/٣) .

والسور هو حائط الحصن والمدن . وأما الربض ، فحائط حول السور . والشرف هو ما أشرف فوق الحائط ، ويتشرف الناس من ورائه[1] . ويعبر عن (السور) بـ (حل) Hel في العبرانية ، أي (حائل) ، وهو الحائط الذي يحيط بالمدينة[2]. وتطلق لفظة (حال) و (حويل) على الحائط ، وعلى الحدّ الذي يفصل بين ملكين ، لأنه حائل يحول بين الأملاك وبين الأشياء ، فلا تختلط ويمتزج بعضها ببعض[3] .

١ بلوغ الارب (٣/٣٩٢ وما بعدها) .
٢ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 233.
٣ تاج العروس (٧/٢٩٥) ، Rhodokanakis, Stud., II, S., 31.

الفصل السابع عشر بعد المئة

القصور والمحافد والاطام

وقد أورد علماء اللغة العربية ، جملة ألفاظ لها صلة بالمباني الضخمة وبالمباني العالية . منها : (قصر) والجمع (قصور) ، و (محفد) والجمع (محافد) و (أطم) ، و (مجدل) ، و (حصن) و (برج) وغير ذلك من ألفاظ لبعض منها صلة بالناحية الحربية ، لذلك أترك أمرها إلى ذلك الباب ، وسأقتصر هنا على الكلام على المباني الأخرى التي تخص الحياة الاجتماعية في الأكثر .

والقصر البيت الكبير الفاخر ، وتقابل لفظة (قصر) كلمة (قصرو) في لغة بني إرم[1] . وقد أطلقها علماء اللغة على البيوت الكبيرة لأهل الجاهلية في اليمن، فقالوا : (قصور اليمن) . واشتهر من بينها (قصر غمدان) و (قصر سلحين)، وقد أطلقها عرب العراق على حصونهم التي كانوا يتحصنون بها عند دنو خطر عليهم ، فكانت الحيرة مكونة من (قصور) ، أقامها أشرافها ، واتخذوها بيوتاً لهم ، وحماية لأموالهم ، وملجأ يلجأ اليه أتباعهم عند دنو الخطر ، للدفاع عن سادتهم وعن أموالهم ، يصعدون الى أعلى القصر ، فيرمون المهاجم بالحجارة والخزف والسهام والنار ، ويصبون عليه الماء الحار . ولما هاجمها (خالد بن الوليد) ، أخذ يحاصرها قصراً قصراً ، ويفتحها ، وبذلك سقطت المدينة، المؤلفة

---

[1] غرائب اللغة (٢٠١) .

من هذه القصور . ولا تزال اللفظة معروفة في العراق ، فيعرف حصن (الأخيضر) المشرف في البادية بـ (قصر الأخيضر) ، ويطلق على بعض قرى عـين التمر القصور ، لأنها كناية عن بيوت تحمى بـ (قصر) في الأصل[1] .

وتخزن في غرف الطابق الأرضي من القصر الميرة ، وما يحتاج اليه ، وكذلك الماشية ، أما الطابق الثاني ، أو ما بعده ، فيتخذ مسكناً ، لأهل القصر ، وقد تعمل به منافذ صغيرة ، ليرمي منها المدافعون المهاجمين بالسهام وبالحجارة ، لمنعه من الدنو من القصر ، ويدافع عنه من السطح كذلك .

والمحفد من الألفاظ الواردة في كتب اللغة ، وجمعها (محافد) . وتعني في العربية الجنوبية القلعة والحصن ، أي المكان الحصين المنيع الذي يتحصن فيه الجنود للدفاع[2] . وتعرف بـ (محفدن) في العربية الجنوبية ، أي (المحفد) .

وترد لفظة (صحفت) مع (محفد) . وأما (صحفت) ، فقد فسرت بمعنى المجاز أو الطريق أو الممر أو الخندق . وهي في معنى لفظة (ضخف) التي تعني الحفر ، ومنها (مضخفة) التي تعني المسحاة[3] . ويكون الخندق حول المحفد ، يحميه من غارات الأعداء ، فيحول بينهم والوصول إلى سوره . وتؤدي لفظة (صحفت) معنى ممر في داخل الحصن يربط بين السور وداخل الحصن[4] .

والمجدل ، هو القصر المشرف[5] . فهو نوع من أنواع الأبنية الضخمة . وهو الحصن في داخل المدن عند العبرانيين ، ويقابل لفظة Castellum في اللاتينيـة[6] . وقد وردت لفظة (مجدل) و (مجادل) أي في صيغة الجمع في النصوص اللحيانية بمعنى البرج والحصن[7] .

وأما الأطم فالحصن والجمع آطام . وهي القصور والحصون. وقال (الأصمعي)

---

١ راجع الجزء الثالث من تاريخ الطبري ، في فتوح العراق ، وكذلك فتوح البلدان للبلاذري .

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S., 61.

٤ المصدر نفسه .

٥ شمس العلوم (حـ١ ق٢ ص ٣٠٦) .

٦ Roland de Vaux, Ancient Israel, London, 1961, p. 235.

٧ راجع النص ٢٦ في كتاب : W. Caskel, S. 88.

الآطام الدور المسطحة السقوف ، موشاة أي منقوشة [1] . وهي معروفة عند أهل (المدينة) . وقد تحارب الأوس والخزرج عندها ، فأرخوا بهذا اليوم . وكانت الأوس والخزرج تتمنع بها ، فأخربت في أيام (عثمان) [2] .

وتقوّى الحصون بسكك الحديد أحياناً ، وبكل وسائل التقوية والإسناد، لتتمكن من الصمود أمام العدو ، ومن تحمل ضربات الآلات التي تستخدم للهدم . ويعبر عن التقوية هذه بلفظة (سكم) ، أي (سك) [3] .

وقد فسر بعض علماء العربيات الجنوبية لفظة (صرحت) (صرحة) (صرحس) التي ترد في كثير من الكتابات المتعلقة بأعمال البناء ، بالطبقة الثانية من البناء أو أعلى كل بناء [4] . وفي كتب اللغة : (الصرح : بيت واحد يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء) ، وقيل (القصر) أو كل بناء عالٍ مرتفع . وفي التنزيل: إنه صرح ممرد من قوارير ، والجمع صروح . وقال بعض المفسرين : الصرح بلاط اتخذ لبلقيس من قوارير [5] .

وترد لفظة (صرحت) بهذا الشكل في بعض الكتابات ، كما ترد بغير تاء ، أي (صرح) . وقد وردت على هذه الصورة : (صرحس) في بعض الكتابات المعينية ، كما وردت على هذا الشكل : (صرحسن) أي (الصرح) .

والغالب بين علماء اللغة أن الصرح البيت العالي ، وقد قيّد بعضهم ذلك بالبيت العالي المزوق [6] . وحيث ان البيوت المرتفعة العالية هي في اليمن وفي مواضع من العربية الجنوبية الأخرى في الغالب ، ونظراً لورود اللفظة في كتابات العرب الجنوبيين، فإننا نستطيع أن نقول باحتمال أخذ الحجازيين لفظة (الصرح) و (صرح) من العرب الجنوبيين .

---

١ الاغاني (١/١٤) ، « طبعة ساسي » ، شمس العلوم (حـ١ ق١ ص ٨٥) .

٢ التنبيه والاشراف (ص ١٧٦) .

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 46.

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 29, 32, f., Glaser 1089, 1660, Halevy 208, Glaser 1144, Halevy 353, Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 446.

٥ شرح القاموس (٢/١٧٩) . « الصرح : بيت عال مزوق » ، المفردات (٢٨٠) .

٦ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٢٨٠) .

الأعمدة والاسطوانات :

ومن الرخام أقيمت أعمدة جميلة كسيت تيجانها بالنقوش وبالزخرف الأخاذ . وقد تمكن المعماريون من وضع الصخور بعضها فوق بعض وضعاً فنياً في غاية الدقة جعلتها تظهر وكأنها قطعة واحدة . فقد صقلوا الصخور صقلاً تاماً بدقة وعناية، وجعلوا نهايتها متطابقة تماماً . فإذا جلست بعضهـا فوق بعض ، انطبقت على بعضها ، وبدت وكأنها قطعة واحدة يصعب التمييز بين مواضع انطباقها . وقد نقروا أحياناً في أواسط الرخام نُقراً عميقة ، ثبّتوا في داخلها أوتاداً من الرصاص أو الحديد ، لتربط بين قطع الرخام ، ولتكون لها سنـداً وقوة ، فلا تسقط . وقد وجدت مثل هذه الأوتاد بين الصخور المكونـة لسد مأرب[1] ، وكذلك في قصر (غمدان)[2] .

وأقيمت الأعمدة على قواعد تحمل الصخور الثقيلة المؤلفة منها تربط بينها أوتاد مربعة في الغالب ، وتكون القواعد أكبر حجماً من العمود ليستقر ثقل الأعمدة عليها ، ولتكون أثبت على سطح الأرض . وتقوى هذه القواعد بصب الرصاص عليها . وقد وجد ان المعماري العربي الجنوبي تعمـد في جعل الجدران المرتفعة ميّالة إلى الجدار الداخلي كلما ارتفع البناء ، بمعنى انه يجعل الجدران الخارجية أقرب إلى واجهة الجدران الداخلية في أعالي البناء من القواعد ، فتكون المسافة عندئذ بين الجدارين عند السقف أقرب وأقصر منها عند القاعدة[3] . ويظهر انـه تعمد ذلك لأغراض هندسية واقتصادية ، تستدعيها المحافظة على الحجارة من عبث الطبيعة بها وتقوية لها ، وتخفيفاً عنها ، واقتصاداً في مواد البناء .

وأقيمت بعض الأعمدة على أرض البناء رأساً من دون قاعدة بارزة يرتكز عليها بمعنى ان المعمار لم يجعل قاعدة العمود أوسع وأعرض من هيكل المجموع ، فيظهر العمود وكأنه قد نبت من الأرض .

وقد عثر المنقبون على أنواع متعـددة من الأعمدة ، تيجان بعضها مربعة أو

---

١ Glaser, Reise, S. 60, Hand. der Alt., I, S. 146.

٢ D.H. Müller, Burgen und schlösser, I, S. 345.

٣ Hand-der altar. alter., I, S. 146.

ذات زوايا مستقيمة . منها ما هو بسيط بدون زخرفة ولا نقوش ، ومنها ما هو مزخرف أو عليه بعض النقوش أو بعض الحروف أو الكتابات . ومن جملة الزخرف الذي زين تيجان الأعمدة زخرف يمثل زهرة الزنبق وأنواعاً أخرى من الزهور[١] .

وتمثل الأعمدة المربعة الشكل أو المستطيلة والخالية من الزخرف أقدم أنواع الأعمدة بالنسبة للفن المعماري العربي الجنوبي . ونجد نماذج منها في خرائب معبد (قرنو) عاصمة معين . وفي (صرواح) (الخريبة) وفي (مأرب) (حرم بلقيس) (محرم بلقيس)[٢] وقد اقتطع المعمار هذه الأعمدة من الصخور ، كتلاً كتلاً ، ثم أمر بصقلها وتشذيبها حتى حوّلها الى قطع أكسبها شكلاً هندسياً ، قواعدها مربعة أو مستطيلة ، وضعها بعضها فوق بعض الى الارتفاع المقصود ، مكوناً منها اسطوانة تحمل البناء .
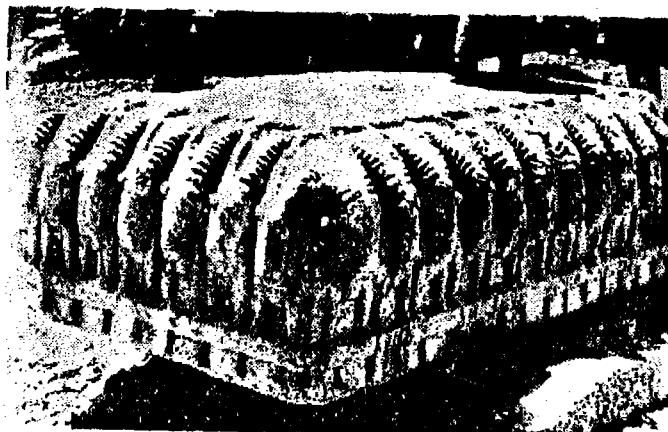
ونرى في هذه الصورة تاج أحد الأعمدة،وقد زخرف بحيث ظهر وكأنه كتلة من رؤوس خرفان أوحيوانات لها قرنان كالوعل وقد أبدع الفنان في حفره حتى ظهر الحجر، كأنه مجموعة حيوانات وقفت بعضها الى جانب بعض ، وزخرفت قاعدة الحجر، كما ترى في الصورة ويظن بعضهم أنه رمز الإلـه القمر .

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٢٤)

---

١ Hand. der altar. alter., I, S. 147, Deutsche Aksum Expedition, II, S. 143. ff.

٢ A. Grohmann, S., 209.

وقد أبدع الفنان في الحفر ، وأجاد في الزخرفة وفي اتقان عمله ، وأعطى عمله روعة ، فترى الحفر على مستوى واحد ، وقد عمل بدقة ومهارة . واتقان العمل والإبداع في الفن من المزايا التي امتاز بها أهل العربية الجنوبية حتى اليوم .

وهناك أنواع من الأعمدة تتكون من ثمانية أضلاع ، وأنواع أخرى تتكون من ستة عشر ضلعاً ، عثر عليها في مدينة (تلقم) ، وتتكون تيجانها من ست درجات : ثلاث منها على هيئة نصف اسطوانة : بطونها الى الخارج وقاعدتها العمود ، وثلاث على هيأة صفائح مستطيلة ذات ستة عشر ضلعاً . وقد نحتت هذه التيجان ورتبت على هذا الشكل : الدرجة السفلى مكونة من مستطيل ذي ستة عشر ضلعاً ، وفوقه درجة على هيئة نصف أسطوانة يليها مستطيل ذو ستة عشر ضلعاً ، وهكذا الى أن ينتهي التاج بالدرجة السادسة للتاج[1] .

وقد عثر على نماذج من الأعمدة المثمنة الأضلاع في معبد (صرواح) بـ (أرحب) ، وفي (حقه) وفي (العرين) وفي (بيت غفر) وفي (سوق النعم) وفي (شبام كوكبان) وفي (مأرب) ، وفي مواضع أخرى . ويرجع عهد هذا النوع إلى ما قبل الميلاد ، ويمتد إلى ما بعده . ويرى بعض الباحثين ان أكثر هذه الأعمدة قد ظهر في فترة من الزمن تقع فيما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني من بعد الميلاد[2] .

وقد رأى (كلاسر) Glaser عموداً مثمناً ذا تاج (كورنثي) في مسجد (منقط) بالقرب من (بريم) ، يرى الباحثون انه من صنع عامل يوناني . وهم يرون ان أصله من مدينة (ظفار) التي لا تبعد كثيراً عن هذا المكان ، جيء به من هناك إلى هذا المسجد . وقد كانت (ظفار) مركزاً خطيراً وعاصمة لحمير ، وفيها أسس (ثيوفيلوس) كنيسة حوالي سنة (٣٥٤) للميلاد . وصارت هذه المدينة مركزاً لأسقفية تشرف على نجران وهرمز وسقطرى . وقد عثر في هذا المسجد على قطع أخرى أثرية ، عليها آثار الصلبان وكتابات حبشية وآثار أخرى تشير إلى أصل نصراني ، يظهر انها من أيام استيلاء الحبشة على اليمن ، وانها ترجع إلى ما بين سنة (٥٢٥) و (٥٧٠) للميلاد . وفي خلال هذه المدة كان

---

١ Hand. der altar. alter., I, S. 148.

٢ A. Grohmann, S. 210.

احتلال الحبشة للعربية الجنوبية [1] .

ولا استبعد أن يكون من بين هذه الأعمدة التي تحت الصليب فوقها ، أعمدة جاهلية أخذت من المعابد الوثنية ، ثم حفر الصليب عليها ، لتتناسب مع الطقوس النصرانية . أو أنها كانت معابد وثنية قديمة ، فلما استولى الحبش على اليمن ، أو عند اعتناق أهل تلك المواضع للنصرانية حوّلوا تلك المعابد الى كنائس وأحدثوا فيها بعض التكييف والتغيير لتكون في وضع يناسب الكنيسة ، فكان في جملة ما أدخلوه عليها حفر الصلبان على أعمدة تلك المعابد .

وتظهر الأعمدة المكونة من ستة عشر ضلعاً ، وكأنها اسطوانة ، أي عموداً ذا شكل دائري . لأن الأضلاع صارت ضيقة متقاربة أعطت العمود شكل اسطوانة. وقد عثر على نماذج من هذه الأعمدة في مدينة (تلقم) وفي معبد (صرواح) بأرحب ، وفي (صرواح) (الخربية) وفي (القراس) ، وفي جامع المتوكلية بصنعاء [2] .

ويرى بعض الباحثين أن الأسطوانات ، أي الأعمدة المدوّرة ذات الشكل الاسطواني التام ، قد ظهرت بعد الأعمدة المذكورة ، وأنها ترجع الى الأزمنة المتأخرة لذلك من تأريخ اليمن [3] .

ومن العربية الجنوبية انتقلت هذه الأعمدة إلى بلاد الحبشة ، حيث نجدها في معابد الحبشة القديمة . وقد أخذ أهل تلك البلاد هذا النوع من الأعمدة في جملة ما أخذوه من حضارة أهل العربية الجنوبية [4] . وقد رأينا ان أهل سبأ كانوا قد أقاموا حكومة لهم في إفريقية ، وقد ترك أهل العربية الجنوبية ، ولا سيما أهل سبأ منهم ، آثاراً في اليمن في مختلف النواحي ، ما تزال ظاهرة للعيان .

وقد استعملت الأعمدة المصنوعة من الخشب لحمل السقوف ، ولا سيما في البيوت.

---

١ Philostorgios, Historia Ecclesiastica, III, 4, Handb. der altar. alter., I, S. 148.

٢ A. Grohmann, S., 210, Rathjens un Van Wissmann, Vorislamische Altertümer, 132, 133, Glaser, Geographische forshungen in Jemen, 1882, 73.

٣ A. Grohmann, S., 210.

٤ Deutsche Aksum — Expedition, II, S. 101. f, 154, ff, Hand. der altar. alter., I, S. 148.

وتوجت هذه الأعمدة بتيجان في الغالب ، جعلت على هيآت وأشكـــال مختلفة . ولا يزال الناس يستعملون هذه الأعمدة في بناء البيوت .

وقد نوّع المعمار هندسة تيجان الأعمدة والأساطين، بأن جعلها أشكالاً وأنماطاً ، راعى وحرص على أن يجعلها تتناسب مع شكل العمود الذي سيوضع التاج فوقه، أو الاسطوانة التي سيوضع عليها . وقد مرّ هذا التنويع في أدوار وأطوار ، كما مرت صناعة الأعمدة والأساطين بهذه الأدوار كذلك . لقــد كان التاج في بادىء أمره جزءاً أساسياً من أجزاء العمود ، أي قطعة منه . هي القطعـــة الأخيرة من قطع العمود . وعلى هذا الجزء أقام قواعد السقف من غير أن يميزه عن الأجزاء الباقية من أجزاء العمود بأي شيء . ثم بدا له أن يجعل للقطعة الأخيرة حافة عليا بارزة ، وأن يجعل أعلاها أوسع من أسفلها الذي هو قاعدة التاج التي ترتكز على بقية أجزاء العمود . وذلك لأسباب فنّية تتعلق بالبناء وبعقد عقود سقوف المعابد. ثم أخذ يجعل التاج قطعة حجر تكون أوسع مساحة من مساحة القطعة من العمود الذي سيوضع فوقها ، أي أوسع من مساحة العمود نفسه ، وصار يزخرفه ويتفنن في زخرفته،حتى ظهرت عنده جملة تيجان أقيمت عليها سقوف المعابد والقصور .

وقد عثر على تيجان بسيطة هي عبارة عن حجر وضع فوق العمود ، ولكي يربط هذا التاج بالعمود ربطاً محكماً ، ويجلس فوقه جلوساً تاماً هندسياً ، فقد ربط بالعمود بوتد يقوم مقام المسمار في ربط أجزاء الخشب بعضها ببعض، يدخل في التاج وفي العمود ليربط بينهما ويجعلهما وكأنهما قطعة واحدة من حجر . وقد توضع بين التاج والعمود مادة بنائية لتشد بين الحجرين وتمسك بينهما ، فضلاً عن (المسمار) الذي يدخل في الثقب الموجود في الحجرين،إن كان ذلك (المسمار) متحركاً أي متنقلاً ، أو في الثقب المحفور في الحجر المقابـــل ، إن كان ذلك (المسمار) أو الوتد ثابتاً وقد نحت في أحد الحجرين حتى صار مرتفعاً كقطب الرحي،ليدخل في التجويف المعمول في الحجر الثاني المقابل وبذلك يتّماسك الحجران.

وقد وجد (كلاسر) تاج عمود ، ظهر أنه كان مؤلفاً من حجرين ، حجر مربع الشكل أطرافه قائمة الزوايا ، وأضلاعه الخارجية عدلة ، ثم حجر آخر أقيم تحته ، أي فوق العمود ، أطرافه الخارجية منحوتة نحتاً جعل الأطراف مائلة نحو العمود ، أي الى الجهة السفلى[1] . وربما كان هذا النوع من التيجـــان مرحلة من

---

[1] A. Grohmann, S., 210.

مراحل تكبير التاج وتطويله بجعله يتألف من جملة طبقات . كما عثر على تيجان جعلت جملة طبقات ، طبقة مصقولة ملساء ، وطبقة منحوتة ومزخرفة زخرفة هندسية أو بأشكال أخرى حسب ذوق المهندس المعمار الذي وضع تصميم المكان .

عثر على نماذج أخرى عديدة من التيجان ، تفنن في نحتها وفي تكوينها المعمار. وتمثل بعض منها شخصية ذلك المعمار تمام التمثيل . فهي مستقلة تمثل طابع العمارة العربية الجنوبية . ولكننا نجد بعض التيجان وكأنها تقليد ومحاكاة لتيجان أجنبية . فبينها تيجان تشبه تيجان أعمدة بعض معابد مصر التي تعود إلى ما قبل الميلاد ، ونجد بعضاً وكأنه محاكاة لتيجان يونانية أو رومانية أو فارسية أو حبشية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان عدداً من تيجان الأعمدة الموجودة اليوم في بعض دور الحكومة بصنعاء،أو في المساجد أو في بعض البيوت هي من أيام الاحتلال الحبشي أو الساساني لليمن . ولا يستبعد أن يكون من بينها تيجان وأعمدة أخذت من كنيسة (القليس)[1] .

ولما كانت العربية الجنوبية على اتصال بالعالم الخارجي ، منذ عصور ما قبل الميلاد،وقد شهدت فتوحاً أجنبية ، كما كانت لها صلات تجارية مع الروم والإفريقيين والهنود والفرس ، فلا يستبعد استخدام العرب الجنوبيين للأعاجم في أعمال البناء، وتأثرهم بالأساليب المعمارية الاجنبية ، ولا سيما في أثناء الفتح الحبشي لليمن ، فقد ذكر أهل الأخبار أن الحبش استعانوا بفعلة من الروم في بناء (القليس) ، كما أن الروم كانوا قد شيدوا كنائس في عدن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب، وقد بنيت هذه الكنائس وفقاً لأسلوب الفن البيزنطي النصراني ولا شك . وقد كان بين الفرس من يحسن البناء ويتقنه ، كما كان لأهل العربية الجنوبية اتصال بالفرس قبل هذا الفتح ، وكانت فيها جاليات منهم ولا سيما في الأقسام الجنوبية الشرقية ، فأثروا بذلك في طراز البناء .

وما قلته من تفنن المعمار العربي الجنوبي في تنويع الأعمدة وتيجانها ينطبق أيضاً على القواعد التي أقيمت الأعمدة عليها . فبعد أن كانت قاعدة العمود أو الاسطوانة بسيطة ، لا تمتاز عن العمود بأي شيء ، بل كانت قطعة واحدة منه ، ليست لها عن بقية الأقسام أية ميزة ، رأى المعمار تمييزها عن بقية الأقسام ، فجعلها أوسع

---

١ A. Grohmann, S. 218, Sabaeica, I, 119. ff.

من العمود ، وأعطاها أشكالاً هندسية وزخرفية ميزتها عن العمود وعن تاجه . فنجد قواعد أعمدة على شكل مربع أو على شكل مستطيل أو على شكل دائري . ثم نجدها بسيطة تماماً ، ونجدها مزخرفة ومزوقة . ونجدها وقد نحتت على شكل تظهر وكأنها من طبقات مختلفة .

وعلى هذه الأعمدة والتيجان والاسطوانات أقيمت سقوف المعابد والقصور وبيوت السادات عقدت عقداً على نحو ما نراه في الوقت الحاضر من بناء المساجد وبعض الأسواق القديمة والأبنية الأثرية . ولا يستبعد استعمال أهل اليمن للقباب في معابدهم وفي قصورهم ، فمادة البناء متوفرة عندهم ، والإمكانيات الفنية موجودة عند المعمار العربي الجنوبي . عقدت على عقود وأقواس ينتهي مركز ثقلها بتيجان الأعمدة أو برؤوس الأعمدة على طريقة بنائهم للمساجد في هذه الأيام .

ولم تجر حتى الآن حفريات علمية واسعة في اليمن وفي بقية أنحاء العربية الجنوبية ، كما أن دراسات المتخصصين الضليعين بعلوم العربيات الجنوبية قليلة ، ولهذا كان علمنا بالآثار العربية الجنوبية ضحلاً لا يعين على تكوين رأي علمي واضح صحيح في آثار تلك الأرضين وفي صلة الحضارة العربية الجنوبية بغيرها من الحضارات .

لقد وضع (كلاسر) مخططات تقريبية لبعض المعابد والأبنية القديمة في اليمن ، مثل معبد صرواح ومعبد (محرم بلقيس) حرم بلقيس ، وهو معبد إله سبأ الرئيس (المقه) وأماكن أخرى ، كما وضع غيره مخططات أخرى . ولكن هذه الدراسات تقريبية وغير كاملة . ولا بد من وقت للبحث في هندسة هذه الأماكن بحثاً علمياً دقيقاً . ومثل هذه البحوث لا تقوم إلا بحفريات عميقة منتظمة. توصلنا إلى أسس تلك الأبنية وما طمر في الأرض من آثار تتعلق بتلك الأماكن .

وقد تمكن المنقبون في هذا اليوم من تثبيت معالم بعض المعابد ولا سيا معبد (المقه) بمأرب ، حيث شخصوا بعض معالمه ، إلا أن تحديده بصورة مضبوطة واضحة ، وتعيين مواضع العبادة فيه ، تحتاج الى دراسات أثرية واسعة وبمقياس كبير . فقد أمكن مثلاً تنظيف بعض مواضع معبد (اوم) (اوام) بمدينة (مأرب) من الأتربة ، لتظهر معالمه ، وأمكن بذلك من الحصول على معلومات أثرية لا بأس بها عنه ، غير أن معارفنا عنه لا تزال قليلة ، لأن البحث العلمي لم يتم على هذا المعبد حتى الآن . وترى في الصورة بقايا الأعمدة التي كانت تحمل

سقوف المعبد ، كما تشاهد بعض بقايا جداره ، وهو من المعابد المهمة التي كانت في (مأرب) .
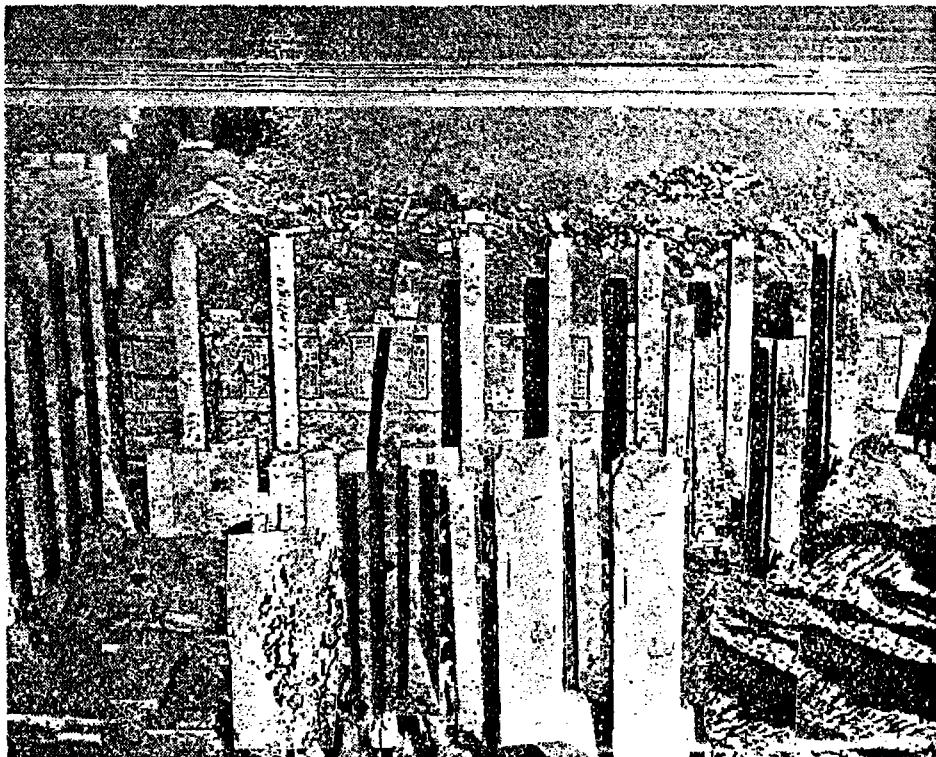
معبد أوام بمدينة مارب
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٢٥٧)

وقد نسي اسم هذا المعبد القديم ، الذي كان يسميه السبئيون معبد (اوم) (أوّام) . وكانوا يتقربون اليه بالهدايا والنذور ، تقدم باسم رب هذا المعبد : (بعل اوم) . وهو (المقه) إلّه سبأ الأكبر ، إلّه القبيلة القديم. وهو القمر. ويسمى معبده في هذا اليوم بـ (حرم بلقيس) وبـ (محرم بلقيس) ، ويقع على مسافة ميلين تقريباً من قرية (مأرب) الحديثة . وتقع معظم ساحة المعبد وجدره وأبنيته تحت الرمال . وما لم ترفع هذه الكثبان الرملية عنه ، فإنه من المستحيل التحدث عنه حديثاً علمياً . وقد سرق الناس أحجار السقوف وأعالي جدار المعبد ، لاستعمالها في البناء ، ولما زار (كلاسر) المعبد ووصفه ، رأى سقف

المعبد ، أي البيت الذي يتعبد فيه ، وكذلك أعالي سوره ، وكانت زيارته لـــه سنة (١٨٨٨ م) ، ولا نجد اليوم من آثار السقف وأعالي الجدران شيئاً ، بسبب سرقة الأحجـــار ، ولولا الرمال التي غطت الأرض والجدران وساحة المعبد ، وحفظت في باطنها أحجارها وبعض الأعمدة الضخمة التي صعب على الناس قلعها، لما تبقى من حجارة هذا المعبد شيئاً .

جانب من معبد ــ أوام ــ وترى أبوابا ونوافذ لقاعة من قاعات هذا المعبد .
ويظن أنها ليست من أصل المعبد بل أضيفت اليه .
من كتاب
Qataban and Sheba
(ص ٢٧٢)

وقد بني هذا المعبد في أيام (المكربين) ، وقد وجدت فيه كتابة تعود الى أيام المكرب (يدع ايل ذرح بن سمهعلي) مكرب سبأ . ويرى (البرايت) أنه حكم في منتصف القرن السابع قبل الميلاد . وربما كان هذا المكرب قد جدد بناء هذا المعبد الذي أقامه مكربون سبقوه في الحكم[1] .

وتجد في هذه الصورة بقايا جدار معبد (اوم) ، وبقايا نوافذ حجرية ، وقد تخللتها ثقوب لدخول الهواء والنور منها ، وقد نقشت وزخرفت . وقد جدد ورمم بناء المعبد مراراً ، وأضيفت عليه جملة زيادات ، كما يتبين ذلك من الكتابات التي عثر عليها المنقبون داخل المعبد،وقد دوّنت لمناسبات التجديد وادخال الإضافات، ثم من طراز الهندسة الذي نراه في البناء ومن تنوع الأحجار ومادة البناء .

وهذه صورة أخرى ، أخذت أثناء قيام بعثة (وندل فيلبس) بأعمال الحفر في معبد (اوام) وترى الأعمدة قائمة ، والعمال يشتغلون في إزاحة الأتربة التي طمرت ذلك المعبد القديم .

من كتاب : Qataban and Sheba (ص ٢٥٦)

---

١ راجع الصفحة (٢١٥ وما بعدها) من كتاب :
Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, by John Hopkins Press.
للوقوف على وصف هذا المعبد .

وهذه صورة أخرى لمعبد (اوم) (اوام) ، في أثنـــاء قيام بعثة (وندل فيلبس) بالحفر فيه .
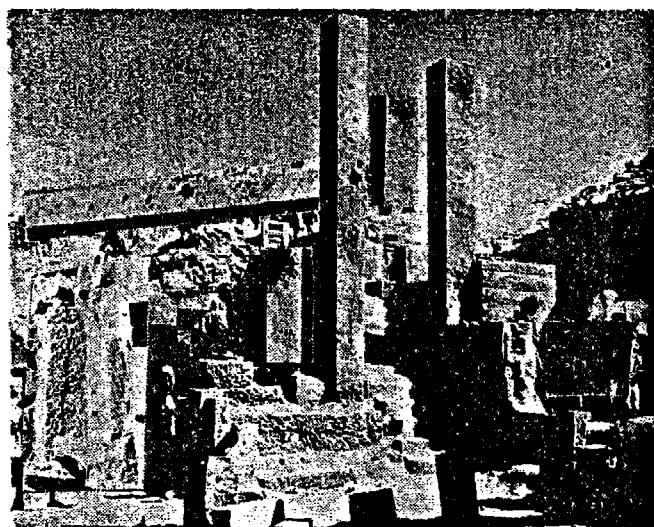
ونرى في هذه الصورة أعمال الحفر لبعثة (وندل فيلبس) وهي تجري في معبد (عثّر) بمدينة (تمنع) عاصمة قتبان. ويعود عهده الى القرن الأول قبل الميلاد .

وتوجد في خرائب (مأرب) آثار معبد آخر خصص لعبادة (المقه) كذلك ، هو معبد (برن) (بران) . ويعرف موضعه بـ (العمايد) عند أهل مأرب الحاليين . وذلك لوجود أعمدة من أعمدته القديمة ظاهرة على سطح الأرض . ولم يقم العلماء بالتنقيب عن هذا المعبد المهم[1] .
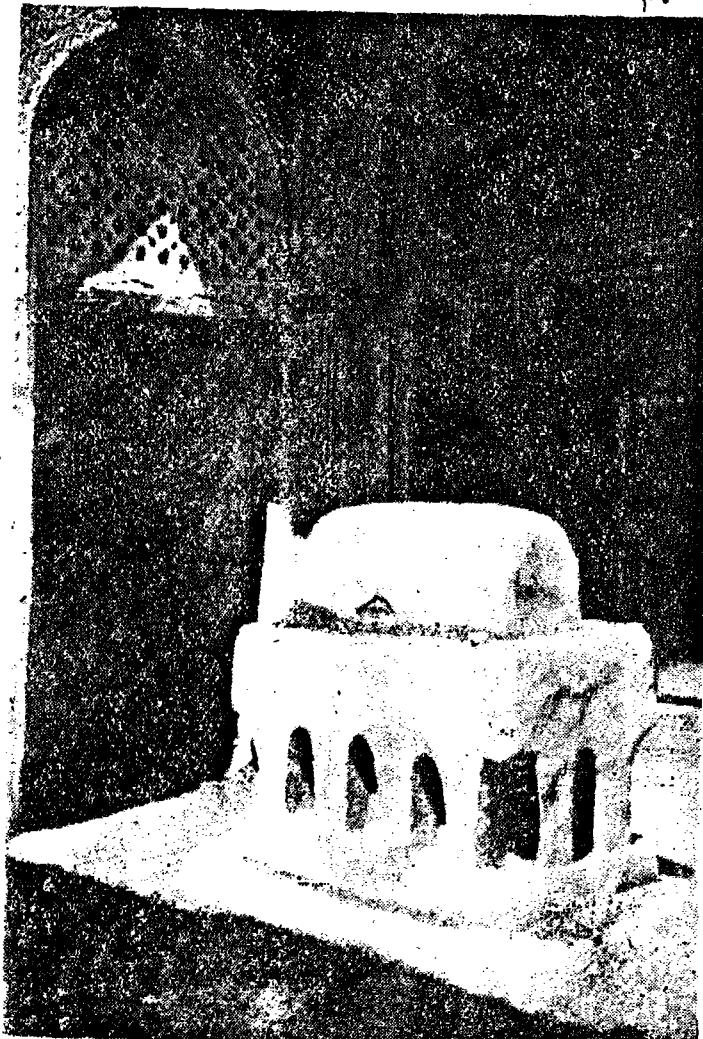
ضريح أحد الائمة في مسجد الاشرفية بمدينة تعز
من كتاب : Günther Pawelke Jemen, (ص ٦٤)

وقد بقيت في العربية الجنوبية بقية من أصول الهندسة المعمارية الجاهلية ، تظهر معالمها في المباني الضخمة التي تكون بيوت الحكام والأسر الغنية ، والتي تضم في الغالب أحجاراً قديمة مكتوبة وغير مكتوبة ، وتراثاً قديماً موروثاً ورثه المعمارون من عرب ما قبل الإسلام . وترى في الصورة نموذجاً من الريازة القديمة المتمثلة في مسجد (الأشرفية) بمدينة تعز ، وهي ريازة أخذت من الفن الجاهلي . وترى الضريح ، وقد أقيم

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia, pp. 238, A. Jamme, inscriptions de Al Amyid a Mareb, in Le Muséon, LXVIII, (1955), pp. 317, Jamme 534.

على طراز عربي قديم، لا يشبه الأضرحة التي توجد في البلدان العربية الأخرى، لاستمداده هندسته من هندسة الأضرحة القديمة في العربية الجنوبية .

ونرى في هذه الصورة المأخوذة لجامع (الجندية) فناً ، يختلف عن فن بناء المساجد في العراق أو في بلاد الشأم ، فلعقود هذا الجامع ولأعمدته واسطواناته صلة بالأبنية العربية الجنوبية القديمة . وأنت إذا دققت في هذه الصورة ترى طراز بناء القسم الأيمن منها يختلف عن طراز بناء الجزء الأيسر منها،ومع ذلك فإن للطرازين صلة بالفن العربي الجنوبي . وترى سطح السقف ، وقد زين بأفاريز لها صلة بالأفاريز التي كان يعملها العرب الجنوبيون على مثل هذه المواضع من أسوار مدنهم ، وأبنيتهم الضخمة من دور وقصور .
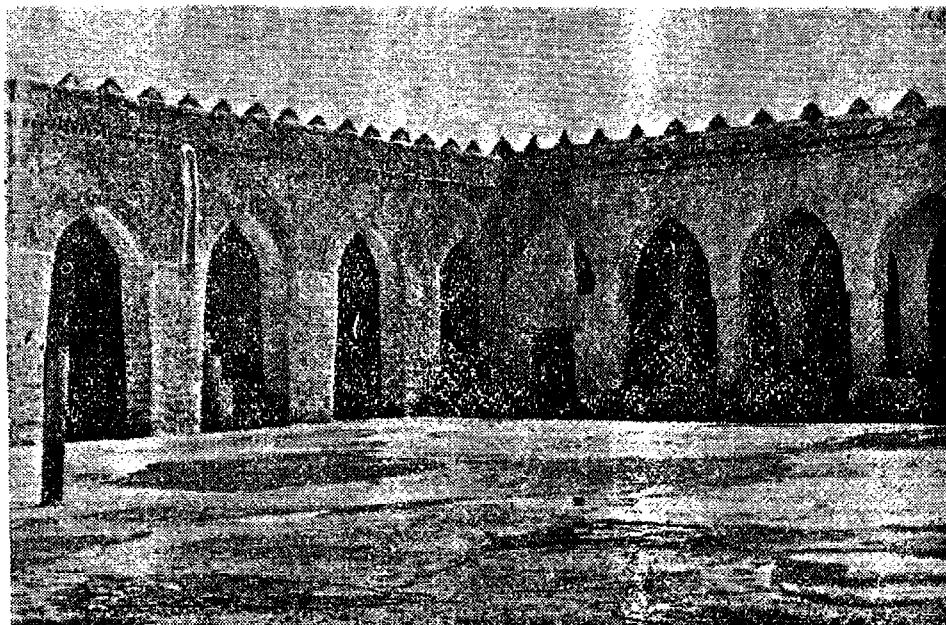
جامع الجندية

من كتاب : (Jamen, das Verbotene land)

لمؤلفه Gûnther Pawelke (ص ٩٦)

ونرى في الصورة التالية التي هي صورة مسجد بمدينة (تعز) ، فناً ، له جذور وأصول قديمة ، استمد روحه من الفن العربي الجنوبي الذي يعود إلى

أيام ما قبل الاسلام . وهو فن له استقلال في الشخصية ، ومزايا تميزه عن الفن في المواضع الأخرى من جزيرة العرب. ونرى بعض قباب مساجد اليمن لها شخصية مستقلة ، ترشدنا إلى انها من أصل ذلك الفن اليماني العريق في القدم .
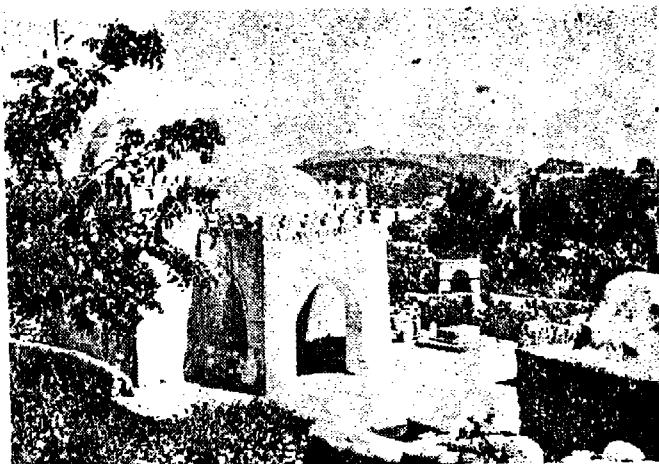
مسجد في تعز

من كتاب (Jamen, das Verbotene land)

لمؤلفه Günther Pawelke (ص٤٨)

وعندي إن من الواجب في هذا اليوم دراسة الفن المعماري القائم حالياً في العربية الجنوبية ، المتجلي في الأبنية القائمة الباقية التي لها طابع عربي جنوبي خاص ، من قصور ودور ومساجد وأضرحة ، ودراسة فن الزخرفة المتمثلة في النقش على الحجر ، من زخرف قديم وزخرفة حديثة ، ودراسة الأعمال الفنية السائدة اليوم، مثل النجارة والحفر والنقش والرسم وما شاكل ذلك،لأن مثل هذه الدراسة تساعدنا كثيراً في الوقوف على الفن العربي الجنوبي .

وقد أبدع أهل العربية الجنوبية في فن الزخرفة . و (الزُخرف) في تفسير علماء العربية الذهب في الأصل ، ثم سميت كل زينة زخرفاً ، ثم شبه كل مموه مزوّر به . وفي حديث يوم الفتح أنه لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحّي وأمر بالأصنام فكسرت . الزخرف هنا نقوش وتصاوير[1] . ومن النقوش التي عثر

---

١ تاج العروس (٦/١٢٦) ، (زخرف) .

عليها في العربية الجنوبية نقوش حيوانات وأشجار وصور بشر حفرت على الأحجار أو المعادن أو الأخشاب ، وعلى ألواح من الجبس ، استعملت في أغراض مختلفة للزينة . ومنها أحجار منقوشة ، نقشت عليهـــا عناقيد عنب وأغصان وأوراق ، وما شاكل ذلك . وجد علماء الآثار أن بعضاً منها يعود عهده الى القـــرون الأولى من الميلاد[1] .

وإذا كانت المعابد شاهداً على الفن وعلى التفكير الديني لقوم مـــن الأقوام ، فإن المقابر هي شاهد كذلك على وجهة نظر القوم الى العالم الآخر ، عـالم ما بعد الحياة . فما في القبر من أدوات وأشربة وطعام وآنية ، أو من بساطة وسذاجة ، تشير الى تفكير القوم في شكل الحيـــاة الآخرة وفي كيفيتها وفي درجة تعلقهم وتمسكهم بالآلهة وبالدين .

وخير مثال على ذلك ، أهرامُ مصر وآثارها ، فإنها آثار قبورية ، تمثل مبلغ تغلغل الدين في نفوس الحاكمين وفي الشعب ، ووجهة نظرهم الى عالم ما بعـــد الحياة . لقد أنفق الحاكمون على قبورهم أكثر مما أنفقوه على قصورهم في الدنيا . إن بهم — بعد الموت — حاجةً الى كل ما يحتاج اليه الإنسان في الحياة . ولهـذا ادخروه في هذه المقابر ، ليستفيد منها الميت بعد انتقاله الى العالم الآخر ورجوع الحياة اليه . أما العربي ، فلم يهتم بقبره اهتمام المصري به ، فلم يترك (المكربون) ولا الملوك ولا الأمراء ما تركه الفراعنة والكهان والأمراء في قبـورهم ، لا كله ولا بعضه . إنه لم يكن يحفل بالحياة الآخرة احتفال أهل مصر بها ، لذلك نجد قبره ساذجاً ، ثم هو لم يدخل فيه طعاماً ولا شراباً ولا أثاثاً ، ولم يدخل فيـــه كذلك خدماً وحشماً من بقايا الحاشية المسكينة التي أدخلت الى القبر قسراً لتخدم سيدها في العالم الآخر ، كما خدمته في العالم الأول .

وقد يقال إن لفقر بلاد العرب دخلاً في ذلك ، ولكن ما بال أهل اليمن ، وقد كانوا في سعة وخير ، لا يفعلون في قبورهم بعض ما فعله أهـــل مصر . وما بال قبور ملوكهم ساذجة ، لا تحوي ذهباً ولا حجارة كريمـــة ولا تصاوير وتماثيل وتوابيت وجثثاً للضحايا التي تدفن مع الميت ؟ إن ذلك ، إن دلّ عـــلى شيء ، فإنما يدل على اختلاف في وجهة نظر القوم عن وجهه نظر المصريين مثلاً

---

[1] Beiträge, S. 18.

عن الحياة الآخرة . ونحن لا نتكهن في الزمن الحاضر عن وجهة نظرهم في ذلك الزمن ، لعدم وجود كتابات جاهلية أو آثار تتحدث عن تلك الحياة .

وإذا قلنا إن تلك القبور كانت ساذجة خالية من الكنوز التي نجدها الناس في اهرامات مصر ، فإن ذلك لا يعني ان قبور الجاهليين ، كانت كلها خالية من النفائس تماماً. فقد عثر في بعض منها على أساور من ذهب وخواتم وتماثيل وجرار بل وعلى سيوف وخناجر وسكاكين ، وضعت مع الميت في قبره، كما يروي أهل الأخبار ان بعض الجاهليين كانوا يتعقبون المقابر القديمة، فينبشونها لاستخراج ما فيها من أشياء نفيسة ، حتى ذكروا ان ثراء (عبدالله بن جدعان) انما كان من المقابر القديمة التي كانت بمكة [1] ، ورووا قصصاً عن قبور زعم ان الناس عثروا فيها على كنوز ، وقد سبب هذا القصص إقدام الناس على نبش المقابر الجاهلية لاستخراج ما قد يكون في جوفها من ذهب وكنوز ، مما أفسدها وأزال معالمها وأضاع علينا تراث الجاهليين .

وقد ذكر (أبو علي لغدة) الأصفهاني ، ان « بجلدان هضبة سوداء ، يقال لها بتعة ، وبها نُقُبٌ ، كل نقب قدر ساعة، كانت تلتقط فيه السيوف العادية، والخرز ، يزعمون أن فيه قبوراً لعاد ، وكانوا يعظمون ذلك الجبل » [2] .

وقد عثر على بعض المقابر الجاهلية في العربية الجنوبية ، ظهر منها ان القبور ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد في الغالب . ولكنها مختلفة باختلاف الأرضين والقبائل وطبيعة الأرض . فقد عثر على قبور اتضح منها ان الجاهليين في بعض أماكن من اليمن ، وضعوا الميت في تابوت قائم الزوايا ، مصنوع من الحجر ، وقد غطي بغطاء من الحجر كذلك . ومثل هذه القبور لا تكون في العادة إلا في الأماكن التي تتوفر فيها الحجارة. أما في الأماكن الصحراوية والترابية التي لا تتوافر فيها مثل هذه الحجارة ، فلم يكن من الممكن وضع الميت في مثل هذا التابوت ، ولهذا كانوا يدفنونه في الأرض في لحد ، ثم يهال على الميت التراب . وقد عثر على جملة قبور تكوّن مجموعة واحدة يحيط بها حائط معقود بالحجارة يتراوح ارتفاعه من متر إلى خمسة أمتار . وهي مدافن أسرة واحدة في الغالب . وقد أشير إلى

---

1 الروض الانف (٢/٩٢ وما بعدها) .
2 بلاد العرب (١٣ ، ٣٠) .

أمثال هذه المقابر في الكتابات . كما عثر على قبور هي غرف نحتت في الصخور، وقد كُتب على باب الغرفة ، أي القبر ، اسم صاحب القبر أو أسماء المدفونين في الغرفة[1] . وقد وصف (هريس) بعض هذه القبور[2] .

وعثر على بقايا مقبرة خارج سور مأرب من ناحية الشمال والغرب ، تبين من فحصها ودراستها ان بعض الموتى قد دفنوا وقوفاً ، وبعضهم قد دفنوا على الطريقة المألوفة أي اضطجاعاً على الأرض. ومن هذه المقبرة العامة الجاهلية حصل (كلاسر) على عدد كبير من شواهد القبور ، التي وضعت فوق قبور أصحابها لتدل عليهم ولتشير إلى صورة صاحب القبر واسمه[3] .

وقد عثر في معبد (اوم) (اوام) ، المعروف بمحرم (بلقيس) ، على مقابر ، لها أبواب تؤدي اليها . ذات غرف ، اتخذت مواضع لوضع الجثث بها . وجد أن بعضها كانت مقابر للمكربين وللملوك ، فقد عثر على اسم (سمه علي ينف) (سمهعلي ينف) (سمه علي ينوف)، مكتوباً على حجر في أحد القبور، وعثر على اسم آخر هو : (يثع امر بين بن يكرب ملك وتر) وهما من الملوك الذين اعتنوا بهذا المعبد ، فأضافوا اليه اضافات، ولعلّ الحفريات المقبلة ستكشف عن أسماء ملوك آخرين قبروا في هـذا المعبد الكبير ، الذي كان المعبـد الرئيسي لشعب سبأ في عاصمته مدينة مأرب (هجرن مربن) ، (هجرن مرب) .

وقد عثر في هذه المقابر على مباخر ، يظهر أنها استخدمت لتبخير القبر عند دفن الموتى ، وفقاً لطقوسهم الدينية ، كما عثر على قطع من الأحجار الكريمة وبعض المصوغات المعمولة من الذهاب ، ونظراً لوجودها مبعثرة ، يظن أن الأيدي قد عبثت بها ، فنهبت ما كان أهل الموتى قد دفنوه مع الميت من أشياء ثمينة[4] .

ووصف (فون ريده) نوعاً من الأضرحة وجده في (صهوة) بحضرموت . وقد وصفه بأنه بناء على هيأة مكعب ، طول كل ضلع منه زهاء ٢٥ قدماً ، وبارتفاع مماثل . وقد شيد من حجارة مربعة كبيرة ، ويبلغ سمك حائطه قدمين.

---

١ Handb. der altar. alter., I, S. 162.

٢ W.B. Harris, A Journey through The Yemen, London, 1893, p. 273.

٣ Wissmann-Höfner, S. 28.

٤ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 235

وهو مقسم في الداخل الى قسمين . يكـون القسم الواحد غرفة يفصل بينها حائط يبلغ ارتفاعه ست أقدام من مدخل البنـــاء . ويتكون السقف من حجارة عرضها قدمان . ونجد في جوانبه ثلاثة أهرام للزخرفة . وعلى البناء كتابة قبورية تشير الى القبر[1] .

ولتخليد ذكرى صاحب القبر ، ولوقوف الناس عليه،استخدم العرب الجنوبيون كغيرهم شواخص قبور ، هي عبارة عن أعمدة من الحجر رباعية أو غير رباعية يكتب في أعلاها اسم المتوفى . وقد يصور تحت الكتابة صورة تمثل الميت ، أو ترمز إلى شيء ديني . وقد عثر (كلاسر) على عدد من هذه الشواهد القبورية في مأرب[2] .

وقد تكون الشواخص على هيأة صخور مستطيلة ، يكتب عليها اسم صاحب القبر . وقد تزخرف هذه الصخور . وتنتهي الكتابة بلفظـــة (صلم) في بعض الأحيان ، بمعنى صنم ، أي صورة ، ويراد بها صورة المتوفى ، أو الرمز الدال على شيء مقدس . وقد تدوّن الكتابة في القسم الأسفل من الشاهد ،وتحفر الصورة في القسم الأعلى منه . وعثر كلاسر أيضاً على نوع آخر ساذج من الشواهد، هو عبارة عن نصب يشتمل على الكتابة وتحتها عينان فقط[3] . وتثبت هذه الشواهد في الأرض . وقد وجد لبعضها حافة رقيقة كحد السكين ، وذلك لتسهيل تثبيتها في الأرض ، ومقاومتها لعبث الهواء والآفات الأخرى فيها[4] .

ويقال للقبر (مثبر) و (هقبر) (القبر) في اللحيانية[5] . وقد عثر المنقبون على أحجار قبور ، كتبت عليها اسماء الموتى ، وصورت عليهــا صور تشير الى الميت ، وحفرت عليها بعض الرموز والإشارات المستعملة في طقوسهم الدينية .

وقـــد وجدت في المقبرة الملكية لملوك أوسان تماثيل لبعض ملوك هذه الأسرة الصغيرة التي حكمت مملكة أوسان ، وقد كتبت على قاعدة التماثيل أسماء الملوك ، ويتبين من وجودها في هذه المقبرة ، أن آل الميت دفنوا مع الملك المتوفى تمثالاً

---

١ A. von wrede, Reise in Hadhramaut, S. 245.

٢ Handb-der altar-alter, I, S. 163, Wissmann-Höfner, S. 28

٣ D.H. Müller, Südarrabische Altertuner, S. 50.

٤ Handb-der altar-alter. I, S. 164.

٥ النص رقم ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ من كتاب : W. Caskel, S. 99, 133.

له ، ربما ليدل على قبره . وكتب لذلك عليه اسمه ليعرف ، ولم يعثر على مواد أخرى ثمينة،ويظهر أنها كانت موجودة غير أن السراق سرقوها،فلم يبق فيها غير ما فات عنهم ، فلم يصلوا اليه. وقد موّنت المقابر الأخرى التي سلمت علماء الآثار والباحثين بألواح من الحجر ، نحتت عليهــا صور المتوفين ، فوضعت شواخص على القبور ، ليعرف بالشاخص صاحب القبر ، كما عثر على مثل هذه الشواخص في باطن القبر ، مما يدل على أنها دفنت مع الميت في القبر .
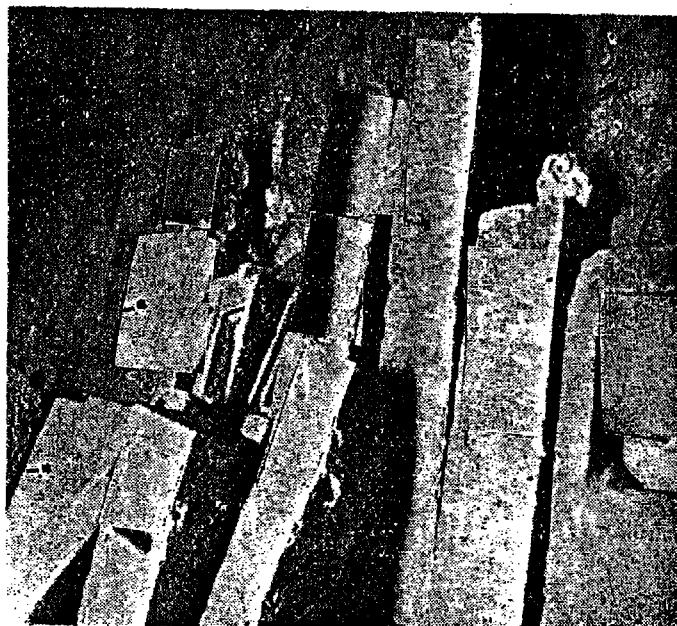
شواخص قبور حاول صانعوها ابراز معالم أصحابها
وقد أبدعوا في بعضها وخابوا في البعض الاخر .
من كتاب : Qataban and Sheba (ص٢٢٤)

ونرى في الصورة التالية تماثيل صغيرة استخرجت من مقبرة قديمة ، ويلاحظ ان الأنف دقيق ، وقد حفرت العيون حفراً ، وجعلت واسعة نوعاً ما في بعض التماثيل . وقد نقرت بعض هذه القبور نقراً في الصخور ، وهي صغيرة لا تتسع إلا لميت واحد ، ولكن المنقبين وجدوا مقابر جماعية ، تضم أفراد العائلة الواحدة .
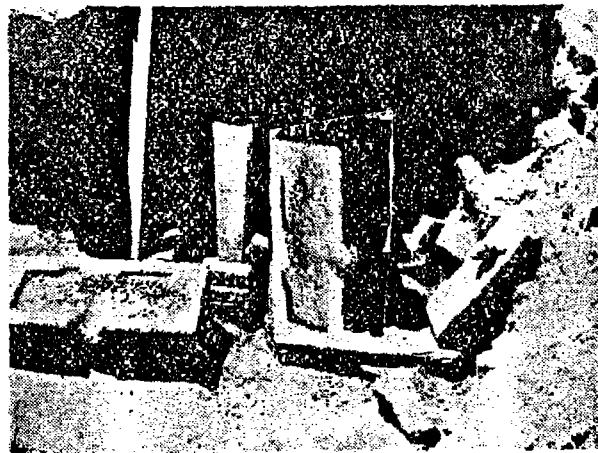
تماثيل عثر عليها في مقبرة قديمة
من كتاب « Qataban and Sheba » (ص١١٧)

وعثر في المقابر التي ضمت جدث نساء على أقراط وحلى نسائية ، وعلى أشياء أخرى تستعملها المرأة . وقد أمكن بواسطتها من تشخيص صاحبة القبر ، ومـــن الوقوف على مكانة أسرتها ومنزلتها . وتوجد بعض الحلى في المتاحـــف ، وهي
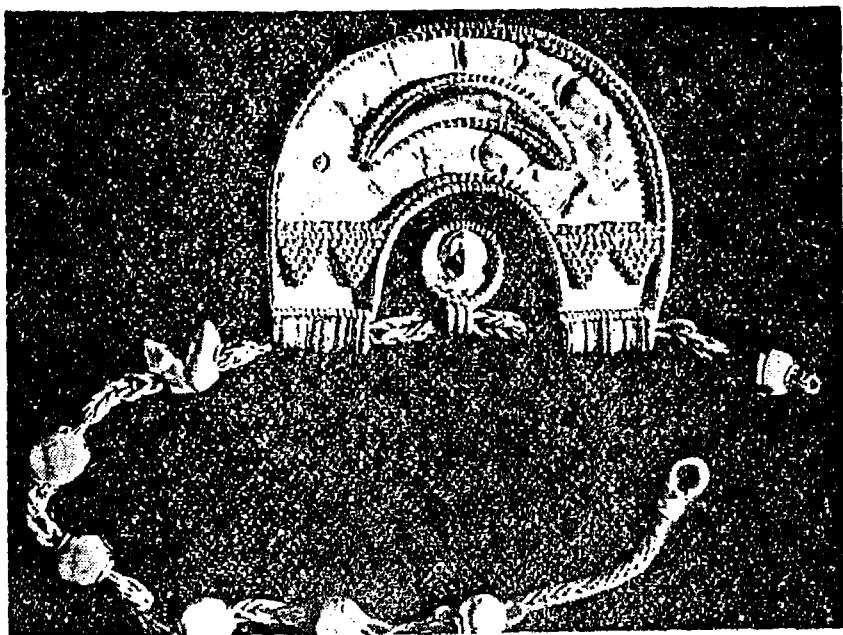
قلادة من الذهب الخالص تعود الى القتبانيين ، عثر عليها في مقبرة قديمة عند «تمنع»
من كتاب : « Qataban and Sheba » ص(١١٦)

جميلة تدل على مهارة (الصائغ) العربي الجنوبي . وفي جملة ما عثر عليه قلادة، عمل القسم الرئيسي منها على شكل هلال ، بداخله زخارف ، كما ترى في الصورة السابقة التي عثر على أصلها في مقبرة قديمة من مقابر (تمنع) عاصمة قتبان .

ووجدت مصوغات أخرى من ذهب ، لا يزال الصاغة يصوغون من أمثالها في العربية الجنوبية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب. منها ما يعلق على الرأس، ومنها ما يعلق على الرقبة ، ومنها ما يوضع على الزند أو المرفق أو الأرجل ، ويلاحظ ان لفن الصاغة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية طابع خاص يميزه عن فن الصاغة في البلاد الأخرى. وقد وضع الصاغة شعارات دينية على بعض المصوغات تيمناً وتبركاً بها . ولهذا فمن المستحسن مقارنة المصوغات الحالية مع المصوغات الجاهلية التي عثر وسيعثر عليها ، للتوصل بهذه المقارنة إلى معرفة تأريخ هذه الحرفة عند العرب .

وقد وجدت مجامر قديمة في مواضع متعددة من اليمن . وقد استعمل بعضها في المعابد ، واستعمل بعض آخر في البيوت حيث يحرق فيها البخور أو بعض الأخشاب ذوات الروائح الطيبة العطرة لتطييب القادم . ولا تزال هذه العادة المعروفة قبل الاسلام مستعملة في اليمن ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب ، كما في (بيشة) مثلاً ، وذلك على سبيل التقدير والتكريم والاحترام[1] .

---

[1] في بلاد عسير : (ص ٦٢) .

الفصل الثامن عشر بعد المئة

الخزف والزجاج والبلور

الخزف : ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً ، وبائعه الخزّاف[1] . والفخّار : الخزف . وذكر انه ضرب من الخزف تعمل منـه الجرار والكيزان وغيرها . وورد في القرآن الكريم : « من صلصال كالفخار »[2] .

والفخارة من الحرف المعروفة عند الجاهليين . ومادة الفخار الطين يسوّى على الشكل المطلوب . فإذا جف ، فخر بالنار . وأواني الشرب أي الجرار هي من أكثر الفخار استعمالاً حيث يوضع فيها الماء ، والكيزان[3] . واستعمل الفخار لخزن المواد الغذائية أيضاً ، ولحفظ الأشياء الثمينة مثل الذهب والنقود والحلي،ولأغراض أخرى عديدة ، ويكون في كل الأماكن الأثرية مادة مفيدة للآثاريين .

وقد ذهب بعض علماء اللغـة إلى ان (الكوز) لفظة معربة ، عربت عن الفارسية ، وذهب آخرون إلى انها عربية أصيلة[4] ، وصانعها هو (الكوّاز) . وعرف الخزف بأنه كل ما عمل من طين وشوي بالنـار حتى صار فخاراً . أما صاحبه ، فهو الخزّاف[5] .

---

١ اللسان (٦٧/٩) .
٢ الرحمن ، الاية ١٤ ، اللسان (٤٩/٥ وما بعدها) .
٣ شرح القاموس (٤٦٦/٣) .
٤ شرح القاموس (٧٦/٤) .
٥ شرح القاموس (٨٤/٦) .

وقد عثر على جرار على هيأة (الثومة) ، أي ذات عنق طويل ، وأما أسفلها فواسع ، في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي بلاد الشأم . وتعرف بـ (بقبق) و (بقبقة) . وهي (بقبق) (بقبوق) في العهد القديم[1] .

وللتربة أهمية كبيرة في صنع الخزف ، ولهذا اشتهرت بعض المواضع ذات التربة الجيدة بجودة فخارها ، فكانت تصدره الى أماكن أخرى . كما أن للعناية التي يبذلها الفخار في عجن الطين وفي تنقيته من الشوائب أهمية كبيرة في صناعة الفخارة .

ولم يشر أهل الأخبار الى الآلات التي يستعين بها الخزاف والكواز الجاهلي في صناعته . ولكن سكوتهم هذا لا يكون دليلاً بالطبع على عدم استعانة الفخار والكواز بالآلات ، فليس من المعقول صنع أنواع الفخار بغير آلة . فإن عملها باليد وبغير آلة ، أمر يكاد يكون صعباً . وكل الخزف الذي عثر عليه ، يدل على أنه صنع بآلة ؛ لأنه على شكل منتظم . والآلة التي يستخدمها الخزاف في صناعته ، هي دولاب يدير قرصاً من الخشب ، يوضع عليه الطين ثم يحرك ، فيدور القرص ويدور الطين الذي عليه معه ، ويعالجه الخزاف بيده ليعطيه الشكل الذي يريده . ولصنع خزف جيد لا بد من العناية بالطين ، فيختار ترابه من تربة جيدة خالية من الأملاح والرمال ، ثم يعجن بعناية ، ويترك مدة ليختمر جيداً . وإلا كان الخزف رديئاً . وقد يدهن الخزف بعد جفافه بدهن ملون أو ينقش بنقوش ، ثم يفخر بالنار .

واستخدم (الأتون) ، لتحويل المواد التي صنعها الخزاف من الطين الى خزف. والأتون هو (كورة) في أسفله موقد توقد فيه النيران ، فيرتفع لهيبها وتصعد حرارتها من خلال فتحات تكون في قاع الأتون الذي هو سقف الموقد الى أعلى مارة بين مصنوعات الطين الموضوعة في باطن الأتون لتشويها فتتحول بذلك الى خزف وفخار . وتكون الأتونات مرتفعة لها فتحة في أعلاها وفتحة في الجانب تغلق أثناء العمل ، وتفتح بعد نضوج الخزف والفخار . ولا يزال الخزافون والفخارون يصنعون بضاعتهم بهذه الأتونات على النحو المذكور . ويذكر علماء

---

[1] أرميا ، ١٩ ، ١١٠ ، Ency. Bibl. Vol. I, p. 600.

العربية أن الأتون لفظة معربة . وأنها تطلق على أخدود الجيار والجصاص وأتون الحمّام[1] .

وقد كان الجاهليون يدهنون الجرار أحياناً ، لسدّ مساماتها لمنع السوائل من السيلان منها ، فكانوا يضعون النبيذ فيها مثلاً والسمن وامثالهما . وصانعها هو الجرّار[2] . وقد كان أهل يثرب يحملون الخمر في جرار حمر ، يطلقون عليها اسم (الحنتمة) ، وذكر ان (الحنتم) الخزف الأخضر أو كل خزف[3] . وورد : الحنتم جرار مدهونة خضر كانت تحمل إلى المدينة فيها الخمر ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم . وقد نهي عن الدباء والحنتم . وانما نهي عن الانتباذ فيها لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها . وقد أشير اليها في شعر للنعمان بن عدي :

من مبلغ الحسناء أن حليلها   بميسان يسقى من رخام وحنتم[4]

وطالما استعملت الجرار لخزن الأشياء النفيسة فيها مثل الذهب والنقود والحلي وما شاكل ذلك ، إذ توضع هذه الأشياء في داخل جرة ثم تسد وتدفن حتى لا يقف عليها اللصوص والطامعون في المال . وقد عثر الجاهليون والمسلمون على كنوز كانت مخبأة في جرار طمرت تحت التراب .

والقلال من صنع الخزاف . وعرفت القلة بأنها الحب العظيم ، وقيل الجرة العظيمة ، أو الجرة عامة . وقيل الكوز الصغير . وذكر انها إناء للعرب كالجرة الكبيرة ، إلى غير ذلك من آراء ، يظهر من غربلتها ان القُلة جرة كبيرة ، بدليل ما ورد عنها في الحديث من اشارات تفيد كلها ان القُلة كبيرة . وقد اشتهرت (هجر) بقلالها ، فقيل (قلال هجر) . وهجر قرية قريبة من المدينة ، وليست هجر البحرين . وكانت تعمل بها القلال . واشتهرت الأحساء بقلالها أيضاً[5] .

وعرف (الحُب) بالجرة الضخمة وبالخابية ، وبأنه الذي يجعل فيه الماء . وذكروا

---

١ اللسان (١٣/٧) .
٢ تاج العروس (٣/٩٢) .
٣ المغرب (ص ١٤٢) ، « الحنتم : الجرار الخضر ، كانوا يحملون فيها الخمر » ، جامع الاصول (٥/٥٠٠) .
٤ تاج العروس (٨/٢٦٤ وما بعدها) .
٥ اللسان (١١/٥٦٥) .

أنه فارسي معرب[1] . وعرفوا (الخابية) بالحُب ، سمي بالخابية لأنه يستر الشيء ويخفيه[2] .

وقد عثر المنقبون على قلل وجرار وكؤوس من خزف ، وجدت على بعضها كتابات ، عثر على كثير منها في المقابر ، مما يدل على أنها دفنت مع الموتى في القبر . وقد يستنتج من ذلك أن أصحاب الموتى كانوا يتصورون أن موتاهم سيحتاجون اليها في حياتهم الثانية لشرب الماء بها ، ولذلك دفنوها معهم ، وقد يدل دفنها معهم ، على أنهم أرادوا بذلك وضع ما كان يستعمله الميت في حياته لإظهار تقديرهم للميت ، وأنهم يتنازلون عنها إليهم ، ولذلك دفنوا معه حليّه وسلاحه وما كان عزيزاً عنده ، فقد عثر في المقابر على رؤوس حراب ، وعلى سيوف وخناجر ، وسكاكين ، ولا يعقل دفن هذه الأشياء مع الميت وفي قبره عبثاً ، بل لا بد وأن يكون لهم رأي فيه .

وقد استعملوا القدور المصنوعة من الحجر ، كقدور (البُرَم) المصنوعة من حجر صلد قوي يستخرج من موضع يسمى (المعدي) لا يبعد كثيراً عن الطائف[3].

والأعراب أقل من أهل المدر استعمالاً للفخار ، وذلك بسبب وضعه وطبيعة حياته . فالفخار ثقيل وهو سهل الكسر ، ويجب بذل عناية في حفظه ، وحياة الأعرابي حياة تنقل ، ولا توجد لديه أوعية لحفظ الفخار من الكسر ، ولهذا استخدم الأدوات المصنوعة من الجلود والمعدن والخشب بدلاً من الفخار .

ومن أواني الشرب (الراقود) ، وهو دنّ ، يسيع باطنه بالقار . وذكر (الجواليقي) ان اللفظة من الألفاظ الفارسية المعربة[4] . و (القافزة) ، وهي (القاقوزة) و (القازوزة) . وهي مشربة أو قدح ، أو الصغير من القوارير والطاس[5] .

---

١ اللسان (١/٢٩٥) .

٢ اللسان (١/٦٢) .

٣ ابن المجاور (١/٢٥) .

٤ المعرب (ص ١٦٠) ، تاج العروس (٢/٣٥٦) .

٥ المعرب (ص ٢٧٣) .

أدوات مصنوعة باليد ، تمثل كفاءة وقدرة العامل اليماني ودقته في الصنعة
من كتاب « اليمن » « Yemen » لمؤلفه : « Günther Pawelke » (ص ١٦١) .

ولا بد أن يكون بين الجاهليين أناس تخصصوا بصنع الزجاج وعمله ، فقد عثر على أواني معمولة من الزجاج وعلى قطع زجاج . وقد ذكر علماء اللغة أسماء أدوات من الزجاج ، مثل (الباطية) ، وهو إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل[1] . وذكر بعض العلماء أن الباطية شيء من الزجاج عظيم ، يملأ من الشراب ويوضع

---

١ المعرب (ص ٨٣) .

بين الشَّرب يغرفون منها[1] وهو (الناجود) على رأي بعض علماء اللغة [2] . وتصنع الأقداح والقوارير والقناديل والأسرجة من الزجاج أيضاً ، والمصباح ، هو السراج يصنع من الزجاج كذلك ، وفيه موضع لوضع الفتيلة عليه ، لتأخذ وقودها الذي يساعد على إدامة اشتعالها منه . وهذا الوقود هو الزيت[3] .

وقد ذكر الزجاج في القرآن الكريم: « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح،المصباح في زجاجة،الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركـــة »[4] . وذكر علماء اللغـــة أن الزجاج : القوارير ، وان الزجاجة القنديل[5] . وأن القوارير : أواني من زجاج في بياض الفضة لصفائها[6] .

والمصباح : السراج ، وهو قرطه الذي تراه في القنديل وغيره [7] . وعرف السراج ، بأنه المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل ، والمسرجة التي فيها الفتيل[8] .

و (القنديل) ، لفظة معربة ، عربت عن اللاتينية من لفظة Candela . وتعني مصباح وسراج ونبراس . وتقابل لفظة (نبراس) لفظة (نبرشتا) Nebrastha في لغة بني إرم . ولفظة (منوراه) (منوره) Manorah في العبرانية[9] .

والقنديل ، لفظة أعجمية تخصصت بالمصابيح المحمولة . وقد يعلق القنديل وقد يتصل برجل تحمله . وتقابله لفظة (نبرشتا) في لغة بني إرم . أي (النبراس) في عربيتنا . و (منوره) (مينوره) في العبرانية . وقـد أشير إلى القناديل في التوراة . وتستعمل في المعابد وفي بيوت الأغنياء . وقد تصنع من الذهب والفضة والبرونز ، على أشكال متنوعة [10] .

---

١ المغرب (ص ٤١) .
٢ شرح القاموس (١٠/٣٧) ، (٢/٥١١) .
٣ شرح القاموس (٢/٥٢ ، ١٧٥) .
٤ النور ، الاية ٣٥ .
٥ اللسان (٢/٢٨٧) .
٦ اللسان (٥/٨٧) .
٧ اللسان (٢/٥٠٦) .
٨ اللسان (٢/٢٩٧) .
٩ Ency. Bibl. Vol. I, p. 644.
١٠ شرح القاموس (٨/٨٨) ، Ency. Bibl. Vol. I, p. 644, ff. Hastings, Vol. I, p. 348.

ومن مصنوعات الزجاج (المرآة) . وهي (مرات) في العبرانية أيضاً . وقد صنعت من المعادن المصقولة كذلك مثل النحاس. ووردت في التوراة لفظة(هجلونيم) فسرت بمعنى (مرآة اليد)[1] ، وتعني (المجلاة) في عربيتنا . والكأس ، هو إناء الشرب ، يشرب به . ويصنع من مواد مختلفة فقد يكون من الزجاج وقد يكون من معدن مثل الذهب أو الفضة أو الحديد وقد يكون من فخار . ويقال له (كوس) عند العبرانيين[2] . وقد ينقش ويحلى بزخارف وباللؤلؤ والحجارة الكريمة . وقد ذكر (الكأس) في القرآن الكريم .

والراووق ، المصفاة ، وقيل : الباطية والناجود . وذكر بعض علماء اللغة ان الراووق الكأس . وقد وردت اللفظة في شعر لعدي بن زيد العبادي :

قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافَهُ الراووقُ[3]

وقد عرف أهل العربية الجنوبية (البلور) لوجوده في اليمن وفي أماكن أخرى. وهم يستخرجونه من نوع خاص من الحجر ويصقلونه بعناية ، والغالب عليه اللون الأبيض غير ان بعضه ذو ألوان أخرى ، هو لون الحجر الذي أخذ منه .

ولا يزال أهل اليمن يمارسون صقل الحجارة الكريمة التي يستخرجونها من بعض الجبال ، مستعملين في ذلك الماء والتراب الناعم على حجارة رملية ويصنعونها بأشكال مختلفة ويستعملونها في صنع الحلي . وهي ذوات ألوان متعددة : بيض وسود وخضر وزرق وصفر وحمر ، ومنها ما يجمع عدة ألوان متمازجة . ويعد جبل نقم وجبل الغراس من أهم المواطن التي تستخرج منها مثل هذه الحجارة على مقربة من صنعاء[4] .

وقد عُني العرب الجنوبيون بشق الطرق وتمهيدها ، وبعمل القناطر والجسور وقد بلّطوا بعض الطرق بالحجارة وبمادة تشبه (السمنت) ، وترى اليوم بقايا قناطر عملوها في الأودية للعبور عليها ، وقد دمر الكثير منها بسبب الحروب

---

١ Hastings, Dict. Vol. II, p. 181.

٢ Hastings, Dictl. of the Bible, Vol. I, p. 533.

٣ شرح القاموس (٣٩٣/٦) .

٤ العظم (الصفحة ١٣٦) .

والاهمال . ونرى في الصورة بقايا قنطرة جاهلية وقد تطرق اليها الخراب من كبر العمر . وقد عملت على وادٍ يفصل بين الجبال .

منظر طريق جبلي قديم
من كتاب : Jemen (ص ١٣٦)

الفصل التاسع عشر بعد المئة

الفنون الجميلة

وبين الآثار التي عثر عليها الرحالون ، أو نقلت إلى بعض متاحف الغرب ، عدد من التماثيل والصور المنحوتة على الحجارة ، وهي قليلة في الوقت الحاضر لا تعطينا فكرة واضحة عن الفن العربي الجنوبي ، وبعضها يمثل فناً عربياً جنوبياً أصيلاً ، فلا يشبه المنحوتات اليونانية أو الرومانية ، أو المصرية ، أو الايرانية ، أو غيرها، وبعض آخر له شبه بفن بعض هذه الشعوب، مما حمل المستشرقين على أن يذهبوا إلى أن هذا التشابه هو نتيجة تقليد ومحاكاة لذلك الفن[1] .

ونلاحظ على هذا التمثال الذي عثر عليه في مقبرة قديمة عند (تمنع) عاصمة (قتبان) ، ويعود عهده إلى القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد ، ان المثّال حاول جهد إمكانه اعطاء تمثاله الذي صنعه طابعاً عربياً جنوبياً ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، وقد دوّن في أسفله اسم صاحبه ، وهو (جبا ام هنعمت) ، (جبأ أوام هنعمت) .

ومن الصعب إصدار حكم عام على الفن العربي الجنوبي استناداً الى هذه التماثيل والصور المنحوتة أو البارزة ، لأنها قليلة غير مغنية وغير كافية لإصدار حكم

---

١ Handbuch, I, S. 165.
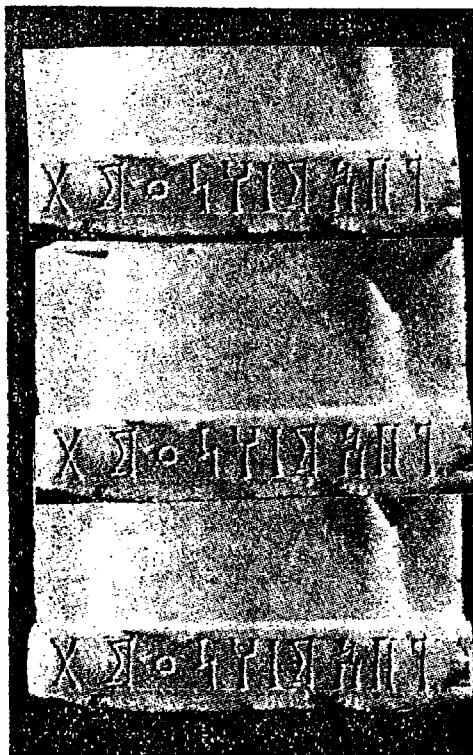
تمثال رجل اسمه « جبأ أوم هنقمت »
عثر عليه في مقبرة قديمة عند « تمنع »
يعود تاريخه الى القرن الاول أو الثاني
قبل الميلاد ٠

من كتاب Qataban and Sheba (ص ١٢٤)

في هذا الموضوع . ثم هي من صنع أيد متعددة ، فيها أيد قوية ذات موهبة ، وفيها أيد ضعيفة انتاجها بدائي يشبه فن البدائيين ، لا تناسق فيه ولا تناسب بين الأجزاء . وقد نشأ ذلك بالطبع عن تفاوت مواهب المشتغلين بهذه الصناعات وعن وجود أناس اتخذوا الحفر في المرمر حرفة يتكسبون بها ، وقد يكون لأنهم ورثوا تلك الحرفة ، فاشتغلوا بها ، مع عدم وجود قابليات فنية لديهم .

وقد عبر عن النحات ، أي المثال الذي يصنع التماثيل بلفظة (هصنع) ، أي الصانع في اللغة اللحيانية . ويعبر عن صنع التمثال بلفظة (نحت)[1] ، أي حسب تعبيرنا عن نحت التماثيل في الوقت الحاضر . وتطلق لفظة (هصنع) على الرسام

١ راجع النص ٨٣ في كتاب : W. Caskel, S. 118

كذلك وعلى المعمار[١] .

ويلاحظ أن الفن العربي الجنوبي مثل أكثر الفنون الشرقية الأخرى،لا تجاري الفن اليوناني في هيأة الجسم في موضوع إبراز جماله[٢] . فإذا ما نظرت الى تمثال أو صورة بارزة أو حفر عربي جنوبي ، ترى فرقاً واضحاً بين عمل الفنان في هذه الصور وعمل الفنان الهلليني اليوناني المعاصر له . ففي عمل هـذا الأخير نرى عملاً فنياً جميلاً راقياً ، يبرز جمال الفن وروحية (الفنان) ، وهو عمل يقرب القطعة المعمولة الى قلبك ، ويجعلها تؤثر فيك تأثيراً عميقاً ، على حين لا نرى مثل هذا الإبداع في الفنون الشرقية في الغالب .

وفي الفن اليوناني تناسق وتناسب بين الأجزاء . راعى الفنان فيه النسب الطبيعية للجسم فثلها في تماثيله ، وأظهرها بمظهر يشعرك بقوة فنه وبتمكنه من التعبير عن أحاسيسه . أما الفن الجاهلي ، عموماً عربي جنوبي أو من موضع آخر ، فإنه لم يتمكن من تحقيق هذا التناسق ولا النسب ولا الاتساق والتوازن بين الأعضاء . ولم يتمكن الفنان مع كل ما بذله من جهد من اظهار الجمال الفني على القطــع التي صنعها ، ولا من اعطائها حياة ودماً وروحاً أخاذة تجعلك تشعر انك أمام فنان عبر عن إدراكه الفني وعن الحس الذي يشعر به أحسن تعبير بأية طريقة أو مدرسة من مدارس الفن . وبأية وسيلة من وسائــل التعبير عن الذوق الفني الذي تملك الفنان فجعله يعبر عنه بطريقته التعبيرية الخاصة بهذا الانتاج المجسم لروحه والذي نسميه الفن .

ولا تملك المتاحف في الوقت الحاضر تماثيل جاهلية بالحجم الطبيعي للانسان . ويظهر ان اعتبار كثير من الناس للتماثيل أصناماً قد أدى بهم إلى اتلافها والقضاء عليها . وهناك أمثلة عديدة تؤيد هذا الرأي ذكرها القدامى والمحدثون . بل إن هذه النظرة لا تزال عند البعض . ثم إن الناس لم يكونوا يدركون قيمة الأثر في حفظ تأريخ أمتهم ، ولهذا فلم يكونوا يهتمون بالتماثيل ولا بالأحجار المكتوبة ولا بكل أثر من الآثار . وتوجد اليوم قطع تماثيل يظهر انها من تماثيل حطمها الانسان بيده وهشمها بنفسه ، إما للقضاء على معالم الوثنيــة المتجسمة في نظره في هذا

---

١ راجع النص رقم ٣٢ في كتاب : W. Caskel, S. 93

٢ Handb. der altar. alter I, S. 166.

التمثال ، وإما للاستفادة من أحجاره في أغراض البناء أو أغراض أخرى تفيده . ومن بينها رؤوس تماثيل أو أقدام تمثال ، أو جسم تمثال بلا رأس ولا أرجل . أما التماثيل الصغيرة ، فقد وصل عدد منها دون أن يمسها أي سوء . وقد استخرج عدد منها من باطن الأرض ، استخرجه المنقبون والمواطنون الذين أخذوا يحفرون التلول الأثرية للبحث عن أثر يبيعونه لتجار العاديات . ونجد في دور المتاحف وعند جماع العاديات عدداً منها .

ومن بين التماثيل الكاملة التي تستحق الدراسة والانتباه ثلاثة تماثيل لملوك من مملكة (أوسان) . يبلغ ارتفاع احداها (٨٩) سنتمتراً . وقد نحتت من المرمر . وهي تمثل مرحلة من مراحل التطور في فن النحت عند العرب الجنوبيين . وقد حاول النحات جهد امكانه بذل أقصى ما عنده من فن وقابلية وموهبة في اعطاء هؤلاء الملوك ما يليق بهم من جلال ووقار ومظهر ، وإبراز ملامحهم وملابسهم ، ولكنه فشل في نواحٍ ووفق قدر استطاعته في نواحٍ . وقد نحت شعر الرأس وجعله متدلياً طويلاً مجعداً . وجعل للتماثيل قواعد استقرت عليها ، دوّن عليها أسماء أصحابها . وقد اختلف الباحثون الذين بحثوا في خصائص النحت البارزة على هذه التماثيل في تقدير عمرها ، فذهب بعض منهم الى أنها ترجع الى القرن السادس أو الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وذهب بعض منهم الى أنها ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد ، بينما رأى آخرون أنها من نحت القرن الأول بعد الميلاد[١] .

وهناك تماثيل صغيرة لرجال ونساء وأطفال بعضها من حجر وبعضها من معدن تكشف لنا عن عادات وتقاليد المجتمع في ذلك العهد . في مثل الكشف عن الحلي التي كانوا يحلّون بها جيد المرأة وعنقها ، أو التي تحلى بها الأيدي أو الأرجل ، كما تكشف بعضها عن ملابس المرأة والرجل والأطفال في تلك الأوقات ، ولهذا فإن لهذه التماثيل أهمية كبيرة لا من الناحية الفنية حسب ، بل من الناحية التأريخية أيضاً لأنها تتحدث عن العوائد الاجتماعية كذلك .

وتعبر بعض شواخص القبور عن شعور الحزن والأسى في نفس من أمر بحفر

١ A. Grohmann, S. 222.

تلك الشواخص أو نحتها . فقد حرص صانعها على أن تكون معبرة عن المناسبة التي عملت من أجلها على أكمل وجه . وأكملها برموز واشارات دينية لها صلة وعلاقة بالحياة الثانية ، وتزيد في فوائد هذه الشواخص بالنسبة لعمل الباحث ، التماثيل التي وضعت مع الميت في قبره ، لتعبر عنه . فهي تعبير آخر عن هذا الشعور المؤسف في شكل آخر من أشكال الفن .

وقد كانت العادة آنذاك ، دفن تماثيل مع الموتى ، أو صوراً محفورة على الصخر ، فقد عثر في مصر وفي الحجاز وفي بلاد الشأم على مثل هذه التماثيل مدفونة في القبور ، على مقربة من الأجداث . بعضها تماثيل رجال وبعضها تماثيل أطفال ، ومن النادر تماثيل نساء ، ولعل ذلك بسبب النظرة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العهد ، من إعطاء الأولوية للرجل في المجتمع ثم للأولاد الذكور .

ونرى في هذه الصورة رأس رجل عربي جنوبي ، حفر النحات عيني الرجل حفراً ، وجعلها واسعة ، فبدتا وكأنهما قد قلعتا ، وأوصل اللحية بشعر الرأس ، حتى أحاط الشعر بالرأس والوجه ، وصار كأنه هالة . أما الفم ، فصغير مفتوح ، ولم يتمكن النحات من حفره حفراً يقارب الطبيعة ، ولم يتمكن كذلك من إبراز معالم الأنف . أما الجبين فأملس ، وأما الوجنتان ، فلساوان كذلك ، وأما الحجر المنحوت ، فمن الرخام .

وإذا قارنت هذا التمثال والتماثيل العربية الجنوبية بالتماثيل اليونانية ، أو بالتماثيل اليونانية التي عثر عليها في جزيرة (فيلكا) في الكويت ، تجد فرقاً عظيماً من النواحي الفنية : فالفنان اليوناني له إدراك عظيم للقيم الفنية ، له قدرة عظيمة على

إبراز الملامح ، وفي تقدير النسب بين الملامـح وأعضاء الجسد ، ثم هو متمكن تماماً من كيفية إظهار الحاجبين وحفر الأنف ، وابراز العينين . ومع مرور مئات السنين على الفن اليوناني،فإنك تستطيع أن تجد فيه حتى يومنا هذا الإبداع والجمال والاتساق والانسجام . خذ هذه الصورة ، التي هي تمثال من الطين المحروق ، عثر عليه في جزيرة فيلكا ، ويعود عهده إلى حوالى (٢٠٠) سنة قبل الميلاد ، ثم قارنه بصور التماثيل التي عثر عليها في العربية الجنوبية ترى فرقاً كبيراً جـداً بين الفنين .

تمثال من الطين المحـروق من القلعة اليونانية حوالي ٣٠٠ ق٠م٠ من جزيرة فيلكا ٠

ولكننا نجد مع ذلك في الفن العربي الجنوبي ، محاولة تستحق التقدير ، تظهر في طموح الفنان العربي الجنوبي ورغبته جهد إمكانه في اظهار شخصيته ومواهبه الفنية ، وهو لو وجد التقدير الذي كانت يظهره اليونان للفن ، لأبدع ولا شك ابداعاً كبيراً في عمله الفني .

وقد عبر الفنان العربي الجنوبي عن مشاعره بطريقة أخرى ، هي طريقة الحفر على الحجر أو المعدن أو الخشب أو أية مادة أخرى يمكن الحفر عليهـــا . وذلك بطريقتين : طريقة الحفر أي نقش الصورة أو ما يراد تخليد أثره على المادة حفراً كأن تحفر صورة إنسان أو حيوان حفراً عليها بأن تجعل معالم الصورة محفورة حفراً، عميقاً نازلاً في تلك المادة . فالحفر في هذه الحالة هو رسم محفور . وطريقة الحفر البارز ، وذلك بجعل الأثر المراد تخليـــده بارزاً ظاهراً فوق سطح المادة التي حفر عليها . وذلك بأن يؤشر معالم ما يراد تخليده ويرسم ، ثم يحفر ما حوله من سطح المادة التي رسم عليها ، فتبرز الصورة وترتفع بهذا الحفر عن سطح تلك المادة .

وعثر على عدد من تماثيل الحيوانات ، نحتت من المرمر ومن أحجار أخرى : فعثر على تمثال بقرة ، وعثرت بعثة (وندل فيلبس) على تماثيل ثيران في خرائب مأرب . كما عثر بعض الباحثين على تماثيل أسود أو خيل[1] . وقد تمكن الفنـــان من التعبير عن موهبته الفنية في بعض المنحوتات ، وأجاد في إبراز مظاهر بعض أعضـــاء جسم تلك الحيوانات التي نحتها . وقد وصلت بعض هذه التماثيل وهي مهشمة ، وقد فقدت بعض منها بعض أجزاء جسمها ، فأضاع هذا الفقدان على الباحثين امكانية اعطاء رأي فني علمي عن هذه المنحوتات .

ومن الصعاب التي اعترضت (الفنان) العربي الجنوبي مسألـــة التعبير عن الحركات ، ورسم الأشياء المتجاورة ، والتمييز بين البعيـــد والقريب ، والتفريق بين المنازل الاجتماعيـــة ، كالسيدة المصون صاحبة البيت وبين خادمتها . وهي مشكلات تواجه كل فنان،ولا يتغلب عليها بالطبع إلا من له قدرة وعلم بالتصوير والنحت . ومن جملة النواقص التي نلاحظها على الصور المحفورة أن أكثر القطع المحفورة لم تتمكن من التنسيق بين وضع صاحب الصورة . فبينما نجد الوجه مثلاً وهو متجه الى الأمام ، كأن صاحبها ينظر اليك ، نرى الساقين والقدمين جانبيتين وهذا الوضع لا يتناسب بالطبع مع وضع القسم الأعلى من الجسم .

وقد نشأت عن صعوبة التعبير عن الأشياء المتجاورة،مثل رسم ثورين متجاورين يجران محراثاً ، أو فرسين مربوطتين معاً في محراث، مشكلة لم يتمكنوا من التغلب عليها ، فلجأوا الى طريقة بدائية في الغالب ، يتحدث وضعها عن هذا العجز ،

---

[1] A. Grohmann, S. 224

هو رسم أحد الحيوانين مثلاً ، وكأنه تحت الحيوان الثاني المجاور له ، وذلك كما نرى في الصورة التي تمثل فلاحاً يحرثه ويجرّ محراثه ثوران ، فوضع الفنان الثور الجانبي الأيمن فوق الثور الجانبي الأيسر ، ظاناً ان ذلك قد عبر عن هذا الوضع ، فبدا الثوران وكأن أحدهما قد ركب الآخر[1] .

وقد عثر على لوح يمثل وجه انسان مستدير ، رسم كأنه مع الجبين دائرة كاملة . وقد حفر الشعر على صورة قوس يكاد يحيط بالوجه إلا الحنك ، وقد برز الشعر متموجاً ، وقد فصلت بين الأمواج قواطع جعلت الشعر خصلاً . أما العينان فصغيرتان بالنسبة الى الأنف . وبدا الفم مقفلاً وقد حلق صاحب الرأس ذقنه ، وترك له شاربين طويلين يتصلان بالشعر المتدلي من الرأس . أما الأذنان فقد اختفتا تحت الشعر ولا أثر لهما في الصورة . والرقبة غليظة وقد أحاطت بها حيتان ارتفعتا الى أعلى على هيأة قوس . ويظهر في هذه الصورة أثر الفن الساساني[2] .

وقد عبر النحات عن تجعد شعر الرأس بحفره بصورة تشعرك انه يعبر عن شعر متجعد . وذلك بإحداث ثغرات تظهر الشعر وكأنه عقد ، وقد جعله متدلياً الى الكتفين ، أو نازلاً على الجبين حتى الحاجبين ، ولأجل أن يريك العينين وكأنهما في صورة طبيعية وضع أحجاراً ملونة أو أصباغاً في بعض الأحيان على باطن العين لتظهر التمثال وكأنه بعينين حقيقيتين تنظران الى الأشخاص[3] .

وحال حفر الأزهار وعناقيد العنب ورؤوس الحيوانات وبعض الكروم هي خير من حيث الإجادة من تصاوير الإنسان أو الحيوانات كاملاً . وقد عثر على قطع رسمت فيها التيوس وهي من الحيوانات الكثيرة في اليمن ، وقد رسمت بصورة تتمثل فيها القوة والحيوية[4] .

وقد استعمل العرب الجنوبيون الكروم كثيراً للزخرفة ، ولا يستبعد ذلك منهم فالكروم من النباتات المحبوبة الكثيرة في اليمن . وقد درّت عليهم أرباحاً طائلة واستعملت للأكل وللشرب . وهي تعطي نبيذاً طيباً وخمراً مشهوراً . فلا غرابة إذا

---

١ Handb. der altar. alter. I, S. 167.

٢ Hand. der altear. alter. I, S. 168.

٣ Arablen, S. 274 f.

٤ Handb. der altar. alter. I, S. 168, A. Grohmann, Göttersymbole, S. 60.

ما استعملوه بكثرة للزينة ، يحفرون صوره في اطارات الألواح أو الصور ، أو يكبسون صوره في الجبس .

وعثر على قطع فنية نفيسة ، من الحجر النفيس الغالي المحفور ،أي من الأحجار الكريمة ، حفرت عليها صور ذات صلة بالأساطير الدينية ، مثل القطعة النفيسة المحفوظة في المتحف البريطاني ، ويظهر انها من صنع فنان قتباني ، حفر عليها أيلين أو وعلين وقد وقف كل واحد منهما على جانب، وقفا على القدمين الخلفيتين ورفعا القدمين الأماميتين الى أعلى ، وصور النحات القدم المقابل للشخص الذي يقابل القطعة أو ينظر اليها وقد عقف ، أي بوضع منحن . أما القدم المقابل للقدم المعقوف ، فلم يتمكن النحات من اعطائها الوضع الصحيح . ونجد رأسي الحيوانين وقد اتجها الى الداخل ، فكأنهما يريدان الكلام مع بعضهما أو الالتقاء ، ولاظهار قرني الحيوانين معقوفين ، نحت النحات عليها نحوتاً على شكل (الجزر) ، أو الورق الرفيع . ووضع للحيوانين ذيلين قصيرين ، وقد جعل آلة الذكر للحيوانين منتصبتين . وجعل تحت القدم المرتفع لكل حيوان رمزاً ، له فم مفتوح متصل برقبة أو بجسم ينتهي بدائرة صغيرة ، ثم بما يشبه كرة قائمة على ثلاثة أرجل . ووضع بين الحيوانين (طغراء) قراءته : (اب عم) ، (ابي عم) ، أي (أبي) (عم) إلـه قتبان[1] .

وبين الأحجار الكريمة المحفورة التي عثر عليها في خرائب اليمن،أحجار أصلها من العراق ومصر ومن أحجار يونانية من أيام القياصرة ومن العصور الهيلينية ، وقد نحتت على بعض منها حروف بالمسند المعبرة عن بعض المعاني الدينية أو عن أسماء أصحابها[2] . وهي تستعمل خاتماً في الأصابع ، وتختم بها الوثائق والرسائل .

وقد وضعوا (الدُمَى) على ألواح الأبواب ، إما للزينة ، وإما لدفع الشر والأذى أو للتبرك والتقرب . وقد قيل ان (الدمية) الصورة المصورة أو الصنم[3] . وقد عرفوا (الدُمية) بالصورة وبالصنم وبالصورة المنقشة بالعاج ، ونحوه . وعرّفوها أيضاً بالصورة المصورة لأنها يتأنق في ضنعتها ويبالغ في تحسينها[4] .

---

١ A. Grohmann, Göttersymbole, 56, Abb. 141, A. Grohmann, S. 241.

٢ A. Grohmann, S. 242.

٣ البرقوقي (ص ٢١٩) .

٤ اللسان (١٤/٢٧١) .

وقد اتخذ العرب الجنوبيون من الحجر أثاثاً لهم ، فنحتوا منه أسرّة وعروشاً . وقد عثر على قطع من المرمر ، هي من بقايا عروش أو كراسي عملت لبعض الأغنياء . وعثر على كراسي مصنوعة من أحجار أخرى . كما عثر على صناديق صنعت من حجر ، وقد زوّقت واجهاتها وزخرفت وحفرت عليها بعض الصور التي تمثل الأوراق والنباتات والأزهار والنوافذ أو واجهات البيوت[1] .

واتخذوا من الحجارة مذابح Altars . وللمذابح مكانة في الطقوس الدينية ورسوم العبادة عند الجاهليين . ويقال لها : (مذبحت) و (مذبح) و (حردن) . تذبح عليها حيوانات كبيرة مثل ثيران . وقد عثر على نماذج منها في مختلف المعابد[2] . وقد زين بعض منها وزخرف بصور حيوانات حفرت عليها أو نحتت كما حفرت عليها رموز لها علاقة بالعبادة والآلهة . وهي تفيدنا من هذه الناحية في الوقوف على فن الزخرف والنقش وعلى كل ما له من علاقة بالحياة الدينية عند الجاهليين .

وللمباخر والمجامر والمحارق أهمية أيضاً بالنسبة لمن يريد الوقوف على الفن الجاهلي . وقد عرفت المحارق بـ (مصرب) و (مشود) . وهي مواضع لحرق ما يقدم الى المعبد من ضحايا عليها[3] . وعرفت المجامر بـ (مسلم) ، وأما المبخرة ، فهي (مقطر)[4] . وقد عثر على نماذج عديدة منها . وقد صنعت من مواد مختلفة من مرمر ومن معادن . مثل البرنز أو الذهب أو الفضة . وقد تفنن في صنعها ، وبعضها مفتوح ليس له غطاء ، وبعض آخر له غطاء . وقد نقش على بعض منها اسم الطيب الذي يحرق بالمجمرة ، واسم صاحبها والمعبد أو الإله الذي خصصت به .

ولم يصل إلينا ويا للأسف من مصوغات الذهب والفضة شيء كثير . والصياغة صناعة اشتهر بها العرب الجنوبيون ، حتى بالغ في ذلك بعض الكتاب اليونان ، فأشاروا الى أوانٍ وأثاث وأدوات منزلية أخرى مصنوعة من الذهب والفضة[5] .

---

١ A. Grohmann, S. 243.

٢ Arabien, S. 247 f.

٣ Arabien, S. 248. Rep. Epig. 4708, 4839.

٤ Arabien, S., 248, A. Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiest, I, 115. f., C. Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidha, 49.

٥ De Mari Erythraeo, 2, Strabo, XVI, 778, Handb., I, S. 171.

ولكننا لم نر شيئاً مما ذكروا ، ولم يروا هم ذلك أيضاً بالطبع ، وإنما رووا ذلك عن طريق السماع .

ويعرف الذهب بـ (ذهب) في العربيات الجنوبية . وأما الفضة ، فيقال لها (صرف)[١] . وقد وردت أرض (شبا) في جملة الأماكن التي مونت العبرانيين بالذهب ، حمله اليهم تجار (شبا)[٢] .

وترد في الكتابات جمل مثل : (قدم تمثالاً من ذهب) ، مما يدل على أن العرب الجنوبيين كانوا ينذرون الى آلهتهم إن منت عليهم وأجابت طلبهم بأن يقدموا لها نذراً هو تمثال من ذهب . غير أن الباحثين لم يعثروا حتى اليوم إلاّ على عدد محدود من تماثيل صيغت من ذهب ، بل عثروا على تماثيل من البرنز . لذا ذهب بعضهم الى ان العرب الجنوبيين قصدوا بكلمة (ذهبن) ، أي (الذهب) ، معدن البرنز ، وذهب بعضهم الى أنهم قصدوا معادن طليت بماء الذهب[٣] .

وفي جملة ما هو محفوظ من أعمال الصاغة ، قلادة جميلة من الذهب عثر عليها في خرائب مدينة (تمنع)[٤] سبق أن وضعت صورتها قبل صفحات . وقلائد أخرى وصفائح من الذهب حفرت عليها صور بعض الحيوانات . كما عثر على معادن مطلية بطبقة من ذهب[٥] .

وقد وصلت قطع فنية نفيسة مصنوعة من المعادن ، تدل على ذوق عال وعلى مهارة في الصنعة واتقان . من ذلك مصباح يضيء بالزيت ، مصنوع من البرنز يتكيء على قاعدة . أما موضع الزيت ، فينساب انسياباً جميلاً ، وقد صنع بشكل متناسق ، وارتفع فوق المصباح من الطرف العريض تمثال (ايل) جميل جداً ربطه بالمصباح حزمة انفتحت عند اتصالها بالمصباح على هيئة أصابع يد . فلما ارتفعت ، اتصل بعضها ببعض على هيأة ضفيرة ، الى موضع اتصالها بالأيل . وقد انكسرت يدا الحيوان وكانت ممتدة . أما الرقبة والرأس والقرنان ، فقد صنعت بدقة وبمهارة ،وعلى الجملة ان القطعة تدل على تطور كبير في فن الصناعات اليدوية عند العرب الجنوبيين ، وذلك كما نراه في الصورة المذكورة .

---

١ Rhodokanakis, Stud., II, S. 167.

٢ حزقيال : الاصحاح السابع والعشرون ، الاية : ٢٢ .

٣ A. Grohmann, S. 230.

٤ W. Phillips, Qataban and Sheba, p. 114.

٥ A. Grohmann, S. 242.

ونرى في قطعة أخرى مصنوعة من البرنز فناً وخيالاً ، نرى رجلاً قد وضع على رأسه غطاءً يشبه الخوذة ، وأمسك بيديه أسدين ، فاليد اليمنى أمسكت بيد أسد ، واليد اليسرى أمسكت بيد الأسد الآخر وقد أدار الأسدان رأسيهما الى الجانبين ، وكأنهما يتلويان من شدة القبض عليهما ، وإن كانت لا تمثل أجزاء الأجسام تمثيلاً كاملاً ، تعطي انطباعاً حسناً ، وتعبر عن الفكرة تعبيراً طيباً [1] .

وهناك قطعة مصنوعة من البرنز كذلك ، تمثل منظراً رمزياً : ففي الوسط راقص يشبه شكله شكل الشيطان في الأساطير ، وقد اتصل فوق رأسه ، وعلى الغطاء عمود يحمل طيراً ماداً جناحيه . ويقابل الطائر أيلان ، انتصب كل أيل على جانب من جانبي الطير ، وكأنهما يتقاتلان، ويحمل الأيلان حيوانين [2] .

ونرى في هذه الصورة تمثالاً من البرنز لثور يرمز إلى الإله القمر ، وقد عثر عليه في (ظفار) .

تمثال مصنوع من البرونز يمثل اله القمر عثر عليه في ظفار .

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

---

١ Handb., I, S. 172.

٢ راجع الصورة المرقمة ٦٨ والمنشورة على الصفحة ١٧٢ من كتاب :
Handb., I, S. 172.

ونرى في هذه الصورة تمثال رجل صنع من النحاس . تظهر على شعر رأسه نتوءات بارزة كأنها الخرز ، وربما تمثل زينة ، أو تعبر عن شعر صاحبها المتموج. أما الوجه ، فلا يمثل وجه أهل اليمن ، بل كأنه يمثل وجهاً لـ (بوذا) ، أي وجهاً متأثراً بالفن الهندي الصيني القديم . الأنف فيه ضخم ، والفم كبير ، وقد غطى الجسم بقميص له رأس يغطي الرقبة ويصل الى الحنك،وتجد القميص مفتوحاً تحت الخصر ، وأما أعلى القميص فمغلق ، وقد شد على الخصر (خنجر) مستقيم، على طريقة أهل اليمن في حمل الخناجر الى هذا اليوم ، وقد مدت اليد اليمنى الى أعلى ، وظهرت أصابع الكف واضحة مفصلة . أما اليد اليسرى ، فقد مدت الى أعلى قليلاً ، وكفها مقبوض ، مكوناً ثقباً ، يظهر أنه صنع لوضع عصا في الثقب ، أو شيئاً آخر يرمز الى سيادة ومنزلة اجتماعية . ونجد الجسم لا يتناسب مع ضخامة الرأس والكتفين ، فهو ضئيل ضعيف . ونجد الأذن صغيرة بالنسبة الى الرأس . وقد وضعت في مقدم الشعر . ونرى ان الوجه حليق ، مما يدل على أن

بعض الناس كانوا يحلقون شعر أوجههم في تلك الأيام . وأما الرقبة فغليظة [1] .

وهناك قطع أخرى هي عبـــارة عن تماثيل بشر أو حيوانات مثل حيات أو جمال أو خيل أو جرذان وأمثال ذلك ، وقد صنعت من البرنز كـذلك ، بعضها في غاية الجودة والاتقان . ومن بين هذه القطع المتقنة عصا انتهى طرف منها على هيأة أفعى ، نرى فيها الأناقة والرشاقة ، وعصا أخرى رأسها على هيئة حيـــة وقـــد تدلى الى أسفل . والقطعتان من الصناعات المتأخرة ومن أواخر أيام دولة حمـير [1] .

وبين القطع القديمة المصنوعة من البرنز ، تمثال رجل ماش يبلغ ارتفاعه (٩٣) سنتمتراً ، رجله اليسرى متقدمة على اليمنى ، ويرى القسم الأعلى من الجسم عارياً إلا من جلد أسد أو فهد لف على الظهر ، ويتصل طرفاه بالصدر . أما الوركان فقد غطيا بمئزر شد على الجسم بحزام عريض . وقد جعل المثال الرأس وكأنــه قد غطي بخوذة مجعدة ، كناية عن الشعر ، وقد تدلى على الجبين . ووضع شيئاً أشبه بالريشة للمحافظة على الشعر ، وجعل للرجل لحية عبر عن تجاعيد شعرهـــا بعقد . وجعل العينين واسعتين ، أما الأنف فكبير ملتحم ، وأمـا الفم فصغير . وأما الجسم عموماً ، فهو نحيف . وقد عثر على هذا التمثال في المدخل المؤدي الى (حرم بلقيس) [3] . ويرى بعض الباحثين أنه يعود الى القـرن السابع أو السادس قبل الميلاد . وأن صاحبه كان من كبار الموظفين في أيامه ، وربمـا كان بدرجة حامل أختـــام الملك أو كاتم أسراره ، وقد قدم التمثال تقربة ونذراً إلى الإلـه (المقه) . ووجد اسم صاحبه مدوناً على الكتف الأيسر منه ، وهو (معدكرب) (معديكرب) [4] .

وبين التماثيل المصنوعة من البرنز تمثال امرأة وهي ترقص ، وقد لبست فستاناً طويلاً يمتد على سروال ، وكأنه يمثل الزي الفارسي القديم ، المعروف في العراق،

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 270.

٢ Handb., I, S. 173.

٣ A. Grohmann, S. 232.

٤ Jamme, Sabaean Inscriptions on two Bronze Statues from Marib, JAOS, 77, 1957, 32, 35, A. Grohmann, S. 232.

وقد أبدع صانع التمثال في عمله فجعله حياً ينبض بالحياة ، وقد ضيق خصر المرأة، وجعل الساقين بعضها فوق بعض ، ليأخذ جسمها وضع راقصة وهي في حـالة رقص ، كما ترى في هذا التمثال .
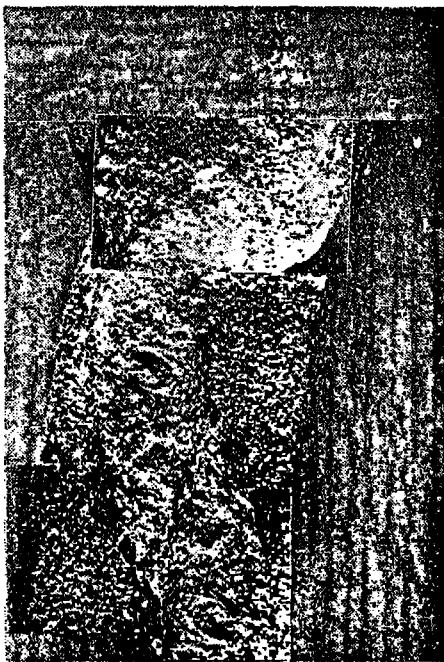
تمثال من البرونز لراقصة ، عثر عليه في ظفار •

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

ونجد في مصنوعات المعادن مصنوعات تتحدث عن وجود أثر عراقي عليها ، ومصنوعات أخرى تشير الى وجود أثر مصري أو يوناني أو هندي عليها . وقد نسب بعض الباحثين وجود هذا الأثر الى الصلات التجارية التي كانت تربط بين الأرضين المذكورة وبين العربية الجنوبية ، كما نسبوه الى أثر الرقيق المشترى من تلك البلاد والمستورد الى العربية الجنوبية ، حيث كلف بأداء الحرف اليدوية . وحيث أن هذا الرقيق كان من بلاد مختلفة،لهذا ظهر التنوع في هذه الصناعات[1] .

ومن المصنوعات البرنزية التي يظهر عليها أثر الفن اليوناني مجموعة التماثيل التي

---

١ A. Grohmann, S. 230. ff.

عثر عليها في بيت (يفش) في خرائب (تمنع)[1] ، وتماثيل أخرى حفظت في متحف (صنعاء) . وتمثالين لزنجيين عثر عليهما في موضع (نخلـة الحمرا) (نخلة الحمراء) على مسافة خمسين كيلومتراً جنوب شرقي (صنعاء) . وتماثيل أخرى لبعض الحيوانات ، مثل تمثال حصان وتمثال آخر لأسد .

والتماثيل البرونزية التي عثر عليها في بيت (يفش) بمدينة (تمنع) ، هي من الآثار المهمة التي عثر عليها في أرض قتبان . ونظراً للأثر (الهليني) البارز على جسم الأسد وعلى وجه راكبه المحافظ على الملامح اليونانية يرى الباحثون انها من القطع الفنية التي ربما يعود عهدها الى القرن الأول للميلاد ، حيث كان اليونان اذ ذاك يمخرون عباب البحار ، وكان تجارهم ينقلون المصنوعات اليونانيـة الى مختلف الأنحاء من العالم ، لبيعها ولشراء ما يحتاجون اليه من النفائس التي لا توجد في بلاد اليونان وفيما وراءها . والظاهر ان الفنانين العرب ، وقفوا على قطع فنية يونانية ، فقلدوها وعملوا على صنع مثلها،وقد ضربوا على القاعدة الحروف المسند، الدالة على صاحب البيت . ومن هذه التماثيل تمثال أسد ، امتطى على ظهره ولد بيده اليمنى لجام ، وبيده اليسرى شيء يشبه القفل ، وقد صنع الأسد وكأنه يريد الوثوب ، وذلك كما تراه في الصورة . وقد قدّر تأريخ صنعه فيما بين السنـة ٧٥ و ٥٠ قبل الميلاد . ومنهم من يجعله بعد ذلك،أي في القرن الأول للميلاد[2] .

وقد تبين من هذه التماثيل أن العرب الجنوبيين ، كانوا ينتعلون نعالاً على نحو أنعلة هذا اليوم ، وهي سميكة لتقاوم الأرض فلا تأكلها عند المشي ، كما تبيـن لنا من دراسة هذه التماثيل أن بين ملابس العربية القديمة قبل الإسلام وبين ملابس العرب في اليمن وفي بقيـة العربية الجنوبية في الوقت الحاضر تشابه كبير . ومن الممكن في هـذا اليوم عمل دراسة عن ملابس العرب الجنوبيين بالاستعانة بهذه التماثيل وبالصور المحفورة على الأحجـار ، التي تمثل مختلف طبقات المجتمع في ذلك العهد .

---

١ Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, I, 155, ff., B. Segall, Sculpture from Arabia Felix, The Hellevistic Period, AJA, 59, (1955), 210.ff., Grohmann, S. 234.

٢ Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 155.

تمثال الاسد وعليه طفل . وقد أخذت الصورة من كتاب : Qataban and Sheba
لمؤلفه وندل فيلبس (ص ١١٢) .

تمثالان صنعا من البرنز ، ويرى على التمثال أثر الفن « الهيليني » واضحا بارزا .
من كتاب : Qataban and Sheba (ص ١٨٩)

أما الخشب المزخرف ، فهو وجه آخر من أوجه الفن وأضرابه ، وقد استعمل في البناء وفي أثاث البيت وفي صنع التماثيل والألواح المكتوبة وفي أغراض أخرى. وقد عثر المنقبون على نماذج منه . ولما كان الخشب معرضاً للتلف والهلاك أكثر من المعدن والحجر ، لذلك فإن يد الطبيعة قد لعبت بالكثير منه ، كما استعملته يد الإنسان قبل الاسلام وبعده في أمور أخرى غير الأمور التي خصصها أصحاب تلك الأخشاب لها ، لذلك زالت معالم الكثير منها ، واستعمل بعض منه في الوقود وفي أعمال البناء . ولا زلنا لا نملك نماذج من الأثاث المعمول من الخشب ، مثل صناديق لحفظ الألبسة والأشياء الأخرى التي تحتاج الى حفظ،وسرر منامة وكراسي وغير ذلك مما يستعمله الانسان في حياته من مصنوعات الخشب .

إن الفنان العربي الجنوبي حاول جهد طاقته إظهار شخصيته في أعماله الفنية ، وهو وإن كان قد حاكى غيره وقلده في بعض الأمور ، غير أنه نجح في اعطاء فنه صورة المحيط الذي عاش فيه . فنرى السحنة اليمانية على وجوه بعض التماثيل، ولا سيما في أوجه الرجال.ونجد الطابع العربي الجنوبي يبرز على بعض المصنوعات. وسوف يزداد علمنا ولا شك في المستقبل بالفن العربي الجاهلي في المستقبل حين تهدأ الأحوال وتقوم البعثات العلمية بالحفر العلمي المنظم في جزيرة العرب ، فربما يعثر على أعمال فنية تغير وجهة نظر العلماء المكتوبة عنه في هذا اليوم .

وأما الحديث عن الفن في الحجاز قبل الاسلام ، فحديث مقتضب مختصر ، لأن البحث العلمي لم يبدأ هناك حتى الآن . فاقتصر علمنا عنه على ما ورد في الموارد الاسلامية وحدها . وما ورد في هذه الموارد هو اشارات عارضة ذكرت عرضاً في أحوال لا علاقة لها بالفن بل في البحث عن أمور أخرى ، مثل : فتح مكة ، حيث أشير الى وجود تصاوير وأصنام في الكعبة ، أمر الرسول بطمسها وازالة معالمها وبكسر كل ما كان هناك من أصنام،ومثل ما جاء في كتب الحديث والفقه عن (الصور والتماثيل) في باب النهي عنها في الاسلام . وذلك يدل على ان بعض أهل مكة وسائر مواضع الحجاز الأخرى ، كانوا يضعون الصور والتماثيل في بيوتهم ، وان طائفة من الناس كانت تصوّر وتتعيش من بيع الصور ،. وأن طائفة أخرى كانت تنحت وتعمل التماثيل ، وأن طائفة من النساجين والخياطين كانوا يجعلون صور انسان أو حيوان على الستائر أو الملابس لتزويقها ، فنهى عن

ذلك الاسلام[1] .

ونحن لو أخذنا بروايات أهل مكة عن بناء الكعبة ، خرجنا منها على أن الكعبة لم تكن عند ظهور الاسلام وبعد تعميرها الأخير قبل البعثة ، شيئاً يذكر من ناحية الفن والهندسة المعمارية ، فهي لم تكن سوى بيت مكعب ، تحيط بحرمه البيوت ، ولم يكن الحرم واسعاً وله سور ، وانما كان ساحة مفتوحة تجاوز عليها أهل مكة ، فأدخلوا جزءاً منها في بيوتهم ، ولذلك اضطر الخلفاء إلى توسيعها ، بشراء البيوت المجاورة وهدمها لاعادة ادخالها في الحرم . ونحن لا نجد اليوم أثراً باقياً على وضعه وحاله من آثار الجاهلية سوى (الحجر الأسود) ، وبئر زمزم ، أما الأشياء الأخرى مثل الكعبة ، فإنها من بناء الاسلام .

أما بيوتها ، فلا علم واضح لنا عنها ، لأن أهل الأخبار لم يتحدثوا عنها حديثاً فيه إفاضة ، وقد ورد في خبر إساءة الجوار لرسول الله ، أن رسول الله كان يجلس تحت ظلة أمام باب داره ، فكان جيرانه يرمونه بالحجارة ، مما يدل على أنهم كانوا يبنون ظللاً على أبواب بيوتهم يجلسون تحتها على (دكة) ويستظلون بها من حرارة الشمس حين وقوفهم أمام الباب . ولا بد وأن تكون بيوت تجار مكة ، من حجارة وكلس ، وقد تكون من طابقين أو أكثر ، ولكن الأخبار لا تتحدث بحديث مفصل عنها .

وفي أعالي الحجاز ، آثار من بقايا أبنية ومن تماثيل وكتابات مكتوبة ومن تصاوير نقشت على الصخور ، تعبر عن حالة النقّاش الذي نقشها ، وهو من الأعراب . وفي جملة الصور مناظر إنسان يصيد غزالاً ، أو يجاهد في قتل أسد أو حيوان مفترس ، أو فارساً قد امتطى ظهر فرسه : أو مناظر قطعان حيوانات وحشية أو أليفة ، وما شاكل ذلك من مناظر تمر على عيون الرعاة . وبعض هذه الصور مما يعود عهده الى ما قبل الميلاد . وهي تستحق الدرس وتوجب على عشاق الفن دراسة النواحي الفنية والتعبيرية في هذه الصور المرسومة على الأحجار والصخور .

وفي المتحف البريطاني حجر ، رمز اليه بـ B. M. 120928 كتب عليه بالحروف الصفوية (هف زبن بن أحرب) أي (هذا لزبان بن أحرب) . وقد حفر صورة جمل تحت الكتابة ، جعله لاعباً بذنبه ، وله سنام ضخم لا يتناسب حجمه

---

١ تنوير الحوالك (٢/٢٤١) ، تاج العروس (٤/٤٢٣) ، (قصص) .

مع جسم الجمل ، وله رقبة ورأس،أقرب إلى رقبة الزرافة ورأسها من رأس ورقبة الجمل . ولكن الرسم لا بأس به بصورة عامة ، إذا أدركنا أن راسمه من الأعراب الذين عاشوا قبل الإسلام .

ونجد في الأحجار الصفوية الأخرى ، صور فرسان ، وهـم يتحاربون ، أو يتسابقون ، وصور خيـل وحيوانات أخرى . وبعض هذه الصور في غاية من الاتقان والإبداع ، وبعضها تمثل فناً بدائياً ، لكنه يعبر عن وجود قابليـة لدى راسمي هذه الصور الذين كانوا أعراباً يتنقلون في البوادي ، وهم مع ذلك كتبة ، لأننا نجد أسماء من رسم هذه الصور مكتوبة تحتها أو حولها لتدل عليهم .

وأما العربية الشرقية ، فقد عثرت البعثات التي نقبت بها على أعمال فنية عديدة، وقد عثر في (أبـو ظبي) وفي أماكن أخرى من الخليج على آثار لم تكن معروفة من قبل . وقد أشرت في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى عثور المنقبين عن الآثار على آثار مهمة في البحرين وفي جزيرة (فيلكا) من جزر الكويت ، وهي

منظر المعبد الهيليني بعد تنظيفه ، وهو في جزيرة فيلكا وهو من منشورات قسـم المتاحف والاثار بدولة الكويت

تشير الى أثر الاختلاط الذي كان بين الهند ، وفارس والروم والعراق وبين سكان الخليج ، قبل الميلاد بعهود طويلة . ولا بد وأن تنبت في هذه الأرضين حضارة مختلطة ، لأنها على ساحل بحر ، وعلى طريق يعتبر من أهم طرق العالم في التجارة وفي المواصلات الدولية في القديم وفي الحديث .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة (فيلكا) بقايا معبد يوناني ، بناه جنود الاسكندر حين أقاموا واستقروا بها ، وقد تمكنت البعثة (الدانماركية) التي نقبت في هذه الجزيرة من العثور عليه ،ونظفت ساحته حتى ظهر على هذه الصورة التي تراها في الصفحة السابقة .

وفي جملة ما عثر عليه في جزيرة (فيلكا) نقود تعود الى أيام (السلوقيين) خلفاء الاسكندر ، وآثار اليونانيين الذين أقاموا في هذه الجزيرة منـــذ جاء جيش الاسكندر لفتح الهند . فاستقر قسم منهم بها وأنشأ معبداً فيها ، عثر في أنقاضه على بقايا أعمدة حجرية استخدمت لرفع سقفه ، يظهر عليها الأثر الهليني بكـــل وضوح ، وعلى أحجار منقورة مزخرفة وعلى كتابات . وقد استخدم الحجر في أعمال البناء ، كما ترى ذلك في الصورة المأخوذة لموضعه، بعد تنظيفه وإعادة دائرة

تمثال أفروديت ، ويعود عهده الى حوالي السنة ٢٠٠ قبل الميلاد
وهو من منشورات قسم الاثار والمتاحف بدولة الكويت

الآثار والمتاحف في الكويت للأحجار الى مواضعها . كما عثر في هذه الجزيرة على جرار كثيرة تعود الى العهد البرونزي ، تشبه الجرار الخزفية التي لا زال الناس يستعملونها في مواضع متعددة من جزيرة العرب .

ومن أبدع ما عثر عليه في هذه الجزيرة ، تمثال صغير من الطين المحروق يمثل (أفروديت) ، يعود عهده الى حوالى السنة (٣٠٠) قبل الميلاد ، وهو تاريخ انشاء هذا المعبد ، ومخربشة جميلة ، تمثل شجرة ، يظهر انها كانت قد وضعت في أعلى واجهة المعبد . وتمثال رأس الاسكندر ، تحيط به الهالة ، وتمثال آخر ، صنع من الطين المحروق ، وعدد كبير من الأختام، حفرت عليها مناظر مختلفة ، فيها صور حيوانات ، يعود عهدها الى القرن الثالث قبل الميلاد .

تمثال رأس الاسكندر تحيط به الهالة
من منشورات قسم الاثار والمتاحف بدولة الكويت

أما عن الفن العربي في العراق ، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عنه إلا بإيجاز مخل ، وسبب ذلك ، أن الحيرة التي كانت عاصمة المناذرة ، والتي كانت من أكبر المستوطنات العربية ، هدمت في الفتح الاسلامي وما بعده لاستخدام طابوقها

وأخشابها في بناء (الكوفة) . فقد بني مسجد الكوفة بأنقاض قصور الحيرة ، فزالت بذلك معالم تلك المدينة ، ولم يبق منها أي شيء بتوالي الأيام .

ويظهر من الأخبار الواردة في كتب أهل الأخبار ، أن أهل الحيرة كانوا يتخذون (إيواناً) في قصورهم • يجعلونه موضعاً يجلسون فيه . عرف بالإيوان الحيري . وقد كانوا يزخرفون الجدر باستعمال (الآجر) المزخرف . كما كانوا يطلون الجدر على الطريقة العراقية القديمة بطبقة من (الجص) ، ليظهر أملس أبيض ، وكانوا يطلون الجدر الخارجية للبيوت بهذه الطبقة ، ومن هنا بدت مدينتهم وكأنها مدينة بيضاء ، فقيل لها الحيرة البيضاء .

التصوير :

وقد عثر المنقبون والباحثون عن الآثار القديمة على رسوم بشر وحيوان ونبات نقشها الجاهليون على الصخور والحجارة، يرمز بعض منها الى أمور دينية وأساطير قديمة . ويعبر البعض الآخر عن مواهب فنية عند حافري هذه الصور ، وعلى مقدرة تقدر في الرسم ، وعلى وجود ميول فطرية عند أصحابها في الفن ، وفي محاولة إبراز العواطف النفسية والتعابير بلغة فنية يفهمها كل إنسان ، هي لغة الرسم والنقش .

وفي أخبار أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يتقربون الى الصور، كما كانوا يزينون بيوتهم بالصور وبالنسيج المصور ، كما كانوا يستعملون ستائر ذات صور، ويلبسون ملابس ذات صور ورسوم . ولما فتح الرسول مكة ، أمر بتحطيم ما كان بها من أصنام وأوثان . وقد ذكر أهل الأخبار ، انه كانت في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وجد صور الملائكة وغيرهم ، فرأى ابراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة أجمعين . فأمر الرسول بطمس تلك الصور ، فغسلت بالماء ، ومسحت بثوب بلّ بالماء ، فطمست ، إلا صورة عيسى بن مريم وأمه ، إذ أمر الرسول بابقائها كما تقول بعض الروايات ، فبقيت الى ايام (عبدالله بن الزبير) ، فلما

تهدم البيت ، تهدمت الصورة معه[1] .

وفي شعر (امرى القيس) اشارة الى التصوير . ففي البيت :

بلى ربّ يوم ٍ قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثـال

اشارة الى التصوير . فالخط ، الكتابة والرسم ، والتمثال الصورة ، والصنم ، أي التمثال المجسد . والتماثيل الصور . وقد كانوا يصورون الصور ويرسمونها قبل الاسلام[2] .

ولكننا لا تملك اليوم صوراً زيتية أو صوراً أخرى مرسومة بالألوان او بالحبر او الصبغ الأسود علـى أدم او قراطيس ، او الواح ، فإن مثل هـذه الصور لا يمكن أن تعمر طويلاً تحت الأتربة لذلك تبلى، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على مثل هذه الصور ، لما ذكرته من وجود الصور والتصوير عنـد الجاهليين .

وقد كان الجاهليون يقتنون الصور يضعونها في بيوتهم للزينة ، كما كان هناك مصورون يعيشون من بيع الصور التي يرسمونها ، وصنّاع تماثيل ، ينحتونها او يعملونها بالقوالب بجعـل عجين الجبس فيها ، فإذا جفّ أخذ شكل التمثال ، فيباع . وقد أشير الى التصوير وصنع التماثيل في الحديث ، بمناسبة ما ورد فيـه من كره الإسلام للتصـوير ، أو تحريمه كما ذهب اليه البعض ، فقـد كره في الاسلام تصوير كل ذي روح ، مثـل تصوير إنسان أو حيوان ، وكره بيع المصورات ، واتخـاد التصوير حرفة يتعيش منها . وقـد سأل بعض المصورين (ابن عباس) رأيه في التصوير ، وهي حرفته التي كان يتعيش منها ، فنهاه عنها ، إلا إذا صور شجراً أو شيئاً لا روح فيه . وكانت معيشة هـذا المصور من صنعة يده ، يصنع التصاوير ويبيعها للناس[3] .

---

١ الازرقي (١/١٠٤ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣/٨٧) ، ابن هشام ، سـيرة (٢/٢٧٤ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٢/٢٧٤ ومـا بعدها) ، ابن الاثير (٢/١٠٥) ، نهاية الارب (١٧/٣١٣) ، أمتاع الاسمـاع (١/٣٨٥) .

٢ الخزانة (١/٣١) ، (بولاق) .

٣ ارشاد الساري (٤/١٠٧) ، (باب بيع التصاوير) .

وقد كانت الوثنية لا تتعارض مع التصوير ، بل كانت تشجعه وتشجع الفنون الجميلة . فقد كانت الأصنام عماد سنّتهم ، واليها كانوا يتقربون ، وكانوا يضعونها في بيوتهم للتقرب اليها والتبرك بها ، كما أنهم لم يكرهوا الغناء ولا الموسيقى ، لما لهما من صلة بأعيادهما وبالطقوس الدينية .

وقد منع من بيع الأصنام ، أي التماثيل في الاسلام ، كما حرم بيع الصور المتخذة من جوهر نفيس[1] ، وكان بين أهل مكة وغيرها من القرى أناس يتعيشون من بيعها ، ويتفننون في صنعها ، فماتت بذلك هذه الحرفة التي هي من الفنون الجميلة ، مثل التصوير .

1 ارشاد الساري (٤/١١٤) ، (باب تحريم بيع الميتة والاصنام) .

الفصل العشرون بعد المئة

أمية الجاهليين

الشائع بين كثير من الناس ان العرب قبل الاسلام كانوا في جهالة عمياء وضلالة، لا يقرأون ، ولا يكتبون ، وان الكتابة كانت قليلة بينهم ، واستدلوا على رأيهم هذا باطلاقهم لفظة (الجاهلية) على ايامهم ، وبما جاء من انهم كانوا قوماً (أميين لا يكتبون) . واستدلوا على ذلك بحديث ذكر ان الرسول قاله ، هو « إنا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب »[1] .

وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن معنى (الجاهلية) ، وعن الآراء التي قيلت فيها ، حديثاً فيه إفاضة وإحاطة ، وقد قلت فيما قلته ان تفسير الجاهلية بالجهل ، الذي هو ضد العلم ، تفسير مغلوط ، وان المراد من الجاهلية السفه والحمق والغلظة والغرور ، وقد كانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهلي آنئذ ، وتحدثت في كتابي : (تأريخ العرب قبل الاسلام) عن معنى الأمية وذلك في اثناء كلامي على أمّية الرسول وآراء العلماء فيها من مسلمين ومستشرقين[2]، وقلت ان للأمية معنى آخر غير المعنى المتداول المعروف ، وهو الجهل بالكتابة والقراءة . فقد ذكر (الفرّاء) وهو من علماء العربية المعروفين ، ان الأميين هم

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨) ، الصاحبي (٨/١١) ، تفسير القرطبي (٢/٥) ، البقرة الاية ٨٧ ، اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) ، تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .

٢ الصفة ١٣٦ وما بعدها .

العرب الذين لم يكن لهم كتاب[1] . ويراد بالكتاب . التوراة والانجيل . ولذلك نعت اليهود والنصارى في القرآن بـ (اهل الكتاب) . وهذا المعنى يناسب كل المناسبة لفظة (الأميين) الواردة في القرآن الكريم ، وتعني الوثنيين اي جماع قريش وبقية العرب ، ممن لم يكن من يهود وليس له كتاب .

وللعلماء آراء في الأمية ، وذلك لما لها من صلة بالرسول ، ولما كان القرآن قد نعت قوم الرسول بالأميين ، وجعل الرسول أمياً مثلهم، فقد ذهبوا الى ان العرب كانوا قبل الاسلام أميين بمعنى انهم كانوا لا يقـرأون ولا يكتبون إلا من شذّ منهم وندر ، وإلا أفراداً من أهل مكة ، زعموا انهم تعلموا الكتابة من عهد غير بعيد عن الاسلام ، ولو أخذنا أقوالهم مأخذ الجد ، وجب علينا القول بأنهم انما تعلموها في حياة الرسول اي قبل الوحي بسنين ليست بكثيرة ، وان مكة كانت المدينة الوحيدة التي عرفت الكتابة في جزيرة العرب ، وهو كـلام لا يقوم على علم . فقد كان بيثرب كتّاب يكتبون بكتاب مكة ، وكان في أماكن أخـرى كتّاب يكتبون بكتابهم أيضاً ، فضلاً عن انتشار الكتابة بالمسند في العربية الجنوبية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب .

والرسول أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ، فإذا أراد كتابة رسالة او عهد او تدوين للوحي ، أمر كتابه بالتدوين . على ذلك أجمع المسلمون . وقد وردت في القرآن آيات مثل : « اقرأ باسم ربك »[2] ، وآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون »[3] . اخذها البعض على ان فيها دلالة على ان النبي كان يقرأ ويكتب ، واستدل أيضاً ببعض مـا ورد في كتب الحديث والسير ، وفيه ما يفيد انه كان ملماً بالقراءة والكتابة . كالذي ورد في صلـح (الحديبية) انه « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة. وهو ما وقع في البخارى»[4]. وما جاء في السيرة لابن هشام : « فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكتب

---

١ المفردات (ص ٢٢) .

٢ سورة اقرأ ، الآية الاولى .

٣ العنكبوت ، الاية ٤٨ ، تفسير الطبري (٤/٢١) .

٤ الروض الانف (٢/٢٣٠) ، الحلبية (٣/٢٣ وما بعدها) .
Nöldeke, Geschichte des Qorâns, I, S. 13.

الكتاب هو وسهيل »[1] . وما جاء في البخاري : « وأخـــذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب ليكتب ، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد »[2] . وقالوا ان في هذا المذكور وفي غيره من مثل ما ورد من ان الرسول « لما اشتد وجعه ، قال : ائتوني بالدواة والكتب اكتب لكم كتاباً لا تضلون معه بعدي أبداً »[3] ، ومثل ما ورد « في حديث أبي بكر رضي الله عنه ، انه دعا في مرضه بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده »[4]،دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة[5] .

وللعلماء كلام في الأدلة المذكورة ، ولهم آراء في تفسير الآيات التي تعرضت لموضوع الأمية . والأمي في تفسير علماء اللغـــة من لا يكتب ، او العيّ الجلف الجافي القليل الكلام . قيل له أمي لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكـــلام وعجمة اللسان[6] ، او الجهل التام بالقراءة والكتابة . « لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب »[7] ، او لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة او عديمة[8] ، او الأمي الذي على خلقة الأمة ، لم يتعلم الكتاب ، فهو على جبلته . وقد ورد في الحديث : « إنا أمة أمية لا نكتب »[9] ، او « إنا أمـــة أمية لا نكتب ولا نحسب »[10] ، او « بعثت الى أمة أمية » ، فذهبوا الى ان العـــرب كانوا على أصل ولادة أمهم ، لم يتعلموا الكتابة ولا الحساب ، فهم على جبلتهم الأولى . « وكل شيء للعرب ، فإنما هو بديهة وارتجال ... ثم لا يقيـده على نفسه ولا

---

١ Nöldeke, I, S. 13.

٢ الروض الانف (٢/٢٣٠) ، الطبري (٣/٨٠) ، (السنة السادسة) ، (٢/٦٣٥) (دار المعارف) ، الحلبية (١/٢٤) .

٣ البلاذري (١/٥٦٢) ، (ائتوني باللوح والدواة – أو بالكتف والدواة – أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده) ، (ائتوني أكتب كتابا لا تضلوا بعدي أبدا) ، الطبـــري (٣/١٩٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٤ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) .

٥ Nöldeke, I, S. 12. ff.

٦ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

٧ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .

٨ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .

٩ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

١٠ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) ، المفردات (٢٢) . اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

يدرسه احداً من ولده . وكانوا اميين لا يكتبون »[1] .

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (الأمي)[2] ، و (أميون)[3] ، و (اميين)[4] ، ونعت الرسول بـ (النبي الأمي)[5] ، وردت في سور مكيـــة وفي سور مدنية . وردت لفظة (الأمي) في سورة الأعراف ، وهي من السور المكية ، ووردت لفظة (أميون) و (الأميين) في سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة الجمعة ، وهي من السور المدنية . ويلاحظ ان الآيتين المكيتين،خاصتان بالرسول، فنعت فيها بـ (النبي الأمي) ، اما الآيات المدنية ، فقد قصد بها (الأميين) ، الذين ليس لهم كتاب . بمعنى المشركين :

وقد بحث (الراغب الاصبهاني) في معنى (الأمية) فقال : « والأمي : هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل:هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال قطرب : الأمية : الغفلة والجهالة . فالأمي منـــه ، وذلك هو قلة المعرفة . ومنه قوله تعالى : ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا اماني ، اي إلا ان يتلى عليهم . قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب . والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، قيل منسوب الى الأمة الذين لم يكتبوا لكونهم على عادتهم . كقولك عامي لكونه على عادة العامة . وقيل : سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله : سنقرئك فلا تنسى . قيل سمي بذلك لنسبته الى أم القرى »[6] .

وقد ذهب بعض العلماء الى ان الأميين من لا كتاب لهم من الناس ، مثـــل الوثنيين والمجوس ، قال الطبري في تفسير الآية : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا »[7] : « يعني بذلك جل ثناؤه ، وقل

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨) .
٢ الاعراف ، الاية ١٥٦ وما بعدها .
٣ البقرة ، الآية ٧٨ .
٤ ال عمران ، الاية ١٠ ، ٧٥ ، الجمعة ، الاية ٢ .
٥ الاعراف ، الاية ١٥٦ وما بعدها .
٦ المفردات في غريب القرآن (٢٢) .
٧ آل عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٢٠ .

يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين ، الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أأسلمتم .. »[1] . وذهب كثير من المفسرين الى ان الأميين الذين لا كتاب لهم ، اي الذين ليسوا يهوداً ولا نصارى . وورد : « ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره ان يظهر الأميون من المجوس على اهل الكتاب من الروم »[2] . قال الطبري : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكره ان يظهر الأميون من المجوس على اهل الكتاب من الروم ، ففرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : انكم اهل كتاب والنصارى اهل كتاب ، ونحن اميون ، وقد ظهر اخواننا من اهل فارس على اخوانكم من اهل الكتاب »[3] . فالمسلمون اهل كتاب ، والمجوس اميون كمشركي مكة وبقية العرب المشركين ، لا لكونهم لا يقرأون ولا يكتبون ، بل لأنهم لم يؤمنوا بالتوراة والانجيل .

ويلاحظ ان الآية : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين »[4] ، والآية : « ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل »[5] ؛ والآية : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا اماني »[6] ، وكذلك: « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »[7] ، لا تؤدي معنى الأمية ، بمعنى الأمة الجاهلة بالقراءة والكتابة ، لعدم انسجام التفسير مع المعنى ،وانما تؤدي معنى وثنية ، اي امة لم تؤمن بكتاب من الكتب السماوية ، اي في المعنى المتقدم .

«والأمي والأمان –بضمهما– من لا يكتب او من هو على خلقة الأمة لم يتعلم الكتاب ، وهو باق على جبلته . وفي الحديث: إنا أمة امية،لا نكتب ولا نحسب . اراد انه على اصل ولادة امهم ، لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى .

---

١ تفسير الطبري (١٤٣/٣)
٢ روح المعاني (١٧/٢١ وما بعدها) ، (كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن يغلب أهل فارس لانهم أهل أوثان) ، تفسير الطبري (١٢/٢١ وما بعدها) ٠
٣ تفسير الطبري (١٣/٢١) ٠
٤ ال عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٢٠ ٠
٥ ال عمران ، الرقم ٣ ، الاية ٧٥ ٠
٦ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٧٨ ٠
٧ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ ٠

وقيل لسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن امة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولاً ، وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد اخرى ، بالنظم الذي انزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، ففي ذلك انزل الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون . وقال الحافظ ابن حجر في تخريج احاديث الرافعي ان مما حرم عليه صلى الله عليه وسلم : الخط والشعر ، وانما يتجه التحريم ان قلنا انه كان يحسنها ، والأصح انه كان لا يحسنها ، ولكن يميز بين جيد الشعر ورديئه . وادعى بعضهم انه صار يعلم الكتابة بعد ان كان لا يعلمها لقوله تعالى من قبله في الآية . فإن عدم معرفته بسبب الاعجاز . فلما اشتهر الاسلام وأمن الارتياب عرف حينئذ الكتابة . وقد روي عن ابن ابي شيبة وغيره : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب وقرأ ، وذكره مجالد للشعبي . فقال ليس في الآية ما ينافيه . قال ابن دحية : واليه ذهب ابو ذر الفتح النيسابوري والباجي وصنف فيه كتاباً ، ووافقه عليه بعض علماء افريقية وصقلية . وقالوا : ان معرفة الكتابة بعد اميته لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة اخرى بعد معرفة اميته وتحقق معجزته ، وعليه تتنزل الآية السابقة والحديث فإن معرفته من غير تقدم تعليم معجزة . وصنف ابو محمد بن مفوز كتاباً رد فيه على الباجي وبين فيه خطأه ، وقال بعضهم يحتمل ان يراد انه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف ، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم اميون ، والى هذا ذهب القاضي ابو جعفر السمناني »[١] .

وقد تعرض (الألوسي) لهذا الموضوع في تفسيره الآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ، وما يجحد آياتنا إلا الظالمون »[٢] . فقال: « واختلف في انه صلى الله عليه وسلم ، أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب ام لا ؟ فقيل انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوي في التهذيب ، وقال : انه الأصح . وادعى بعضهم انه صلى الله عليه وسلم ، صار يعلم الكتابة بعد ان كان

١ تاج العروس (٨/١٩١) ، (أمم) .
٢ العنكبوت ، ٢٩ ، الاية ٤٨ ، تفسير الطبري (٢١/٤) ، تفسير الالوسي (٢١/٤)

لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الاسلام وظهر امر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ . وروى ابن ابي شيبة وغيره: ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ . ونقل هذا للشعبي فصدقه،وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه . وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على الجنة : الصدقة بعشر امثالها ، والقرض بثمانية عشر .

ثم قال : ويشهد للكتابة احاديث في صحيح البخاري وغيره ، كما ورد في صلح الحديبية : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله ، الحديث .

وممن ذهب الى ذلك ابو ذر عبد بن احمد الهروي ، وابو الفتح النيسابوري ، وابو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمناني . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه اليه ابن منية. ولما قال ابو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزندقة وسبّ على المنابر، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدّعاه ، وكتب به الى علماء الأطراف، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد اميته صلى الله عليه وسلم ، لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة اخرى لكونها من غير تعليم .

وقد رد بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح إنا أمة أمية نكتب ولا نحسب . وقال : كل ما ورد في الحديث من قوله : كتب ، فمعناه امر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلان . وتقديم قوله تعالى : من قبله علي قوله سبحانه : ولا تخطه كالصريح في انه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً . وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطّرد . وظن بعض الأجلة رجوعه الى ما قبله وما بعده ، فقال : يفهم من ذلك انه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد انزال الكتاب ، ولولا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلواً من الفائدة . وأنت تعلم انه لو سُلّم ما ذكره من الرجوع ، لا يتم امر الإفادة إلا اذا قيل بحجية المفهوم ، والظانّ ممن لا يقول بحجيته .

ثم قال الألوسي في تفنيد هذه الردود ما نصه :

ولا يخفى ان قوله عليه الصلاة والسلام : إنا امة امية لا نكتب ولا نحسب ، ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام . ولعل ذلك باعتبار

انه بعث عليه الصلاة والسلام ، وهو واكثر من بعث اليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب اميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد . واما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالمكاتبة ، فخلاف الظاهر . وفي شرح صحيح مسلم للنووي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض : ان قوله في الرواية التي ذكرناها : ولا يحسن يكتب فكتب ، كالنص في انه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه ، فالعدول عنه الى غيره مجاز لا ضرورة اليه . ثم قال : وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا »[1] .

وبحث (القرطبي) في هذا الموضوع ايضاً ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الضمير في قبله عائد الى الكتاب ، وهو القرآن المُنزل على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، اي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف الى اهل الكتاب ، بل أنزلناه اليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ، ويخط حروفاً لارتاب المبطلون اي من اهل الكتاب ، وكان لهم في ارتيابهم متعلق ، وقالوا الذي نجده في كتبنا انه امي لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان اهل الكتاب يجدون في كتبهم ان محمداً صلى الله عليه وسلم ، لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية ؛ قال النحاس : دليلاً على نبوته لقريش ، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط اهل الكتاب ولم يكن بمكة اهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

الثانية : ذكر النقاش في تفسير الآية عن الشعبي انه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كتب . واسند ايضاً حديث ابي كبشة السلولي ؛ مضمنه : انه صلى الله عليه وسلم ، قرأ صحيفة لعيينة بن حصن ، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجي رحمه الله منه .

قلت : وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعليّ : اكتب الشرط بيننا : بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال له المشركون : لو نعلم انك رسول الله تابعناك — وفي رواية بايعناك — ولكن اكتب محمد بن عبدالله ، فأمر علياً

---

١ محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن (ص ٣٥٨ وما بعدها) (الطبعة الثانية) ، (عيسى البابي الحلبي) .

ان يمحوها ، فقال علي : والله لا أمحاه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرني مكانها ، فأراه فمحاها وكتب ابن عبدالله . قال علماؤنا رضي الله عنهم : وظاهر هذا انه عليه السلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيده ، وكتب مكانها ابن عبدالله . وقد رواه البخاري بأظهر من هذا . فقال : فأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الكتـاب فكتب . وزاد في طريق أخرى : ولا يحسن ان يكتب. فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وانه كتب بيده ، منهم السمناني وأبو ذر والباجي ، ورأوا ان ذلك غـير قادح في كونه أمياً ، ولا معارض بقوله : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، ولا بقوله : إنا أمة أميـة لا نكتب ولا نحسب ، بـل رأوه زيادة في معجزاته ، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته ، وذلك انه كتب عن غير تعلم لكتابة ، ولا تعاط لأسبابها ، وانما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبدالله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقاً للعادة ، كما انه عليه السلام عَلِم علم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب ، فكان ذلك أبلغ معجزاته ، وأعظم فضائله . ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك ، ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة : ولا يحسن ان يكتب. فبقي عليه اسم الأمي مع كونه قال : كتب . قال شيخنا أبو العباس احمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم ، وشددوا النكير فيه ، ونسبوا قائله الى الكفر ، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف في تكفـير المسلمين ، ولم يتفطنوا ، لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليـه السلام في الصحيح ، لا سيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ، عـلى ان المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار آحاد صحيحة ،غير ان العقل لا يحيلها ، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة ، فيقـال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا انها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب،وبكونه أمياً في أمة أمية قامت الحجة ، وأفحم الجاحدون ، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وانما الآية ألا يكتب،والمعجزات يستحيل ان يدفع بعضها بعضاً . وانما معنى كتب وأخذ القلم ، أي أمر منْ يكتب به من كتّابه،وكان من كتبة الوحي بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ستة وعشرون كاتباً.

الثالثة – ذكر القاضي عياض عن معاوية انه كان يكتب بين يـدي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ألق الدواة وحرّف القلم وأقم الباء وفرّق السين، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ، ومدّ الرحمن ، وجوّد الرحيم . قال القاضي : وهذا وان لم تصح الرواية انه صلى الله عليه وسلم ، كتب ، فلا يبعد ان يُرزق علم هذا ، ويُمنع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح في الباب انه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وانما امر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر الدجّال ، فقال : مكتوب بـين عينيه ك ا ف ر ، وقلتم ان المعجزة قائمة في كونه أمياً ، قال الله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، الآية . وقال : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب . فكيف هذا ؟ فالجواب ما نص صلى الله عليه وسلم ، في حديث حذيفة ، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً . ففي حديث حذيفة : يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، فقد نص في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أمياً . وهذا من أوضح ما يكون جلياً »[1] .

وقد ذهب (الطبرسي) في تفسيره للآية المذكورة الى ان الرسول ساوى قومه في المولد والمنشأ ، لكنه جاء بما عجز عنه الآخرون من كلام الله والنبوة ، فهو أمي مثلهم . ثم عرض رأي (الشريف المرتضى) ، القائل : « هذه الآية تدل على ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة، فأما بعد النبوة فالذي نعتقده في ذلك التجويز ، لكونه عالماً بالكتابة والقراءة والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين . وظاهر الآية يقتضي ان النفي قد تعلق بما قبل النبوة دون ما بعدها ، ولأن التعليل في الآية يقتضي اختصاص النفي بما قبل النبوة ، لأن المبطلين انما يرتابون في نبوته صلى الله عليه وسلم ، لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة . فأما بعد النبوة ، فلا تعلق له بالريبة والتهمة فيجوز ان يكون قد تعلمها من جبرائيل عليه السلام ، بعد النبوة »[2] .

وتعرض (الجاحظ) لهذا الموضوع أيضاً ، فقال نقلاً عن كلام شيخ من

---

١ الجامع لاحكام القرآن (١٣/٣٥١ وما بعدها) .
٢ الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن (الجزء الثامن من ٢٨٩) .

البصريين ، « إن الله انما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة،ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب ، من قيافة الأثر والبشر ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون اذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على انه من الله .

وزعم ان الله تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب الكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبياً ، وليتولى من تعليمه ما هو أزكى وأنمى . فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القبائل ليجلي له الكثير »[1] .

وقد رد (الجاحظ) على كلامه هذا ، بقوله : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير . وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه . ولو زعم ان أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة ، ومجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى ما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان اذا احتاج الى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، واذا احتاج الى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره ، والمعروف من شأنه انه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، ما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم . ولكنه اراد ألا يكون للشاغب متعلق عما دعا اليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وان رق ، وليكون ذلك أخف في المؤونة ، وأسهل في المحنة . فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطلق به ، والعادة توأم الطبيعة . فأما في غير ذلك فإنه اذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف . وكانت آلته أوفر وأداته أكمل،إلا انها كانت مصروفة الى ما هو أرد .

---

١ البيان والتبيين (٤/٣٢) .

وبين ان نضيف اليه العجز ، وبين ان نضيف اليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له ، فرقٌ .

ومن العجب ان صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو ان أطال الكلام قصر عنه كل مُطيل ، وان قصر القول اتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط واقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من امره عليه السلام خلاف ما توهم !؟ »[1] .

فهذا هو رأي الجاحظ في امية الرسول .

واما حديث : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، فيعارضه حديث آخر ينسب الى الرسول هو : « قريش اهل الله ، وهم الكتبة الحسبة »[2] . « ويقال قريش اهل الله ، لأنهم كتبة حسبة »[3] . والقرآن الكريم نفسه ، يفند ان قريشاً لم يكونوا يحسنون الكتاب او الحساب ، لما فيه من آيات تناقض هذا الرأي . وفي الحديث ، أحاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها ، لأنها ضعيفة ، ويشبه ان يكون الحديث المذكور واحد منها . ومن هذه الأحاديث الضعيفة ، حديث : « حق الوالد على ولده ان يعلمه الكتابة والسباحة ، والرماية ، وان لا يرزقه إلا طيباً » ، وحديث : « حق الوالد على ولده ان يحسّن اسمه ، ويزوّجه اذا أدرك ، ويعلمه الكتاب »[4] . والحديث المذكور من الأحاديث التي يرجع سندها الى (ابي هريرة) وفي الأحاديث المنسوبة اليه احاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها .

ولو أخذنا بالحديث على علاته ، وقبلناه دون نقد، كما يفعل كثير من الناس، وجب علينا القول ان الرسول كان يقرأ ويكتب . ورد : « وذكر صاحبُ الشرعة ايضاً ، انه صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاوية رضي الله عنه ، وهو يكتب بين يديه : ألقِ الدواة ، وحرّف القلم ، وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ، ومد الرحمن ، وجوّد الرحيم »[5] ، وانه قال (لزيد بن ثابت) وهو احد كتّابه : « اذا كتبتَ بسم الله الرحمن الرحيم فبيّن

---

١ البيان والتبيين (٣٣/٤ وما بعدها) .
٢ الصولي ، أدب الكتاب (٢٨) .
٣ حكمة الاشراق (٦٧) .
٤ الجامع الصغير ، رقم ٣٧٤٢ ، و ٣٧٤٣ ، حكمة الاشراف (٦٦ وما بعدها) .
٥ حكمة الاشراق (٦٧) .

السين فيه »[1] ، فهل يعقل صدور هذا الوصف ، وهذه التسمية للحروف، وهذه المصطلحات من رجل أمي ، لا يقرأ ولا يكتب. وقد روى الرواة هذين الحديثين مع تعارضهما لأقوال العلماء ، ورووا ايضاً ان (ابا ذر) الغفاري سأل الرسول : « يا رسول الله ، كل نبي مرسل بمَ يُرسل ؟ قال : بكتاب منزّل . قلت : يا رسول الله ، اي كتاب أنزل على آدم ؟ قال : ا ب ت ث ج الى آخره . قلت : يا رسول الله ، كم حرف ؟ قال : تسع وعشرون . قلت : يا رسول الله ، عددت ثمانية وعشرين ، فغضب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى احمرت عيناه ، ثم قال : يا ابا ذر ، والذي بعثني بالحق نبيــاً ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً . قلت : يا رسول الله ، فيها ألف ولام. فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد ، أنزله على آدم في صحيفة واحدة ، ومعه سبعون ألف ملك . من خالف لام ألف ، فقد كفر بما أنزل على آدم ! ومن لم يعدّ لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ! ومن لا يؤمن بالحروف، وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار ابداً »[2] . وبعد فهل نقبل بحديث من هذا النوع ، وكل ما فيه يطعن في صحته !

ويظهر صراحة من الآية : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[3] ، ان مرادها من الأميين ، ليس الجهل بالكتابة والقراءة ، وانما العرب الذين لم يكن عندهم كتاب منزل من السماء . ودليل ذلك ما اورده (الطبري) في تفسيرها من اقوال وروايات . فقد قال : « والأميون هم العرب » ، قال (قتادة) : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم . قال : كان هذا الحي من العرب امة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله نبيه محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، رحمة وهدى يهديهم بسه » ، وقال : « كانت هذه الأمة أميــة لا يقرأون كتاباً » ، وقال : « انما سميت امة محمد صلى الله عليه وسلم الأميين لأنه لم ينزل عليهم كتاباً » ، وقوله : « ويعلمهم الكتــاب . يقول ويعلمهم

---

١ الجامع الصغير (٨٣٥) ، حكمة الاشراق (٦٧) .

٢ صبح الاعشى (٣/٧) .

٣ الجمعة ، الاية ٢ .

كتاب الله وما فيه من امر الله ونهيه وشرائع دينه،والحكمة يعني بالحكمة السنن ». وقال : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ايضاً ، كما علم هؤلاء . يزكيهم بالكتاب والأعمال الصالحة ويعلمهم الكتاب والحكمة كما صنع بالأولين » ، وقال في تفسير « وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين . يقول تعالى ذكره ، وقد كان هؤلاء الأميون من قبل ان يبعث الله فيهم رسولاً منهم في جور عن قصد السبيل وأخذ على غير هدى مبــين . يقول يبين لمن تأمله انــه ضلال وجور عن الحق وطريق الرشد »[1] . وقال (ابن كثير) في تفسيرها : « وذلك ان العرب كانوا قديماً متمسكين بدين ابراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً ... فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل لجميع الخلق ، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون اليه من امر معاشهم ومعادهم »[2] . وقال (القرطبي) : قال ابن عباس : الأميون العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا اهل كتاب»[3]. فالأميون اذن هم العرب ، لأنهم كانوا اهل شرك ، وليس لهم كتاب ، وليس للفظة صلة بالأمية التي تعني الجهل بالقراءة والكتابة .

واما حديث : « إنا امة أمية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا : مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[4] . وقد نسب سنده الى (ابن عمر)،فحكمه حكم الحديث السابق ، وقد فسر الحساب ، بأنه حساب النجوم وتسييرها،لا الجهل بالحساب .

وقد ذهب (شبرنكر) الى ان الرسول كان يقرأ ويكتب ، وانه قرأ (اساطير الأولين)[5] ، و (شبرنكر) من المستشرقين العاطفيين . الذين يأخذون بالخبر ، مهما كان شأنه فيبني حكماً عليه .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان المقصود من الأميين هنا الوثنيون . وان الأمية هذه اخذت من اليهود الذين كانوا يطلقون لفظــة (امت) و (اميم)

---

١ تفسير الطبري (٢٨/٦١ وما بعدها) .
٢ تفسير ابن كثير (٤/٣٦٣) .
٣ الجامع لاحكام القرآن (١٨/٩١) .
٤ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .
٥ Nöldeke, I, S. 16, Ency. of Islam, Vol. IV, p. 1016.

على غيرهم ، يريدون بهـا الوثنيين . كما في جملـة : (امت ها عالولام) Ummot ha Olam [1] . وقـد أطلق اليهود على الغرباء وعلى كل من هو غير يهودي ، (كوي) Goy للواحد ، و (كويم) Goyim للجمع . وتقابل هذه اللفظة لفظة Gentile في اللاتينية . ويقال للغريب عنهم (اخريم) Ahrim و Nochrim ، كذلك، تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون الى انهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين[2] .

وذهب بعض المستشرقين اليهود الى ان لفظة (الأميين) معربة من اصل (كوى) و (كويم) المذكور[3] .

والذي أراه ان لفظة (أمي) و (أمية) لم تكن تعني عند الجاهليين معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بهما ، وانما كانت تعني عندهم : مشركين ووثنيين، وهو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم . والذي نعت الرسول فيه بالأمي ، لأنه من العرب ، ومن قوم ليس لهم كتاب ، عرفوا بذلك من قبل اهـل الكتاب اليهود . أما تفسيرها بالجهل بالكتابة والقراءة ، فقد وقع في الاسلام ، أخذوه من ظاهر معنى لفظة (الكتاب) الواردة في القرآن ، فظنوا انها تعني (الكتابة) بينما المراد منها الكتاب المُنزل ، لعدم انسجام تفسيرها بالكتابة مع معنى الآية ، ودليل ذلك انهم لما فسروا (الأمية) بمعنى عدم القراءة والكتابة حاروا في ايجاد مخرج لهذا التفسير ، فقالوا ما قالوه في تفسيرها من انها سميت بالأمية لأنها علي خلقة الأمة ، او لأنها على الجبلة والفطرة ، وأصل ولادة الأمهات وما شاكـل ذلك من تفاسير مضطربة باردة ، تخبر ان علماء اللغة لم يجدوا لها أصلاً ووجوداً عند الجاهليين فلجأوا الى هذه التعليلات[4] . ولو كانت الأمية معروفة عند اهـل الجاهلية بهذا المعنى لاستشهدوا عليها بشعر من أشعار الجاهليين أو المخضرمين ، ولما لجأوا الى هذه التفاسير المتكلفة ، لأن من عادتهم الاستشهاد بالشعر في تفسير

---

١ Shorter Ency. p. 764, Horovitz, Koranische Utersuchungen, 1926, S. 51, Buhl - Shaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, S. 56, Nöldeke, Geschichte des Qorans, I, S. 14.

٢ The Universe. Jewish Ency. Vol. 4, p. 533.

٣ Torrey, The Jewish foundation of Islam, New York, 1933, p. 38, Abram I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1934, p. 75.

٤ تاج العروس (١٩١/٨) ، (أمم) .

الألفاظ ، ولا سيا الألفاظ الغريبة ، فعدم استشهادهم بشاهد من شعر او نثر في تفسير الأمية هو دليل علـى ان اللفظة بهذا التفسير من الألفـاظ التي ولدت في الاسلام ، وانها لم تكن عربية خالصة ، وانما سمعوها من اهل الكتاب .

وعندي ان يهود يثرب هم الذين أطلقوا لفظة (الأميين) على العرب المشركين، على عادتهم حتى هذا اليوم في نعت الغرباء عنهم بألفاظ خاصة مثل (كوييم)، لتمييزهم عن أنفسهم ، باعتبارهم (شعب الله المختار) المؤمن بإله اسرائيل .

ومما يؤيد هذا الرأي ، اننا نطلق في عربيتنا لفظة (الأمي) على من لا يعرف القراءة والكتابة معاً ، بينما نطلق على الشخص الذي يحسن القراءة ولا يحسن الكتابة قارىء ، او قارئة،وذلك لوجود جماعة كانوا يحسنون القراءة،ولكنهم لا يكتبون . ونجد اليوم من النساء من يحسن القراءة ولا يكتبن، ولما نزل الوحي على الرسول: باقرأ ، قال الرسول : ما أنا بقارىء ، او لست بقارىء[1] ، ولم يقل : أنا أمي، مما يدل على ان الأمية انما صارت تعبر عن معنى عدم القراءة والكتابة فيما بعد . ثم اننا لا نجد في اللغات القديمة لفظة واحدة في معنى (الأمية) التي نستعملها في عربيتنا في الوقت الحاضر ، اي في معنى الجهل بالقراءة والكتابة معاً ، وانما يقال لا يقرأ او لا يكتب ، او يجهل القراءة والكتابة ، فلا يعقل خروج العربية على هذه القاعدة . واستعمالها الأمية قبل الاسلام مصطلحاً للتعبير عن الجهل بالكتابـة والقراءة معاً . ولم أعثر في النصوص الجاهلية على هذه اللفظة او على لفظة اخرى تؤدي هذا المعنى .

ولا يعقل ان يكون اليهود او غيرهم قد أطلقوا الأمية على العرب ، بسبب جهل العرب الكتابة والقراءة . فقد كان سواد يهود ونصارى جزيرة العرب أمياً ايضاً ، لا يقرأ ولا يكتب،إلا ان القرآن الكريم أخرجهم من الأميين،واستثناهم، وأطلق عليهم (اهل الكتاب) ، وذلك يدل دلالة واضحة على ان المـراد من (الأميين) العرب الذين لهم كتاب ، اي العرب الذين لم يكونوا يهوداً ولا نصارى لا من لا يحسن الكتابة والقراءة.والقرآن الكريم هو الذي هدانا الى لفظة (الأميين) فلم ترد اللفظة في نص من نصوص الجاهلية وبفضله ايضاً عرفنا مصطلح (أهل الكتاب) دلالة على اهل الديانتين .

---

١ إمتاع الاسماع (١٣/١) ، (ثم قال اقـرأ : قلت ما اقـرأ) ، تفسير الطبري (١٦١/٣٠) ، تفسير النيسابوري (١٢٥/٣٠) ، (حاشية على تفسير الطبري) .

وأنا لا أريد ان أثبت هنا ان العرب قاطبة كانت أمة قارئة كاتبة ، جماعها يقرأ ويكتب ، وانها كانت ذات مدارس منتشرة في كل مكان من جزيرتهم ، تعلم الناس القراءة والكتابة والعلوم الشائعة في ذلك الزمن ، فقول مثل هذا هو هراء ، ما في ذلك شك ، ولا يمكن أن يدعيه أحد ثم ان شيوع القراءة والكتابة بالمعنى المفهوم عندنا ، لم يكن معروفاً حتى عند أرقى الشعوب إذ ذاك مثل اليونان والرومان والساسانيين في عالم ذلك العهد . فسواد كل الأمم كان جاهلاً لا يحسن قراءة ولا كتابة ، وانما كانت القراءة والكتابة في الخاصة وفي أصحاب المواهب والقابليات الذين تدفعهم مواهبهم ونفوسهم على التعلم والتثقف وتزعم الحركة الفكرية بين أبناء جنسهم . ومن هنا كانت كل الأمم أمية من حيث الأكثرية والغالبية ، انما اختلفت في نسبة المتعلمين والمتخصصين والمجتهدين ودرجتهم فيها . وفي هذا تتباين وتختلف أيضاً ، فقد كان اليونان والرومان والعالم النصراني في الدرجة الأولى في العهد الذي قارب الاسلام ، يليهم الفرس واليهود والهنود . أما العرب ، فقد كانوا يتباينون في ذلك أيضاً تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم كما سأبين ذلك .

فأهل البوادي ، ولا سيما البوادي النائية عن الحواضر ، هم أميون ما في ذلك من شك،لأن طبيعة البادية في ظروفها المعلومة لا تساعد على تعلم القراءة والكتابة ، ولا على ظهور العلوم وتطويرها فيها ، غير اننا لا نعني انهم كانوا جميعاً أميين، لا قارىء بينهم ولا كاتب . فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها مبعثرة في مواضع متناثرة من البوادي ، وفي أماكن نائية عن الحضارة . وهي كتابات أعراب ورعاة إبل وبقر وأغنام،دونوها تسجيلاً لخاطر ، أو للذكرى ، أو رسالة لمن قد يأتي بينهم،فيقف على أمرهم ، ومن هنا نستطيع أن نقول ان أعراب الجاهلية ، كانوا أحسن حالاً من أعراب هذا اليوم ، فقد كان فيهم الكاتب القارىء ، الذي يهتم بتسجيل خواطره ، وباثبات وجوده بتدوينه هذه الكتابات ، وأن الأمية المذكورة لم تكن أمية عامة جامعة ، بل أمية نسبية ، على نحو ما نشاهده اليوم في مجتمعاتنا من غلبة نسبة الأمية على نسبة المتعلمين .

وأما أهل الحواضر ، فقد كان بينهم من يقرأ ويكتب ، كما كان بينهم الأمي أي الجاهل بالقراءة والكتابة . كان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند ، وكان

بينهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دوّن به القرآن الكريم ، فصار القلم الرسمي للاسلام ، بفضل تدوين الوحي به ، كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط وبقلم بني إرم . وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر .

وقد سبق ان ذكرنا ان الأحناف كانوا يكتبون ويقرأون ، ورأينا بعضاً منهم كان يكتب بأقلام أعجمية ، وكان قد وقف على كتب أهل الكتاب ، وكانوا أصحاب رأي ومقالة في الدين وفي أحوال قومهم . وذكرت انهم قالوا عن بعضهم ، مثل (ورقة بن نوفل) ، انه كان « يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[1] .

وقد ذكر (الهمداني) ان العرب كانت «تسمي كل من قرأ الكتب أو كتب: صابئاً ، وكانت قريش تسمي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أيام كان يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن: صابئاً »[2] . فالصباة على تفسير (الهمداني) ، هم الكتبة وكل من قرأ الكتب ، وعلى ذلك يكون الحنفاء في جملة الصباة .

وقد ذكر أهل الأخبار انه كان لدى (الأكاسرة) ديوان خاص يدون فيه كل ما يخص عرب الحيرة وسائر العرب بالعربي ، ويتولى أيضاً ترجمة كل ما يرد الى الدولة بالعربية الى الفارسية ، ويترجم ما يصدر بالفارسية من الحكومة الى العرب بالعربية ، وان في جملة من اشتغل في هذا الديوان وقام بالترجمة فيه (زيداً العبادي) ، أبا الشاعر الشهير (عدي بن زيد العبادي) ، وزعم (ابن الكلبي) ان ملوك الحيرة كانوا يملكون دواوين فيها أخبارهم ومقدار مدد حكمهم وما قيل في مدحهم من شعر ، وفي خبر صحيفة المتلمس وقراءة أحد غلمان الحيرة للصحيفة التي كان يحملها ما يشير الى معرفة غلمان أهل الحيرة القراءة والكتابة[3] . وفي كل هذه الروايات والأخبار تفنيد لزعم من ذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا جميعاً في جهالة وأمية .

---

١ الاغاني (٣/١٢٠) .
٢ الاكليل (١/٤٤) .
٣ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٨ وما بعدها) .
(فأعطى المتلمس كتابه بعض الغلمان فقرأه) ، (فاذا أنا بغلام من أهل الحيرة يسقي غنيمة له من نهر الحيرة ، فقلت : يا غلام . اتقرأ ؟ قال : نعم . قلت : اقرأ) مجمع الامثال (١/٤١٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٣٧٤) ، النصرانية وآدابها (١/١٥٧) .

بل ورد في روايات أهل الأخبار في ترجمة عدي بن زيد العبادي المذكور : ان كان في الحيرة معلمون ، يعلمون الأطفال القراءة والكتابة ، يذهبون الى بيوت الأطفال يعلمونهم ان شاء أهلهم ، أو يعلمونهم في الكتاتيب . وقد ورد أيضاً : ان من الكتاتيب ما كانت تعلم بالعربية ومنها ما كانت تعلم بالفارسية . فكان جدّ عدي بن زيد العبادي مثلاً ممن تعلم في دار أبيه ، وخرج من أكتب الناس في يومه « وطلب حتى صار كاتب ملك النعمان الأكبر . وكان أبوه زيد ممن حذق الكتابة والعربية ، ثم علم الفارسية . ولما تحرك عدي ، وأيفع ، طرحه أبوه في الكتاب ، حتى اذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه شاهان مرد الى كتاب الفارسية، فكان يختلف مع ابنه ، ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها ، وأفصحهم بالعربية ، وقال الشعر وتعلم الرمي بالنشاب ، فخرج مع الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها »[1] .

وذكر أهل الأخبار ان (لقيط بن يعمر الإيادي) الشاعر كتب صحيفة الى قومه إياد ، يحذرهم من كسرى[2] . وكان كاتباً ومترجماً في قصر كسرى، يكتب من الفارسية الى العربية ومن العربية الى الفارسية[3] ، فلما أراد كسرى الانتقام من قومه ، كتب اليهم قصيدة في صحيفة ، فيها :

سلام في الصحيفة من لقيط　　الى من بالجزيرة من إياد

وذكر ان (سعد بن ملك) أرسل ابنه (المرقش) الشاعر المعروف وأخاه الى رجل من أهل الحيرة ، فعلمهما الكتابة ، فكانا يكتبان أشعارهما[4] ، وذكر انه كان يكتب بالحميرية ، وانه كتب أبياتاً بها على خشب رحل « الغفيلي الذي تركه وحده لما مرض ، فلما قرأوا الكتابة ضربوا (الغفيلي) حتى أقر[5] .

وكان جفينة العبادي ، وهو من نصارى الحيرة ، وظئراً لسعد بن أبي وقاص،

---

١ الاغاني (٢/١٨ وما بعدها ، ١٠١) .
٢ الاغاني (٢٠/٢٣ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٧ وما بعدها) ، بروكلمن ، تأريخ آداب اللغة العربية (١/١١٢) ، (المترجم) ، (٢/١٠١ وما بعدها) .
٣ البكري ، معجم (١/٥٢) .
٤ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ، الاغاني (٦/١٣٠) .
٥ الشعر والشعراء (١/١٣٩) .

كاتباً ، قدم المدينـــة في عهد عمـــر ، وصار يعلم الكتابة فيهـــا . وقد اتّهمـــه (عبيد الله بن عمر) بمشايعة أبـي لؤلؤة على قتل أبيه ، فقتله وقتل ابنيه[1] .

ولما نزل (خالد بن الوليد) الأنبار ، رآهم يكتبون بالعربيـة ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنـــا – فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حـين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها – فقال : ممن تعلمتم الكتـــاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إياد لو انهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحةُ العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم[2]

ووجد (خالد بن الوليد) أهل (النقيرة) يعلّمون أولادهـــم الكتاب في كنيستها . وهي قرية من قرى (عين التمـــر) . ومنها كان (حمران) مولى (عثمان بن عفان)[3] . ولما فتح (خالد) حصن عين التمر ، وغنم ما فيه ، « وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيـل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم »[4] ، ثم أخرجهم ، فقسّمهم في أهل البلاء ، فكان منهم نصير ،أبو موسى ابن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وحمران مولى عثمان وغيرهم .

فنحن في العراق أمام مدارس تعلم العربية في القرى وفي الأماكن التي تكون غالبية سكانها من العرب ، وتعلمهم أمور دينهم من نظر في الأناجيل وفي الكتب الدينية النصرانية والعلوم اللسانية المعروفة الى غير ذلك من علوم ومعرفة وثقافة .

وورد في روايات أهل الأخبار ان عدداً من الشعراء الجاهليين كانوا يكتبون ويقرأون . وكان منهم من اذا نظم شعراً دوّنه ثم ظل يعمل في اصلاحه وتنقيحه وتحكيك ما نظمه الى أن يرضى عنه . فينشده الناس . وممن كان يكتب ويقـــرأ

---

١ الطبري (٤٢/٥) ، ابن سعد ، طبقات (٣/ ١ ص ٢٥٨) ، (ليدن) ، البلاذري ، فتوح البلدان (٤٦٠) .
٢ الطبري ، (٣٧٥/٣) .
٣ البلدان (٨٠٧/٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣٧٧/٣) ، (خبر عين التمر) .

سويد بن الصامت الأوسي ، صاحب مجلة لقمان ، والزبرقان بن بدر[1] ، وكعب ابن زهير[2] ، وكعب بن مالك الأنصاري[3] ، والربيع بن زياد العبسي ، وكان هو واخوته من الكملة . وقد كتب الى (النعمان بن المنذر) شعراً يعتذر اليه فيه[4].

وذكر ان أهل (دومة الجندل) كانوا يكتبون ويقرأون ، وان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من أحدهم . وورد ان قوماً من (طيء) تعلموا الكتابة والقراءة من كاتب الوحي لهود . وذكر ان (بشر بن عبد الملك) السكوني ، أخو (أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن) السكوني الكندي صاحب دومة الجندل ، وكان نصرانياً ، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، تعلم الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه ، فرآه (سفيان بن أمية بن عبد شمس) و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط ، فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط ، فكتبا . ثم ان بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم (غيلان بن سلمة الثقفي) ، فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى الى ديار مضر ، فتعلم الخط منه (عمرو بن زرارة بن عدس) فسمي عمرو الكاتب . ثم أتى بشر الشأم ، فتعلم الخط منه ناس هناك[5] .

وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين : (مرامر بن مرة) ، و (أسلم بن سدرة) ، و (عامر بن جدره) ، الذين وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم أهل الأنبار — رجل من طابخة كلب ، فعلمه رجلاً من أهل وادي القرى ، فأتى الوادي يتردد ، فأقام بها ،وعلم الخط قوماً من أهلها[6].

وقد وصف الشاعر (أبو ذؤيب) الهذلي كاتباً من اليمن وهو يكتب كتاباً، ولم يكن خط هذا الكاتب بالقلم العربي ، قلم أهل مكة ، وانما كان بقلم أهل اليمن وهو المسند . وذلك كما يظهر من تعابير هذا الشاعر الواردة في شعره ، إذ يقول :

---

١ الاغاني (٢/١٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (١/٩١) .
٣ ابن هشام (٢/٨٧ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٦/٢٢ وما بعدها) ، المرتضى ، أمالي (١/١٣٦) .
٥ فتوح البلدان (٤٥٦) ، (أمر الخط) .
٦ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) .

عرفتُ الديار كرَقْم الدوا ة يزبره الكاتب الحميريّ
برقم ووشي كما زخرفت بميشمها المُزدَهاة الهدي
أدانَ وأنبأه الأولو ن أن المدان المليُّ الوفيّ
فنمنم في صحف كالريا طِ فيهن إرث كتاب محيّ[1]

وهي قصيدة عدتها أربعة عشر بيتاً ، ذكر في أولها دروس الديار وطموسها الى أن رثى ابن عمه (نشيبة) بخمسة أبيات من آخرها[2] .

ويظهر من هذه الأبيات ان ذلك الكاتب الحميري كان يكتب بالحبر الموجود في دواة على شيء يصلح للكتابة عليه كأديم أو قرطاس ، ولم يكن يستعمل المزبر المعمول من حديد لنقش الحروف على الحجر . وهذا مما يدل على ان أهل العربية الجنوبية كانوا يكتبون على مواد الكتابة الأخرى بالحبر والقلم ، فعل أهل مكة وأهل الحيرة ودومة الجندل .

وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان رجلين من (بني نهد بن زيد) يقال لهما (حزن) و (سهل) كانا يكتبان ويقرأان . وكانا قد زارا (الحارث بن مارية) الغساني ، وكان عندهما حديث من أحاديث العرب ، ولهما ظرافة وأدب وصحبة ، فنزلا منزلاً طيباً من قلب الحارث ، فحسدهما (زهير بن جناب الكلبي) وكان من ندماء الملك ، فأراد افساد مكانهما عنده ، فقال له : « هما يكتبان اليه بعورتك وخلل ما يريان منك »[3] . يريد اخباره انهما كانا يتجسسان عليه فيكتبان بأخباره الى خصمه (المنذر) الأكبر ، ملك الحيرة ، جدّ النعمان بن المنذر .

وأما عرب بلاد الشأم ، فلم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن علمهم بالكتابة والقراءة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون دليلاً على جهلهم بها . ولا سيما انهم كانوا على اتصال ببني إرم في بلاد الشأم وبعرب بلاد العراق ، ثم انه يجوز انهم كانوا يكتبون بقلم بني إرم ، على عادة معظم شعوب الشرق الأدنى إذ ذاك ،

---

١ ديوان الهذليين (٦٤/١) .
٢ الخزانة (٢٩١/٣) ، (بولاق) .
٣ الاغاني (١١٨/٥) ، (دار الكتب) .

في الكتابة به ، لأنه كان قلم العلم والثقافة والأدب في ذلك الحين . ثم اننا سمعنا ان ملوكهم المتنصرين كانوا يرأسون مجالس المناظرات في أمور الدين ، ويبحثون مع رجال الدين في موضوعات دينيـــة ، ويدافعون عن مذهب اليعاقبة في طبيعة المسيح ، ومثل هؤلاء الملوك لا يعقل أن يكونوا جهلة أميـــين لا يقرأون ولا يكتبون .

وقد سبق أن تحدثت عن الكتابات الصفوية وعن كتابات عربية شمالية أخرى ، عثر عليها السياح والمستشرقون في مواضع متعددة من (الصفاة) وفي البوادي ، كتبت على صخور وهشيم صخور منثور ، دلّ البحث فيهـا على انهـا كتابات أعراب ، كان أصحابها يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للمرعى والصيد .

وتدل تلك الكتابات الصفوية على ان أعراب الجاهلية كانوا في أيام الجاهليـــة أحسن حالاً من حيث علمهم بالكتابة والقراءة من أعراب هذا اليوم . فالكتابات الصفوية الكثيرة المبعثرة في البوادي ، هـــي كتابات أعراب ، متجولين ، كانوا يرعون الإبل وبقية الماشية، فكانوا يسلّون أنفسهم بالكتابة والتصوير على الحجارة ، بينما لا نكاد نجد بين أعراب هذا اليوم من يكاد يقرأ ويكتب .

كما تحدثت عن كتابات ثمودية ، وثمود قوم من لبّ العـــرب ومادة العرب البائدة الأولى في عرف النسابين ، وتحدثت أيضاً عن القلم المسند بلهجاته ولغاته ، فهل يصدق بعد هذا قول من زعم ان العرب قبل الاسلام كانوا في جهالة عمياء ، لا يقرأون ولا يكتبون .

ولا يعقل أن يكون المذكورون أميين كتبوا للتسلية والتلهية ، وان الأوامـــر والقوانين التي دوّنها ملوك اليمن قبل الاسلام وأعلنوها للناس بوضعها في المحلات العامة وفي الأماكن البارزة كانت مجرد تدوين أو تزويـــق وتزيين ، لا للاعلان ولإفهام المواطنين بمحتوياتها . إن تدوين تلك الكتابات ووضع الحجارة الفخمـــة المكتوبة للإعلان ، دليل على ان في الناس قوماً يقرأون ويكتبون ويفهمون ، وان الحكومات انما أمرت بتدوينهـــا لإعلام الناس بمحتوياتها للعمل بها ، كما تفعـــل الحكومات في الوقت الحاضر عند إصدارها أمراً أو قانوناً بإذاعته بالوسائل المعروفة على الناس للوقوف عليها ، وان من بين الحجارة الصفوية واللحيانية والثموديـــة المكتوبة ، ما هو رسائل وكتب وجهت الى أشخاص معروفين ، كما نفعل اليوم في توجيه الرسائل الى الأقرباء والأصدقاء .

ووجد عند ظهور الاسلام قوم كانوا يكتبون ويقرأون ويطالعون الكتب بمكة ولهم إلمام بكتب أعجمية ، ومن هؤلاء (الأحناف) وقد ذكر عن بعض انهم كانوا يجيدون بعض اللغات الأعجمية ، وانهم وقفوا على كتب اليهود والنصارى وعلى كتب أخرى . وفي معركة (بدر) اشترط الرسول على من أراد فداء نفسه ولم يكن موسراً من أهل مكة ، أن يعلم عشرة نفر من المسلمين القراءة والكتابة، كما كان من عادة أهل مكة تدوين ما يجمعون عليه وما يلزمون أنفسهم به في صحف يختمونها بخواتمهم وبأسمائهم لتكون شواهد على عزمهم كالذي فعلوه في الصحيفة . وذكر ان أمية بن أبي الصلت كان فيمن قرأ الكتب ووقف عليها [1]، وذكروا غيره أيضاً .

وذكر أهل الأخبار ان قوماً من أهل يثرب من الأوس والخزرج ، كانوا يكتبون ويقرأون عند ظهور الاسلام ، ذكروا فيهم : سعد بن زرارة ، والمنذر ابن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وكان يكتب بالكتابين العربية والعبرية أو السريانية ، ورافع بن مالك وأسيد بن حضير ، ومعنى (معن) بن عدي البلوي ، وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولى ، وبشير بن سعيد ، وسعد بن عبادة ، والربيع بن زياد العبسي ، وعبد الرحمن بن جبر ، وعبدالله ابن أبي ، وسعد بن الربيع ، وقد رجعوا أصل علمهم بالكتابة والقراءة الى قوم من يهود يثرب ، مارسوا تعليم الصبيان القراءة والكتابة ؛ دعوهم (بني ماسكة)[2]. ويظهر ، إن صحت هذه الرواية ، ان يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية أيضاً ، وانهم كانوا يعلمونها للعرب . وتعرض البلاذري لهذا الموضوع فقال : « كان الكتاب في الأوس والخزرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ، فجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[3] . ونجد هذا الخبر في موارد أخرى ، أخذته دون أن تشير الى السند ، فظهر وكأنه حقيقة مسلمة وخبر متواتر ، حتى جاز على المحدثين ، فبنوا عليه حكماً ، هو أن الكتاب كان في يثرب قليلاً ، حتى جاء الاسلام ،

---

١ المعارف ، لابن قتيبة (ص ٢٨) .
٢ صبح الاعشى (٣/١٥) .
٣ البلاذري ، فتوح (٤٧٩) .

فانتشر بها ، وانه لو كانت الكتابة منتشرة عندهم ، لما كلف الرسول القارئين الكاتبين من أسرى بدر، بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ، فداءً لنفسه من الأسر[1] .

ويظهر ان يهود يثرب ، وربما بقية يهود ، مثـل يهود خيبر ، وتيماء وفدك ووادي القرى ، كانوا يكتبون بقلمهم ، كما كانوا يكتبون بالعربية ، ويظهر من استعمال (البلاذري) جملة : « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول »[2]،ان يهود يثرب كانوا يكتبون بالعربية ، كما كان يكتب بها صبيان المدينـة ، وكانوا يعلمون الكتابـة لصبيان يثرب في مدارسهم . وفي هذا الخبر وأمثاله دلالة على ان الكتابة كانت معروفة بين أهـل يثرب أيضاً قبل الاسلام ، وانها كانت قديمة فيهم ، ولهذا فلا معنى لزعم من قال انها انتشرت بيثرب في الاسلام ، وان الكتابة كانت قليلة بها قبل هذا العهد.

وقصد أهل الأخبار بجملة « وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، الكتابة بالخط العربي الشمالي ، لا بالقلم المسند ، لأن هـذا هو مرادهم من (الكتاب العربي) و (كتاب العربية) ، ويظهر انِ اليهود قد تعلموا الخط العربي من عرب العراق وبلاد الشأم،أو من التجار والمبشرين الذين كانوا يفدون الى الحجاز، وأما القلم المسند ، الذي هو قلم العرب الجنوبيين ، فلم يكن مستعملاً في يثرب، وإلا لأشير اليه ، مع انها من القواعد المتعصبة للقحطانية ، وحاملة الدعوة الى اليمن قبل الاسلام وفي الاسلام . وهذا يدل على ان المسند كان قـد طورد في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن سلطانه كان قد تقلص كثيراً خارج العربيـة الجنوبيـة قبل نزول الوحي على الرسول ، وربما كان القلم العربي الشمالي قد دخل العربية الجنوبية أيضاً قبل الاسلام ، فأخذ ينافس المسند فيها ، ولا سيما في المناطق التي تركزت فيها النصرانية وتحكمت في أهلها ، فأخذ النصارى يقاومون ذلك القلم ، لأنه قلم الوثنية ، ويعلّمون أولاد النصارى القلم العربي الشمالي ، لأنه قلمهم الذي كانوا يعلمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشأم .

وقد أطلق العرب على الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي،وقيل الحساب

---

١ ابن سعد ، طبقات (الجزء الثاني ، القسم الاول) ، (١٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٤٥٩) ، (المكتبة التجارية) .

أيضاً ، والجَلَد أي الشجاعة ، وقول الشعر ، وأصحاب الشرف والنسب: الكملة. وجمع بعض أهل الأخبار الى ذلك استواء القامة وكمال الانسان[1] . ومن هؤلاء الكملة : (سعد بن عبادة بن دليم) سيد الخزرج ، وهو من أسرة غنية تطعم الفقراء ، ولها أطم يأوي اليه الفقراء للأكل . ولما نزل النبي يثرب ، كانت جفنة (سعد) تدور مع النبي ، وكان يعشي كل ليلة أهل الصفة[2] .

ومن الكملة : الربيع بن زياد العبسي . وكان هو واخوته من الكملة[3] . و (رافع بن مالك) ، و (أسيد بن حضير) ، و (عبدالله بن أبي) ، و (أوس بن خولى) ، و (سويد بن الصامت) ، و (حضير الكتائب)[4].

ويظهر من النظر الى قائمة أسماء من أدخلهم أهل الأخبار في الكملة ، ان الكتابة والرماية والعوم ، لم تكن الشروط الأساسية الكافية ، لكي يعد الانسان كاملاً ، فقد توفرت هذه الشروط في أناس آخرين ، لم يدخلوا مع ذلك في الكملة ، وانما هنالك أشياء أخرى بالاضافة الى الأمور المذكورة ، هي الشرف وكمال الجسم والعقل والامتناع عن الهجر في الكلام ، والتحلي بالحكمة وبالفطانة واللب وقول الشعر المحكم الحكيم .

وكان (عبد الرحمان بن جبر) ، أبو عبس الأنصاري ، يكتب بالعربية قبل الاسلام . ومات سنة أربع وثلاثين[5] .

وكان (المنذر) ، (منذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان) الخزرجي من الكتبة . وكان أحد السبعين الذين بايعوا الرسول ، وأحد النقباء

---

١ المعارف (٢٥٩) ، الاغاني (٣/٢٥) ، (دار الكتب) ، ابن سعد ، طبقات (٣/٥٤٢)
٢ ابن سعد طبقات (٣/٦١٣) ، الاصابة (٢/٢٧) ، (رقم ٣١٧٣) ، الاستيعاب (٢/٣٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، أسد الغابة (٢/٣٧٨) ، ابن الاثير ، الكامل (٢/٣٧٨) ، ابن هشام (٢/٨٩) .
٣ أمالي المرتضى (١/١٣٦ ، ١٩٠) ، الاغاني (١٦/٢٢ وما بعدها) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٩ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (٣/٥٤٢) ، الاصابة (١/٩٨ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) ، تفسير الطبري (٤/٢٣) ، الروض الانف (١/٢٦٥ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٦٤) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥) ، (حاشية على الروض) .
٥ المعارف (٣٢٦) ، (أبو عيسى) ، الاصابة (٢/٣٨٦) ، (رقم ٥٠٩٧) ، (٤/١٥٠) ، (رقم ٨٨٠) .

الاثني عشر . « وكان يكتب في الجاهلية بالعربية »[1] . قتل يوم بئر معونة .

وكان (أبو جبيرة بن الضحاك) الأنصاري ، ممن يكتب . وقد تولى الكتابة للخليفة (عمر)[2] .

وكان (قيس بن نشبة) عم الشاعر (العباس بن مرداس) السلمي ، أو ابن عمه من الكتبة . ذكر انه كان ممن قرأ الكتب وتأله في الجاهلية . والعباس بن مرداس نفسه كان كاتباً ، ذكر انه لما سمع ان رجلاً من أهل مكة اشترى إبلاً لقيس بن نشبة فلواه حقه ، وان (قيساً) قام بمكة يقول :

يا آل فهرٍ كنت في هذا الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع مني من ظلم

بلغ ذلك (عباس بن مرداس) فكتب اليه أبياتاً منها :

وآتِ البيوت وكن من أهلها مدداً تلق ابن حرب وتلق المرء عبّاسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه ، وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة[3] .

وفي جملةِ من كان يكتب ويقرأ من أهل مكة (حرب بن أمية) . واليه ينسب قوم من أهل الأخبار ادخال الكتابة بين قريش . وهو أبو (أبي سفيان ابن حرب) ، فهو جدّ (معاوية بن أبي سفيان) . وورد ان الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة) . فهو ناشر الكتابة على هذه الرواية بين أهل مكة[4] . والاثنان على رأي أهل الأخبار من أقدم كتّاب مكة اذن ، بل هما ناشرا الكتابة بها . وقد ذهب (ابن قتيبة) ان (بشر بن عبد الملك العبادي) علم (أبا سفيان بن أمية) ، و (أبا قيس بن عبد مناف بن زهرة)

---

١ الاستيعاب (٣/٤٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣/٤٤٠) ، (رقم ٨٢٢٦) .
٢ الجهشياري (١٦) ، الاصابة (٤/٣١) ، (رقم ١٨٨) .
٣ الاصابة (٣/٢٤٩ وما بعدها) ، (٧٢٤٤) .
٤ الفهرست (ص ١٣) ، المعارف (٧٣) .

الكتاب ، فعلّما أهل (مكة)[1] . وقد ذكر (السيوطي) عن (أبي طاهر) السلفي في (الطيوريات) بسنده عن (الشعبي) ، انه « قال : أول العرب الذي كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس » . تعلم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار[2] .

ولو أخذنا برأي من قال إن (حرب بن أمية) أو (أبو سفيان بن أمية) ، هما أول من علم أهل مكة الكتابة ، نكون قد جعلنا (بني أمية) أول من أدخل القلم الى مكة ، بفضل تعليم (بشر) لهم هذا القلم . ومنهم انتشر بين أهل مكة في عهد غير بعيد عن ايام النبي .

وذكر ان في جملة من كان يكتب قبل الاسلام (عمرو بن عمرو بن عدس)[3].

وذكر (ابن النديم) ان (أسيد بن أبي العيص) كان من كتّاب العرب. وذكر انه كان في خزانة (المأمون) كتاب بخط (عبد المطلب بن هاشم) في جلد أدم ، فيه ذكر حق (عبد المطلب بن هاشم) من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري ، من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه . وكان الخط شبه خط النساء[4] .

وكان (حنظلة بن أبي سفيان) ممن يحسن الكتابة والقراءة بمكة . فقد ورد في الأخبار انه كتب من مكة الى والده (أبو سفيان) ، وكان إذ ذاك مع العباس بن عبد المطلب بنجران ، يخبره خبر الرسول[5] . وكان والده يكنى به . وقد قتله (علي بن أبي طالب) يوم (بدر)[6] .

وكان (بغيض بن عامر بن هاشم) من كتّاب قريش قبل الاسلام . وهو الذي كتب الصحيفة على بني هاشم[7] . وورد ان (أبا الروم بن عبد شرحبيل) واسمه (منصور بن عكرمة) هو الذي كتب الصحيفة[8] .

---

١ المعارف (٥٥٣) .
٢ المزهر (٣٤٢/٢) .
٣ المزهر (٣٥١/٢) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة الكتابة) .
٤ الفهرست (١٣ وما بعدها) .
٥ الاغاني (٢٥٠/٦) ، (دار الكتب) .
٦ نسب قريش (١٢٣) .
٧ كتاب نسب قريش (٢٥٤) .
٨ كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، الروض الانف (٢١٩/١) .

وكان (الوليد بن الوليد) وهو أخو (خالد بن الوليد) ممن يكتب ويقرأ، وكان (خالد) ممن يقرأ ويكتب كذلك . وكان الوليد سبب اسلام (خالد) . فقد كان قد فر من مكة ولحق بالرسول عمرة القضيّة ، وكتب الى أخيه خالد، ان الرسول قال له : « لو أتانا ، لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الاسلام في عقله » ، فوقع الاسلام في قلب خالد . وكان سبب هجرته[1] .

وكان (نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصي) القرشي ممن يكتب . أسلم يوم الفتح . وهو الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب[2] ، أو المصحف له . وذكر انه كان يكتب المصاحف،وانه كتب المصاحف لعثمان[3] ، فيظهر انه كان من نسّاخ المصاحف ، ينسخها للناس .

وكان (حاطب بن أبي بلتعة) من الكتّاب . وكان حليفاً لبني أسد بن عبد العزى ، ويقال حالف الزبير ، وقيل مولى (عبيد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد) . وهو الذي كتب كتاباً الى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله اليهم ، فنزلت فيه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم »[4] . وقد شهد مع علي بن أبي طالب على كتاب رسول الله لسلمة بن مالك السلمي، الذي كتب الرسول به اقطاعه ما بين ذات الحناظى الى ذات الأساود[5] .

وكان الحكم بن أبي أحيحة سعيد بن العاصي ، وهو الذي سمّاه رسول الله (عبدالله) من اولئك الذين أمرهم الرسول ان يعلم الكتاب بالمدينة . وكان كاتباً قتل يوم (مؤتة)[6] .

يقول أهل الأخبار : ولما نزل الوحي كان « في قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش،

---

١ نسب قريش (٣٢٤) .
٢ الاستيعاب (٣/٥١٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ الاصابة (٣/٥١٥) ، (رقم ٨٦٥٨) .
٤ الاصابة (١/٢٩٩) ، (رقم ١٥٣٨) ، المقريزي ، امتاع (١/٣٦٢) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٦ نسب قريش (١٧٤) .

وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري ، وحويطب بن عبد العزى العامري ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومن حلفاء قريش : العلاء الحضرمي »[1] .

ولكننا لو أحصينا أسماء من كان يكتب من اهل مكة، ممن نص أهل الأخبار على أسمائهم ، وممن لم ينصوا على اسمهم ، وانما ذكروهم عرضاً في اثناء كلامهم عنهم فذكروا انهم كانوا يكتبون ويقرأون ، لوجدنا ان عددهم أكثر بكثير من هذا الرقم المذكور ، رقم سبعة عشر كاتباً ، او بضعة عشر نفراً[2] ، وهو عدد ورد اليهم على ما يظهر من خبر آحاد ، انتشر في الكتب، فصار متواتراً منتشراً حتى في كتب المؤلفين في هذا اليوم ، اتخذوه دليلاً على أمية العرب قبل الاسلام .

وقد استعان الرسول بقوم كتبوا له ، أشار العلماء الى أسمائهم . منهم من كتب له الوحي ، فعرفوا من ثم بـ (كتاب الوحي) . ومنهم من كتب له بريده ورسائله، ومنهم من تولى له تدوين المغانم وأمور الزكاة والخرص والصدقة وما الى ذلك من امور اقتضاها تطور الظروف والأحوال ، ومنهم مثل (زيد بن ثابت) من كتب له بالعربية وبالعبرانية او السريانية . وذكر ان بعضهم كان مثل زيد يكتب بغير العربية أيضاً . وكان ممن كتب له : (علي بن ابي طالب) ، و (عثمان بن عفان) ، و (معاوية بن أبي سفيان) ، و (حنظلة الأسيدي) ، و (خالد بن سعيد بن العاص) ، و (ابان بن سعيد) ، و (العلاء بن الحضرمي) ، و (عبدالله بن أبي سرح)[3] .

وروي ان « أول من كتب له أبي بن كعب ، وكان اذا غاب أبي كتب له زيد بن ثابت » ، وكان يكتب في الجاهلية[4] .

---

١ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) .

٢ فتوح البلدان (٤٥٧) ، (أمر الخط) ، العقد الفريد (٢٤٢/٤) .

٣ الطبري (١٧٣/٣) (ذكر من كان يكتب لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم) ، التنبيه والاشراف (٢٤٥ وما بعدها) ، الوزراء والكتاب (١٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٤٦/٤) .

٤ الطبري (١٧٣/٣) ، (دار المعارف) ، المعارف (١١٢ وما بعدها) .

وجاء في ترجمة أنس بن مالك : أن أمه جاءت به يوم قدم الرسول يثرب وقالت له : « يا رسول الله ، هذا ابني وهو غلام كاتب »[1] . ومعنى هذا أن غلمان يثرب كانوا يقرأون ويكتبون .

وقد ورد في أخبار (بدر) أنه كان في أسرى قريش قوم يقرأون ويكتبون ، وقد أمر رسول الله بفك رقاب هؤلاء الأسرى على أن يكون فداؤهم تعليم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة[2] . وقد علّم كل واحد منهم صبيان يثرب الكتابة فانتشرت الكتابة بينهم[3] .

وذكر أن ممن كتب لرسول الله : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، والزبير بن العوّام ، وخالد وابان ابنا سعيد بن العاص ، وحنظلة الأسيدي ، والعلاء بن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعبدالله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وعبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبدالله ابن الأرقم الزهري . وذكر أن عدد من كتب للرسول ثلاثة وأربعون كاتباً[4] .

وأول من كتب للنبيّ من قريش (عبدالله بن سعد بن أبي سرح)، وأول من كتب له مقدمه المدينة (أُبي بن كعب) ، وهو أول من كتب في آخر الكتاب : وكتب فلان بن فلان . وهو من كتاب الوحي والرسائل . وقد كان (عبدالله بن الأرقم الزهري) من كتاب الرسائل للرسول ، وأما الكاتب لعهوده إذا عهد وصلحه إذا صالح ، فعلي بن أبي طالب[5] . وقد وردت في أواخر بعض كتب الرسول أسماء كتاب تلك الكتب .

وفي طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أمر بتدوينه رسول الله لنهشل بن مالك الوائلي من باهلة ، كتبه (عثمان بن عفّان)[6] .

---

١ ابن سعد ، الطبقات الكبرى (١٠/٧) .
٢ طبقات (١/٢ ص ١٤) .
٣ امتاع الاسماع (١٠١/١) .
٤ الاستيعاب (٣٠/١) ، (حاشية على الاصابة) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (١٢ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٤٦/٤) .
٥ الاستيعاب (٣٠/١) ، الجهشيارى ، (١٣) .
٦ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤/١) .

وكان (علي بن أبي طالب) من كتاب الوحي ، والكاتب لعهـود الرسول إذا عهد ، وصلحه إذا صالح[1] . ذكر أنه تعلم الكتابة وهو صغير ، ابـن أربع عشرة سنة ، تعلمها في (الكتاب)[2] .

وكان من كتّاب رسول الله الذين كتبوا له الرسائل الى سادات القبائل يدعوهم فيها الى الاسلام : خالد بن سعيد بن العاص[3] ، والمغيرة بن شعبة[4] ، ومعاوية[5] ، وعبدالله بن زيد[6] ، وأبي بن كعب[7] ، وعلي[8] . وجُهيم بن الصلت[9] ، والأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي[10] ، والزبير بن العوّام[11] ، والعلاء بن الحضرمي[12] ، وعقبة[13] ، والعلاء بن عقبة[14] ، وعثمان بن عفّان[15] ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري[16] ، وثابت بن قيس بن شماس[17] .

وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، من كتاب الرسول ، وقد كان أول مرتد في الإسلام . ارتد وكان قد خالف في كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيــه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهرب ، فلما كان يوم (الفتح) التجأ[18] الى (عثمان) أخوه من الرضاعة فأجاره ، واستجار له (عثمان) عند النبي فأجاره له . وقد عينه (عثمان) عاملاً على مصر ، وافتتح إفريقية ، ومات سنة ست وثلاثين ،

---

١ الاستيعاب (١/ ٣٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الفصول المختارة ، للمفيد (٢/٦٦) ، (النجف) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٥ ، ٢٧١) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٦ ، ٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٦ ، ٢٦٧) .
٦ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٧) .
٧ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٧ ، ٢٧٨) .
٨ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٧) .
٩ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٨) ، الاصابة (١/٢٥٧) ، (١٢٥٦) .
١٠ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٨ ، ٢٦٩) .
١١ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٩) .
١٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٩ ، ٢٧١) .
١٣ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٧١) .
١٤ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٧١ ، ٢٧٣) .
١٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٨٤) .
١٦ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٨٦) .
١٧ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٨٦) .
١٨ رسائل الجاحظ (٢/١٨٨) .

أو سبع وخمسين ، أو تسع وخمسين[1] . وروي أنه كان أول من كتب له من قريش[2] .

وهناك رواية يرجع سندها الى (أنس بن مالك) ، تذكر أن « رجلاً كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً بصيراً ، كتب سميعاً عليماً ، وإذا أملى عليه سميعاً عليماً ، كتب سميعاً بصيراً . وكان قد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان من قرأهما قرأ قرآناً كثيراً ، فتنصر الرجل ، وقال إنما كنت أكتب ما شئت عند محمد .. قال : فمات »[3]. ولا نعرف كاتباً ينطبق عليه هذا الوصف سوى (عبدالله بن سعد بن أبي سرح) . فهو المراد بهذه القصة . وهي قصة لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأن ارتداد (عبدالله) إنما كان بمكة ، فدليل النص عليه في سورة الأنعام[4] ، وهي سورة مكية ، فكيف يكون قد قرأ سورة البقرة وآل عمران ، ثم تنصر ، وهما سورتان مدنيتان .

وفي (عبدالله) نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحي إليّ ولم يوحَ اليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل الذي أنزل الله »[5]، على رأي أكثر المفسرين . « كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ، فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل ، فيقول نعم سواء . فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوّله ثم أقول لما أكتب ، فيقول : نعم سواء . ثم رجع الى الإسلام قبل فتح مكة » . وورد في رواية أخرى: « وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليماً ، كتب هو عليماً حكيماً : وإذا قال : عليماً حكيماً ، كتب سميعاً عليماً ، فشك وكفر . وقال : إن كان محمد يوحى اليه ، فقد أوحي إليّ وإن كان الله ينزله ، فقد أنزلت مثل ما أنزل الله . قال محمد : سميعاً عليماً . فقلت أنا : عليماً حكيماً .

---

١ الاصابة (٢/٣٠٩) ، (رقم ٤٧١١) .

٢ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) ، البلاذري ، أنساب (١/٣٥٨) ، الجهشياري (١٣) .

٣ السجستاني ، المصاحف (٣) .

٤ أسباب النزول (١٦٥) .

٥ الانعام ، الاية ٩٣ .

فلحق بالمشركين ، ووشى بعمّار وجبير عند ابن الحضرمي ، أو لبني عبد الدار ، فأخذوهم فعذّبوا »[1] .

وورد في رواية أخرى : « كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم يكتب له شيئاً ، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة . أملاها عليه ، فلما انتهى الى قوله : ثم أنشأ خلقاً آخر ، عجب عبدالله في تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت عليّ ، فشك عبدالله حينئذ، وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي اليه ، ولئن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال . وذلك قوله : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . وارتد عن الإسلام »[2] .

وورد أنه كان يقول : كنت أصرف محمداً حيث أريد . كان يملي عليّ عزيز حكيم ، فأقول : أو عليم حكيم ، فيقول : نعم كلّ صواب . فهدر النبي دمه[3] . وذكر أنه « قال لقريش : أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد . وكان يملي عليه الظالمين ، فيكتب : الكافرين ، يملى عليه سميع عليم ، فيكتب : غفور رحيم وأشباه ذلك . فأنزل الله : ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . فلما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله ، فكلمه فيه عثمان بن عفّان ، فأمر رسول الله بتركه[4] .

وقد ذكر (الجاحظ) أنه « كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالف في كتابة املائه . فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً »[5] . والصحيح أنه هرب ، فلما كان يوم الفتح أمن النبي الناس إلا أربعة نفر وامرأتين . عكرمة ، وابن خطل ، ومقيس ابن صبابة ، وابن أبي سرح ، فأما عبدالله فاختبأ عند عثمان ، فجاء به حتى

---

١ تفسير الطبري (٧/١٨٠ وما بعدها) .
٢ أسباب النزول (١٦٥) .
٣ المعارف (١٣٠ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٣٩٣) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) ، المعارف (٣٠٠ وما بعدها) .
٥ ذم أخلاق الكتاب ، رسائل الجاحظ (٢/١٨٨) .

أوقفه على النبي ، وهو يبايع الناس ، فاستجار له عثمان ، فأجاره . وعاش وشهد فتح مصر مع (عمرو بن العاص) ، وأمَّره (عثمان) على مصر . واختلف في وفاته ، فقيل مات سنة (٣٦ هـ) وقيل عاش الى سنة تسع وخمسين . وكان أخاً لعثمان في الرضاعة [١] .

وكان (جهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي)، ممن تعلم الخط في الجاهلية ، فجاء الاسلام وهو يكتب ، وقد كان كتب لرسول الله [٢] . ذكر انه كان هو و (الزبير بن العوّام) يكتبان أموال الصدقات [٣] . وهو الذي كتب كتاب الرسول الى (يحنه بن رؤبة) بتبوك ، وكتابه ليزيد بن الطفيل الحارثي [٤] .

وذكر اسم (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي) في جملة من كتب للرسول . ففي طبقات ابن سعد ، أنه كتب له كتابه لعبد يغوث بن وعلة الحارثي [٥] ، وكتابه لعاصم بن الحارث الحارثي [٦] ، وكتابه للأجب ، رجل من (بني سُليم) [٧] . وكان اسمه (عبد مناف بن أسد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) ، ويكنى (أبا عبدالله) . كان من السابقين الأولين ، قيل أسلم بعد عشرة ، وقيل قبل ذلك . وكان رسول الله يجلس في داره التي على (الصفا) ، حتى تكاملوا أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً (عمر) فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا ، وأقطعه النبي داراً بالمدينة [٨] .

و (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) من كتاب الرسول كذلك . كان يجيب عنه الملوك ، وبلغ من أمانته عنده أنه كان يأمره أن يكتب الى بعض الملوك

---

١ الاصابة (٢/٣٠٩) ، (رقم ٤٧١١) ، أسد الغابة (٣/١٧٣) ، الاستيعاب (١/٣٨١) .
٢ الاصابة (١/٢٥٧) ، (رقم ١٢٥٦) . فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) ، الاستيعاب (١/٢٤٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، (كتاب من حضر من الكتاب) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣ وما بعدها) .
٨ الاصابة (١/٤٢ وما بعدها) ، (رقم ٧٣) .

فيكتب ويختم ولا يقرأه لأمانته عنده . » قال عمر : كتب الى النبي ، صلى الله عليه وسلم كتاب . فقال لعبدالله بن الأرقم الزهري : أجب هؤلاء عني . فأخذ عبدالله الكتاب فأجابهم ، ثم جاء به ، فعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أصبت . قال عمر : فقلت : رضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما كتبت ، فما زالت في نفسي يعني حتى جعلته على بيت المال »[1] . وكتب لأبي بكر وعمر ، وكان على بيت المال أيام عمر ، وكان أميراً عنده . وذكر أنه كان إذا غاب عن الرسول ، وغاب زيد بن ثابت ، واحتاج الرسول أن يكتب الى أحد أمر من حضر أن يكتب . فمن هؤلاء عمر وعلي وخالد بن سعيد والمغيرة[2] .

وكان عبدالله بن الأرقم بن عبد يغوث الزهري ، والعلاء بن عقبة ، يكتبان بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات[3] . وذكر ان (عبدالله بن الأرقم) الزهري ، كان من المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي[4] .

وكان (حنظلة بن الربيع بن صيفي) الأسيدي ، من كتاب الرسول ، وقد نعته الطبري بـ (كاتب النبي)[5] . وعرف بـ (الكاتب) . وهو من (بني أسيد) ، وبنو أسيد من أشراف تميم . وهو ابن أخي (أكثم بن صيفي) حكيم العرب[6] . وقد عرف بـ (حنظلة الكاتب)[7] . وذكر انه كان « خليفة كل كاتب من كتاب النبي ، اذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه ، وقال له : ألزمني ، واذكرني بكل شيء لثالثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة ايام إلا أذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنده شيء منه » . ومات بمدينة الرها[8] .

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) ، نزهة الجليس (٢/٦٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .
٤ الاستيعاب (١/٣٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الطبري (٣/٥٧٠) « دار المعارف » ، المعارف (٢٩٩ وما بعدها) .
٦ الاستيعاب (١/٢٧٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٧ فتوح البلدان (٤٥٩) ، الاصابة (١/٣٥٩) ، (رقم ١٨٥٩) .
٨ الجهشيارى (١٣) .

ومن كتّاب الرسول : (شرحبيل بن حسنة) الطابخي . ويقال الكندي[1] ، ويقال التميمي[2] . وهو ممن سيره (أبو بكر) في فتوح الشأم . وكان أميراً على ربع من أرباع الشأم لعمر بن الخطاب ، وقد مات في طاعون (عمواس) .

وكان (خالد بن سعيد بن العاص) (خالد بن سعيد بن العاصي) ممن كتب للرسول . كتب له كتابه الى (بني عمرو بن حمير)[3] . وهو من السابقين الأولين . وقد استعمله الرسول على صدقات مذحج[4] وعلى صنعاء ، فلم يزل عليها الى أن مات رسول الله[5] . وكان له اخوة هما : أبان وعمرو بن سعيد بن العاص، وكانا ممن عملا للرسول . فلما توفي الرسول ، رجعا مع خالد عن أعمالهم، فخرجوا الى الشام[6] ، وفي جملة ما كتبه خالد ، كتاب الرسول لبني أسد[7] ، وكتابه للعدّاء بن خالد بن هوذة ومن تبعه من عامر بن عكرمة[8] ، وكتابه لراشد ابن عبد السلمي ، وكتابه لحرام بن عبد عوف من (بني سُليم)[9] ، وكتابه لبني غاديا ، وهم قوم من يهود ، وكتابه لبني عريض ، قوم من يهود[10] ، وكتابه لثقيف[11] ، وكتابه لسعيد بن سفيان الرعلي[12] .

وكان (ابان بن سعيد بن العاص) (العاصي) ، وهو أخو خالد ، ممن أسلم بعد هجرة الرسول إلى يثرب . ويقال ايام خيبر . وكان هو الذي تولى إملاء مصحف عثمان على زيد بن ثابت ، يوم جمعه في خلافة عثمان ، أمرهما بذلك عثمان . وذلك في رواية من جعله حياً إلى ايام الخليفة (عثمان) . وزعم في

---

١ فتوح البلدان (٤٥٩) ، (أمر الخط) .
٢ الاصابة (٢/١٤١) ، (رقم ٣٨٦٩) ، الاستيعاب (٢/١٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٥) ، الجهشياري (١٢) .
٤ الاصابة (١/٤٠٦) ، (رقم ٢١٦٧) ، الاستيعاب (١/٣٩٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الاستيعاب (١/٤٠٠) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ الاصابة (٢/٥٣٢) ، (رقم ٥٨٤٨) ، الاستيعاب (١/٤٠٠) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٠) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٤) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٩) .
١١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٤) .
١٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .

روايات أخرى انه قتل يوم أجنادين سنة ثلاث عشرة ، أو يوم اليرموك . وقيل قتل يوم مرج الصفر . وذكر في رواية انه توفي سنة سبع وعشرين في خلافة عثمان[1] .

وكان (طلحة) من الكتبة[2] . وهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الاسلام ، وأحد الستة أصحاب الشورى . وكان تاجراً ، وكان عند وقعة بدر في تجارة في الشأم . ولما قدم المدينة آخى النبي بينه والزبير[3] . وذكر انه آخى بينه وبين (كعب بن مالك) حين آخى بين المهاجرين والأنصار . وكان من الأغنياء ، كانت غلته ألفاً وافياً كل يوم . والوافي وزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم فارس التي تعرف بالبغلية[4] .

والزبير بن العوّام في جملة من كتب للرسول . كتب له كتابه لبني معاوية بن جرول الطائيين[5] .

و (أبو عبيدة بن الجراح) ، من هذه الجماعة الكاتبة القارئة . وهو من الأوائل الذين دخلوا في الاسلام ، كان إسلامه قبل دخول النبي دار (الأرقم). وقد آخى الرسول بينه وبين (سعيد بن معاذ)[6] .

و (العلاء بن الحضرمي) ، وهو (عبدالله بن عماد) ، وكان أبوه قد سكن مكة وحالف حرب بن أمية ، وكان للعلاء عدة إخوة منهم : (عمرو بن الحضرمي) ، وهو أول قتيل من المشركين ، وماله أول مال خمس في المسلمين، وبسببه كانت وقعة بدر . وقد استعمل النبي (العلاء) على البحرين[7] . وهو الذي كتب للرسول كتابه لبني معن الطائيين[8] ، وكتابه لأسلم من خزاعة[9] . وكان

---

١ الاصابة (١/٢٤) ، (رقم ٢) .
٢ المزهر (٢/٣٥١) .
٣ الاصابة (٢/٢٢٠) ، (رقم ٤٢٦٦) .
٤ الاستيعاب (٢/٢١٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) .
٦ الاصابة (٢/٢٤٣) ، (رقم ٤٤٠٠) ، الاستيعاب (٣/٢) ، (حاشية على الاصابة)
٧ الاصابة (٢/٤٩١) ، (رقم ٥٦٤٤) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٩) ، (صادر) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .

أخوه (ميمون بن الحضرمي) صاحب بئر (ميمون) التي بأبطح مكة، احتفرها في الجاهلية . وذكر (المسعودي) أن العلاء ربما كتب بين يدي النبي مع (ابان ابن سعيد)[1] .

و (يزيد بن أبي سفيان) أخو (معاوية) من الكتاب كذلك توفي سنة (١٨) أو (١٩) للهجرة[2] . وهو ممن أسلم يوم الفتح . وقد كان عمر قد استخلفه على (الشأم) بعد وفاة (معاذ) ، فلما مات استخلف أخاه (معاوية)[3] .

وكان (معاوية بن أبي سفيان) من كتبة الرسول . وذكر أنه كان (من الكتبة الحسبة الفصحاء)[4] . ومعنى هذا أنه كان يتقن الكتابة والحساب . ولم يذكر من ذكر سيرته متى تعلم الكتابة . ولا استبعد أن يكون قد تعلمها بمكة قبل دخوله في الإسلام . وهو ممن ولد قبل الإسلام وأسلم عام الفتح . فتكون كتابته للرسول اذن بعد هذا العام . ومن كتبه التي كتبها للرسول كتابه لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي[5] ، وكتابه لبني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح النبهانيين[6] ، وكتابه لعتبة بن فرقد[7] ، وكتابه لوائل بن حجر لما أراد الشخوص الى بلاده[8] .

وذكر (المسعودي) أن (معاوية) كتب للرسول قبل وفاته بأشهر[9] .

و (المغيرة بن شعبة) من دهاة العرب وشياطينهم . أسلم قبل عمرة الحديبية. وكان يقال له (مغيرة الرأي) . وكان رسول (سعد) الى (رستم) ، أصيبت عينه باليرموك ، وروي انه كان أول من وضع ديوان البصرة ، وأول من سلم

---

١ التنبيه (٢٤٦) .
٢ الاصابة (٣/٦١٩) ، (رقم ٩٢٦٧) .
٣ الاستيعاب (٣/٦١٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (٣/٤١٢ وما بعدها) ، (رقم ٨٠٧٠) الاستيعاب (٣/٣٧٥ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الجهشياري (١٢) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٧) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٥) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٩ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) .

عليه بالامرة[1] . وهو الذي كتب كتاب رسول الله الى أهل نجران[2] . وكتابه ليزيد بن المحجل الحارثي . وكتابه لبني قنان بن ثعلبة من بني الحارث[3] ، وكتابه لبني جوين الطائيين ، وكتابه لعامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي[4] ، وكتابه لبني الجُرمز بن ربيعة ، وهم من جهينة[5] . وذكر انه والحصين بن نمير كانا يكتبان ما بين الناس[6] .

و (معيقيب) ابن أبي فاطمة ، من (ذي أصبح) وقيل من (بني سدوس)، وكان حليفاً لبني عبد شمس . أسلم بمكة . وقد ولاه (عمر) بيت المال ، ثم كان على خاتم (عثمان)[7] . وورد انه كان حليف بني أسد ، وكان يكتب مغانم رسول الله[8] .

وكان (عقبة بن عامر بن عبس) الجهني الصحابي المشهور من الكتاب . وصف بأنه « كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه ، فصيح اللسان ، شاعراً كاتباً ، وهو أحد من جمع القرآن » . وعثر على مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف (عثمان) « وفي آخره : كتبه عقبة بن عامر بيده »[9] . ونجد في طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أمر الرسول بكتابته لعوسجة بن حرملة الجهني في آخره : « وكتب عقبة وشهد »[10] .

وجاء في خبر ضعيف أنه كان للرسول كاتب يقال له (السجل) ، وكاتباً يقال له : « ابن خطل ، يكتب قدام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا نزل : غفور رحيم ، كتب رحيم غفور ، وإذا نزل : سميع عليم ، كتب عليم سميع . وفيه : فقال ابن خطل : ما كنت أكتب إلا ما أريد ، ثم كفر ولحق بمكة .

---

١ الاصابة (٤٣٢/٣) ، (رقم ٨١٨١) .
٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) ، (صادر) .
٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) ، (صادر) .
٤ الطبقات (٢٦٩/١) ، (صادر) .
٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .
٦ الجهشياري (١٢) .
٧ الاصابة (٤٣٠/٣) ، (رقم ٨١٦٦) .
٨ الجهشياري (١٢) .
٩ الاصابة (٤٨٢/٢) ، (رقم ٥٦٠٣) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل ابن خطل ، فهو في الجنة . فقتل يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة »[1] . وهذا وهم ، وقد خلط صاحب هذا الخبر بين (عبدالله بن أبي سرح) وبين (ابن خطل) الذي لم يرد في الأخبار أنه كتب للرسول .

وذكر (ابن دحية) أن في (بني النجار) كاتباً كان يكتب الوحي للرسول ثم تنصر[2] . وهو خبر لا نجده في الموارد الأخرى ، ولم ينص على اسم الكاتب، والأغلب في نظري أنه من الأخبـار الموضوعة ، وضع على بني النجار للإساءة اليهم ، وضعه من كان يتحامل عليهم .

ويظهر ان كتّاب الرسول قد وزعوا الأعمال الكتابية فيما بينهم،او ان الرسول هو الذي وزع تلك الأعمال عليهم ، بحيث خصص كل واحد منهم بعمـل من الأعمال . فقد روي ان علياً وعثمان كانا يكتبان الوحـي فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية يكتبان بين يديه في حوائجه ، وان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وان عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي . وان معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي يكتب مغانم رسول الله . وان حنظلة بن الربيـع (ربيعة) بن المدقع بن أخي أكثم بن صيفي الأسدي (الأسيدي) ، خليفة كل كاتب من كتّاب النبي ، اذا غاب عن عمله فغلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه . وقال له : الزمني واذكرني بكل شيء لثالثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة ايام إلا اذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنده شيء منه[3] . فهو كاتب عام يكتب للرسول في كل أموره ، وهو خليفة كل الكتّاب . ولهذا غلبت عليه لفظة (الكاتب) . وقد كانت وفاته في خلافة (عمر) ، ومات في (الرها) من بلاد مضر[4] .

---

١ ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٣١٦/٢) .

٢ ابن سيد الناس ، عيون الاثر (٣١٦/٢) .

٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، المعارف (١٣٠) .

٤ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) . المعارف (١٣٠) .

وذكر أن (المغيرة بن شعبة) و (الحصين بن نمير) يكتبان أيضاً فيما يعرض من حوائجه[1] .

و (حذيفة بن اليمان) (توفي سنة ٣٦ هـ) ممن يكتب خرص النخل[2] . وخصص (المسعودي) عمله بخرص الحجاز[3] .

وذكر (عبدالله بن زيد) الضمري في جملة كتّاب رسول الله الي الملوك[4] . ونجد في طبقات (ابن سعد) صورة كتاب أرسله رسول الله (لمن أسلم من حدس من لخم) ، كتبه له (عبدالله بن زيد)[5] .

وكان (العلاء بن عقبة) فيمن كتب للنبي . وذكر أن الرسول كان يبعثه والأرقم في دور الأنصار . وكانا يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات[6] . وفي جملة ما كتبه للرسول كتابه لبني شنْخ من جهينة[7] ، وكتابه للعباس بن مرداس السلمي ، أنه أعطاه (مدفواً)[8] . وذكر أنهما كانا يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء[9] .

و (أبي بن كعب بن قيس) من كتّاب الوحي ، وهو من يثرب من (بني النجار) من (الخزرج) . وقد عرف بـ (سيد القرّاء) ، وكان أقرأ الناس للقرآن . وكان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لكتاب الله . وكان ممن كتب للنبي قبل (زيد بن ثابت) ومعه أيضاً . وذكر انه كان أول من كتب لرسول الله مقدمه المدينة ، وأول من كتب في آخر الكتاب : « وكتب فلان» وكان اذا لم يحضر دعا رسول الله (زيد بن ثابت) فكتب . وكان وزيد يكتبان الوحي

---

١ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) ، نهاية الارب (١٨/٢٣٦ وما بعدها) .
٢ المعارف (١١٤) ، نهاية الارب (١٨/٢٣٦) .
٣ المسعودي ، التنبيه (٢٤٥) .
٤ الاصابة (٢/٣٠٥) ، (رقم ٤٦٩٠) .
٥ الطبقات (١/٢٦٦ وما بعدها) .
٦ الاصابة (٢/٤٩١ وما بعدها) ، (رقم ٥٦٤٩) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧١) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٣) .
٩ الجهشياري (١٢) .

بين يدي الرسول ، ويكتبان كتبه الى الناس وما يقطع وغير ذلك[1] . ونجد في طبقات ابن سعد ، صور كتب دوّنها أُبي للرسول ، منها كتابه لخالد بن ضماد الأزدي ، وكتابه لعمرو بن حزم ، وهو عهد يعلمه فيه شرائع الاسلام وفرائضه وحدوده ، حيث بعثه الى اليمن[2] ، ومنها كتابه لجنادة الأزدي[3] ، وكتابه للمنذر ابن ساوى ، وكتابه الى (العلاء بن الحضرمي) ، بشأن ارسال ما تجمع عنده من الصدقة والعشور[4] ، وكتابه لجمّاع في جبل تهامة كانوا قد غصبوا المارة من كنانة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد[5] ، وكتابه لبارق من الأزد . وقد شهد على صحته أبو عبيدة بن الجرّاح وحذيفة بن اليمان[6] .

وزيد بن ثابت من الأنصار ، من (بني النجار) . ولما قدم الرسول المدينة استكتبه ، فكتب له الوحي ، كما تولى له أمر كتابة الرسائل . ذكر أنه تعلم الكتابة على أسرى (بدر) في جماعة من غلمان الأنصار . فقد « كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علّم عشرة من المسلمين ، فكان زيد بن ثابت ممن عُلّم ». وذكر أنه جاء الى أبيه وهو يبكي ، فقال ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً[7] .

وروي أنه في السنة الرابعة من الهجرة أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود ، وقال لا آمن أن يبدّلوا كتابي[8] . فتعلم كتابهم ، وتولى أمر كتابة رسائل الرسول اليهم ، والرد على رسائلهم[9] . ونسب اليه اتقانه الكتابة بلغات أخرى . ذكر المسعودي منها : الفارسية والرومية والقبطية والحبشية . وأنه تعلم

---

١ الاستيعاب (١/٢٧ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (١/٣١) ، (رقم ٣٢) ، فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) ،
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٧) ، المعارف (٢٦١) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٠) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٦) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦ وما بعدها) .
٧ امتاع الاسماع (١/١٠١) ، الطبقات (٢/١٤) ، الجهشيارى (١٢) .
٨ امتاع الاسماع (١/١٨٧ ، ١٩٤) ، السجستاني ، المصاحف (٣) .
٩ فتوح البلدان (٤٧٣ وما بعدها) .

ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكان يكتب الى الملوك ويجيب بحضرة النبي ويترجم له[1] وقيل إنه كان من أعلم الصحابة بالفرائض[2] . وكان هو الذي تولى قسم غنائم اليرموك . وتولى جمع القرآن في أيام أبي بكر ، بتكليف من الخليفة. وذكر أنه كان « رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض »[3] . وقد عرض زيد القرآن على رسول الله ، « وكان آخر عرض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، القرآن على مصحفه ، وهو أقرب المصاحف من مصحفنا »[4] .

وكان حين قدم رسول الله المدينة ابن احدى عشرة سنة . وكان يوم (بعاث) ابن ست سنين وفيه قتل أبوه . ويظهر انه كان قد تعلم الكتابة وهو صغير. ذكر انه أتي بزيد النبي مقدمه المدينة ، فقيل هذا من بني النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة،فقرأ عليه فأعجبه ذلك،فقال : تعلم كتاب يهود،فإني ما آمنهم على كتابي . فتعلمها ، وتولى الكتابة بالعبرانية أو السريانية بين الرسول واليهود ، فضلاً عن كتابة رسائله وما ينزل عليه من الوحي حين يكون عنده. لذلك عدّ من البارزين في قراءة القرآن . وبرز في القضاء والفتوى والفرائض،وعدّ من أصحاب الفتوى، وهم ستة : عمر وعليّ وابن مسعود وأبي وأبو موسى ، وزيد بن ثابت . وهو الذي جمع القرآن[5] .

وهو الذي جمع القرآن في عهد (أبي بكر) ، وقد اختلف في سنة وفاته، فقيل مات سنة اثنتين أو ثلاث أو خمس وأربعين ، وقيل سنة احدى أو اثنتين ، أو خمس وخمسين . وفي خمس وأربعين قول الأكثر . وذكر ان حسان رثاه بقوله :

---

١ التنبيه (٢٤٦) ، فتوح البلدان (٤٧٩) ، السجستاني ، المصاحف ، تقييد العلم (٥١) .

٢ الاستيعاب (١/ ٢٩) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ الاصابة (١/ ٥٤٣ وما بعدها) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (١/ ٥٣٢) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ المعارف (٢٦٠) .

٥ الاصابة (١/ ٥٤٣) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الاستيعاب (١/ ٥٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، نزهة الجليس (٢/ ٦٥) ، أسد الغابة (٢/ ٢٢١ وما بعدها) .

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت[1]

وعهد رسول الله الى (زيد) احصاء الناس والغنائم ، وتقسيمها عليهم حسب حصصهم[2] .

وكان (ثابت بن قيس بن شماس) الأنصاري ممن كتب للرسول . كتب له كتابه لوفد ثُمالة والحدّان . وقد شهد على الكتاب ووقع عليه (سعد بن عبادة)، و (محمد بن مسلمة)[3] . وكان خطيب الأنصار . وقد قتل يوم اليمامة[4] . وهو الذي أمره الرسول أن يجيب على خطاب خطيب (تميم) ولسانها الناطق (عُطارد ابن حاجب) . فكان خطيب المسلمين[5] .

و (محمد بن مسلمة) ، هو من الأوس . ولد قبل البعثة ، وهو أول من سُمّي في الجاهلية محمداً . أسلم قديماً على يدي (مصعب بن عمير) ، وآخى الرسول بينه وبين (أبي عبيدة) . واستخلفه الرسول على المدينة في بعض غزواته . وقد كتب للرسول كتابه لمهري بن الأبيض . توفي سنة (٤٣) أو (٤٦ هـ)[6] .

وكان (أوس بن خولي) من كتّاب يثرب ، ولما كان صلح (الحديبية) وأراد الرسول تدوين الصلح « دعا أوسَ بن خولي يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا ابن عمك عليّ ، أو عثمان بن عفان ، فأمر علياً فكتب »[7] . وهو من الخزرج . ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين آخى بينه وبين شجاع بن وهب[8] . وكان من (الكملة) ، ولما قبض الرسول وأرادوا غسله ، حضرت

---

١ الاصابة (١/٥٤٤) ، (رقم ٢٨٨٠) ، الطبري (٢/٤٢١) ، (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ، تهذيب الاسماء واللغات ، للنووي (١/٢٠٠ وما بعدها) ، تهذيب التهذيب ، للعسقلاني (٣/٣٩٩) ، (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ) ، اليعقوبي (٢/١٥٧ ، ١٩٥) ، (هوتسما) ، ابن هشام ، سيرة (٣/١١) ، (مطبعة حجازي بالقاهرة) .

٢ امتاع الاسماع (١/٤٢٦) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) ، (١/٣٥٤) ، (صادر) .

٤ الاصابة (١/١٩٧) ، (رقم ٩٠٤) .

٥ الطبري (٣/١١٦) ، (قدوم وفد تميم ونزول سورة الحجرات) .

٦ الاصابة (٣/٣٦٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٨٠٨) ، ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) ، (١/٣٥٥) ، (صادر) .

٧ امتاع الاسماع (١/٢٩٦) .

٨ الاصابة (١/٩٥ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) .

الأنصار ، وأبت على المهاجرين إلا أن يحضر منها أحد ، فقيل لهم : اجتمعوا على رجل منكم ، فاجتمعوا على أوس بن خولي ، فحضر غسل رسول الله ودفنه مع أهل بيته . وتوفي في خلافة عثمان[1] .

وكان (عبدالله بن رواحــة) الخزرجي من كتّاب الرسول ومن الشعــراء المعروفين بيثرب ومن السابقين الأولين من الأنصار وأحد النقباء ليلة العقبة. وكان الرسول يقول له : « عليك بالمشركين » ، فينظم الشعر فيهم . وكان يناقض (قيس بن الحطيم) في حروبهم ، ولما دخل الرسول مكة في عمرة القضاء كان ابن رواحة بين يديه ، وهو يقول :

خلّوا بني الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم عــلى تأويله
ضرباً يزيل الهــام عن مقيله   ويذهل الخليــل عن خليله

ومدح الرسول ، وكان من جيد مدحه له قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينــة   كانت بديهته تنبيك بالخبر[2]

وذكر بعض أهل الأخبار أنه لما نزلت : « والشعراء يتبعهم الغاوون . قال عبدالله بن رواحــة : قد علم الله أني منهم ، فــأنزل الله : إلا الذين[3] آمنوا وعملــوا الصالحات »[4] . وسورة الشعراء التي فيها آية : « والشعراء يتبعهــم الغاوون » وما بعدها ، من السور التي نزلت بمكة إلا هذه الآيـة وما بعدها ، وهي أربع آيات في آخرها ، نزلت بالمدينة في شعراء الجاهلية ، ثم استثنى منهم شعراء المسلمين منهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فقال تعالى : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فصار الاستثناء ناسخاً له من قوله والشعراء يتبعهم الغاوون[5] .

---

١ الاستيعاب (١/٤٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الاصابة (٢/٢٩٨ وما بعدها) .
٣ في الاصابة (ان الذين) ، وهو غلط مطبعي .
٤ الشعراء ، الاية ٢٢٤ وما بعدها .
٥ الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص ١٥١ وما بعدهــا) ، (حاشيــة على أسباب النزول) ، (القاهرة ١٣١٥ هـ) .

وهناك كتبة آخرون كتبوا الكتاب والكتابين والثلاثة للرسول، ذكر (المسعودي) أنه لم يثبت أسماءهم في جملة أسماء من كتب للرسول لأنه لم يكتب من أسماء كتاب الرسول إلا من ثبت على كتابته واتصلت أيامه فيها وطالت مدته وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً ويضاف الى جملة كتابه[1] .

وذكر ان كتاب النبي كانوا يكتبون بالخط المقور ، وهو النسخي . أما الخط (المبسوط) ويسمى باليابس ، فقد استعمل في النقش على الأحجار وأبواب المساجد وجدران المباني ، وفي كتابة المصاحف الكبيرة ، وما يقصد به الزينة والزخرف ، وغلب عليه اطلاق لفظ (الكوفي)[2] .

وكان بشير بن كعب العدوي ممن قرأ الكتب[3] . وذكر أنه كان من التابعين[4]. وكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ممن قرأ الكتب ، وكان يكتب الحديث بين يدي رسول الله ، ويقرأ بالسريانية[5] .

وذكر أهل الأخبار ان رجلاً من أهل اليمن كان يقرأ الكتب ، وان امرأة اسمها (فاطمة بنت مرّ) ، كانت قد قرأت الكتب كذلك[6] .

وكان من النساء من يحسن القراءة والكتابة . منهن : (الشفّاء بنت عبدالله بن عبد شمس) القرشية العدوية . من رهط (عمر)[7] . أسلمت قبل الهجرة ، وهي من المهاجرات الأول . وكانت من عقلاء النساء ، وكان (عمر) يقدمها في الرأي . وكان رسول الله يزورها ويقيّل عندها في بيتها ، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه . وقد أمرها الرسول أن تعلم (حفصة) الكتابة ، فعلمتها ،

---

١ المسعودي ، التنبيه (٢٤٦) .
٢ حفني بك ناصف (٦١ وما بعدها) .
٣ بضم أوله مصغرا ، الاصابة (١٨٣/١) ، (رقم ٨٢٢) .
٤ الاصابة (١٧٧/١) ، (رقم ٧٧٨) .
٥ المعارف (٢٨٧) ، الاصابة (٣٤٣/٢) ، (٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٣٣٨/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٦ الروض الانف (١٠٤/١) .
٧ فتوح البلدان (٤٧٧ وما بعدها) ، (٤٥٨) ، (المكتبة التجارية) .

كما علمتها (رقية) تسمى (رقية النملة)[1] . وقد تعلمت الكتابة في الجاهلية[2] .

وكانت (حفصة) زوج النبي وابنة (عمر) تكتب[3] . وكانت (أم كلثوم) بنت (عقبة) تكتب[4] . وكذلك كانت (عائشة بنت سعد) ، و (كريمة بنت المقداد)[5] ، و (شميلة)[6] .

وورد ان (عائشة) زوج الرسول ، انها كانت تقرأ المصحف ولا تكتب[7] . ولا شك في انهما تعلمتا القراءة في الاسلام .

وورد في بعض الأخبار أن العرب كانت تسمي كل من قرأ الكتب أو كتب: صابئاً . وكانت قريش تسمي النبي أيام كان يدعو الناس بمكة ويتلو القرآن صابئاً[8] .

وقد اشتهر أهل اليمن بشيوع الكتابة والقراءة فيهم ، فكان غلمانهم يتعلمونها ويرددون قراءة ما يكتبون ويقرأون وقد أشير الى ذلك في شعر (لبيد) فورد :

فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان
متعود لحن يعيد بكفه قلماً على عسب،ذبلن وبان[9]

والزبر : الكتب ، فقال : كأن تلك المنازل كتب يرددها وليد يمان ، أي غلام يمان ، لأن الكتاب فيهم ، لأنهم أهل ريف . متعود لذلك : فهِمٌ ، ولحِنٌ : بمعنى فهم،يعيد بكفه قلماً ، يكتب في العسب والبان . وكانوا يكتبون في العسب والبان والعرعر[10] . فيظهر من ذلك أن أهل اليمن ، حتى غلمانهم ، كانوا يكتبون ، ويردد الأطفال الكتب ، لحفظها ولتعلمها ، على نحو ما يفعلون في الكتاتيب هذا اليوم .

---

١ الاصابة (٣٣٣/٤) ، (رقم ٦٢٢) .
٢ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٣ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٤ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٦ البلاذري ، أنساب (١٣٧/١) ، الاصابة (٣٣٥/٤) ، (رقم ٦٣٢) .
٧ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٨ الاكليل (٤٤/١) .
٩ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، (ص ١٣٨) ، (طبعة الكويت ١٩٦٢) .
١٠ المصدر نفسه .

ويظهر أن ثقيفاً كانت قد حذقت الكتابة وبرزت بها . فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال : « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف » ، وأن عثمان ابن عفان قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف »[1] . وذكر أن (غيلان بن سلمة بن معتب) ، وهو ممن أسلم يوم الطائف ، كان كاتباً كما كان معلماً[2] .

وورد في الأخبار أن الجاهليين كانوا يضعون الكتب التي ترسل الى الملوك من الآفاق ، على لوح ضمت اليه ألواح من جوانبه ، فلا تمسها إلا يد الملك ، يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء ويجيب على ما فيها . وفي هذا الخبر دلالة على شيوع الكتابة والمراسلات عند الجاهليين ، وعلى وجود ديوان خاص لدى الملوك ، يتولى النظر في المراسلات . وفي هذا المعنى ورد في شعر لبيد :

أو مذهبٌ جدد على ألواحـ ـهن الناطق المبروز والمختوم[3]

ويظهر ان قوماً من الشعراء كانوا يكتبون ويقرأون . ومنهم من كان على ثقافة وعلم . ورد في شعر للشاعر (لبيد) قوله :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبر تجدّ متونهـا أقلامها[4]

ولا يمكن صدور هذا البيت ، إلا من رجل كاتب له ذكاء حاد ، وربما كان ذلك الشاعر كاتباً يدون شعره ويحفظه عنده ، فوصفه مثل هذا للطلول ، لا يمكن أن يقال إلا من رجلٍ له علم بالكتابة ، وحذق ودراية .

وفي البيت الآتي :

فمدافع الريّان عُرّي رسمهـا خلقاً كما ضمن الوحي سِلامها

إشارة الى الكتابة كذلك ، فالوحي هو الكتابة ، والسِّلام الحجارة ، أي كان

---

١ ابن فارس ، الصاحبي (٢٨) .
٢ المحبـر (٤٧٥) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٩) .
٤ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٩) ، بلوغ الارب (٣ /٣٦٧ وما بعدها) .

ما بقي من رسمها بعد أن عريت ، مثل ما يبقى من الكتابة في الأحجار[1]. ويؤخذ من ذلك ان الحجارة كانت — كما ذكرت في مواضع من هذا الكتاب — مادة من مواد الكتابة عند الجاهليين .

وفي شعر لبيد :

فنعاف صارة فالقنـــان كأنها   زُبر يرجعها وليد يمان
مُتعود لحن يعيد بكفّـــه   قلماً على عُسب ، ذبلن وبان[2]

دلالة واضحة على إلمامه بالكتابة والقراءة ، وعلى وقوفه على خط أهل اليمن ، وعلى دراسة غلمان اليمن للزبر ، وهي الكتب .

بل ورد : ان لبيداً كان يدون شعره ، ويهذبه بعد كتابته ، وانه كان يكتب. روي : « ان عمر بعث الى المغيرة بن شعبة ، وهو على الكوفة ، يطلب اليه أن يستنشد من قبله من شعراء الكوفة ما قالوه في الاسلام . فأجابه الأغلب ، ورد عليه لبيد قائلاً : إن شئت ما عفى عنه — يعني الجاهلية — فقال : لا ، أنشدني ما قلت في الاسلام . فانطلق ، فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها ، وقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر . فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص عطاء الأغلب خمس مئة ، وجعلها في عطاء لبيد »[3] .

وكان الشاعر (المرقش) ، وهو من شعراء الحيرة ، كاتباً قارئاً ، تعلم الكتابة والقراءة في (الحيرة) مع أخيه (حرملة) عند رجل من أهل الحيرة[4] . وكذلك كان الشاعر (لقيط بن يعمر الإيادي) كاتباً قارئاً ، وقد عرف بين أهل الأخبار بـ (صحيفته) التي أرسلها الى قومه (إياد) ، ينذرهم فيهـــا بعزم (كسرى) على غزوهم ، وهي قصيدة افتتحت بهذا البيت :

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٧) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ١٣٨) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٢٨ ، ٣٦) ، الاغاني (١٥/١٣١) .

٤ الأغاني (٦/١٣٠) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد[1]

ويجب ألا ننسى الشاعر : (أمية بن أبي الصلت) الذي لم يكن كاتباً قارئاً حسب ، بل كان واقفاً على كتب أهل الكتاب كذلك ، وكان يقرأها ، ويقتبس منها ، وقد استخدم في شعره ألفاظاً ذكر أنه أخذها من كتب أهل الكتاب[2] .

ونضيف الى من تقدم : (الزبرقان بن بدر)[3] ، و (النابغة الذبياني)[4] و (الربيع بن زياد العبسي)[5] ، و (لبيد بن ربيعة العامري)[6] ، و (كعب ابن زهير بن أبي سلمى)[7] .

ودعوى ان الجاهليين كانوا أميين وعلى الفطرة والبديهة ، لا يحسنون كتابة وقراءة خلا نفر بمكة وأشخاص بيثرب ، دعوى باردة سخيفة ، لا يمكن لمن له إلمام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها . فأهل الأخبار الذين يروون هذه الرواية ، يعودون فيخطئون أنفسهم ، بسرد أسماء رجال من جزيرة العرب ومن العراق وبلاد الشأم ، ذكروا انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ذكروا أكثر من ذلك، ذكروا ان منهم من كان يقرأ العبرانية أو السريانية ، كالأحناف ، ثم انهم يذكرون أخبار مراسلات سادات القبائل في مختلف مواضع جزيرة العرب مع الرسول ، ومكاتبة مسيلمة مع النبي وتأليفه كتاباً زعم انه وحي نزل عليه من السماء مثل ما نزل على الرسول ، فهل يعقل بعد ذلك ، قول قائل ان العرب كانوا أميين ، خلا نفر . وقد رأينا انهم تركوا آلاف الكتابات باللهجات العربية

---

١ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (١٥٢/١) ، الاغاني (٢٤/٢٠) ، مختارات ابن الشجرى (٢ وما بعدها) .

٢ ابن هشام ، سيرة (٤٨/١) ، الاغاني (١٢٣/٣) ، (١٢١/٣ وما بعدها) ، (١٢٩/٤) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٨) ، ابن سعد ، الطبقات (٣٧٦/٥) ، المزهر (٣٠٩/٢) .

٣ الاغاني (١٨٠/٢) .

٤ البغدادي ، الخزانة (٣٩٢/٢ وما بعدها) .

٥ الاغاني (٢٢/١٦ وما بعدها) ، أمالي المرتضى (١٣٦/١) .

٦ ابن قتيبة ، الشعر (٢٣٣ وما بعدها) ، الخزانة (٢١٥/٢) .

٧ ابن قتيبة ، الشعر (٩١/١) ، جمهرة أشعار العرب (٢٤) .

الجنوبية وبالثمودية واللحيانية والصفوية ، بل قد نجد الكتابة في بعض قبائل الجاهلية مثل قبائل الصفاة ، أكثر اتساعاً وانتشاراً مما عليه الحال بين قبائل هذا اليوم .

وبعد ، فالأمية الجماعية التي فرضها أهل الأخبار على الجاهليين ، فجعلوهم أميين مائة بالمائة ، لم تكن أمية صحيحة ، وإنما جاءت من وهم في فهم المراد من المواضع التي أشرت اليها من القرآن ، بدليل مناقضة أهل الأخبار أنفسهم ، بذكر أسماء من ذكرناهم وممن لم نذكرهم ممن كان يقرأ ويكتب بهذا القلم العربي الذي دوّن به القرآن . وبدليل ما أوردته من أقوال المفسرين في الأمية ، من أنها الوثنية ، لا الأمية بمعنى الجهل بالكتابة والقراءة حتماً ، لعدم انسجام هذا المعنى مع تفسير الآيات ، ثم إن القرآن الكريم حين تعرض للأمية ، بمعنى عدم القراءة والكتابة ، قال : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لأرتاب المبطلون »[1] . فعبر بذلك تعبيراً مبيناً عن معنى عدم القراءة والكتابة ، بأفصح عبارة ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك » ، ولو كانت الأمية بهذا المعنى لما أهمل ذكرها في هذا المكان . ومن ذلك الوهم جاءت الأحاديث الضعيفة من أنه كان من أمة أمية لا تحسب ولا تكتب ، ولعاطفة دينية ، شددوا في أمية العرب ، فجعلوها جميعاً أميين ، لاظهار معجزة للرسول – هو في غنى عنها – في أنه ظهر بالنبوة في أمة أمية ، وجاء من الله بأحسن بيان ، وهي حجة له على أهل الكتاب والمشركين .

وبعد ، فقد فهمنا من روايات أهل الأخبار ، ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة في عهد غير بعيد عن الاسلام . فهل يعني هذا انهم لم يكونوا يحسنون الكتابة والقراءة قبل هذا العهد أبداً ؟ والذي أراه ان ذلك شيء غير معقول ، وان أهل مكة كانوا يكتبون ويقرأون ، كانوا يكتبون بالمسند ، القلم الذي كتب به أكثر أهل جزيرة العرب قبل الاسلام ، بدليل ما نقرأه في كتب أهل الأخبار من زعمهم ان أهل مكة كانوا يجدون بين الحين والحين كتابات مدونة بالمسند في مقبرة

---

١ العنكبوت ، الاية (٤٦ وما بعدها) .

مكة القديمة وفي مواضع أخرى منها ، وفي عثور الناس على هذه الكتابات دلالة على ان سكان مكة كانوا يكتبون بالمسند أو بأقلام مشتقة منه ، ولا يعقل عـــدم استعمال أهل الحجاز لهذا القلم ، وقد وجدنا انه والأقلام المشتقة منه ، قد كونت قلم أهل هذه البلاد قبل الاسلام ، والظاهر انهم وجدوا ان القلم الذي كان يكتب به النبط وبقية العرب ، مثل عرب الحيرة ، كان أسهل استعمالاً ومرونة من القلم المسند البطيء الحركة ، وانه لا يأخذ حجمـاً كبيراً بالقيـــاس الى الخط العربي الجنوبي ، لذلك فضلوه على هذا القلم ، واستعملوه عوضاً عنه ، دون أن يجروا عليه تحويراً أو تغييراً ، لإصلاح ما فيه من خلل ، فلما جـاء الاسلام ، أجرى عليه ما أجرى من تحوير وتغيير وتطوير .

الفصل الحادي والعشرون بعد المئة

الخط العربي

للعلماء الذين اشتغلوا في موضوع نشوء الخط عند البشر ، والقلم الأول الذي تفرعت منه سائر الأقلام ، نظريات في تأريخ الكتابة وظهورها ، وفي المراحل التي مرّت عليها من أول عهد مرت فيه وهو عهد الكتابة الصورية Pictography الى وصولها الى مرحلة الحروف . وهذه النظريات مع أنها مرت بمناقشات وبحوث وتحددت حتى أصبحت معروفة عند علماء الخطوط ، لم تستقر حتى الآن . لأن ما وصل الينا من نماذج كتابية أثرية ، لا يكفي لابداء رأي مقبول أو رأي قاطع في أصل الخط وفي منشئه وفي الأمة التي أوجدته . ولا أعتقد أن في امكان أحد القطع في ذلك ، ما لم يعثر المنقبون في المستقبل على نماذج عادية غير معروفة ، تكون كافية لإبداء رأي علمي في هذا الموضوع .

واختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشر،وهو اختراع لا تقل أهميته عن أعظم الاختراعات والاكتشافات والمغامرات التي قام بها الانسان منذ يومه الأول حتى هذا اليوم . ومنها هروب الانسان من أحضان أمه الأرض، وعقوقه بحقها ، والتبطر بها ، وذهابه الى القمر ثم الى ما وراء القمر من عوالم سابحة راقصة في هذا الذي نسميه السماء . ونحن لا نحفل اليوم بموضوع أهمية اختراع الكتابة ، بالنسبة الى تقدم العقل البشري ، ولا يعرف معظم الناس عنه أي شيء ، ولا يحفلون به ، لأنه صار من القديم البائد . وكل قديم بائد يكتب عليه النسيان . وسيأتي يوم ولا شك ينسى فيه الجاءون من بعدنا بمئات وبآلاف

من السنين ، يوم هروب الإنسان من الأرض ، ولا ينظرون إليــه إلا كما ينظر الانسان الأمي الجاهل الى مبدأ الكتابة أو الى اختراع النار أو اختراع الطباعة أو غير ذلك من المخترعات التي إذا مضى وقت طويل على اختراعهــا نسيتها ذاكرة البشر ، ونسيت كل أثر تركته في تطور حياة هذا الإنسان المغامر المغرم بالبحث عن المجهول .

ولعلي لا أخطأ إذا قلت إن الإنسان قد فكر في الكتابة منـذ أيامه الأولى أي منذ شعر بنفسه ، وصار يُعبر عمــا في ذاته ، فكر بها لأنه كان في حاجة الى تسجيل أعماله ومعاملاته وكلامه ، ليتمكن من تذكرها عند الحاجة والى مراجعتها. كما فكر في تسجيل حوادثه وشعوره وتأثره بالمرئيات الجميلة أو المحزنة،وبالخواطر التي كانت تمر عليه ، وبكل إحساسه وعواطفه . وكان كلما تقدم عقله وتوسعت مداركه شعر بحاجتــه الى تدوين أعماله وأحاسيسه ، فعمد الى الطرق البدائية في التدوين ، ثم طوّرها تدريجياً حتى وصل الى مرتبة الكتابة الصورية ، أي أنــه استخدم الصور في مقام الألفاظ . بأن يرسم صورة ، فإذا رآها أحد عرفها وسماها باسمها.وعرفت هذه الطريقة بالكتابة الصورية . غير أن هذه الطريقة وإن عبرت بعض التعبير عن مشاعر الكاتب ، إلا أنها كانت عاجزة عن التعبير عن الأمـور الروحية وعن الألفاظ المعنوية ، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك . لـذلك لم يقنع بها بل أخذ يشحذ ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وبسيطة ولها قابلية على رسم المعاني والاحساس،فأوجد من الكتابة الصورية ، اختزالاً نسميه : الكتابة المقطعية. أي انه اختزل الصور ، وجزأها الى مقاطع . وأخذ منها مقاطعها الأولى . فسماها بأسمائها الأصلية . فوصل بذلك الى مرحلة المقاطع . وتمكن بسليقتـه وبذكائه من تحليل الأسماء والألفاظ التي يراد تدوينها الى مقاطع ، وتدوين أي كلمة بمقاطعهـا التي تتألف منها . وقد سهلت هذه المرحلة عليه كتابة الكلمات التي تعبر عن الآراء ومن تسجيل جمل وصفحات فيها ألفــاظ مادية محسوسة وألفاظ ليست بمسميات لأشياء مادية وإنما هي تعبير عن معان وإحساس . مثل موت وحياة ورأي ومــا شاكل ذلك . إلا أنه وجد أن هذه الطريقة لا تزال طريقة صعبة عسيرة ، وأن على الإنسان أن يحفظ صور مئات من العلامات التي تعبر عن المقاطع لتدوين رسالة. لذلك فكر في اختزالها أيضاً وفي غربلتها وجزم المقاطع للوصول الى الجذور الأساسية للألفاظ وقد نجح في عمله هذا فتوصل إلى إيجاد الحروف . فبلغ بـذلك النهاية .

وهي المرحلة الحقيقية للكتابة . وبذلك استطاع أن يدوّن كل ما يدور بخلده من آراء بحروف ، يضعها بعضها الى بعض ليولد منها الألفاظ التي تدوّن بعضها الى بعض لتعبر عما يريد الكاتب تدوينه .

وما ذكرته يمثل مجمل رأي العلماء في تطور الكتابة من الرموز والعلامات البدائية الى بلوغها مرحلة الكمال والتمام . وقد أخذوا رأيهم هذا من الصور والنقوش التي عثر عليها في الكهوف وعلى الصخور وفي المقابر في مختلف أنحاء العالم . ولكن رأيهم هذا يتشعب ويتضارب عندما يتعرض للأصل الذي أوجد الحروف، والمكان الذي صار له شرف ايجاد الكتابة ، وحل المشكلة المستعصية التي دوخت الانسان، مشكلة تدوين ما يدور بخلده بيسر وسهولة . فذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة انما ظهرت في العراق ، وذهب بعض آخر الى انها ظهرت في لبنان ، وذهب بعض الى انها من نبت أرض النيل ، وذهب آخرون الى انها من ثمرات جزيرة (كريت) . ولكل رأي ودليل وحجة تقوم على دراسة الكتابات والنصوص التي عثر عليها في تلك الأرضين .

والذين يرون ان العراق هو وطن الكتابة الأول ، يرون ان الخط انما ظهر بتأثير عبادة النجوم ، وذلك في أرض (كلديا) ، وكان الكهنة قد وضعوا رموزاً للنجوم ، ومن تلك الرموز أخذت الأبجدية الأولى ، وتفرعت الألفباء السامية الغربية التي صارت أماً لمجموعة من الأبجديات ، ومن قائلي هذه النظرية والمدافعين عنها المستشرق (هومل)[1] .

وهناك طائفة من العلماء رأت ان الأبجدية الأولى هي وليدة أرض النيل . وأن الذين أوجدوا الأبجدية انما أخذوها منها . وكان المصريون قد استعملوا في بادىء أمرهم الكتابة الصورية ، ثم اختزلوها وأولدوا منها (الكتابة الهيروغليفية) . وهي كتابة متطورة متقدمة بالنسبة الى الكتابة الصورية . وقد صارت هذه الكتابة أماً لأقدم الكتابات . إذ تعلمها أهل (سيناء) وأهل بلاد الشأم،ثم اختزلوها وجزموها ، حتى أوجدوا من هذا الجزم الحروف الهجائية[2] .

---

١ Grundriss, I, S. 97, Geschichte Babylonien und Assyrian, S. 50.

٢ Ency. Britanica, Vol. I p. 680, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, S. I, A.H. Gardiner, « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916.

وعثر المنقبون في طور سيناء في (سرابيط الخادم) على كتابة قديمـــة يعود عهدها الى سنة (١٨٥٠) قبل الميلاد ، دفعت بعض العلماء مثل (مارتن اشبرنكلنك) على القول بأن هذه الكتابة هي وليدة الكتابة الهيروغليفية ، وانها الحلقة المفقودة التي توصل بين الهيروغليفيـــة وبين مرحلة الحروف . وذهب الى ان العمال الذين كانوا يشتغلون في مناجم طور سيناء انما اهتدوا الى التدوين بالحروف من معرفتهم للهيروغليفية . إذ اختزلوا المقاطع ، وأخذوا بالجزء الأول من كل مقطع وسمّوا ذلك الجزء باسم من أسماء الصور بلغتهم ، فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الطورسينائية ، بلغ عددها اثنين وعشرين حرفاً ، أصبحت نموذجاً للأبجديات الأخرى التي اعتمدت عليها [١] .

وقد انتشرت هذه الأبجدية من (طور سينـاء) الى الشرق فوصلت الى الشأم وجزيرة العرب ، وصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن غير انها لم تستعمل في العراق ، حيث كانت الكتابة المسمارية ، ولا في مصر ، حيث كانت الكتابـــة (الهيروغليفية) . وقد تغيرت أشكالهـــا باستعمالها الطويل ، وتحرفت بمرور الزمن ، وتبدلت الأسماء التي وضعها كتّاب طور سيناء لحروفهم ، كما تبدلت من حيث الترتيب وبذلك تولدت منها أقلام جديدة [٢] .

ورأى بعض العلماء ان الخط الكنعاني الذي هو من الخطوط القديمة ، قد اشتق من الخط الهيروغليفـــي ، لوجود شبه بين الحروف الكنعانيـــة وبعض الصور الهيروغليفية . ورأى بعض آخر انه مشتق من الكتابة المسمارية . ورأى آخرون انه اشتق من الأبجدية (الطورسينائية) ، إذ يصعب تصور اشتقاق الخط الكنعاني من الهيروغليفية رأساً لبعد ما بين الكتابتين، وإن كان هناك شبه بين بعض الحروف الكنعانية والصور الهيروغليفية . ومن الخط الكنعاني تولدت بعض الأقلام السامية المتأخرة [٣] .

وذهب باحثون الي أن الفينيقيين هم أول من اخترعوا الأبجدية ، ومن هـذه الأبجدية الفينيقية تولدت الأبجديات الأخرى ، وذهب قسم منهم الى أن الفينيقيين، إنما أخذوا أبجديتهم هذه من الهيروغليفية ، بأن شذّبوها وجزموا مقاطعها،وأولدوا

---

١ Martin Sprengling, The Alphabet : its Rise and development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٢ The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٣ The Jewish Quarterly Review, XII, (1950), 83-109, 159-179.

منها الحروف[1] . ونظراً الى وجود هوة كبيرة بين الكتابة الفينيقية وبين الهيروغليفية ، رأى بعض الباحثين ، أن الفينيقيين ، إنما أخذوا خطهم من الخط الطورسينائي ، ثم طوروه وحسّنوه وأوجدوا منه خطهم الذي أولد جملة خطوط .

وطائفة أخرى من العلماء ، رأت أن وطن (الألفباء) الأول هو جزيرة قبرس أو جزيرة كريت ، حيث عثر فيها على نماذج قديمة للكتابة اتخذوها حجة يستند اليها في هذا الرأي . وقد زعم أصحاب هذه النظرية أن أهل ساحل البحر الأبيض إنما تعلموا الكتـــابة من أهل (كريت) أو (قبرس) . وذلك باحتكاكهم بهم ، وبهجرة الفلسطينيين Philistines ، من جزيرة (كريت) الى سواحل فلسطـين التي عرفت باسمهم (فلسطية) Philistia ، ثم أطلقت على المنطقة التي قيل لها فلسطين كلها . ومن الفلسطينيين أخذ الفينيقيون الأبجدية[2] .

وقد عثر الباحثون على عدد من الكتابات القديمة في جزيرة (كريت) ، تبين من دراسة بعض منها أنها مكتوبة على طريقة الكتابة الهيروغليفية ويرجع عهدها الى ما بين (٢٠٠٠) الى (١٦٠٠) قبل الميلاد . كما عثروا على كتابة صورية يعـود عهدها الى حوالى السنة (١٧٠٠) قبل الميلاد . وعثروا على كتابات أخرى حملتهم على القول بأن (كريت) كانت الموطن الأول للكتابة ، ومنها انتقلت الكتابة الى مواضع أخرى من البحر الأبيض[3] . كما بينت ذلك في الفقرة السابقة .

وقد عثر المستشرق (كلود شيفر M. Claude Schaeffer) ، المعروف بتنقيبه عن النصوص (اليغاريتيـــة Ugarit) في شهر (نوفمبر) من عام ١٩٤٩ م على آجرة صغيرة من الصلصال المفخور بالنار حجمها (٥) سنتيمترات في ١٥ ملمتراً في موضع (رأس الشمرة) الواقع على مسافة عشرة أميال من شمال اللاذقيـة ، ظهر أنهـــا على صغرها وتفاهتها البادية عليهـــا من أهم ما عثر عليه من نصوص . فهـــذه الآجرة الصغيرة التي لا تلفت اليهـــا الأنظار هي لوح في

---

١ الدراسات الادبية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الثانية ، العـــدد الاول ، ١٩٦٠ م (ص ٤٤ وما بعدها) .
Ency. Brita., I, p. 680, A.H. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916, M. Dunand, Byblia Grammata, Beyrouth, 1945, p. 71.

٢ Ency. Brit. I, p. 680, Hastings, p. 672, Ency. Bibli., p. 3434.

٣ The Art of Writing, Unseco, p. 8.

غاية من الأهمية كتبت عليه الأبجدية (اليغاريتية) المؤلفة من ثلاثين حرفاً ، وهي على الرغم من صغر حروفها مكتوبة كتابة واضحة بخط قوي جلي . وقد كان العلماء يبحثون عن هذه الأبجدية بكل شوق ، والظاهر ان أحد الطلاب كتبها على هذا اللوح ، ويرجع عهده الى القرن الرابع قبل الميلاد[1] .

وهذه الأبجدية (اليغاريتية) مكتوبة كتابة اسفينية ، ولذلك رأى بعض الذين بحثوا في (اليغاريتية) انها وليدة الكتابة المسمارية . ورأى بعض آخر انها متأثرة بالهيروغليفية من حيث تكوين الحروف الصامتة . وأما من ناحيـة الرسم ، فإنها متأثرة بالكتابة المسمارية . وتتألف من ثلاثين حرفاً ، فهي تتضمن جميع الحروف في الأبجديات السامية الشمالية الغربية المكونة من اثنين وعشرين حرفاً صامتاً . ونجد انها أوردت هذه الحروف على ترتيب الأبجدية الإرمية والعبرانية ، خلا انها وضعت خمسة أحرف أخرى لم ترد في العبرانية بين هـذه المجموعة ، فتكوّن منها سبعة وعشرون حرفاً تضاهي الأبجدية الكنعانية ، ثم أضاف اليهـا كتبة (اليغاريتية) أحرفاً أخرى ، فأصبح مجموف الحروف ثلاثين حرفاً تألفت منها الأبجديـة (اليغاريتية)[2] .

نرى مما تقدم ان آراء علماء الخط تكـاد تتفق على ان مخترعي الأبجديات هم أناس يجب أن يكونوا من أهل الشرق الأدنى أو من حوض البحر الأبيض ، من أهـل جزيرة (كريت) أو (قبرس) . وآراؤهم هذه هي بالنسبة الى الأقلام المشهورة التي لا تزال مستعملة وحية معروفة مثل الخطوط المستعملة في اوروبة ، وفي اميركا ، ومثل الخط العربي والعبراني والسرياني وبالنسبة الى أقلام أخرى ماتت ، غير ان العلماء المتخصصين يعرفون عنهـا شيئاً ويقرأون نصوصها مثـل الكتابات المسمارية وأمثالها . إلا ان هناك أقلاماً هي قديمة أيضاً،ولها أهمية كبيرة ،

---

١ راجع وصف هذه الاجرة الصغيرة والابجدية (اليغاريتية) في مجلة المجمع العلمـي العربي بدمشق : حـ٤ مجلد ٢٥ (١٩٥٠ م) ، (٦٢ وما بعدها) ،
The Glascow Herald, Saturday March 4, 1950, Manchester Guardian Weekly, March 23rd, 1950, p. 13, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12.

٢ The Glascow Herald, Saturday March, The 4th., 1950, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12, Le Muséon, LIX, (1946), 1-4, p. 95, C.H. Gordon, Ugaritic Grammer, Analecta Orientalia, 20, Roma, 1939, p. 69, Caude F. A. Schaeffer, The Cuniform Texts of Ras Schamra Ugari, London, 1939.

ونصوص وكتابات ، لذلك يجب البحث عنها ، لمعرفة تأريخها ودرجة صلتها بالأقلام التي نتحدث عنها . للوقوف على البواعث التي دفعت أصحابها على ايجادها والمراحل التي مرّت بها . فليس من الصواب إهمال تلك الأقلام وغض النظر عنها باعتبار انها أقلام بعيدة عن أقلامنا ، وهي تمثل ثقافة بعيدة عن ثقافتنا .

كذلك يجب البحث عن الرسوم والرموز والإشارات التي سجلها الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه ولتخليد ما كان يدور بخلده . ومقارنة ذلك مع أمثاله في كل أنحاء العالم . فإذا فعلنا ذلك وجمعنا كل الأقلام القديمة مثل أقلام الصين والهند وبقية أقلام أقطار آسية وأقلام إفريقية وامبركا ، ودرسناها دراسة علمية . صار في إمكاننا تكوين رأي عام علمي تقريبي عن تأريخ ظهور الخط عند البشر : متى كان ذلك وأقدم من بدأ به ، مع بذل الجهد للبحث عن نماذج جديدة من الخطوط في كل مكان من العالم لتزيد بها على علمنا المتجمع من الكتابات التي وصلت الينا ولا نضيف عليه علماً جديداً وليكون حكماً قريباً من المنطق والعلم .

والرأي عندي أنه لأجل الإحاطة بتأريخ تطور الخط ، لا بد من الاستمرار في البحث عن كتابات أخرى جديدة ومن دراسة مظاهر أشكال الحروف وكيفية ترتيبها وكيفية النطق بها ، أي الإحاطة بأسماء الحروف . فإن هذه الأمور تساعدنا كثيراً على فهم تطور الخط عند البشر وعن صلته بعضه ببعض ومن التوصل الى نتائج علمية قويمة ، لا تقاس بالنتائج التي تبنى على مجرد الظن والتخمين والتصور.

والذي نلاحظه اليوم أن حروف الخطوط السامية المستعملة عند الغربيين ، تكاد تتفق في أسمائها وفي ترتيبها ، ويشير هذا التشابه الى وحدة الأصل ، والى أن الأبجديات المذكورة قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ، ونبعت من منبع واحد. فكلها تبتدىء بحرف واحد ، هو (الألف) وكلها تجعل الباء حرفاً ثانياً ، ثم ان في وحدة تسمياتها مع اختلاف اللغات التي تدوّن بها دليلاً كافياً على إثبات أن هذه الأبجديات هي من أصل واحد . وعلى أن الأسماء الحروف علاقة وثيقة بالصور وبالكتابة الصورية للغة الأم التي اخترعت تلك الحروف وأوجدتها من مرحلة المقاطع . وإذا ثبتنا أسماء الحروف،وعرفنا من أين أخذت ، وإذا استطعنا العثور على أقدم نص للأبجدية،يكون في إمكاننا ابداء رأي علمي في منشأ الحروف وفي المكان الذي كان له شرف إيجادها ، أو الأماكن التي ساهمت بصور مستقلة

في إيجاد الحروف . وهذا ما أراه . لأني أعتقد أن الانسان فكّر في أول ما فكر به في إيجاد وسيلة يسجل بها أعماله وأفكاره ، وأن تفكيره هذا لم ينحصر في بقعة واحدة ، بل وجد في كل مكان . حتى في البيئات البدائية ، إذ نجد الشعوب البدائية تتخذ وسائل للتعبير عن آرائها وعن تدوين أفكارها بطرق تتفق مع مستواها العقلي ودرجتها في الثقافة .

والحرف الأول ، وهو الألف ، يعني (ثوراً) ، ولذلك مثـل في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور ، وأما الحرف الثاني ، وهو الباء أو Beth ، فإنه يعني (بيتاً) ، وقد صور في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت . وأما الحرف الثالث ، وهو الجيم ، فإنه (كمل) (كيمل) ، أي الجمل ، وصورته لا ترمز الى الجمل رمزاً تاماً . وأما حرف الدال ، فيقال (دالت) ، ومعناه باب . وأما حرف الهاء ، فإنه من He (هي) بمعنى شباك . وأما الواو ، فهو يشير الى وتد . وأما الزاي ، فإنه من زين بمعنى سلاح . وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى حائط . وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى يد أو يد مفتوحة . وأخذ حرف الكاف من (كاف) (كف) بمعنى كف اليد ، أو يد مقبوضة . وأمـا حرف اللام ، فإنه من (لمد) (لامد) ، ومعناه عصا لضرب الثور . وأما الميم ، فإنه من (ميم) بمعنى ماء . وأما النون ، فإنه من نون بمعنى سمكة . وأما حرف السين فهو سامخ ، بمعنى آلة يعتمد عليها كالعصا . وقد أخذ حرف العين من عين ، عين الانسان . وأخذ الفاء من فم (پم) Pe بمعنى فم ، وأخـذ حرف الصاد من (صادى) ، بمعنى صياد . وحرف القاف من قوف Kof بمعنى الرأس الى الخلف ، وحرف الراء ، من ريش بمعنى رأس ، وحرف الشين من (شين) (شن) بمعنى سن . وأما التاء ، فمن كلمة (تاو) (تو) بمعنى علامة أو صليب ، وهكذا[1] .

ولمسألة ترتيب الحروف أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أسماء الحروف . ويظهر ان ترتيب (أبجد هوز حطي ... الخ) ، وهو ترتيب سار عليه العرب أيضاً ، هو ترتيب قديم . وقد عرف عند السريان وعند النبط والعبرانيين ، وعند (بني إرم) ويظن انهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكنعانيون أيضاً ، غير انهـم

١ The Universal Jewish Ency. I, p. 202.

زادوا عليه الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي يمثل حرف التاء فيها آخر حروف الأبجدية الحروف التي لم ترد في ترتيب (أبجد هوز) ، وهي موجودة في العربية ويقال لها (الروادف)[1]. أما الترتيب السائر اليوم في كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومنتهين بالياء، فهو ترتيب اسلامي ، وقد وضع على ما يخيل إلي لتيسير حفظ أشكال الحروف للطلاب ، لأنه راعى الجمع بين الحروف المتشابهة ، ولم يتجنب مع ذلك الترتيب الأصل المراعى في نظام (أبجد هوز) تجنباً تاماً . وضعه (نصر بن عاصم) في ايام الحجاج .

ومن الفينيقيين الذين كانوا يقطعون البحار والبراري للاتجار مع مختلف الشعوب، انتشرت الكتابة بالحروف الى حوض البحر الأبيض . فقد كان تجارهم يسجلون ما يبيعون ويشترون ليضبطوا بذلك أعمالهم ، فظن من كان يتعامل معهم من اليونان وغيرهم انهم كانوا يقومون بأعمال سحرية . ولما عرفوا انهم انما يكتبون ذلك لضبط أعمالهم وتجارتهم تعلموا منهم سر الكتابة . ثم سرعان ما أخذوا يكتبون . وبذلك انتشرت الكتابة في اوروبة . ويظهر ان انتقال الخط الى اوروبة كان في القرن العاشر قبل الميلاد[2] . وقد حافظ اليونان القدامى على أشكال الحروف الفينيقية وعلى طريقتهم في التدوين من اليمين الى اليسار . وحافظوا على أسماء الحروف كذلك . ثم وجد اليونان ان الحروف الفينيقية هي حروف صامتة ولا توجد فيها حروف تعبر عن الحركات. فأكملوها بإضافة الحركات اليها. ثم طوروها بالتدريج. وكان في جملة التطورات الابتداء بالكتابة من اليسار نحو اليمين . وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم من الشعوب الأوروبية الكتابة ، وأخذ كل قوم منهم يوجد منها طرقاً جديدة في الخط حتى صارت على نحو ما هي عليه في هذا اليوم .

الخط العربي :

والعرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل كذلك . بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين . وقد عثر في مواضع

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ The Art of Writing, Unesco, 36.

من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى . وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهـــر في اليمن بصورة خاصة ، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار (القلم المسند) أو (قلم حمير) . وهو قلم يباين القلم الذي نكتب به الآن . ثم تبين انهم صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر ، أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القـلم النبطي المتأخر وذلك قبيل الاسلام على ما يظهر . كما تبين ان النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون أمورهم بالإرمية وبالنبطية ، وذلك لشيوع هذين القلمين بين الناس ، حتى بين من لم يكـــن من (بني إرم) ولا من النبط ، كالعبرانيين الذين كتبوا بقلم إرمي الى جانب القلم العبراني ، ولاختـــلاط العرب الشماليين ببني إرم واحتكاكهم بهم ، مما جعلهم يتأثرون بهـم ثقافياً ، فبان هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت الينا مدونة بنبطية متأثرة بالعربية .

ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعـــددة من جزيرة العرب ، ومنها سواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم وبعض منهـــا قريب من الاسلام ، ان قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب . وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير ان التبشير بالنصرانية الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن ، أدخـــل معه القلم الإرمي المتأخر ، قلم الكنائس الشرقية ، وأخذ ينشره بين الناس لأنه قلمه المقدس، الذي به كان يكتب رجال الدين . ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أشياعاً وأتباعاً بين من دخل في النصرانية وبين الوثنيين أيضاً ، لسهولته في الكتابة، غير انه لم يتمكن مع ذلك من القضاء على المسند إذ بقي الناس يكتبون به . فلما جاء الاسلام ، وكتب كتبة الوحي بقلم أهل مكة لنزول الوحي بينهم . صار قلم مكة هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ، فمات ونسيه العرب ، الى أن بعثه المستشرقون ، فأعادوه الى الوجود مرة أخرى، ليترجم لنا الكتابات العادية التي دونت به .

وهناك أقلام عثر عليها المستشرقون في أعالي الحجاز ، تشبه القلم المسند شبهاً كبيراً ، لذلك رأى الباحثون انها من صلب ذلك القلم ومن فروعه للشبه المذكور، ولأنها متأخرة بالنسبة له ، فلا يمكن أن تكون هي الأم . وقد سمي قلم منهـــا بالقلم الثمودي نسبة الى قوم ثمود ، وسمي قلم آخر بالقلم اللحياني ، نسبة الى

(الحيان) . وعرف القلم الثالث بـ (الكتابة الصفوية) ، نسبة الى أرض (الصفاة) الأرض التي عثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند ، ومنهم حصل هذا القلم على اسمه . ولكنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً يذكر . وكل ما عرفوه عنه أنه خط أهل اليمن القديم ، وأنه خط حمير. وأن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً يكتبون به في الإسلام ويقرأون نصوصه . كما عرفوا القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . ودعوه (القلم العربي) او (الخط العربي) حيناً و (الكتاب العربي) أو (الكتابة العربية) حيناً آخر تمييزاً له عن المسند[1] . ولم يشيروا الى أسماء خطوط جاهلية أخرى .

وقد تكلم (الهمداني) ومشايخه من قبله عن المسند ، كما أشار اليه (ابن النديم) ، وذكر أن نماذج منه كانت في خزانة (المأمون) . غير أن علمهم به لم يكن متقناً على ما يظهر من نقولهم عنه . كما تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (الهمداني). ولم يكن لهم إدراك عن كيفية تطوره . وقد دعوه بالخط الحميري . وعرّفوه بأنه خط مخالف لخطنا هذا، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال (أبو حاتم) هو في أيديهم الى اليوم باليمن[2] . هذا ولم أجد في المؤلفات الإسلامية المعروفة في هذا اليوم ما يفيد بأن أحداً من العرب الإسلاميين كان له علم متقن بالعربيات الجنوبية ، أو كان له علم بتأريخ العربية الجنوبية القديم ، وفي الذي ذكروه عن الخط المسند وعن لغات العرب الجنوبيين وتأريخهم تأييد لما أقوله .

والعرب تسمي (الكتاب العربي) أي خطنا : (الجزم) ، وذكروا أنه إنما سمي جزماً لأنه جزم من المسند ، أي قطع منه ، وهو خط حمير في أيام ملكهم[3] ولا أستبعد احتمال كون كلمة (الجزم) تسمية ذلك القلم في الجاهلية ، وأما تفسير

---

١ الفهرست (ص ٦ فما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١١) ، الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس (ص ٧ وما بعدها) ، تأريخ الخط العربي وآدابه ، تأليف محمد بن طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط ، مكة ، ١٩٣٩ م ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، الجهشياري ، الوزراء (١٢،١ وما بعدها) ، السجستاني ، كتاب المصاحف (٤ وما بعدها الصولي ، أدب الكتاب (٢٨ ـ ٣١) ، القاهرة ١٣٤١ هـ) ، الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٤/٢٤٠ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٣ اللسان (١٢/٩٧ وما بعدها) ، (جزم) ، تاج العروس (٨/٢٢٨) ، (جزم) .

أهل الأخبـــار لسبب التسمية ، فهو من نوع التفاسير المعروفة المألوفة عن أهل الأخبار ، يضعونها حينما يجابههم شخص يريد معرفة سبب تسمية شيء بالاسم الذي عرف به . ودليل ذلك ما ذكره (البطليوسي) من أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق ، وأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (خط الجزم) وهو خطهم ، وهو الذي صار خط المصاحف[1] . و (المشق) في تفسير علماء العربية مـد حروف الكتابة[2] ومعنى هذا أن خط أهل الأنبار ، كان متصل الحروف ممدودها ، بينما غلب على القلم الحيري ، الشكل التربيعي الجاف ذو الزوايا للحروف . وهـو شكل تكون الكتابة به أبطأ من الكتابة بالقلم المشق . ونظيره هو القلم الكوفي في الإسلام ، الذي اختص بأنواع معينة من أغراض الكتابة،ومنها الكتابة على الأحجار والخشب. ونظراً لبطء الكتابة به على الغالب لم يستعمل بكثرة في الكتابة .

ولعل سبب اختلاف قلم الأنبار عن قلم أهل الحيرة ، هو في المنبع الذي استقى كل من أهل المدينتين قلمه منه . فقد استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم (السطرنجيلي) ، المشتق من القلم التدمري . وكتبوا بـه الأناجيل والكتب المقدسة وأحجار المباني ، مثل الأحجار التي توضع فوق أبواب المعابد كالكنائس أو البيوت أو القبور وما شاكل ذلك . وهو خط ثقيل يحتاج الى بذل وقت في نقشه والى جهـد في حفره على الخشب أو الحجر ، بل وفي الكتابة به أيضاً . واستعملوا قلماً آخر أسرع منه وأسهل وأطوع في الكتابة به من (السطرنجيلي) ، كتبت به الأعمال التجارية والمخابرات والرسائل والكتب ، كتبوا بـه بقلم القصب وبالحبر . فكان منه خط النسخ[3] .

هـذا وقد كتب النبط بقلمين كذلك:قلم قديم ، ثقيل في الكتابة تكثر فيه الخطوط المستقيمة والزوايا والتربيعات فهو على شاكلة (السطرنجيلي) ، والخـط الكوفي . كتبوا به على الأخشاب والحجارة والمعـادن والصخور ، حيث حفروا الكتابة حفراً ، كما استعملوه في ضرب نقودهم . وهو ثقيل في الكتابـة لذلك لم يستعمل في الأغراض اليومية كتدوين المعـاملات التجارية والمراسلات وما شاكل

---

١ الاقتضاب (٨٩) ٠

٢ تاج العروس (٧/ ٧٠) ، (مشق) ٠

٣ الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١٥) ٠

ذلك من أمور تستدعي السرعة ، بل استخدم الكتاب قلماً آخر لهذه الأغراض ، هو القلم المدوّر الـــذي يشبه النسخ ، والذي نستطيع أن نسميه (المشق) ، قلم أهل الأنبار . وهو قلم متأخر ظهر عندهم بعد القلم الأول[1] .

ونجد أكثر شعوب الشرق الأدنى على هذه العادة في اتخاذ قلم خاص يكتبون به الكتب المقدسة والأحجار التذكارية،التي توضع فوق أبواب المعابد وفي داخلها أو على القبور للذكرى والتـــأريخ . لذلك يجتهد فيه أن يكون مزوقاً ذا زوايا وتربيعات وزخرف ونقوش ، باعتبار أنه إنما يدوّن للتخليد ولتدوين شيء مقدس ثمين . ومن هـــذه النظرة تولدت طريقة رسم الحروف الأولى لكلمات الجمل أو عنـــوان الفصول بحروف بارزة مغايرة للحروف الأخرى التي تدوّن بها الكلمات التاليـــة . واتخذوا أقلاماً أخرى راعوا فيها السهولة والليونة في الكتابة . لتدوين الكتب الأخرى التي لا صلة لها بالدين ولتدوين الأعمال اليومية . جعلوا حروفها مدوّرة أو مقوسة ، ليمكن الكتابة بها بسهولة بدون حاجة الى بذل عناية في رسم خطوطها المستقيمة والمربعة والزوايا التي تكوّن الحروف .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الخط ، فقال : « وليس في الأرض أمة بها طرق أو لها مسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . فأما أصحاب الملك والملكة والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم ، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ، قال ذلك الهيثم بن عدي وابن الكلبي »[2] . فالخط العربي الجاهلي ، قلمان : جزم ومسند، ولا ثالث لهما . المسند خط العربية الجنوبية وخط من كتب بهذا القلم من بقيـــة أنحاء جزيرة العرب ، والجزم ، خط أهل مكة والمدينة وعرب العراق وغيرهم من العرب الشماليين .

ولما كان عرب العراق قد خالطوا بني إرم وأخذوا من ثقافتهم ، ومنهم من اعتنق دينهم ، فدخل في النصرانية . فلا أستبعد استعمالها قلمـــين ، أو أكثر في الكتابة . قلم روعي فيه ما رآه نصارى العراق في (السطرنجيلي) ، والمسمى أيضاً

---

١ الابحاث ، ١٩٥٢ ، (حـ ١ ص ١٤ وما بعدها) .
٢ الحيوان (١/٧١) ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ م .

بالخط الرهاوي ، وقلم آخر استعملوه للكتابات السريعة . ولا أستبعد احتمال كتابة أهل الأنبار أو أهل الحيرة أو غيرهم من عرب العراق بالقلمين معاً . القلم الذي دعاه البطليوسي بالمشق ، وهو على حد قوله قلم أهل الأنبار ، والقلم الحيري ، وهو الجزم على رأيه أيضاً . ويذكر ان القلم السطرنجيلي قد استنبط في مطلع القرن الثالث للميلاد . وقد استنبطه (بولس بن عرقا) أو (عتقا الرهاوي) . وشاع استعماله بين الناس[1] .

هذا وللعلماء المسلمين مؤلفات في تأريخ الخط العربي وتطوره ، ولهم نظريات وآراء في منشأ الخط ، منها آراء تنسب الى (ابن الكلبي) ، وهو في مقدمة علماء الأخبار في هذا الباب . واليه يرجع أكثر من جاء بعده في رواية أخباره عن منشأ الخط ، وعن كيفية تطوره حتى بلغ مبلغه هذا في الاسلام . ومنها آراء تنسب الى غيره كابن عباس[2] .

ونستطيع تلخيص وجهات نظرهم في منشأ الخط العربي في الملخصات الآتية :

١) كان منشأ الخط في اليمن ، ثم انتقل منه الى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ، ومنهم تعلمه أهل الأنبار ،ومنهم تعلمه جماعة نقلوه الى الحجاز . فالأصل، على رأي هؤلاء ، هو القلم المسند وكان كما يقولون بالغاً مبلغ الاتقان والجودة في دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف[3] .

٢) أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه الى (هود)[4] .

٣) أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكـة من قبل (حرب بن أمية) وقد

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، (١٩٥٩ م) ، (ص ٤٢١) .
٢ راجع ادب الكتاب للصولي (٢٨ وما بعدها) ، والفهرست لابن النديم (وما بعدها) وحكمة الاشراق الى اختراق الافاق ، للسيد مرتضى الزبيدي ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٥٠ وما بعدها) ، البلاذري فتوح البلدان (٤٧٦ ومـا بعدها) والجهشياري ، الوزراء (٢٥١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/٩ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٣/٢٠٣) المزهر (٢/٣٤٩) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ المزهر (٢/٣٤٩) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٤ صبح الاعشى (٣/٩) .

أخذها من طارىء طرأ على مكة من اليمن . وقد أخذ ذلك الطارىء علمه بالكتابة من كاتب الوحي لهود[1] .

٤) أول من كتب بالعربية اسماعيل[2] . كتب على لفظه ومنطقه موصولاً ، حتى فرق بينها ولده هميسع وقيذر[3] .

٥) أول من وضع الكتاب العربي نفيس ، ونضر ، وتيماء ، ودومة . هؤلاء ولد اسماعيل ، وضعوه موصولاً ، وفرقه قادور بن هميسع بن قادور[4] .

٦) إن نفيس ، ونضر ، وتيما ، ودومة ؛ بني إسماعيل ، وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً غير متفرق ، موصول الحروف كلها ، ثم فرقه نبت ، وهميسع ، وقيذار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر[5] .

٧) كان قلم (الجزم) في نظر بعض العلماء أساس القلم العربي وقد سمي بالجزم ، لأن مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وهم من طيء من بولان ، سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة . فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام. وقد اقتطع مرامر الخط من المسند فسمي الجزم ، لأنه جزم أي اقتطع ، ولذلك قيل له الجزم قبل وجود الكوفة . فتعلمه منهم أهل الأنبار ، وتعلمه منهم أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر الى

---

١ صبح الاعشى (٣/١٠) .

٢ صبح الاعشى (٣/١٠) ، المزهر (٢/٣٤٢) ، (وعنه عليه الصلاة والسلام ، أنه أول من كتب بالعربية اسماعيل) ، الروض الانف (١/١٠) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (أو ما بعدها) .

٣ المزهر (٢/٣٤٢) ، (كان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل ـ عليه السلام ـ وضعه على لفظه ومنطقه) ، الصاحبي (٣٤) .

٤ الفهرست (ص ١٣) ، (الكلام على القلم العربي) .

٥ حكمة الاشراق ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩) .

مكة فتعلم منه جماعة من أهلها ، فلهذا أكثر الكتّاب من قريش[1] .

٨) أول من وضع الخط العربي (أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهم قوم من الجيلة الأخيرة ، وقيل : إنهم بنو المحصن بن جندل ابن يصعب بن مدين ، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أد ، فكان (أبجد) ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل ببلاد مضر ، فوضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وحدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين فسموها الروادف[2] .

٩) أول من وضع الخط العربي وألف حروفه ستة أشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت أسماؤهم : أبجد هُوز حطي كلمن سعفص قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي ثخذ ضظغ[3] .

١٠) أول من خط هو : مرامر بن مرة من أهل الأنبار ، وقيل إنه من بني مرة . ومن الأنبار انتشرت الكتابة في الناس . ذكروا أن قريشاً سُئِلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا : من الأنبار[4] .

(١١) تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج الى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) . وتعلم منه حرب ، ومنه ابنه سفيان ، ومنه ابن أخيه معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتشر في قريش ، وهو الخط الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام[5] .

---

١ الفهرست (ص ٦) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم (ص ٩٨) ، المزهر (٢/٣٤٦) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، صبح الاعشى (١/٤٢١) الجهشيارى ، الوزراء (١) ، تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدد) .

٢ المزهر (٢/٣٤٨) ، الفهرست (ص ١٢) ، (الكلام على القلم العربي) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) ، نزهة الجليس (٢/٦٣) .

٣ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩) ، نزهة الجليس (٢/٦٣ وما بعدها) ، الفهرست (١٢) ، الكلام على القلم العربي .

٤ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، ابن خلكان ، (١/٣٤٦) ، عيون الاخبار (١/٤٣) (الكتب والكتابة) .

٥ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١٠) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (٢ وما بعدها) .

١٢) كان الكتاب العربي قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علّمها ، فكان يعلمها الصبيان ، فجاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، يكتب الكتابين جميعاً العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد ابن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثيم ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد[1] .

١٣) أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الأنبار ، وهم مرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية . فأما مرامر ، فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه[2] .

١٤) أول من كتب الكتاب العربي ، رجل من بني النضر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ[3] .

١٥) رأى نفر من العلماء ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق وكانوا يكتبون ، ورووا في ذلك شعراً زعموا ان (أمية بن أبي الصلت) قائله ، منه :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم[4]

١٦) أول من وضع حروف ا ب ت ث نفر من أهل الأنبار من إياد القديمة ، وعنهم اخذت العرب[5] .

---

١ صبح الاعشى (٣/١١) .
٢ صبح الاعشى (٣/٨) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) .
٣ صبح الاعشى (٣/٩) ، (رجل من بني مخلد بن النضر بن كنانة) ، الفهرست (١٣) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، الروض الانف (١/٤٣) .
٥ الفهرست (ص ١٣) .

١٧) الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة ، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وقيل حرب بن أمية[١] .

١٨) من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية[٢] .

١٩) أصل الخط العربي من الأنبار ، وانما سكن الأنبار والحيرة بقايا العرب العاربة وكثير من المستعربة فنقلوا ذلك[٣] .

٢٠) وضع الكتاب العربي عبد ضخم وبيض ولد أميم بالحجاز ، ولهم يقول حاجز الأزدي :

عبد بن ضخم إذا نسبتهم   وبيض أهل العلو في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطّهم   فبين الخط لهجة العرب[٤]

٢١) أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، آدم — عليه السلام — قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصاب إسماعيل — عليه السلام — الكتاب العربي[٥] .

٢٢) أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، رجل من أهل الأنبار . ومن الأنبار انتشرت في الناس .

٢٣) تعلمت قريش الكتابة من الحيرة، وتعلم أهل الحيرة الكتابة من الأنبار[٦] ؛

وذكر بعض علماء العربية أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً[٧] .

وهذه هي آراء علماء العربية في أصل الخط عند العرب ، وفي كيفية منشئه وظهوره .

---

١ الفهرست (ص ١٣) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ الاكليل (٧٨/١ فما بعدها) .
٤ الاكليل (٧٨/٦) .
٥ الصاحبي (٣٤) ، ، المزهر (٣٤١/٢) .
٦ ابن رستة ، الاعلاق (١٩٢) .
٧ الصاحبي (٣٥) .

وقد ذكر (ابن النديم) مختلف الروايات التي كانت شائعة في أيامه عن القلم العربي . وذكر منابعها أحياناً وأهمل ذكرها أحياناً أخرى . وفي جملة من أشار اليهم (ابن عباس) ، فنسب اليه قوله إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان على نحو ما ذكرت قبل قليل[1] . و (محمد بن إسحق) و (ابن الكلبي) ، و (ابن الكوفي) ، و (كعب الأحبار) و (مكحول) و (عمر بن شبة) في كتاب مكـــة ، و (ابن أبي سعد)[2] . وذكر أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم . فيه حق عبد المطلب على رجل من حمير ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . وكان خطّه شبه خط النساء . وذكر أن من كتاب العرب أسيد بن أبي العيص . وأن الناس عثروا على حجر كان على قبره كتب عليه اسمه[3] .

ولدينا رأي آخر يقول : « كانت الكتّاب في العرب من أهـــل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار »[4] . وهو رأي نبع من المنابع المتقدمة .

وقد جزم قوم من العلماء ان أول من كتب بالعربية (مُرامـر بن مرّ) ، (مُرامر بن مُرّة) ، وذهب قوم ان أول من كتب بخطنا (عامر بن جدرة) ، وتوقف قوم هل هو خلاف أو يمكن التوفيق. وذهب آخرون إلى ان أول من كتب بالخط العربي عامر بن جدرة ومرامر بن مرة الطائيان ، ثم (سعد بن سبل)[5] . وقال (شرقي بن القطامي) ان أول من وضع خطنا هذا رجـال من طيء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجاد وآل مرامر وسودت أثوابي ولست بكاتب

وانما قال وآل مرامر ، لأنه كان قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية . وأول من كتب بالعربية مرامر بن مرة من أهل الأنبار ،

---

١ الفهرست (ص ١٢) .
٢ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .
٥ تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدر) ، حكمة الاشراف (٦٥) ، ابن خلكان ، وفيات (١/٣٤٦) .

ويقال من أهل الحيرة . ويقال انه سئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا: من الحيرة . وسئل أهل الحيرة من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الأنبار[1] .

والذين يذكرون ان (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر بن عبد الملك) الكندي صاحب (دومة الجندل) ، الذي تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) أخت (أبي سفيان) ، وعلّم جماعة من أهل مكة الكتابة ، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، يروون شعراً لرجل من أهل دومة الجندل ، زعموا انه قاله إظهاراً لمنة قومه على قريش ، هو :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا
واتقنتمو ما كان بالمال مهملاً ... وطامنتمو ما كان منه منفرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة ... وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحي حمير ... وما زبرت في الصحف أقيال حميرا[2]

فبشر بن عبد الملك ، هو الذي نقل (الجزم) الى (مكة) . والجزم هو الخط الذي دوّن به القرآن . أي القلم الذي نكتب به اليوم . فأغنى به أهل مكة عن الكتابة بقلم المسند قلم حمير الثقيل ، وصاروا يكتبون بالقلم وبالحبر ، على طريقة الفرس والروم يدوّنون به أموالهم . ويظهر من ذلك أن القلم المسند ، كان ثقيلاً في الكتابة ، ولهذا وجد أهل مكة صعوبة في تدوين أمورهم به ، فعدلوا عنه الى القلم الجزم .

ولو صح هذا الشعر ، فإن البيت الأخير منه يدل على أن أقيال حمير وغيرهم كانوا يكتبون بخطهم : المسند على الصحف ، وأنه قد كانت عندهم كتابات دوّنوها به بالحبر والقلم على الصحف والأدم ومواد الكتابة الأخرى ، ولم يكونوا يكتفون بالكتابة به على الأحجار فقط ، لأننا نجد أن كتاباتهم الواصلة الينا إنما

---

١ تاج العروس (٣/٥٤٠) ، (مرر) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٢ المزهر (٢/٣٤٧) .

قد كتبت بهذه الطريقة حسب . وسبب عدم وصول هذه الصحف الينـا ، أنها من مادة سريعـة العطب ، لذلك لم تتمكن من المحافظة على حياتها فذهبت مع أهلها ، وقد يعثر على شيء منها مدفون تحت الأرض بصورة يمكن أن يستفـاد منها كما استفيد من المسند المنقوش على الحجر .

وورد ان رجلاً قال لابن عباس : « معاشرَ قريش ، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام ؟ قال : أخذناه من حرب بن أمية . قال : فمن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان ، قال : فمن أخذه ابن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار ، قال : فمن أخذه أهل الأنبار ؟ قال: من أهل الحيرة ، قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة . قال : فمن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال : من الخلجان بن الوهم كاتب الوحي لهود عليه السلام »[1] .

وذكر بعض العلماء ان أول من وضع الخط العربي وألّف حروفـه وأقسامه ستة اشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت اسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الكتابـة والخط على اسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في اسمائهـم ألحقوها بها ، وسمّوها الرّوادف ، وهي : ثخذ ضظغ[2] .

وذكر بعض اهل الأخبار ان (كلمن) كان رئيس ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف اسمائهم ، وقد هلكوا يوم الظلة، فقالت ابنة كلمن ترثي اباها :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت نار عليهم دارهم كالمضمحله[3]

---

١ المزهر (٢/٣٤٩) .
٢ حكمة الاشراق (٦٤) ، (ستة اشخاص من طفيم) ، نزهة الجليس (٢/٦٣) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٣) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله

ويوم الظلة غيم تحته سموم ، او سحابة أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالتهم من الحر ، فأطبقت عليهم[1] . وقد أشير الى عذاب يوم الظلة في القرآن الكريم[2] . وذكر أن هذا العذاب أصاب قوم (شعيب) لتكذيبهم رسالته ، فرفع الله غمامة فخرجوا اليها ليستظلوا بها فأصابهم بها عذاب عظيم . التهبت عليهم وأحرقتهم[3] . ولما كان أبجد هوز ملوك مدين ، وأهل مدين هم قوم شعيب ، ربط أهل الأخبار مصيرهم بمصير قوم شعيب ، وجعلوا نهايتهم يوم الظلة . فالكتابة على رأي هؤلاء تعود الى هؤلاء الملوك ، الذين هلكوا بذلك اليوم .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني   هُلكهُ وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ   حتف تحت ظله
كونت ناراً ، وأضحت   دار قومي مضمحله[4]

ووردت على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني   هلكه وسط المحله[5]
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت ناراً عليهم   دارهم كالمضمحله[6]

وقد تعرض (المسعودي) لموضوع الحروف ، فقال : « وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة ، فمنهم المسمى بأبي جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ضلل) .
٢ الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٨٩ .
٣ تفسير الطبري (٦٦/١٩ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) ،
كلمون هد ركني   هلكه وسط المحله
المزهر (٣٤٨/٢) ،
٥ « ابن امي هد ركني » ، تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .
٦ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .

الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل » . « وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف ، وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملكاً على جميع من سمينا مشاعاً متصلاً على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم »[1].

وأورد (المسعودي) أبياتاً زعم أن (المنتصر بن المنذر المديني) قالها في هؤلاء الملوك ، هي :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة — أتيت بها عمراً وحيّ بني عمرو
هُمُ ملكوا أرض الحجاز بأوجهٍ — كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حُطّي وسعفص ذي الندى — وهوّز أرباب البنيّة والحجر
وهم قطنوا البيت الحرامَ ورتبوا — خطوراً وساموا في المكارم والفخر[2] .

وقد وردت في (تاج العروس) على هذا النحو ، وقد نسب قولها الى رجل من اهل مدين ، ذكر انه قالها يرثيهم :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة — سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو
ملوك بني حطّي وهوّز منهم — وسعفص اهل في المكارم والفخر
هم صبحوا اهل الحجاز بغارة — كمثل شعاع الشمس او مطلع الفجر[3]

وروي ان (عمر بن الخطاب) لقى أعرابياً فسأله هل تحسن القراءة؟ فقال : نعم . قال : فاقرأ أم القرآن ؟ فقال الأعرابي والله ما أحسن البنات فكيف الأم ! فضربه عمر بالدرة وأسلمه الى الكتاب ليتعلم . فمكث حيناً ثم هرب ، ولما رجع لأهله أنشدهم :

---

١ مروج ، للمسعودي (٢/١٢٨) ، (دار الاندلس) .
٢ المسعودي ، مروج (٢/١٢٩) ، (دار الاندلس) ، حفني بك ناصف (٤٧) ، (أورد الابيات مع بعض الاختلاف) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
٣ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات[1]

ويرجع أهل الأخبار (الروادف) ، أي الحروف : الثاء ، والخاء ، والذال، والضاد ، والظاء ، والغين الى أيام الملوك المذكورين في بعض الروايات . وهي حروف لم ترد في تركيب الأبجديات السامية القديمة ، لأنها غير واردة في أكثر لهجاتها ، لذلك وضعها أهل الأخبار في آخر الأبجدية ، فأكملوا بذلك الأبجدية العربية . وقد ألحقها الكتاب بها بعد أن تبين لهم بالطبع أن في العربية حروفاً غير موجودة في الأبجدية المذكورة ، فأوجدوها بوضع علامات على الحروف المذكورة التي لم تكن معلمة ، فعبرت عن أسماء الحروف الناقصة واستعملوها في الكتابة دون أن يعملوا على إيجاد حروف جديدة للتعبير عن الحروف الناقصة .

ولعلماء العربية مثل (سيبويه) والمبرد والسيرافي وغيرهم آراء في الأسماء المذكورة يفهم منها ان منهم من جعل بعض تلك الأسماء مثل (أبا جاد) و (هواز) و (حطيا) أسماءً عربية ، وبعضاً منها مثل : سعفص وكلمن وقرشنات أعجميات. ومنهم من جعلها أعجميات[2] . ويظهر من مراجعة آرائهم هذه انهم كانوا قد عرفوا ترتيب حروف الأبجدية على النحو المتقدم ، فلما قرأوها على انها كلمات ، كما كان يفعل (بني إرم) وغيرهم في تعليمهم الكتابة والقراءة للمبتدئين تولد عندهم هذا القصص ، الذي قد يكون مصدره قصص قديم . ثم تولد لديهم قصص كونهم ملوكاً من مدين ، أو رجالاً من أهل الأنبار الى آخر ما رأيناه من قصص عن منشأ الحروف ، ليجدوا بذلك مخرجاً في تعليل تلك التسميات .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من أتى أهل مكة بكتابة العربية (سفيان ابن أمية بن عبد شمس) ، ثم انتشرت[3] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٢ نزهة الجليس (٢/٦٤) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٤) .

وترجع أسانيـــد الروايات المذكورة الى (عبدالله بن عباس) ، و (كعب الأحبار) ، و(الشعبي) و (أبي ذر) ، و (عوانة)، و (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (الأصمعي) و (الهيثم بن عدي)[1] .

ويظهر من هذه الروايات ومن روايات أخرى أن رأي علماء العربية أن الخط العربي لم يكن أصيلاً في الحجاز ، وإنما دخله من اليمن ، أو مـــن العراق أو أرض مدين . وأن أهل مكة إنما تعلموه من الأماكن المذكورة ، في وقت غير بعيد عن الاسلام ، لا يمكن أن يرتقى عنه بأكثر من قرن ، إن لم يكن أقـــل من ذلك ، وفقاً لرواياتهم هذه . وأن أقدم من كتب به هم أهل مكة . ولذلك قدم أهل الأخبار خط أهل مكة على سائر الخطوط التي عرفت في الإسلام . وجعلوه أول الخطوط العربية وبعده المدني ، أي خط أهل المدينة[2] .

أما أن أصله من اليمن فدعوى لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهـل اليمن كانوا يكتبون بالمسنـــد ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسميه أهل الأخبار : القلم العربي أو الكتاب العربي أو الخط العربي بعداً كبيراً . وقد بقوا يكتبون بقلمهم هذا زمناً في صدر الإسلام . ثم ان الروايات التي ترجع علم مكة بالخط الى اليمن، هي آحاد بالنسبة الى الروايات الأخرى التي تنسب أخذ الخط من العراق .

وأما دعوى مجيئه من مدين ، أي من أعالي الحجاز الى مكة ، فدعوى أراها غير مستبعدة . لأن أهل هذه المنطقة كانوا قبل الميلاد وبعده من النبط . والنبط هم عرب . وقد سبق ان تحدثت عنهـــم . وكانوا يكتبون بخط أخذ من قـــلم (بني إرم) ، حروفه منفصلة ومتصلة . وترتيب أبجديته هو ترتيب (بني إرم) أي (أبجد هوز) . وقد طوّروه بعض التطوير ، فصار الكاتب يكتب به بالحبر بسرعة ، وهو سريع وسهل أيضاً عند حفره على الحجر أو المعدن أو الخشب ، ويناسب التاجر والكاتب ورجل الفكر . وقد وصلتنا كتابات كثيرة كتبت به . وفي ضمنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الأول والأقدم للكتابات المدونة بلغة قوم كانوا يتكلمون بالعربية ، غير ان عربيتهم كانت متأثرة بالنبطية عند الكتابة . أو انهم كانوا يكتبون بالنبطية ، غير ان نبطيتهم لم تكن صافيـــة

---

١ المزهر (٢/٣٤١) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة كتابة اللغة) .
٢ الفهرست (١٤) ، (الكلام على القلم الحميري) .

نقية ، بل كانت متأثرة بلغتهم اليومية العربية . وفي ضمنها كتابة (النمارة) التي يعود عهدها الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، وكتابة (حرّان اللجا) التي هي أقرب هذه الكتابات الى عربيتنا . ونظراً الى ما نجده من تشابه في رسم الحروف بين أقدم الكتابات العربية وبين الخط النبطي ، وفي قواعد الإملاء وترتيب الأبجدية ، فلا يستبعد أن يكون أهل مكة قد أخذوا هذا الخط فكتبوا به . باحتكاكهم بأهل أعالي الحجاز وبلاد الشأم حيث كانوا يتاجرون معهم ، أو بمجيء النبط اليهم للإتجار تعلمه أهل مكة منهم .

وذهب الدكتور (خليل يحيى نامي)،الى أن أصل الكتابة العربية من الحجاز، لما كان للحجاز من مكانة روحية عند العرب ولاشتغالهم بالتجارة . والمكانة الروحية والتجارة تستدعيان القراءة والكتابة أخذوها من التجار النبط الذين كانوا يتوافدون عليهم للاتجار أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم الى بلاد الشأم . فهو يرى أن الخط النبطي هو والد الخط العربي ، ودليله أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوز ، وترتيبها من حيث حساب الجمل ، أي جعل كل حرف من حروف أبجد هوز في مقابل رقم حسابي ، يردان في عربيتنا على نحو ما ورد عند النبط. مما يدل على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط ، أضف الى ذلك تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في القلمين[1] .

وأما موضوع أخذ أهل مكة خطهم المذكور من العراق ، فرأي لا أستبعده أيضاً ، فقد كان عرب العراق يكتبون،ولهم مدارس لتعليم الكتابة ملحقة بالكنائس والأديرة ، وقد كان بين أهل مكة وبين عرب العراق ولا سيا الأنبار والحيرة اتصال تجاري وثيق ، وكان تجار مكة يأتون بتجاراتهم الى الحيرة ويقيمون بها ، فلا يستبعد تعلمهم أو تعلم بعضهم الخط من أهل الحيرة ومن أهل الأنبار . كما كان للتبشير يد في نقل هذا الخط الى الحجاز وربما إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد كان هؤلاء المبشرون يكتبون بقلم نبطي أو بقلم إرمي متأخر ، وهو والد القلم العربي الذي نكتب به . وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حيريون

---

١ خليل يحيى نامي ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٥ م ، مجلد ٣ ، جزء ١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

نقلوا الكتابة الى (دومة الجندل) والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كتبة الوحي ، إنما كتبوا بخط أخذ من (الجزم) ، أي من خط أهل الحيرة . وذلك بحكم اتصال أهل مكة بالحيرة ، اتصالاً تجارياً ، فتعلموه منهم[1] . فهم يوافقون بذلك بعض الروايات العربية التي ترجع علم أهل مكة بالكتابة الى الحيرة .

وقد بقي أهل الحيرة يكتبون للولاة ، ويقرأون عليهم ما يرد اليهم من رسائل أهل العراق وبلاد الشأم ،وذلك لحسن خطهم واتقانهم الكتابة . فكان لأبي موسى الأشعري كاتب ، ولما سأله (عمر) عن سبب اتخاذه كاتباً من النصارى أجابه : (له دينه ولي كتابته) . ولما أراد (عمر) اختيار كاتب حاذق حافظ ذكر له غلام نصراني من أهل الحيرة[2] .

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، هو أن المنطقة التي يذكر أهل الأخبار أنها كانت الأرض التي نبت بها الخط العربي ، وهي الأنبار والحيرة ، لم تعط الباحثين حتى الآن أي نص مكتوب . كما أن مكة المدينة الآخذة للخط لم تعطنا أيضاً أي نص جاهلي مكتوب . مع أن نصوص هذه الأرضين تهمنا بصورة خاصة ، لما لها من علاقة بالخط العربي الذي نتكلم عنه ، وباللغة التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر الجاهلي ، وبالأدب الجاهلي . فلِمَ لم تصل نصوص الينا من العراق ولا من مكة مع أن أهل مكة كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام ، وكذلك أهل الحيرة كانوا يكتبون ، ولهم دواوين في أخبارهم ، رجع اليها ابن الكلبي ، كما نص على ذلك . هل سبب عدم وصولها ، أن الذين كتبوا بهذا القلم إنما كتبوا على مواد سريعة التلف وبالحبر ، ولذلك ، تلفت ، ولم تتمكن من العيش طويلاً ، كما تلفت مخطوطات أهم منها شأناً مثل النسخ الأولى للقرآن الكريم ،والنسخ الأصلية من رسائل وكتب الرسول الى الملوك والأمراء والى أصحابه . وكذلك خطوط الخلفاء الراشدين وسجلات دواوينهم وما شاكل ذلك من وثائق . قد يكون ما ذكرته هو السبب في عدم وصول نص من هذه الأرضين الينا ، وقد تكون هنالك أسباب أخرى . على كل ، علينا ألا نيأس من المستقبل، فلعل

---

١ Die Araber, II, S. 357.

٢ عيون الاخبار (٤٣/١) .

الباحثين سينقبون في باطن الأرض وينبشون الأماكن الأثرية فيجدون أشياء ، هي تحت قشرة الأرض في الوقت الحاضر . فيكون من يأتي بعدنا سعداء بالطبع لوقوفهم على أشياء حرمنـــا من رؤيتها نحن فصرنا في جهل من أمرها ، وصاروا هم في نعيم من العلم .

وقد ذهب (جرجي زيدان) الى أن المضريين الذين تحضروا وأقاموا في العراق وفي بلاد الشأم ، اقتبسوا الكتابة من جيرانهم ، فكتب منهم من كتب بالعبرانية وكتب منهم من كتب بالسريانية ، ولكن القلمين النبطي والسرياني ظلا عنـدهم الى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني، في جملتها قلم يسمونه (السطرنجيلي) كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس ، فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنه تخلف الخط الكوفي . وهما متشابهان الى الآن[1] .

ثم تعرض الى ناقل الخط الى مكة ، فقال : « واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه ، وذلك أن رجـلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هـــذا الخط من الأنبـــار وخرج الى مكة فتزوج الصهبـــاء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بمكة من قريش عنـــد ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية[2] .

ولما أراد ابداء رأيه في أصل الخط العربي جمع بين الرأيين : الرأي القائـل أن أصل الخط العربي من العراق ، والرأي القائل أن أصله من حوران ، فقال: « والخلاصة على أي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثنـــاء

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، (الخط العربي) .
٢ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، السجستاني ، المصاحف (٤) .

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً: الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلاً عن شكله — أن الألف اذا جاءت حرف مدّ في وسط الكلمة تحذف، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً في الإسلام ، وخصوصاً في القرآن، فيكتبون (الكتب) بدل (الكتاب) ، و (الظلمين) بدل (الظالمين)[1] .

والقلم الكوفي هو من أقدم الأقلام العربية الإسلامية . وهو كما ذكرت قبل صفحات ، قريب الشبه بالقلم السطرنجيلي ، قلم المصاحف عند نصارى العراق ، ومن أجلّ أقلامهم لاستخدامه في كتابة الكتابات الدينية ، ومنها الأناجيل . وقد أخذ من القلم الحيري على ما يظهر ، لأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (الجزم)، والجزم وليد السطرنجيلي ، ذلك لأن الكوفة نشأت في خلافة (عمر) ، فانتقل اليها في جملة من انتقل اليها أهل الحيرة ، الكتاب بالقلم الجزم . ولهذا صار قلم الكوفة ثقيلاً في الكتابة ذا زوايا مربعة وحروفاً مستقيمة ، والكتابة تميل الى التربيع[2] . وقد أخذ من (الجزم)[3] ، ونسب الى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام .

ولا يستبعد أيضاً أخذ أهل مكة خطهم المدور المسمى (النسخ) من (حوران) أو من (البتراء) و (العلا) فبين مكة والمكانين المذكورين اللذين سكن بهما النبط اتصال وثيق . أو من الحيرة او الأنبار . فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة العراق أيضاً ، وهو والد القلم (النسخ) . ومن الخطأ اعتبار (النسخ) وليد الخط الكوفي[4] . لأن الخط الكوفي هو الجزم أو قلم آخر مثله اشتق من القلم المربع الزوايا (السطرنجيلي) ، بينما النسخ وليد القلم المدور الذي أستطيع تسميته

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٩) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٥) .
٣ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٢ م ، (ص ٤٢١) .
٤ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ١٥) .

بالمشق مجاراة للبطليوسي ، الذي شخصه بأنه قلم أهل الأنبار .

ويرى بعض الباحثين أن القلم العربي قد أخذ من قلم بـني إرم . وذلك أن السريان الذين هم من (بـني إرم) كانوا قد طوروا القلم الإرمي ، وكتبوا بقلمين : قلم قديم كتبت به الأناجيل والكتب المقدسة ، وهو المربع،ذو الحروف المستقيمة ذات الزوايا المربعـة ، الذي هو الخط (الاسطرنجيلي) ، وقلم سهل ذو حروف مستديرة أي على شكل أقواس ، هو قلم النسخ . وقد عرف العرب القلمين وكتبوا بهما ، فسموا السهل النسخ والآخر الكوفي[1] .

وحجتهم في ذلك ان القلم العربي أخذ بترتيب (أبجد هوز حطي) ، وهو ترتيب وجد في لغة (بني إرم) ، كما أخذ بهذا الترتيب بحساب الجمل . وهو ترتيب موجود عند بني إرم أيضاً . كما أخذ بقواعد من قواعد رسم الحروف في الإملاء موجودة في خط (بني إرم) ، مثل قاعدة ربط أو فصل الحروف عند تدوين الكلمة ، وقاعدة حذف الألف عند وقوعه في وسط الكلمة ، في رحمان ومساكين ويتامى ومساجد وكتاب وابراهيم واسحاق واسماعيل ، فإنها كتبت في خط المصاحف بدون ألف . ومثل حذف ألف فاعل وتفاعل في السريانيـة وفي العربية أيضاً ، كما في بارك حيث كتبت (برك) في خط المصاحف ، ومثل حذف الألف من ضمير الجمع المتكلم (نا) ، كما في (أرسلنك) و (اصطفينه) و (بشرنه) ، في موضع (ارسلناك) و (اصطفيناه) و (بشرناه) ، وذلك في خط المصاحف ، وحذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية وفي العربية ، كما (صدقت) و (طيبت) ، بدلاً من صدقات وطيبات . ومن هذا القبيل أيضاً ، تدوين (شهد) و (كفرين) ، بدلاً من شاهد وكافرين . ومثـل حذف ياء المتكلم في السريانية وفي القـلم العربي القديم ، كما في كتابة يرب في موضع يا ربي[2] .

ورأيي ان القول الجزم في أصل قلم أهل مكة ، هل هو من العراق أو من بلاد الشأم ، يجب أن يكون للكتابات . فمتى عثرنا على كتابات مدونة بالعربيـة

---

١ الدراسات الادبية ، العدد الاول ، السنة الثانية ، ١٩٦٠ م (ص ٧٦ وما بعدها) ، (مقال للدكتور أنيس فريحة) .

٢ الدراسات الادبية ، السنة الثانية ، العدد الاول (ص ٧٦ وما بعدها) .

بالحيرة أو بالأنبار أو بالأماكن الأخرى من العراق تعود الى الجاهلية والى صدر الاسلام وعلى كتابات مثلها من حيث الزمن يعثر عليها في بلاد الشأم وفي الحجاز أو نجد أو أي مكان آخر من جزيرة العرب ، وقارناها بعضها ببعض ، وطابقنا فيما بين خطوطها ورسم حروفها وما شاكل ذلك ، جاز لنا حينئذ القول بأصل قلم مكة والأقلام الأخرى المشابهة له . وبأصل اللغة التي دونت به، ومزاياها والأماكن التي كانت تتكلم بها . وعندئذ نحل مشكلة أصل اللغة العربية الفصحى أيضاً ، وهي من أهم مشكلات تأريخ الأدب الجاهلي ولا شك .

وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا ان الخط العربي الذي دوّن به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط ، وهو خط تولد من القلم الإرمي المتفرع من الفينيقية على رأي المستشرق (هومل)[1] . وقد استعمل في تيماء وبين النبط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سينا[2] . وقد عثر على كتابات دونت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن .

وسند القائلين بهذا الرأي ودليلهم هو عدد من الكتابات عثر عليها السياح ، كتبت بلهجة غير بعيدة عن اللهجة العربية التي نزل بها القرآن، وبحروف مرتبطة، وبالقلم النبطي المتأخر الشبيه جداً بأقدم الخطوط العربية ولا سيما الكوفية منها . ومن مميزاته ارتباط بعض حروفه ببعض وكتابة بعض الحروف في نهاية الكلمة بشكل يختلف عن رسم الحروف التي من نوعها المستعملة في أوائل الكلمة أو أواسطها .

ولهذه الكتابات على قلة عددها أهمية كبيرة لدى العلماء ، لما لها من خصائص ومميزات لغوية تفيد في دراسة تطور اللهجات العربية ، وفي دراسة تطور القلم العربي . وقد تكون مقدمة لعدد آخر من الكتابات المكتوبة بهذا الخط .

---

١ Ency. Brita., I, p. 684, Grundriss, I, S. 154.
ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، كانون الثاني ١٩٤٧ م ، (١٢٩ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ م .

٢ Ency. Brita., I, p. 684.

وأقدم هذه الكتابات الكتابة التي يقال لها كتابة (أم الجمال) الأولى ويعود تأريخها الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) للميلاد . وقد وضعت شاهداً على قبر (فهر برسلي) (فهر بن سلي) مربي (جديمت) (جذمت) (جذيمة) جذيمة ملك (تنوح) (تنوخ) ، وعثر عليها في موضع يقال له (أم الجمال) ، في جنوب حوران من أعمال شرق الأردن[1] . ويعتقد (ليتمان) ، أن تأريخ هذا النقش لا يبعد كثيراً عن تأريخ كتابة أخرى هي كتابة النمارة (ن م ر ت) . ونجد في هـذه الكتابة حروفاً غير مرتبطة وحروفاً مرتبطة مشابهة لبعض حروف الخط الكوفي . وقد كتبت بالإرمية ، ومع ذلك فإن لها أهمية لوجود أسماء عربية فيها ، ولأن القبائل العربية الشمالية كانت تستعمل الإرمية في الكتابة[2] .

وقد عثر الباحثون على كتابات معدودة سبقت هـذه الكتابة ، دُوّنت بالقلم النبطي أيضاً ، هي كتابة عثر عليها في (وادي المكتب) في طور سيناء ، يعود تأريخها الى سنة (١٠٦) من سقوط (سلع) ، المقابلة لسنة (٢١٠) للميلاد، وكتابة ثانية يعود تأريخها الى سنة (١٢٦) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٣٠) للميلاد . وقد وجدت في وادي فران بطور سيناء كذلك ، وكتابة ثالثة هي من كتابات (طور سيناء) أيضاً ، وقد أرخت بسنة (١٤٨) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٥٣) للميلاد ، وكتابة رابعة عثر عليها في الحجر ، وتأريخها سنة (١٦٢) من سقوط (سلع) ، أي سنة (٢٦٧) للميلاد .

ولكن هذه الكتابات بعيدة بعض البعد عن القلم العربي ، وأما لغتها فنبطية ، ونجد نص (الحجر) (مدائن صالح) ، وقد حوى كلمات كتبت بقلم ثمودي . ولذلك فإن له ميزة من هذه الناحية على الكتابات الأخرى ، ومنطقة الحجر من

---

١ السامية (١٣٩) ، (سنة ٢٧٠) ، خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ ،
De Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitique, PL. 15, 11.

٢ السامية (١٤٠) ، مجلة سومر (م ٣ ، حـ ١ ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ١٣٠) ، Nabia, 4, Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, Princeton University Expeditions to Syria, in 1904-1905, and 1909, p. 37, Cantinean, Nabatéen et Arabe, pp. 72-79, Institut d'Etudes Orientales, Annales, I, 1934-1935.

المناطق التي عثر فيها على عدد من كتابات قوم ثمود . ونظراً الى أن خط نص (أم الجمال) أقرب الى الخط العربي من الكتابات المذكورة التي سبقته ، لذلك قدمته عليها .

وتلي كتابة أم الجمال الأولى في الزمن كتابة النمارة ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي (دوسو) M. René Dussaud في النمارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز، و (النمارة) قصر صغير كان للروم . وجدها على قبر امرئ القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ ، المقابلة لسنة ٣٢٨ للميلاد، وقد دونت سنة الوفاة ، وهي سنة تأريخ الكتابة كذلك وفقاً لتقويم (بصرى) وهو التقويم الذي كان يستعمله عرب هذه الأطراف ونبطها . وتعدُّ هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتبت بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية [١] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخها الى سنة (٦١٢) للميلاد (٨٢٣) للتقويم السلوقي [٢] . والمهم عندنا هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [٣] . وقد قرأ العالم (ليدزبارسكي) الكلمة الأولى منه (بسم) . أما الكلمة الثانية ، فهي (الإله) فأصبح مطلع النص : (بسم الإله) ، فإذا كانت القراءة هذه صحيحة، تكون لكلمة (بسم الإله) أهمية كبيرة في موضوع الفكرة الدينية . أما العالم (ليتمن) فقد قرأ الكلمة الأولى منه (بنصر) ، فتكون فاتحة النص : (بنصر الإله) [٤] .

---

١ Fritz Hommel ,Grundriss der Geographie und Geschichte des alten Orients, München, 1904, BD., I, S. 155, Dussaud, Les Arabes en Syrie, p. 34, Nabia, p. 4, Revue Archéologique, 31 Série, XLI, (1911), p. 411.

٢ Grundriss, I ,S. 156, E. Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed : Monatsberichte der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr. 1881, S. 169, Zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36, ,1882), S. 345 - 352.

٣ السامية (١٩١) .
Lidzbarsky, Handbuch der Nordsemit. Epigraphik, Weimar, 1898, S. 484, Ephemeris, Giessen, 1902, BD., 2, S. 35.

٤ السامية (١٩١) . A. Littmann, in Rivista degli Studi Orientali, 1911, p. 195.

وقد دوّن النص العربي على هذه الصورة :

١ — ..م الإلـه سرحو بر امت منفو وهنى برمر القيس .

٢ — وسرحو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى .

ومعناه : بسم الإلـه . سرحو بن أمت منفو ، وهنيء بن امرىء القيس ، وسرحو بن سعدو ، وستر (ستار) (ساتر) وشريح . أتمّوا .

والنص العربي ، ليس ترجمة للنص السرياني أو اليوناني ، لذلك ذهب بعض الباحثين الى احتمال كونه متأخراً بالنسبة الى النصين المذكورين ، أي انـه كتب بعدهما . وهو يتناول تخليد عمل المذكورين في بناء الكنيسة .

وعثر المستشرقون في حرّان اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز على كتابة أخرى مدونة باليونانية والعربية قيل لها (نقش حرّان) ، وقـد وضعت فوق باب كنيسة ، وصاحبها (شرحيل بر ظلمو) (شراحيل بن ظالم) (شرحيل بن ظالم) ، ويعود تأريخ الكتابة الى عام (٤٦٣) من (الأندقطية الأولى) ، وتقابل سنة (٥٦٨) للميلاد[١] . أما النص العربي ، فقد أرخ بسنة (٤٦٣) أيضاً ، وأضيف الى هذا التأريخ عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) أي (بعام) . ومعنى هذا ان حدثاً تأريخياً كان قد وقع قبل هذا التأريخ بسنة صار الناس هنالك يؤرخون به ، فأرخ النص به . ويرى (ليتمن) ان ذلك يعني وقوع غزو على خيبر ربما قام به أحد ملوك غسان[٢] .

وهذا النص هو من أهم النصوص المتقدمة وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغة العربية ، لأنه نص دوّن بلهجة القرآن الكريم ، باستثناء أثر سهل للنبطيـة برز عليه . ولأهميته هذه أدوّنه على نحو ما جاء في النص العربي : (انا شرحيل بر (بن) ظلمو بنيت ذا المرطول (سنت) سنة ٤٦٣ بعـد مفسد خيبر (بعم) (بعام) . فأنت أمام نص عربي واضح ، تفهمه من دون صعوبة ولا مشقة .

---

١ السامية (١٩٢) .
Nabia p. 5, Dussaud, Mission, p. 324, Grundriss, S. 156, Schröder, in ZDMG. 38, (1884), p. 530.

٢ السامية (١٩٢) .
A. Littmann, In Revist, 1911, p. 195, Nabia, p. 5, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und verwandte, Gebiete, Leipzig, 1922, VII, S. 197.

على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطية متأثرة بالعربيــة الشمالية بعض التأثر . ولهذا فإني أفرّق بين هذا النص وبين النصوص السابقة له ، وأعدّه أول نص وصل الينا حتى هذا اليوم كتبَ بلهجة عربية القرآن الكريم .

وتعد الكتابة التي عثر عليها في موضع (أم الجمال) وقيل لها كتابة (أم الجمال الثانية) تفريقاً لها عن كتابة أم الجمال الأولى ، أحدث ما عثر عليه من كتابات بهذا القلم الذي نتحدث عنه ، وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن ، أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن . وهي لا تحمل تأريخاً . غير أن من عالج أمرها من المستشرقين يرى أنها تعود الى القرن السادس للميلاد[١] . ولغتها قريبــة من اللغة العربية المعروفة ، كما أنها متحررة من النبطية والإرمية الى حد كبير .

وعثر في اليمن على بعض كتابات نبطية لعلها من آثار التجار النبط الذين كانوا يذهبون الى اليمن بقصد التجارة ، ولا سيما في القرنين الأولين للميلاد ، أو من آثار تجار أهل الحجاز أو من أهل اليمن ، كانوا قد تعلموا الكتابة بهذا القلم الذي أخذ ينتشر بعد الميلاد لأنه أسهل في الاستعمال من المسند الذي يحتاج الى دقة في الرسم ، والى بطء في الكتابة . ولوحظ أن إحدى هذه الكتابات كتبت بالقــلم النبطي المتأخر الذي يشبه القلم الذي استعمل في نقش (فهر بن سلي)[٢] .

ولكن العلماء لم يتمكنوا من العثور على عدد كاف من الكتابات المدونة بهـذا القلم ، تكفي لإصدار حكم علمي عن وقت دخول القلم النبطي المتأخر الى الحجاز واليمن ومدى انتشاره بين الناس . ولما كان القلم النبطي المتأخر قد ظهر بعد الميلاد على رأي أكثر العلماء ، يكون هذا الخط قد وصل الحجاز واليمن بعـد الميلاد بالطبع بالاتصال التجاري والقوافل الـتي كانت تقوم برحلاتها بين اليمن وبلاد الشأم ، وبواسطة النصرانية التي وجدت لها سبيلاً الى اليمن .

ويلاحظ أن الـذين كتبوا بالقلم العربـي الشمالي ، الذي أخذ منه قلم مكة ، هم من العرب النصارى في الغالب ، فأهل الأنبار ، والحيرة ، وعين الشمس ،

---

١ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, 197-204.

٢ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, S. 197-204.

ودومة الجندل ، وبلاد الشأم ، كانوا من النصارى ، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر ، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية ، لحاجتهم الى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، وتثقيفهم ثقافة دينية ، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس ، وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها ، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم .

وتفيدنا دراسة شكل خط هذه النصوص فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الخط العربي ، فبين رسم هذه الخطوط وبين رسم أقدم الخطوط العربية الاسلامية تقارب كبير ، يشير الى اشتقاق القلم الذي دوّن به الوحي من هذا القلم ، وهو القلم الذي كان يكتب به عرب العراق كذلك على ما أرى . وهو قلم وصل بين حروفه ، وفصل في مواضع أخرى . وهو يختلف بذلك عن القلم المسند الذي استعمل حروفاً منفصلة فقط ، ولم يعرف الحروف المتصلة ، كما ان شكل حروفه بعيد جداً عن شكل حروف هذا القلم ، وهو أسهل وأسرع في الكتابة على الكاتب من المسند .

ونرى في هذه الصورة التي تضم رسم الحروف في الخط النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، تشابهاً كبيراً في الشكل ، ينبئك بوجود نسب بين القلمين ، وان القلم العربي القديم ، قد تولد منه . ولا أستبعد ان يكون قلم أهل الحيرة هو هذا القلم نفسه ، استعملوه في تدوين العربية . وقد رأينا ان النصوص القليلة المكتوبة بنبطية متأثرة بالعربية ، قد كتبت بهذا القلم ، وبينها نص (النمارة) الذي هو شاخص قبر (امرىء القيس) أحد ملوك الحيرة .

وإني لا أستبعد احتمال عثور المنقبين والباحثين في المستقبل على كتابات عربية قديمة تعود الى الجاهلية الملاصقة للاسلام والى أيام الرسول بكثرة تمكن العلماء من وضع رأي واضح عن منشأ وتطور الخط العربي القرآني .

وقد استعملت جملة (الخط العربي القرآني) ، لأن القرآن هو في الواقع صاحب الفضل على هذا الخط في تخليده وتثبيته لأمر الرسول بتدوين الوحي به ، اي بهذا القلم العربي القديم الذي أتحدث عنه ، الذي أخذه اهل مكة عن اهل

(الحيرة) ، أو عن (بشر بن عبد الملك) السكوني ، من (دومة الجندل) على رواية أهل الأخبار . واني أرى ان للبحث عن الكتابات العربية القديمة في الحجاز وفي (دومة الجندل) و (الحيرة) و (الأنبار) و (عين التمر) ، وفي القرى العربية الأخرى التي أقيمت على الفرات وفي بلاد الشأم أهمية كبيرة بالنسبة لبحثنا في تأريخ نشوء وتطور الخط العربي القرآني ، لأني أكره الطرق التي يأخذ بها بعض الباحثين من اللجوء الى الحدس والظن في وضع آراء علمية قاطعة ومهمة ، مثل الخط ومنشئه وتطوره وما شابه ذلك ، لمجرد رأي ورد عند أهل الأخبار ، او ظن مال اليه عالم ، وعندي ان آراءاً مثل هذه يجب ألا تقال إلا باستناد على دليل مادي ملموس ، مثل أثر ، او مصدر تأريخي قديم محترم .

والصورة التي نراها في الصفحة المقابلة تمثل نماذج من القلمين : القلم النبطي المتأخر ، والقلم العربي القديم ، مأخوذة من مختلف الصور الأصلية التي عثر عليها العلماء في مختلف الأنحاء من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب .

ويرى المستشرق (وايل) Weil أن الترتيب الذي يرد للحروف العربية على طريقة : (أبجد هوز حطي ... الخ) ، هو ترتيب أخذه العرب من النبط أو اليهود ، وقد أخذه النبط والعبرانيون من القلم الإرمي . وتشير هذه الطريقة بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرع عن الخط الإرمي[1] . أما الترتيب الذي عند الكنعانيين ، فهو هذا الترتيب مع زيادة الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . ويرى بعض العلماء أن العبرانيين أخذوا ترتيبهم هذا من الكنعانيين[2] . ونجد هذا الترتيب عند الفينيقيين أيضاً ، ولهذا يرى بعض الباحثين أن العبرانيين والآراميين أخذوا الكتابة من الفينيقيين، وأخذوا منهم استعمال الحروف للعدد أيضاً ، على نحو ما نجده في العربية من استعمالها في حساب الجمل[3] .

وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي تمثل حرف (التاء) فيها آخر حروف الأبجدية التي بلغ عدد حروفها اثنان وعشرون حرفاً، الحروف التي لم ترد

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ السامية (١٠٢) .

٣ الابحاث ، (١٩٥٢ م) (حـ ١ ص ٥ وما بعدها) .

القلم العربى القديم — القلم النبطى المتأخر

١	٢	٣	٤

نمــاذج من القلمين النبطى المتــأخر والقلم العربى القديم يمثل العمود « ١ » نماذج من الحروف العربية المستعملة فى القرن الأول للهجرة ويمثل العمود « ٢ » نماذج من حروف كتابتى زبد وحران · وأما العمودان « ٣ » و « ٤ » فيمثلان نماذج من كتابة النمارة وبطرا ·

في هذه الأبجدية ، ولكنها ترد في العربية ، ودعوها بـ (الروادف)[1] . وضعوها بصورة ينفي عنها كل نشاز قد يظهر بين رسمها ورسم الحروف الأخرى ، وذلك باعتمادهم على تكرار الحرف ، وبذلك أولدوا الروادف المذكورة[2] .

ويظهر من الروايات العربية القديمة أن كتّاب الجاهلية المتصلة بالإسلام وكتاب صدر الإسلام كانوا يسيرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز) أي على طريقة الآراميين والنبط والعبرانيين . وقد ورد في الأخبار أن الناس في أيام (عمر ابن الخطاب) ، كانوا يتعلمون الكتابة على طريقة (أبجد هوز) . قال (القلقشندي) : « وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشهد لذلك قول الأعرابي في أبياته :

أتيت مهاجرين فَعَلَّمُوني ثلاثة أسطرٍ متتابعات
وخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلّم سعفصاً وقريشات »[3]

والترتيب الذي يعمل به الآن في البلاد العربية من الابتداء بالألف ثم بالباء ، فالتاء ، فالثاء ، فالجيم ، فالحاء ، فالخاء ... هو ترتيب وضع في زمن (عبد الملك بن مروان) ، عمل به (نصر بن عاصم) ، و (يحيى بن يعمر)العدواني . وقصد به ضم كل حرف الى ما يشبهه في الشكل ، وقد ساد هذا الترتيب ومشى . وجرى عليه أصحاب الصحاح ولسان العرب والقاموس ، وتاج العروس ،وأصحاب معاجم اللغة في هذا اليوم[4] .

أما ما ورد في بعض الروايات من ان (أبا ذر الغفاري) سأل رسول الله عن الحروف ، فقال له انها تسع وعشرون ، وانها نزلت على ترتيب : (ا ب ت ث ج) ، أي على الترتيب الذي نسير عليه في الوقت الحاضر ، وانه عجب من قول الرسول له انها تسع وعشرون ، لأن حروف العربية هي ثمان وعشرون ،

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ١٩٥٩ م ، (ص ٥٧٦) .

٣ صبح الاعشى (١٩/٣) .

٤ حفني بك ناصف ، تأريخ الادب أو حياة اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الطبعة الثانية) ، (الكتاب الاول) ، (ص ٢٧) .

ومن تأكيد الرسول له انها تسع وعشرون ، نزلت كلها على آدم[1] . فخبر غير صحيح ولا يُعوّل عليه ، وهو موضوع ، لما ذكرته من ان الترتيب المذكور انما ظهر في الاسلام .

هذا وإن مما يؤسف له كثيراً اننا لا نملك اليوم كتابة واحـــدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول ، ولا نملك اي نسخة من نسخ القرآن او من صحفـــه المدونة في ايامه . فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة (عثمان ابن عفان)[2] ولا النسخ التي دونت بأمره لتوزع على الأمصار ، ولا أيـــة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم. ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك او سادات القبائـــل والأمراء . نعم يقال إن هناك نسخاً من المصاحف ترجع الى ايام الخلفاء ، وقد دوّن بعض منها بأقلام أجلّة الصحابة ، وان هناك بقية من رسائل الرسول وان هناك كتابات يرجع تأريخها الى أيام الرسول[3] ، ولكن المتبحرين في العلم العارفين بكيفية تثبيت أعمار الوثائق لم يتمكنوا من البت في صحة هذه الدعاوى ، ولم يقطعوا بصحـــة هذه الوثائق . لذلك فليس لنا أمام هذه الحجج التي أبديت عن هذه الآثار سوى التحفظ والتوقف عن ابداء رأي فيها ، فلعل الأيام تهيء للقادمين من بعدنا وثائق جديدة تعود الى الأيام التي نبحث فيها .

هذا وان من الممكن التثبت في الوقت الحاضر من صحة الوثائق المنسوبة الى أيام الرسول او أيام من جاء بعده ، بعرضها على الفحوص المختبرية الحديثة ، التي باستطاعتها تقدير أعمارها ، وتثبيت أسنانها ، ولكني لا أعلم ان أحداً عرض هذه الوثائق لمثل هذه الفحوص .

هذا وللمادة التي دونت عليها تلك الكتابات ولندرة الورق إذ ذاك ولغلاء ثمنه، ولعدم ادراك الناس في ذلك الوقت لأهمية حفظ الوثائق ، ولتعرض تلك الوثائق الى عوامل عديدة من عوامل التلف والبلى مثل الحريق والماء والأرضة وما شاكل

---

١ صبح الاعشى (٣/ ٧ وما بعدها) ، (المسلك الثاني في وضع الحروف العربية) .

٢ ليس فيما يقال عن وجود نسخة عثمان من مصحف عثمان في « استانبول » أو في أماكن أخرى أساس من الصحة ، وانما هو زعم من غير دليل .

٣ M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13, NUM : 4, 1939, p. 427.

ذلك ، دخل ولا شك في اختفاء الخطوط القديمة التي دونت في الجاهلية المتصلة بالاسلام وفي صدر الاسلام ، مما أضاع علينا فوائد كثيرة كنا سننتفع بها لو كنا نملك تلك الوثائق ، ولكن من يدري فلعل الأيام ستعطف على الباحثين المساكين المتعطشين دوماً الى الوقوف على أخبار الماضين ، فتقدم لهم وثيقة او جملة وثائق تكون خير هدية لهؤلاء ، لا يوازيها في نظرهم اي ثمن من الأثمان التي تقاس بالورق وبالجنيهات او الدولارات .

ولكني أود أن أبين ان هذه الحقبة من الجاهلية المتصلة بالاسلام وكذلك أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين هي حقبة شحيحة جداً بالكتابات ، فما عثر عليه من الكتابات فيها محدود ، مع انها من أهم الأزمنة بالنسبة لنا لأنها ذات صلة وعلاقة مباشرة بظهور الاسلام . وينطبق ما أقوله هنا على كتابات المسند كذلك وعلى الكتابات المدونة باللهجات الجاهلية الأخرى ، ولجميعها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ الذي يريد شرح تأريخ تلك الأيام التي ظهر فيها الاسلام . وفي جملة هذا التأريخ تأريخ تطور الخطوط العربية .

واذا كان ما ذكره الدكتور (م . حميد الله) عن الكتابات التي وجدها على الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة ، والتي يرى ان تأريخها يرجع الى غزوة الخندق ، اي الى السنة الخامسة من الهجرة ، صحيحاً من الوجهة العلمية، فإننا نكون أمام أقدم كتابات عثر عليها حتى الآن بعربية القرآن الكريم[1] . وهي ستفيد الباحثين ولا شك في التعرف على تأريخ تطور الخط العربي ، وعلى أساليبه. وربما يعثر الباحثون في المستقبل على كتابات قد تكون أقدم من هذه أو من أيامها، لأن البحث عن الكتابات والآثار بصورة منتظمة وعلمية لم يأخذ مجراه في الحجاز حتى الآن .

وأشار (عثمان رستم) Osman R. Rostem الى وجود كتابات بخط كوفي وبخطوط عربية أخرى في جبل سلع وفي وادي العقيق وعند جبل أحد وفي مواضع أخرى في مؤلفه عن الكتابات المدونة على الصخور في الحجاز ، لكنه لم يشر إلى تواريخ تلك الكتابات ولم ينشر صورها كلها[2] هذا وقد أشار غيره الى وجود هذه

---

١ M.Hamidullah, In Islamic Culture, Vol. 13, Num : 4, October, 1939, p. 427.

٢ Rock Inscriptions in The Hijaz, Le Caire, MCMXLVIII.

الكتابات . إلا أن أكثر ما كتب عن هذا الموضوع ، لم يكتب بقلم أصحاب الاختصاص ولم يصور تصويراً جيداً أو يدرس دراسة علمية في مكان وجوده . ثم إن معظم الكتابات لا تزال مهملة غير مصورة ولا منقولة مستنسخة ، لذلك فإن إبداء رأي علمي عن أصلها وتطورها غير ممكن في الوقت الحاضر . ولعل الحكومة السعودية ستهتم بهذه الناحية المهمة ، فترسل الى الباحثين العرب والمسلمين أو المستشرقين تستفتيهم في أمر هذه الكتابات . بعد أن تطلب من المتخصصين دراستها في مكانها وأخذ صور جيدة لها ، وطبع نسخ بواسطة الجبس أو بوسائل أخرى لهذه الكتابات ، ليكون من الممكن دراستها دراسة علمية .

الإعجام والحركات :

ولا بد لي هنا من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب . هما : الإعجام والحركات .

ويراد بالإعجام ، تنقيط الحروف المرسومة بشكل متقارب أو بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لأن هذه الحروف مثل الباء والتاء والثاء،والجيم والحاء والخاء،والدال والذال،والراء والزاء،والسين والشين، والصاد والضاد،والطاء والظاء،والعين والغين،والفاء والقاف ، إذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الإنسان التمييز بينها لأنها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارىء عندئذ الرجوع الى علمه في اللغة وسليقته في الفهم لإدراك المعنى ، لأنها بشكل وبرسم واحد . فالباء والتاء والثاء بل وحرفا النون والياء أيضاً ، إذا كتبت في الكلمة ولا سيا في الوسط ، بغير نقط ، صار من الصعب تمييز هذه الحروف بعضها عن بعض ، وإدراك المعاني الصحيحة والمراد من الكتابة نتيجة لذلك . فللتغلب على هذه المشكلة أعجم علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها أو تحتها لتمييزها بعضها عن بعض ، وعرف هذا التنقيط بالاعجام[1] .

وقد وقع الاعجام في الإسلام على رأي أكثر العلماء . بعمل أبو الأسود الدؤلي

---

١ اللسان (٣٨٨/١٢) ، (عجم) ، صبح الاعشى (١٥٥/٣) ، مفتاح السعادة (٨٠/١) .

والخليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون في قصص لا علاقة لذكره في هذا المكان . وهو مكان خصص لأقلام الجاهلية . أما بالنسبة الى الجاهلية ، فإننا لا نملك وثيقة معجمة . ونقش (حرّان اللجا) المكتوب بعربية شمالية مشوبة بالنبطيـة ، خال من الاعجام أيضاً ، وكذلك النقوش الأخرى المكتوبــة بالنبطية المتأثرة بالعربية الشمالية . ولهـذا فإني لا أستطيع الادعاء بأن الإعجام كان معروفاً بالقلم العربـي المكي الجاهلي ولا بغيره من الأقلام العربية الجاهلية .

غير أن هناك رواية تنسب لابن عباس ، تزعم أن الثلاثة الذين هم من بولان من طيء ومن أهل الأنبار ، لما وضعوا الحروف وضعوها مقطعة وموصولة ، ثم وضع أحدهم وهو (عامر) الاعجام[1] . أي ان العرب وضعوا الاعجام في الوقت الذي اخترعوا فيه قلمهم العربـي ، وجـاء في كتاب النشر في القراءات العشر : « ثم إن الصحابة رضي الله عنهم ، لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .. »[2] . وفي هذا الخبر دلالة على معرفة الصحابة بالنقط والشكل.

وهناك خبر يرفع سنده الى (ابن مسعود) ، يذكر أنه قـال : « جوّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » . وقد شرح الزمخشري ذلك بقوله : « أراد تجريــده من النقط والفواتح والعشور لئــلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن »[3] .فيفهم من هذا الخبر أن التنقيط كان معروفاً،وأن (ابن مسعود) عرفه ، وأنه رأى تجريد القرآن من النقط ليصرف الصغير همه في فهمه فهماً عميقاً وفي إدراكه إدراكاً صحيحاً عن دراسة ، لأن تجريده يحمل الطالب على بذل الجهد في فهم غامضه ومشكله ومعناه فيرسخ فهمه في عقله ، أمـــا إذا كانت الحروف معجمة ومشكلة ، فلا يجد الطالب ما يحمله على بذل الجهد وإجهـاد نفسه لفهم القرآن . فتفتر همته عن فهمه ، ولا يبذل نفسه بذلاً مرضياً في تعلم كتاب الله .

---

١ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٢ ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر (٣٢ وما بعدها) ، مصادر الشعر الجاهلي (٣٥) ، للدكتور ناصر الدين الاسد .

٣ الزمخشري ، الفائق (١/١٨٦) ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٩٣) .

وخبر آخر يدل على وجود الإعجام عند العرب ، رواه (سفيان بن عيينه)، يفيد ان (زيد بن ثابت) نقّط بعض الحروف[1] .

وورد ان بعض الباحثين عن الكتابات الاسلامية القديمة عثروا على آثار للنقط في بعض الوثائق القديمة . فقد ذكر الدكتور (جروهمن) انه وجد في وثيقة من وثائق البردي المدونة بالعربية واليونانية ويعود تأريخها الى سنة (٢٢) للهجرة حروفاً منقطة[2] . وهذا التنقيط إن صح وثبت ، فإنه يدل على وجود التنقيط في هذا العهد . كذلك ذكر (مايس) G. C. Miles انه وجد حروفاً منقوطة في كتابة عثر عليها قرب الطائف يعود عهدها الى سنة (٥٨) للهجرة[3] . وإذا صح ان هذه النقط قديمة قدم الخط ، فإن معنى هذا ان الكتابة على الحجر قد عرفت التنقيط أيضاً في هذا العهد وقبله ، إذ لا يعقل أن تكون أول كتابة على الحجر استخدمت التنقيط .

ونسب بعض أهل الأخبار الإعجام الى (أبـي الأسود الدؤلي) ، كما نسبوا اليه النقط.وهو وَهْم وقعوا فيه من عدم ادراكهم للعمل الذي قام به (أبو الأسود) فظنوا انه استعمل النقط في الحالين: في النقط الذي هو الشكل،وفي النقط الذي هو الإعجام . والذي عليه الجمهور ان الإعجام كان من عمل (نصر بن عاصم) . فلما كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تمييزهم بين الحروف المتشابهة، وتفشي وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين الحروف المتشاكلة (فزع الحجاج الى كتابه،وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[4] .

---

١ معاني القرآن ، للفراء ، (١٧٢/١ وما بعدها) .

٢ Grohmann, From the World of Islamic Papyri, PL. II, A, pp. 82, 113-114.

٣ G. C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, in JNES, 7, 1946.

٤ ابن خلكان (١٢٥/١) ، تاريخ التمدن الاسلامي (٦١/٣) اللسان العربي ، ١٩٦٩م (ص ٥٢) .

وذكر ان (نصر بن عاصم) و (يحيى بن يعمر) ، وكانا ممن أخذا العلم عن أبي الأسود الدؤلي[1] نقطا الإعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط استاذهما أبي الأسود ، التي كانت بمداد يخالف المداد الذي كتب به الكلام . « وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المشدد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه »[2] .

والمشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة الحركات ، أي كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقع الكلم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات معربة في الأصل . لأن اهمال الحركات فيها يؤدي الى وقوع أخطـــاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبر عن الحركات .

وسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو أن أقلام العربية القديمة هي مثل الأقلام السامية الأخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيهـا حروف تمثل الحركات ، تكتب في الكلمة . كما هو الحال في اليونانية وفي اللاتينية وفي الأبجديات الغربية الأخرى المشتقة منها ، فيقرأ الإنسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجـود حروف الحركات مع الحروف الصامتة ، ويكتب كتابة صحيحة ، لأنه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بحروف صامتة وبحروف الحركات. ويذكر أهل الأخبار أن العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسليقتهم فلم يخطئوا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة الى الشكل ، فلما جاء الإسلام،ودخل الأعاجم بكثرة فيه واختلطوا بالعرب واختلط العرب بهم، فشا اللحن في الكلام ،

---

١ الفهرست (ص ٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) ، « ويقال : أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الاسود الديلي ، من تلقين أمير المؤمنـين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه » ، حكمة الاشراق (٨١) .

٢ اللسان العربي ، ١٩٦٩ م (ص ٥٢) .

وظهرت الحاجة الى تقويم الألسنة فوضع أبو الأسود الدؤلي مبادىء النحو والشكل. أي علامات الحركات. وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم، حتى صار من أهم العلوم عند العرب.

وعلينا أن نفرّق بين التنقيط أي الإعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية. فالتنقيط عند العرب هو لتوضيح الحرف. بمعنى تعيينه وتثبيته لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له. أما في اللغات السامية الأخرى، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات. فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته. كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات أخرى. ولم يستعمل الاعجام أي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له إلا في القليل، وذلك بسبب أن الحروف عندها غير متشابهة كثيراً، ولذلك فلا يلتبس أمر قراءتها على أحد، فلم تظهر الحاجة فيها الى إزالة اللبس بالتنقيط. ومن هنا اختلف مبدأ التنقيط في العربية عن مبدأ التنقيط في اللغات السامية الأخرى.

والتنقيط في كلتا الحالتين اي في حالة استخدامه للتعبير عن الحركات، اي الشكل، او في حالة استعماله للإعجام، أي لتمييز الحروف المتشابهة، هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم. وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمثقفون ثقافة عالية، وهم طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان. وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها وممارستها. بأن جعلوا لها أدباً وقواعد وشروطاً يجب أن تتوفر فيمن يمارس هذا الفن. جمعوها في (أدب الكاتب) أو (أدب الكتاب). وكان في جملة قواعد هذا الأدب تصعيب الصنعة وتعقيدها حتى لا يطرقها إلا الذكي الأريب. واتخاذ أقلام خاصة، يكون لكل قلم قواعده وأصوله في رسم الحروف، وإهمال التنقيط أو الشكل، لأن من مستلزمات الكاتب أن يكون فطناً يستنبط المعنى بذكائه بربط الكلمات بعضها ببعض. وهو ما يعجز عنه القارىء الكاتب الاعتيادي. فتجريد الكتابة من النقط والشكل امتحان يميز الكاتب العالم عن غيره ممن تعلم كيف يقرأ ويكتب وكفى. حتى لقد وقر في ذهنهم ان من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها الى كاتب، فكأنما أراد بذلك إهانته ورميه بالجهل والغباء، إذ عنى بهذا التنقيط والتشكيل ان

المرسل اليه لا يفهم المعنى إلا إذا نقطت له الكلمات ، فكيف الحال اذن اذا كانت الرسالة ممن هو دون من أرسلت اليه في المنزلة والمكانة ، ومن رجل من طبقـــة سوية الى رجل أعلى طبقة منه . فكان من أدب الكتاب عندهم الترفع عن مستوى القراء الكاتبين ، بترك النقط والشكل . كانوا يقولون : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . نظر (عبدالله بن طاهر) خط كتاب وقع اليه ، فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه أي نقطه »[1] .

غير ان الحاجات دفعت بالناس ولا سيما بذوي الأعمال منهم الى التماس أيسر الطرق وأبسطها في تدوين أمورهـم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسير بالتيسير . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للإعجـــام . أما اليونان فصاغوا من الحركات حروفاً كتبوها جنباً الى جنب مع الحروف الصامتة ، فحلّوا بذلك أهم مشكلة من مشكلات الكتابة . وأما الشعوب السامية ، فاتخذت التنقيط والعلامات فوق أو تحت الحرف أو في داخله لتميز بذلك حرفاً متشابهاً عن الحرف الذي يشابهه ، او لتعيين حركته . وأما الحبشية ، التي أخذت قلمها من المسند ، فاتبعت طريقة اليونان وتغلبت بذلك على المشكلتين وظهرت بذلك أقلام شعبية تنقط وتشكل ، استعملها السواد ، أما أرباب العلم من الكتاب ، فقد أبوا كتابة الكتب المقدسة وكتب العلم والتراث بخطوط السواد ، وأبوا إلا الكتابة بالقلم القديم ، والمحافظة على الضبط القديم ، لأنه في نظرهم جـــزء من النصوص فلا يمكن اجراء أي تغيير عليها . أما ما سوى ذلك فدوّن بالأقلام الشعبية التي أوجدتها ضرورات التيسير وتطور الزمن .

وأغلب روايات اهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً . وأن الشكل إنما وجد في الإسلام . وكان موجده (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، فاستعمل النقط بدل الحركات ، ثم أبدل (الخليل بن أحمـــد الفراهيدي) ، النقط برموز أخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين أن نقط (ابو الأسود الدؤلي) ، هو على نحو النقط في الخط النسطوري السرياني ، ويحتملون تعلمه قاعـــدة التنقيط منهم[2] . وكان عندهم نقط كبيرة

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٢) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٩) .

توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : كتب ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن . وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك انه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ؛ وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمر وبجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الأسود[1] .

ويرى بعض المستشرقين أن ضبط الكتابة العربية قد بدىء به قبل الإسلام[2] . وذلك لأن عرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون بالسريانية ، وقد عرفت السريانية مشكلة الشكل وعالجتها ، فلا بد وأن يكون العرب الذين أخذوا قلمهم من السريانية او النبطية المتأخرة قد وقفوا على المشكلتين فعالجوهما على نحو ما .

وأود ان أبين بهذه المناسبة ان تنقيط (ابو الأسود) للحروف لم يكن إعجاماً ، بل كان شكلاً ، اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف للكلمة . فهذا كان تنقيط (ابو الأسود الدؤلي)[3] أما شكل الوقت الحاضر ، فهو من اختراع (الخليل بن احمد الفراهيدي) . ولذلك يجب علينا التفريق بين تنقيط (ابو الأسود) ، وبين الاعجام الذي هو

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/ ٦٠ وما بعدها) ، الفهرست (ص ٦٦) ، الدراسات الادبية السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م ، (ص ٨٣) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ٢٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، (في أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم) ، (الفن الاول) .

تنقيط الحروف المتشابهة لإزالة اللبس بينها ، ثم التفريق بين شكل (ابو الأسود) وبين شكل (الخليل بن أحمد) واضع الشكل المتبع الآن ، لموت طريقة (ابو الأسود) ، في الشكل ، وتخصيص النقط بالاعجام ، ومن هنا وقع البعض في لبس من أمر النقط والاعجام ، فلم يفرقوا بينهما . والصحيح هو ما قلته من ان النقط هو الشكل في الأصل ، فبهذا المعنى كان في أيام (الدؤلي) الى أن قامت الحركات التي هي الضمة والفتحة والكسرة مقام نقط الدؤلي، فوجد الناس في الحركات سهولة مكنتهم من التفريق بين إعجام الحروف وتشكيلها ، فخصصوا النقط بالإعجام والحركات بالشكل ، وبذلك زال اللبس الذي أدى الى وقوع أخطاء في فهم المراد من الإعجام ومن الشكل الذي هو الحركات .

والتنقيط من الأمور التي كان يراعيها العبرانيون منذ القديم في قراءة التوراة . فقد كانوا ينقطون بعض حروف الكلمات لتنبيه القارىء الى أهمية الكلمة ولمكانتها المقدسة،وعرف هذا التنقيط بـ Puncta extraordinaria عند رجال الدين.فقد نقطوا لفظة (عانقه) في الآية : « فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبّله وبكيا »[1] ، ونقطوا لفظة (فامحني) ، من الآية : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت »[2] ، ولفظة (يمحوها) في الآية : « فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المرّ »[3] ، وقد فعل ذلك في الأناجيل أيضاً ، كما في لفظة (محا) الواردة في الآية : « ومحا الصك الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمّره في الصليب»[4]. ثم زاد علماء التوراة وكتّابها زيادات أخرى في أصول التنقيط ووضع العلامات الخاصة على الحروف التي هي الإعجام ، وصيّروها علماً خاصاً بالتوراة أشير اليه في (السوفريم) وفي التلمود[5] .

ونجد في (انجيل متى) اشارة الى التنقيط في الحروف ، جاء : « الحق أقول لكم : انه إلى أن تزول السماء والأرض ، لا تزول ياء أو نقطة واحدة من

---

١ سفر التكوين ، الاصحاح (٣٣) ، الاية ٤ .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٣٢ .
٣ سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٣ .
٤ رسالة القديس بولس الى أهل كولتى ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٤ .
٥ Hastings, p. 979.

الناموس حتى يتم الكل »[1] . وفي هذه الآية إشارة الى تدقيقاتهم في الكتابة،وتمييزهم بين حرف وآخر بالنقط[2] .

وكان كتّاب الأناجيل والكتب المقدسة ، اذا أضافوا كلاماً من عندهم على النص ، أو فسروا لفظة من ألفاظه ، كتبوه بخط ثخين عريض ، ليتبين للقارى ان ما هو مدون ليس من صلب الكتاب المقدس ، وانما هو إضافة لتفسير أو لشرح[3] .

وأود أن أبين ، ان موضوع النقط الذي هو الإعجام وموضوع الشكل من الموضوعات التي لم تدرس دراسة كافية علمية حتى الآن . وهما مما لا يمكن البت فيهما الآن ، إلا إذا عثر على كتابات جاهلية عربية وعلى كتابات تعود الى أيام الرسول وما بعده ، وإلا بعد نشر ما ألفه العلماء عن النقط والشكل . فقد ألف العلماء في ذلك كتباً ، أشار اليها (ابن النديم) ، فقال : « الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن : كتاب الخليل في النقط ، كتاب محمد بن عيسى في النقط ، كتاب اليزيدي في النقط ، كتاب ابن الأنباري في النقط والشكل،كتاب أبي حاتم السجستاني في النقط والشكل بجداول ودارات ، كتاب الدينوري في النقط والشكل »[4] .

وهناك مؤلفات أخرى دونت في (لامات القرآن)[5]، وفي هجاء المصاحف[6]، وفي اختلاف المصاحف وأمثال ذلك[7] ، تفيدنا كلها في تكوين رأي عن تطور الخط العربي في أوليات أيامه ولا سيما في صدر الاسلام .

وقد سار الخط العربي الشمالي على نسق أغلبية الخطوط السامية مثل الخط النبطي والإرمي والعبراني فاتجه من اليمين الى اليسار . ونظراً لوجود حروف منفصلة

---

١ الاصحاح الخامس ، الاية ١٨ .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٤٣١) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/ ٢٥٢) .
٤ الفهرست (ص ٥٩) ، (كتاب النقط والشكل) ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، الفهرست (ص ٧١) .
٥ الفهرست (٦٠) .
٦ الفهرست (٦١) .
٧ الفهرست (٦٠) .

وحروف متصلة فيه ، دونت كتابة الكلمات فيه بالجمع بين النوعين من الحروف ، وبذلك سهُل أمر الكتابة بهذا القلم ، وصار على غرار القلم النبطي في السرعة . وللتمييز بين الكلمات ، لم يستعمل الخطوط العمودية النازلة بين الكلمات للفصل بينها ، على نحو ما كان في المسند ، بل سار على طريقة النبط في وضع فراغ صغير مناسب بين كل كلمة وأخرى ، دلالة على انفصالها بعضها عن بعض .

أما المسند ، فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمير ، ولذلك قال له بعضهم (الخط الحميري) ، و (القلم الحميري)[1] ، كما قال له المستشرقون فيما بعد . وهي تسمية مغلوطة على كل حال ، لأن الحميريين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط ، لقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وأقوام عربية اخرى ، وقد عرفه بعض علماء العربية بقوله : « المسند : خط لحمير مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام ملكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في أيديهم الى اليوم باليمن »[2] . وقد ذكر (ابن خلدون) أن حمير كانت تمنع من يريد ان يتعلم المسند إلا بإذنها[3] .

والأبحاث التي قام بها الباحثون عن الخط العربي قبل الإسلام ، لا تزال في مراحلها الأولى ، ولا يمكن في نظري نضج هذه البحوث والوصول الى نتائج علمية مرضية إلا إذا قام المتخصصون بالتنقيب تنقيباً علمياً في جزيرة العرب كلها ، وهذا ما يستغرق بالطبع وقتاً طويلاً . ولا يستبعد أن يتوصل المنقبون الى معرفة أبجديات واقلام قد تكون اقدم عهداً من هذه الأقلام التي تحدثت عنها ، وقد يجدون أقلاماً اخرى جديدة تسمى بأسماء جديدة ، قد تغير من هذه النظريات العلمية التي تلوكها ألسُنُ العلماء في هذا اليوم . فقد عثر على نصوص يظهر أنها بقلم ثمودي في موضع (ينبع النخل) الذي يبعد مسافة أربعين كيلومتراً عن (ينبع)[4] . كما وجدت كتابات بخطوط جاهلية وبخط عربي من صدر الإسلام في (جبل سلع) عند المدينة ، وفي (وادي العقيق) الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة[5] . وكذلك في (وادي رانونا) الواقع جنوب المدينة على مسافة ثمانية

---

١ اللسان (٣/٢٢٤) ، (صادر) ، (حمر) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٤ Rock Inscriptions in the Hijaz, A Report by Osman R. Rostem, p. 2.
٥ Rostem p. 4.

كيلومترات ، حيث وجدت نقوش صور حيوانات كذلك[1] . وفي (الصويدرة) ، و (بستان شهار) ، وهو موضع يقع على مسافة كيلومترين جنوب الطائف ، حيث يذكر من رآه انه وجد فيه كتابات تظهر وكأنها كتابات يونانية[2]. ووجدت كتابات بعضها بدائية او من شكل جديد في مواضع أخرى من الحجاز ،قد تكون أقلاماً جديدة ، كتبت بلهجات لا نعرف عنها اليوم شيئاً .

لقد كان من الشائع بين الباحثين ان المنطقة الواقعة فيما بين المدينة والطائف منطقة فقيرة بالكتابات ، ولكن عثور بعض الباحثين على كتابات ثمودية وعلى كتابات أخرى وفي ضمنها كتابات قديمة تمثل أقدم أنواع الخط الذي دوّن به القرآن الكريم ، قد مزّق حجب ذلك الشائع ، وسوف يقف الباحثون ولا شك على كتابات أخرى جديدة في مواضع أخرى من الحجاز ولا سيما في المواضع الواقعة على طرق القوافل القديمة . وعندئذ سيزيد علمهم عن الأقلام العربية الجاهلية وعن علم الناس بلهجات العرب قبل الاسلام، ولا سيما بلهجات أهل الحجاز لما في ذلك من فائدة في الوقوف على اللغة التي نزل بها الوحي .

هذا — وأعود فأقول — إن من الخطأ مجاراة أهل الأخبار رأيهم في أن الكتابة العربية كانت قد نقلت أول ما نقلت الى مكة ، ثم انتشرت منها الى (يثرب) والى الأماكن الأخرى . إذ يروي أهل الأخبار أنفسهم أنه كان بيثرب قبل الإسلام رجال كانوا يقرأون ويكتبون بهذا القلم ، ومنهم من كتب للرسول . وأما ما ذكروه من أن الرسول طلب من أسرى (بدر) ممن لم يكن يستطيع فداء نفسه ، تعليم عشرة أطفال من أهل يثرب القراءة والكتابة في مقابل فكّ أسرهم، فليس فيه دليل على عدم وجود قارئين كاتبين بها ، وإنما فعل النبي ذلك لتكثير الكتابة فيها ، ولنشر التعليم بين المسلمين .

وقد أخطأ (ريجس بلاشير) في رأيه القائل : « لدينا مصادر أكثر قدماً ، تدفعنا الى الاعتقاد بأنها كانت كثيرة الاستعمال في الطائف بعكس انتشارها في المدينة الذي لقي صعوبات » ، ثم قال في الملحوظة (٥) : « من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الطريقة الكتابية العربية » ، واستدل على الحالتين باستعانة

---

١ المصدر السابق .
٢ المصدر السابق (ص ١١) .

الرسول بأسرى بدر لتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، لأن المصادر المحلية كانت غير كافية [1] . ولا أعرف شيئاً عن المصادر القديمة التي ذكر أنها تشير الى كثرة الكتابة بالطائف ، عكس المدينة ، لأنه لم يشر اليها ، وإنما قال قولاً عاماً ، لم يؤيده بذكر اسم المورد الذي استقرى رأيه منه . ولعله قصد ما ورد في حديث تدوين القرآن من اجعلوا المملي من قريش ، أو من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وهو حديث لا صلة له بقلة أو بكثرة انتشار الكتابة في مكان ، ثم إنـه يتناول مكة كذلك ، كما يتناول المدينـة ، ونحن لو أحصينا عدد من كان يكتب من أهل يثرب من الصحافة لما وجدناه يقل عن عدد كتّاب الطائف قبل الإسلام ، بل هو فوقه بكثير ، كما رأينا فيما سلف . أما قوله : من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الكتابة في يثرب ، فيخالفه ما ورد في الأخبار من أن احـد يهود (بني ماسكـة) كان يعلم أهل يثرب الكتابة ، وتعلم أهل يثرب الكتابة بالعربية ، لا يضر اليهود شيئاً ، حتى يقاوموا تعلمها ، بل ربمـا كان العكس هو الصحيح ، لأن في تعلمهم الكتابة والقراءة يجعلهم أقرب الى التفكير والتأمل والاستقرار والميـل الى الهدوء والوقوف على الكتب من الجهلة الأميين ، الذين تتحكم العواطف والعنجهيات في عقولهم ، فتبعدهم عن حياة الهدوء والمسالمة .

ولم يصل الى علمي ان أحداً من الباحثين قد تمكن حتى الآن من الحصول على كتابات في العربية الجنوبية مدونة بهذا القلم الذي نكتب به ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم استعمال أهل تلك البلاد له ، فقد يجوز أن يكونوا قد استعملوه في أمورهم التجارية وفي مراسلاتهم وأعمالهم الأخرى ، استعمال أهل مكة ويثرب له ، إلا انه لم تبق منه بقية بسبب كونه قد كتب عـلى الأدم والمواد الأخرى السريعة التلف ، فلم تبق منه بقية ، شأن كتابات أهل مكـة ويثرب المكتوبة على هذه المواد . إذ لا يعقل عدم وصول هذا القلم الى نجران والى صنعاء والى الأماكن التي وجدت النصرانية سبيلاً لها بينها ، وقد كان النصارى يكتبون به ، وهم من أهم العناصر التي أدخلته الى جزيرة العرب .

إن القلم الذي دوّن به الوحي ، والذي صار بفضله القلم الرسمي للعرب ولعدد كبير من الشعوب الاسلامية ، حمل في نفسه مثل أكثر الخطوط السامية وغيرها ،

---

[1] تأريخ الادب العربي (٧٤) .

نقاط ضعف ، عولجت بعضها وتغلب عليها ، كما في موضوع تشابـــه الحروف مثل الباء والتاء والثاء ، حيث تغلب عليها بالتنقيط ، وكما في كيفيـــة التلفظ بالحركات ، حيث عولج بوضع علامات لها فوق او تحت الحروف ، ومثل حرف (المد) والتنوين ، وأمثال ذلك ، مما جعل قارىء الكتاب يلاقي صعوبة كبيرة في قراءة الخط وفي فهم المراد منه ، تجلت في المحاولات التي ظهرت في صدر الاسلام لإصلاح هذا الخلل ، الذي ورد اليهم من نقلهم الخط نقلاً ،دون اجراء اصلاح عليه ، ومع ذلك فلا تزال هناك مواطن ضعف فيه يجب التغلب عليها ، نجدها مدونة في البحوث التي نقرأها بين الحين والحين في موضوع إصلاح الخط العربي ، لا مجال لسردها ولسرد حججها وأدلتها في هذا المكان .

أصل الخط :

ولقد اهتم المسلمون في موضوع أصل الخط عند البشر وفي منشئه وكيفية ظهوره . وذهبوا الى ان أول من وضع الخطوط آدم ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أظل الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابهم . وقيل (أخنوخ) ، وهو (ادريس)[1]. وقالوا : « كان ادريس النبي عليه السلام أول من خطّ بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود »[2] . وعرف عندهم بـ (هرمس الأول) ، « وهو المثلث النعم ، فإنه كان قبل الطوفان . ومعنى هرمس لقب، كما يقال قيصر وكسرى . وتسميه الفرس في سيرها اللهجد ، وتفسيره ذو عدل. وهو الذي تذكر الحرانية نبوته . وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، وهو آدم . ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ . وهو بالعربية ادريس »[3] . وقالوا : « إن ادريس أول من درس الكتب ، ونظر في العلوم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو

---

١ صبح الاعشى (٣/٦ وما بعدها) ، حكمة الاشراق ، للزبيدي (٦٤) ، (نوادر المخطوطات) .

٢ عيون الاخبار (للدينوري ١/٤٣) ، (الكتاب والكتابة) .

٣ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٠ وما بعدها) ، (ابنجهبذ) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

أول من خاط الثياب ولبسها »[1] . وذكروا أنه عرف بـ (هرمس الهرامسة) ، تمييزاً له عن (هرمس الثاني) ، وهو (هرمس البابلي) ، وعن (هرمس الثالث)،وهو (هرمس المصري)[2] . وانه هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس. ومعنى أرميس عطارد وانه بالعبرانية (خنوخ) وعُرب (أخنوخ) . وسماه الله في كتابه العربي المبين ادريس . وان معلمه اسمه (اغثاذيمون) المصري . الى غير ذلك من قصص[3] نجده في كتب أهل الأخبار .

وهو في زعم أهل الأخبار (أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش ابن شيت بن آدم) . ومولده بمصر في مدينة (منف) . ووصفوه وصفاً كأنهم كانوا معه وقد شاهدوه وجالسوه ، فقالوا : « كان عليه السلام رجلاً آدم اللون تام القامة ، أجلح ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح التخاطيط ، تام الباع، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، براق العين أكحل ، متأنياً في كلامه ، كثير الصمت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كثير الفكرة ، به حدة وعبسة ، يحرك اذا تكلم سبابته »[4]. وكان كثير الأسفار : زار الهند ، وجاء الى فارس وبابل . وعرف بـ (ارمس) عند اليونان . وهو « اسم عطارد . ويسمى عند اليونان أطرسمين »[5] . « استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطب »[6] . وهو الذي علم (اسقليبوس) الطب .. وهو أول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وامام الطب ، وأبو أكثر الفلاسفة[7] . « وأول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وان جده كيومرث ، وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى المياكل ومجّد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه . وانه ألّف لأهل زمانه كتباً كثيرة، وأشعاراً

---

١ . ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .
٢ ابن جلجل ، طبقاء الاطباء والحكماء (ص ٨ وما بعدها) ، ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (ص ٢ وما بعدها) .
٣ ابن القفطي ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٢) .
٤ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .
٥ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .
٦ المصدر نفسه (ص ١٢) .
٧ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٢٩ وما بعدها) .

موزونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . وهو أول من أنذر بالطوفان ، ورأى ان آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار ، وكان مسكنه صعيد مصر ، تخير ذلك فبنى هناك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبرابر بأخميم وصور فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصور جميع آلات الصناع ، وأشار الى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »[1] .

ونسبوا له النبوة والقول بالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الزهد والعدل والصيام أياماً معروفة في كل شهر والجهاد على الأعداء وايتاء الزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب . وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعياداً كثيرة ، وقربانات . ورتّب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكاً ورعية . وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ، لأن الكاهن أقرب الى الله من الملك والرعية[2] .

و (هرمس) من (أرمس) Ermis ، اسم إلـه من آلهة اليونان . ويقابل الإلـه (تحوت) Thot عند قدماء المصريين . وينسب المصريون اليه اختراع كل علم . ويقابل Mercurius عند الرومان . وهو (عطارد) عند العرب .وقد عرف عند المسلمين بـ (هرمس المثلث النعم) وبـ (المثلث النعم) ، وقد أخذ ذلك عن اليونانية ، إذ لقب فيها بـ (طريسميجيسطيس) Hermes Trismegistes ومعناه ثلاثي التعليم . وقد عرّبوه فجعلوه (اطرسمين)[3] . وقد وقف المسلمون على قصص قديم شاع بين البابليين والمصريين والعبرانيين واليونان والرومان والفرس عن أصل المعرفة وكيف ظهرت بين البشر ، فمزجوا بينها وجسّموها في قصص ادريس . وفي جملة ذلك اختراع الكتابة ، فنسبوها اليه .

ولأهل الأخبار آراء في كيفية ظهور الكتابة عند كل أمة من الأمم . أخذوها من أهل الكتاب أيضاً ومن القصص والأساطير . فذكروا مثلاً ان الله أرسل ملكاً

---

١ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) .
٢ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (٥ وما بعدها) .
٣ ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٦ وما بعدها) ، Shorter Ency. p. 158.

اسمه (سيمورس) ، علم آدم الكتابة السريانيـــة ، على ما في أيدي النصارى . وتفرعت منها ثلاثة أقلام ، وهي : المفتوح ويسمى اسطرنجالا ، وهو أجلّهـــا وأحسنها ، ويقـــال له الخط الثقيل ونظيره قلم المصاحف . والتحرير المخفف ، ويسمى اسكوليثا ، ويقال له الشكل المدور ، ونظيره قلم الوراقين . والسرطا وبه يكتبون الترسل ، ونظيره في العربية الرقاع[1] . وذكروا ان أول من كتب بالفارسية (جم الشيد بن اونجهان) (جمشيد) (جم شيد) ، « وكان ينـــزل أسان من طساسيج تستر ، فزعمت الفرس انه لما ملك الأرض ودانت له الجن والانس وسخر له ابليس ، أمره ان يخرج مـــا في الضمير الى العيان فعلّمه الكتابة[2] . وزعموا ان أول من كتب بالعبرانية عابر بن شالخ ، وضع ذلك بين قومه فكتبوا به[3] . وزعموا ان اليونان لم يكونوا يعرفون الخط حتى ورد رجـلان من مصر ، يسمى أحدهما قيمس والآخر أغنور ومعهما ستة عشر حرفاً ، فكتب بها اليونانيون، ثم استنبط أحدهما أربعة أحرف ، فكتب بها . ثم استنبط آخر يسمى سمونيـــدس أربعة أخر ، فصارت أربعاً وعشرين[4] .

ترى مما تقدم أن أهل الأخبار أخذوا أخبارهم المتقدمة عن نشوء الخط ، من اهل الكتاب ومن الأساطير المترسبة من القصص الساذج القديم الذي كان شائعـــاً عند الشعوب القديمة ، ثم صاغوه صياغة اسلامية،دون نقد ولا تمحيص، ومراجعة لاستخراج عناصر السذاجة والخرافات منها ، وسبب ذلك أن ملكة النقـــد كانت هزيلة عندهم ، وقد تقبلت كل ما سمعته من (أهل العلم الأول) دون نقد ولا تمحيص ، تقبلت حتى الخرافات والأباطيل المخالفة لأبسط قواعد المنطق والعقل .

قلم النبط :

وقلم النبط هو على عكس الأقلام العربية الأخرى التي عرفناها ، وهي: المسند، والقلم الثمودي ، والصفوي ، واللحياني ، قلم يرجع أصله الى القلم الذي ينتمي اليه قلم بني إرم وقلم تدمر ، والى المجموعة السامية الشمالية للخطوط . وقد تطور

---

١ الفهرست (٢٤) .
٢ الفهرست (ص ٢٥) .
٣ الفهرست (ص ٢٨) .
٤ الفهرست (ص ٢٩) .

القلم النبطي ، كما تطور غيره من الخطوط ، فصار له قلم قديم وقـلم متأخر ، امتاز بميله الى ربط حروفه بعضها ببعض ، حتى اكتسب شكلاً يمكن قراء القلم العربي الشمالي من التعرف عليه بسهولة ، وبعد استعراض قليل له . وقـد عمل مهندسو هذا الخط في تمديد بعض الحروف نحو اليسار ، حتى ابتعدت عن سمياتها في الأبجدية الإرمية بعض البعد .

إن هذا التطور الذي مرّ به الخط النبطي،يظهر لنا أن النبط لم يكونوا يقنعون بالأخذ والاقتباس ، وإنما كانوا يكيفون ما يتلقونه من غـيرهم ويطورونه حتى يكتسب شخصية خاصة مستقلة .

هذا ولا بد لي من الإشارة الى أن الألف في اللهجـة النبطية قد تقوم مقام الهمزة في أبجديتنا في بعض الأحيان،وقد تقوم مقام المدة (آ) A عند وجودها في وسط اللفظة وفي نهايتها . وقد يحل محلها الحرفان الـ (و) والـ (ي) كما في (روفو) في موضع (رأفو) ، و (رُؤُف) و (اروس) في موضع (أرأس) . ولما كانت الألف من الحروف الساكنة في الأبجديات السامية في الغالب ، فاستعمالها في موضع الألف الممدودة وإحلال بعض حروف العلة في موضعها في النبطية وفي بعض الأبجديات السامية ، يدل على أن الأبجديات السامية المتأخرة نظرت اليها على أنها من حروف العلة المعبرة عن بعض الأصوات[1] .

وحرف الـ (ج) هو (كيمل) في الأبجديات السامية ، وهو قريب في النطق من الكاف (ك) (كاف) الفارسية . غير أن الكتابات النبطية المتأخرة استعملت هذا الحرف في مواضع كثيرة على نحو نطقنا بالجيم في عربيتنا[2] .

---

١ Nabataen Inscriptions, Leiden, 1914 ,p. 37 ff, in Publi. of the Princ. Univ. Archae. Expedi. to Syria, Section A ,Semitic Inscriptions, p. XXV.

٢ المصدر نفسه .

الفصل الثاني والعشرون بعد المئة

المسند ومشتقاته

والمسند من الأقلام العتيقة ، وهو أعتق من القلم النبطي المتأخر ، وهو أقدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن . وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة ان استعماله لم يكن قاصراً على اليمن حسب ، بل لقد كان القلم المستعمل في كل أنحاء بلاد العرب . وقد استعمله العرب في خارج بلادهم أيضاً ، لأنه قلمهم الوطني الذي كانوا به يكتبون فعثر في موضع قصر البنات على طريق (قنا) على كتابات بهذا القلم[1] ، كما عثر على كتابة بهذا القلم كذلك بالجيزة كتبت « في السنة الثانية والعشرين من حكم بطلميوس بن بطلميوس » . وهي ليست بعد سنة (٢٦١) قبل الميلاد بأي حال من الأحوال[2] . وعثر على كتابات بالمسند في جزيرة (ديلوس) من جزر اليونان[3] .

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 56, M.A.S .Tritton. Nous Signale deux Graffites, Publiés par A. E. P., Weigall, Travels in the upper Egyptian Deserts, London and Edinbourg, 1909, PL. IV, Fig. 13, 14, H.A. Winckler, Rock Drawings of Southern upper Egypt. I, London, 1928, Site I, p. 4, Ryckmans, in Le Muséon, XLVIII, (1935) ,p. 228, J. Leibovich, Les Inscriptions Protosinaitiques, Le Caire, 1934.

٢ F. V. Winnett, « The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia », in BOASOOR, Num : 73, February, 1939.

٣ المصادر المذكورة .

وذكر السائح الانكليزي (وليم كنت لوفتس) William Kennett Loftus انه لاحظ فجوة في (وركاء) Uruk في العراق ، فبحث فيها ، فتبين له انها كانت قبراً وجد في داخله حجر مكتوب بالمسند ، فيه : ان هذا قبر (هنتسر بن عيسو بن هنتسر)[1] .

ولهذه الكتابة المدونة بالمسند ، أهمية كبيرة جداً ، لأنها أول كتابة وجدت بهذا الخط في العراق . وهي تشير الى الروابط الثقافية التي كانت بين اليمن والعراق ، والى وجود أشخاص في هذا المكان كانوا يستعملون المسند ، سواء أكانوا عراقيين أم يمانيين .

وقد عثر على كتابات بالمسند في مواضع من الحجاز ، ويظهر أنه كان قلم الحجازيين قبل الميلاد . وقد وصل هذا القلم الى بلاد الشأم . فقد عثرت بعثة علمية قامت بأعمال الحفر في ميناء (عصيون كبر) (عصيون جابر) Ezion Geber على جرار عليها كتابات بحروف المسند رأى بعض العلماء أنها معينية ، تفصح عن الأثر العربي في هذا الميناء المهم الذي حاول سليمان أن يجعله ميناء اسرائيل على البحر الأحمر[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن غير اهل اليمن ، لم يكونوا يستعملون المسند في كتابتهم ، ولا يتعاطونه ، كالذي يستفاد من قصة (قيسبة بن كلثوم السكوني) ، وكان ملكاً وقع في أسر بني عامر بن عقيل ، فذكر انه كتب بالسكين على مؤخرة رجل أبي الطمحان حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بالمسند، يخبر قومه بوقوعه في الأسر . ولم يكن أحد من غير أهل اليمن يكتب بالمسند ،

---

١ Travels and Researches in Chaldaea and Susiana, by W. K. Loftus, London, MDCCCLVII, p. 233, Corpus Inscriptionum Semiticarum, IV, As NUM : 699.

٢ لم يعين موضع المكان بالضبط ولا يبعد كثيرا عن (أيلة) على خليج العقبة ومنهم من يظن أنه كان عند موضع (عين الغديان) الذي هو على بعد عشرة أميال من البحر في قعر (وادي العربة) ، وكان (خليج العقبة) على ما يظن بعض العلماء يمتد قديماً الى هذا الموضع ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) ، Ency. Bibli., p. 1472, BOASOOR, NUM : 75, p. 19 NUM : 71, p. 15, Revue Biblique, XLVIII, 1939, p. 247, Asia, May, 1939, p. 294.

فلما قرأه القوم ، ساروا الى بني عامر ، وفتكوا بهم ، وأنقذوا قيسبة منهم[1] .

ورواية أهل الأخبار هذه لا يمكن أن تكون دليلاً على عدم وقوف غير أهل اليمن على المسند في العهود البعيدة عن الإسلام . ولا على عدم استعمالهم لذلك القلم في حياتهم اليومية . لأن علم أهل الأخبار بأحوال الجاهليين لا يرتقي كما سبق أن قلت الى عهود بعيدة عن الإسلام ، ولأن في أكثر الذي ذكروه عنهم ، قصص ونسج خيال ، يستوي في ذلك حتى ما ذكروه عن الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ثم إن في الذي عثر عليه السيّاح من كتابات مدوّنة بالثمودية أو بأقلام أخرى مشتقة من قلم المسند ما يفند الرواية المذكورة في عدم استعمال غير أهل اليمن للمسند وفي عدم وقوفهم عليه . ويمكن حمل كلامهم في عدم استعمال أهل الحجاز أو غيرهم للمسند على أيام الجاهلية القريبة من الإسلام . حيث ظهر القلم العربي الشمالي .

والرواية لا يمكن أن ترتقي الى زمن بعيد عن الاسلام . فنحن نعلم ان (حنظلة بن شرقي) المعروف بالطمحان ، وهو من (بني القين بن جسر)[2] كان شاعراً فاسقاً من المخضرمين . وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الاسلام[3] ، ولو صدقنا الرواية المذكورة وأخذنا بها ، وجب ان تكون الكتابة قد وقعت قبيل الاسلام ، ومعنى ذلك ان (قيسبة) وهو من (بني السكون) كان يكتب بها ، أي ان المسند كان معروفاً ويكتب به خارج اليمن في هذا العهد ، ولهذا يكون قول (الاصبهاني) : « وليس يكتب به غير أهل اليمن » ، مغلوطاً ، لأن (قيسبة) لم يكن من أهل اليمن ، حتى يصح قوله .

وكشفت العروض ونجد وأماكن أخرى عن سر كان العلماء يبحثون عنه في شوق ، فقدّمت للعلماء عدداً من الكتابات المدونة بالمسند ، وبذلك ثبت علمياً ان (المسند) كان معروفاً قبل الاسلام في كل جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح ، اي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظن بعد الميلاد.

ففي سنة ١٩١١ للميلاد عثر (الكابتن شكسبير) Capt. W.H. Shakespear[4] على

---

١ (وليس يكتب به « أي بالمسند » غير أهل اليمن) ، الاغاني (١٢٥/١١) .

٢ الاشتقاق (٣١٧) .

٣ الخزانة (٤٢٦/٣) ، الشعر والشعراء (٣٠٤/١) ، المؤتلف (١٤٩) ، الاغاني (١٢٥/١١) ، السمط (٣٣٢) .

٤ BOASOOR, Nub. 102, (1946), p. 4.

كتابتين بالمسند في موضع (حنا) (الحناة)[1] وفي خرائب (ثج) (ثأج) التي تبعد خمسين ميلاً تقريباً عن ساحل الخليج وزهاء مئة ميل من شمال غربي القطيف[2] . وقد نشر ترجمة الكتابتين (ماركليوث)[3] . وعثر بعد ذلك على كتابة أخرى في موضع (ثج) (ثأج) دخلت في ملك أمير الكويت ، وقد نشر ترجمتها (ركمنس)[4] . وهي حجر قبر لشخص من قبيلة (شذب) . وعثر على كتابة أخرى في هذا الموضع ، وقد بلغ عدد ما عثر عليه في هذا المكان أربع كتابات[5] .

وعثر عمال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية (أرامكو) في أثناء الحفر على مقربة من (عين جوان) (جون) (جاوان)[6] عام ١٩٤٥ للميلاد على حجر مكتوب تكسرت بعض أطرافه بالمعاول قبل معرفته ، اتضح بعد أنه حجر قبر لامرأة يقال لها (جشم بنت عمرت) (عمرت) بن تحيو من أسرة (عور)

---

١ (حنا : لعل صوابها الحناة ، واحدة الحناة بتسهيل الهمزة كما هي عادة عرب هذا الزمان في الكلمات المهموزة • والحناة : موضع يقع غرب بلدة الجبيل ـ المعروفة قديما باسم (عينين) الواقعة على البحر الشرقي (الخليج الفارسي) • وتبعد الحناة عن الجبيل ٨٣ كيلومترا ، وتقع على ممر الطريق منه ومن الظهران والأحساء ولمن يقصد الكويت أو العراق أو نجدا) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ، (عينين) ، البلدان (٦/٢٥٨) •

٢ (ثاج بالجيم : قال الغوري : يهمز ولا يهمز عين من البحرين على ليال • وقال محمد ابن ادريس اليمامي : ثاج قرية بالبحرين) ، البلدان (٣/٢) ، (ثج) ، وهي التي وردت في الشعر العربي القديم • وفي ياقوت مهموزة • ولكن العرب في هذا العهد لا يهمزونها • وثاج : موضع فيه سكان وزروع قليلة ، يقع بقرب الحناة في الجنوب الغربي منها بمسافة لا تتجاوز عشرة كيلومترات) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ ، البكري ، معجم (١/٣٣٣) •

٣ Douglas Crruthers ,« Captin Shakespear's Last Journy », in the Geographical Journal, LIX, (1922), 321-323, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Nos. 984 - 985.

٤ Ryckmans, in Le Muséon, L, p. 239, Ryckmans 155.

٥ Le Muséon, L, p. 237, Ryckmans 155.

٦ (عين جوان ـ الصواب : جاوان) ، ويقع موضع جاوان في داخل الرأس المعروف حديثا باسم (رأس تنورة) في الجهة الشمالية منه على ساحل البحر ، بعد مدخل الرأس ببضعة كيلومترات • وكانت عينه تسقي نخيلا وزروعا ولكن ماءها قل ، حتى زالت مزروعاتها • كتاب من السيد حمد الجاسر ، تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م •

(آل عور) من قبيلة شذب[1] .

واستخرج (كورنول) P.B. Cornwall لوحاً مكتوباً بالمسند كان مدفوناً في أحد بساتين القطيف ، دفنه أصحاب البستان ، وقد ذكر أنه نقل من جزيرة (ثاروت) أو من موضع لا يبعد كثيراً عن القطيف ، وقد وجد أن هذا اللوح هو مثل الألواح التي عثر عليها قبلاً ، شاهد قبر ، وضع على قبر رجل يقال له (ايليا بن عيني بن شصر من أسرة سمم من عشيرة ذال من قبيلة شذب)[2] . ويرى بعض الباحثين أن صاحب القبر كان نصرانياً ، عاش في القرن الخامس أو السادس للميلاد .

وعثر على شاهد قبر آخر مدوّن بالمسند ، هو شاهد قبر (شبام بنت صحار ابن عنهل بن صامت) من قبيلة (يدعب) ، وجد على مقربة من القطيف[3] . و (يدعب) بطن من بطون قبيلة (شذب) . ويظهر أن قبيلة (شذب) كانت من القبائل المعروفة في العروض ، وكانت ذات عدد من البطون ، ولا تحمل الكتابة تأريخاً ، ويرى الذين درسوها أنها تعود الى القرن السادس للميلاد . وأما الرقم الذي ذكر في نهاية النص وهو رقم (٩٠) ، فالظاهر أنه يشير الى عمر صاحبة القبر[4] .

هذا ما عثر عليه من كتابات بالمسند في العروض . وأما في أواسط جزيرة العرب وفي باطنها وفي الأماكن التي لم يكن يتصور العثور فيها على أثر لحضارة ، فقد عثر فيها على كتابات بهذا القلم كذلك ، ولهذه الكتابات أهمية كبيرة ؛ لأنها أول وثيقة تأريخية لا يتطرق اليها الشك ، ترد الينا عن هذه المناطق التي لم يرد لها ذكر مفصل عند المؤرخين السابقين ، لأنها أول دليل عملي يثبت انتشار هذا الخط في أواسط جزيرة العرب . عثر (فلبي) في هذه المناطق على فخار وآثار

---

١ BOASOOR, NUM : 102, April 1946, p. 4, « A Himjaritic Inscription from the Persian Gulf Region », by F.V. Winnett, BOASOOR, Supplementary Studies Nos. 7-9, « The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan », by Richard Lebron, 1950.

٢ Geographical Journal, Vol. CVII, 1-2, 1946, « Ancient Arabia : Explorations in Hasa, 1940-1941 », by P.B. Cornwall, p. 44.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٥) .

٤ المصدر نفسه .

أرسلها الى المتحف البريطاني ظهر انها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد . ويظن من فحصها انها من آثار السبئيين[1] . كما عثر على كتابات وصور ، وبقايا مقابر وعظام .

وقد صور (فلبي) بعض الكتابات ، وصور بعضاً آخر رجال شركة البترول العربية السعودية الذين وصلوا الى هذه المواضع للبحث عن البترول . وقد وصلت تصاوير عدد منها الى العلماء فنشروا نصوصها وترجماتها ، مثل كتابات (القرية) أو (قرية الفأو) التي سبق أن تحدثت عنها . وقد وجد اسم الصنم (ودّ) مكتوباً بحروف كبيرة بين تلك الكتابات[2] ، وحيث أن هذه الكنوز الثمينة إنما عثر عليها ظاهرة على سطح الأرض ، وحيث أن الباحثين لم يفحصوا الكهوف فحصاً دقيقاً ، ولم ينظفوها من الأتربة والرمال التي في داخلها ، فإننا نأمل العثور على أشياء ثمينة ذات بال بالنسبة للتأريخ الجاهلي إذا اهتمت الحكومة العربية السعودية بهذا الأمر ، وقامت بتجهيز بعثة علمية من المتخصصين بالأثريات العربية ، أو سهلت للعلماء وللبعثات سبل الوصول اليها ، وحافظت على تلك الآثار من التلف وعبث العابثين .

ووجد (فلبي) كهوفاً ومقابر في مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وقد وجدت حيطان بعض الكهوف (سردب) (سرداب) مكسوة بالكتابات (والوسم) والتصاوير المحفورة . ويظهر أن أبنية ضخمة كانت في هذه الأماكن[3] .

وعثرت شركة (أرامكو) على رأس نحت من الحجر في (القرية) كتب عليه بالمسند أنه (ثار ونفسي علزن بن قلزن غلونين)[4] ، أي (اثر وقبر علزان ابن قلزان الغلوني) . كما وجدت كتابات بهذا القلم عند جبل عبيد وفي حصن ناطق وفي شمال موضع (خشم كمدة) على مسافة (١٠٠) كيلومتر من شمال قرية

---

١ « A Further Journey across the Empty Quarter », by W. Thesiger, in Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 21.

٢ Geographical Journal, CXIII, (149), p. 91.

٣ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 90, Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87.

٤ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87, Qariya, I, Philby 221a.

الفأو في وادي الدواسر[1] ، وفي (وادي هـــبن) (حبن)[2] على (١٢٠) ميلاً شمال شرقي عدن[3] . وفي (عين قرية) على (٣٠) ميلاً تقريباً من شمال (زفر) وفي (منخلى) في جنوب خشم العرض حيث يعتقد البدو أن هذا الموضع هو بئر من آبار عاد[4] .

لم يفسر علماء العربيـــة سبب تسمية (المسند) مسنداً ، وقد قرأت لإسرائيل ولفنسون تعليلاً لتسمية هذا القلم مسنداً ، فقال : « والخط المسند يميل الى رسم الحروف رسماً دقيقاً مستقيماً على هيأة الأعمدة . فالحروف عندهم على شكل العمارة التي تستند الى أعمدة . وعلى العموم فإن لحضارة جنوب بلاد العرب عقلية تنحو نحو الأعمدة في عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود وأبواب المدن .

ومن أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف عـــلى هيأة الأعمدة ، أي ان الحروف كلها عبارة عن خطوط تستند الى أعمدة .

وقد تنبه علماء المسلمين الى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظة المسند ؛ لأن حروفها ترسم على هيأة خطوط مستندة الى أعمدة »[5] .

وهو رأي سبقه اليه (ليدزبارسكي) Lidzbarski إذ أشار الى أثر العـــمارة والأعمدة في شكل هندسة حروف الخط المسند[6] وهو تفسير يشبه تفاسير الأخباريين واللغويين للأسماء والأعلام التي لا يعرفون من أمرها شيئاً ، فيلجأون الى الخيـــال ليبتكر لهم سبباً وتعليلاً يناسب الكلمة،ويتصورون عندئذ أنهم قد أوجدوا السبب، وأن من يأتي بعدهم سيكتفي بذلك ويأخذ به .

وكذلك كوّنت كلمـــة (المسند) في مخيلة (اسرائيل ولفنسون) ولـــدى (ليدزبارسكي) فكرة استناد خطوط الحروف وقيامها بعضها الى بعض استناد المباني،

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 99, Philby, Wadi Dewasir, I,

٢ هكذا ورد في مجلة (Le Muséon) (هبـن) (Haban) بدون نقـطة أو عـلامة تحت حرف H تدل على أنه (حاء) . ولعل الكلمة (الحبن) ، وهو موضع ذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص ٦٨) .

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 103.

٤ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 31, 34.

٥ تأريخ اللغات السامية (٢٤٣ وما بعدها) .

٦ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 114, Hommel, Grundriss, Erste Halfte, S. 146.

وقد وجدا من مباني اليمن وقصورها ما قوى هذا الخيال عندهما ، مع ان كلمة (المسند) التي تطلق في المؤلفات العربية الاسلامية على خط أهل اليمن قبل الاسلام لا علاقة لها بالقصور والمباني،واستناد أجزاء الحرف الواحد بعضها الى بعض ، وانما تعني شيئاً آخر ، تعني خط أهل اليمن القديم لا أكثر ولا أقل . وكلمة (مسند) (مزند)[1] في العربية الجنوبية تعني (الكتابة) مطلقاً ، وقد وردت في مواضع متعددة من الكتابات والنقوش ، فورد في نص أبرهة مثلاً (سطرو ذن مزندن) ، وترجمتها : (سطروا هذه الكتابة) ، وتؤدي كلمة (سطرو) المعنى نفسه الذي يرد في لغتنا ، وهو : (سطروا) ، اي كتبوا ودوّنوا ، فكلمة (مزندن) التي صارت (المسند) في عربيتنا تعني في العربية الجنوبية ما تعنيه كلمة الخط او الكتابة في لغة القرآن ، ولم تكن مخصصة عند اليمانيين بخط حمير ، او غير حمير،وانما حدث هذا التخصيص في المؤلفات الاسلامية فصار فيها (المسند) اسم علم لخط حمير وحده . ولا ندري متى حدث ذلك : أحدث في الجاهلية المتصلة بالاسلام أم في الاسلام ؟

واذا كان هذا التخصيص قد وقع في الاسلام ، فإننا لا نستطيع أيضاً التكهن عن الوقت الذي ظهر فيه هذا التخصيص ، لأننا لا نملك مصادر اسلامية تشير الى هذا ولا مؤلفات من صدر الاسلام يمكن ان نجد فيها ما نبحث عنه .

ويتألف المسند من تسع وعشرين حرفاً،وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث انها تتألف من الحروف الصامتة ولا حركة في الكتابة فيها ولا ضبط في أواخر الكلمات ولا علاقة للسكون او للتشديد . ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل هو خط مستقيم عمودي . وقد يكتب الحرف المشدّد مرتين كما في اللغات الأوروبية .

ومما يلاحظ على الكتابات المعينية انه لم يطرأ عليها تغيير كبير في العهود التي مرت بها . أما الكتابات السبئية ، فيمكن التمييز بين القديم منها والمتأخر في الأسلوب ، وفي شكل الكتابة[2] .

---

١ بحرف الزاي في لغة أهل اليمن لا السين .

٢ غويدي : المختصر في علوم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، (ص ٣) ،
Höfner, Altsüdarabische Grammatik, Leipzig, 1943, Weber, S. 12, Pfannmuller, S. 86, Mordtmann, Beiträge zur Minäischen Epigraphik, Weimar, 1896.

وللمسند ميزات امتاز بها عن القلم العربي ، فحروفه منفصلة ، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة . فإذا جاء الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، كتب بشكل واحد . وقد جعلت هذه الخاصية لهذا القلم ميزة أخرى ، هي ميزة الكتابة به من أي جهة شاء الكاتب ان يبدأ بها. فله ان يكتب من اليمين الى اليسار وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، وله ان يمزج بين الطريقتين ، بأن يكتب على الطريقة الحلزونية ، من اليمين الى اليسار، ثم من اليسار الى اليمين ، ثم من اليمين الى اليسار ، أو العكس، وله أن يكتب من أعلى الى أسفل أو العكس وهكذا ، ثم ان حروفه غير متشابهة لذلك لم يعرف المسند الإعجام ، ولو كتب له ان يكون قلم المسلمين ليسّر لنا اليوم وقتاً ومالاً في موضوع الطباعة به . ولكنه أبطأ في الكتابة نوعاً ما من الخط العربي لشكل حروفه الضخمة بالنسبة الى الحروف العربية المختزلة ، فالخط العربي يمتاز عليه بهذه الناحية فقط . أما موضوع الشكل ، فالمسند غير مشكول،بل يكتب بحروف صامتة فقط .

وفي القرن التاسع عشر وما بعده كشف المستشرقون النقاب عن أقلام أخرى لم يعرفها علماء العربية ، هي : القلم الثمودي ، والصفوي،واللحياني . وكتابات أخرى كتبت بلهجات محلية عثر عليها في الجوف ، وفي الحجر وفي العلا، وفي مناطق أخرى كجبل شيحان ، وكوكبان ، وجبل شمّر ، لها بعض الخصائص والمميزات اللغوية . والظاهر ان خط هذه الكتابات كان مستعملاً بين السواد في الأمور الشخصية [١] .

أما القلم الثمودي ، فقد عثر على كتاباته في العربية الغربية ، وفي الجمهورية العربية السورية وفي المملكة الأردنية الهاشمية وفي الحجاز ، فقد عثر على كتاباته في مواضع متعددة من الحجاز ، فيما بين المدينة ومكة وعلى مقربة من الوجه والطائف ، وفي (ريع الزلالة) عند السيل الكبير على طريق الطائف

١ Grundriss, I, S. 147, Transaction of the 9th Inter. Congr. of Orientalists, Vol. I, p. 86, (London), 1893, Uber die Protoarabischen Inschriften, in Aufs und Abh., S. 41, 161, Saudarabische Chrestom., S. 6, Lady A. Blunt, A Pilgrimage to Nejd, London, 1881, Vol. 2.

مكة[١] . وعثر على كتابات ثمودية في (حائل) وأماكن أخرى من نجد وفي اليمن. وفي هضبات شبه جزيرة سيناء[٢] .

هذا وقد عثر على كتابات ثمودية كثيرة في (ريع الزلالة) (سيل الغربان)، الى الشمال من الطائف على مسافة أربعين كيلومتراً منها[٣] . وفي وادي (الاب)[٤] ، وفي مواضع أخرى من الحجاز ونجد ، مما يدل على انتشار الثموديين في مواضع واسعة من جزيرة العرب .

وأما القلم الصفوي ، فقد عثر عليه في منطقة الصفاة شرقي الشأم ، وفي بادية الشأم ، ولا يعني هذا ان هنالك قبائل كانت تسمى قبائل صفوية ، بل هو اصطلاح أطلقه المستشرقون على الخطوط التي وجدت في ناحية الصفاة ، وهي تشتمل على كتابات قريبة من كتابة لحيان وثمود . كما عثر على كتابات صفوية في مواضع من بادية العراق ، ويوجد عدد منها في ملك مديرية الآثار القديمة العامة في العراق[٥] . كما عثر على عدد كبير منها في المملكة الأردنية الهاشمية. وقد نشرت نصوص بعض منها في جريدة الآثار للمملكة الأردنية الهاشمية[٦] .

والموطن الرئيسي للكتابات اللحيانية هو منطقة العلا ، ولا سيا موضع(الخريبة) والصخور الواقعة الى شرقه ، حيث عثر فيها على مئات من الكتابات التي تعود

---

١ (عقبة الزلالة ، الواقعة بين مكة وبين الطائف ، وهي تنية ينحدر منها القادم من الطائف على السيل الكبير) ، الموضع المعروف قديما باسم (قرن المنازل) وتبعد عن هذا الموضع خمسة كيلومترات تقريبا وتقع في شرقيه ، وتسمى الآن (الريع الصغير) . وقد شاهدت بقربها بينها وبين السيل الكبير جبلا فيه كتابات كوفية قديمة . وحدثت بأن (فلبي) رأى في تلك الجهة تمثالا من الصخر منحوتا في الجبل يمثل رجلا واقفا ، وانه اطلع على كتابات قديمة في تلك الجهة) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ،

٢ نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، (ص ١٠٩) ، E. Littmann, Entzifferung der Thamudenischen Inschriften, 1904, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudische Schrift, Münster, 1926.

٣ A. Grohmann, Arabic Inscriptions, Louvain, 1962, p. 2.

٤ كتابات من الادب ، للدكتور عبدالرحمن الانصاري ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، المجلد الاول ، السنة الاولى (١٩٧٠) ، (ص ١١٣ وما بعدها) .

٥ راجع نشرات مديرية الآثار القديمة في العراق ومجلة سومر .

٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

الى شعب لحيان[1] .

والأقلام الصفوية والثمودية واللحيانية ، مثل المسند ، ليس لها علامات لا للفتح ولا للكسر ولا للضم ولا للاشباع ولا لاتحاد الفتحة والواو والبـــاء (أي الإمالة Diphthong) الخ ... كما ان حروفهـــا تأخذ صوراً متعددة ، فيرد الحرف الواحد في كل قلم من الأقلام المذكورة بصور مختلفة ، ولذلك تجابهنا صعوبات كبيرة في محاولتنا قراءة الكلمات والجمل قراءة صحيحة. ويحتاج القارىء الى مران طويل ودراسات للهجات العربية الأخرى لضبط الكلمات في هذه اللهجات، ومعرفة معانيها .

وقد لاحظ المستشرقون مشابهة كبيرة بين الأقلام المذكورة وبين المسند ، كما وجدوا هذه المشابهة بين عدد من الأقلام التي استعملت في غـــير جزيرة العرب والمسند،وبعد مقابلات بينها ودراسات ذهبوا الى تفرعها من المسند . وهذه الأقلام المذكورة كلها متأخرة عن المسند ، وتعود تواريخ قسم منها الى ما قبل الميلاد ، ومنها ما يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد .

ومما يلاحظ على هذه الأقلام اختلاف صور أكثر الحروف فيها ، فقد تكون للحرف صورتان ، وأحياناً ثلاث صور أو أكثر ، غير ان هذا الاختلاف ليس كبيراً في الغالب بحيث يتعذر معه تمييز أشكال الحرف الواحـــد ، ولا نجد فيها الوضوح والبساطة التي نجدها في المسند ، كما لا نجد فيها هذه الخطوط المستقيمة المنقوشة بدقة وعناية في الكتابات المعينية او السبئية او الحضرمية او القتبانيـــة او الحميرية ، فكأن كتّابهم كانوا يرون العجلة في الكتابة والاسراع في التسطير لضيق الوقت ، لذلك لم تكن حروفهم دقيقة واضحة .

وأما الأقلام التي تشبه حروفها المسند . واستعملت عند أقوام عاشوا في أقطار لم تكن من جزيرة العرب ، فمنها القلم الحبشي القديم ، وقد عثر على كتابات به في منطقة (يحا) (يها) Jeha ، وهي تمثل أقدم نماذج الكتابات الحبشية،وقلمها هو القـــلم السبئي القديم ، وفي (اكسوم) وتعود الى القرن الرابع للميلاد[2] ،

---

١ Ency. Vol. 3, p. 26, Müller, Epigraphic Denkmäler aus Arabien, XXXVII, 1889, Jaussen and Savignae ,Mission Archéologique en Arabie, I, Paris, 1909, p. 263, Vol. II, p. VIII-XIV, 27-77, 361-534, Lidzbarski, Ephemeris fur Semit. Epigraphic, II, 23-48, 345-361, III, 214-217, F.V. Winnet, A Study of Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

٢ السامية (٢٥٧) . Grundriss, I, S. 148.

وكتابات نصرانية كتبت باللهجة (الجعزية) وتعود الى القرن الخـــامس للميلاد[1] . وقد استعملت في هذه الكتابات الجعزية الأصوات مع الحروف ، وبذلك اختلفت عن الأبجديات السامية التي استخدمت الحروف الصامتة حسب ، وذلك بإضافة شيء يشبه الحركات في صلب الحروف يقرأ معها ولا تفهم هي بدونها[2] . ومع ذلك احتفظت بالأشكال الأصليـــة للحروف العربية الجنوبية ، ولم تبتعد عنها كثيراً . ويمكن إدراك أثر المسند في الكتابـــة الحبشية المستعملة في الوقت الحاضر دون كبير عناء .

وذهب كثير من المستشرقين الى أثر المسند نفسه أو بالواسطة في عدد من الأقلام الأخرى ، منها كتابات عثر عليها في إفريقية Meroitische Schrift في إحدى اللهجات الكوشية أو النوبية[3] . والخط البربري القديم الذي يعود الى أيام قياصرة رومة . والقلم البراهمي (Brahma Script – Devanagari Alphbet) ،حيث نلاحظ شبهاً كبير بين حروف هذا القلم والمسند.ولا يستبعد أثر المسند فيه ؛ لأن العلاقات بين العربية الجنوبيـــة والهند كانت قديمة جداً[4] .

يظهر أن المسند كان القلم الرئيسي في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن جزيرة العرب كانت تكتب به قبل المسيح . وأن أقلاماً تفرعت منه قبل المسيح وبعـــد المسيح ، لأسباب لا تزال غير واضحة ، وقد تكون لأشكال الحروف التي تتطلب دقة في الرسم علاقـــة بذلك ، فمال الكتّاب الى ابتكار أشكال مرنة لا تحتـــاج الى عناية في الرسم ، فاستخدموها في الكتابـــة لسهولتها . فتولدت منه الكتابات المذكورة .

---

١ Grundriss, I, S. 148, D.H. Muller, Epigr. Denkmäler aus Abessinien, Wien, 1894, Tafel, II, IV.

٢ السامية (٢٥٦) ،
Grundriss, I, S. 148, Glaser, Die Altabess. Inschr. von Marib, in ZDMG., Bd., 50, (1896), S. 468, Die Abessinier in Arabien und Afrika, München, 1895, S. 168.

٣ R. Lepsius, Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien, VI, Bd., I-II in Bd., XI, Grundriss, I, S. 149.

٤ Grundriss, I, S. 149, Isaac Taylor, The Alphabet, Vol. 2, p. 314, Georg Buhlets, Indian Brahma Alphabet, Wien, 1895, p. 2, Ency. Brit. I, p. 683.

أصل القلم المسند :

ذكرت أن أكثر المستشرقين رأوا أن القلم العربي الذي دوّن به القرآن الكريم، أخذ من القلم النبطي المتأخر . أما المسند ، فقد رأى كثير منهم أنــه اشتق من الأبجديات السامية الشمالية كــذلك[1] . وذهب بعضهم ان أنه تفرع من الأبجدية السينائية ومنهم من قال إن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت من نفس الأصل الذي أوجد الخط الفينيقي ، فهي لذلك من أقدم الأبجديات المعروفة[2] . ونحن إذا أنعمنا النظر في شكل الأبجدية الطورسينائية والمسند، نجدهما لا تتشابهان إلا في رسم حرفين أو ثــلاثة[3] . وتتكون الأبجدية الطورسينائية من اثنين وعشرين حرفاً كالفينيقيــة والعبرانية . أما الأبجدية العربية الجنوبية ، فتتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، أي بزيادة سبعة أحرف على أبجدية طور سيناء .

وحجة القائلين أن المسند قد أخذ من القلم الفينيقي ، وأن الأبجدية الفينيقية هي أقدم الأبجديات وأم الأبجديات[4].ولكننا إذا أنعمنا النظر في رسم حروف الأبجديتين، نجد التشابه بينهما في هيأة الحروف ورسمها ليس كبيراً ، كما أن الأبجدية العربية الجنوبية تزيد عليها في سبعة أحرف،وهذه الأحرف الزائدة لا تختلف عن الأحرف المشتركة بين الأبجديتين في هندسة الرسم والشكل . فلعل الأبجديتين قد تفرعتا من أصل واحد[5] ، فلا يعد المسند لذلك فرعاً نبت من الفينيقية .

وزعم نفر من الباحثين في تطور الخط أن المسند مشتق من القــلم الكنعاني ، ولكن بعض علماء العربية الجنوبية ينكر هذا الرأي . إذ يرى أن المسند أقدم عهداً من الأبجدية الكنعانية ، وأن الكتابات العربية الجنوبية أقدم زمناً من أقدم الكتابات الكنعانية،فلا يصح إذن القول بأن المسند مشتق من القلم الكنعاني . ومما يلاحظ على الأبجديتين ان الأبجدية الكنعانيــة يعوزها من الحروف : ذ ، ض ، ظ ، س (سامخ) ، ث ، غ . ولكن الأبجديتين تشتركان اشتراكاً تاماً في الحروف : ج ، ط ، ل ، ن ، ع ، ش ، ق ، ت ، و . وتختلفان في بعض الحروف

---

١ BOASOOR, NUM : 118, Aprll 1950, p. 13.

٢ Background, p. 11.

٣ Ency. Brita. I, p. 680.

٤ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 109, The Art of Writing, p. 11.

٥ Grundriss, I, S. 145.

اختلافاً كبيراً ، وليس بمستبعد أن تكون الأبجديتان قد تفرعتا من أصل واحد .

والرأي عندي ان من الصعب البت في الوقت الحاضر في موضوع أصل المسند، لأن صور الأبجديات القديمة الواصلة الينا لا تزال قليلة ، ولا نجد بين صورها وبين صور المسند تشابهاً كبيراً بحيث يمكن ان نستنبط من هذا التشابه حكماً يفيدنا في تعيين أصل المسند . والتشابه بين حروف قليلة لا يمكن ان يكون سبباً للحكم باشتقاق خط من خط . وعندي ان الأبجدية العربية الجنوبية تمثل مجموعة خاصة ، تفرعت من أصل لا نعرف من أمره اليوم شيئاً،لأن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات المعروفة ، فلننتظر فلعل المستقبل يكشف للعلماء النقاب عن أبجديات مجهولة [1] .

ولا يعقل بالطبع ان يكون أهل العربية الجنوبية قد أوجدوا خطهم من العدم، من غير استعانة بعلم مسبق عن الحروف والأبجديات ، بل لا بد ان تكون أبجديتهم قد أخذت من أبجدية أخرى ، ومن فرع من فروع الخط الذي أوجدته البشرية، ودليل ذلك ان أسماء الحروف الأساسية التي ترد في كل أبجدية هي واحدة ، وفي وحدة الأسماء دلالة على وجود أصل واحد ، تفرعت منه الخطوط. والمسند بالنسبة لنا ، هو خط قائم بذاته ، يشابهه الخط الحبشي ، ومن فروعه الأبجدية اللحيانية والثمودية والصفوية . فكل هذه الأبجديات هي من فصيلة واحدة رأسها المسند ، أما ما فوق المسند ، فلا نعرف من أمره أي شيء .

وفي المسند حرف لا وجود له في أبجديتنا يكون على هذا الشكل :

وهــو بين الزاي والسين ، ولذلك يجعله البعض سيناً حين ينقلون نص كتابــة عربية جنوبية الى عربيتنا ، او الى اللغات الأوروبية . كما يقرأ حرف الجيم (٦) « گما » في المسند على نحو نطق المصريين بهذا الحرف في لسانهم .

ومن القلم المسند أخذ الأحباش قلمهم الذي يكتبون به ، نقله اليهم السبئيون

---

١ السامية (٢٤٢ فما بعدها) ·

الذين هاجروا الى الحبشة قبل الميلاد وأقاموا لهم حكومة هناك وأثروا في الأحباش، فكان من تأثيرهم فيهم هذا القلم الحبشي .

وحروف المسند منفصلة غير متصلة ، أعني انها ليست كحروف الأبجدية التي نكتب بها ، بل الحروف فيها مستقل بعضها عن بعض غير متصل به . ولتمييز الكلمات بعضها عن بعض ، وضع الكتّاب خطوطاً مستقيمة عمودية تشير الى انتهاء الكلمة والى ابتداء كلمة جديدة . وتبدأ الكتابة عندهم من اليمين في العادة، وتنتهي في اليسار ، غير انهم قد يكتبون من اليسار أيضاً ، وينتهون بالسطر في اليمين . وقد يمزجون بين الطريقتين فيبتدئون في اليمين مثلاً وينتهون بالسطر في اليسار ، ثم يبدأون في السطر الذي يليه من اليسار ، وينتهون في اليمين ، ويبدأون بالسطر الذي يليه من اليمين لينتهي باليسار، ويبدأون في الثالث من اليسار وينتهون باليمين، وهكذا حتى تنتهي الكتابة . أما اذا ابتدأوا بالكتابة من اليسار ، فينتهون بالسطر في اليمين ، ثم يبدأون في السطر الثاني باليمين لينتهوا بـه في اليسار ، وليبدأوا بالسطر الثالث من اليسار ولينتهوا به في اليمين ، وهكذا يسيرون على هذا المنوال حتى تنتهي الكتابة . ويلاحظ ان لشكل حروفهم خاصية جعلتها تصلح لأن يكتب بها في أول الكلمة او في وسطها او في أواخرها من دون حاجة لاجراء اي تعديل على جسم الحرف العام ، لأنها حروف منفصلة غير مربوطة . وهي تمتاز من هذه الناحية عن حروف أبجديتنا ، التي ترتبط فيها الحروف ، فتستعمل حرف العين مثلاً في أول الكلمة بصورة تختلف عن صورة هذا الحرف اذا استعمل في الوسط، وتستعمل هذا الحرف في آخر الكلمة بصورة تختلف عن استعماله في أول اللفظة او في وسطها ، أي انها تحدث تغييراً على جسم الحرف . ولهذه الخاصية صار في الامكان الابتداء بحروف المسند من أية جهة أراد الكاتب أن يكتب بها من ناحية اليمين او من ناحية اليسار ، او بالجمع بين الطريقتين من غير أي تأثير في قابلية القارىء على القراءة ، كما صار من السهل على المبتدىء بالكتابة والقراءة تعلم الخط بالمسند بكل سهولة ، لوجود شكل واحد لا يتغير للحروف . فهو لهذا صار أسهل تعلماً من الخط الذي نكتب به الآن ذي الأشكال المتعددة الحروف، كما انه خال من التنقيط الموجود في عربيتنا لتمييز الحروف المتشابهة في هذا الشكل بعضها عن بعض ؛ وهو مما سبب لنا مشاكل خطيرة في كيفيـة ضبط الحروف والألفاظ ؛ عند وقوع التصحيف ، بسقوط نقطة من الكتابة سهواً ، او بوضع

النقطة في موضع يجب ألا توضع فيه ، او بوقوع سهو في عدد النقط .

وقد راعى الكتاب استعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات مراعاة تامة ، لأنها هي العلامة الوحيدة التي ترشد القارىء الى انتهاء لفظة وابتداء لفظة جديدة، ولم يخطر ببالهم وضع فراغ بين نهاية كلمة وابتداء كلمة جديدة ، أو لأنهم لأمر ما لم يستعملوا هذا الفراغ خشية حصول التباس قد يفسد على القارىء قراءته ، وقليلاً ما خالف كتابهم هـذه الطريقة فأغفلوا وضع هذه الأعمدة الفاصلة . ولم يستعمل كتابهم علامةً ما دالة عـلى انتهاء جملة وابتداء جملة أخرى جديدة أو انتهاء فصل وابتداء فصل جديد ، كذلك لم يستعملوا ما نستعمله نحـن في الزمن الحاضر من علامات فواصل لأداء معاني خاصة يقتضيها الكلام وعلامات استفهام، لأن هذه الأشياء من الأمور المتأخرة التي أدخلت على الكتابات الغربية ، ولم تكن معروفة عند الأقدمين .

وحروف المسند حروف غير مشكلة ، فليس فوقها أو تحتها حركات كما هي الحال في عربيتنا حين نرغب في تحريك الحروف . وهي غير منقطة كـذلك فلا نقط فوق بعض الحروف أو تحتها لتمييزها عن غيرها من الحروف المشابهة لها كما هي الحال في أبجديتنا أيضاً ، ولم يرمز عن الحركات بحروف أو برموز تستعمل مع الحروف الصامتة داخل الكلمة ليتمكن بها القارىء من النطق بالكلمـة النطق الصحيح كما حدث ذلك في الأبجديات اللاتينية، وفي الأبجديات الأخرى التي سارت على نهجها وسبيلها،ولم يرمزوا عن حرف المدّ بشيء ولا عن السكون أو التشديد . وهذا مما جعلنا في حيرة من النطق بكلماتهم نطقاً صحيحاً مضبوطاً ، وجعل القارىء الحديث يذهب مذاهب مختلفة في كيفية ضبط الكلمة وفي كيفية النطق بها . فلفظة مؤلفة من حروف صامتة وحدها ، لا يمكن أن ينطق بها النطق الصحيح المضبوط ولا يمكن معرفة معانيها بسهولة ، وقد ولّدت هذه الطريقة مشكلات كثيرة لنـا من حيث التوصل الى معرفة نحو تلك اللهجات وصرفها[1] .

ولا توجد في المسند علامة لتشديد الحرف ، وقد يكتب الحرف مرتـين كما هي الحال في الأبجديات الأوروبية للدلالة على أن الحرف مشددٌ ، ويكـون ذلك في الكتابات المعينية[2] .

---

١ غويدي ، المختصر (ص ٣) .
٢ المصدر نفسه .

واقتصار الكتّاب على استعمال الحروف الصامتة وحدها ، جعل من العسير علينا البت في كيفية النطق بالكلمات والتعرف بسهولة على مواضع الكلم من الإعراب .

ولولا الاستعانة باللهجات العربية الباقية المستعملة في اليمن،وبلغة القرآن الكريم، وبالمعجمات ، وباللغة الحبشية ، لكان من الصعب على القارئين للكتابات العربية الجنوبية التوصل الى فهم معانيها والى قراءتها قراءة مضبوطة أو قريبة من القراءة الصحيحة ، والتوصل الى استخراج القواعد منها . فبفضل هذه المواد المساعدة ، تمكنا من الوصول الى ما توصلنا اليه عن تلك اللهجات المكتوبة بالقلم المسند[1] .

ومن جملة المسائل التي جعلت فهم النصوص العربية الجنوبية أمراً صعباً على الباحث في بعض الأحيان ، اشتمالها على اصطلاحات غير موجودة في العربية، وعلى كلمات غير موجودة في اللغات السامية الأخرى ثم إن بعضها قد كتب كتابة موجزة صيرتها غامضة غير مفهومة ، ولهذا اضطر علماء العربيات الجنوبية الى تلخيص معناها على وجه التقريب[2] .

ومما يؤسف عليه كثيراً أن كتبة المسند لم يتركوا لنا كتابة تشير الى ترتيب حروف الهجاء عندهم ، وأسمائها التي كانت تعرف بها عند قرّائهم وكتّابهم . وعدم وصول كتابة بهذا الموضوع منهم إلينا ، خسارة كبيرة ، إذ أصبح من الصعب التحدث عن كيفية ظهور الخط بين العرب الجنوبيين وعن صلاته بالخطوط الأخرى ، وبنا أشد الحاجة الى معرفة كيفية توصل الإنسان الى هذا الاختراع العظيم الذي غيّر تأريخ البشرية وأحدث فيها انقلاباً لا يدركه المرء إلا إذا تصور البشرية وهي جاهلة لا تحسن قراءة ولا كتابة ، فما الذي كان يمكن ان نعرفه لولا وجود هذه العلامات الصغيرة المحدودة التي نسميها حروفاً والتي نكتب بها وندوّن بها كل ما يجول في خواطرنا من آراء دون أن نعرف عظم قيمة هذه العلامات التي ميزت الانسان عن الحيوان ، ورفعته عنه الى أعلى الدرجات !

ولو قدر للعلماء الحصول على ألواح فيها الأبجديات مرتبة بحسب الطريقة التي كانت تسير عليها الشعوب القديمة في تعلمها ، وخاصة اذا كانت مقرونة بأسمائها التي كانت تعرف بها ، لصار في وسع العلماء التوصل الى نتيجة علمية مقبولة

---

١ Hofner, S. 15.

٢ ونفنسون ، السامية (٢٤٦) .

بشأن نشأة الخط وتطوره . فإن في استطاعتهم عند ذاك الحكم — من نظرهم الى أقدم هذه الكتابات والى أصول كلمات المسميات — على أقدم مكان ظهرت فيه تلك الكتابة ، وعلى تعيين اسم الشعب الذي كان له شرف هذا الاختراع . وهو اختراع لم يظهر بالطبع فجأة الى العالم ، أي انه لم يكن من ابتكار رجل واحد فاجأ الناس به ، بل هو اختراع مرت عليه قرون حتى بلغ ما بلغه من شكل الحروف . مرّ في مراحل كثيرة بدائية في بادىء الأمر ، ثم انتقل من تلك الأشكال الى أشكال أرقى منها ، حتى اهتدى عقل الانسان الى معرفة الحروف . ولم يتوصل بالطبع الى هذه المرحلة بسهولة ، إذ يقتضي ذلك وجود علم عند الانسان عن تكون الكلمات من حروف ،وهو لم يتوصل الى هذا العلم إلا بعد تعب استمر قروناً ، وبتعاون كتّاب مختلف الشعوب لتحليل كلمات الانسان الى عناصرها الأولى ، وعناصرها الأولى هي هذه الحروف .

وقد كان من الضروري وضع أسماء للحروف ، ليميز بها حرف عن حرف آخر . وقد وضع مخترعو الحروف تلك الأسماء ، وهي أسماء لا تزال البشرية تعيدها مع شيء من الاختصار والتحريف ، وقد يمكن التوصل من تلك الأسماء الى أسماء تلك الشعوب القديمة التي ساهمت وعملت في ترقية ذلك الاختراع العظيم . فإن لتلك الأسماء علاقة وصلة بمسميات مادية ، وبالامكان تشخيص مواطن تلك المسميات بالرجوع الى الأماكن التي عرفت واشتهرت بها ، ومن ثم نتوصل الى تعيين تلك الشعوب على وجه التقريب .

وتختلف أشكال حروف المسند اختلافاً كبيراً عن حروفنا المألوفة التي نكتب بها . ولما كانت هذه الحروف حروفاً منفصلة غير متصلة كما هي الحال في حروفنا، فهي لذلك في أثناء كتابة الكلمات لا تتصل ببعضها ولا يلتقي فيها حرف بحرف آخر . ولهذا السبب كان شكل الحرف في المسند لا يتبدل ولا يتغير بتغير موضعه في الكلمة ، بل يحافظ على وضعه في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، إلا في بعض الأحيان حين يكتبون من اليسار نحو اليمين ، فيغيرون اتجاه الحرف بأن يجعلوه نحو اليمين .

وقد يتحد حرف النون الساكن مع الحرف الذي يليه ويسقط من الكتابة، ففي كلمة (بنت) أسقط الكتّاب حرف النون من الكلمة ، واكتفوا بهذا الشكل : (بت) أي بالحرفين الباء والتاء [1] .

---

١ غويدي (ص ٤) .

والى القارىء أشكال حروف المسند مرتبة على ترتيب حروف الهجاء التي نسير عليها في زمننا :

ا
ب
ت
ث
ج
ح
خ
د
ذ
ر
ز
س
ش
ص
ض
ط
ظ
ع
غ
ف
ق
ك
ل
م
ن
هـ
و
ى

: وليس لهذا الحرف مقابل في عربيتنا وهو بين السين والزاي

ولا توجد في المسند تاء قصيرة ، أي التاء التي نكتبها تاء قصيرة في أواخر الكلم . فالتاء هي تاء طويلة أبداً ، وردت في أول الكلمة ، أو في وسطها ، أو في آخرها ، فلفظة (سنة) تكتب (سنت) ، و (عمرة) ، اسم امرأة ، يكتب (عمرت) ، وهكذا .

وهناك كتابات برزت حروفها ، وذلك ان كاتبها خطها على الحجر أولاً ، ثم حفر ما حولها وفي باطنها بمزبر صلد ، أو بسكين أو بآلة حادة ، فظهرت الكتابة بارزة ، وقد استخدمت مثل هذه الكتابات لتوضع على أبواب المعابد وعلى واجهات الدور وفي المناسبات التذكارية، كما فعل الاسلاميون في كتاباتهم التخليدية التي وضعوها على واجهات القصور والمساجد والأبنية المهمة،أما الكتابات المحفورة فقد استخدمت في الأعمال الاعتيادية في الغالب ، وهي أسهل في الكتابة من الكتابة البارزة ، ولا تحتاج الى وقت طويل يصرفه الكاتب على الحفر لابراز الحروف .

وأما الفاصل الذي يفصل بين الكلمات ، فهو على هذا الشكل :

▌

ويعبر عن العدد من الواحد الى الأربعة بخطوط عمودية ، فيرمز الخط العمودي الواحد عن (الواحد) ، ويرمز الخطان العموديان المتوازيان عن الرقم (٢) ، وإذا أرادوا كتابة الرقم (٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية متوازية للدلالة عليه . أما الرقم (٤) ، فيمثل بأربعة خطوط عمودية متوازية . وأما الرقم (٥) فيرمز عنه بالحرف (خ) الذي هو الحرف الأول من كلمة (خمس) . وإذا أرادوا الإشارة الى الرقم (٦) وضعوا خطاً عمودياً على الجانب الأيسر لحرف (الخاء) الذي يرمز عن الخمسة ، ومن هذا الحرف والخط العمودي الكائن مكانه في موضع العشرات بالقياس الى حسابنا يتكوّن الرقم (٦) . وإذا أرادوا الرقم (٧) وضعوا خطين عموديين على الجانب الأيسر للحرف خمسة ، فيعبر هذا المجموع المكون من الخاء ومن الخطين العموديين المستقيمين عن الرقم (٧) . وإذا أرادوا الرقم (٨) ، وضعوا على الجانب الأيسر من الحرف خاء ثلاثة خطوط تشير الى الرقم(٣) ، فيتكون بذلك من حرف الخاء الذي يرمز عن الخمسة ومن الثلاثة،المجموع ثمانية، وهو الرقم المطلوب . أما الرقم (٩) ، فيتكون من مجموع رقم (٥) الذي يرمز عنه الخاء ومن الرقم (٤) الذي تمثله خطوط عمودية أربعة . وأما الرقم عشرة ، فيرمز عنه بحرف العين الذي يمثل الحرف الأول من كلمة عشرة . وأما الرقم (١٠٠) فيرمز عنه بالحرف الأول من الكلمة مئة ، أي بحرف الميم . وأما الرقم (١٠٠٠) فرمز عنه بالحرف ألف ، أي بالحرف الأول من الكلمة أيضاً، فيلاحظ

من هنا أن العرب الجنوبيين استعملوا الحروف الأولى من أسماء بعض الأرقام عوضاً عن الأرقام نفسها،ولم يتبعوا الطرق التي نتبعها اليوم في كتابة أمثال هذه الأعداد .

والظاهر ان استعمالهم حرف الخاء مقام العدد (٥) ، جعلهم يحارون بعض الحيرة في التعبير عن العدد (٥٠) الذي يبدأ مثل العدد (٥) بحرف الخاء ، فتخصيص هذا الحرف بالعدد (٥) جعل من غير الممكن تخصيصه بالعدد (٥٠) كذلك . ولما كان من الصعب كتابة الـ (٥) عشر مرات للتعبير عن العدد (٥٠) الذي هو حاصل جمع عشر خمسات خاصة لأن هذا العدد يتضاعف ويتكـــرر ، فكروا في حل آخر يحل لهم هذه المشكلة . مشكلة ايجاد حرف أو علامة ترمز عن الرقم (٥٠) . وقد وجدوا ذلك الحل من حقيقة العدد (٥٠) الرياضية . فالعدد (٥٠) هو نصف الـ (١٠٠) كما هو معلوم . ولما كان حرف الميم يرمز عن المئة ، والمئة هي حاصل جمع خمسين مع خمسين ، فيكون حرف المـــيم هو حاصل جمع خمسين مع خمسين . ولما كان حرف الميم في المسنـــد هو على شكل خط عمودي يرتكز عليه مثلثان قاعدتهما ملتصقة على ذلك العمود ، فإن كل مثلث من ذينك المثلثين يعبر في الواقع عن الرقم (٥٠) ، فهداهم تفكيرهم هذا الى رفع المثلث الأسفل ليبقى مثلث واحد هو المثلث الأعلى مرتكزاً على الخط العمودي، ليعبر عن قيمته المتبقية وهي خمسون ، وصار هذا الرمز الذي هو نصف حرف الميم رمزاً عندهم للعدد (٥٠) . وبذلك أوجدوا لهم حلاً لتلك المشكلة التي لا بد انها شغلت بال كتابهم مدة من الزمن .

وأما الأعداد التي تلي العشرة فيبدأ بها بحرف العين أولاً ومعناه عشرة ، ثم تليه بقية الزيادة أي مقدار زيادة ذلك العدد عن العشرة. فإذا أرادوا الرقم (١١) مثلاً بدأوا بحرف العين ، ثم وضعوا بعده أي على يساره خطاً عموديـــاً واحداً بمعنى واحد ، ويكون المجموع أحد عشر . أما اذا أرادوا الرقـــم (١٢) ، فإنهم يضعون مستقيمين عمودين على يسار حرف العين ليدل ذلك على عشرة زائد اثنين وهو اثنا عشر . واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية مستقيمة لتدل عليه . أما اذا أرادوا (١٤) فإنهم يضعون أربعة خطوط عمودية ، ليكون مجموعها مع العشرة أربعة عشر . أما اذا أرادوا (١٥) ، فإنهم يكتبون حرف العين ثم يضعون من بعـــده وعلى جهة يساره حرف الخاء الـــذي هو بمعنى خمسة . واذا أرادوا (١٦) وضعوا بعد حرف العين ما يرمز عن الستة ، وهكذا بقية الأعداد

الى العدد (١٩) . أما العدد (٢٠) فإنهم يكنون عنه بكتابة حرف العين مرتين ، ومعنى ذلك عشرة مضافاً اليها عدد عشرة والجمع عشرون. واذا أرادوا الرقم (٢١) كتبوا حرف العين مرتين ليرمز عن العشرين ثم وضعوا خطاً عمودياً واحداً على جهة يساره ليرمز عن الرقم (١) ، فيكون المجموع عشرين وواحداً ، وهكذا يكتبون بقية الأعداد ابتداء بالعشرين أي بحرفي العين مضافاً العدد المقصود حتى الرقم (٣٠) فيضعون له ثلاثة أحرف من حرف العين . أما الـ (٤٠) فيضعون له أربعة أحرف من حرف العين ، ثم يستمرون على طريقتهم في العدد بعد الأربعين على الطريقة المألوفة في الابتداء بالعدد العشرات ، ثم كتابة الرقم المقصود الذي هو دون العشرة من بعده الى الرقم التاسع والأربعين . فإذا أرادوا الرقم (٥٠) وضعوا الرمز الخاص الذي تحدثت عنه ، وهو نصف حرف الميم . أما الرقم (٦٠) فيرمز عنه بهذا الرمز ، أي نصف حرف الميم مضافاً اليه الحرف عين رمز العشرة ليشير الى مجموع العددين وهو ستون . أما الرقم (٧٠) فيتكون من هذا الرمز مضافاً اليه حرفان للعين . وأما الرقم (٨٠) فيكون بإضافة ثلاثة أحرف عين على الجهة اليسرى للرقم (٥٠) . وأما الرقم (٩٠) فيتكون من رمز (٥٠) مع إضافة أربعة أحرف عين اليه .

وتكتب الأرقام ما بعد المئة الى الألف على الترتيب الآتي : يكتب الحرف رمز المئة في الأول ، ثم يوضع الرقم الذي يلي المئة على جهة يساره على النحو الذي شرحته الى حد الرقم (١٩٩) فإذا أرادوا كتابة (٢٠٠) كتبوا حرفي ميم ، وإذا أرادوا (٣٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٤٠٠) وضعوا أربعة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٥٠٠) وضعوا خمسة أحرف من حروف الميم، وهكذا تزاد كتابة الميم بزيادة عدد المئات حتى تصل الى تسع، ويكون الرقم عندئذ تسع مئة . أما الألف، فيرمز عنه بحرف الألف كما ذكرت .

وطريقة التعبير عن الأعداد في حالة الآحاد وفي العشرات وفي المئات هي طريقة واضحة مفهومة بعض الفهم كما رأينا ، إذ عبر عن الأرقام من واحد الى أربعة بخطوط مستقيمة ، وعبر عن الخمسة بحرف الخاء تزاد عليه خطوط بزيادة الأرقام المطلوبة، حتى تصل الى الرقم (١٠) ، فيعبر عنه بحرف عين . وفي باب العشرات يقدم حرف العين الذي هو عشرة على الأرقام المقصودة التي هي دون العشرة ، وتتبع هذه الطريقة الى المئة . أما في حالة المئات الى الألف فيبتدىء العدد بالمئات،

ثم تليه العشرات ، فالآحاد ، فهـو في نفس المبدأ الذي وضعه علماء الرياضيات عندهم للعشرات ، أي على قاعدة تفضيل العدد الأكبر من ناحية العدّ على العدد الأصغر ، فقـدموا العشرات على الآحاد ، وقدموا المئات على العشرات ، ثم الآحاد . أما في حالة الاعداد الالوف ، فلم يتقيد كتّاب حساباتهم بهذه القاعدة ، بل ساروا على طرق أخرى ، فكتبوا حروف الالف بعـد الاعداد الالوف التي أرادوا كتابتها . فللتعبير عن ألفين وضعوا حرفي ألف ، وهمـا مجموع ألف مع ألف أخرى، وللتعبير عن ثلاثة آلاف وضعوا ثلاثة أحرف ألف ، وهكذا ساروا في كتابة بقية الاعـداد الآلاف . غير أنهم ساروا على طريقة أخرى في كتابة العدد ستة عشر ألفاً مثلاً . فوضعوا ستة أحرف ألف ، ووضعوا الى الجـانب الأيسر من الحرف الألف الأخير الحرف عين رمز العشرة ، وقـد رمزت العشرة هنا عن العدد (١٠٠٠٠) ، ورمزت الحروف الستة عن (٦٠٠٠) ، ومن مجموع الستة آلاف والعشرة آلاف يتكون العدد (١٦٠٠٠) . وفي كتابة العدد(٣١٠٠٠) كتبوا حرفاً واحداً من حروف الألف ليدل على الرقم ألف ، ووضعوا على الجهة اليسرى منه ثلاثة أحرف عين وتعني ثلاثين ألفاً . ومن الألف والثلاثين ألفاً يتكون العدد (٣١٠٠٠) . أما في حالة كتابة الرقم (٤٠٠٠٠) ، فقد اكتفوا بكتابة أربعة أحرف من حروف العين ، مع أن هذه الأحرف تعني مجموع أربعـع عشرات ، أي أربعين ، بينما أرادوا بهذه الأحرف العدد (٤٠٠٠٠) في هذا الموضع . أمـا في رقم مثل (٤٥٠٠٠) ، فقد كتبوا خمسة أحرف من حروف الألف أولاً ، ثم وضعوا أربعة أحرف من العين في أيسر آخر ألف ، والمجموع هو خمسة آلاف وأربعون ألفاً . وفي الرقم (٦٣٠٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من (الألف) لتعني ثلاثة آلاف ، ووضعوا نصف حرف ميم وهو رمز الخمسين ، وفي أيسره حرف العين رمز العشرة، وبذلك عبروا عن الستين . ولورود هذا الرقم بعد عدد آلاف قصدوا به ستين ألفاً . ومن مجموع ثلاثة آلاف والستين ألفاً ، يتكون العدد ثلاثة وستون ألفاً . وقد اكتفوا في كتابة الرقم (١٥٠٠٠٠) بكتابة الرمز الخمسين وهو نصف حرف ميم ، ووضعوا الى الأيسر منه حرف ميم رمز المئة ، وقصدوا بذلك خمسين ومئة ألف . ولو كانوا قـد كتبوا حرف الميم أولاً ، ثم وضعوا نصف حرف الميم الى يساره ، لكان حاصل جمع العددين خمسين ومئة . وبتقديم نصف حرف الميم وبتغيير اتجاه مثلثي حرف الميم ومثلث نصف حرف الميم بجعله نحو اليمين،

عبروا عن الرقم (١٥٠٠٠٠) . أما في كتابتهم الرقم ٢٠٠٠٠٠ ، فقد كتبوا ميمين ، وقد عبر كل ميم في هذا الموضع عن مئة ألف .

ويرى بعض المتخصصين بقراءة النصوص العربية الجنوبية ان كتّاب المسند لم يتركوا كتابة حروف الألف التي تشير الى الأعداد الآلاف إلا إذا كان العدد مدوراً ، وآلافاً خالية من الأرقام الآحاد ، كما رأينا في الرقم (٤٠٠٠٠) ، و (١٥٠٠٠٠) ، و (٢٠٠٠٠٠)[١] .

وقد سار كتّاب المسند على قاعدة كتابة الرقم لفظاً ، أي كتابة مقداره بالكلمات ، وتدوين المقدار المكتوب بعد الرقم ، وقد حملهم على اتباع هذه الطريقة خوفهم من الوقوع في الخطأ في قراءة الأرقام والرموز التي خصصوها بالأرقام ، كما انهم اصطلحوا على رسم مستطيل تتخلله خطوط تجعله على هيأة شباك تقريباً ، يوضع في أيمن الرقم ، أي قبل ابتدائه ، ومستطيل آخر يوضع في يسراه أي في نهاية الرقم تماماً للدلالة على ان ما هو مكتوب بين هذين الرقين هو عدد ، وبذلك تسهل قراءته .

ولم يصل الينا ان كتّاب المسند استخدموا علامات خاصة بكسور الأعداد ، كالأنصاف أو الأرباع أو الأثلاث أو الأخماس أو ما شاكل ذلك ، او انهم استعملوا علامات خاصة للجمع او الطرح او القسمة او الضرب او علامات للتربيع او للجذور وأمثال ذلك من العلامات المستعملة في علوم الرياضيات . وقد عبروا عن كسور الأعداد بذكر ألفاظها . واذا لم تصل الينا كتابات في موضوعات رياضية ، فلا نستطيع ان نجزم في موضوع أمثال هذه العلامات عند العرب الجنوبيين . فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات رياضية ترينا ان رياضي العرب الجنوبيين كانوا أرقى كثيراً مما نظن الآن .

وللوقوف على صور الأعداد عند العرب الجنوبيين أدون نماذج من الأرقام ، مقرونة بما يقابلها من الأرقام التي نستعملها عندنا في الحساب :

---

١ Hofner S. 15.

١ = |	٢٠ = oo
٢ = ||	٢١ = |oo
٣ = |||	٢٢ = ||oo
٤ = ||||	٢٣ = |||oo
٥ = Ψ	٢٤ = ||||oo
٦ = |Ψ	٢٥ = Ψoo
٧ = ||Ψ	٢٦ = |Ψoo
٨ = |||Ψ	٢٧ = ||Ψoo
٩ = ||||Ψ	٢٨ = |||Ψoo
١٠ = o	٢٩ = ||||Ψoo
١١ = |o	٣٠ = ooo
١٢ = ||o	٤٠ = oooo
١٣ = |||o	٥٠ = ◥
١٤ = ||||o	٦٠ = o◥
١٥ = Ψo	٧٠ = oo◥
١٦ = |Ψo	٨٠ = ooo◥
١٧ = ||Ψo	٩٠ = oooo◥
١٨ = |||Ψo	١٠٠ = Σ ، ⋈
١٩ = ||||Ψo	٢٠٠ = ΣΣ ، ⋈⋈

= ٣٠٠
= ٤٠٠
= ٥٠٠
= ٦٠٠
= ٧٠٠
= ٨٠٠
= ٩٠٠
= ١٠٠٠
= ٢٠٠٠
= ٣٠٠٠
= ٤٠٠٠
= ٥٠٠٠
= ٨٠٠٠
= ١٢٠٠٠
= ١٦٠٠٠
= ٢١٠٠٠
= ٤٠٠٠٠
= ٤٥٠٠٠
= ٦٢٠٠٠
= ١٠٠٠٠٠
= ٢٠٠٠٠٠

وأما الفواصل التي تشير الى الأرقام وتوضع في أول الرقم وعند منتهاه، فهي على هذا الشكل :

ومادة الكتابة عند العرب الجنوبيين ، هي الحجارة والصخر والخشب والمعادن، يكتبون عليها بالحفر ، ولم أسمع أن أحداً من الآثاريين حتى الآن عثر على كتابات بالمسند مدوّنة بالحبر على القراطيس والجلود والرق أو على ورق البردي على نحو ما كان يفعله المصريون وغيرهم . والظاهر أنهم لم يكونوا يتبعون طريقة كتّاب بابل في الكتابة على ألواح الطين التي تجفف بعد ذلك بالشمس أو بالنار ، فتكون كتابة ثابتة مدوّنة على مادة صلبة ، لأن الباحثين لم يعثروا عـلى كتابات بالمسند مدونة على هذه الطريقة .

غير ان عدم وصول كتابات بالمسند مدونة على القراطيس او الجلود ، لا يعني ان العرب الجنوبيين لم يكونوا يعرفون الكتابة عليها وعلى مواد مشابهة لهـا ، إذ لا يعقل عدم وقوف العرب الجنوبيين على استعمال الجلود والقراطيس وعظام الحيوانات مادة للكتابة ، وقد كان استعمالها في العالم يومئذ شائعاً معروفاً . ومـردُّ السبب في عدم وصول شيء من الكتابات المدونة على تلك المواد ، الى قابلية هذه المواد للتلف ، وحاجتها الى العناية الشديدة ، بدليل عدم وصول شيء ما من الكتابات المدونة على الجلود وعلى جريد النخل وعلى اللخاف والعظام والقراطيس من صدر الاسلام ومن أيام الرسول خاصة مع أهميتها وقدسيتها . وليس في استطاعة أحد أن ينكر ان القرآن الكريم قد كتب على هذه المواد المذكورة ، وان الرسول قد أمر فكتبت له عدة كتب وعقود ومواثيق ، ولكن بادت أصولها .

والبحث في أصل المسند مثله في أصل الخط، ما زال موضع جدل بين العلماء الباحثين في العربيات الجنوبية . فمنهم من يرجع أصله الى الخط الفينيقي ، ومنهم من يرجعه الى كتابات سيناء حيث عثر فيها على كتابات قديمة جداً يعدّها الباحثون أقدم عهـداً من الكتابات العربية الجنوبية ، وقد وجد بين بعض حروف هـذه الكتابات وحروف المسند شبه جعلهم يذهبون الى اشتقاق المسند من خطوط سيناء [1].

١ Driver, Semitic writing from Pictograph to Alphabet, London, 1954, pp. 123.

ومنهم من يذهب الى اشتقاق المسند من الخط الكنعاني، للتشابه بين بعض حروف الخطين . وللتوصل الى معرفة منشأ الخط المسند ، لا بد من تعيين تأريخ لأقدم كتابة مدونة بالمسند ، ولم يتفق العلماء على تأريخ ثابت معين . انما رجع بعضهم تأريخ أقدم الكتابات الى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد ، على حين لم يرتفع آخرون بتأريخ أقدم كتابة عثر عليها بالمسند الى أكثر من ٧٠٠ أو ٨٠٠ قبل الميلاد . ولضبط هذا التأريخ أهمية جد عظيمة في البحث عن أصل منشأ ذلك الخط . ثم انه لا بد في تعيين أصل الخط المسند من النص على أسماء الحروف نصاً ليس في أمره شك ، ثم لا بد أيضاً من النص على نظام ترتيب حروف المسند عند العرب الجنوبيين . وكل هذه الأمور غير متفق عليها ، واذن فليس من الممكن في مثل هذه الظروف التوصل الى حل علمي يوافق عليه جميع الباحثين في العربيات الجنوبية .

واذا كان أغلب الكتابات في موضوع واحد ، هو التقرب الى الآلهة بهدايا وبنذور ، كان أسلوبها يكاد يكون واحداً ، فهي تبدأ عادة باسم المهدي أو بأسماء المهدين ، ثم يعقب ذلك فعل يشير الى التقديم مثل استعمال فعل قدّم أو أهدى وما شاكل ذلك من أفعال مناسبة ، ثم اسم الإلَه أو أسماء الآلهة التي قدمت لها الهدايا ، يليها بيان السبب الذي من أجله قدمت ، مثل شفاء من مرض أو وفاء لنذر ، أو طلباً من الإلَه أو الآلهة ان تطيل عمر المهدي ، أو تشفيه من مرضه، أو لتحل له مشكلاً وقع فيه أو مشكلات تحيط به .

القلم اللحياني :

ومن القلم المسند اشتق القلم اللحياني ، والقلم الثمودي ، والقلم الصفوي، وذلك لأن القلم المسند متقدم في الوجود على هذه الأقلام ، فلا يمكن أن يكون قد أخذ منها . ثم إن المناطق التي وجدت فيها الكتابات اللحيانية والكتابات الثمودية ، كانت في حكم المعينيين والسبئيين ، بدليل عثور العلماء على كتابات معينية فيها . وهذه الكتابات أقدم عهداً من الكتابات اللحيانية والثمودية ، ولذلك ذهب الباحثون في اللحيانيات والثموديات الى اشتقاق خطها من الخط المسند .

ولم ينقل أهل أعالي الحجاز القلم المسند نقلاً تاماً ، بل عدّلوا بعض حروفه

وغيّروا فيها بعض التغيير . فظهر من ذلك القلمِ القلمُ اللحياني والقلم الثمودي ، غير أننا نجد أن كتابات القلم اللحياني تختلف بعض الاختلاف . وقد قسّمها (ورنر كاسكل) الى نوعين : كتابات لحيانية متقدمة ، وكتابات لحيانية متأخرة . وقد بني تقسيمه هذا على أساس قدم الكتابات وتأخرها في التأريخ . والواقع أننا نجد الكتّاب قد تحرروا في كتابة حروفهم في جميع العهود ، في العهد المتقدم وفي العهد المتأخر ، بحيث لم يتركوا لنا مجالاً للأخذ بهذا التقسيم . فنراهم وقد كتبوا بعض الحروف بأوضاع قد تزيد على الخمسة . غير أننا إذا ما تصفحنا هذه الحروف المختلفة الأشكال،لا نجدها تختلف اختلافاً بيناً ، إنما يرجع هذا الاختلاف في الواقع الى ضعف وقوة يد الكاتب الذي حفر تلك الكتابات على الحجارة أو الخشب أو المواد الأخرى التي حفر الكتابة فيها . فمنهم من كان قوياً في حفره للحروف ، ومنهم من كان ضعيفاً ، فبان هذا الاختلاف في هيئات رسم الحروف. ومن هنا أرى ان اختلاف صور الحروف ، لا يدل حتماً على تطور الخط ، بقدر ما يدل على مهارة أو ضعف الكاتب في الكتابة .

والقلم اللحياني مثل المسند خال من الشكل ، وخال من الرموز أو الحروف التي تشير الى المدّ أو التشديد أو الإشباع أو الإشمام أو الإمالة وما شابه ذلك . وقد أوجد هذا النقص لقراء الكتابات اللحيانية مشكلات كثيرة في فهمها وفي ضبط الكلمات والأسماء فيها . فلفظة (زد) مثلاً المكتوبة بحرفين ، قد تقرأ على أشكال مختلفة ، قد تقرأ (زَد) و (زِد) و (زُد) و (زاد) و(زَيْد) و (زود) ، الى غير ذلك من أشكال . وهي قد تكون اسماً ، كما قد تكون فعلاً أو مصدراً ، وعلى القارىء استخراج نوعها من موقعها في الجملة ومن مقتضى الحال . ومثل ذلك عن (شم) التي تعني (شيم) اسم رجل ، و(كتب) بمعنى (كاتب) اسم رجل أيضاً ، مع أن للكلمة عدة معان يفهمها الانسان من موقع اللفظة في النص .

ولم يتقيد كتّاب الكتابات اللحيانية تقيداً تاماً بكتابة الفواصل العمودية التي تستعمل للفصل بين الكتابات ، كما تقيد بها كتّاب المسند . غير أنهم لم يسيروا في كتاباتهم على وتيرة واحدة . فنراهم يخالفونها أحياناً فيفصلون الألفاظ بفواصل. وقد رفعت الفواصل عن الألفاظ المؤلفة من مقطع واحد ، مثل مع ، وكتبت مع اللفظة التي تليها . أما إذا اجتمعت لفظتان ، كل واحدة منها ذات مقطع

واحد مثل (و) حرف عطف و (لِ) فالكتاب يكتبونهما على طريقة كتّاب المسند أي ممزوجتين ، على هذا الشكل : (ولِ)[1] .

وتجد في هذه الصورة كتابة لحيانية متأخرة ، يظهــر منها وكأن صاحبها قد كتبها على عجل ، فالخط فيها سريع ضعيف يــدل على عجلة ، والحروف غير واضحة ، وقد كتبت بطريقة الحفر بقلم من حديد أو سكين أو آلة حادة أخرى على الحجر ، حفراً سريعاً ، كما نكتب بسرعة في القلم . ومن هنا يختلف القلم اللحياني عن القلم المسند ، يختلف عنه في عدم تمسك كتّابه بكتابة الحروف بصورة واضحة بينة وبخط قوي واضح يقرأ بسهولة . ولعل لموقـع اللحيانيين ولموقـع من كتب مثلهم بسرعة وبغير نظام ثابت وتقيد بهندسة الحروف وأشكالها ، فيما بـين الأبجديات الشمالية ، والأبجدية العربية الجنوبية أثراً في هذا التغير ، إذ نكاد نلمس من قراءتنا لهذه الخطوط انها تحاول الهروب من نظام المسند ، المستند على الشكل الهندسي المرتب للحروف ، الذي يفصل بين الحروف ، والذي يحتاج الكاتب فيه الى التأني في كتابة الحرف ، فيضيع بعض الوقت بسبب ذلك ، كما يحتاج الى إشغال مكان واسع للحروف . بينما نرى الأبجديات الشمالية تقلص من حجم حروفها وتحاول جهد امكانها ربطها بعضها ببعض اختصاراً في الوقت وفي المكان وفي الجهد. وحروف هذه الأبجديات وإن بقيت محافظة على استقلالها وعلى أشكالهـا الدالة على انها من نبت المسند،إلا انها اتخذت صوراً متعددة،كما انها لم تتقيد بما تقيد به المسند في نظامه من السير على طريقة السطور ، وهو نظام يسهل على القــارىء قراءة الكتابة من اليمين الى اليسار ، أو من اليسار نحو اليمين ، أو بطريقة (حلزونية) ، بل خرجت على هذا النظام ، ولا سيما في حالة الكتابات الثمودية والصفويــة ، فكتبت بصور غير منتظمة ، على صورة هلال ، أو كرة ، أو نسيج العنكبوت ، مما جعل من الصعب على القارى فهم الكتابة ، ويظهر ان ذلك انما وقع بسبب ان الكتبة كانوا من الرعاة أو الفلاحين ، وان الكتابات التي عثر عليها هي من

---

١ W. Caskel, S. 60.

كتاباتهم ، وقد كتبوها تعبيراً عن خاطر عنّ لهم ، فهي لا تمثل اذن كتابات رسمية أو كتابات جماعة من المثقفين الذين يعتنون بحسن الخط ، وانما هي خواطر دونت على أي حجر وجده الكاتب ، ودوّنها بالشكل الذي وجده يناسب ذلك الحجر .

وهذه الكتابة التي تراها في هذه الصورة هي كتابة محفورة على لوح من الحجر، وهي من الكتابات اللحيانية المتأخرة ، المحافظة على نظام السطور . وخطّها وإن كان ضعيفاً غير أنه واضح نوعاً ما ونجد الشبه كبيراً بينه وبين المسند .
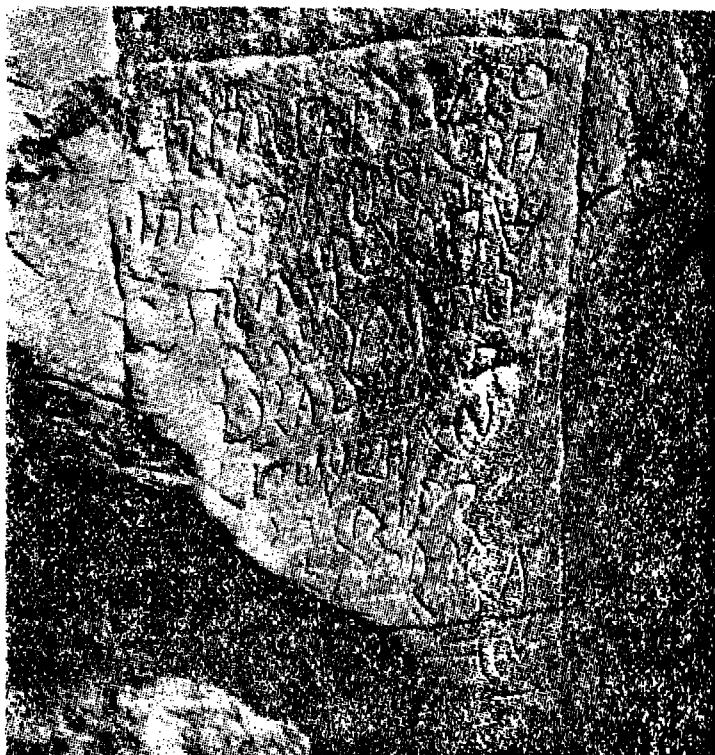
كتابة لحيانية متأخرة :(من كتاب : Caskel, Nr, 2)
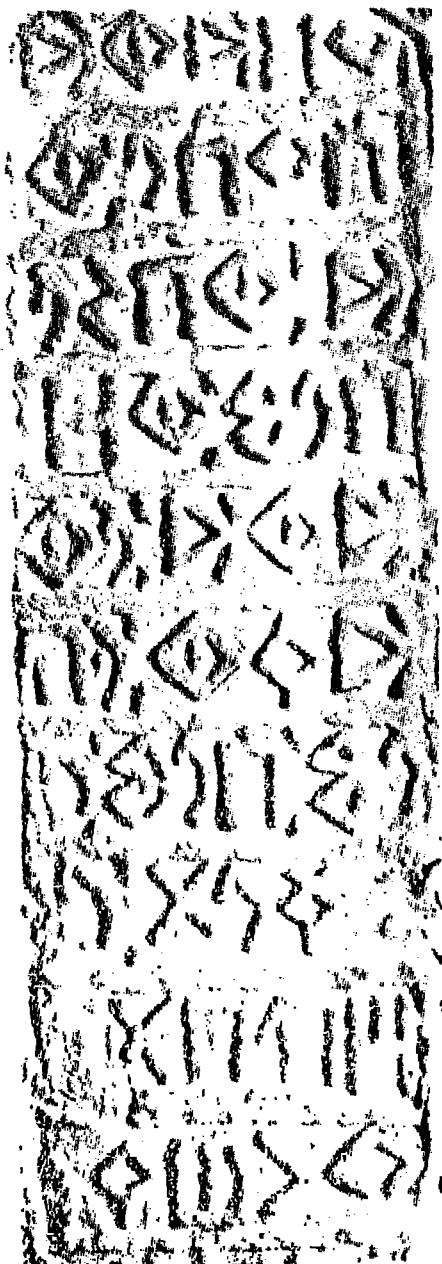
أما هذه الصورة ، فتمثل كتابة لحيانية قديمة ، وقد تفنن في كتابتها كاتبها ، وحفر الحروف فيها حفراً جعلها بارزة ، وقد حافظ فيها على نظام السطور . ونرى الشبه بين أشكال هذه الحروف وأشكال المسند بيناً ، إذ لم تكن الكتابات اللحيانية القديمة قد ابتعدت بعد بعداً كبيراً عن الخط العربي الجنوبي .

كتابة لحيانية قديمة

من كتاب : Caskel, Nr. 1

الخط الثمودي :

والخط الثمودي مثل الخط المسند والخط اللحياني والخط الصفوي ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع ومن علامات للحركات تكتب مع الحروف في صلب الكلمة . ولهذا يلاقي قارئه من الصعوبات ما يلاقيه قارىء القلم المسند والقلم اللحياني . فكلمة (بت) يمكن أن تقرأ بأوجه متعددة كأن تقرأ (باتَ) فعلاً ماضياً ، و (بيت) اسماً . ولفظة (عف) ، تكتب بهذه الصورة ، ويقصد بها (عوف) إن كتبت مع الأسماء . ولفظة (زد) هي (زيد) ، ولفظة (تم) هي (تيم) ، ولفظة (منت) هي (مناة) ، وقد يراد بها (منيت)، أي المنية . وجملة (قنص اسد) تحتمل أن تكون على هذا النحو : (قَنَص أسدٌ) ، وقنص اسم رجل ، وهو مبتدأ خبره (أسدٌ) . ويحتمل أن تكون على هذه الصورة : (قنص أسداً) فتكون جملة فعلية (قنص) فيها فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر تقديره هو ، وأسداً مفعول به .

غير أن بعض الكتابات قد استعملت حروف العلة : الواو والألف والياء ، في بعض الأحيان لسد النقص الحاصل من عدم وجود الحركات ، كما في (نور) ، و (اموت) (أموت) حيث قامت (الواو) بأداء واجب الـ (او) (ū) وكما في لفظة (دين) ، وعظيم ، حيث قامت الياء بأداء الحركة (إي) (i) (ي) ، وكما في (موت) (بيت) و (عليت) بمعنى كنت معتلاً ، و (رضو (اسم) الإلـه ، و (مو) بمعنى ماء ، و (لى) بمعنى (لي) ، و (ذى) بمعنى (هذا) ، و (اتا) بمعنى (أتى) ، وأمثال ذلك . غير أن هذا الاستعمال لم يكن عاماً ، وإنما كان خاصاً يرد في بعض الكتابات . ونجد هذه الكلمات التي ذكرتها ، خالية من الحروف المذكورة ، في نصوص أخرى ، مما يدل على أن هذه حالات كتابية خاصة ، ولم تكن قاعدة عامة متبعة في كل الكتابات .

ومن مميزات القلم الثمودي أنه لم يتقيد باستعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات ، ولهذا نجد الحروف والكلمات متصلة بعضها ببعض في كثير من الكتابات لا يفصل فاصل بينها . وقلما نجدها تستعمل بعض العلامات مثل النقط أو الخطوط الصغيرة لتحديد الجمل . ثم إنه أطلق لنفسه العنان في اتباع الجهة التي يسير عليها

الخط ، فتراه تارةً يسير سيرنا في الخط، أي من اليمين الى اليسار وباتجاه أفقي، وتارة أخرى يتجه من اليسار الى اليمين . وأحياناً من أعلى الى أسفل،ومن أسفل الى أعلى في أحيان أخرى ، كما تراه يتخذ شكل قوس في بعض الأحيان ، أو أشكالاً أخرى ، كأن يمزج بين هذه الطرق بحسب رغبة الكاتب وشكل المادة التي يكتب عليها . وعلى قارىء النص لذلك الانتباه الى هذه الاتجاهات ، لمعرفة مبدأ الكلام من منتهاه .

ونجد بعض الكتابات الثمودية ، وكأنها رموز أو طغراء ؛ إذ نجد حروفها وقد تداخل بعضها في بعض ، أو بعض حروف منها وقد تشابكت بحيث يصعب على القارىء حلها . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها نوع من (الوسم) ، غير أن من المهتمين بالثموديات من لا يوافقونهم على هذا الرأي ، وإنما يرون أنها تمثل رموزاً دينية ، أو الأحرف الأولى من أسماء كاتبيها ، أو أسماء بعض الآلهة، أو ما شاكل ذلك مما كان له معنى معروف في نفوس أصحابه ، وقد خفي ذلك علينا ، لعدم وجود مفاتيح لدينا تحل لنا هذه الكتابات المتخذة طابع الرموز والإشارات .

ونجد الكتابات الثمودية تعاف بعض حروف الكلمات أحياناً وتختزلها ، كما في (ب) ، التي تعني (ابن) ، فقد تركت حرف النون واكتفت بالباء . ويستطيع القارىء ادراك معنى (ب) من القراءة . وكما في (ل) بمعنى (لنا) و (لي) ، و (ب) بمعنى (بي) ، أي انها تقطع الضمير اللاحق بحرف الجر في بعض الأحيان[1] .

الأبجدية الصفوية :

والأبجدية الصفوية مثل الأبجدية اللحيانية والأبجدية الثمودية ، أصلها من القلم العربي الجنوبي . وهي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، غير ان كتّاب هذا القلم قد تلاعبوا به كما تلاعب كتّاب القلم اللحياني والثمودي بحروف المسند ، وأوجدوا لهم منها أشكالاً أخرى ميزتها عن الأصل ، فأخذ الحرف الواحد أشكالاً

---

١ Grimme, S. 34. ff

متعددة ، تباعد أشكال بعضها تباعداً كثيراً عن الأصل ، حتى عسرت على القارىء قراءة النص ، وهذا مما أوجد مشاكل لقراء هذه النصوص في قراءتها قراءة صحيحة .

و (هاليفي) الذي هو أول من تمكن من تشخيص الأبجدية الصفوية ، وأول من سماها بهذه التسمية،لم يتوفق في الواقع إلا في معرفة (١٦) حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين التي تتكون منها الأبجدية الصفوية . أما الحروف الباقية ، فقد أخطأ في تشخيصها ، حتى جاء (بريتوريوز) فتمكن من تشخيص خمسة أحرف أخرى ، كما تمكن الأستاذ (ليتمان) من تشخيص هوية سبعة أحرف ، فاكتمل العدد ثمانية وعشرين حرفاً[١] .

ومن الصعوبات التي تعترض قارىء الكتابات الصفوية في قراءة هذه الكتابات وفي فهمها أن للحروف فيها كما قلت آنفاً جملة رسوم ، وان بعض رسوم الحرف الواحد هي رسوم لحرف آخر . فبعض صور الباء هي أيضاً صور للظاء ، ولهذا قد تقرأ (باء) ، كما تقرأ (ظاءً) . ويتشابه كذلك رسم الخاء مع التاء ، واللام مع النون ، والهاء مع الصاد ، وكذلك رسوم حروف أخرى ، فكانت من هذا كله صعوبات كبيرة تعترض الباحث في قراءة هذه النصوص وفي تثبيت معناها ، ولا سيا ان هذه الأبجدية هي كالأبجديات الأخرى خالية من الشكل ومن التشديد ومن حروف العلة في أكثر الأحيان ومن المقاطع ، فلا فرق فيها في الكتابة بين الفعل والاسم والفاعل والمفعول به ، وفيها مصطلحات وتراكيب نحوية غير معروفة في عربيتنا أو في اللهجات السامية الأخرى . وعلى الباحث إعمال ذكائه في كشف المعاني ومواقع الكلم في هذه النصوص .

وهناك صعوبة أخرى تعترض الباحث في قراءة النصوص الصفوية تكمن في عدم وجود قاعدة معينة للابتداء في الخط . فالكاتب بهذا القلم حر كما يظهر من

---

١ Semitisk, Dritter Band, Zweiter und Dritter Abschnitt, 1945, S. 213.

رينه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٦٥ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحميد الدواخلي) .

الكتابات في اختيار الجهة التي يبدأ بها في الكتابة ، فله أن يبدأ بكتابته من اليمين الى اليسار ، أي على نحو ما نفعله نحن في كتابتنا وعلى نحو ما فعله أكثر كتّاب المسند ، وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، أي على نحو ما يفعله الكاتبون بالأبجدية اللاتينية ، وله ان يمزج بين الطريقتين كما رأينا ذلك في بعض كتابات المسند ، كما ان له أن يبدأ بالكتابة من أعلى الى أسفل ، وله أن يعكس الوضع فيكتب من أسفل الى أعلى ، وله أن يبدأ بالكتابة من أيسر الجهة السفلى للحجر ويتجه الى اليمين ، ثم الى اليسار وفي أي اتجاه أحبّ واشتهى ، وله أن يختار العكس ، أو أية جهة شاء ، حتى انك لترى بعض الكتابات وكأنها خيوط متداخلة ، وعلى القارىء ان ينفق جهداً طويلاً في استخراج رأس الخيط واستلاله للوصول الى منتهاه .

والكتابات الصفوية مثل الكتابات الثمودية واللحيانية هي في أمور شخصية،فهي إما في بيان ملكية شيء ، أو في تعيين قبر أي كتابات قبورية ، أو في رجاء وتوسل الى الآلهة . وإما تسجيل خاطر ، مثل تذكر أهل أو صديق أو حبيبة أو نزول في مكان أو في تعليق على كتابة قديمة . وكتابات مثل هذه تكون قصيرة في الغالب ، وقد تكون من كلمة واحدة في بعض الأحيان . ولما كان معظمها في هذه الأمور ، صارت أساليبها في الإنشاء متشابهة ، لا تختلف أحياناً إلا في أسماء أصحابها . وهي لذلك لا تفيدنا كثيراً من ناحية الدراسات اللغوية ، غير أنها مع ذلك أفادتنا فائدة كبيرة في نواحي أخرى ، من مثل الكشف عن أسماء آلهة العرب الجاهليين،أو أسماء القبائل والأشخاص والنبات والحيوان وبعض العادات وغير ذلك مما يتصل بحياة العرب قبل الإسلام .

وترى في هذه الصورة كتابة صفوية وقد كتبت على شكل ثعبان ، إذ لم يسر كاتبها على طريقة الكتابة بالسطور، تكتب بعضها فوق بعض . وهي من الكتابات المؤرخة ، وترى بعض الحروف مشابهة لحروف المسند ، أما البعض الآخر ، فقد ابتعد كثيراً عن الأصل .

1198–1198a.

كتابة صفوية أرخت بسنة ٢٤ المقابلة لسنة ١٢٩ للميلاد ، ويرى الرقم على الجانب الأيمن من الكتابة . من كتاب : Safaitic

وفي هذه الصورة الثانية كتابة صفوية ، وقد كتبت على النحو الذي نراه في الصورة ، وقد تصرف كاتبها في الحروف ، تصرفاً تظهر عليه روح الاختزال وتصغير حجم الحرف وهي من الكتابات المؤرخة .

كتابة صفوية يعود تأريخها الى سنة ٤٢ . وقد رقمت برقم ١٦٢ في كتاب : Safaitic . (ص ٣٦) .

والصفوية مثل اللهجات العربية الأخرى في خلوّها من الشكل ، لذلك تجابه الباحث في قراءة كتاباتها ما يجابهه قارىء اللهجات الأخرى من مشكلات في فهم الكتابات فهماً صحيحاً واضحاً، فلا بدّ من الاستعانة بعربية القرآن الكريم وباللهجات السامية لفهمها فهماً صحيحاً . ولم يحفل الكتاب بتثبيت الحروف في صلب الكتابة باعتبارها تعبيراً عن الحركات ، ولم يستعملوا المقاطع المعبرة عن الأصوات، لضبط النطق . وقد يكتب فيها الحرف مرتين في مواضع نستعمل لها الشدّة في عربيتنا :

ومادة الكتابات الصفوية ، هي الحجارة الطبيعية بأشكالها المختلفة ، يأخذها الكاتب فيحفر عليها بآلة ذات رأس حاد الكلمات التي يريد تدوينها . أما الورق أو المواد المشابهة الأخرى المستعملة في الكتابة ، فلم يعثر على شيء منها مكتوب بهذه الأبجدية .

ويجب ان أبين ان هذه الكتابات اللحيانية والثمودية ، والصفوية ، لا تعني انها خطوط (بني لحيان) ، و (قوم ثمود) بالضرورة ، فبين الكتابات المنسوبة الى مجموعة من هاتين المجموعتين ما لا يمكن عده من كتابة قوم من (بني لحيان) ولا من قوم ثمود ، وانما هي من كتابات قبائل أخرى ، وقد أدخلت في الخط اللياني او في القلم الثمودي ، لمجرد تشابه الخط . وقد ذكرت ان الكتابة الصفوية ، انما عرفت بهذه التسمية ، بسبب عثور العلماء عليها في (الصفاة) في الغالب ، فنسبوها الى هذه الأرض ، مع انها قبائل وعشائر مختلفة .

ويلاحظ ان التباين في أشكال الحروف داخل المجموعة الواحدة مثل اللحيانية، والثمودية والصفوية ، لا يقل عن التباين الذي نراه بين صور الحروف المكونة لهذه المجموعات . فأنت ترى في هذه الصورة وقد كتب حرف الألف في الصفوية بصور متباينة ، تكاد تجعل من الصعب التوصل الى انها تمثل كلها هذا الحرف ، ثم ترى الحرف نفسه في (الثمودية) ، وقد كتب بصور متباينة ، ويقال نفس الشيء بالنسبة لهذا الحرف في الكتابة اللحيانية . ونجد هذا التباين في كل الحروف الباقية كذلك . أما المسند ، فلا نجد فيه هذا التباين ، مما يحملنا على ارجاع سببه الى ضعف وقوة يد الكتاب ، والى تباين القلم الذي يكتب به . فالمسند قلم ، استعمل في تدوينه قلم حاد قوي ، حفر الكتابة على الحجر حفراً وبعناية ، بسبب انها وثائق وكتابات ذات أهمية بالنسبة لكاتبها ، أما الأقلام الأخرى، فقد استعملت في التعبير عن خواطر في الغالب : لذلك سجلها كاتبها بأي أداة وجدها او

الترقيم :

لقد تحدثت عن الترقيم عند الصفويين ، وذكرت أنهم ساروا فيه من الواحد الى الخمسة على أساس وضع خطوط عمودية ، يمثل كل خط منها العدد (١) . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١) ، وضعوا خطاً واحداً يمثله . وإذا أرادوا كتابة (٢)، وضعوا خطين عموديين . وإذا أرادوا العدد (٣) ، وضعوا ثلاثة أعمدة . وإذا أرادوا العدد (٤) ، كتبوا أربعة خطوط عمودية . وأما إذا أرادوا الرقم (٥) وضعوا خمسة خطوط .

وكتابة الأرقام من المسائل العويصة التي جابهت الكتّاب في الأزمنة القديمة . وقد كان كتّابهم يكتبون بالحروف ، ولكنهم كانوا إذا أرادوا تدوين الأرقام تحيروا: هل يكتبونها كتابة بالحروف أو يجعلون لها رموزاً خاصة تشير الى الأعداد . وقد وجدنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد اختاروا الخط العمودي لتمثيل الرقم (١) ، فإذا أرادوا الرقم (٢) ، وضعوا خطين ، وإذا أرادوا الرقم (٣) ، وضعوا ثلاثة خطوط . وإذا أرادوا الرقم (٤) ، وضعوا أربعة خطوط . ولصعوبة الاستمرار على هذه الطريقة ، بسبب كبر الأعداد ، اختاروا الحرف الأول من لفظة خمسة وهو الخاء لتمثيل العدد (٥) ، واختاروا الحرف (ع) وهو الحرف الأول من العدد عشرة لتمثيل هذا العدد ، واختاروا رموزاً أخرى كما رأينا لمعالجة مشكلة العدد عندهم ، فحلوا بذلك عقدة الترقيم بعض الحل، ولم يبلغوا منه التمام .

وقد اختارت بعض الشعوب النقط ، بدلاً من الخطوط . فالرقم (٧) مثلاً تمثله سبع نقط، والرقم (٣) تمثله ثلاث نقط . وسارت شعوب أخرى على طريقة الخطوط فرمزوا عن الرقم (٥) بخمسة خطوط ، وعن الرقم (١٠) بعشرة خطوط عمودية ، وعن الرقم (١٥) بخمسة عشر خطاً عمودياً . ودفعتهم صعوبة كتابة الأرقام الكبيرة بهذه الطريقة ، الى التفكير في طريقة أخرى تكون مختصرة بعض الاختصار وسهلة في التعبير عن قيم الأرقام ، فاختار بعضهم النقطة رمزاً عن العدد (١٠) ، واختار بعض آخر خطاً أفقياً ليكون ذلك الرمز ، وبذلك سهلت عليهم كتابة الأرقام الآحاد مع العشرات . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١٠)، وضعوا نقطة واحدة (٠) أو خطاً أفقياً على هذا الشكل — ليشير الى الرقم (١٠) ، وإذا أرادوا الرقم (١١) ، كتبوه على هذه الصورة : (١٠) أو (— ١) .

وإذا أرادوا الرقم (١٥) ، كتبوه على هذا الشكل (١١١١٠ ١١) او على هـذا الشكل : (— ١١ ١١١) .

وغيّر الفينيقيون وبنو إرم وأهل تدمر بعض التغيير في شكـل الخط الأفقي الدال على العدد (١٠) ، بأن جعلوا في طرفه الأيمن خطاً ممتداً الى الأسفل قليلاً على شكل زاوية متجهة نحو اليسار . ثم أجرى النبط تعديلاً يسيراً في هذه العلامة الجديدة بأن جعلوا رأسها متجهاً الى أعلى اليمين ، اي نحو الزاوية اليمنى للمادة التي يكتب عليها . أما مؤخرتها ، فقد وجهوها نحو الجهة الجنوبية اليسرى[1] .

وقد سار الفينيقيون وبنو إرم على طريقة الترقيم بالخطوط العموديـة للأعداد من (١) الى العدد (٩) . ولتسهيل قراءة الأعداد التي تزيد قيمتها العدديـة على ثلاثة ، جعلوا كل ثلاثة خطوط متقاربة،بحيث تظهر في شكل مجموعة واضحة ، وتمثل هذه المجموعة الرقم (٣) ، ووضعوا على يسار هذه المجموعة ما يكملها لتكوين العدد المطلوب . فكانوا اذا أرادوا مثلاً كتابة الرقم (٥) ، كتبوه على هذه الصورة : (١١١ ١١) اي الرقم (٣) الذي تمثله ثلاثة خطوط عموديـة منضمة بعضها الى بعض ، ثم الرقم (٢) الذي يمثله خطان منضمان ، وبين هذين الرقمين فراغ قليل يفصل بين العددين . واذا أرادوا الرقـم (٦) كتبوه مجموعتين متجاورتين ، كل مجموعة ذات ثلاثة خطوط منضمة ، وبين المجموعتـين فراغ صغير . غير ان بعض الكتابات كتبت الرقـم (٦) على هذا الشكـل : ١١١
١١١
أي انها وضعت الرقمين ثلاثة أحدهما فوق الآخر ، ليشير هذا الوضع الى حاصل جمع العددين ، وهو ستة[2] .

وقد اصطلح النبط على اتخاذ علامة خاصة بالعدد (٤) جعلوها على هيأة التاء في المسند ، أي على هذا الشكل : (X) ، كما اصطلحوا على اتخاذ علامة أخرى خاصة بالرقم (٥) ، شكلها قريب من شكل الرقم (٥) في الحروف اللاتينية ، اي على هذا الشكل تقريباً : (5) . على حين رمز غيرهم مثل أهـل تدمر عن الرقم (٥) برمز يشبه حرف الـ (Y) في الأبجدية اللاتينية . فإذا أرادوا كتابة

---

١ Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik, Weimer, 1898, S. 198.

٢ المصدر نفسه (ص ١٩٩) .

الرقم (٦) ، وضعوا الرقم الذي يرمز عن العدد (٥) ، ووضعوا خطاً على يساره ليشير بذلك الى العددين خمسة زائداً واحداً (٥ + ١) (Y ١) ومجموعهما ستة . واذا أرادوا الرقم (٧) ، كتبوا خمسة زائداً خطين يوضعان على يسار الرقم (٥)، ليتكون من العددين العدد (٧) ، (Y ١١) ، وهكذا الى العدد (٩) .

وقد سار الكتّاب في ترقيم الأعداد التي بعد العشرة على طريقتهم التي اتبعوها في السير أفقياً في الترقيم ، إلا في حالات قليلة ساروا على طريقة وضع الأرقام بعضها فوق بعض ، وجعلوا للرقم (٢٠) علامة تتألف من نقطتين إحداهما فوق الأخرى ، او من خطين أفقيين أحدهما فوق الآخر على شكل علامة مساوٍ (=) في علم الحساب ، أو من علامة تشبه حرف الشين في المسند (ﻺ)، او من علامة تشبه حرف الـ (N) في اللاتنية . ووضع النبط للعشرين علامة تشبه الـ (3) اللاتيني في بعض الأحيان ، وتشبه الرقم (8) اللاتيني في أحيان أخرى، غير انهم فتحوا النهاية السفلى من الرقم (8) جعلوها مفتوحة في الغالب[١] .

وتكتب الأعداد الآحاد على الجهة اليسرى من العشرات ، فإذا أردنا كتابة الرقم (١١) ، كتبنا الرقم (١٠) أولاً ثم العدد (١) من بعده ويكتب الى يسار الرقم (١٠) . فإذا أردنا كتابته على الطريقة الفينيقية او الإرمية ، كتبناه على هذه الصورة : (ـــ ١) . واذا أردنا كتابته على طريقة أهل تدمر او طريقة النبط ، وضعنا العلامة التي وصفتها الخاصة بالعشرة ، ووضعوا الى يسارها خطاً واحداً يمثل العدد (١) ، واذا أرادوا العدد (١٢)، وضعوا خطين بعد الرقم (١٠) ، واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط . واذا أرادوا (١٤) ، وضعوا أربعة خطوط . أما اذا أرادوا الرقم (١٥) ، فإن منهم من وضع خمسة خطوط بعد الرقم عشرة كما كان يفعل الفينيقيون ، ومنهم من اتبع هذه الطريقة وطريقة تمثيل العدد بخطوط ، فوضع خمسة عشر خطاً لهذا العدد . ومنهم من وضع بعد العلامة الخاصة بالرقم (١٠) العلامة الخاصة بالرقم (٥) كالنبط وأهل تدمر .

أما مكررات العشرة ، فتكتب على هذه الصورة . إن كان العدد العشرات من الأعداد الزوجية فيكتب العدد بقدر احتواء العدد المراد تسجيله على العدد عشرين . فإذا أردنا كتابة الرقم (٤٠) ، كتبنا الرقم (٢٠) مرتين . وإن كان

---

١ M. Lidzbarski, Handbuch, I, S. 199.

العدد (٦٠) ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات . وإن كان العدد (٨٠) ، كتبناه أربع مرات . أما إذا كان العدد العشرات من غير الأعداد الزوجية كما في مثل ثلاثين ، فإننا نكتب العدد (٢٠) أولاً ثم نضع الرقم (١٠) على يساره، فيتكون من مجموع قيمة العددين (٣٠) . أما إذا أردنا الرقم (٧٠) مثلاً ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات ، ثم العدد (١٠) على الجهة اليسرى من الأرقام الثلاثة . وقد كتب هذا العــدد في بعض الكتابات الإرمية بست نُقط : ثلاث نقط في أعلا وثلاث نقط في أسفلها ، ونقطة على الجهة اليسرى من المجموعتين وفي مقابل الموضع الوسط الذي يكون الحد الفاصل بين المجموعتين وعلى هذا الشكل(... . ...)[١]

أما العدد مئة ، فقد رمز عنه بعلامات متعددة ، منها هذه العلامات : (°١) و (ב) و (÷) . ونرى أن العلامة الأولى هي توسيع للرقم الذي رمز اليه عن العشرة . وقد اتخذ النبط علامة تشبه الرقم (٩) ، أو الحرف (p) في اللاتينية . وقــد سبق أن ذكرت ان العرب الجنوبيين كانوا قد اتفقوا على اعتبار الحرف الأول وهو الميم من لفظة مئة هو الرمز الذي يشير الى العدد ، واعتبروا نصف هذا الحرف رمزاً على العدد (٥٠) باعتبار ان الخمسين نصف المئة،فنصف الحرف ميم هو رمز عن هذا العدد .

أما العدد الألف ، فقد وجدت له في بعض الكتابات علامات خاصة . وقـد رمز عنه الفنيقيون وبنو إرم بعلامة هي عبارة عن خط مائل يتصل به ما يشبــه نصف القوس من جهة اليمين ، ورأس الخط مائل الى اليمين ، أما أسفله فتتجه نحو اليسار[٢] .

ولم ترد في الكتابات الصفوية أرقام كثيرة ، لذلك لا نستطيع أن نحكم عــلى طريقتهم في الترقيم وفي العد . غير أن في استطاعتنا القول ، استناداً الى هــذه النماذج القليلة التي وصلت الينا ، انهم اتبعوا في الترقيم الطريقة النبطية وطريقة أهل تدمر ، ولم يتبعوا طريقة العرب الجنوبيين في تدوين العدد . ويمكن ارجاع سبب ذلك الى اتصالهم اتصالاً مباشراً بالنبط وبأهل تدمــر ، والى تأثرهم بثقافتهم .

---

١ راجع الالواح الخاصة الملحقة بكتاب : M. Lidzbarski والخاصة بالنصوص .
٢ راجع آخر المصور الملحق بكتاب M. Lidzbarski اللوح الخاص بالارقام .

ولما كانوا محتاجين الى تدوين الأرقام اضطروا الى اقتباس طريقة النبط وأهل تدمر في كتابة الأعداد بالأرقام .

وتجد في الجدول المقابل كيفية تدوين الأرقام في الفينيقية والآرامية،والتدمرية ، والنبطية . وهي تختلف اختلافاً بيناً عن صور الأرقام التي نستخدمهـا اليوم في عربيتنا . ونلاحظ أن من بين الترقيم في المسند ، وبين الترقيم في هذه الأبجديات تشابه كبير الى حد الرقم (٤) ، ثم يختلف ، فقد أخذ العرب الجنوبيون الحرف الأول من لفظة (خمسة) ، وجعلوه رمزاً الى العدد (٥) ، بينما اتبع الباقون طريقة التخطيط بالرقم (١) الى العدد (٩) في الفينيقية ، ثم بـدلوا الطريقة . وسلكت هذا المسلك الأبجدية الآرامية ، أما الابجدية التدمرية والابجدية النبطية ، فقد اتبعتا سبيلاً آخر ، فيه اختلاف في بعض الأعداد ، ولكن بينهما تجانساً بوجه عام . مما يدل على أنهما أخذا الترقيم من منبع واحد .

الفصل الثالث والعشرون بعد المئة

الكتابة والتدوين

لا خلاف في أن التدوين كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، بدليل ما تحدثنا عنه من وجود الألوف من النصوص الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية وفي العربية الغربية وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب . كتبت بلهجات عربية متنوعة ، تختلف عن عربية القرآن الكريم ، اختلافاً متبايناً ، أقربها الى عربيتنا الكتابة التي وسمت بـ (نص النمارة) أو كتابة النمارة ، التي هي شاهد قبر (امرىء القيس) ، المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد ، والكتابات الأخرى التي كتبت بعده[١] .

ولا خلاف بين العلماء في أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من العثور على أي نص جاهلي مكتوب بهذه اللهجة التي نزل بها القرآن ، والتي ضبط بها الشعر الجاهلي، لا من الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا من الجاهلية القريبة منه ، مع أنهم تمكنوا من العثور على كتابات جاهلية مدونة بلهجة عربية أخرى ، تعود الى عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام ، مثل النص المعروف بنص (حران) المدوّن سنة (٥٦٨ م) .

وإذا صح أن الكتابة المعروفة بـ (أم الجمال) الثانية ، هي كتابة جاهلية

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٨٩ وما بعدها) .

أصيلة ، تكون أول نص يمكن أن نعتبره بحق وحقيقة من النصوص المدونة بلغة القرآن والشعر الجاهلي . ويرجع العلماء الذين درسوه تأريخه الى أواخر القرن السادس للميلاد . وقد جاء فيه :

١ — الله غفرا لاليه

٢ — بن عبيده كاتب

٣ — الخليدا على بنى

٤ — عمرى كتبه عنه من

٥ — يقروه[1]

ولكن عبارة واسلوب تدوين الكتابة ، يوحيان للمرء ، أنها من الكتابات المدوّنة في الإسلام . وأنا أشك في كونها من مدونات أواخر القرن السادس للميلاد، حتى إذا ذهبنا أن صاحبها كان نصرانياً ، وأن لفظة (غفرا) من الألفاظ الدينية التي كان يستعملها النصارى ، فلا غرابة من ورودها في نص جاهلي ، لأنها كتابة نصرانية . وحجتي أن أسلوبها يفصح عن اسلوب الكتابات الإسلامية القديمة التي دوّنت في صدر الاسلام . وقد تكون في القراءة بعض الهفوات والشطحات، على كلّ فإن الزمن بين العهدين غير بعيد ، ثم ان استعمال (التاء القصيرة) في (عبيدة) الاسم الوارد في السطر الثاني من النص لم يكن معروفاً في هذا العهد ولا في صدر الاسلام ، لذلك أرى أنها من الكتابات الاسلامية . وفيها هفوات .

وبناءً على ما تقدم نقول إننا لم نتمكن من الحصول على نص جاهلي مدوّن بلغة عربية قرآنية ، لا شك في أصالته ، ولا شبهة في كونه جاهلياً . وأن أقدم ما عثر عليه من كتابات بهذه العربية ، هي كتابات دوّنت في الاسلام . في رأسها الكتابات التي عثر عليها مدوّنة على جبل (سلع) قرب المدينة ، يرى (الدكتور حميد الله) أنها ترجع الى السنة الخامسة للهجرة[2] .

ثم الكتابة التي كتبت على شاهد قبر رجل اسمه (عبدالله بن خير) ، أو (عبدالله بن جبر) الحجازي أو الحجري،المحفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة

---

١ ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (الشكل رقم ٥ مقابل الصفحة ٧٣) .

٢ H. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, in Islamic Culture, Vol. 13, No. 4, 1939, p. 427.

ويعود عهدها الى (جمادى الآخرة) من سنة احدى وثلاثين[1] .

ولا خلاف بين الباحثين في أن كل ما وصل الينا من نصوص جاهلية إنما هو بلغة النثر ، إذ لم يعثر حتى الآن على نص مكتوب شعراً . ونظراً الى وجود التدوين عند أصحاب هذه النصوص ، ونظراً لأن الشعر ، شعور ، لا يختص بإنسان دون إنسان ، وبعرب دون عرب، فأنا لا استبعد احتمال ، تدوين الجاهليين الشعر أيضاً ، مثل تدوينهم لخواطرهم وأمورهم نثراً . دوّنوه بلهجاتهم التي كتبوا بها . وهي بالنسبة لهم لهجاتهم الفصيحة المرضية . أما سبب عدم وصول شيء مدوّن منه الينا ، فقد يعود حسب رأيي ، الى أن تدوين الشعر والنثر يكون في العادة على مواد قابلة للتلف ، مثل الجلود والخشب والعظام وما شاكل ذلك ، وهي لا تستطيع مقاومة الزمن ، لا سيما إذا طمرت تحت الأتربة ، ثم هي معرضة لالتهام النار لها عند حدوث حريق ، أو للتلف إن أصابها الماء ، أضف الى ذلك أنهم كانوا يغسلون الجلد المكتوب ، للكتابة عليه مرة أخرى ، لغلاء الجلود ، وهو ما حدث عند غير الجاهليين أيضاً . ونجد في المؤلفات الاسلامية أمثلة كثيرة على غسل الصحف المكتوبة للكتابة عليها من جديد . ورسائل النبي وكتبه وأوامره الى عماله ورسله على القبائل ، فقد فقدت وضاعت مع ما لها من أهمية في نظر المسلمين ، وقل مثل ذلك عن كتب الخلفاء ، فلا نستغرب إذن ضياع ما كان مدوّناً من شعر جاهلي، فقد نص مثلاً على ان الشاعر (عدي ابن زيد) العبادي ، وكان كاتباً مجوداً بالعربية وبالفارسية حاذقاً باللغتين قارئاً لكتب العرب والفرس ، كان يدوّن شعره وهو في سجن النعمان ويرسل به الى الملك ، يتوسل اليه فيه أن يرحم به ، وأن يعيد اليه حريته ، وكان الشعر يصل الى الملك ، فلما طال سجنه صار يكتب الى أخيه أبي بشعر[2] ، لم تبق من أصوله المكتوبة أية بقية ، وقد ضاعت أصول شعره المكتوب المرسل الى النعمان كذلك، حتى أننا لا نجد أحداً من رواة شعره يروى أنه رجع اليها فنقل منها ، مما يبعث على الظن أنها فقدت منذ عهد بعيد عن بداية عهد التدوين .

ويدفعنا موضوع التدوين الى البحث عن تدوين الأدب والعلم عند الجاهليين ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٢) .

٢ الطبري (٢/١٩٧ وما بعدها) ، (ذكر خبر ذي قار) .

وعما إذا كان للجاهليين أدب منثور وعلم مدوّن ؟ لقد ذهب بعض الباحثين الى وجود هـذا الأدب عند أهل الجاهلية ، وتوقف بعض آخر ، فلم يبد رأياً في الموضوع ، وتوسط قوم ، فقالوا باحتمال وجود تدوين أو شيء منه عندهم ، إلا أنهم أحجموا عن الحكم على درجة تقدمه واتساعه في ذلك العهد . لعدم وجود أدله ملموسة يمكن اتخاذها سنداً لابداء رأي واضح علمي في هذا الموضوع .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنه لو كانت هنالك مدوّنات في الأدب ، لما خفي ذكرها وطغى اسمها حتّى من ذاكرة أهل الأخبار ، ومن أحاديث الرواة . إنه لو كان أهل الجاهلية قد زاولوا التأليف وتدوين العلم ، لما اقتصر علم أهـل الأخبار في الأدب عـلى ذكر قطع من الحكم ، يشك في صحتها ، وعلى إيراد الشعر رواية وعلى رواية بعض القصص والأمثال ، وسردهم كل شيء يتعلق بأمر الجاهلية رواية . وانه لو كان لديهم تأليف منظم ، لسار عـلى هديهم من جاء بعدهم في الاسلام ، ولسلكوا مسلكهم في التدوين : تدوين الكلام المنثور وتدوين الكلام الموزون المقفى ، وحيث أن أحداً لم يذكر اسم مدوّن من مدوّنات أهـل الجاهلية ، وحيث أن المسلمين لم يشرعوا بالتدوين إلا بعد حين ، فلا يمكن لأحد النص بكل تأكيد على وجود تدوين عند الجاهليين[1] .

ولم نعثر على خبر في كتب أهل الأخبار يفيد أن أحداً من الرواة والعلماء أخذ نص كلام حكيم من حكماء الجاهلية ، أو خبر أو شعر من صحف جاهليـة ، أو من كتب ورثوها من ذلك العهد . هذا (قس بن ساعدة) الايادي ، مع ما قيل عنه من أنه كان كاتباً قارئاً للكتب ، واقفاً على كتب أهـل الكتاب ، خطيباً عاقلاً حكيماً ، وان العرب كانت تعظمه وضربت به شعراؤها الأمثال ، وأنه كان خطيب العرب قاطبة ، نجدهم يختلفون في خطابه المعروف ، ويروونه بمختلف الروايات ، حتّى ذكر أن الرسول كان قد سمعه ، وسمع خطابـه ، فلما جاء ذكره ، وأراد أن يتذكر خطابه ، وجد بين الصحابة اختلافاً في تلاوته ، لأنه لم يكن مدوّناً ، ولو كان مدوّناً لم يختلف فيه[2] .

---

١ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العـلم للملايين) .

٢ الاصابة (٣/٢٦٤) ، (رقم ٧٣٤٢) .

وليس في الأخبار عن الجاهلية خبر يفيد أن السدنة أو غيرهم من الساهرين على الأصنام والأوثان وبيوتها ، ألفوا كتباً في الوثنية وفي أحكامها وقواعدها . أما اليهود والنصارى ، فقد كان لهم علماء يشرحون للناس في معابدهم أحكام دينهم ، ويعلمونهم الكتابة والقراءة وما في كتبهم المقدسة من أوامر ونواه . فكان « أبو الشعثاء ، وهو رجل ذو قدر في اليهود ، رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة »[1] . وهو من يهود بني ماسكة . وكان آخرون بينهم يعلمونهم أحكام دينهم في بيت المدارس .

وفي لغة الجاهليين مفردات تستعمل في القراءة والكتابة ، مثل : قلم،وقرطاس، ودواة ، ومداد ، ولوح ، وصحف ، وكتاب ، ومجلة ، وغير ذلك لا يشك في استعمال الجاهليين لها ، لورودها في القرآن الكريم . وورودُها فيه ، دليل على استعمالهم لها . وورد بعضها أيضاً في الحديث النبوي وفي الشعر الجاهلي . ويفيدنا حصر هذه الألفاظ وضبطها في تكوين رأي علمي صحيح سديد في الكتابة والقراءة عند الجاهليين ، والمؤثرات الخارجية التي أثرت في العرب في هذا الباب ، وفي تكوين رأي قاطع في الجهة التي أمدت العرب كثيراً أو قليلاً بعلمهم في قلمهم العربي الشمالي الذي يكتب به الى هذا اليوم .

وأعتقد ان من واجب علماء العربية في هذا اليوم ، العمل على حصر ألفاظ العلوم والحضارة والثقافة التي ثبت لديهم استعمال الجاهليين لها ، وتعيين تأريخ استعمالها وأصولها التي وردت منها إن كانت أعجمية دخيلة ، والاستشهاد بالأماكن التي وردت فيها ، ففي هذا العمل العلمي ، مساعدة كبيرة للباحثين على تشعب علومهم وموضوعاتهم في الوقوف على تطور الفكر العربي قبل الإسلام . ولا أقصد الإحاطة بالمفردات الواردة في الشعر الجاهلي أو القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو معجمات اللغة وغيرها من الموارد الاسلامية وحدها ، بل لا بد من اضافة المفردات الواردة في الكتابات الجاهلية التي عثر والتي سيعثر عليها الى تلك المادة لأنها مادة العصر الجاهلي وجرثومة اللغة ، وبدونها لا تسعنا الاحاطة بلغة أهل الجاهلية وبتطور فكرهم أبداً .

ومن يراجع الموارد العربية وعلى رأسها المعجمات ، يدرك الصعوبات التي يلاقيها

---

١ الاغاني (١٦/ ١٥) .

المرء في الحصول على مادة ما،لعدم وجود الفهرسة للألفاظ والمواد في معظم هذه الموارد ، فعلى المراجع قراءة صفحات وأجزاء أحياناً للحصول على شيء زهيد . ولهذا زهد معظم المؤلفين في مراجعة ما هو مطبوع مع أهميته ودسم مادته ، لأن الصبر قاتل ، والاكثار من المراجعة عمل شاق مرهق ، والحياة تستلزم السرعة والانتاج بالجملة . وقد ماتت همم الماضين ، وحلت محلها عجلة المستعجلين الذين يريدون الانتاج السريع الخفيف الجالب للاسم والمال .

وبعض الألفاظ الخاصة بالكتابة والقراءة ، هي ألفاظ معربة ، وإن وردت عند الجاهليين واستعملت قبل الاسلام بزمن طويل ، عرّب بعضهـا عن اليونانية ، وعرّب بعض آخر عن الفارسية أو السريانية أو القبطية ، وذلك بحسب الجهة التي ورد منها المعرب ووجد سبيله الى العربية ، ويمكن التعرف عليـه بمقابلة اللفظ العربي مع اللفظ المقابل له عند الأمم المذكورة ، وبضبط الزمن الذي استعمل فيه والظروف المحيطة به ، للتأكد من أصله ، فقد يكون عربياً أصيلاً انتقـل من العرب الى تلك الأقوام ، وقد يكون العكس ، نتمكن من الحصول على دراسة علمية قيمة في باب المعربات والتبادل الفكري بين الجاهليين والأعاجم .

والقلم ، هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهليين . وقد ذكر في القرآن الكريم . أقسم به في سورة (ن والقلم) ، وعظم وفخم شأنه في سورة العلق[1] . يكتب به على الورق والرق والجلود والقراطيس والصحف ومواد الكتابة الأخرى، وكان يتخذ من القصب في الغالب ، فتقطع القصبة قطعاً يساعد على مسكه باليد، ثم يبرى أحد رأسيها ، ويشق في وسطه شقاً لطيفاً خفيفاً يسمح بدخول الحبر فيه، فإذا أريدت الكتابة به ، غمس في الحبر ، ثم كتب به . ويعرف هذا القلم بقلم القصب ، تمييزاً له عن الأقلام المستعملة من مواد أخرى .

ولفظة (القلم) من الألفاظ المعربة عن أصل يوناني ، فهو (قلاموس) في اليونانية ، ومعناها القصب ، لأن اليونان اتخذوا قلمهم منه[2] .

---

١ سورة العلق ، الاية ٤ ، سورة القـلم ، الاية ١ ، لقمان ، الايـة ٢٧ ، المفردات (ص ٤٢٢) ، شر) القاموس (٩/٣١) ، صبح الاعشى (٢/٤٣٤ وما بعدها) .

٢ الأب رفائيل نخلة اليسوعي (ص ٣٦٦) ، فرائد اللغة (ص ٢٩٣) ،
Ency. II, p. 675.

وينبت القصب في مواضع من جزيرة العرب حيث تتوافر المياه . وقد أشار (بلينيوس Pliny) ، في تأريخه الى قصب Kalamus عربي ، وقصب ينمو في الهند ، وذكر أنهم يستعملونه في عمل الأنسجة .

وهناك نوع من القصب قوي متين ، يطول فيستعمل في أغراض متعددة ، يقال له (قنا) ، ومنه (القنى) و (القناة) التي يستعملها المحاربون ، وتعرف بـ (قنة) في العبرانية . وكانوا يستوردونه من (صور)[1] .

وقد وردت لفظة (القلم) و (قلم) في شعر عدد من الشعراء الجاهليين في شعر لبيد وعديّ بن زيد العبادي والمرقش وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ممن وقفوا على الكتابة وكانت لهم صلات بالحضارة وبأصحاب الديانات . وذكر أن الخط يكون بالقلم[2] .

ويعرف القلم بـ (المِزْبَر) كذلك ، من أصل زبر بمعنى كتب . وقد ذكر في الحديث النبوي[3] . ويعرف بـ (المِرقَمْ) أيضاً[4] ، إذ هو أداة للرقم ، أي الكتابة .

ويقطّ القلم بمقطة[5] ، وتستعمل السكين في بريه أيضاً . ويعتنى بذلك حتى يكون القلم جيداً سهلاً في الكتابة[6] . ويقال للسكين : المدية على بعض لهجات العرب[7] . والقلم قبل أن تبريه : أنبوبة ، فإذا بريته ، فهو قلم . وما يسقط منه

---

١ Smith, Dictionary of the Bible, I, p. 241.

٢ قال عدي :
ما تبين العين من آياتها غير نؤى مثل خط بالقلم
الاغاني (٢/١١٩) ، سمط اللآلي (٨٧٦) .
وورد في شعر لأمية بن أبي الصلت :
قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخط والقلم
سيرة ابن هشام (١/٤٨) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٦/١٢٧) ، النقائض (١٠٦) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (١٢٨) .

٣ صبح الاعشى (٢/٤٣٤) ، المفردات (ص ٢١٠) ، الفائق (١/٥٢٢) ، تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) .

٤ بلوغ الارب (٣/٣٧٢) ، تاج العروس (٨/٣١٦) ، (رقم) .

٥ شرح القاموس (٥/٢٠٧) .

٦ السمعاني ، أدب الاملاء والاستملاء (ص ١٦١) .

٧ صبح الاعشى (٢/٤٥٥ وما بعدها) .

عند البري:البُراية . والمِقط[4] : ما يقط عليه . والقط : القطع عرضاً ، والقدّ: أن يقطع الشيء طولاً"[1] .

وهناك أنواع أخرى من الأقلام غير قلم القصب ، صنعت من الحديد . وقد استعمل العبرانيون وغيرهم أقلاماً من حديد ذات رؤوس من الماس ، ليكتب بها على صفائح من الحجر أو من المعدن ، كما استعملوا القلم الحديد أو القلم الرصاص وأقلاماً من معادن أخرى للكتابة بها على صفائح من الخشب مغطاة بشمع . ولهذا القلم رأسان : رأس محدد للكتابة ، ورأس مفلطح لمحو الغلطات وتسوية سطح الشمع ثانية ، كما استعملت الفرشاة لرسم الحروف[2] . واستعمل أيضاً ريش الطيور . وقد عرف القلم المصنوع من الحديد بـ (عيت) ET عند العبرانيين[3] .

وذكر ان (زيد بن ثابت) دخل على رسول الله وهو يملي في بعض حوائجه ، فقال : « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي به »[4] .

وقد استعملوا السكين والآلات الحادة في الكتابة على الخشب أو الحجر ، كما استخدموا الفحم وكل ما يترك أثراً على شيء ، مادة للكتابة . وذلك حين يعنّ لهم خاطر أو حين يريدون ابلاغ رسالة أو تقييد أمر هام ، مثل وقوع اعتداء على شخص ، فيكتب ما وقع له ، وهو لا زال متمكناً من الكتابة ، على ما قد يكون عنده ، حتى يعلم بمصيره من قد يمر به ميتاً[5] . وقد حفر (قيسبة بن كلثوم السكوني) على رحل (أبي الطمحان القيني) رسالة ، دوّنها بسكين[6] . ودوّن أحدهم ، وهو يحتضر ، خبر قتله على راحلة قاتله ، بعد أن غافله ، ذكر فيها اسم قاتله[7] . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل ، توسل فيها كاتبوها بمختلف الوسائل لايصال رسائلهم الى من يريدون وصولها لهم . وقد وصلت بعضها وجاءت بالنتائج التي كان يريدها أصحابها منها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٠ وما بعدها) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢٣) ، HASTINGS, p. 981.
٣ Hastings, p. 981.
٤ عيون الاخبار (١/٤٢) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (٣/٣ ص ١٥١) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
٦ الاغاني (١١/١٣١) .
٧ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

وأما المادة التي يكتب بها ، فهي عديدة ، أهمهـا : الحبر ، ويعرف أيضاً بالمداد[1] . ويصنع من مواد متعددة تترك أثراً في المادة التي يكتب عليهـا . من ذلك الزاج وسخام المصابيح ، يمزج مع مادة لزجة مثل صمغ العفص أو صمغ آخر ، فيكتب به . ولما كان الحبر أسود ، قيل له (ديو) في العبرانية ، وقد عرف بهذا المعنى أي (سواد) في اليونانية كذلك[2] .وعرف بـ Atramentum في اللاتينية، وهي في المعنى نفسه[3] .

وقيل للمداد (نِقس) ، وقد وردت اللفظة في بيت شعر للشاعر (حميد بن ثور) حيث قيل إنه قال :

لمن الديار بجـانب الحبس كخط ذي الحاجات بالنقس[4]

وأشير الى (المداد) في شعر لـ (عبدالله بن عنمة) ، حيث يقول :

فلم يبق إلا دمنـة ومنازلٌ كما رُدَّ في خط الدواة مدادها[5]

وقد ذكر (المداد) في القرآن : « قـل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربي »[6] ، « يقول عزّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات ربي لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربي »[7] ، فالمـداد إذن من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الإسلام .

وقد صُنع الحبر من مواد مختلفة ، صنعه العبرانيون من سخام المصابيح ، أما المصريون فصنعوه من مـواد متعددة ، فصار اتقن من المداد العبراني ، ولذلك حافظ على بريقه ولونه ، كما أنـه لا يمحى بسهولة ، بينما كان الحبر العبراني

---

١ شرح القاموس (٢/٤٩٨) ، (٣/١١٧) ، المفردات (ص ١٠٤) .

٢ بلوغ الارب (٣/٣٧٢) ، Smith, A Dict., III, p. 1802.

٣ Hastings, A Dictionary, II, p. 472.

٤ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصرالدين الاسد (ص ١٠٠) .

٥ المفضليات (٧٤٣) .

٦ الكهف ، الآية ١٠٩ .

٧ تفسير الطبري (١٦/٣١) ، صبح الاعشى (٢/٤٧١) .

قابلاً للغسل بكل سهولة [١] . ولا نجد بين العلماء اتفاقاً في أصل معنى (الحبر) ، مما يدل على أن اللفظة [٢] من المعربات . أما المداد ، فذكر علماء اللغة ، أنه ما مددت به السراج من زيت ونحوه ، ثم خص بالحبر . والظاهر أنها أخذت من سخام الزيت الذي يحترق في السراج ، وأنها تعني (سواد) ، على نحو ما نجده في لفظة Melan اللاتينية ، التي تعني السواد ، سواد السراج ، وخصصت بالحبر [٣] .

وليست لدينا أخبار عن كيفية صنع الحبر عند الجاهليين ، ولم يصل الينا نص جاهلي مدون بالحبر نتمكن بتحليل مادته من الوقوف على تكوينه . ولكننا نستطيع أن نقول إن حبر الجاهليين لم يكن يختلف عن أنواع الحبر المستعملة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد وأبسطها الحبر المصنوع من الفحم المسحوق ، مضافاً اليه الماء وقليل من الصمغ في بعض الأحيان . والحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار وعصاراتها ، أو من مسحوق عظام الحيوانات المحروقة أو من بعض الأوراق المؤكسدة بالحديد وببعض المعادن . ويراد بالحبر ، الحبر الأسود في الغالب ، غير ان القدماء كانوا يستعملون أصباغاً مثل الأحمر والأخضر ، في تدوين الشروح والملاحظات والأمور المهمة التي تلفت النظر ، كما استعملت في التصوير وفي رسم بعض الرسوم التوضيحية ، كما يظهر ذلك من الأوراق القديمة التي عثر عليها في مصر وفي اليونان وغير ذلك من الأماكن . وقد ورد في كتب الحديث النبوي وموارد اسلامية أخرى ، ان الجاهليين كانوا يستعملون الصور والنقوش . ويريدون بالنقش تلوين الشيء بلونين أو عدة ألوان . ويقولون له : النمنمة كذلك [٤] . وكان منهم مصورون يصورون الانسان والحيوان والأشجار وغير ذلك . وقد نهى الرسول عن تصوير كل ما هو ذو روح . وهذا التحريم هو دليل شيوع التصوير واستعمال الصور عند الجاهليين .

ويحفظ الحبر في أداة ، يقال لها (الدواة) و (المحبرة) [٥] ، يحملها الكاتب

---

١ Hastings, p. 383.
٢ تاج انعروس (٤٩٨/٢) ، (مدد) .
٣ Hastings, p. 383.
٤ شرح القاموس (٣٥٨/٤ وما بعدها)
٥ تاج العروس (١٣٣/١٠) ، تفسير ابن عباس (٤٥١) .
٦ تاج العروس (١١٧/٣) .

معه ، فيعلقها بحزامه ، أو يضعها تحت ثيابه ، ويكون لها غطاء يمنع الحبر أن ينساب منها ، ويكون بها تجويف تخزن فيه الأقلام والمقطة . وقد تكون المحبرة كأساً صغيرة ذات غطاء يخزن الحبر فيها . وقد عرفت لذلك بـ (كست هسفر) (كاست هاسيفر) ، أي (كأس الكتاب) في العبرانية [١] . وقد بقي الكتّاب وطلاب العلم والعلماء يستعملون تلك المحابر القديمة الى عهد قريب ، إذ حلت محلها الأقـلام الحديثة المحملة بالحبر ، وما زال بعض رجال الدين ومن يعنون بجمال الخط وتحسينه يستعملون أقلام القصب والحبر القديم على الطريقة القديمة المذكورة.

وقد عرفت المحبرة الكبيرة التي يحفظ فيها الحبر والأقلام والمقطة ومواد الكتابة الأخرى بـ (قلمارين) .(قلماريون) (ق ل م ر ي ن) في (المشنا) أي المقلمة في العربية ، تمييزاً لها عن أداة أخرى عرفت بـ (ترنتوق) ، وهي مقلمة توضع فيها الأقلام والمبراة . وهناك لفظة أخرى ، هي (لبلرين) وتقابـل Libelari في اللاتينية يطلقها المتأدبون على المقلمة [٢] .

وقد أشير الى الدوي ، أي المحابر في بيت شعر ينسب لأبي ذؤيب :

عرفت الديار كخط الدويـ ي حبّره الكاتبُ الحميري [٣]

وذكر أن من أسماء المحبرة (ن) وأن (ن والقلم) بمعنى الدواة والقلم [٤] .

وقد كان من عادة الكتّاب ترميل الكتابة لتجف ، وكانوا يضعون الرمـل في إناء خاص ثم يذرون منه شيئاً على الكتابة .

وأما المواد التي يكتب عليها ، فعديدة ، تتوقف على ظروف المكان ومقدرة أهله المالية ، منهـا الحجر والخشب ومختلف أنواع المعادن والطين وورق الشجر والجلود والقراطيس واكتاف الإبل واللخاف والعسب والقضم وغير ذلك [٥] . والى الحجر المكتوب ، يعود الفضل الأكبر في حصولنا على معارفنا عن عرب اليمن

---

١ Smith, A Diction., I, p. 1802.

٢ Smith, A Dictio., III, p. 1789.

٣ اللسان (١٤/٢٧٩) .

٤ اللسان (١٣/٤٢٧) ، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي (٤٥١).

٥ الفهرست (ص ٣١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٥) ، الفائق (٢/١٥٠) .

قبل الإسلام ، وعرب بلاد الشأم وأعالي الحجاز . فلولاه لكان علمنا بهم نزراً يسيراً .

والعسب ، جريد النخل ، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . ولوفرته في الحجاز استعمله كتاب الوحي وحفظة القرآن في تدوين الوحي عليه . وقد رجع اليه زيد بن ثابت في جملة ما رجع اليه من مواد يوم كُلِّف جمع القرآن الكريم[1]. وقد ورد (عسيب يماني) في شعر لامرىء القيس ، هو قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني[2]

وقد ورد عن (زيد بن ثابت) ، ان (أبا بكر) لما أمره بجمع القرآن ، أخذ يتتبعه من (الرقاع والعسب واللخاف) ، واللخاف : حجارة بيض. وورد في حديث (الزهري) : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن في العسب والقضيم والكرانيف »[3] .

وذكر (لبيد) العسب في شعره حيث ورد :

متعود لحن يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان[4]

والجريد من مادة التدوين عند أهل الحجاز . والجريدة السعفة ، بلغة أهل الحجاز ، وفي الحديث : كتب القرآن في جرائد ، جمع جريدة[5] .

واستعمل (الكرناف) (الكرانيف) و (الكرب) مادة للكتابة كذلك . وقد ورد أن كتبة القرآن استعملوا الكرانيف مادة لتدوين الوحي[6] . والكرانيف والكرب ، أصول السعف الغلاظ العراض التي تلاصق الجذع ، وتكون على هيأة الأكتاف[7] . قال الطبري قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « ولم يكن

---

١ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) ، تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٠) ، تاج العروس (٥/١٢٩) .
٣ الفائق (٢/١٥٠) .
٤ الامالي (١/٥) .
٥ اللسان (٣/١١٨ وما بعدها) ، (جرد) .
٦ تفسير الطبري (١/٦٣) ، الفائق (٢/١٥٠) .
٧ تفسير الطبري (١/٦٣) .

القرآن جمع ، وإنما كان في الكرانيف والعسب »[1] .

واستعمل الجاهليون كتف الحيوان أيضاً ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان للكتابة عليه ، وقد كتب عليه كتبة الوحي . وفي الحديث : ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده.أو ائتوني باللوح والدواة والكتف[2]. ولما كانت العظام مادة مبذولة ميسورة في استطاعة الكاتب الحصول عليها بغير ثمن ، وهي صالحة للكتابة بكل سهولة على شكلها الطبيعي أو بعد صقل وتشذيب قليلين ، لذلك استعملها الكتاب بكثرة . فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن . وقد ذكر (ابن النديم) أن في جملة العظام التي كتب عليها العرب : أكتاف الإبل[3] .

وكانوا إذا كتبوا في الأكتاف حفظوا ما كتبوه في جرة أو في صندوق حتى يحفظ ، ويكون في الامكان الرجوع اليه . وقد كانت الأكتاف في جملة المواد المكتوبة التي استنسخ (زيد بن ثابت) منها ما دوّن من القرآن .

واستعملوا الجلود مادة من مواد الكتابة : الجلد المدبوغ والجلد الغير المدبوغ . وقد كانوا يدبغون الجلد أحياناً ويصقلونه ويرققونه حتى يكون صالحاً مناسباً للكتابة. وقد يدبغونه ويصبغونه،وقد ذكر علماء اللغة أنواعاً من أنواع الجلود التي استعملوها في كتابتهم،منها :

القضم ، جمع قضيم ، الجلد الأبيض يكتب فيه . وقيل الصحيفة البيضاء ، أو أي أديم كان . وقد أشير اليه في شعر للنابغة :

كأن مجرّ الرامسات ذيولها   عليه قضيم نمقته الصوانع[4]

وأشير الى (القضيم) و (القضيمة) في شعر (زهير بن أبي سلمى)[5] ، وفي شعر (امرىء القيس)[6] .

---

١ تفسير انطبري (١/٦٣) .
٢ تاج العروس (٦/٢٢٩) ، الطبري (٣/١٩٣) (حوادث السنة الحادية عشرة) .
٣ الفهرست (ص ٣١) .
٤ تاج العروس (٩/٢٩) ، (قضم) ، الفائق (٢/١٥٠) .
٥ ديوان زهير (٢٣١) .
٦ ديوانه (ص ٨٦) .

ويظهر من تفسير العلماء للكلمة ، ان (القضيم) الصحف البيضاء المستعملة من الجلد . وذلك بأن تقطع وتصقل حتى تكون صالحة للكتابة . وقد ورد ان كتبة الوحي استعملوا القضم في جملة ما استعملوه من مواد الكتابة [1] .

وأما الأدم ، وهي الجلود المدبوغة ، فقد كانت مثل القضم من مواد الكتابة الثمينة . وقد استعان بها كتبة الوحي في تدوين القرآن [2] . كما كانت مادة لتدوين المراسلات والعهود والمواثيق [3] . وقد أشير الى (الأديم) في شعر للمرقش الأكبر [4] . وذكر ان بعضه كان أديماً أحمر ، أي مدبوغ بمادة حمراء ، ومن أنواعه (الأديم الخولاني) . والظاهر انه كان من أوسع مواد الكتابة استعمالاً في أيام الجاهلية وصدر الاسلام،لوجوده عندهم ، ولرخص ثمنه بالنسبة الى الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشأم [5] . وقد جاء في بعض الأخبار ان بعض مكاتبات الرسول كانت في الأدم [6] .

وكان الدباغون يدبغون الأهب ويصلحونها بصقلها ، فإذا دبغ الإهاب صار أديماً . وقد ذكر ان أهل مكة كانوا يشترون قطع الأديم،ويكتبون عليه عهودهم ومواثيقهم وكتبهم . ولما توفي (سعيد بن العاص) جاء فتى من قريش يذكر حقاً له في كراع من أديم بعشرين ألف درهم على (سعيد) ، بخط مولى لسعيد كان يقوم له على بعض نفقاته ، وبشهادة (سعيد) على نفسه بخطه . فأعطي حقه على ما كان مدوناً في قطعة الأديم [7] .

وذكر بعض علماء اللغة أن القرطاس : الكاغد ، يتخذ من بردي يكون بمصر. وذكر بعض آخر أن القرطاس الصحيفة من أي شيء كانت ، يكتب فيها ،

---

١ الفائق (٢/١٥٠) .
٢ تفسير الطبري (١/٥٩) ، السجستاني ، كتاب المصاحف (٢٣ وما بعدها) .
٣ نسب قريش ، للزبيري (١٧٧ وما بعدها) .
٤ الدار وحش والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم
المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٦/١٢٧) . وورد : (الدارقفر) ، عوضا عن (الدار وحش) ، المفضليات (ص ١١١) (بقلم السندوبي) (القاهرة ١٩٢٦ م) ، البيان والتبيين (٣٧٥) .
٥ تقييد العلم (٧٢/٢٥٢) ، مسند أحمد (٤/١٤١) ، الطبقات (٧/٥٤) ، نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) ، المصاحف (٢٣ وما بعدها) .
٦ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) .
٧ نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) .

والجمع قراطيس[1] . وقد وردت لفظة (قرطاس) و (قراطيس) في القرآن الكريم[2]. وورود اللفظة في القرآن الكريم دليل على وقوف العرب عليها . وهي من الألفاظ التي دخلت الى العربية من مصر أو من بلاد الشأم ، حيث استورد أهل مكة والعربية الغربية مختلف التجارة منها ، ومنها القراطيس ، ويعرف القرطاس في اليونانية بـ Khartis [3] .

ويظهر أن أهل بلاد الشأم كانوا قد استعملوا اللفظة اليونانية ، فلما نقل الجاهليون القرطاس منهم وتعلموه عنهم ، استعملوا المصطلح اليوناني بشيء من التحريف والتحوير ليناسب النطق العربي . وقد نص بعض علماء اللغة على أن اللفظة من الألفاظ المعربة[4] .

وتقابل لفظة (قرطاس) لفظة Papyri في اللغة الانكليزية . وقد كان القدماء في مصر وفي حوض البحر المتوسط يكتبون على القراطيس . وهي على صورة لفّات تلف كالأسطوانة تحفظ في غلاف حذر تلفها وتمزقها . وأسفار اليهود هي على هذه الصورة[5] . ولا زالت معابدهم تستعمل توراتهم المكتوبة على هيئة (سفر) أي مكتوبة على هيأة صفحات متصلة بعضها ببعض على شكل اسطوانة ، يسحب أحد طرفيها الذي يوصل باسطوانة أخرى ، ثم يقرأ من السفر .

وذكر علماء اللغة أن (الرقاع) ، هي القرطاس[6] .

ووردت لفظة (رق) في القرآن الكريم : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور »[7] . وقد فسّر العلماء الرق بأنه ما يكتب فيه شبه الكاغد ، أو جلد رقيق

---

١ المفردات (ص ٤٠٩) ، تاج العروس (٤/٢١٥) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٤) ، الجواليقي (ص ٢٧٦) ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) ، ابن خلدون ، مقدمة (٤٧٠ وما بعدها) ، Ency., II, p. 1036.

٢ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) ، الانعام ، الاية ٧ ، (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) ، الانعام ، الاية ٩ ، صبح الاعشى (٢/٤٨٥) .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٧٧) .

٤ الجواليقي (٢٧٦) ، الخفاجي ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) .

٥ Hastings, p. 676, 978.

٦ تاج العروس (٥/٣٦٠) .

٧ سورة الطور ، الاية ٢ وما بعدها .

يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء[1] . وقد اشتهرت جملة مواضع في الحجاز وفي اليمن بترقيق الجلد ودباغته ، ليصلح للعمل ، وفي جملته الرق المستعمل في الكتابة. ويعرف الرق بـ (رقو) Raqo و (رق) Raq في الإرمية . وتؤدي اللفظة في هذه اللغة المعنى نفسه المفهوم منها في عربيتنا ، ولهذا ذهب بعض العلماء الى ان اللفظة من أصل إرمي[2] . ومن أجود أنواع الرق ، الرق المعمول من جلد الغزال. وذكر ان الصحابة أجمعوا على كتابة القرآن في الرق ، لتيسره عندهم ، ولطول بقاء الكتابة فيه[3] .

وقد كان الكتّاب يستعملون الرق في المراسلات وفي السجلات وفي الكتب الدينية . فقد استعمل الفرس جلود البقر المدبوغة لكتابة كتبهم الدينيـة عليها ، واستعمل العبرانيون جلود الغنم والمعز والغزال لكتابة التوراة والتلمود عليها . وقد اشترطوا في الجلود أن تكون من جلود الحيوانات الطاهرة . استعملوها صحائف منفصلة ، واستعملوها صفائح على هيأة الكتب ، كما استعملوها مدورة ملفوفـة قطعة واحدة يتصل كل رأس منها بقضيب ، فتكون لفتين متصلتين ، وذلك بربط قطع الجلود بعضها ببعض وتثبيتها لتكون صحيفة واحدة طويلة مستطيلة ، يقال لها (مجلوت) (م ج ل و ت) ، أي المجلة ، من أصل (جلـل) ، بمعنى لف وأدار[4] .

وفي الشعر الجاهلي إشارات الى استعمالهـم (الرق) في كتاباتهم . وقد أشار بعضهم الى سطور الرق ، وكيف رقشها كاتبها ونمق الكتابة مسطرها . وكيف خط مملي الكتاب ما أريد إملاؤه في الرق . وقد عبر عن الخطاط الذي خط السطور على الرق بالمرقش وبالكاتب[5] . ومن أنواع الرق الجيد،الرق المصنوع بـ (خولان) والذي عرف بـ (الأديم الخولاني)[6] .

---

١ المفردات (ص ٢٠٠) ، شرح القاموس (٣٥٨/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢) بلوغ الارب (٣٧٨/٣) .

٢ برصوم (ص ٧٣) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .

٣ صبح الاعشى (٤٧٥/٢) .

٤ Smith, A Dictio., III, p. 1802.

٥ ديوان الهذليين (٧٠/٣) ، الآمدي ، المؤتلف والمختلف (٢٧) ، ديوان طرفـة (٦٨) ، ديوان حاتم الطائي (٢٣) .

٦ تقييد العلم (٧٢) .

ونجد الشاعر المخضرم (معقل بن خويلد) الهذلي ، يشير الى (مملي كتاب) يملي على كاتب ، يخط على رق ، وذلك بقوله :

فإني كما قال مملي الكتا ب في الرق إذ خطه الكاتب
يرى الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب [1]

ومعقل من سادات قومه ، ومن شعرائهم المعروفين ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى (أبرهة) [2] .

وأما (القتب) ، فالإكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير [3] . ويصنع من الخشب . وقد كتب الناس على (القتب) . وقد استخدم (الرحل) مادة للكتابة عليها ، عند الحاجة والضرورة [4] .

وقد استعملت الألواح مادة للكتابة ، ومن هذه الألواح ما صنع من الحجر ، بنشر الحجر وصقله ، ومنها ما صنع من الخشب ، ومنه من لوح الكتف أي العظم الأملس منه . واللوح كل صفيحة عريضة خشباً أو عظماً [5] . وأشير في القرآن الكريم الى اللوح ، فورد : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » [6] . وورد « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » [7] وغير ذلك . فيظهر من ذلك أن الألواح كانت تكتب فيحفظ بها ما يراد حفظه من آراه وأفكار .

وقد كان بعض الصحابة والتابعين يستعملون الألواح لتقييد ما يريدون حفظه وتقييده من أقوال الرسول ومن سيرته أو غير ذلك . فذكر أن (ابن عباس) كان يأتي (أبا رافع) ويسأله : ما صنع رسول الله يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها . وأن مجاهداً كان يسأل (ابن عباس) عن تفسير القرآن

---

١ ديوان الهذليين (٣/٧٠) .
٢ الاصابة (٣/٤٢٥) ، (رقم ٨١٣٧) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٠ وما بعدها) ، (قتب) ، السجستاني ، المصاحف (٢٠) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٢ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢) .
٥ المفردات (ص ٤٧٢) ، تاج العروس (٢/٢١٨) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٢ وما بعدها) ، شمس العلوم (١/٣٤) .
٦ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .
٨ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .

ومعه ألواحه ، يكتب فيها ما عليه عايه[1] . وعرف اللوح بـ (السبورجه) ، وهي لفظة فارسية الأصل[2] .

وقد ورد في حديث زيـد بن ثابت عن جمع القرآن أنه جمعه من الرقاع واللخاف والعُسُب . وقصد باللخاف حجـارةً بيضاً رقاقاً ، واحدها لخفة[3] . كان يكتب عليها أهل مكة .

والحجارة هي المورد الرئيسي الذي استخرجنا منه علمنا بتأريخ العرب الجنوبيين وبتاريخ أعالي الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب.ويضاف الى ذلك الصخور الصغيرة والحصى الكبيرة،فقد نقش عليها الجاهليون أوامرهم وأحكامهم وخواطرهم ورسائلهم وذكرى نزولهم في مكان ، فالفضل يعود الى هذه الكتابات في حصولنا على أخبار الجاهليين المذكورين .

وقد كتبوا على الخزف ، وبقي الناس يكتبون على الحجـارة والخزف الي الاسلام . فقد كان (أبو الطيب) اللغوي ، وهو (عبـد الواحد بن علي) ، يعلق عن (أبي العباس) ثعلب على خزف ، ثم يجلس فيحفظ ما دوّنه عليه[4] .

ويقال لما يكتب في الحجارة وينقش عليها (الوحي) . والوحي الكتابة والخط . وبهذا المعنى ورد في شعر شعراء جاهليين واسلاميين ، مثـل شعر (لبيد) ، حيث قال :

فمدافع الريّان عُرّي رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها[5]

وشعر (زهير) حيث يقول :

لمن الديار غشيتها بالفدفد كالوحي في حجر المسيل المخلد[6]

---

١ تفسير الطبري (١/٣١) ، البغدادي ، الخطيب ، تقييد العلم ، (تحقيق يوسف العش) ، (دمشق ١٩٤٩) (ص ٩١ وما بعدها) .

٢ تقييد العلم (٧٢) .

٣ تاج العروس (٦/٢٤٤) ، الفهرست (٣١) .

٤ رسالة الغفران (٦٣) .

٥ اللسان (١٥/٣٧٩) (صادر) ، البرقوقي (ص ١٤) .

٦ ديوان زهير (١٢٦ ، ١٥٠) .

وأما الورق ، فأريد به جلود رقاق يكتب فيها ، ومنها ورق المصحف[1] . ويظهر انهم أطلقوا اللفظة على القطع الرقيقة من الجلود أو من المواد الأخرى التي كانوا يكتبون عليها ، تشبيهاً بورق الشجر . ولذلك فإنها لا تعني نوعاً معيناً من الورق . كما يجوز ان يكون المراد من الورق المستورد من بلاد الشأم أو من مصر ، أو المصنوع من صقل الكتان ونسيج القطن وغير ذلك .

ولقلة وجود القصب الصالح لصنع الورق في جزيرة العرب ، لا نستطيع أن نذهب الى وجود صناعة ورق من هذه المادة في هذه البلاد ، بل كانوا يستوردونه من مصر مصدر الورق المصنوع من القصب ، والمعروف بـ (البابيروس) .

والصحيفة المبسوط من الشيء ، والتي يكتب فيها ، والكتاب ، وجمعها صحائف وصحف ، ومنها « إن هذا لفي الصُّحُف الأولى : صحف ابراهيم وموسى »[2] ، و « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة »[3] . وقد أشير الى الصحيفة في كتب السيرة حين اتفقت قريش على مقاطعة بني هاشم ، وكتبت بذلك صحيفة ، كتبها (بغيض بن عامر بن هاشم) ، أو (منصور بن عبد شرحبيل) المعروف بأبي الروم على بعض الروايات[4] . والمصحف ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين . والتصحيف قراءة المصحف وروايته على غير ما هو لاشتباه حروفه[5] .

وقد قيل للقرآن : المصحف ، وإنما سُمي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جُعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين[6] . ونقرأ في الأخبار أن بعضاً من الصحابة والتابعين كانوا يملكون صحيفة أو صحفاً دوّنوا فيها حديث الرسول أو أمراً من مور الشعر وأخبار العرب وأمثال ذلك . فكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) قد كتب حديث الرسول في صحيفة ، وقد أذن الرسول له أن يكتب حديثه فيها[7] .

---

١ تاج العروس (٨٦/٧) ، المغرب (٢٤٦/٢) ، صبح الاعشى (٤٧٦/٢) .
٢ سورة الأعلى ، الاية ١٨ وما بعدها .
٣ سورة البينة ، الاية ٢ وما بعدها .
٤ نسب قريش (ص ٢٥٤ وما بعدها) ، ابن هشام (٣٧٥/١ وما بعدها) .
٥ المفردات (ص ٢٧٦) ، المغرب (ص ٢٩٨) ، تاج العروس (١٦١/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣٧١/٣) .
٦ اللسان (١٨٦/٩) وما بعدها .
٧ تذكرة الحفاظ (٥/١) .

وقد أشير الى الصحيفة في شعر (المتلمس)[1] ، ويظهر من الشعر الذي ذكرت اللفظة فيه ، أنه قصد بها رسالة ، أي كتاباً أمر ملك الحيرة (عمرو بن هند) بتدوينه ، وأعطاه اليه ، ليحمله الى عامله على البحرين على نحو ما ورد في خبره. كما أشير الى الصحيفة في شعر شعراء آخرين[2] .

ويقال للصحيفة طرس ، ويجمع على طروس[3] . ويقال إن الطرس الصحيفة المكتوبة[4] ، وقيل: الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد فيه الكتابة . والتطريس: فعلك به . وطرّس الباب سوّده ، والطِلس : كتاب لم ينعم محوه ، فيصير طرساً . والتطريس اعادة الكتابة على المكتوب الممحو[5] .

ورأى بعض العلماء أن الصحف ما كان من جلود[6] . وذهب بعض آخر ، الى أنها من جلد أو قرطاس . وأن القرطاس والصحيفة ، هما في معنى واحد ، وهو الكاغد[7] .

وذكرت (الصحيفة) في شعر للقيط بن يعمر الإيادي ، هو قوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذلك في قصيدته التي كتبها اليهم ، يخبرهم فيها بمسير (كسرى) عليهم ، ويحذرهم من قدومه[8] .

---

١ أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس
ألق الصحيفة ، لا أبا لك انه يخشى عليك من الحبا النقرس

...

ورهنتني هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل

الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (ص ١٣٢) ، الاغاني (٢١/١٣٥) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٥٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٩) ، ديوان الهذليين (١/٦٤) ، المرزباني ، معجم (٣٠٤) ، الاصمعيات (٦٣) .

٣ صبح الاعشى (٢/٤٧٦) .

٤ فرائد اللغة (ص ٢٧٧) ، ورد في شعر للبيد :
فاجازني منه بطرس ناطق وبكل أطلس جوبه في المنكب
شرح ديوان لبيد (ص ١٥٥) .

٥ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، الاقتضاب (٩٣) ، الفائق (٢/٨١) ، اللسان (٦/١٢١) ، تاج العروس (٤/١٧٧) (طرس) .

٦ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، مبادىء اللغة (ص ٩٠) ، (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ) .

٧ صبح الاعشى (٢/٤٧٤) .

٨ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .

كما ذكرت في شعر لعدي بن زيد العبادي ، وصف فيه قصة (الزبّاء) و (جذيمة) و (قصير) ، حيث يقول :

ودست في صحيفتها اليه ليملك بُضعها ولأن تدينا[1]

وكان من عادة أهل الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف ، توكيداً للعهد ، وتثبيتاً له . وقد أشير الي ذلك في الشعر وفي الأخبار . ورد في شعر قيس بن الخطيم :

لما بدت غُدوة جباههم حنت الينا الأرحام والصحف[2]

وأشير اليها في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي ، يخاطب الخزرج بما كان بينهم من عهود ومواثيق ، إذ يقول :

وإن ما بيننا وبينكم حين يقال الأرحام والصحف[3]

ولما قاطعت قريش (بني هاشم وبني المطلب) ، كتبت بذلك كتاباً عرف بـ (صحيفة قريش) ، وختموا عليها ثلاثة خواتيم،وعلّقوها في سقف الكعبة ، وقيل : بل كانت عند أم الجلاّس مخربة الحنظلية ، خالة أبي جهل ، وقيل عند هشام بن عبد العزى[4] .

وترد الصحف بمعنى الوثائق ، وكل تسجيل يراد الاحتفاظ به للرجوع اليه عند الحاجة ، فالديون تسجل في صحف وكتب ، والأمور الهامة تسجل فيها كذلك ، هذا (علباء بن أرقم بن عوف) الشاعر اليشكري ، يذكر دَيناً دوّن في صحيفة ، فيقول :

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٢) ، الاغاني (٢/١٠١) .
٢ ديوان قيس (١٩) .
٣ مصادر الشعر الجاهلي (٦٦) .
٤ امتاع الاسماع (١/٢٥) .
٥ الاصمعيات (٦٣) ، الخزانة (٢/٣٠٤) ، (٤/٣٦٥ ، ٣٨٤) ، المرزباني ، معجم (١٦٩) ، (فراج) .

وقد ورد ذكر صحف الدين هذه في كتاب الرسول الى ثقيف، إذ جاء فيه : «وما كان لثقيف من دين في صحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم »[1].

وذكر أن الناس كانوا يكتبون بالمهارق قبل القراطيس في العراق . وقد ذكر (المهرق) في شعر حسّان :

كم للمنازل من شهر وأحوال كما تقادم عهد المهرق البالي[2]

وكانوا يغسلون الصحف المكتوبة للاستفادة منها ، بكتابة شيء جديد يراد كتابته عليها ، وذلك لغلاء مادة الكتابة وصعوبة الحصول عليها ، فيطمسون معالم الكتابة السابقة بغسلها بالماء مثلاً ، فإذا جفت كتبوا عليها. وقد تسبب هذا الغسل الى وقوع خسارة كبيرة بالنسبة لتدوين العلم ، إذ غسل هذا الماء مادة علمية ثمينة كانت ستفيدنا كثيراً بالطبع لو بقيت مدونة على الصحف . فخسرنا نحن خسارة ثمينة ولا شك لا تعوض .

واستعمل الجاهليون السبورة في الكتابة . ويريدون بها جريدة من الألواح من ساج أو غيره ، يكتب عليها . فإذا استغنوا عنها محوها ، وهي معربة . وقد رواها جماعة من أهل الحديث (ستورة) . وبهذا المعنى وردت السفورة ، وهي معربة كذلك[3] .

والمهارق من الألفاظ المعربة ، يرى علماء اللغة انها من الفارسية ، وان أصلها (مهر كُرده) (مهركرد) ، أي صُقلت بالخرز . وقد عرفها بعض علماء اللغة بأنها ثياب بيض أو حرير أبيض ، تسقى بالصمغ وتصقل ، ثم يكتب عليها . وقيل : هي الصحائف ، الواحد مهرق . وذكر الجاحظ ان الكتب لا يقال لها مهارق ، حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، أو ميثاق وأمان[4] .

١ الدكتور محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية (١٦٠) .
٢ تاج العروس (٧/٩٥) ، (هرق) .
٣ شرح القاموس (٣/٢٥٣ ، ٢٧٠) .
٤ قال الحارث بن حلزة اليشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

المعرب (ص ٣٠٣ وما بعدها ، الحيوان (١/ ٧٠) (تحقيق عبدالسلام هارون) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٦) ، المفضليات (ص ٥٣) (طبعة السندوبي) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) ، شرح ديوان الحماسة (٤/١٣٠) ، شرح القصائد العشر (٢٦٨) (الطبعة المنيرية) ، المخصص (٤/٣٤٠) ، (آياتها كمهارق الحبش) ، تاج العروس (٧/٩٥ وما بعدها) ، (هرق) ، الحيوان (١/ ٧٠) ، اللسان (١٠/٣٦٨) ، (هرق) .

ويظهر من الشعر المنسوب للحارث بن حلزة اليشكري ، ان أصل المهارق من الفرس ولهذا عبر عنها بقوله : (كمهارق الفرس) . ولعله قصد كتباً وصحفاً دينية من ديانتهم المجوسية . وقد وردت اللفظة في شعر ينسب للأعشى[1] وفي شعر آخر ينسب للحارث بن حلزة اليشكري المذكور[2] .

قال (الجاحظ) : « والمهارق ، ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، وميثاق ، وأمان » . وقال قبل ذلك : « لولا الخطوطُ لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك ، وكل إقطاع ، وكل انفاق ، وكل أمان . وكل عهد وعقد ، وكل حوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد اليه ، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة ، تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارث بن حلزة ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه ، العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي ، وهل ينقض ما في المهارق الأهواء »[3]

وقد أشار (الحارث بن حلزة) اليشكري الى (مهارق الفرس) ، وذلك في قوله :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس[4]

ونوع آخر من (المهارق) عمل من الكرابيس ، أي من الثياب المصنوعة من الكرباس وهو القطن الأبيض ، وذلك بسقي الكرباس ، بصمغ أو بإطلائه بشيء آخر يسد المسامات ، ثم يصقله بالخرز[5] . فهو إذن من النوع الجيد الغالي بالنسبة

---

١ ربي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا
ديوان الاعشى (٢٢٩) (القاهرة ١٩٥٠ م) ، أدب الكتاب (١٠٦) ، (وإذا تنوشد) ، اللسان (١٠/٣٦٨) ، (هرق) .

٢ حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء ؟
شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٧) ، المفضليات (٢٥) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (٢٦٨ وما بعدها) .

٣ الحيوان (١/٦٩ وما بعدها) .

٤ المفضليات (١٣٢) .

٥ شرح المعلقات (٢٠٠ وما بعدها ، ٢٦٨ وما بعدها) .

الى مواد الكتابة ، ولذلك كانوا يستعملونه في الأمور الكتابية الجليلة .

وقد أشير في شعر (الأسود بن يعفر) الى سطور يهوديين في مهرقيها مجيدين في الكتابة ، هما من أهل (تيماء) أو من (أهل مدين)[1] . ولم يشر الى نوع القلم الذي كتبا به ، وأغلب الظن أنه قلم عبراني .

وقد استعمل الجاهليون (الصكوك) في تعاملهم . وذكر علماء اللغة أن (الصك) الذي يكتب للعُهدة ، وكانت الأرزاق تسمى صكاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك ، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتباً ، فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ، ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض . وذكروا أن اللفظة من الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي[2] . واستعملت الصكوك في الدين . فورد (صك دين)[3] .

وقد أمدتنا جزيرة العرب بحجارة كثيرة مكتوبة،ولكنها لم تمدنا باللبن المكتوب أو الطين المكتوب المشوي بالنار إلا في النادر . مع أن الكتابة على الطين أسهل من الكتابة على الحجر . ولعل وجود الحجر بكثرة في العربية الغربية والجنوبية ومقاومة الحجر للبلى والتلف هما اللذان دفعا أهل هذه البلاد على تفضيل الحجر في الكتابة على الطين . ولا يستبعد عثور الآثاريين والمنقبين في المستقبل على كتابات جاهلية مسجلة على الطين ولا سيما في المناطق الماحلة أو التي يقل فيها وجود الحجر ، هي الآن مطمورة في باطن الأرض .

وأعطوا للصحف أسماء اذا كانت قد كتبت في أغراض خاصة . فإذا كانت الصحيفة اعطاء أرض لشخص ، كإقطاعه أرضاً ، يعطى الشخص صحيفة مدونة بذلك ، تثبت له تسجيل الأرض المقطعة باسمه يقال لها (الوصر) و (الاصر) . وقد ذكر علماء اللغة ان الاصر : العهد والعقد . وقيل العهد الثقيل[4] . وان

---

١ سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين
مصادر الشعر الجاهلي (٨٢) .

٢ اللسان (١٠/٤٥٧) ، (صكك) ، مفاتيح العلوم (ص ٣٨) .

٣ مجالس ثعلب (٢٧) .

٤ تاج العروس (٣/١٤) ، (أصر) .

(الوصر) الصك الذي تكتب فيه السجلات . والأصل اصر ، سمي به لأن الأصر العهد ويسمى كتاب الشروط كتاب العهد والوثائق، ويطلق غالباً على كتاب الشراء. قال عدي بن زيد :

فأيكم لم ينله عرف نائله دثراً سواما وفي الأرياف أوصارا[1]

أما اذا كانت الصحيفة صحيفة جوائز ، كان يعطي الملك جوائـز لأصحابه وأتباعه ، قيل للصحف التي يدون قدر الجائزة أو نوعها عليها القطوط والمفرد : القط . وقد ذكرها الأعشى في شعره :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بإمته يعطـي القطوط ويأفق[2]

وورد ذكرها في شعر المتلمس ، إذ قال :

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل قط مضلل[3]

وقد عرفت (القط) انها الصك بالجائزة ، وهي الصحيفة للانسان بصلة يوصل بها . وقيل القط الصحيفة المكتوبة وكتاب المحاسبة . قيل : سميت قطوط لأنها كانت تخرج مكتوبة في رقاع وصكاك مقطوعة[4] .

وقد كانت الحاجة تدفع الكتّاب الى تدوين ما يريدون تقييده وكتابته على ملابسهم وعلى راحة أيديهم ، بل على نعالهم أحياناً . روي عن (سعيد بن جبير) انه قال : « كان ابن عباس يملي علي في الصحيفة حتى أملأها وأكتب في نعلي حتى أملأها »[5] . وقد كانوا يكتبون على الهودج أو على أي شيء يجدونه أمامهم، مثل الرحل ، لندرة الورق عندهم ولحاجتهم الى تسجيل ما يسمعونه ، أو ابلاغ قومهم بسر أو برسالة ، فيغافل المرسل من يعرف أنه قاصد الجهة التي يريدها

---

١ تاج العروس (٣/٦٠٢) ، (الوصر) .
٢ تاج العروس (٥/٢٠٩) ، (قطط) .
٣ البطليوسي ، الاقتضاب (٩٣) ، مصادر الشعر (٧٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٥/٢٠٩) ، (قطط) .
٥ تقييد العلم (١٠٢) .

فيحفي بسكينه على الراحلة ما يريد تبليغه من سر[1] . وورد عن (سعيد بن جبير) قوله « كنت أكتب عند ابن عباس في صحيفتي حتى أملأها ، ثم أكتب في ظهر نعلي ، ثم أكتب في كفي » . وروى انهم كانوا يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء ، وان (الزهري) ربما كتب الحديث في ظهر نعله مخافة ان يفوته[2] .

ولفظة : (كتب) التي نستعملها اليوم ، ومن أصلها اشتقت لفظة (كتابة) و (كتاب) وكاتب وأمثالها ، هي من الألفاظ العربية الشمالية المعروفة المتداولة عند الجاهليين . وقد وردت لفظة (كتاب) بمعان متعددة ، منها هذا المعنى المعروف ، ومنها الصحيفة مع المكتوب فيها . وقد قصد بها التوراة في مواضع من القرآن الكريم . وأريد بـ (أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، أهل التوراة والانجيل[3] .

وقد استعملت اللحيانية لفظة (كتب) أيضاً ، فوردت في عدد من الكتابات . وعبرت عن (الكتابة) و (الخط) بلفظة (هكتب)[4] . والهاء أداة للتعريف عندهم ، ويجوز انهم كانوا ينطقون بها على هذه الصورة : (هكتاب) ، أو (هاكتاب) ، أي : (الكتاب) و (الكتابة) .

ومتى فكر الإنسان في الكتابة تذكر (القراءة) . فالكتابة التدوين ، والقراءة قراءة الشيء المدوّن . ولهذا يقال : القراءة والكتابة ، كما يقال : قارىء كاتب ، أي يحسن ويجيد الحالتين . فقد كان البعض يقرأون ولا يكتبون . روي أن (عائشة) كانت تقرأ المصحف ، ولا تكتب ، وأن (أم سلمة) كانت مثلها تقرأ ولا تكتب[5] .

ونجد لفظة (كتاب) في شعر عدد من الشعراء الجاهليين . وقد استعمل (عدي ابن زيد العبادي) (كتاب الله) في شعره[6] ، ولما كان هذا الشاعر نصرانياً ،

---

١ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ، الطبقات (٣/٢ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢)، المصاحف (٢٠) .
٢ تقييد العلم ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ .
٣ المفردات (ص ٤٣٤ وما بعدها) .
٤ راجع النصين ٤٨ و ٤٩ من كتاب : Lihyanisch, S. 99.
٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .
٦ وناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتفع
شعراء النصرانية (ص ٤٧٢) .

يكون قصد بـ (كتاب الله) الإنجيل ولعله قصد التوراة والإنجيل معاً . وجاءت جملة : (آيات الكتاب) في شعر (تميم بن أبي بن مقبل العامري)[1] . أما زهير ، فقد استعمل لفظة (كتاب) أيضاً في معنى الشيء الذي يكتب ويدوّن عليه ليحفظ لوقت الحساب[2] .

وتؤدي لفظة (كتاب) معنى رسالة . فقد كانوا يطلقون على الرسالة لفظة (كتاب) ، والجمع (كتب) . ومن ذلك ما ورد في خبر (كتب رسول الله الى الملوك)[3] و (خبر كتاب مسيلمة الى رسول الله والجواب عنه)[4] .

ولفظة (دفتر) ، في معنى جماعة الصحف المضمومة ، وهي الكراريس[5] . وفي قول عمرة : « ولو انطبق عليكم الدفتر » ، يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس[6]. ولا أظن أن اللفظة قد دخلت العربية في أيام عمر ، بل لا بد وأن تكون من الألفاظ المستعملة في الجاهلية . وذكر أن الدفتر جريدة الحساب والكراسة[7] .

والكراسة الجزء من الصحيفة والكتاب . يقال : « هذا الكتاب عدة كراريس » ، و (كرّاس أسفار)[8] . وترد اللفظة في لغة بني إرم ، بمعنى (كتيب) وجزء من كتاب يحتوي في الغالب ثماني ورقات[9] .

وكانوا يسجلون عقودهم وأخبارهم في كتب ، أي صحف ، من ذلك ما ورد في قصة النعمان مع (الحارث بن ظالم) ، فقد ورد انه كتب اليه كتاباً وكان يومئذ بمكة يؤمنه إن عاد اليه ، فلما جاء الى (النعمان) ، وقال له : أنعم صباحاً أبيت اللعن ، انتهره الملك بقوله : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النعمان : كتابي والله ما أنكره أنا كتبته[10] . وكان (عبد الرحمن ابن عوف) ، قد كاتب (أمية بن خلف) في أن يحفظه في صاغيته بمكة ،

---

١ جمهرة أشعار العرب (٣١٨) .
٢ يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم
ديوان زهير (١٨) .
٣ تأريخ الطبري (٢/٦٤٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٤٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤/٢٨١) ، (دفتر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٧ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٨ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٩ غرائب اللغة (٢٠٣) .
١٠ الاغاني (١١/١٢٠) .

وأن يحفظه في صاغيته بالمدينة ، وكتبا هذه المكاتبة في كتاب[1] .

وترد لفظة (كتاب) بمعنى اعلان واحقاق حق ، كالذي ورد في خبر (رؤيا) (عاتكة بنت عبد المطلب) ، عن مصير معركة (بدر) ، وقول قريش للعباس : « يا بني عبد المطلب ! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها انه قال : انفروا من ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً انكم أكذب أهل بيت في العرب »[2] .

ويعبر عن الكتابة بالخط ، وتعني لفظة خطّ ، كتب . في القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك »[3] . وقد عبر عنها بالقلم كذلك ، فقيل : القلم العربي ، والقلم الحميري . ويراد بالقلم الحميري المسند ، ويقولون له الخط المسند كذلك . وقد بقي ناس من أهل اليمن يكتبون به في الإسلام[4] . وقد وردت لفظة (هخطط) ، أي الخط والرسم ، في النصوص الصفوية[5] . وهذا يدل على أن هذه اللفظة هي من الألفاظ التي كان يستعملها العرب الشماليون . والهاء في (هخطط) أداة التعريف (ال) في عربيتنا .

وتعبر كلمة (سطر) عن معنى خط وكتب . و (السطر) الخط والكتابة . ووردت لفظة (يسطرون) في القرآن الكريم في سورة (ن) بمعنى يكتبون[6] . ووردت لفظة (سطر) في نص (أبرهة) بهذا المعنى أيضاً . كما نجدها في نصوص عربية جنوبية أخرى ، مما يدل على ورودها في اللهجات العربية الجنوبية كذلك . وتقابلها لفظة (سرتو) Serto و (سورتو) Sourto من الفعل (سرت) Srat في الإرمية . ومن هنا ذهب بعض الباحثين في الإرمية الى أن (سطر) العربية هي

---

١ الزمخشري ، الفائق (٢/٢٦) .

٢ ابن هشام (٢/٦٢) ، (حاشية على الروض) .

٣ سورة العنكبوت ، الاية ٤٨ ، المفردات (ص ١٥٠) .

٤ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٥ CIH, Pars Quinta, I, p. 27, NU : 141, Dunand, 1249a, p. 385, NU : 3943, J. Ryckmans', Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 3, Littmann, Safa., p. 80, 82.

٦ سورة القلم ، الرقم ٦٨ ، الاية ١ وما بعدها .

(كلمة سريانية الأصل)[1] . وهو رأي يمثل وجهة نظر طائفة من الباحثين ترجع أصول أكثر المصطلحات الحضارية والثقافية الواردة في العربية الى أصل سرياني . وفيه تسرع وبعد عن العلم .

والسطر ، الصف من الشيء . والتسطير ، كتابة بسطور ، أي الخط والكتابة[2] . وقد كان معظم الجاهليين يجعلون كتابتهم سطوراً سطراً فوق سطر ، ليكون من الممكن تتبع الكتابة إلا بعض الكتابات الصفوية والثمودية واللحيانيــة التي اتخذت أشكالاً مختلفة ، تارة على هيأة هلال ، وتارة أخرى على شكل دائرة ، وحيناً على شكل غير منسق ولا منظم ، إذ كان أصحابها رعاة في الغــالب متنقلين ، فلم تكن كتابتهم متقنة ، كما أنهم لم يكونوا يملكون ورقاً وقرطاساً ، فكتبوا على أية حجارة وجدوها ، فاختلف شكل الخط لذلك .

والتسطير التخطيط . أي تدوين السطور وتخطيطها على شكـل خطوط . ومن المجاز خططت عليه ذنوبه ، أي سطرت[3] . ووردت لفظة (اسطرن) (الأسطر) بمعنى الوثيقة والسطور في كتابات المسند[4] .

ونجد في شعر للشاعر (الشماخ) ، وصفاً للخط ، كتبه حبر بتيماء من أسطر ، عرض فيها وأثبج . إذ يقول :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا   بذروة أقوى بعد ليلى وأقفرا
كما خط عبرانيـــة بيمينه   بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

« والتعريض أن يثبج الكاتب ولا يبين الحروف ولا يقوم الخط »[5] .

وترد لفظة : (النقش) بمعنى الكتابـة والتدوين والتخطيط . ورد : رجّع النقش ، والوشم ، والكتابة : ردد خطوطها ، وترجيعها أن يعاد عليهـا السواد مرة بعد أخرى . ومنه رجع الواشمة . قال لبيد :

---

١ برصوم (ص ٨٣) ، الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، غرائب اللغة العربية (بيروت ١٩٠٧) (ص ١٨٧) ، Smith, A Dictio. III, p. 1789.

٢ تاج العروس (٢٩٦/٣ وما بعدها) ، (سطر) .

٣ تاج العروس (١٣١/٥) ، (خط) .

٤ Le Muséon, 1953, 1-2, p. 114.

٥ تاج العروس (٥٠/٥) ، (عرض) .

أو رجع واشمة أسف تؤورها كففا ، تعرض فوقهن وشامها

وقول زهير :

مراجيع وشم في نواشر معصم[1] .

وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (زَبَر) . و (الزبر) الكتابة . ويذكر علماء اللغة انها تعبر عن معنى النقش في الحجارة كذلك . وأما (المِزبر) ، فهو (القلم). كما ذكرت ذلك قبل قليل . وقد ورد في حديث وفاة الرسول انه دعا بدواة ومزبر ، أي قلم[2] . وذكر ان الزبور الكتاب[3] . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . فلفظة (زبر) بالفتح اذن فعل ماض بمعنى كتب ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (ذَمَرَ) . فنقول (ذمرتُ الكتابَ) ، أي زبرته وكتبته[4] . ويقصد بـ (الزبور) في القرآن الكريم ، المزامير ، أي (مزامير داوود) . وتقابل لفظة (زمره) (زمراه) في العبرانية[5] .

ويظهر من البيت المنسوب الى لبيد :

فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان[6]

ومن البيت المنسوب الى (أبي ذؤيب) :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري[7]

ان أهل اليمن كانوا قد اشتهروا بالكتابة والقراءة بين الجاهليين وان ولدان أهل اليمن كانوا يرجعون أي يقرأون ويكررون ما هو مزبور أمامهم لحفظه . وأن (الكاتب الحميري) ، أي كاتب أهل اليمن كان معروفاً مشهوراً ، يحمل

---

١ اللسان (٨/١١٥) ، (رجع) .
٢ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٤ الاشتقاق (ص ٣٠) .
٥ A Dictionary of Islam, p. 698.
٦ ديوان لبيد (١٣٨) .
٧ ديوان الهذليين (١/٦٤) .

الدواة ويكتب بها على مادة الكتابة . « قال أعرابي حميري : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي[1] .

وأشير الى (خط زبور) في شعر امرىء القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان[2]

وذكر علماء اللغة أن (الزبور) الكتاب ، وفي هذا المعنى ورد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

وذكروا أن الزبور قد غلب على كتاب (داوود) ، أي (المزامير) ، وكل كتاب زبور . وقيل : هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية[3] .

واستعمل (الهمداني) جملة : (زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية) ، وقال إن (أبا نصر) الحنبصي ، كان قد قرأها وكان بحاثة عالماً بها . وقد فرّق بين (الزبر) وبين (المساند)[4] ، مما يدل على أنه قصد بالزبر شيئاً آخر يختلف عن المساند ، ربما أراد بالزبر صحفاً أو مجموعة صحف ، أو كتاب ، أما المساند ، فالكتابات المدوّنة على الحجر .

ومن المصطلحات المعبرة عن معنى كتب ونقش وختم لفظة (رقم) . و(كتاب مرقوم) ، بمعنى مكتوب ، وأما المرقم فالقلم ، لأنه يرقم به[5] . وذكر بعض علماء اللغة أن الرقم : الخط الغليظ ، وقيل : تعجيم الكتاب . وقد ورد في القرآن الكريم : (كتاب مرقوم)[6] . وذكر أن: (الرقيم) ،الكتاب . والكتابة والختم[7] .

---

١ الامالي ، للقالي (٢/١٧٢) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٥) .
٣ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) ، راجع معلقة لبيد .
٤ الاكليل (١/١٣) .
٥ تاج العروس (٨/٣١٥ وما بعدها) ، (رقم) ، التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون (١/٦٥٢) .
٦ سورة المطففين ، الآية ٩ ، المفردات (٢٠١) .
٧ بلوغ الأرب (٣/٣٧١) ، اللسان (١٢/٢٤٨ وما بعدها) .

« وفي الحديث أنه كان يسوي الصفوف حتى يدعها مثل القدح أو الرقيم ، أي مثل السهم أو سطر الكتابة » . وليس بين الرقوم والخطوط فرق[1] .

يقول علماء العربيــة : « ورقم الكتاب : أعجمه وبيّنه ، أي نقطه وبين حروفه . وكتــاب مرقوم : قد بُيّنت حروفه بعلاماتها من التنقيط »[2] . وإن الإعجام التنقيط بالسواد ، مثل التاء عليها نقطتــان[3] . وأن التنقيط بمعنى وضع النقط عــلى الحروف ، أي إعجامها[4] . ويحملنا قولهم هذا على الذهاب الى أن الاعجام كان معروفاً بين الجاهليين .

وفي هذا المعنى ، أي الرقم والترقيم والرقيم ترد لفظة (الترقين) ، و(الرقن)، و (المرقون) ، و (الرقين) . و (ترقين الكتاب : المقاربة بين السطور . وقيل نقط الخط واعجامه ليتبين ، وأيضاً تحسين الكتاب وتزيينه)[5] . « والترقين تسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كيلا يقع فيه حساب)[6] .

وقد وردت لفظة (المنمق) وجملة (الكتاب المنمق) في شعر ينسب لسلامة ابن جندل ، هو :

لمن طللٌ مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصُّليب فمطرق[7]

وذكر علماء اللغة ان معنى (نمق) كتَب . فيقال : نمق الكتاب ينمقه ، أي كتبه وحسّنه وزيّنه بالكتابة وجوده[8] . وفي هذا المعنى نبق ، فيقال : نبق الكتاب ونمقه اذا سطره[9] . أما لفظة ، دبج ، فتعني النقش والتزيين[10] .

---

١ اللسان (٢/٥٥٦) ، الحيوان (١/٧٠) .
٢ تاج العروس (٨/٣١٥) ، (رقم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (٥/٢٣٤) ، (نقط) .
٥ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٦ المصدر نفسه .
٧ الاصمعيات (١٤٦) ، (دار المعارف) .
٨ قال النابغه :
كأن مجر الرامسـات ذيولهــا عليــه قضيم نمقتــه الصوانع
تاج العروس (٧/٨١) ، (نمق) .
٩ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
١٠ تاج العروس (٢/٣٧) ، (دبج) .

وذكر علماء العربية ان (الرقش) الخط الحسن ، وان الرقش والترقيش : الكتابة والتنقيط ، وان (رقش) ، بمعنى نقط الخطوط والكتاب . وأن الترقيش: التسطير في الصحف[1] . ويظهر ان للكلمة علاقة بتنميق الخط وتحسينه وتجويده ، وان الخط المرقش ، هو الخط المنمنم المزوّق المنقط المعتنى به . قالوا : ومن هنا سمي الشاعر (المرقش) مرقشاً . وهو المرقش الأكبر عم (المرقش الأصغر) . ويدل هذا التفسير لمعنى (الترقيش) على ان التنقيط كان معروفاً عند الجاهليين . ورووا له قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم[2]

وقد وردت لفظة (رقش) في شعر ينسب للأخنس بن شهاب التغلبي ، هو :

لابنة حطّان بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب[3]

كما وردت في شعر لطرفة ، هو :

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمه[4]

و (اللمق) الكتابة في لغة (بني عقيـــل) ، وسائر (قيس) يقولون : اللمق : المحو . وقال بعضهم : « لمقه بعدما نمقه ، أي محاه بعدما كتبه » . فهو ضد . يقال لمقه اذا كتبه ولمقه اذا محاه[5] .

و (النبق) الكتابة ، مثل النمق . ونبق الكتاب ونمقه اذا سطره[6] .

و (القرمطة) في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور، وقرمط الكاتب إذا قارب بين كتابته . وكان الامام (علي) ، يقول للكاتب : « فرج ما بين السطور وقرب بين الحروف »[7] .

---

١ اللسان (٦/٣٠٥) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٢ الاصمعيات (٢٣٧) ، (دار المعارف) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٣ الخزانة (٣/١٦٥) .
٤ الامالي ، للقالي (٢/٢٤٦) .
٥ تاج العروس (٧/٦٣) ، (لمق) .
٦ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
٧ تاج العروس (٥/٢٠٤) ، (قرمط) .

و (النمنمة) ، خطوط متقاربة قصار ، وكتاب منمنم ، منقش ، ومرقش ومزخرف ، أي به زخرفة . ولكل وشي نمنمة . فيظهر من ذلك أن بعض صحف وكتب أهل الجاهلية كانت منمنمة ذات رقوش ونقوش ووشي . وقد نعت (الجاحظ) الخط المسند بـ (المنمنم)[1] .

ويعبر عن الكتابة بلفظة (النقر) على سبيل المجاز. وقد ورد (نقر في الحجر) بمعنى كتب[2] ، وذلك لأن الحجر المكتوب ، هو حجر منقور ، ظهرت الكتابة عليه بطريقة النقر . وكل ما ورد الينا من الكتابات الجاهلية قد كتب على الحجر أو الخشب بالنقر والحفر .

والمشق السرعة في الكتابة . وقيل مشق الخط يمشقه مشقاً : مدّه . فالمشق الخط الممدود الذي كتب بسرعة وبعجلة . ولذلك عبّر عن القلم السريع الجري في القرطاس بـ (قلم مشاق)[3] . وورد أن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالمشق . وهو خط فيه خفة[4] .

ويعبر عن الكتابة الفاسدة المكتوبة بخط رديء فاسد بـ (كتابة مخربشة) وبـ (كتاب مخربش)[5] . وبهذا المعنى أيضاً (الخرمشة) . فالخربشة والخرمشة في معنى واحد[6] .

وقد كانوا يستنسخون الكتب والصحف والأسطر كما نفعل. فقد ورد ان منهم من استنسخ كتباً في الجاهلية والاسلام ، أي ينقلون الكتابة نقلاً بنصها وحروفها حرفاً حرفاً حتى تكون عند الناقل نسخة كاملة تامة للكتابة التي نقل عنها. والكاتب ناسخ ومنتسخ . والاستنساخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفاً حرفاً . وفي هذا المعنى ورد في القرآن : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ، أي نستنسخ ما تكتب الحفظة[7] .

---

١ اللسان (٥٩٢/١٢ وما بعدها) ، (نم) ، تاج العروس (٨٥/٩) ، (نم) ، الحيوان (٧١/١) .
٢ تاج العروس (٥٨٠/٣) ، (نقر) .
٣ اللسان (٣٤٤/١٠ وما بعدها) ، (مشق) ، تاج العروس (٧٠/٧) ، (دمشق) .
٤ الاقتضاب (٨٩) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .
٥ اللسان (٢٩٥/٦) ، تاج العروس (٣٠٤/٤ وما بعدها) ، (خربش) ، (خرمش) .
٦ اللسان (٢٩٥/٦) .
٧ الجاثية ، الآية ٢٩ ، تفسير القرطبي (١٧٥/١٦) ، (قال ابن عباس : هل يكون النسخ الا من كتاب) ، تاج العروس (٢٨٢/٢) ، (نسخ) .

وترد لفظة (الترقين) ، بمعنى ترقين الكتاب وهو تزيينه ، وقيل (رقّن الكتاب) قارب بين سطوره ، والترقين في كتاب الحسبانات . والمرقن : الكاتب[1] . وقال بعضهم : « الترقين خط يخط في التأريخ أو العريضة اذا خلا باب من السطر ، لكي يكون الترتيب محفوظاً به . وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل ، واشتقاقه من (رقان) وهو بالنبطية الفارغ »[2] . وقيل الترقين : نقط الخط وإعجامه ليتبين ، وتسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم انها بيضت كيلا يقع فيه حساب[3] .

ولفظة (قرأ) من الألفاظ الجاهلية المعروفة . وهي أصل لمعان عديدة ذوات صلة بالقراءة . وتعبر جملة (قارأه مقارأة وقراء) عن معنى دراسة . ومن الأصل المتقدم قارىء وقرّاء وقراءة[4] . ولفظة (اقرأ) ، هي أول لفظة نزل بها الوحي ، وأول كلمة من القرآن . كما ذكر ذلك أكثر المفسرين وأصحاب كتب السير والاخبار[5] . كما وردت لفظة (قارىء) في حديث أول نزول الوحي على الرسول . وفي تفسير سورة (اقرأ) . وأما (المقارىء) فبمعنى الذي قرأ الكتب[6] .

وتؤدي لفظة (تلا) معنى قرأ ، والتلاوة القراءة[7] . وترد لفظة مبروز بمعنى منشور ، استشهد على ذلك بشعر للبيد ، هو :

الناطق المبروز والمختوم[8] .

ومن أصل (درس) المدرس ودارس ومدارس ومدراس، وهي تقابل (درش) في العبرانية والسريانية . وقد ذكر علماء اللغة أن المِدْراس الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله ، ومنه مدراس اليهود، وأن المدارسة والدارسة القراءة ، وأن المدراس

---

١ اللسان (١٣/١٨٥) ، (صادر) ، (رقن) .
٢ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٣ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (١/١٠١) ، (قرأ) .
٥ راجع تفسير سورة : اقرأ باسم ربك .
٦ تاج العروس (٤/١٥٠) ، (درس) .
٧ تاج العروس (١٠/٥٢ وما بعدها) ، المفردات (ص ٧٤) .
٨ شمس العلوم (١/١٤٦) .

صاحب دراسة اليهود ، كما ذكروا أن الآيـة : « وليقولوا دارست » في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، معناها « قرأت عـلى اليهود وقرأوا عليك » ، وتعني دارس النبي اليهود . وقيل: دارست ذاكرتهم[1] . و (المِدْراس) ، من (مدراش) في العبرانية ، وتعني المدارسة بالمعنى العام . وخصصت بالشروح والتفـاسير التي وضعها الأحبار على الأسفار[2] . وتؤدي لفظة (درس) و (درش) الدراسة العميقة للفهم والتعلم ، فهي أعمق غوراً من معنى قرأ . وقد كان العبرانيون يعبرون بهـا عن دراسة الشريعة والتوراة .

وقد كان (عمرو) من (بني ماسكة) ، وهو المعروف بـ (أبي الشعثاء) قد رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة . وكان ذا قدر فيهم[3] .

وقد أشار علماء اللغة الى كتب كانت عند الجاهليين ذكروا أنها عرفت عندهم بالرواسيم جمع روسم[4] . ولم يذكروا محتوياتها ومضامينهـا . و (الراشوم) في السريانية لوح منقوش تختم به البيادر من (رشمو) Rouchmo بمعنى العلامـة . والآلة (رشمه) Rshme كما أن (رشم) Rshme معناها رسم ، ومنها الراسم والمرسوم المستعملتان في النصرانية في رسم الأسقف[5] . ولا أستبعد أن يكون مراد تلك الكتب كتباً دينية مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وعرفت لفظة (الوضائع) عند الجاهليين ، فذكر علماء اللغة أن الوضيعـة كتاب فيه الحكمة . وقد ورد في الحديث: إنه نبي وإن اسمه وصورته في الوضائع[6] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السفر) الكتاب الذي يسفر عن الحقائق . وقيـل الكتاب الكبير ، والجزء من أجزاء التوراة . وأما (السَفَرة) فبمعنى الكتبة ، وسفر الكتب كتبها . وقد ذكر علماء اللغة أن السفر ، يقابلها (سافرا) بالنبطية[7] .

---

١ تاج العروس (٤/ ١٥٠) (درس) ، أساس البـلاغة (١/ ٢٦٨) ، برصـوم (ص ٦١) .
٢ A Religious Ency. III, p. 1504.
٣ الاغاني (١٦/ ١٥) .
٤ تاج العروس (٨/ ٣١٢) .
٥ برصوم (ص ٧٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .
٦ تاج العروس (٥/ ٥٤٥) ، اللسان (٨/ ٣٩٩) ، (صادر) ، (وضع) .
٧ تاج العروس (٣/ ٢٧١) ، (سفر) .

وقصد بـ (أسفار) الواردة في القرآن الكريم ، التوراة . وبـ (سفرة) كتبة[١] . وقد قال السيوطي : إن الأسفار الكتب ، والكتاب بالنبطية يسمى سفراً[٢] .

وقد وردت لفظة (هسفر) أي (السفر) في اللهجة الصفوية بمعنى الكتابة . فورد في أحد النصوص (وعور لذ يعور هسفر)[٣] ، ومعناها (وعور للذي يُعَوّر الكتابة) ، وبعبارة أوضح (وعور للذي يوذي هذه الكتابة) . والعور في اللهجة الصفوية بمعنى عوارة أي أذية وأذى . ولا بد أن يكون مدلول (سفر) عندهم كمدلول كتب في عربيتنا . وقد وردت لفظة (سِفر) بمعنى كتابة وخط في نصوص أخرى ، إذ ورد فيه : « ووجد سفر دده »[٤] ، أي «ووجد كتابة أبيه » . و «ووجد خط أبيه » .

وترد اللفظة في العبرانيـــة أيضاً . فلفظة (س ف ر) (سافور) تعني يخط ويكتب ومن هـــذا الأصل (سيفر) Sepher ويراد بها كتاب . كتاب يلف فيكون عـــلى هيأة شيء ملفّف ، أو أوراق تجمع بعضها الى بعض وتربط[٥] . ومن العبرانية أخذ السريان لفظة (سفرو) Sefro بمعنى سِفْر . ومن هـــذا الأصل (سفر) Sfar بمعنى درس وكتب وتفقـــه وتعلم . وأمـــا Sofro فبمعنى الكُتّاب ، أي المسجلون والفقهاء والأساتذة ورؤساء ، والجمع (سوفرة) Sofre . وأما Sofroutho فهي الكتابة ، أي حرفة الكاتب والفقه والعـــلم والحذاقة[٦] . وعرف علماء اليهود حملـــة الشريعة بـ (سوفريم) Sopherim ، لأنهم يكتبون الشريعة[٧] .

---

١ المفردات (ص ٢٣٣) .

٢ المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، دمشق ١٣٤٨ (ص ١١) .

٣ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 13, NUM : 58, p. 23, NUM : 105, Dunand, 1229.

٤ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 19, NUM : 93, p. 19, NUM : 93, p. 1, NUM : 94, 95, Littmann, Saf. p. 27.

٥ Hastings p. 981.

٦ برصوم (ص ٨٤ وما بعدها) غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

٧ Smith, A Dictio., III, p. 1162.

و (السفسير) الكتاب ، و (السفاسرة) أصحاب الأسفار ، وهي الكتب .
وبه فسر قول (أبي طالب) عم النبي :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[1]

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (السجل)[2] ، وذهب بعض المفسرين الى انها بمعنى الصحيفة والكتاب[3] . وذهب بعض آخر الى انها حجر يكتب فيه ، أو كل ما يكتب فيه[4] . ولكنهم لم يذكروا شكل السجل وهيأته . وقد جعلها بعض العلماء من الألفاظ المعربة . ورجع السيوطي أصلها الى الحبشية ، فقال انها عندهم بمعنى الرجل[5] . وذهب بعض آخر الى انها من أصل فارسي[6] . ولا تزال اللفظة حية مستعملة في الدوائر ، وتطلق على الأضابير والأوراق المحفوظة بين دفتين في دوائر الحكومات والشركات والأعمال الأخرى ، كما تؤدي لفظة (مسجــل) و (يسجل) معنى مكتوب ويكتب . فلفظة سجّــل اذن بمعنى كتب ودوّن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، محرفة من Sigillum بمعنى ختم ، أي ختم العقود والوثائق وأمثال ذلك[7] . ولا علاقة لها بالحبشية أو الفارسية . وقد تعني عند العرب كتاب العهد[8] . وذكر بعضهم ان (السجيل) ، اسم كاتب للنبي[9] .

وروي ان السجل : الكتاب يكتب للرسول أو المخبّر أو الرحّال أو غيرهم باطلاق نفقته حيث بلــغ فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء[10] . وهذه المعاني ، هي من المعاني المتأخرة التي عرفت وشاعت في الاسلام . والظاهر ان أهل مكة لم يكونوا على علم تام بمعنى اللفظة ،

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (سفر) .
٢ الانبياء ، الآية ١٠٤ .
٣ الطبرسي (٧/٦٦) ، الاتقان (١/٢٣٦) ، تفسير الطبري (١٧/٧٨) .
٤ المفردات (ص ٢٢٣) ، الاب هنريكوس لامنس اليسوعي ، فرائد اللغة في الفروق المطبعية الكاثونيكية (بيروت ١٨٨٩) (ص ١٢٠) مادة ٤٦٢ .
٥ المتوكلي (ص ٥) ، الاتقان (١/٢٣٦) .
٦ الاتقان (١/٢٣٦) .
٧ غرائب (ص ٢٧٨) ، فرائد اللغة في الفروق (ص ١٣٠) ، Ency., IV, p. 403.
٨ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٩ تاج العروس (٧/٣٧٠) ، (سجل) .
١٠ مفاتيح العلوم (٣٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١١/٣٤٧) ، سورة الانبياء (١٠٤) .

لذلك اختلفوا في تفسيرها اختلافاً يرد في كتب التفسير في تفسير معنى (السجل) .

ولا أستبعد استعمال الجاهليين للكتب التي تلف لفاً ، وذلك لسهولة المحافظة عليها ونقلها ، كالذي كان يفعله العبرانيون ولا يزالون يفعلونه في كتبهم المقدسة. ولا أستبعد أن يكون السجل المذكور في القرآن الكريم على هذا الشكل إذ يطوى ويلف لفاً ، وتوضع الكتب داخل غلاف للمحافظة عليها ، وقد زيّن أهل الكتاب أغلفة كتبهم المقدسة مبالغة في احترامها وتقديسها وتعظيمها . واذا أرادوا فتحها، أخذوها باحترام وتبجيل وقبلوها ، ثم تلوا منها على المتعبدين ما شاؤوا .

واذا ثبت ان لفظة (مصحف) ، هي من الألفاظ الجاهلية ، فإن ذلك يدل على ان المصاحف ، أي الكتب المؤلفة من صحائف منضدة ومجلدة بين دفتين ، كانت معروفة عند الجاهليين . وأنا لا شك لديّ في وجودها بهذا المعنى في أيام الرسول . غير اننا نلاحظ ان المسلمين خصصوا (المصحف) بالقرآن الكريم . و (المصاحف) بالقرائين جمع قرآن . وحين يقولون (خطوط المصاحف)[1]، فإنهم يقصدون كتابة القرائين .

ولفظة (القرآن) ، و (قرأان) ، نفسها تدل على وقوف الجاهليين على المعنى المفهوم من اللفظة ، وهو القراءة . ولا بد أن يكون منهم من سمع من اليهود لفظة (مقرا) التي تعني القراءة و (قرآن) ، أي تلاوة الكتاب المقدس وقد كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم يهود اليمن والحجاز .

وترد لفظة (الفهرس) في العربية ، وهي من الألفاظ المعربة . ذكر بعضهم انها الكتاب الذي تجمع فيه الكتب[2] . وعرفت كلمة (الفهرست) ، بـ (ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء)[3] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، بمعنى جدول ، ومواد كتاب أو نحوه[4] . ولكننا لا نستطيع اثبات انها من الألفاظ التي عرفت بهذا المعنى عند الجاهليين .

وذكر ان (الديوان) ، مجتمع الصحف ، وانها لفظة فارسية معربة . وفي

---

١ الفهرست (ص ١٥) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (تصحف) .
٢ اللسان (٦/١٦٧) ، (فهرس) (صادر) ، تاج العروس (٤/٢١١) ، (فهرس) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٤ غرائب اللغة (٢٤٠) .

الحديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ » . وقيل الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . وأول من دوّن الدواوين عمر . وذكر بعض العلماء ان الديوان الدفتر ثم قيل لكل كتاب . وقد يخص بشعر شاعر معين وبمجموع الشعر[1] .

و (التأريخ) و (الإراجة) : شيء من كتب أصحاب الدواوين ، و(الأوارجة) من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه[2] . وقيل : التأريخ لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأن التاريخ يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج الى علم جملها ، لأن التأريخ يعمل للعقد شبيهاً بالأوراج ، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده بالحساب . وهكذا يعمل التأريخ[3] .

والدفتر جماعة الصحف المضمومة ، وواحد الدفاتر[4] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية . ومعناها في الفارسية كتاب وسجل وحساب . ومن هذا الأصل لفظة (دفتر خانة) ، أي البيت الذي تحفظ فيه الدفاتر والوثائق ونحوها، ولفظة (دفتردار) ، بمعنى الخازن ، وخازن الدفاتر[5] . وهما مصطلحان استعملا في الإسلام .

والكراسة واحدة الكراس والكراريس من الكتب[6] . فهي مجموعة صحف وجزء من كتاب . لأن الكراسة من الكتاب ، والكتاب مجموع كراريس[7] .

وقد ذكر علماء اللغة أن المجلة ، الصحيفة يكتب فيها شيء من الحكمة . وقال أبو عبيدة : كل كتاب عند العرب ، فهو مجلة[8] . وقد وردت هذه اللفظة في شعر للنابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[9]

---

١ اللسان (١٣/١٦٦) ، (دون) ، تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) .
٢ اللسان (٢/٢٠٨) ، (صادر) ، (أرج) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٧) .
٤ اللسان (٤/٢٨٩) ، (صادر) (دفتر) .
٥ غرائب اللغة (٢٢٨) .
٦ اللسان (٦/١٩٣) ، (كرس) .
٧ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٨ شمس العلوم (الجزء الاول ــ القسم الثاني) ، (ص ٢٨١) .
٩ برصوم (ص ١٦٣) ، بلوغ الادب (٣/٣٧١) ، (ويروى محلتهم بالحاء ، أي أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة) ، تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

وقد قال النابغة ذلك في مدح الغساسنة . ولما كان الغساسنة نصارى ، فالمراد من المجلة إذن في هذا المكان ، الكتب المقدسة . وتخصيص علماء اللغـة المجلة بالصحيفة التي يكتب فيها الحكمـة ، هو تفسير نشأ عن عدم فهمهم للكلمة . وذلك أنها من الألفاظ المستعملة عند أهل الكتاب بمعنى كتاب ملفوف على طريقة تلك الأيام في استعمال الكتب الملفوفة ، فظنوا أنها نوع خاص من الكتب خصص بالحكمة ، لوجود مواعظ وحكم فيهـا ، يستعملها رجال الدين في مواعظهم ، ففسروها بهذا التفسير .

وقد أشير في كتب السير والأخبار الى (مجلة لقمان) ، وقيل : إنها حكمة لقمان . وأشير الى أمثال لقمان[1] . والمجلة هي (مكلوت) : و(مكلتو) Magaltho في العبرانية والسريانية[2] . ويراد بها كرّاس ملفوف وملف مخطوطات ، وكتاب من أصل Golo بمعنى لف[3] . وقد ذكر أن (سويد بن الصامت) كان يملك (مجلة لقمان) ، (حكمة لقمان) ، وأنه لقي الرسول يوماً ، فدعـاه الرسول الى الإسلام فقـال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي . وكانت معـه (مجلة لقمان) (حكمة لقمان) . فقال له الرسول : إن هـذا الكلام حسن ، والذي معي أحسن منه وأفضل[4] .

و (سويد بن الصامت) المذكور ، رجل مثقف مهذب ، ذو علم وفهم في أيامه وبين قومه . وقد عرف عندهم بالكامل ، للخلال الحميدة التي كانت فيه . ولا يلقب بـ (الكامل) في الجاهلية إلا من كانت له صفات معينة . وصفه صاحب كتاب الأغاني ، فقال : « وكان يقال له الكامل في الجاهلية . وكان الرجل في الجاهلية اذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً سمّوه الكامل . وكان سويد أحد الكملة »[5] .

وكان كما يذكر أهل الأخبار حكيماً كثير الحكم في شعره ، حتى قيل إن قومه انما سمّوه (الكامل) لحكمة شعره وشرفه فيهم . وقد رووا له شعراً في ذلك .

---

١ Ency., II, p. 53.

٢ برصوم (ص ١٦٣) .

٣ غرائب اللغة (ص ١٧٧) .

٤ البلاذري (١/٢٣٨) ، الروض الانف (١/٢٦٥) .

٥ الاغاني (٢/١٦٤) (طبعة الساسي) .

هذا ويشك في اسلام (سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة) الأوسي ، إذ ذكر انه لما انصرف من مقابلة الرسول له ، عاد الى قومه بيثرب فقتل[1] . قتله (المجذر) في الجاهلية[2] .

وأنا لا أستبعد احتمال قدوم يوم ، قد يعثر فيه الباحثون على وثائق تبين ان عرب العراق كانوا قد وضعوا أسساً لقواعد العربية ، وكانوا أصحاب رأي في أساليب الكتابة وصوغ الكلام بنوعيه : من نثر وشعر . إذ لا يعقل في نظري أن يكون ظهور علوم العربية في العراق قبل الأمصار الاسلامية الأخرى ، طفرة من غير سابقة ولا أساس . وأن يكون تفوق الكوفة والبصرة على المدن الاسلامية الأخرى وفي ضمنها مدن جزيرة العرب في علوم العربية صدفة وفجأة ومن غير علم سابق ولا بحث في هذه الموضوعات قبل الاسلام . انني أعتقد ان علم العروض وعلم النحو وعلم الصرف وسائر علوم العربية الأخرى لم تظهر في العراق إلا لوجود أسس لهذه العلوم فيه تعود الى أيام ما قبل الاسلام ، وهذه الأسس القديمة الجاهلية هي التي صيرت العراق الموطن الأول لهذه العلوم في الاسلام . وانني لا أستطيع أن أتصور ان في مقدور انسان مهما أوتي من العلم والذكاء ، استنباط أوزان الشعر وبحوره من نقرات مطارق النحاسين أو من التأمل والتبصر ، فشخص مثل هذا ، لا بد وأن يكون قد وقف على البحور وأوزان الشعر وعلى مقدمات وبحوث في موضوع الشعر ، منها استنبط علم العروض ، وقل هذا الشيء عن علم النحو وعن سائر علوم العربية الأخرى .

وقد كان العبرانيون يكتبون التوراة على جلود البقر ، ثم يلفونها لفاً على قضيب أو قضيبين تكوّن لفة واحدة أو لفتين متصلتين بعضها ببعض ، ويطلقون عليها (مجلوت) (مكلوت) . وتعني لفظة (كلل) لفّ ودوّر[3] . وقد كانت كتب ذلك العهد تكتب وتلف بهذه الطريقة ، فلا يستبعد وجود هذه المجلات ، أي الكتب الملفوفة عند الجاهليين .

وقد أورد الأخباريون نصوص رسائل نسبوها الى بعض الملوك الجاهليين وسادات القبائل ، وهي رسائل مسجعة في الغالب موجزة . وفي اثناء حديثهم عن رسائل

---

١ الاصابة (٢/١٣٢) ، (٣٨١٨) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٧٢٨) .
٣ Smith, A Diction. I, p. 1802.

الرسول الى قيصر وكسرى ذكروا ان الصحابة أشاروا على الرسول ان يتخذ خاتماً يختم به كتبه ، لأن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم . ويظهر من كلامهم هذا ان أهل مكة لم يكونوا يختمون رسائلهم بخاتم،وانما كانوا يكتفون بتدوين الاسم . والذي يتبين لي من ملاحظتهم هذه عن الروم انهم قصدوا بالخاتم الختمَ ، على الكتب ، اضافة الى الاسم ، وهو ما يقال له Sigillum عندهم، كما أشرت الى ذلك آنفاً . وهو يقابل ختم الدوائر في الزمن الحاضر ، وطبع شعار الدائرة على الورق ، ليكون ذلك تعبيراً عن صفة الورقة الحكومية . فالغاية من إشارة الصحابة على الرسول بختم كتابه ، هو اكسابه صفة رسمية ، ليكون ذلك متفقاً مع طريقة الروم . ولا بد أن يكون رؤساء مكة قد راعوا هذا الأسلوب في مراسلاتهم مع البيزنطيين .

وقد استعمل الخاتم في الغالب لتصديق الأوراق الشخصية والمعاملات الحكومية. فإذا أريد تصديق معاملة أو ارسال كتاب أو ختم صندوق ، ختم بالخاتم ، وعلى الخاتم شيء من الكتابة يأمر صاحب الخاتم بحفرها ، كي يظهر أثرها على الورق أو الشمع أو الطين . وكان منح الخاتم لموظف دليلاً على منحه الثقة وتعيينه في وظيفته التي اختير لها [1] .

وقد كان رجال التجارة والأعمال وأصحاب المصالح يثبتون أعمالهم وعقودهم في صحف وكتب . واذا أرادوا عقد عقد ، مثـل اتفاق على شيء أو تدوين ميثاق ، دوّنوه على صحيفة وأشهدوا على ذلك ، ليكون أوثق وأثبت للعقد. وقد عرف كتاب الشراء بالعهدة [2] . وأما كتاب العهد ، فهو ما يعهد به. وقد وردت في القرآن الكريم إشارة الى الكاتب بالعدل . أي الكاتب الذي يتولى كتابة العهود والمواثيق بين الناس .

وقد ورد في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ : ان الرسول قال : « اذا كتب أحدكم فليترّب كتابه » [3] ، أي : ان الكاتب اذا انتهى من كتابة كتابه ، فليضع التراب عليه ، ليجفف حبره .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٤٠٥/١) ، Smith, A Diction., III, p. 1188.
٢ بلوغ الارب (٣٧١/٣) .
٣ البيـان (٣٠٤/٣) .

الفصل الرابع والعشرون بعد المئة

الدراسة والتدريس

الكتاتيب :

وفي العربية لفظة (الكتّاب) ، ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة . وهي من الألفاظ العربية المستعملة في العهود الأولى من الاسلام . وعندي انها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية ،وهي في معنى بيت (ها سيفر) Beth Ha-Sepher أي (بيت الكتّاب) في العبرانية . وقد كان العبرانيون يطلقونها على المدارس التي تدرس القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة ، تمييزاً لها عن المدارس التي تعلم الديانة والعبرانية والمعارف التي لها علاقة بالديانة . ويطلقون عليها (بيت هامدراش) Beth Ha-Midrash أي (بيت المدراش) ، و (بيت ها تلمود) ، أي (بيت التلمود) في بعض الأحيان[1] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذكروا انهم كانوا من المعلمين في الجاهلية وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة ، منهم على سبيل المثال : (بشر ابن عبد الملك السكوني) ، أخو (أكيدر) صاحب (دومة الجندل) ، و (سفيان بن أمية بن عبد شمس) ، و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة)

---

١ Hastings, A Dictionary of Christ. and the Gospels, I, p. 222.

و(عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد) ، وقد كان يسمى (الكاتب) ،و (غيلان ابن سلمة بن معتب الثقفي) وهو مخضرم[1] ، مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين .

وقد ورد ان الرسول أمر (عبدالله) واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية، بأن يعلم في الكتاب بالمدينة[2] . كما ورد ان (جفينة) ، وهو من نصارى الحيرة ، جاء المدينة فصار يعلم الكتابة بها[3] . وورد في رواية ان (علي بن أبي طالب) اختلف الى الكتّاب ، فتعلم الكتابة به وله ذؤابة وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . وورد ان رجلاً نزل بوادي القرى ، وعلّم الخط بها[5] . وورد ان غلاماً جاء « يبكي الى أبيه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث !! يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً »[6] . واذا صح هذا الخبر ، نكون قد عثرنا على كلمة (المعلم) بالمعنى المفهوم منها في الوقت الحاضر في الأيام الأولى من ظهور الاسلام .

وورد أن (عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية) ، كان ممن أسر يوم بدر ، فأمره الرسول أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ، ويخليه لسبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار . وكان كاتباً محسناً[7] . غير أن الموارد الأخرى ، تذكر أنه كان قدم على رسول الله مهاجراً ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : الحكم . فقال : أنت عبدالله . فغير رسول الله اسمه[8] . وتذكر أنه أمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً . وتذكر أنه قتل يوم بدر شهيداً . أي إن اسلامه كان قبل يوم بدر . ولكن أكثر الروايات تذكر أن وفاته تأخرت[9] .

وذكر بعض أهل الأخبار، أن المدينة كانت متأخرة بالنسبة الى مكة في الكتابة

---

١ المحبر (ص ٤٧٥) ، الاعلاق النفيسة ، لابن رستة (٢١٦) .
٢ ابن حزم ، جمهرة (٧٣) .
٣ الطبري (٤٢/٥) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) .
٤ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ، للشيخ المفيد ، النجف (٦٦/٢) .
٥ فتوح البلدان (٤٧٧) .
٦ امتاع الاسماع (١٠١/١) .
٧ المشرق ، السنة العاشرة (٤٧٨) .
٨ الاستيعاب (٣١٢/١) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ الاصابة (٣٤٣/١) ، (رقم ١٧٧٧) .

والقراءة . بل ذهب بعضهم الى أنه لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة[1] . وكلامهم هذا يصطدم مع ما ذكروه أنفسهم من أن (سويد بن الصامت)الأوسي ، وسعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وغيرهم ممن أشرت اليهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كانوا من الكتّاب .

ويفهم من قول (الشمّاخ) :

كما خط عبرانيةً بيمينه بتيماء حَبْرٌ ثم عرض أسطرا

أن هذا الشاعر كان قد زار تيماء ، وقد وقف على خط اليهود ، ورأى أحدهم وقد عرض أسطر الكتابة ودونها بيمينه[2] . وقد وصف غيره كتابة اليهود وتعلمهم الخط في مدراسهم بالمستوطنات اليهودية .

وكانوا يستعينون بصبيان الكتاب في بعض الأحيان لكتابة جملة نسخ مما يراد نشره واذاعته أو حفظه . فورد أن النجاشي الشاعر ، لما هجا (بني النجار) من الأنصار شكوا ذلك الى حسان ، فقال قصيدة في هجائه وفي هجاء قومه ، ثم « قال اكتبوها صكوكاً وألقوها الى صبيان المكاتب ، فما مرّ بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسّان بالنجاشي موثقاً معهم » ، وذلك للإعتذار اليه واسترضائه[3] .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابة والعلوم بينهم إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادىء المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال ، كما أدت حاجة الديانتين الى رجال دين يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنيين ، أو بين أصحاب الديانات الأخرى ،الى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال ، ألحقت بالمعابد ، درسوا فيها الكتب المقدسة وما وضع عليها من تفاسير وشروح ، ومما يتعلق بشرحها من دراسة للغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات . وقد كان من بين هؤلاء الرجال أناس أذكياء ذوو نظر واسع ، فلم

---

١ امتاع الاسماع ، للمقريزي (١/١٠١) .
٢ ديوان الشماخ (٢٦) ، ديوان زهير (٥) .
٣ شرح ديوان حسان (ص ٢١٣ وما بعدها) (البرقوقي)

يكتفوا بحفظ ما ورد اليهم ، وبالتعصب لكل ما تلقنوه،بل تتبعوا ثقافات غيرهم وعلومهم ، ودرسوا اللغات والفلسفات الأخرى،وكوّنوا لهم آراء خاصة اعتمدت على استعمال العقل والمنطق ، فظهر النقد عندهم ، والنقد يخلق الرأي .

والبيت هو المدرسة عند الجاهليين وعند غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، فيه يتعلم الطفل ، واليه يرد المعلم لتعليم أولاد الموسرين ما يحتاجون اليه من كتابة وعلم بأجرة تدفع اليه ، وفيه قد يتعلم الطفل الكتابة من الرقيق المجلوب الذي كان له حظ من العلم . وفيه تشرف أمه على تربيته وادارته ما دام صغيراً ، ثم يشرف عليه أبوه فيلقنه شؤون الصنعة وأمور الحياة متى تجاوز الخامسة أو السابعة من عمره.

وفي البيوت والطرقات والأزقة يلعب الأطفال ، أما الشبان،فقد كانوا يتبارون بالألعاب في الساحات العامة خارج المدن ، والقرى في الغالب . يتسابقون بركوب الخيل وبالمصارعة وبالجري وبرمي السهام . وقد يخرجون الى الصيد ولا يزال أطفال جزيرة العرب يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال الجاهلية وشبانهم يلعبونها قبل الاسلام .

وقد قامت المعابد بدور فعال ناشط في نشر القراءة والكتابة . واذا كنا نجهل اليوم موقف معابد الوثنيين من تعليم القراءة والكتابة بها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر موقف (الكنيس) و (المدراش) (المدارس) عند اليهود ، و (الكنائس) عند النصارى من تنشيط التعليم وتهيئة الأطفال لتعلم القراءة والكتابة ، لخدمة الدين، أو للأغراض التثقيفية والشؤون الخاصة بالحيـاة . وقد قام (المدراش) وقامت الكنيسة بدور فعال في تعلـيم الناس أمور دينهـم وشرح ما ورد في التوراة وفي الانجيل الى المؤمنين بهما . فقد كان أحبار يهود (يثرب) وقرى (وادي القرى) يجلسون في المعابد ليفسروا للناس أحكام شريعة يهود .

والمدراس ، لفظة عبرانية الأصل ، هي (مدرش) Midrash ، وتعني بحث وشرح نص[1] . وقد أطلقت على المكان الذي تدرس فيه التوراة . فصار بمثابـة المدرسة ، يقصده اليهود للتفقه فيه والتعلم ، وقـد قصده الجاهليون أيضاً ليسمعوا ما عند يهود . كما قصده المسلمون . وقد كانت لليهود جملة بيوت عبادة يجلس فيهـا أحبارهم للافتاء ولشرح الكتب المقدسة لتلامذتهم وللنـاس . فكانت بيوت عبادة ومدارس للتعليم .

---

١ Hastings, p. 149.

وقد كان الجاهليون يسألون اليهود عن تواريخ الماضين وقصص الأولين والأنبياء والمرسلين . وعن بعض المشكلات الدينية مثل الحياة بعد الموت وأمثال ذلك ممـــا تعرضت له اليهودية . وقد لجأ اليهم أهل مكة الوثنيون يسألونهم عن أشياء عويصة لليهود علم بها ، ليمتحنوا بها الرسول[1] .

وقد ورد في الأخبار أن « بعض اليهود قد علم كتاب العربية . وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[2] .

وقياساً على مـــا نعرفه من تخصيص الكنائس مواضع خاصة ملحقة بالكنائس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، فإننا نستطيع أن نقول إن الكنـــائس التي كانت في جزيرة العرب في نجران مثلاً أو في صنعاء أو في عدن أو في قطر ، لم تكن مستثناة من هذه العادة . وإن كنا لا نملك دليلاً نستند اليه في إثبات قيام الكنائس في جزيرة العرب بتعليم الأطفال القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لكنائس العرب في العراق ، فإن لدينا شواهد بينة تثبت قيام الكنائس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء الدين . وتثبت وجود مكان خاص خصص بالأطفال ليتعلموا فيه . فقد جاء في أخبار (عين التمر) أن خالد بن الوليد لما دخل حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم[3] . وذكر أن تلك البيعة كانت في النقـيرة من أطراف عين التمر[4] .

وورد في الأخبار أن من أهل الحيرة من كان يتعلم العربية ، يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ، كالذي حدث لزيد والد (عدي بن زيد العبادي) ، ولابنـه (عدي) ، وأن منهم من كان يتعلم الفارسية ، إذ فيها جماعـــة من الفرس ، ومنهم من يتعلم الإرمية ، لغة (بني إرم) ، ومنهم من تعلم العربيـة والفارسية وأجاد بها كتابة ونطقاً ، وتولى الكتابة بهـا عند الفرس مثل (عدي بن زيـد

---

١ ابن هشام (١/٢٧٤) .

٢ فتوح البلدان (٤٧٩) ، المعارف (١٩٢) ، الطبري (٣/٣٧٧) ، (دار المعارف) ، البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٠١) ، المجدل لعمرو بن متى (٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧١) .

٣ الطبري (٣/٣٧٧) (دار المعارف بمصر) .

٤ البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) .

العبادي) وابنه (زيد بن عدي) وغيرهما من آل (زيد) والعباديين نصارى الحيرة [1]

ولما فتح خالد (الأنبار) : « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشده قول الشاعر :

قومي إيادٌ لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم» [2]

وهو شعر نسب قوله الى الشاعر (أمية بن أبي الصلت) ، ذكر أنه مدح به بني إياد [3] . ومعنى هذا ، أن (بني إياد) كانوا قد عُرفوا بالكتابة في العراق ، ولهذا وضعوا هذه القصة في كيفية نشوء الكتابة العربية ، وإياد من القبائل العربية القديمة التي نزحت من البحرين الى العراق .

وقد كان العرب في الأنبار ، والحيرة ، وعين التمر والمواضع الأخرى يحتمون بأبنية محصنة ، يقيم بها ساداتهم ، وتكون مواضع دفاعهم أيام الخطر ، يقولون لها (القصور) . وقد كانت الحيرة مؤلفة من جملة (قصور) ، ولا يزال عرب الفرات يطلقون لفظة (القصر) على المواضع الحصينة المقامة في البادية ، لصد غارات المهاجمين ، مثل (قصر الأخيضر) ، و (قصر العين) ، في ناحية (عين التمر) . وتحتمي الكنائس وبيوت الناس بهذه القصور ، ولما فتح (خالد ابن الوليد) (عين التمر) ، بعث الى (كنيسة اليهود ، فأخذ منهم عشرين غلاماً وصار الى الأنبار » [4] ، وهو خطأ ، لأن الذي نجده في الموارد الأخرى ، ان (خالد بن الوليد) ، لما فتح حصن (عين التمر) وجد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم ، فكان من ذلك السبي : (حمران بن أبان بن خالد) التمري،

---

١ الاغاني (٢/١٠١) .
٢ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الانبار) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٤٨) .
٤ اليعقوبي (٢/١٢٣) ، (النجف ١٩٦٤) .

و (سيرين) أبو (محمد بن سيرين) المشهور بتفسير الأحلام ، و (أبو عمرة) جدّ (عبد الأعلى) الشاعر ، و (يسار) جدّ (محمد بن اسحاق) صاحب (السيرة) ، و (نصير) أبو (موسى بن نصير)[1] ، وذكر (الطبري) أن (خالد بن الوليد) وجد « في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم ، وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، فقسمهم في أهل البلاد[2] . وقد كان كل هؤلاء من الكتّاب القارئين للانجيل الدارسين لعلوم الدين ، فأسلموا وبرز أبناؤهم في المجتمع الاسلامي .

وفي خبر (وفد نجران) الذي قدم على الرسول ، إفادة بوجود مواضع لتعليم أمور الدين ، وتثقيف الناس بما يلزم من ثقافة ، فقد ورد أن أسقف نجران كان حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم (صاحب مدراسهم)[3] ، أي الموضع الذي يتدارسون فيه ، والغالب أن يكون ذلك المكان في الكنيسة على الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، كما صار المسجد موضعاً للتعليم .

وقد كان يهود الحجاز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بكنيسهم كتّاباً يعلمون به أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كما كان أحبارهم يتخذون به مجلساً لتعليم اليهود أمور دينهم وللافتاء بينهم في أمور الشرع ، وفضّ ما قد يقع بينهم من خلاف . وكذلك كان شأن نصارى العرب اتخذوا من كنائسهم مواضع للتدريس ولتعليم القراءة والكتابة كالذي رأيناه بين نصارى العراق . ولا استبعد احتمال اتخاذهم مدارس في قرى البحرين ، التي كانت بها جاليات نصرانية كبيرة وكذلك في اليمامة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وأصول الدين .

مواد الدراسة :

لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين لنستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية ، غير أننا اذا ما

١ البلاذري ، فتوح (٢٤٨) .
٢ الطبري (٣/٣٧٧) .
٣ طبقات ابن سعد (١/٣٥٧) (طبعة صادر) .

أخذنا بما جاء في الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم عند نصارى العراق وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للتلاميذ ولطلاب المدارس العالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد وان تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت . من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادىء الدين . وهي المواد الرئيسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي لا تزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم .

والعادة في الكتاتيب حتى الآن في تعليم الخط للأطفال ، أن يخط المعلم أو (خليفته) أو من يقوم مقامه من التلامذة المتقدمين ، سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية ، لينقش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الاجادة جهد امكانه في كتابتها لتقوية يده على الخط . وقد كان العبرانيون يعلمون الآية : « رأس الحكمة مخافة الرب » ، « رأس الحكمة معرفة الله » ، « مخافة الرب رأس الحكمة »[1] ، في أول ما كانوا يعلمونه لتلامذتهم[2] . ويعلمونهم أمثال ذلك من الحكم والأمثال الواردة في التوراة . ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال والحكم في مقدمة ما كان يدرسه المعلمون اليهود في مستوطناتهم في بلاد العرب بتيماء ووادي القرى وقرى المدينة .

وورد ان نصارى العراق ، درسوا في مدارسهم لغة بني إرم ، لغة الثقافة والعلم آنذاك ، درسوا مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ، وعلموا معها مبادىء العربية وقواعدها وآدابها في الأرضين التي كانت غالبية سكانها من العرب[3] . ونجد في الموارد النصرانية اشارات تشير الى تدريس العربية في الأنبار وفي الحيرة . ولا يعقل أن يكون المراد من العربية ، الكتابة والقراءة بها فقط ، بل لا بد وأن يعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قط القلم ورسم الحروف ، وأنواع الخطوط ، ثم الأمثال والحكم ، وقواعد اللغة وآدابها ، أي منهج المدارس المقرر في الشرق الأدنى في ذلك العهد . وقد كان رجال الدين يسيرون عليه ويتبعونه في مدارسهم . وكان لهم علم بقواعد وبلغة بني إرم .

---

١ سفر الامثال ، الاصحاح الاول ، الآية ٧ .
٢ Hastings, p. 204.
٣ تأريخ كلدو وآثور (٢/٧) .

أما عن تعليم الأطفال في جزيرة العرب ، فلا نستطيع التحدث عنه بصورة جازمة لعدم ورود شيء عن ذلك في الكتابات الجاهلية أو في روايات أهل الأخبار. ويمكن أن نقول باحتمال تعليم الأطفال في المواضع التي وجدت النصرانية اليها سبيلاً ، مثل مدينة (نجران) وبعض مواضع من سواحل الخليج ، على النمط الذي كان متبعاً عند نصارى العراق وبلاد الشأم من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وتحسين الخط ومبادىء أمور الدين . ثم المعارف العالية مثل اللغة والعلوم اللاهوتية والطب وما شاكل ذلك ، للمتفوقين من الطلاب من أصحاب المواهب والقابليات، وذلك لأن الكنيسة كانت تتبع نظاماً واحداً في التعليم ، ولأن الذين كانوا يبشرون بالنصرانية بين العرب ، كانوا من أهل العراق في الغالب ، وقد درّسوا عرب العراق وعرب مواضع أخرى في جزيرة العرب ، وقد درسوهم على طريقة تدريس الكنيسة الشرقية ، فيحتمل لذلك أن يكون التدريس على نمط واحد في مدارس الكنيسة ، ولا أستبعد احتمال تدريس السريانية لهؤلاء الطلاب ، باعتبار انها لغة الدين وتساعد في فهم الأناجيل والكتب النصرانية والعلوم .

وقد ورد أن : عمر بن الخطاب ، كان يقول في تربية الأولاد وتثقيفهم : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، وروّوهم ما يجمل من الشعر »[1] . وذكر أنه كتب الى الأمصار: « أما بعد ، فعلموا أولادكم العومَ والفروسية ، ورووهم مـا سار من المثل وحَسُنَ من الشعر »[2] ، وأن الرسول دعا لمعاوية ، فقال : « اللهم علمه الكتاب والحساب »[3] . ويظهر أن هذا التوجيه في تربية النشء كان معمولاً به عند الجاهليين .

ويظهر أن الحث على تعلم السباحة ، إنما ظهر في الاسلام ، بعد الفتوح ، وذلك بعد أن اتصل العرب بالأنهار الواسعة العميقة وبالبحار ، فأجبرهم الواقع على تعلم العوم . ونجد (الحجاج) يقول لمعلم ولده : « علّم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم »[4] .

---

١ المبرد ، الكامل (١/١٥٥) .
٢ البيان (٢/١٨٠) ، (٢/١١٦) ، (القاهرة ١٩٣٢ م) .
٣ البيان (٢/ ١١٦) ، (١٩٣٢ م) .
٤ البيان (٢/١٧٩) .

وقد كان (عمر) يتهيب البحر ، فأوصى قواد جيشه بالتأني في ركوب البحر، خشية غرق المسلمين .

والمثل والشعر من أهم المواد التي كان يعتني بها الجاهليون . وكان أهل الكتاب يعتنون بالمثل وبما ورد في الكتب المقدسة من حكم ، وبالشعر كذلك في تعليم أطفالهم في الكتاتيب .

وذكر (الهمداني) ، أن (عمر بن الخطاب) ، قال : « تعلّموا من النجوم ما تهتدون به ، ومن الأنساب ما تعارفون به وتواصلون عليه ، ومن الأشعار ما تكون حِكَماً ، وتدلكم على مكارم الأخلاق »[1] .

ويقوم بالتعليم معلمون . امتهنوا التعليم واتخذوه حرفة لهم . ومنهم من اتخذه حرفة رئيسية له ، إذ كان يمارس حرفاً أخرى ، ليتمكن بذلك من إعاشة نفسه. ولما كان التعليم الابتدائي الذي يقوم على تعليم الخط والقراءة والكتابة وبعض المبادىء الأخرى شيئاً بسيطاً لا يحتاج الى علم وكبير ومعرفة ، لذلك لم يشترط في متعاطيه أن يكون من أصحاب العلم ، بل قام به من وجد في نفسه قابلية تعليم الأطفال من رجال الدين ومن غيرهم ، على نحو ما نجده في المدارس القديمة التي تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة لهذا اليوم .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهليين . لذلك لا نستطيع أن نذكر اسم معلم من معلمي الجاهلية بالاستناد اليها . أما أهل الأخبار ، فقد تعرض نفر منهم لذكر بعض المعلمين الذين عاشوا قبل الإسلام ، والذين أدرك بعض منهم الإسلام . فذكر (محمد بن حبيب) في الفصل الذي سماه : (أشراف المعلمين وفقهاؤهم) ، اسم (بشر بن عبد الملك السكوني) أخو (أكيدر ابن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) ، فذكر أنه كان في جملة المعلمين[2]. واليه ينسب أهل الأخبار نشر الكتابة بمكة على نحو ما بينت ذلك في موضوع تأريخ الخط .

وأشار (ابن حبيب) الى (أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو جاهلي ، على انه من أشراف المعلمين . كما أشار الى (عمرو بن زرارة بن عدس

---

١ الاكليل (١/٦ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٥) .

ابن زيد) ، وهو جاهلي كذلك في جملة من أشار اليهم من المعلمين . وذكر انه كان يسمى (الكاتب) . وأشار أيضاً الى (غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي) ، وهو من المخضرمين . على انه كان من أشراف المعلمين[1] . وهو من الشعراء الحكماء ، إذ كان أحد حكام (قيس) في الجاهلية . وكان أحد وجوه ثقيف، وقيل انه أحد من نزل فيه : « على رجل من القريتين عظيم » ، وانه كان صاحب تجارة ،وقد سافر في قوم من تجار ثقيف وقريش وعلى رأسهم (أبو سفيان) الى العراق ، للتجارة ، فوصلوا الى (كسرى) فتكلم معه باسم التجار ، فأعجب به ، واشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه من بنى له اطماً بالطائف ، فكان أول اطم بني بها . وذكر ان كسرى لما كلمه ووقف على حكمته قال له: « هذا كلام الحكماء ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم فما غذاؤك ؟ قال : خبز البر ، قال : هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر »[2] . في حديث يقصه أهل الأخبار وكأنهم كانوا شهود عيان .

ولا بد وأن يكون في ثقيف قوم كانوا مهرة في الكتابة ، لهم خط حسن وإملاء صحيح ، وذلك فيما اذا أخذنا بصحة الأخبار الواردة عن تدوين القرآن وجمعه من قولهم إن الخليفة (عمر) أو (عثمان) ، قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، إذ لا يعقل النص على أن يكون الكاتب من ثقيف من غير سبب ، اللهم اذا اعتبرنا الخبر من الموضوعات التي صنعت في أيام الحجاج ، للتقرب اليه ، ولرفع شأن ثقيف ، بعد أن ظهرت أخبار في أيامه ، رجعت نسب ثقيف الى قوم ثمود ، وصيرت (أبا رغال) خائن العرب الى غير ذلك من أخبار تحدثت عنها في أثناء حديثي عن ثمود وعن قبيلة ثقيف .

وكان (جفينة) العبادي من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً ، قدم المدينة ، وأخذ يعلم بها الكتابة في أيام الخليفة (عمر) . وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص. فاتهمه (عبدالله بن عمر) بمشايعة (أبي لؤلؤة) على قتل أبيه فقتله[3] .

---

١ المحبر (٤٧٥) .

٢ الاصابة (١٨٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٦٩٢٦) ، الاستيعاب (١٨٦/٣ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) .

٣ فتوح البلدان (٤٦٠) ، (أمر الخط) ، ابن سعد ، الطبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) ، الطبري (٤٢/٥) .

وورد في كتب الحديث « عن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي ، أنه قال : أتانا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه باليمن معلماً وأميراً »[1] . وقد أرسل الرسول معاذاً الى اليمن ليعلمهم الفرائض وأحكام الدين . وإذا صح النص ، صار دليلاً على شيوع لفظة (معلم) في ذلك العهد .

ووردت لفظة (المعلم) في رسائل (عمر) الى عماله ، ففي رسالة له (الى أهل الكوفة) : « إني قد بعثتُ اليكم عمّار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً »[2] . وأراد بلفظة المعلم ، من يعلم الناس ويرشدهم ويفقههم في أمور الدين . وكانوا يطلقون على من يعلم الكتابة في (الكتاب) : معلم كتاب. والكتّاب والمكتب ، الموضع الذي يتعلم به .

ولست أعلم شيئاً عن مدى تقدم علم الحساب عند الجاهليين . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو انهم كانوا يعلّمون أولادهم مع الخط مبادىء الحساب المعروفة، وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وذلك لحاجتهم اليها في حياتهم اليومية ، ولا سيما بالنسبة الى التجار أصحاب المصالح الكبيرة ، إذ تدفعهم الحاجة الى ضبط أعمالهم وحسابهم . وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين استعملوا حساب عقود الأصابع في حسابهم: فوضعوا كلاً منها بإزاء عدد مخصوص،ثم رتبوا لأوضاع الاصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة . وقد أشير الى حساب اليد في الحديث ، كما استعملوا العدّ بالحصى ، وبه يحسبون المعدود[3] . والعدّ برسم خطوط ، فيدل كل خط على عدد . ومجموع الخطوط هو المعدود .

وورد في الأخبار ان الرسول دعا لمعاوية بقوله : « اللهم علّمه الكتاب والحساب »[4] ، وقد نعت بأنه كان من الكتبة الحسبة الفصحاء[5] ، والحديث المذكور من أحاديث أهل الشأم[6] ، ولهم أحاديث أخرى في الثناء على (معاوية) ، وهي

---

١ ارشاد الساري (٤٢٩/٩) .
٢ خورشيد احمد فاروق ، حضرت عمر (١١٦) ، (رقم ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٣٧٩/٣ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (١١٦/٢) .
٥ الاصابة (٤١٢/٣) (رقم ٨٠٧٠) .
٦ الاستيعاب (٣٨١/٣) (حاشية على الاصابة) .

من الأحاديث التي أوجدتها العصبية السياسية ، على نحو ما نجد من أحاديث في (عبدالله بن عباس) وفي العلويين . وقد روي الحديث المذكور في حق أشخاص آخرين . وقد وضعت أحاديث في مدح معاوية وبني أمية . وأرى أن الحديث المذكور وضع في مقابل حديث « اللهم علمه الحكمة » ، الذي روي أن الرسول قاله في (ابن عباس) ، وحديث : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أو « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » ، و « اللهم بارك فيه وانشر منه » ، وأحاديث أخرى ذكر أنها قيلت فيه[1] .

وأما ما نسب الى الرسول من قوله : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فإنه حديث ضعيف ، وقد ورد أيضاً أن رجلاً قال : ما كنت أظن أن عدداً يزيد على ألف[2] ، وهو قول ينطبق على حالات فردية لأعراب ، ولا يمكن أن ينطبق بالنسبة للحضر ، ولا سيما لأهل مكة الذين كانت لهم تجارة ضخمة وقوافل تذهب الى مختلف الأنحاء ، تحمل تجارة تقدر أثمانها بعشرات الألوف ، فهل يعقل صدور مثل هذا الحديث من الرسول ؟

وقد كان الجاهليون يتراسلون بينهم ، فيكتبون كتباً الى من يريدون مراسلته. والكتاب هو صحيفة قد تكون من جلد ، أو من مادة أخرى . وقد ذكر أن الرسول كتب كتاباً الى (بني حارثة بن عمرو بن قريظ) ، فأخذوا الكتاب وغسلوه،ثم رقعوا به دلوهم[3] . ويدل هذا على أن الكتاب كان صحيفة من جلد .

والرسائل من حقول التدوين المهمة عند الجاهليين . وهي رسائل قد تكون في أمور خاصة ، كرسائل أب الى ابنه أو العكس ورسائل أصدقاء وأقارب من ذوي الأرحام ، وهي تتناول مسائل شخصية خاصة تهم المتكاتبين . وقد تتناول الأحداث التي يكون لها شأن عند الناس وخطر ، فيكتب المتكاتبون عنها ، لما فيها من أهمية ولذة بالنسبة لهم . وقد تكون الرسائل إخبارية ، كأخبار عن تجارة ومعاملة أو عن حدث وقع أو غزو أو قرب وقوع حرب أو اخبار بهجوم عدو ومقدار قوته وما شاكل ذلك من أمور ، ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للمرسل اليهم.

---

١ الاصابة (٢/٠٠٠) .
٢ الاحكام السلطانية (١٩٢) .
٣ امتاع الاسماع (١/٤٤١) .

ونجد في كتب أهل الأخبار صور رسائل في أمور ذات طابع إخباري . منها رسائل دوّنت بعبارات واضحة صريحة ، يظهر أن أصحابها كانوا مطمئنين من عدم إمكان سقوطها في أيد عدوة فتقف على ما جاء فيها ، لذلك كتبوها بعبارات مفهومة مكشوفة . ومنها ما كتبت شعراً كالذي روي من ارسال شعر كتبه (لقيط بن يعمر الإيادي) لقومه يحذرهم فيه من كسرى[1] . أو نثراً وقد كتبها أصحابها على شيء لا يلفت النظر ، كحدوج الجمال المسافرة الى جهة معينة ، لتقرأ هناك ، أو رسائل لا تلفت النظر ولكنها ذات معان مفهومة عندما ترسل اليه ، وقد تحمل الرسالة لرسول لينقلها شفاهاً الى من يراد اخبارهم خبراً، وذلك في الأمور الهامة بالطبع ، التي لا يمكن الإفصاح عنها ، لما لها علاقة بحروب أو غزو أو وضع أسير واقع في عذاب أسر آسريه، ويريد ابلاغ أهله بذلك ليخلصوه من وضعه السيء .

ومن رسائل الإخبار : الرسائل التي كتبها المسلمون المتخفون أو المشركون الميالين للمسلمين على قريش ، يخبرون فيها الرسول وأصدقاءهم المسلمين بأمر قريش وعورتهم واستعدادهم ليكونوا على حذر منها ، والرسائل التي كتبها بعض المسلمين الذين لم يكن الاسلام قد تمكن بعد من قلوبهم ، أو كتبوها شفقة لبعض أصدقائهم من المشركين عن الاسلام والمسلمين . ومنها كتاب (حاطب بن أبي بلتعة) الى صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم » . وأعطى الكتاب الى امرأة من مزينة ، وجعل لها مبلغاً من الدنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وسلكت على غير نقب ، فبلغ الرسول أمرها ، فأرسل من قبض على الرسالة . وتوسل حاطب الى الرسول ، بأن يعفو عنه ، لأنه كان رجلاً ليس له في القوم أصل ولا عشيرة ، فصاروا له أهلاً واعتبروه ولداً فصانعهم فعفا عنه . ونزل الوحي في شأنه في سورة الممتحنة[2] .

---

١ ابن قتيبة ، الشعر (٩٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢٠/٢٣ وما بعدها) .
٢ الآية ١ ، امتاع الاسماع (٣٦٣) .

وفي كتب السير والتواريخ إشارات الى مخابرات أرسلها مسلمون الى ذوي رحمهم ، يطلبون اليهم الدخول في الاسلام ، وبأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ما بدر منهم من إساءة اليه إن جاءوا اليه مسلمين ، من ذلك ، ما كتبه (بجير) الى أخيه (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، يطلب منه الدخول في الاسلام ، والتوبة ، وإلا فصيره كمصير (ابن خطل) الذي كان يمعن في هجاء الرسول ، فقتل[1] . ومن ذلك كتاب (الوليد بن الوليد) الى أخيه (خالد بن الوليد) ، يدعوه الى الاسلام ، فجاء مسلماً[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة : (باسمك اللهم) ، ويذكر بعضهم ان أمية بن أبي الصلت كان هو الذي ابتدع هذه البدعة . فمشت بين الناس . وصارت سنّة لأهل مكة في تدوين رسائلهم. فجعلوها في أول كتبهم . فكانت قريش تكتب بها . وبها افتتح الرسول كتبه في بادىء أمره ؛ ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود ، ثم باسم الرحمن ، بعد نزول سورة اسرائيل ، ثم بسم الله الرحمن الرحيم ، بعد نزول سورة النمل[3] .

وكان من رسم الجاهليين اذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان الى فلان . ونجد هذا الأسلوب في كتب رسول الله[4] .

وتختم الرسالة بخاتم كاتبها أو بتدوين اسمه في نهايتها . كأن يقول : (وكتب فلان) أو (كتب فلان) . وقد ورد في كتب السير ، ان الرسول حين همّ بتوجيه الكتب الى قيصر وكسرى وغيرهما ، قيل له : إن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم بختم صاحب الرسالة ، فأمر بصنع خاتم له ، ختم به كتبه . وورد ان قريشاً حين ائتمرت بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وكتبت بذلك صحيفة ، ختمت عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] .

---

١ الاصابة (٣/٢٧٩) ، (٧٤١٣) .
٢ نسب قريش (٣٢٤) .
٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٣ وما بعدها) ، أدب الكتاب ، للصولي (٣١) ، الاغاني (٣/١٢٣) ، تفسير الطبري (١٩/٥٩ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٥/١٢١ وما بعدها) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٣/١٩٢ وما بعدها) .
٥ امتاع الاسماع (١/٢٥) .

وأشير الى الخاتم في شعر لامرىء القيس . فورد فيه :

ترى أثر القَرْح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس

والجرجس : الشمع ، وقيل هو الطين الذي يختم به ، وقيل هو الصحيفة. وبكل من ذلك فسر قول الشاعر المذكور[1] . ومن معاني (الجرجس) البعوض الصغير[2] . ويظهر ان اللفظة من المعربات ، عربت عن الإرمية . فهي تعني البعوض الصغير ، اذا قيل Gargso ، وهي تعني الصلصال والطين الذي يختم به اذا قيل Garguechto[3] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ختم رسائله (عمرو بن هند)[4] . وذكر علماء اللغة ان خاتم الملك الذي يكون في يده يسمى (الحِلق) . وأنشدوا في ذلك :

وأعطى منا الحلق أبيض ماجد رديف ملوكٍ ما تغب نوافله

كما أنشدوا بيتاً للشاعر جرير ، ذكر فيه (الحلق) : حلق المنذر بن محرق إذ قال :

ففاز بحلق المنذر بن محرق فتى منهم رخو النجاد كريم[5]

وذكر أيضاً ان الحلق خاتم من فضة بلا فص[6] . ويظهر من ذلك ان الملوك، كانوا يصطنعون خاتماً لهم ، يكون دليلاً على صدق رسائلهم وأوامرهم ، يحملونه معه ، أو يودعونه عنه كاتم أسرارهم ، وعلى ذلك جرى الأمر في الاسلام . فقد سار الخلفاء على سنّة الرسول من اتخاذه خاتماً يختم به الرسائل ، والكتب والأوامر ، وبقي الأمر كذلك عند من جاء بعده من الخلفاء .

---

١ ديوان امرؤ القيس (١٠٢) ، (سندوبي) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (٩٧) برواية أخرى ، تاج العروس (٤/١١٨) ، (الجرجس) .
٢ تاج العروس (٤/١١٨) ، (الجرجس) .
٣ غرائب اللغة (١٧٦) .
٤ الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٤) .
٥ تاج العروس (٦/٣٢٤) ، (حلق) .
٦ تاج العروس (٦/٣٢٤) ، (حلق) .

والخاتم ما يوضع على الطينة وما يختم به . والختام الطين أو الشمع أو الحبر أو أي مادة أخرى تترك أثراً يختم بها على الشيء[1] . وختم الأوراق والرسائل من العادات القديمة المستعملة عند الشعوب . ويقوم الخاتم مقام التوقيع في وقتنا الحاضر . وختم رسالة معناه المصادقة عليها وتصديقها . واستعمل الخاتم في ختم الأوراق العامة والأوراق الشخصية والعقود والمعاملات . وكان الشخص اذا أراد ارسال رسالة ختمها ، ولذلك كانوا يحملون خواتمهم معهم ، إما في جيوبهم وإما في أصابعهم وقد يضعونها في سلسلة يعلقونها حول أعناقهم[2] . .

وقد صنع الخاتم من مواد مختلفة . صنع من ذهب ومن فضة ومن معدن آخر ومن الحجر . وقد كتب على بعض الخواتم اسم صاحبه ، ونقشت أمثلة وحكم وعبارات دينية أو أسماء الآلهة على بعض الخواتم . كما حفرت على بعض منها صور ترمز الى رموز مقدسة أو صور حيوانات . وعثر على خواتم في العربية الجنوبية ، وبها فصوص من أحجار ثمينة من أحجار اليمن الشهيرة . وقد كان يستعملها الناس إذ ذاك في التوقيع على رسائلهم ومخابراتهم ومعاملاتهم . ولا زال الناس يعثرون على خواتم جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، فيستعملونها لتزيين أصابعهم بها .

وبعد أن تختم الرسالة ، توضع داخل ظرف ، حتى لا يطلع عليها أحد ثم يغلق ، ثم يختم على موضع فتحه بالطين أو على المواضع التي يحتمل أن يفتح منها حتى تكون في مأمن تام . فلا يقف عليها إلا من أرسلت له . فإذا وصلته ، ووجد ان خاتمها سليم ، كسره ، ليستخرج الرسالة من ظرفها . وكانت الكتب على هيأة لفائف . وكان من عادة الشعوب القديمة أن المكتوب إذا أريد ارساله الى شخص من طبقة أدنى من طبقة الكاتب ، أي صاحب الرسالة، أرسل المكتوب اليه منشوراً ، أما اذا كان المكتوب الى شخص مكافيء لصاحب الكتاب أو أعلى منزلة منه ، أرسل مختوماً وموضوعاً في كيس[3] .

ولحماية الأشياء من التطاول والتجاوز عليها لجأوا الى طبعها وختمها ، فختموا

---

١ تاج العروس (٢٦٦/٨) ، (ختم) ، اللسان (١٦٣/١٢) ، (ختم) .
٢ Hastings, p. 833.
٣ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٥٣/٢) .

الأكياس التي تملأ بالنقود أو بأي شيء آخر ، وختموا زق الخمرة حتى لا يتطاول عليه متطاول . قال الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم [1]

كما ختموا الطعام بالروسم ، وهو خشبة مكتوبة بالنقر . أو لويح فيه كتاب منقور ، تختم به الأكداس [2] . وقيل له (الروشم) أيضاً في لغة السواد [3] . وكلمة (رشم) ، تعني (كتب) في الإرمية . و (راشوم) ، بمعنى لوح منقوش تختم به البيادر في لغة بني إرم ، Rouchmo ، وتعني علامة [4] .

وكان من عادتهم ختم الأمور المهمة أيضاً خشية ضياعها أو التطاول عليها أو لحفظها . فلما كتب أهل مكة فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا اليهم محمداً . كتبوا بذلك صحيفة ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة [5] . ويظهر انهم بعد أن كتبوا الصحيفة وضعوها في ظرف ثم سدوه وختموا عليه ثلاثة خواتيم ، حتى لا يفتح الظرف . أو انهم طووها بعد أن كتبوها ثم ختموا عليها حتى لا تفتح ، فلما أرادوا فتحها وجدوا انها قد تهرأت وتلفت من فعل لعب الأرضة بها . ويجوز انهم ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، بخواتيم الكتبة الثلاثة الذين نسبت كتابتها الى كل واحد منهم ، بحسب اختلاف الروايات . وهم : منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، أو النضر بن الحارث ، أو بغيض بن عامر بن هاشم .

الكاتب :

والكاتب في اصطلاحنا هو الذي خصص نفسه بالكتابة ، أو من يقوم بعمل

---

١ مصادر الشعر الجاهلي (٧٦) .
٢ تاج العروس (٣١٢/٨) ، (رسم) .
٣ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رشم) .
٤ غرائب اللغة (١٨٣) .
٥ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

كتابي،أو من اشتهر وعرف بحذقه في فن الكتابة. وذكر علماء اللغة أن الكاتبين، هم الكتبة وحرفتهم الكتابة . وذكروا أن الكاتب في أيام الجاهلية : العالم . «وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي . أراد عالماً سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة »[1] . والواقع أن نسبة العلم للكتاب ، لم تكن نظرة أهل الجاهلية وحدهم بالنسبة الى كتّابهم ، بل كانت وجهة نظر شعوب العالم كلها الى الكتبة في ذلك العهد . لأن أكثر كتاب تلك الأيام كانوا من أبناء العوائل المتمكنة ومن أبناء طبقة رجال الدين ، وكانوا يتعلمون الى جانب الكتابة في الغالب علم اللسان ، كالعربية بالنسبة الى العرب والإرمية بالنسبة الى بني إرم،وشيئاً من الأدب من منظوم ومنثور وحساب وأمثال وحكم ، لذلك يخرج المتعلم ، وقد تثقف بثقافة تجعله فوق مستوى أقرانه، فيكون بعلمه هذا أعلم من غيره وأدرك منهم بشؤون الحياة . ومن هنا صار أعلم من بقية الناس . ونظر اليه نظرة تقدير وتبجيل .

ومن هنا نجد أن الأحناف ، وهم الدعاة الى الاصلاح والى رفع مستوى الحياة في الجاهلية ، كانوا كلهم من الكتّاب بالعربية . وقد نسب إليهم أنهم كانوا يكتبون ويقرأون بالعبرانية أو بالسريانية أو باللغتين أيضاً ، كما عرف عن بعض الخطباء والشعراء أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون،ومنهم من كان له اطلاع على الثقافات واللغات الأعجمية حتى بان ذلك على كلامه المنظوم أو المنثور ، وخير مثال على هؤلاء : عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت والأعشى ولبيد .

وقد عرفت حرفة احتراف الكتابة بين الجاهليين أيضاً ، كالذي كان من أمر (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) مع الفرس ، وكالذي كان من أمر ابنه عدي نفسه مع الفرس أيضاً ، ثم ما كان من أمر ابن عدي معهم. وكالذي كان من أمر (لقيط بن يعمر الإيادي) ، وغيرهم . وقد رأينا ان الناس أطلقوا على (حنظلة بن الربيع) ، كاتب الرسول (الكاتب) ، حتى عرف بـ (حنظلة الكاتب) ، لأنه كان قد قضى معظم وقته في الكتابة للرسول ، فكان يكتب له اذا غاب كاتب من كتّابه عنه . فهؤلاء اذن ، هم كتّاب ، صارت الكتابة حرفتهم ، ولا بد وأن نتصور انهم كانوا قد أتقنوا حرفتهم لطول مرانهم بها

---

١ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .

وخبروها على خير وجه . ومن المؤسف ، اننا لا نملك نماذج من رسائلهم ولا من خطوطهم في هذا اليوم . كما لا نملك من خطوط غيرهم شيئاً ، وسبب ذلك هو ندرة مواد الكتابة وغلائها بالنسبة لذلك الوقت ، فكانوا يغسلون الصحيفة المكتوبة ويمحون ما كتب عليها ، ليكتبوا عليها من جديد ، ثم عدم ادراك الناس إذ ذاك لأهمية وقيمة الوثائق ، حتى بالنسبة الى الوثائق المهمة كرسائل الرسول وأوامره وأحاديثه وأمثال ذلك ، فضاعت الأصول بسبب هذا الإهمال، وهي أصول سريعة التلف ، لأنها كتبت على الجلود وعلى مواد تبلى بسرعة ، وتحتاج الى عناية وحرص كي تحافظ على حياتها مدة طويلة .

وقد سار الكتاب الجاهليون على الجادة التي سلكها الكتاب الآخرون الكاتبون بالأقلام السامية من عدم وضع علامات للحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء ، بحيث أنهم كانوا اذا كتبوها ، لم يضعوا عليها نقاطاً لتمييز حرف منها عن حرف مشابه له أو بعلامة أخرى فارقة ، تفرق هذا الحرف عن الحرف الآخر . كما ساروا على الجادة التي سار عليها غيرهم من عدم وضع علامات خاصة بالحركات . فكتبوا ما كتبوا من غير إعجام ولا حركات . تاركين أمر القراءة الصحيحة وفهم المكتوب الى علم القارىء وفهمه وذكائه وحذقه باللغة وبالمهنة . ولعلهم فعلوا ذلك محاكاة لغيرهم مثل الكتبة النبط والآراميين والعبرانيين ، الذين تمسكوا بهذا الأسلوب ، على اعتبار أنه سنة قديمة ورثت عن الآباء ، وقد كتبت بها الكتب المقدسة . أو لأن القارىء يجب أن يكون عالماً بفنه بارعاً به ، فلا يكتب له بما يشعره أن مستواه في فهم المكتوب ، هو مثل مستوى سائر الكتبة، ممن تعلموا القراءة والكتابة وكفى . فكتبوا من غير اعجام ولا حركات . وقد جعلوا ذلك خاصة في مخاطبة ذوي المكانة والحكم ، أما إذا كان الانسان المكتوب اليه من سواد الكتاب القرّاء ، فكانوا يبيحون لأنفسهم حرية إعجام الكتابة وتحريكها . ومن هنا أيضاً ، ظهرت نماذج من الخطوط،خصصت بكتاب العامة .

وكانوا يميزون بين الخطوط،ويرجحون الخط القوي السوي على الخط الضعيف . والخط الجيد هو الخط الذي يجود فيه . ولا يستبعد أن تكون لهم مدارس في كيفية تدوين الخط . فقد أطلقوا على خط أهل الأنبار المشق . وقد عرفوا هذا الخط ، بأنه فيه خفة . ولا يعقل بالضبط أن يكون هذا الخط خطاً رديئاً ولهذا سمي مشقاً ، بل هو طريقة خاصة من طرق رسوم الخطوط التي امتازت بمدّ

الحروف وبخفتها في الكتابة أي سهولتها ، ولا تزال هذه الطريقة المعروفة بـ (خط المشق) معروفة . وهي تستعمل عند الخطاطين في كتابة بعض الأمور التي يناسبها هذا الخط . ذكر أن الخليفة (عمر) ذكره فقال : « شرّ الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة »[1] . لما في الاثنين من السرعة والتسرع . فالهذرمة السرعة . وذكر أيضاً أن (ابن سيرين) كره كتابة المصاحف بالمشق[2] .

والنوع الثاني الذي نعرفه من أنواع الخطوط ، هو الجزم . وهو خط أهل الحيرة . وهو خط المصاحف[3] .

ويجب أن نضيف الى هذين القلمين قلم أهل مكة ، الذي دعاه (ابن النديم) بـ (الخط المكي) ، ثم الخط المدني . وقد ذكر ان ما بعدهما الخط البصري ثم الكوفي . وهما خطان اسلاميان ، وان كنت لا أستبعد من كونهما قد أخذا من خط عرب العراق في الجاهلية ، ولعلها قد طعما بشيء من قلم أهل مكة أو المدينة. وقد وصف (ابن النديم) بعض خصائص القلم المكي والقلم المدني ، فقال : « فأما المكي والمدني ، ففي ألفاته تعويج الى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير »[4] . ويمكن استخراج بعض خواص رسم خطوط أهل الحجاز في القرن الأول للهجرة من الكتابات التي عثر عليها بعض الباحثين في مواضع متعددة من الحجاز ، والتي قد يعثر عليها في المستقبل .

والصفة التي يذكرها (ابن النديم) عن ألفات أهل مكة وأهل المدينة ، تدل على ان أهل المدينتين قد أخذوا خطهم من أهل العراق والنبط ، لأن الصورة المذكورة هي صورة كتابة الألف في الخط الشمالي ، ولم يعدل الألف،بحيث صير مستقيماً إلا في الاسلام.

وأنا لا استبعد احتمال تدريس مبادىء اللغات وبينها مبادىء اللغة العربية في الحيرة وفي الأنبار وفي مواضع حضرية أخرى ؛ فليس يعقل اقتصار التعليم في هذه المواضع على تعليم الخط والقراءة ثم لا يتجاوزهما الى مراحل أخرى ومراقي أرفع . خاصة وأن السريانيين كانوا قد اقتبسوا من اليونان اجرومية النحو وأصول

---

١ الصولي ، أدب الكتاب (٥٦) .
٢ تاج العروس (٩/١٠١) ، (هذرم) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .
٣ الاقتضاب ، للبطليوسي (٨٩) .
٤ الفهرست (١٤) .

الشعر وفلسفة قواعـد اللغات بترجماتهم الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وأن جماعة من النصارى العرب كانوا يزورون القسطنطينية وبلاد الشأم ويقرأون الكتب الدينية من آرامية ويونانية للتعلم والتثقف ، وهؤلاء هم الذين تولوا تثقيف أبنائهم العرب وتعليمهم . وأناس من هذا الطراز لا بد وأن يكونوا قد تأثروا بما تعلموه من اليونان ومن السريانية فطبقوه على العربية ، ووضعوا القواعد لصيانـة الألسنة ولتقويمهـا ، وسلكوا سبلاً في البيان ترتفع فوق مستوى تفكير السواد والسوقـة بدرجات . وترجموا الموضوعات الدينية ولا سيما الكتب الدينية الى الناس لتفقيههم بأمور دينهم .

ورجل مثل (عدي بن زيد العبادي) ، ولّي ديوان الرسائل والانشاء عنـد كسرى وهو ديوان مهم ، لم يكن الفرس يسلمون أمره إلا لرجل أديب حاذق، لا يعقل أن يكون مجرد قارىء خطاط ناقش للحروف ، لا بد وأن يكون صاحب فن وحذق له أسلوب في تنميق الكلام والتحبير ، قوي البيان ، يكتب وفق قواعد اللغة وأصولها . درس القواعد والأدب وأساليب العرب والعجم في التعبير والبيان، فصار من ثم كاتباً بالعربية وبالفارسية كما يذكر أهل الأخبار .

الفصل الخامس والعشرون بعد المئة

الكتاب والعلماء

والعلم المعرفة . ورجل عالم وعليم ، صاحب معرفة ، وأصحاب المعرفة والعلم هم العلماء . ويقال في جمع عالم : علاّم ، كجهّال في جاهل . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي سواء عند علام الرجال[1]

وذكر علماء اللغة ان (الناخع) العالم ، وقيل هو المبين للأمور ، وقيل هو الذي قتل الأمر علماً . قال شقران السلاماني :

إن الـــذي ربضتها أمره سراً وقد بين للناخع
لكالـــتي يحسبها أهلهـــا عذراءبكراً وهي في التاسع[2]

والعلاّمة ، والعلاّم ، والتعلمة ، والتعلامة : العالم جداً ، وذلك للمبالغة في سعة علم العالم . وذكر علماء اللغة ان « العلامة والعلام : النسابة »[3] ، ويظهـــر انهم انما قالوا ذلك ، بسبب ان النسب كان عند الجاهليين من أهم علومهم التي

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٥) ، (علم) .
٢ تاج العروس (٥/٥٢٠) .
٣ تاج العروس (٨/٤٠٦) ، (علم) .

برعوا وتخصصوا بها ، حتى صار النسب مرادفاً للعلم عندهم . وفي القرآن : « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[1] ، و (علماء بني اسرائيل)[2] ، وألفاظ كثيرة لها صلة بالتعلم والعلم ، وفي ورودها فيه دلالة على وقوف الجاهليين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

وترد لفظة (الكاتب) بمعنى العالم . « قال الله تعالى : أم عندهمْ الغيب ، فهم يكتبون »[3]، « وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي، أراد عالماً،سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة» ، والكاتب عندهم العالم . والاكتاب الإملاء . تقول : اكتبني هذه القصيدة ، أي املاها عليّ[4] ، و (الكاتب) عند الشعوب الأخرى ، بمعنى العالم كذلك ، وقد كانت للكتاب منزلة كبيرة في مجتمعهم ، إذ كانوا يعدون من الطبقات العالية الممتازة . وذلك لأن الكاتب لا يكون كاتباً إذ ذاك ، ولا ينال العلم ، إلا إذا كان من الطبقة العالية المتمكنة ومن أسرة عرفت بالعلم . والعلم إذ ذاك محصور في العوائل ، وفي رجال الدين وفي الطبقة التي تتولى الكتابة في قصور الملوك .

ونجد في القرآن لفظة : (كتب) و (كَتَبَتْ) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْنا)، و (كتبناها) ، و (فسأكتبها) ، و (تكتبوه) ، و (نكتب) ، و(يكتب) ، و (يكتبون) و (أكتب) ، و (فاكتبها) ، و (فاكتبوه) ، و (كُتِبَ) و (ستكتب) ، و (اكتتبها) ، و (فكاتبوهم) ، و (كاتب) ، و (كاتباً) و (كاتبون) ، و (كاتبين) ، و (الكتاب) ، و (كتاباً) ، و (كتابك)، و (بكتابهم) ، و (كتابنا) ، و (كتابه) ، و (كتابها) ، و (كتابي) ، و (كتابيه)، و (كُتُبٌ) ، و (كُتُبِه) ، و (مكتوباً) . وفي ورود هذه الألفاظ فيه معبرة عن معان مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم،دلالة على أن الجاهليين كانوا على علم ، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة ، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص عنهم أهل الأخبار من الجهل والأمية .

---

١ فاطر ، الاية ٢٨ ، تفسير الطبري (٨٦/٢٢) ، تفسير الالوسي (١٧٦/٢٢) .
٢ الشعراء ، الاية ١٩٧ .
٣ الطور ، الاية ٤١ ، القلم ، الاية ٤٧ .
٤ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .

وذكر علماء اللغة ان (الشهر) وجمعها (شهور) بمعنى العالم ، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت شعر ينسب الى أبي طالب ، هو :

فإني والضوابح كل يوم وما يتلو السفاسرة الشهود[1]

قال الصاغاني : هكذا أنشده الأزهري لأبي طالب ، ولم أجده في شعره[2] . ولكن الرواة يروونه على هذا النحو :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[3]

والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب ، والشهود أنسب في تفسير الشعر من الشهور ، لأننا لا نعلم ان أحداً قال إن الشهر : العالم ، وأرى ان تصحيفاً قد وقع في البيت حوّل حرف (الدال) (راء) ، ففسرت لفظة الشهور بالعلماء ، لعدم تصادم هذا التفسير مع المعنى ، وفي العربية مئات الأمثلة على مثل هذا التصحيف .

وترد لفظة (الفقه) بمعنى العلم بالشيء والفهم له . ويظهر ان الجاهليين كانوا يستعملون لفظة (فقه) ومشتقاتها في معان لها صلة بالعلم . ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[4] ، ومن ورود (تفقهون) ، و (تفقه) ، و (يفقهوا) ، و (يفقهون) ، و (يفقهوه) في مواضع منه . وورد في كتب اللغة والأدب والأخبار : « فقيه العرب : عالم العرب » ، و « فقهاء من العرب »[5] . وورد في الحديث : « أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون »[6] ، أي الثرثارون المدّعون العلم والفقه .

ويفهم أيضاً من روايات أهل الأخبار ، انه قد كان للجاهليين أئمة وفقهاء يقضون بينهم ، ويفتون في دينهم ، ويحافظون على دينهم . فهم عندهم سدنتهم وأمناؤهم . وقد ذكر (ابن حبيب) أسماء نفر من (تميم) تولوا الموسم والقضاء

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢ ، ٣٢٠) ، (سفر) ، (شهر) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٠) ، (شهر) .
٣ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (سفر) .
٤ التوبة الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ .
٥ اللسان (١٣/٥٢٢) ، (فقه) .
٦ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٤٢) .

بعكاظ . فكانوا يجلسون في مكان من السوق ، بين المتخاصمين وللافتاء فيما يشكل عليهم من أمر دينهم . وكان منهم من تخصص بالإجـازة بالموسم . ومنهم من تخصص بالفتيا والقضاء . ومنهم من جمع بين الاثنين[1] .

وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن كتب ومؤلفـات نقول إن الجاهليين كتبوها بالعربية على نمط اليونان واللاتين والفرس والسريان في الكتابـة والتأليف ، ذلك لقصور علمنا في الموضوع ، ولعدم وصول أي خبر الينا عنه حتّى الآن .

نعم ، لقد أشرت الى وجود ما يسمى (مجلة لقمان) و (حكمة لقمان) والى كتب امتلكها بعض الجاهليين ، إلا أن الاخباريين لم يصفوا كيف كانت مجلـة لقمان ، ولم يتطرقوا الى ما كان فيها ، كما أن الظواهر تشير الى أن تلك الكتب هي مؤلفات جيء بها من بلاد الشام والعراق واليمن ، أغلبها في موضوعات دينية وتأريخية وقصص . وأما لغتها ، فيظهر أن بعضها بعربية القرآن الكريم ، كمجلة لقمان ، وبعضها بلغة بني إرم .

أما ما قيل له (الأساطير) أو (كتب الأساطير) ، فهو كتب قصص وسمر وحكايات وتواريخ . وتدل التسمية على أنها من أصل يوناني ، هو : Historia و Storia في اللاتينية وتعني التأريخ ، عرّبت فصارت (أسطورة) وجمعت على أساطير،واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، أي أرادوا بها تواريخ الماضين وحكاياتهم وقصصهم .

وأما ما قيل له (السفاسرة) ، فالسفسير الحاذق بالشيء . والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . والكلمة من أصل (إرمي) على رأي علـماء اللغة . و (سفسير) بمعنى (سمسار) في لغة (بني إرم) ، أي المساوم[2] . والظاهر ان (السفاسرة) ، من (سفر) ، و (سفر) (سيفير) بمعنى كتاب في عدد من اللغات السامية . وتقابل (سفرو) في لغة بني إرم ، بمعنى كتاب[3] . وقـد كان بمكة وبغيرها رجال يتلون الكتب ويقرأون أسفار أهل الكتب من دينية وغيرها قبـل الاسلام وفي الاسلام . » وفي الحديث : لا تعلمـوا أبكـار أولادكم كتب

١ المحبر (أئمة العرب) ، (ص ١٨١ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

النصارى : يعني أحداثكم »[1] . وفي هذا الحديث إن صح دلالة على ان قراءة الكتب كانت منتشرة في ذلك العهد . ولا تعني جملة (كتب النصارى) الكتب الدينية بالضرورة ، إذ قد تعني كل ما كان يتداوله النصارى من كتب في ذلك العهد . وقد يكون من بينها مؤلفات في الفلسفة وفي الطب وفي فروع المعرفة الأخرى التي كان الناس يتدارسونها إذ ذاك .

وفي الآية : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً . قل : أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . إنه كان غفوراً رحيماً »[2]، دلالة صريحة على وجود الكتب والأساطير عند الجاهليين . فلما نزل القرآن ، قال المشركون : « إن هذا إلا افك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين ، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم. اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملى عليه ، يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير ، تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب، وأمليت بكرة وأصيلاً ، يقول وتملى عليه غدوة وعشياً . وقوله : قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض ولا يخفى عليه شيء »[3] . وزعموا ان الرسول اكتتب القرآن من (أساطير الأولين) ، وهي أحاديث سطرها المتقدمون كأخبار الأعاجم ، « فهي تقرأ عليه أو كتبت له »[4] ، وقالوا : « ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم »[5] . وكانوا يروون الأساطير وأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة، فرمى المشركون الرسول بهذه الفرية[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٢ الفرقان ، الآية ٥ .
٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) .
٤ تفسير النيسابوري (١٨/١٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير الالوسي (١٨/٢١٣) .
٥ تفسير الطبري (١٩/٦٠) ، تفسير الالوسي (١٩/١٠٠) .
٦ اللسان (١٠/٨٨) ، (خلق) .

وقد ذهب (شبرنكر) – وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ – الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : (أساطير الأولين)[1] . وقد أخذ رأيه هذا من الآية: « وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[2] . وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملي عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه . قالوا إن هذا القرآن « إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين يعني أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملي عليه . يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب وأمليت ، بكرة وأصيلاً . يقول وتملى عليه غدوة وعشياً » ، « وأعانه عليه قوم آخرون . يقول : وأعان محمداً على هذا الإفك الذي افتراه يهود »[3] . وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) في كتابه : (تأريخ القرآن) ، وعده قولاً لا أهمية له[4] .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع (أسطار) و (أسطير) و (أسطور)[5] . واللفظة من الألفاظ المعربة . وهي Istoriya (استوريا) في اليونانية ، و Historia في اللاتينية ، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتأريخ . ويظهر أن الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الاسلام ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه ، أي في معنى تأريخ وقصص .

ولا أستبعد وجود الكتب التأريخية باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون

---

١ Noldeke I, S. 16, Ency. of Islam vol. IV, p. 1016.

٢ الفرقان ، الآية ٥ .

٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) ، أسباب النزول ، للنيسابوري (١٦٠) .

٤ Noldeke, I, S. 17.

٥ تاج العروس (٣/٢٩٧) ، المفردات (٢٣١) ، البيضاوي ، تفسير (١/١٤٤) ، تفسير الطبرسي (٧/٣٢) ، (١٤/٦٦) .

بها إذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة،وبكتب أخرى مدوّنة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . وإليه الإشارة في الآية : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي »[1] . وهي في سورة النحل ، وسورة النحل من السور المكية . « كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي » ، « وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرمي » . « فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : انما يعلمه »[2] .

وقد ذهب (شبرنكر) الى وجود (صحف ابراهيم) عند الجاهليين ، زعم ان الرسول قرأها وأخذ منها . وقد رد على رأيه هذا (نولدكه) ، بقوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسبه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي أوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن . لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا فلا يعقل الأخذ بكلام (شبرنكر)[3] .

وورد في كتب أهل الأخبار أن (الأحناف) كانوا يقرأون الكتب،وتبحروا في التوراة والانجيل ، ومنهم من وقف على لغة (بني إرم) وعلى العبرانية . ومن هؤلاء (ورقة بن نوفل بن أسد) ، « الشاعر صاحب العلم في الجاهلية . وكان قد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والانجيل ، وهو الذي لقيته خديجة في أمر النبي »[4] .

وورد في بعض الأخبار في تفسير الآية: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزُواً »[5] ان هذه الآية إنما نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ، ويضاهون بها القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه[6] . وفي هذا الخبر دلالة على وقوف الجاهليين

---

١ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١٤/١١٩ وما بعدها) .
٣ Noldeke, I, S. 17, Sprenger, Lebens Muhammad, II, S. 367.
٤ الاشتقاق (١٠٢) .
٥ سورة لقمان ، الآية ٦ .
٦ العقد الفريد (٦/٩) .

على الكتب واستعمالهم لها ، وخاصة كتب السمر والأحاديث القديمة ، إذ لا يعقل أن يكون شراؤهم لها حادثاً طارئاً ، ظهر عندهم بنزول القرآن .

وذكر بعض المفسرين أن الآية المذكورة نزلت في حق « النضر بن الحرث وكان يتجر الى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم : رستم واسفنديار فيحدث بها قريشاً . وقيل كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به الى قينته ، فيقول اطعميه واسقيه وغنّيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك محمد اليه من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »[1] .

وإذا صح ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن هذه الآية قد نزلت بحق (النضر) لأنه كان يعاند الرسول ويعارضه وقت يكون مجتمعاً بنفر من الناس يلقي عليهم مبادىء الإسلام ، فيقرأ عليهم من كتب الأعاجم ومن قصص : رستم واسفنديار فإن ذلك يدل على أنه كان يتقن الفارسية ، وأنه كان يمتلك كتب الفرس ويقرأ بها وهو بمكة ، ويترجم ما جاء فيها لمن يتجمع حوله . وأنه اشترى جملة كتب خلال تجاراته مع العراق .

فنحن اذن أمام أقدم مترجم يصل الينا خبره من مترجمي العرب قبل الإسلام بمكة . يقــوم بترجمة كتب من الأعجمية الى العربية . ويكون بذلك قد سبق المسلمين بزمن طويل في ترجمة كتاب رستم واسفنديار الى العربية . غير أننا يجب أن نتحفظ ونحترز كثيراً في قولنا هذا . فنحن لا نقصد أنه ترجم كتاب رستم واسفنديار ترجمة تدوين وتحبير ، وبالتمام والكمال . فقول مثل هـذا يكون قولاً جزافاً ، لا يستند الى علم أو دليل إن قلته . وإنما أقصد ترجمة شفوية على نحو ما ذكره وأورده المفسرون وأصحاب السيرة . وقد ترجم هذا الكتاب في الإسلام . ترجمه جبلة بن سالم[2] .

ولا أعتقد أن رجلاً مثل الحارث بن كَلَدة الثقفي ، أو ابنه النَّضر ، وهما من العلماء بالطب ،لم يرجعا الى مؤلفات في الطب مدوّنة بلغة من اللغات الأعجمية ، للحصول على علمها في الطب . وكيف يمكن ذلك ،وقد درسا في مدرسة لم تكن

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبـــري (٥٢/٢١) ، سيرة ابن هشام (٣٨٣/١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٥٢/١٤) .
٢ الفهرست (٤٣٨) .

مدرسة عربية ، هي مدرسة (جنديسابور) ، عرفت واشتهرت في الطب . وقد كان عماد دراستها في الطب ما ألفه اليونان ، وما نقله منهـا علماء السريان . ولا أعتقد أنهما كانا في جهل بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما ممن بنوا صنعة الطب، ووضعوا فيها المؤلفات. بل لا أعتقد أن رجالاً في مكة أو في يثرب أو الطائف كانوا على جهل بأسماء مشاهير حكماء اليونان ، وبينهم من كان له اتصال ببـلاد الثقافة والعلم وبالأجانب على نحو ما ذكرت ، وإن اغفل عن ذكرهم أهل الأخبار .

ويظهر من روايات أهل الأخبار — مثل رواية ابن الكلبي عن وجود دواوين فيها ما مدح به آل لخم وما قيل فيهم من شعر ومقدار ما حكم كل واحد منهم ، وروايات غيره عن تدوين الشعر قبل الاسلام — أن الجاهليين كانوا قد شرعوا في تدوين الأخبار والشعر وما لفت انتباههم قبل الاسلام ، وقد يكون ذلك قبيـــل الاسلام بعهد غير بعيد ، وأن التدوين كان بهذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو بلهجات قريبة منها . ومعنى هذا أن هذه اللهجة كانت قد اكتسبت قـوة في هذا العهد ، حملت الناس على التدوين وعلى نظم الشعر بها . ولكن الذي رفعها وجعلها لغة للعرب أجمعين ، هو القرآن الكريم من غير شك ، فبفضله صارت هذه اللغة لغة للعرب كلهم ولغة المسلمين الدينية .

ويظهر من القرآن الكريم أن هذه اللغة كانت قد عرفت ألفاظ الحضارة والفكر في يوم نزوله ، لورودها فيه . ولورودها فيه أهمية كبيرة في إعطـــاء فكرة عن مستوى أهل الحجاز العقلي في ذلك اليوم ، ففيه ألفاظ مثل العلم والعلماء والحكمة والأساطير والأمثال الخ ... وألفاظ ذات صلة بالكتابة والتدوين تحدثت عنهـــا ومصطلحات أخرى ، ولا يمكن ورود مثل هذه الكلمات في لغة قوم ما ، مـــا لم يكن لهم أو لجماعة منهم على الأقل ، حظ من ثقافة وتفكير وعلم .

ولا أقصد أن الجاهليين استعملوا تلك الألفاظ بمدلولها المفهوم في الزمن الحاضر، أو بالمعاني المفهومة منها عند اليونان . فلفظة (علم) مثلاً ، لا تعني علماً بالمصطلح الحديث أي في مقابل Science في الانكليزيـــة ، وإنما تعني المعرفـــة عامة . ولفظة (علماء) ، لا تعني المشتغلين بالعلوم خاصـــة أي ما يقال لهم Scientist في الانكليزية ، وإنمـــا يراد بهم العارفون أصحاب المعرفة والفهم . وقد صار للفظتين مدلولان خاصان في العصر العباسي ، ولكن هذا لا يعني أن لفظة (علم) أو (علماء) ، لم تكن تعني معنى خاصاً عند الجاهليين ، وإلا ما استعملت للتعبير

عن معان معينة في القرآن الكريم ، وما ميز القرآن الكريم والحديث النبوي العارفين بلفظة علماء ، لتمييزهم عن السواد . وبهذا المعنى وردت لفظة (عالم) وعلم عند العبرانيين[1] .

ولا أستبعد تأثر المثقفين الجاهليين ومن كان على اتصال بالعجم وباليهود والنصارى بالآراء الفلسفية والدينية وبالجدل الذي وقع بين المذاهب النصرانية في أمور عديدة. فقد خالط الجاهليون ، ولا سيما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، أقواماً عديدة ذات ثقافات متباينـــة ، واحتكوا بها ، وأخذوا منها ، فلا يعقل ألا يتأثروا ببعض آرائهم في الكون وفي الحياة وفي سائر نواحي التفكير . وقد وردت في شعر للأعشى وفي شعر لبيـــد ، فكرتان متناقضتان عن الجبر والاختيار ، فذهب الأعشى في هذا البيت :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامـــة الرجلا

مذهب القائلين بالاختيار ، أي أن الانسان مختار قادر على أفعاله . أما الأعشى فذهب مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مُجبَر ، مسير ، وذلك في قوله :

إن تقوى ربنـــا خير نفل وبـــإذن الله ريثي وعَجَل
من هداه سُبُل الخير اهتدى ناعم البال،ومن شاء أضل[2]

وقد سبق أن ذكرت في مواضع متعددة من هذا الكتاب أن اكثر من نُسِب الى التوحيد ، أي من ينعتهم أهل الأخبار بالحنفاء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وكانت عندهم كتب أهل الكتاب ؛ وان أكثرهم كانوا أصحاب رأي وفكر في الخلق وفي هذا العالم. ولكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا في نصرانية،لأنهم لم يجدوا في الديانتين شيئاً يفرج ويرفه عما كان يجول في رؤوسهم من آراء ومقالات عن الخالق والكون . وقد جالس هؤلاء رجال اليهود والنصارى ، وتكلموا معهم في أمور عديدة من أمور الفكر والدين في جزيرة العرب وفي بلاد العراق وبلاد الشأم. وينسب لجندب بن عمرو بن حممة ، وهو من دوس ، أنه كان يقول في الجاهلية:

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, p. 831.

٢ العقد الفريد (٣٧٨/٢) .

إن للخلق خالقاً لا أعلم ما هو . ثم جاء الى الرسول ، فأسلم . وقد ذكر أن ورقة بن نوفل،وهو واحد من المذكورين ، كان قد قرأ الكتب وكتب بالعبراني أو السرياني ، وإنه كتب بالسريانية (العبرانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب . وكان قد امتنع عن أكل ذبائح الأوثان [1] . وذكر أيضاً : أن زيد بن عمر بن نفيل ، وهو ممن كان على الحنيفية ، كان ينتقد قريشاً ، ولا يأكل ذبائحها ، لأنها ذبحت للأصنام والأوثان [2] ؛ وأن عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله بن غفار المعروف بأبي اللحم الغفاري كان يأبى أن يأكل اللحم ، ولهذا سمي : (آبي اللحم) . وكان شريفاً شاعراً . وقد أسلم : وشهد حنيناً [3] . وكان لكل هؤلاء وقوف على كتب أهل الكتاب ، ولهم علم بأقلامهم .

وقد ذكر أهل الأخبار أن وهب بن منبه وأخاه كانا يستوردان الكتب القديمة من بلاد الشأم . ويرد مصطلح (الكتب القديمة) في كتب السير والأخبار [4] . ووهب بن منبه وأخوه من الاسلاميين ، ولكن استيرادهما للكتب ، لم يكن بدعاً واكتشافاً منهما ، بل لا بد أنه كان قديماً معروفاً عند الجاهليين .

وقد ذكر أهل الأخبار عبدعمرو بن صيفي النعمان المعروف بأبي عامر الراهب في جملة من كان يناظر أهل الكتاب،ويتتبع الرهبان ، ويألفهم ، ويكثر الشخوص الى الشأم . ومن هنا قيل له : الراهب [5] . وقد علم بذلك علم أهل الكتاب .

وورد أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، « كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » [6] ، وورد جواز تفسير التوراة والإنجيل باللغة العربية [7] . وكان اليهود يجادلون رسول الله في أمور الدين ، وقد أشير الى جدالهم له في القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

---

١ الاغاني (٣/١٤) ، (٣/١٢٠) ، (١٢/٥٢) .
٢ الاغاني (٣/١٥ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣) ، الاستيعاب (١/١١١) (حاشية على الاصابة) .
٤ شرح القاموس (٥/٤٢١) .
٥ نسب قريش (ص ٢٨١) .
٦ ارشاد الساري (١٠/٤٦٦) .
٧ المصدر نفسه (ص ٤٦٥) .

منهم . وقولوا : آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[1] ، وكانوا يستعينون في جدلهم بالتوراة ، يفسرونها بالعربية للمسلمين[2] . وقد فسر بعضهم الآية : « ليقولوا دارست » ، « بقوله : قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وفسرها بعضهم بذاكرتهم ، أو قرأت كتب أهل الكتاب[3] ، فنحن إذن أمام أقدم أخبار تشير الى ترجمة العهد القديم الى العربية ، ليفهمها العرب المشركون . وقد كان جدال اليهود مع النبي على أمور واردة في التوراة ، فلا بد وأنهم كانوا يستعينون بالترجمة في هذا الجدال .

وفي أخبار أهل الأخبار هذه مواضع تثير التساؤل وتوجه الانتباه الى قضية وقوف أهل الجاهلية وصدر الإسلام على كتب أهل الكتاب ، ونقلهم عنها وشرحهم لبعض ما نقلوه باللغة العربية . فقد وقفنا توا على ما ورد عن بعض الأحناف من وقوفهم على كتب أهل الكتاب ومن معرفتهم بالعبرانية والسريانية ، وقد وقفنا من أخبارهم على أن (عبدالله بن عمرو بن العاص) كان قد قرأ (الكتاب الأول)[4] . وأنه كان يقرأ بالسريانية[5] ، وأنه استأذن رسول الله في أن يكتب ما سمعه منه ، فأذن له ، فدوّنه في صحيفة سماها : (الصادقة)[6] ، وروي أنه كان يقرأ الكتابين : التوراة والإنجيل[7] . وأنه « كان فاضلاً عالماً قرأ الكتاب واستأذن النبي في أن يكتب حديثه ، فأذن له ، فكتب عنه حديثه وحفظ عنه ألف مثل[8] . وروي أنه كان على علم بالمثناة ، و (المثناة) (المشنا) في تفسير التوراة ، وأنه جمع كتباً حصل عليها يوم (اليرموك) ، وكان له علم بها »[9] .

وروي أن (عمر) انتسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب ووضعه في أديم ، وجاء به الى رسول الله ، فقال له : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : يا رسول

---

١ العنكبوت ، الآية ٤٦ .
٢ تفسير الطبري (٢/٢١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/١٥٠) ، (درس) .
٤ الطبقات (٤/٢٦٧) (صادر) .
٥ الطبقات (٤/٢٦٦) (صادر) ، المعارف (٢٨٧) .
٦ الطبقات (٤/٢٦٢) (صادر) .
٧ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) .
٨ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ تاج العروس (١٠/٦١) ، (ثنى) .

الله كتاب استنسخته لنزداد به علماً الى علمنا . فغضب رسول الله حتى احمرّت وجنتاه » . وورد أيضاً أن رجلاً من (بني عبد القيس) سكنه بالسوس، كان قد نسخ (كتاب دانيال) ، وكان يقرأه ويفسره للناس ، وذلك في أيام عمر، فنهاه عن ذلك ، وشدد عليه في وجوب محو ما كتبه[1] . وورد أن (عمر) كتب الى عامله (أبي موسى الأشعري) كتاباً نسخته : « إغسلوا دانيال بسدر وماء الريحان »[2] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) ، قال للنبي : انا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فنهى الرسول عن ذلك[3] .

ويرد اسم (كتاب دانيال) في خبر آخر ، فقد ورد عن (عمرو بن ميمون الأودي) ، أنه كان جالساً مع قوم ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقالوا له : ما هذا الكتاب : قال كتاب دانيال[4] .

ولم يرد اسم (دانيال) في القرآن ولا في الحديث ، ولكنه معروف جداً عند المسلمين ، بأنه نبي ، ولـه قصص في أخبار الرسل والأنبياء[5] . وقد وصلتهم قصصه ممن أسلم من يهود ومن اليهود الذين عاشوا بين الجاهليين وبين المسلمين . حيث اكتسبت رؤيا (دانيال) وتنبؤاته وتفسيره لحلم (نبوخذ نصر) شهرة خاصة عند يهود ، وانتقلت منهم الى المسلمين . ويعد (دانيال) أحـد الأنبياء الأربعة الكبار ، وتولى مناصب عالية عند البابليين والميديين (الماديين) ، وقـد اشتهر بتعبير الرؤيا وبالتنبؤ عن المستقبل[6] ، والظاهر أن شهرته هذه عند أهل الكتاب ، أكسبته منزلة خاصة عند المسلمين .

وورد أن (ابن قرة) جاء بكتاب من بلاد الشأم الى (عبدالله بن مسعود) ، وكان قد أعجب به ، فأمر (عبدالله بن مسعود) بطست فيه مـاء ، محا به أثر الكتابة[7] .

---

١ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم (٥١) .
٢ كنز العمال (٦/٣١٠) ، خورشيد أحمد (١٣٢) ، القسم العربي (رقم ٢٤١) .
٣ الفائق (٣/٢١٨) .
٤ تقييد العلم (٥٦ وما بعدها) .
٥ راجع قصص الانبياء (ص ٢٣١) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٣٢ وما بعدها) .
٧ سنن الدارمي (١/١٢٣) ، تقييد العلم (٥٣) .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) قال: « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبّها الى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحدٌ عنده كتاب إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي . فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم . فأحرقها بالنار »[1] . ويظهر أن هذه الكتب هي من كتب أهل الكتاب ، فعندنا أخبار عديدة تذكر حصول الصحابة على كتب كثيرة وقعت اليهم في الغزوات والحروب التي جرت في بلاد الشأم .

وقد ورد في شعر بعض الشعراء الجاهليين ما يفيد وقوف أصحاب ذلك الشعر على كتب أهل الكتاب . كالزبور و (خط زبور) و (مصاحف الرهبان) و (التوراة) و (المجلة) أي الانجيل وأمثال ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا قد وقفوا على خبرها وشأنها ، وأن اليهود والنصارى وهم عرب على اليهودية والنصرانية كانوا يتداولونها فيما بينهم ، باعتبار أنها كتبهم المقدسة[2] .

وقد وجد المسلمون مصاحف لليهود في مستوطناتهم فيها التوراة وفيها كتبهم الأخرى . فذكر ان المسلمين لما فتحوا (خيبر) « وجمعت مصاحف فيها التوراة، ثم ردت على اليهود »[3] .

وأنا لا أستبعد احتمال ترجمة الكتاب المقدس بقسميه ، كلاً أو جزءاً منه الى العربية ، فقد كان اليهود — كما سبق أن قلت — يفسرون ليهود يثرب ولعربها التوراة وكتبهم الدينية بالعربية، كما كان المبشرون يفسرونه بالعربية،وقد رأيت ان قريشاً اتهموا الرسول بأنه كان يستمع الى رجل نصراني ، ويأخذ منه . وانهم ذكروا ان الأحناف كانوا يقرأون التوراة والانجيل ، وان عرب العراق كانوا يدرسون في الكنائس والأديرة بالعربية ، فلا أستبعد احتمال وجود ترجمات عربية للكتب الدينية قبل الاسلام ، تلفت لأسباب عديدة ، منها انها لم تكن اسلامية، ولأسباب أخرى ، فلم تصل الينا لذلك .

وقد ورد في بيت شعر ينسب الى (بشر بن أبي خازم) ، ذكر كتاب كان عند بني تميم ، إذ جاء فيه :

---

١ تقييد العلم (٥٢) .
٢ خزانة الادب (٣/١١) ، ديوان السموأل (١٢) ، اللسان (١٢/١١٣) «صادر» .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٢٣) .

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخليل بالركض المعار[1]

ولو أخذنا بظاهر العبارة ، دل البيت على وجود كتاب عند بني تميم ، قد يكون صحيفة وقد يكون كتاباً مؤلفاً من صفحات . ولو أخذنا بالتأويل وقلنا معناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوباً ، ان أحق الخيل بالركض المعار ، انتفى وجود كتاب لديهم[2] . وقد نسب هذا البيت الى (الطرماح بن حكيم) ، وهو شاعر اسلامي . واذا صح ان هذا البيت هو من شعر الطرماح ، جاز أخذ لفظة (كتاب) بالمعنى الحقيقي ، إذ كانت الكتب معروفة في هذا الوقت .

وجاء في كتاب (إمتاع الأسماع) ، أن الرسول « كتب هذه السنة المعاقل والديات ، وكانت معلقة بسيفه »[3] . وأشار الطبري الى هذه الصحيفة بقوله : « وقيل : ان هذه السنة كتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المعاقل فكان معلّقاً بسيفه »[4] ، والسنة المشار اليها هي السنة الثانية من الهجرة . والخبر أشبه ما يكون بخبر (الصحيفة) المنسوبة الى (علي بن أبي طالب) ، فقد ورد في (صحيح البخاري) : « عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلاّ كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قال: قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر » . وورد أنها « كانت معلقة بقبضة سيفه . إمّا احتياطاً أو استحضاراً » ، وورد « فأخرج كتاباً من قراب سيفه »[5] . ويكاد يكون الخبر واحداً ، فالصحيفة صحيفة المعاقل والديات ، وموضعها في الخبرين السيف ، معلقة به ، أو في قرابه. ويظهر من روايات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول : مثل : المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

١ المفضليات (٩٨) ، الموشح (١٧٩) ، تاج العروس (٤٣٤/٣) ، (عير) .
٢ (فمعناه وجدنا هذه اللفظة مكتوبة) ، المرزباني ، الموشح (١٧٩) .
٣ المقريزي ، امتاع الاسماع (١٠٧/١) .
٤ الطبري (٤٨٦/٢) .
٥ ارشاد الساري (٢٠٣/١ وما بعدها) .

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عـــدل » . وورد انه كان فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل[1] .

ولم نجد في الأخبار ما يفيد أن الصحابة كانوا على علم بصحيفة النبي ، ولو كانت للرسول صحيفة فيها أحكام المعاقل والديات ، كان الرسول قد علقها على سيفه ، دلالة على اهتمامه بها ، لما سكت عنها الصحابة ، مع ما لها من الأهمية بالنسبة لاصدار الأحكام ، ولأنها يجب أن تكون المرجع المطاع الثاني بعد القرآن. ولذلك فأنا أشك في أمر هذه الصحيفة ، وفي صحيفة الإمام كذلك المأخوذة من كلام الرسول ، ولو كانت صحيفة الإمام ، هي صحيفة الرسول نفسها، صارت اليه بعد وفاته ، لما سكتت الأخبار من الإشارة اليها وعن انتقالها الى (عليّ) لما لها من أهمية ، ولا سيما بالنسبة الى الشيعة الذين يفتشون عن هذه الأمور باعتبارها منقبة تضاف الى مناقب الامام،وحجة في اثبات إمامته واعتماد الرسول عليه وحده. ولو كانت الصحيفة صحيفة الامام ، دوّنها بنفسه ، معتمداً على حديث الرسول، وكانت عنده معلقـــة بسيفه ، حرصاً عليها ، لتكون معه وتحت متناول يده ، يراجعها متى شاء،فلا يعقل أن تكون مقتصرة على المعاقل والديات وأسنان الابل ، وهي أمور يعرفها الامام ، وهو فقيه ، ومرجع من مراجع الافتاء ، دون حاجة الى أن يكتبها في صحيفة يحرص على حملها معه معلقة بسيفه ، ثم إنها إذا كانت على هذه الأهمية بالنسبة للإمام ، لما تركها أصحابه ، فلم ينقلوها بالنص والحرف، وهي أخطر وثيقة ، مع أنهم رووا عنه أحاديث كثيرة ، حتى نسب النـــاس له خطباً وأشياء لا يصح صدورها منه . ومنها صحيفة تسمى : (الصحيفة الكاملة، أو زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت »[2] .

ورأيي ان ما ورد من ان الخليفة (أبو بكر) كان يمتلك صحيفة فيها حديث الرسول[3] ، هو خبر غير صحيح كذلك ، ولو كانت لديه صحيفة ، لما خفي أمرها عن الصحابة ، فلم يحفظوها ولم ينقلوا عنها . وأما ما ورد من أمر صحيفة

---

١ الكافي للكليني ، (٨٥) ، الارشاد (٢٥٨) ، أبورية ، أضواء على السنة المحمديـــة (٩٤ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (١/١٨٣) .

٣ الذهبي ، تذكرة الحفاظ (١/٥) .

(عبدالله بن عمرو بن العاص) ، المسماة بالصحيفة الصادقة ، وما كتب فيها من حديث الرسول ، ومن انه قد جمع ألف مثل من أمثال الرسول[1] ، وما ورد من صحيفة (همام بن منبه) ، المسماة بالصحيفة الصحيحة ، فقد بحث في أمر هذه الصحف العلماء[2] .

وقد عدّ (الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان) التميمي المجاشعي ، في جملة علماء العرب وحكامهم . قال عنه بعض العلماء : « وكان عالم العرب في زمانه »[3] . كان عالماً بالنسب وبأخبار الناس ، ولهذا كانوا يتنافرون اليه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وقد حكم في المنافرة التي وقعت بين (جرير بن عبدالله) البجلي ، وبين (خالد بن أرطاة) الكلبي . وكان (خالد) زعيم (قضاعة) يومئذ ، فنفر (الأقرع) جريراً على خالد ، بمضر وربيعة[4] . وكان من المؤلفة قلوبهم[5] .

والنسب هو من أهم المعارف التي عرف بها أهل الجاهلية . وهو علم يرتقي الى عهد بعيد عن الاسلام من دون شك، لما له من تماس مباشر بحياتهم الاجتماعية وبنظمهم السياسية ، ولأنه الحماية بالنسبة الى الجاهلي في تلك الأيام . وأستطيع أن أدخل في علم النسب ، العلم بأنساب الخيل ، فقد عنوا بالخيل عناية كبيرة ، وحفظوا أنسابها ، ووضعوا شجرات أنساب لها . كما عنوا بأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالاصالة وبسعر بيعها وشرائها . ونجد في الأخبار ما يشير الى وجود أناس تخصصوا بحفظ نسبها .

والنسّاب : العالم بالنسب ، وهو النسّابة . أدخلوا الهاء للمبالغة والمدح . « وفي حديث أبي بكر ، رضي الله عنه : وكان رجلاً نسابة ، النسابة : البليغ العالم بالأنساب »[6] .

---

١ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) .
٣ الخزانة (٣/٢٩٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الاصابة (١/٧٢) ، (رقم ٢٣١) .
٦ اللسان (١/٧٥٦) ، (نسب) .

والنسب : نسب القرابات . يكون بالآباء ، ويكون بالقبائل ، ويكون الى البلاد ، ويكون في الحرف والصناعة [1] .

وقد نبغ بين القبائل والقرى أناس تخصصوا بحفظ النسب ، منهم من برع في حفظ نسب قبيلته ، ومنهم من برع في حفظ أنساب جملة قبائل ، وممن اشتهر وعرف من قريش بحفظ النسب وبالعلم به ، (أبو بكر) . وكان علمه بعلم الأنساب ، ثم بأمور الناس ، ثم الشعر . قيل إنه « كان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر » ، وقيل إنه كان أنسب العرب ، وأعلم قريش بأنسابها ، وأنسب هذه الأمة [2] . و « كانت قريش تألف منزل أبي بكر ، رضي الله عنه ، لخصلتين : العلم والطعام » [3] . ولما أمر الرسول حسان بن ثابت بالردّ على شعراء قريش قال له : « إئت أبا بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه على أنسابهم » . فلما سمعت قريش شعر (حسان) ، قالت : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة » [4] . ولما مرّ بالناس في معسكرهم بالجرف ، جعل ينسب القبائل [5] .

وكان (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف) ، وهو أحد أشراف قريش وحلمائها من علماء النسب في قريش ، وكان ممن أخذ النسب من أبي بكر . وكان ممن يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب عامة [6] .

وعرف (أبو جهم بن حذيفة) القرشي العدوي بعلمه بالنسب ، وكان من المعمرين في قريش . عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام . وكان من مشيخة قريش وصحب النبي [7] . وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب [8] .

---

١ اللسان (١/٧٥٥) ، (نسب) ، تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .

٢ الاصابة (٢/٣٣٤) ، (رقم ٤٨١٧) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) .

٣ البيان والتبيين (٤/٧٦) .

٤ الاستيعاب (١/٣٣٥) ، (حاشية على الاصابة) .

٥ الفائق في غريب الحديث (١/١٨٤) .

٦ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٠١) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) ، تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .

٧ نسب قريش (٣٦٩) .

٨ الاصابة (٤/٣٥) ، (رقم ٢٠٧) .

ومنهم : (مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف) . وقد أخذ عنه النسب . وكان عالماً بأنصاب الحرم[1] . قال عنه (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري) « وكان له سر وعلم ، وكان يؤخذ عنه النسب »[2] ، وقد أرسله (عمر) مع (سعيد بن يربوع) ، و (أزهر بن عبد عوف) ، و (حويطب بن عبد العزى) لتجديد أنصاب الحرم ، فجددوها ، ويقال إن (عثمان) بعثهم كذلك . وهو راوي خبر قصة استسقاء (عبد المطلب) ، وما ورد فيه من الشعر[3] .

قال (الجاحظ) : « أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلماؤهم بالأنساب والأخبار : مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة ، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكراً لمثالب الناس، فعادوه لذلك ، وقالوا فيه وحمقوه »[4] . و (حويطب) من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم[5] . ومات زمان معاوية ، وهو ابن عشرين ومائة سنة . وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار[6] . وتوفي سنة (٥٤ هـ)[7] .

وروي ان غنائم الحيرة لما وصلت الحيرة وفيها سيف النعمان بن المنذر، استدعى (عمر) (جبيراً) ، فسأله عن نسب (النعمان) فقال له : انه أشلاء قنص بن معد . فأعطاه سيفه ، وذكر انه كان أنسب العرب، وعنه أخذ (سعيد بن المسيب) النسب[8] .

ومن نسابي قريش (عقيل بن أبي طالب) . ولما وضع (عمر) الديوان، استعان بعقيل ومخرمة ، وجبير في ترتيب عطاء الناس على منازلهم ، فبدأوا ببني هاشم[9] . وعقيل هو أخ (علي بن أبي طالب) ، ذكر أنه « كان عالماً بأنساب

---

١ الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .
٢ نسب قريش (٢٦٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٧٠) ، نكت الهميان (٢٨٧) .
٤ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٥ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٦ نسب قريش (٤٢٥ وما بعدها) .
٧ الاصابة (١/٣٦٣) ، (رقم ١٨٨٢) .
٨ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الفائق (١/٦٠٨ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٠٣) .
٩ ابن سعد ، المجلد الثالث ، الجزء الاول (٢١٢) .

قريش ومآثرها ومثالبها ، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة » ، فهو من شيوخ العلم الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الأنساب والمآثر والمثالب . قيل «كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل ، ومخرمة ، وحويطب، وأبو جهم . وكان عقيل يعد المساوي ، فمن كانت مساويه أكثر يقر صاحبه عليه، ومن كانت محاسنه أكثر يقره على صاحبه »[1] ، ونظراً لتكلمه مع الناس وتحدثه عن مساويهم فقد عودي وحمق[2] .

وقد صار مسجد الرسول في المدينة موضع دراسة للمسلمين ، فقد رأينا (حسان ابن ثابت) ، وهو ينشد الشعر فيه ، وهذا (عقيل) يعلم الناس الأنساب فيه ، وهناك غيرهما من كان يعلم الناس في هذا المسجد .

وممن عرف واشتهر بعلم النسب،وأخذ النسب عن الجاهليين ، دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم ، وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ، وزيد بن الكيس النمري ، والنخار بن أوس القضاعي ، وصعصعة بن صوحان، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان ، وعبيد بن شريه وغيرهم[3] .

وذكر عن (دغفل بن حنظلة) النسابة السدوسي الشيباني ، انه كان عالماً بالعربية والأنساب والنجوم ، وقد اغتلبه النسب . وقد أعجب به (معاوية) لما سأله أموراً كثيرة في هذه العلوم[4] . ولا بد وأن يكون قد أخذ علمه ممن أدرك الجاهلية من رجال ، وممن عاصر الرسول . وذكر انه و (زيد بن الكيس) النمري ، كانا ممن أثارا أحاديث عاد وجرهم ، ولذلك قال فيهما الشاعر :

أحاديث عن أبناء عادٍ وجرهم   يثورها العضان زيد ودغفل[5]

وروي ان معاوية « قال لدغفل بن حنظلة النسابة . بمَ ضبطت ما أرى ؟

---

١ الاصابة (٢/٤٨٧) ، (رقم ٥٦٣٠) .
٢ البيان والتبيين (٢/٣٢٤) ، نكث الهميان (٢٠٠) .
٣ الاصابة (١/٤٦٤) ، (رقم ٢٣٩٩) ، البيان والتبيين (١/١١٨) ، بلوغ الارب (٣/١٩٦) ، التمدن الاسلامي (٣/٤٠ وما بعدها) ، الفهرست (١٣٧ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٤٦٤) ، (رقم ٢٣٩٩) ، الاستيعاب (١/٤٦٧) .
٥ العسكري ، جمهرة (٢/١١٣) ، (رقم ١٣٥٨) ، الميداني (٢/٢٤) .

قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت اذا لقيت عالماً أخذت ما عنده ، وأعطيته ما عندي »[1] . وذكر ان (أبا بكر) ، سأل قوماً من (ربيعة) عن نسبهم ، وفيهم (دغفل) ، وكان غلاماً إذ ذاك ، فلما انتهى أبو بكر من استجوابهم ، سأله (دغفل) عن نسبه ، فأفحمه[2] .

وقد اشتهر (دغفل) في النسب ، حتى ضرب به المثــل في النثر وفي الشعر بسعة علمه به ، وقد ذكره (الفرزدق) بقوله :

أوصى عشية حين فارق رهطه   عند الشهادة في الصحيفة دغفل
أن ابن ضبّة كان خير والداً   وأتم في حسب الكرام وأفضل[3]

ونجد اسمه في شعر شعراء آخرين[4] .

وكان ممن أدرك النبي ، ولم يسمع منه . واسمه (الحجر بن الحارث) الكناني؛ ودغفل لقب له[5] .

وكان (صحار) العبدي من النسابين البلغاء ، وله مع (دغفل) محاورات . وكان من المقربين الى معاوية ومن المطالبين بدم (عثمان)[6] .

و (صعصعة) بن صوحان) العبدي ، وكان مسلماً في عهد رسول الله ولم يره . وشهد صفين مع (علي) ، وكان خطيباً فصيحاً ، له مع معاوية مواقف. « قال الشعبي : كنت أتعلم منه الخطب »[7] . وله اخوة ، منهم (سيحان بن صوحان) العبدي، كان أحد الأمراء في قتال في أهل الردة[8] ومنهم (زيد بن صوحان) وكان سيداً في قومه ، وقد شهد الجمل مع (عليّ)[9] .

---

١ الفائق (٢/٣٠٤) .
٢ الفائق (٣/٨٤) .
٣ النقائض (١/١٨٩) .
٤ ديوان القطامي (٣١) ، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) .
٦ الاصابة (١/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٧ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) .
٨ الاصابة (٢/١٠٢) ، (رقم ٣٦٣٠) .
٩ الاصابة (١/٥٦٥ وما بعدها) ، (رقم ٢٩٩٧) .

ومن نسابي (كلب) : (محمد بن السائب) الكلبي ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) ، و (شرقي بن القطامي)[1] ، و (الشرقي بن القطامي) ، اسمه (الوليد بن الحصين) ، وقد اتهم بالكذب[2] . وقد ذكر (الجاحظ) و (ابن النديم) أسماء عدد ممن عرفوا باشتغالهم بالأنساب .

وقد برز بعض النسابين في ذكر مثالب الناس ، وقد كان (عقيل بن أبي طالب) منهم ، كما ذكرت . ويذكر ان (زياد بن أبيه) كان أول من ألّف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، قائلاً لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] . ومن طلاب المثالب وناشرها بين الناس (أبو عبيدة معمر بن المثنى) التيمي ، من تيم قريش . وكان مكروهاً فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره[4] .

وعدّ الشعر عند أهل الجاهلية علماً من علومهم ، يقوم عندهم (مقام الحكمة وكثير العلم) ، « ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر . فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ويتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون »[5] . وقد أوردوا أسماء أشخاص عرفوا بسعة علمهم وبتبحرهم بالشعر .

الملاحن والألغاز :

ومما أثر عن أهل الجاهلية مما يتعلق باستعمال الذكاء والفطنة واختبار العلم ، الملاحن والألغاز . واللحن عند العرب الفطنة . وقد وضع (ابن دريد) كتاباً في الملاحن ، سماه : (كتاب الملاحن)[6] . وقد كانت العرب تتعمد الملاحن وتقصدها ، إذا أرادت التورية أو (التعمية)[7] . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم

---

١ البيان والتبيين (٣٢٢/١) .
٢ الفهرست (١٣٨) .
٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي (٢٥٩/١) كتاب المعارف لابن قتيبة (١٧٦) ، بروكلمن (٢٥٠) .
٤ الفهرست (٨٥) .
٥ اليعقوبي (٢٣٠/٢) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٦ المزهر (٥٦٧/١ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

استعملوها استعمال (الشفرة) ، أو الرسائل السرية المعماة في نقل الأخبار ، كالذي رووه من أن طيئـاً أسرت رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأعطيا لهم به عطيّة لم يرضوها ، فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ، ثم انصرفا .

فقال الأب للعم : لقد ألقيتُ الى ابني كليمة ، لئن كان فيه خير لينجون. فما لبث أن نجا وأطرد قطعة من إبلهم ، فكأن أباه قال له : إلزم الفرقدين على جبلي طيء فإنهما طالعان عليهما لا يبغيان عنه[1] .

ورووا قصصاً أخرى من هذا القبيل[2] ، تحلل تحايل الناس إذ ذاك في كيفية إبلاغ خبر ، أو ايصال رسالة من أسير وقع في أسر ، أو من شخص اعتدى عليه ، أو من رجل طعن ، فأراد ابلاغ قومه باسم طاعنه . فيعمد الشخص الى الكلام المعمى الدال على سذاجة ، لإيصاله الى أهله ، لعلمه بأن في وسع أهله استنباط ألغازه وحل معماه .

وأما الألغاز ، فهي لامتحان الذكاء في الغالب ، ولتمضية الوقت والتسلية . وتكون شعراً كما تكون نثراً[3] . و (الأُلغوزة) ما يعمى به من الكلام[4] .

---

١ المزهر (١/٥٦٧) .
٢ المزهر (١/٥٦٨ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٥٧٨ وما بعدها)
٤ تاج العروس (٤/٧٨) ، (اللغز) .

الفصل السادس والعشرون بعد المئة

الفلسفة والحكمة

أما مؤلفات في العلوم والفلسفة ، منقولة عن اليونانية أو اللاتينية الى العربية ، فلا أدري أن أحداً من أهل الأخبار ذكر وجودها عندهم بلغـــة بني إرم ، أو بلغة اليونان ، ذلك لأن المثقفين وأصحاب الرأي والعزم كانوا على اتصال بالعالم الخارجي ، وكانوا يدارسون الأعاجم ويأخذون عنهم ، وقـــد درس بعضهم في مدارس الفرس والعراق وبلاد الشأم،ولغة الدراسة في تلك البلاد السريانية واليونانية والفارسية ، فلا يستغرب أن يكون مِنْ هؤلاء مَنْ درس بلغة من هذه اللغات في الحجاز أو في اليمن . أما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، فالأمر لا يحتاج فيها الى نظر ، فقد رأينا أن عربها أسهموا في الحركة العلمية قبل الاسلام لكنهم أسهموا بلغة السريان ، لا باللغة العربية ؛ لأن العربية لم تكن عربية واحدة يومئذ ، وانما كانت جملة لهجات ، ثم إنها كلها ، لم تكن قد وصلت الى درجة من الاستعمال والانتشار تجعلها لغة للترجمة والتأليف .

الحكمة :

وأما (الحكمة) ، فقد ذكر أهل الأخبار أمثلة عديدة منها زعموا انها لحكماء جاهليين ، أوردوا أسماءهم ، ولكنهم لم يفيضوا في بيان سيرهم وتراجم حياتهم،

بعض ما نسب اليهم سجع قصير ، وبعضه كلام منظوم وبعضه مثلٌ زعم انهم ضربوه فسار بين الناس .

وقد اشتهر الشرق بالحكمة ، وهو ما زال على حبه لها باعتبارها أداة للتعليم والتثقيف . والحكيم ، هو (حكيمو) Hakimo في الإرمية ، بمعنى عالم[1] . ونرى في التوراة اصحاحات مثل : الأمثال وأيوب ونشيد الأنشاد وغيرها ، ملئت حكمة . والحكيم هو (حكميم) عند العبرانيين . وأما الحكمة ، فهي : (حوكماه) (حوكمه) Hokhmah[2] .

و (الحكيم) في تعريف علماء اللغة العالم وصاحب الحكمة ، المصيب برأيه ، الذي يقضي على شيء بشيء ، فيقول : هو كذا وليس بكذا . وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها . وقد ورد في الحديث : إن من الشعر لحكماً ، أي إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل أراد به المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس . ويروى إن من الشعر لحكمة . وقد سمّى الأعشى قصيدته المحكمة حكيمة ، أي ذات حكمة ، فقال :

وغريبة تأتي الملوك حكيمــة   قد قلتها ليقال من ذا قالها[3]

وقالوا ان من معاني : الحكيم الحاكم ، وهو القاضي ، أو هو الذي يحكم الأشيــاء ويتقنها ، وان الحكمة : العدل ورجــل حكيم ، عدل حكيم . وان (المُحكّم) هو الشيخ المجرب المنسوب الى الحكمة ، ولذلك يقال للرجل اذا كان حكيماً : قــد أحكمته التجارب . والحكــيم : المتقن للأمور[4] . وفي هذه التعاريف دلالة على انهم كانوا يسمون الحكمــة بالتبصر في الأمور ، وباستقراء الحوادث ودراستها لاستخراج التجارب منها ، والحكم بموجبها ، ومن هنا أدخلوا الحكم بين الناس ، والنظر في الأحكام في جملة أمور الحكمة .

وليس هذا الرأي ، هو رأي العرب وحدهم . فقد كان هــذا الرأي معروفاً

---

١ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .
٢ Hastings, Diction., I, p. 648, A Dictionary of christ, and the Gospels, Vol., II, p. 825. ff., B.W. Anderson, understanding the old Testament, p. 467.
٣ تاج العروس (٨/٢٥٥) ، (حكم) .
٤ اللسان (١٢/١٤٠ وما بعدها) .

عند غيرهم أيضاً.فنجد الحكماء عندهم حكاماً يحكمون في الخصومات وفي المنازعات: بفضل ما أوتوا من فطنة وصبر وذكاء وعلم ، وهي من أهم صفات الحكم . ونجد في أدب الشرق الأدنى القديم أشخاصاً مثل (أحيقار) الشهير ، يجمعون بين الحكم والحكمة ، وقد ضرب بهم المثل في نجاحهم في اصدار الأحكام .

والحكيم في الشرق بمنزلة الفيلسوف عند اليونان . وما (ارسطو) الفيلسوف اليوناني الشهير وكذلك أفلاطون ، غير حكماء في نظر الشرقيين . ولذلك ادخلوا في (الحكماء) . والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس ويرشدهم في هذه الحياة ، وهو خير مستشار في كل شيء ، لأنه بفضل ما يملكه من عقل ومن تجربة يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ . ولذلك كان الحكماء هداة قومهم واساتذتهم وفلاسفتهم ، أقوالهم حكمة للناس ودرس في كيفية السير في العالم .

ولكننا لا نستطيع أن نرادف بين (الحكمة) وبين (الفلسفة) . فبين الاثنين فرق كبير في المفهوم . ولا يمكن أن نقول إن الفلسفة بالمعنى اليوناني ، هي في مفهوم (الحكمة) عند شعوب الشرق الأدنى . لأن بين الفيلسوف وبين (الحكيم) تباين كبير في اسلوب البحث وفي كيفية التوصل الى النتائج والمعرفة وفي مفهوم كل واحد منهما لهدف الآخر ، وفي الغاية المقصودة من كل منهما . فالغاية من الحكمة العبرة والإتعاظ والأخذ بما جاء فيها من حكم ، أي غايات عملية وتأديبية، بينما الغاية من الفلسفة البحث عن معنى الحكمة وعما يكون وراء الطبيعة من خفايا غير مكتشفة وأسرار[1] .

وقد وردت لفظة (الحكمة) في القرآن الكريم[2] . وقد ذكر العلماء أن الحكمة اسم للعقل ، وإنما سمي حكمة لأنه يمنع صاحبه من الجهل[3] . فالحكمة إذن ، هي بمعنى العلم والتفقه . وهي بذلك ذات حدود واسعة ، بل لا نكاد نجد لها حدوداً معينة فاصلة ، فقد شملت أموراً كثيرة ، اطلقت على رجال اشتهروا بالحكم بين الناس ، أي بالبت فيما ينشأ بينهم من شجار وخصومة ، وأطلقت على أناس ذكر

---

١ Hastings, p. 975.

٢ وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، راجع المعجم المفهرس (ص ٢١٣ وما بعدها) .

٣ غريب القرآن ، للسجستاني (ص ١١٨) ، (سنة ١٩٢٤) .

أنهم كانوا كهاناً ، وأطلقت على جماعة عرفت بأن لها رأياً في الدين ، وأطلقت على نفر كان لهم رأي في المعالجة والتطبيب ، وأطلقت على نفر عرفوا بقراءة الكتب القديمة ، أي الكتب السماوية وغيرها مما كان عند يهود والنصارى وعند الروم والفرس ، وأطلقت على غير ذلك ، فهي إذن كما ترى ذات معان واسعة شاملة .

ويلاحظ ان القرآن الكريم ، قد أورد لفظة (الحكمة) بعد لفظة (الكتاب) وفي حالة العطف ، أي على هذه الصورة : (الكتاب والحكمة) ، واستعملها بعد لفظة (الملك) في الآية : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »[1] . واستعملها مفردة كما في « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً »[2] ، وفي مواضع أخرى . وقد ذهب المفسرون الى ان المراد من الكتاب القرآن ، ثم اختلفوا في معنى الحكمة ، فمنهم من قال انها السنة ، ومنهم من قال المعرفة بالدين والفقه ، ومنهم من قال : الحكمة العقل في الدين ، أو الاصابة في القول والفعل ، الى غير ذلك من أقوال[3] ، تدل على ان تفسيرها بمعنى السنة والتفقه في الدين من التفسيرات التي ظهرت في الاسلام . أما معناها عند الجاهليين ، فكان بمعنى الخبرة المكتسبة من الملاحظات العميقة الى الأشياء ، أو المستخلصة من التجارب ، وبمعنى العلم والرأي الصائب. وبهذا المعنى جاءت الحكمة عند الساميين . فقد كان الحكيم عندهم العالم الذكي الفطن الذي ينظر بعين البصيرة الى أعماق الأمور بتؤدة وتبصر وأناة ، فيبدي رأيه في كل شيء في هذه الحياة ، من سياسة واقتصاد ، ومن أمور تخص السلم أو الحرب ، أو الخدع ، والحكم بين الناس . ولهذا كان الحكماء في أعلى الدرجات في مجتمعهم من ناحية الثقافة والرأي .

ويظهر من دراسة ما ورد في المؤلفات الإسلامية عن الحكمة والحكماء أن الجاهليين أرادوا بالحكمة حكايات وأمثلة فيها تعليم ووعظ للإنسان ، يقولونها ليتعظ بها في حياته وليسير على وفق هدى هذه الحكم . وهي حكم حصلت من تجارب عملية ، ومن ملاحظات وتأملات في هذه الحياة . ولهذا نسبوا الحكمة الى

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢٥١ .
٢ البقرة ، الاية ٢٦٩ .
٣ تفسير الطبري (١/٤٣٦) .

أناس مجربين أذكياء لهم صفاء ذهن وقوة ملاحظة مثل : (أكثم بن صيفي) و (قس بن ساعدة الإيادي) وغيرهما ممن سيأتي الكلام عليهم . روي أن (عمر ابن الخطاب) قال لكعب الأحبار وقد ذكر الشعر : « يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد اسماعيل، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب »[1] . فالعرب هم أصحاب حكمة وأمثال على رأي (كعب الأحبار) ان صح ان هذا القول المنسوب اليه هو من أقواله حقاً ، والأمثال باب من أبواب الحكمة ، بل تكاد تؤدي معناها عند الجاهليين ، فالحكيم عندهم هو الذي ينطق بالحكم يقرنها بالأمثال ، وبالقصص والنوادر .

وإذا بحثت عن الحكمة في العهد القديم تجدها في الأمثال ، وفي سفر أيوب، وفي نشيد الانشاد ، وفي سفر الجامعة والحكمة وفي (سيراخ) ، وفي حكمة (سليمان) التي هي في المزامير[2] . وهي أمثال في الغالب نبعت من تجارب أخذ العبرانيون بعضها من غيرهم ، ونبع بعض آخر من تجاربهم الخاصة ، وظهرت عندهم أمثال إنسانية عامة تخطر على بال كل إنسان ، فهي عامة مشتركة ، لم يأخذها قوم من قوم ، وإنما هي خاطرات وتجارب تظهر لكل إنسان ، فضرب بها المثل في كل لسان .

ونحن لا نملك في هذا اليوم كتابة جاهلية ، فيها حكم من حكم الجاهليين . وكل ما ورد الينا من حكمهم مأخوذ من موارد اسلامية . ولذلك صار كلامنا على الحكمة في الجاهلية مثل كلامنا على سائر معارف الجاهليين ، ضيقاً محدوداً ، منبعه ما ورد عنها عند المسلمين .

ويظهر من بعض الحكم المنسوبة الى الجاهليين ، انها ترجع الى أصل يوناني ، حيث نجدها مدونة في كتب فلاسفتهم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، مما يدل على انها دخلت الى العربية عن طريق الترجمة من اليونانية أو من السريانية، وعن طريق بلاد الشأم في الأغلب ، حيث كانت الثقافة اليونانية قد وجدت لها سبيلاً هناك ، بحكم خضوعها لليونانيين قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وبحكم وجود جاليات يونانية كبيرة هناك .

---

١ العمدة (ص ٢٥) ، القاهرة ١٩٦٣ م .
٢ Hastings, p. 975.

ويظهر من دراسة بعض آخر من الحكم المنسوبة الى الجاهليين انها من أصل فارسي . ولا يستبعد أن تكون قد دخلت من الأدب الفارسي القديم الى عرب العراق ، وقد عاشوا قبل الاسلام في اتصال وثيق مع الفرس. وكان بعض العرب قد أتقنوا الفارسية وأجادوا فيها ، كما ان من الفرس من كان قد تعلم العربية وبرع فيها . ثم إن بين ذوقي العرب والفرس تشابه في نواح من الأدب ، ولهذا كان أثر الأدب الفارسي في الأدب العربي أكبر وأظهر من أثر الأدب اليوناني فيه.

ونجد في الحكم المنسوبة الى (أحيقار) ، شبهاً لها في الحكم العربية القديمة ، وترجمة أصيلة لبعض حكمه أحياناً . خذ قوله : « يا بني إذا أرسلت الحكيم في حاجة ، فلا توصه كثيراً ، لأنه يقضي حاجتك كما تريد . ولا ترسل الأحمق، بل امضِ أنت واقضِ حاجتك »[1] . ولو درست بقية حكمه ، وما ورد في الحكم المنسوبة الى الجاهلين ، ترى شبهاً كبيراً في المعنى بل وفي اللفظ في الغالب، مما يدل على أنها ترجمة أخذت من السريانية فعربت ونسبت الى الجاهليين ، أو أن الجاهليين وقفوا عليها فصاغوها بلسانهم ، فنسبت اليهم . وأكثر حكمه موجهة الى ابن اخته (نادان) ، حيث يعظه فيقول : « يا بني ... » .

غير أن علينا ألا ننسى ،بأن من الحكم ، ما هو عام ، يرد على خاطر أغلب الشعوب ، وعلى لب أكثر الناس ، حتى وان لم يكونوا من المثقفين الدارسين . لأنه مما يتشارك فيه العقل الإنساني ، فيكون عالمياً إنسانياً . ولهذا،فنحن لا نستطيع أن نردّه الى أحد ، ولا أن نرجعه الى مرجع معين . ولا نستطيع أن نقول ان العرب أخذوه من غيرهم ، أو أن الأعاجم أخذوه من العرب . بسبب ما ذكرته من كونه من نتاج عقل واحد ، هو القاسم المشترك بين عقول الإنسان .

واذا صح ما روي من أن (سويداً بن الصامت) المعروف بـ (الكامل)، كان يملك (مجلة لقمان) ، وقد أراها الرسول مقدمه عليه بمكة ، وما ذكر من انها كانت في الحكمة[2] . فتكون هذه المجلة ، أو الكتاب ، أقدم شيء يصل اسمه الينا من الكتب التي تداولها أهل الجاهلية . ولم يذكر الرواة — ويا للأسف —

---

١ أغناطيوس افرام الاول برصوم ، اللؤلؤ المنثور في تأريخ العلوم والاداب السريانية (٦٧) ، (حمص ١٩٤٣) ، تأريخ كلدو وآثور (١/١١٣ وما بعدها) ، (٢/٤٠) .

٢ الروض الانف (١/٢٦٥) .

محتويات تلك المجلة ونوع الحكم التي احتوتها .

فقد روي « ان سويد بن صامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه ... فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سمع به ، فدعاه الى الله والاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعرضها عليَّ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عليّ ، هو هدى ونور . فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه . وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث ان قتلته الخزرج » وكان قتله قبل يوم بعاث[1] .

والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، وكل كتاب عند العرب مجلة [2] ، وقيل : « كل كتاب حكمة عند العرب مجلة » . قال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[3]

وبالنظر الى اشتهار لقمان في الأدب العربي بالحكمة عن طريق ضرب الأمثال . ونظراً لظهور أمثال كثيرة في الإسلام نسبت اليه ، فإن من المحتمل أن تكون تلك المجلة التي زعم أنها كانت عند (سويد) مجموعة من حكم وأمثال . لا ندري من جمعها فنسبها اليه ، لعدم اشارة أهل الأخبار الى ذلك ، ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال من الأمثال المنتزعة من التوراة أو من الإنجيل أو من كليهما ، فدوّنت في مجلة أي في كراسة أو كتاب فنسبها أهل الأخبار اليه . نظراً لما جاء في القرآن الكريم من نسبة الحكمة اليه . وقد تكون تلك المجلة من حكم الحكيم (أحيقار) ، الحكيم الشهير صاحب الأمثال الذي كان مقرباً الى الملك (سنحاريب) ومستشاراً له . فله في أدب (بني إرم) ذكر خاص ، وله أمثال في الإرمية طبعت وترجمت الى جملة لغات . وعرفت أمثاله في العربية كذلك ، في أيام

---

١ ابن هشام ، سيرة (١/٢٦٥ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الفائق (١/٢٠٦)
٢ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .
٣ الفائق (١/٢٠٦) .

الجاهلية ، فأشار (عدي بن زيد العبادي) اليه والى قصته [1] .

ولقمان : شخصية ذكرت في القرآن ، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه . وروده في كتاب الله ، دليل على وقوف الجاهليين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم . ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصاً عنه [2] . وقد عرف بـ (لقمان الحكيم) . وقد بحث عنه المستشرقون ، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه الى أصوله . وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية [3] .

قال (الجاحظ) : « وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقيم بن لقمان في النباهة والقدر ، وفي العلم والحكم ، وفي اللسان والحلم . وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون . ولارتفاع قدره وعظيم شأنه ، قال النمر بن ثولب :

لُقيم بن لقمان من أخته   فكان ابن أخت له وابنما
ليالي حمق فاستحصنت   عليه فغُرّ بها مظلما
فغرّ بها رجل محكم   فجاءت به رجلاً محكما [4]

وقد أشار (المسيب بن علس) الى (لقمان) في شعره [5] ، كما ذكره (لبيد ابن ربيعة) الجعفري في شعره كذلك [6] ، وأشار اليه (يزيد بن الصعق) الكلابي في شعر هو :

---

١ الحماسة ، للبحتري ، (٨٦) ، (بيروت ١٩١٠ م) .
٢ « لقمان بن عاد » ، مجمع الامثال (١/٣٠٣) .
٣ فجر الاسلام (١/٧٨ وما بعدها) ، الدكتور عبد المجيد عابدين ، الامثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها في الاداب السامية الاخرى (ص ٤٣ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/٣٧) .
٤ البيان والتبيين (١/١٨٤) .
٥ البيان والتبيين (١/١٨٨) .
٦ البيان والتبيين (١/١٨٩) .

اذا ما مات ميت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزادِ
بخبز أو بلحم أو بتمرٍ أو الشيء الملفّف في البجاد
تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عادِ

وقيل إن هذا الشعر هو لأبي مهوش الفقعسي[1] .

وورد ذكر (لقمان) في شعر (أفنون) التغلبي[2] ، وفي شعر (سا ربيعة بن دباب بن عامر بن ثعلبة)[3] ، وفي شعر شعراء آخرين .

وعرف لقمان عند الجاهليين كذلك بالنباهة والذكاء وبالعلم وبقوة اللسان وبخلال أخرى يرون أنها من سجايا الحكماء ، حتى زعم أن أختاً لـه ، مُحَمّقة ، تحايلت عليه ، فاتصلت به اتصال الزوجات ، طمعاً في الحصو ولد ذكي حكيم منه يكون على شاكلته ، فأحبلها بولد عرف بـ (لقيم) في شعر ينسب الى النمر بن تولب.ولأهل الأخبار قصص عنه وعن أخت لـ

وذكر (الجاحظ) أن (لقمان) قتل ابنته ، وهي صحر أخت لقيم ، و حين قتلها : ألست امرأة ! وذلك أنه كان قد تزوّج عدة نساء ، كلهن في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل ، كان أول من تلقاه صحر فوثب عليها فقتلها[5] وقال : وأنت أيضاً امرأة ! وللجاحظ قصص عنه[6] .

وفي سورة (لقمان) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله ، و يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومـن كفـر فإن الله غني حميـد . وإذ قـال لابنه ، وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظـلم عظيم »[7] . إذن حكيم من الحكماء ، وُهِب الحكمة وصواب الرأي . له ولد وعظه ونع

---

١ المرزباني ، معجم (٤٨٠) ، البيان والتبيين (١/ ١٩٠) ، الخزانـة (٣/ ٢٩ الاقتضاب (٣٨٨) ، العقد الفريد (٣/ ١٤٢) .
٢ البيان والتبيين (١/ ١٩٠) .
٣ المصدر نفسه (١/ ١٩٠) .
٤ بلوغ الارب (٣/ ٢١٢ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١/ ٢١) .
٦ المحاسن والاضداد (١٣٣) .
٧ الاية ١٣ وما بعدها .

وفي كتب قصص الأنبياء وكتب الأخبار والأدب وصايا للقمان ، وعظ بها ابنه ، وأدبه ، هي قطع في التأديب وفي قواعد السلوك[1] .

وفي جملة ما رواه أهل الأخبار من حكمه ان مولاه قال له يوماً « اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . ثم مكث ما شاء الله ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها . فقال : اخرج أخبث مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب . فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرجتها ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتها. فقال له لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما اذا خبثا »[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار امرأة يقال لها : (صحر بنت لقمان) ، قالوا : انها اشتهرت بالعقل والكمال والفصاحة والحكمة ، وان العرب كانت تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات في الأنساب وغيرها . وقالوا انها كانت ابنة لقمان ، ومنهم من زعم انها اخته لا ابنته[3].

وذكر أهل الأخبار أن (لقمان) هو ممن آمن بـ (هود) ، وأما لقمان المذكور في القرآن ، فهو غيره . وكان لقمان القرآن ابن أخت أيوب ، او ابن خالته ، وقيل كان من ولد (آزر) ، وأدرك داوود وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داوود ، فلما بُعث قطع الفتوى ، وكان قاضياً في بني اسرائيل ، وكان حكيما ولم يكن نبياً . وورد أنه كان راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ، وقيل : كان أسود من سودان مصر خيّاطاً ، وقيل كان نجاراً[4] . وذكر (الجاحظ) : أن (لقمان) من السودان ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تخالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فأحذره .

---

١ العقد الفريد (٣/١٥٢) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٤٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١/٣٤٢) .
٤ الخزانة (٢/٧٨) ، (بولاق) .

ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم ، وما أوصى به ابنه »[1] .

ويشبه قصص (لقمان) وما يضرب على لسانه من أمثال ، قصص (ايسوب) عند الأوروبيين . وهو الباحث عن الحكمة عن طريق ضرب الأمثال وقول الألغاز والقصص[2] . وقد رأى بعض الباحثين أن لأمثال لقمان وحكمه صلة بـ (احيقار) . وذهب بعض المستشرقين الى وجود صلة بين لقمان وبين بعض الشخصيات القديمة التي يرد اسمها في الأدب القديم مثل Prometheus و Alkmaion و Lucian و (سليمان) ، وبلعام .

وقد ضرب (أبو الطمحان حنظلة بن الشرقي القيني) المثل بتشتت حي لقمان، وبتفوقهم أفراقاً اذ يقول :

أمست بنو القين أفراقاً موزعة   كأنهم من بقايا حي لقمان[3]

وقد اشتهر (سليمان) عند العرب بالحكمة أيضاً ، فعرف عندهم بـ (سليمان الحكيم) ، وقد أشير اليه في القرآن الكريم . وكان اليهود والنصارى هم نقلة أخبار هذه الحكمة الى الوثنيين . وكان يهود المدينة مصدر هذه الأخبار بالدرجة الأولى ، فقد كانوا بحكم اختلاطهم بأهل يثرب قد أذاعوا بينهم قصصاً اسرائيلياً، ومنه قصص داوود وسليمان .

و (سليمان) أحكم الحكماء عند اليهود . يذكرون « ان حكمته فاقت حكمة جميع العلماء في عصره . وكان أحكم من جميع الناس »[4] . ويذكرون انه ألّف الأمثال . ونطق بثلاثة آلاف مثل ، وألف خمس نشائد[5] . ووضع نشيد الأنشاد والجامعة . وذاعت حكمة سليمان وانتشر خبرها في كل الأنحاء بحيث أتى أناس من الأباعد ليشاهدوها وكانوا يمتحنونه بمسائل عسرة[6] ، في جملتهم ملكة سبأ

---

١ رسائل الجاحظ (١/١٧٩) ، (فخر السودان على البيضان) .
٢ Shorter Ency., p. 290.
٣ البيان (١/٨٨٧ وما بعدها) ، الخزانة (٣/٤٢٦) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٥٧٩)، (سليمان) .
٥ الملوك الاول ، الاصحاح الرابع ، الاية ٣٢ .
٦ الايام الثاني ، الاصحاح التاسع ، الاية ٦ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٧٩) ، (سليمان) .

التي سمعت بحكمته فجاءت تمتحنه كما جاء ذلك في التوراة .

وتقترن لفظة (مجلة) عادة بالحكمة . قال علماء العربية : « والمجلة ، بفتح الميم ، الصحيفة فيها الحكمة »[1] ، وقد تتألف من (صحف) . و (الصحيفة) الكتاب . وذكر علماء اللغة ان « الوضيعة : كتاب تكتب فيه الحكمة .. وفي الحديث انه نبي وان اسمه وصورته في الوضائع »[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (قيس بن نشبة) ، كان منجماً متقلسفاً في الجاهلية . وهو ممن أدرك أيام الرسول[3] . وذكر أنه من (بني سُلَيم) ، وانه كان يعرف الرومية والفارسية ويقول الشعر[4] . وانه جاء الى الرسول « بعد الخندق فقال : إني رسول من ورائي من قومي ، وهم لي مطيعون وإني سائلك عن مسائل لا يعلمها إلا من يوحى اليه ! فسأله عن السموات السبع وسكانها وما طعامهم وما شرابهم ، فذكر له السموات السبع والملائكة وعبادتهم ، وذكر له الأرض وما فيها فأسلم ورجع الى قومه ، فقال : يا بني سليم ! قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقاول حمير ، وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواله فإن ظفر تنتفعوا به وتسعدوا وإن تكن الأخرى ، فإن العرب لا تقدم عليكم . فقد دخلت عليه وقلبي عليه أقسى من الحجر ، فما برحت حتى لان بكلامه . وقيل عنه إنه كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب ، فجاء الى الرسول لما سمع به ، وسأله ، فآمن به . ولعلمه سماه رسول الله : (حبر بني سُلَيم) ، وكان إذا افتقده يقول : يا بني سليم أين حبركم . وهو عم الشاعر العباس بن مرداس ، أو ابن عمه . ولما أسلم قال قال هذه الأبيات :

تابعت دين محمد ورضيته ... كل الرضا لأمانتي ولديني
ذاك امرؤ نازعته قول العدا ... وعقدت فيه يمينه بيميني
قد كنت آمله وانظر دهره ... فالله قدر أنه يهديني
أعني ابن آمنة الأمين ومن به ... أرجو السلامة من عذاب الهون

---

١ تاج العروس (٢٦١/٧) ، (جلل) .
٢ تاج العروس (٥٤٥/٥) ، (وضع) .
٣ تاج العروس (٩٥/٨) ، (كحل) .
٤ البلدان (٢٥٠/٢) .

وذكر أنه كان قد قدم مكة في الجاهلية فباع إبلاً له فلواه المشتري حقه ، فكان يقوم فيقول :

يا آل فهر كنت في هذا الحرم　　في حرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع مني من ظلم

فسمع به عباس بن مرداس ، فكتب اليه أبياتاً منها :

وائت البيوت وكن من أهلها ودداً　　تلق ابن حرب وتلق المرء عباسا

فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه . وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة ، فكانت بينه وبين بني هاشم مودة [1] .

وذكر ان (أبا العاصي بن أمية بن عبد شمس) ، كان حكيماً . وقد عدّ من حكماء قريش وشعرائهم [2] . كما ذكر ان (الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية) الأموي ، وكان من الكتّاب بمكة في الجاهلية ، والذي علم الكتابة بالمدينة بأمر الرسول ، كان يعلم الحكمة [3] . وذكر (ابن حبيب) ، ان (الحكم بن سعيد) كان من أمراء الرسول (على قرى عربية) [4] ، وذكر أيضاً ان الرسول سمّاه (عبدالله وجعله يعلّم الحكمة) ، وقد استشهد يوم مؤتة [5] .

ويظهر ان الحكمة المنسوبة الى (قيس بن نشبة) ، أو الى (الحكم بن سعيد) كانت نوعاً من العلوم التي يدرسها الفلاسفة والحكماء في ذلك الوقت ، أي علوماً يونانية ، وتأملات وملاحظات عن هذا العالم ، فهي دراسة منظمة تختلف في طرازها عن الحكمة القائمة على القصص وضرب الأمثال . وقد تكون قد أخذت من الكتب اليونانية أو السريانية ، أو الفارسية ، فقد رأينا أهل الأخبار يذكرون ان (قيس بن نشبة) كان يعرف الرومية والفارسية ، كما ذكروا مثل ذلك عن النضر بن حارث بن كلدة وعن الأحناف ، وأنا لا أستبعد احتمال ذلك ، لأن

١　الاصابة (٣/٢٤٩ وما بعدها) ، (رقم ٧٢٤٤) .
٢　كتاب نسب قريش (٩٩) ، المعارف (٧٣) .
٣　الاصابة (١/٣٤٣ وما بعدها) ، (رقم ١٧٧٧) .
٤　المحبر (١٢٦) .
٥　المحبر (٤٦٠) .

بعضهم كان قد وصل العراق وبلاد الشأم وخالط الأعاجم، كما كان من الأعاجم من سكن مكة والقرى العربية الأخرى لأغراض مختلفة ، ومنهم من كان على فقه بعلوم قومه ، ومعرفة علمية بلغتهم ، فلا يستبعد اذن تعلم من كان فيه ميل من العرب الى العلم والثقافة،العلم والفلسفة والنظر من تلك البلاد التي زاروها ، ومن هؤلاء .

وذكر ان (النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) العبدري القرشي كان من حكماء قريش . وقد استشهد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة. وكان أخوه (النضر بن الحارث) ، شديد العداوة للرسول ، فقتله علي يوم بدر كافراً ، قتله بالصفراء[1] .

وروى (عُمران بن حصين) ، (عمران بن الحصين) ، حديثاً عن رسول الله ، هو : « الحياء لا يأتي إلا بخير » ، فقال « بشير بن كعب ، وكان قد قرأ الكتب : إن في الحكمة : أن منه ضعفاً . فغضب عمران ، وقال : أحدثك بما سمعت من النبي ، وتحدثني عن صحفك هذه الخبيثة »[2] . ويظهر ان (بشيراً) هذا كان ممن طالع كتب أهل الكتاب ووقف على الحكمة .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أناس آخرين عرفوا بالحكمة كذلك ، مثل : أكثم بن صيفي التميمي ، من رؤساء تميم ومن (حكام العرب)[3] . ويلاحظ أن الأخباريين يخلطون في الغالب بين الحكيم والحاكم ، فيجعلون (حكّام العرب) من (حكماء العرب) ويذكرون أحكامهم في باب الحكم . كذلك نسبوا معظم خطباء الجاهلية الى الحكمة كذلك ، مما يدل على أن للحكمة عند الأخباريين معنى واسعاً ، يشمل كل ما فيه عظة وتعليم . وقد كان العبرانيون وبقية الساميين يجعلون الحكام من طبقة الحكماء ، لأن الحاكم لا بد وان يكون حكيماً ، أي مدركاً فطناً نافذاً الى بواطن الأمور ، يحكم عن عقل ناضج وعن رأي مصيب ، فهم أولى وأقدر على ابداء الأحكام الصحيحة من غيرهم ، ولهذا نجد ارتباطاً كبيراً في المعنى وفي اللفظ بين لفظتي حاكم وحكيم .

---

١ الاستيعاب (٣/٥٣٥ وما بعدها) ، الاصابة (٣/٥٢٥) ، (رقم ٨٧١٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٦٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .

ومن حكام العرب الذين ذكرهم أهل الأخبار ، ونسبوا اليهم الحكم والاصابة في الرأي وصدق الأحكام (عامر بن الظرب العدواني) حكيم قيس، وقد عدوه (من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً) . وقالوا : انه هو المراد في قول العرب : « إن العصا قُرعت لذي الحلم » . أما (ربيعة) ، فتقول : انه (قيس بن خالد بن ذي الجدّين) . وأما تميم ، فتنسب هذا الفخر الى رجل منها هو (ربيعة بن مخاشن أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم) . وأما اليمن ، فتقول : انه (عمرو بن حممة الدوسي) ، ويذكر بعض آخر انه (عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخو سعد بن مالك الكناني)[1] .

وفي كتاب (العقد الفريد) ، قصة اجتماع وقع بين عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي وبين ملك من ملوك حمير ، ورد فيها : أن الملك قال لهما : تساءلا ، حتى أسمع ما تقولان ؟ ودوّن رواة هذه القصة ما جرى في الاجتماع من أسئلة وأجوبة. ومدارها خاطرات عن الحياة وعن الناس وعن الأدب، بالسجع المألوف[2] . ومما جاء فيها ان أحكم الناس « من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر » ، وان أجهل الناس من رأى الخُرق مغنماً ، والتجاوز مغرماً »[3] .

وذكر أنه كان قد جمع قومه (عدوان) ، فنصحهم بقوله : « يا معشر عدوان : الخير ألوف عروف ، وإنه لن يفارق صاحبه حتى يفارقه ، وإني لم أكن حكيماً حتى صاحبت الحكماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت لكم[4] . وكان كما يقول (ابن حبيب) ، آخر حكام العرب وقضاتهم وأئمتهم قبل انتقال الحكومة الى (بني تميم) بعكاظ[5] ، وروي له حكم في (الخنثى) ، وأيد الإسلام حكمه[6] . ورووا له شعراً في الخمر ، يقول فيه :

---

١ « ان العصا قرعت لذي الحلم » ، مجمع الامثال (٣٩/١ وما بعدها) ، الامدى ، المؤتلف (ص ١٥٤) .

٢ العقد الفريد (٢٥٥/٢ وما بعدها) .

٣ الامالي (٢٧٦/٢ وما بعدها) .

٤ الامالي (١٥٧/٢) ، البيان والتبيين (٤٠١/١) ، (١٩٩/٢) .

٥ المحبر (١٨١) .

٦ المحبر (٢٣٦) .

إن أشرب الخمر أشربها للذتها وإن أدعهـا فإنني ماقت قـالِ
لولا اللذاذة والفتيان لم أرهـا ولا رأتني إلا من مدى الغـال
شتّالة للفتى مـا ليس يملكـه ذهّابة بعقول القوم والمـال
مورثـة القوم أضغاثاً بلا احنٍ مزرية بالفتى ذي النجدة الحال
أقسمت بالله أسقيها وأشربهـا حتى يفرق ترب القبر أوصالي[1]

وفيه يقول ذو الاصبع العدواني :

ومنّا حـكم يقضي فلا ينقضي ما يقضى[2]

ومن حكمه: « الرأي نائم ، والهوى يقظان ، فمن هنالك يغلب الهوى الرأي»[3] .
وله جواب على خطاب (صعدة بن معاوية) حين جاء اليه يخطب ابنته[4] .

وكانت له بنت عدت من حكيمات العرب ، حتى جاوزت في ذلك مقـدار (صحر بنت لقمان) ، و (هند بنت الخس) ، و (جمعة بنت حابس بن مُليل) الاياديين[5] .

وذكر أهل الأخبار أن من حكام تميم في الجاهلية : أكثم بن صيفي،وحاجب ابن زرارة ، والأقرع بن حابس ، وربيعة بن مخاشن ، وضمرة بن ضمرة . ويذكرون أن (ضمرة) حكم ، فأخذ رشوة ، فغدر . والغدر عيب كبير ، ومن أذم الصفات عند الجاهليين[6] .

وقد نسب أهل الأخبار حكماً وأمثلة لأكثم بن صيفي ، منها المثل : « مقتل الرجل بين فكّيه » يعني لسانه[7] ، ومن الأقوال المنسوبة اليه ، قوله : « تناءوا في الديار ، وتواصلوا في المزار »[8] ، وقوله : « تباعدوا في الديار تقاربوا في

---

١ المحبر (٢٣٩) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٦٤) ، (حاشية ٣) .
٣ البيان والتبيين (١/٢٦٤) .
٤ البيان (٢/٧٧) .
٥ البيان والتبيين (٣/٣٨) .
٦ مجمع الامثال (١/٤١) .
٧ خلق الانسان (ص ١٩٥) .
٨ البيان والتبيين (٣/٢٥٥) .

المودة»[1]. وقد عدّ أسلوب كلامه من أرشق أساليب الفصحاء ، ومن أحكم كلام، فيه نصائح وحكم مع بلاغة متناهية وفصاحة . ونسبوا له خطباً منمقة[2] ، هو في نظري من هذا النثر المصنوع ، الذي وضع على لسانه في الاسلام .

وقد اشتهرت (تميم) بكثرة حكمائها[3] ، ونلاحظ ان هؤلاء الحكماء كانوا حكاماً كذلك ، يحكمون بين الناس فيما يقع بينهم من شجار . ومعنى هذا ان بين الحكمة والحُكم عند العرب الجاهليين صلة متينة . وقد رأيت ان تميماً كانت قد احتكرت لنفسها الحكومة في سوق عكاظ على ما يذكره أهل الأخبار . وهم من القبائل المتقدمة بالنسبة الى القبائل الأخرى التي كانت عند ظهور الاسلام، انتقلت اليها هذه الحكومة من (بني عدوان) ، الذين كان آخر حكامهم (عامر بن الظرب) العدواني .

وقد كان لاتصال أهل الأخبار بتميم ، دخل ولا شك في كثرة أسماء حكمائها التي وصلت الينا من خلال دراستنا لكتبهم ، فقد كان اتصالهم بها أكثر من اتصالهم بأية قبيلة أخرى ، لوجودها على مقربة من الكوفة والبصرة ، ولذلك أكثروا اللغة عنها ، حتى صرنا نعرف من أمور نحوها ولغتها ما لا نكاد نعرفه عن نحو ولغة أية قبيلة أخرى . ولرجال تميم خطب طويلة ، في الحكم ، هي تأملات وخاطرات وضعت على ألسنتهم في الاسلام ، إذ لا يعقل كما سبق أن قلت في مواضع متعددة من هذا الكتاب وصول نصوص نثر ، بهذا النوع من الضبط والتحري عن أهل الجاهلية حتى نحكم بصحة نصوص ما نسب الى حكماء تميم . نعم قد يقول قائل ، ان الشاعر (بشر بن أبي خازم) كان قد أشار الى (كتاب بني تميم)[4] ، فلا يستبعد أن يكون (بنو تميم) قد سجلوا خطب وأشعار سادتهم فيه ، ولكني أقول إن من العلماء من نسب هذا الشعر الى (الطرماح ابن حكيم) وهو شاعر إسلامي ، توفي في حوالى السنة (١٠٥) ، واننا حتى لو فرضنا أن ذلك الشعر هو للطرماح ، وأنه يدل على وجود كتاب قديم عند

---

١ البيان (٢/٧٠) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٧٢) .
٣ Goldziher, History of classical Arabic Literature, p. 7.
٤ المفضليات (٩٨) ، الامثال ، للميداني (١/١٣٧) ، العسكري ، جمهرة الامثال (٢٨٩) .

(بني تميم) ، فإننا لا نستطيع ان نأخذ بالظن ، ونقول بصحة مثل هذه الخطب المنسوبة الى خطباء وحكماء تميم لمجرد وجود اشارة الى كتاب عندهم لا نعرف من أمره شيئاً ، غير اشارة الى اسمه وردت في شعر ، لا ندري مبلغ درجته من الصحة والاصالة .

وممن نسبت اليه الحكمة (الأفوه الأودي) ، وهو شاعر اسمه (صلاءة بن عمرو) من (أود) . وله قصيدة دالية ، فيها رأيه في الحكم وفي الناس وفي الخير والشر[1] . وذكر انه هو القائل :

ملكنا ملك لقاح أول   وأبونا من بني أود خيار[2]

والعادة أن تنسب الحكم الى المسنين ، وقلما نجد حكماً صادرة من شبان وأحداث وذلك ان العقل لا يكتمل إلا بتكامل العمر وبتقدم الانسان في السن ، وبتقدمه في السن تزيد تجاربه واختباراته في هذه الحياة ، فيكون عندئذ أهلاً للنطق بالحكمة . ولم يكتف أهل الأخبار ببلوغ الحكماء سن الشيخوخة الطبيعية ، بل صيروا عمر معظم المعمرين فوق المئة ، بل جعلوها مئات . وعمر مثل هذا كفيل بأن يكون مصدراً للحكم والأمثال . ونجد في (كتاب المعمرين من العرب) للسجستاني أمثلة من عمر هؤلاء الحكماء .

---

١ الاغاني (١١/٤٤) ، الشعر والشعراء (١١٠) ، ديوانه ، الامالي ، للقالي (٢/٢٢٨) ، تأريخ آداب اللغة العربية ، لزيدان (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢/٢٩٢) ، (أود) .

الفصل السابع والعشرون بعد المئة

الامثال

و (المثل) لون من ألوان الحكمة . وهو يقابل (مشل) في العبرانية،ومعنى آخر هو الحكمة والأساطير والقصص ذو المغزى . ولا يشترط في المثل أن يكون نثراً ، فقد يكون شعراً . وفي الموارد الاسلامية أمثلة جاهلية كثيرة من النوعين، لم يصل أي مثل منه مدوناً في نص جاهلي[1] .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد في كتب الأدب والمواعظ والأمثال . وقد شرح غرضها أصحاب الموارد التي ذكرتها، وتعرض الرواة للقصص المروي عنها . غير ان من الصعب التثبت من صحة نسبة تلك الأمثال الى أولئك الحكماء والتثبت من صحة هذا القصص المروي عنها .

وكلمة المثل من المماثلة . وهو الشيء المثيل لشيء يشابهه ، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثله[2] ، والأصل فيه التشبيه : ويقابله (مشل) (مشال) Mashal في العبرانية ، و Parabole في اليونانية ، ومعناها المماثلة والمشابهة ، أي المعنى الوارد للفظة في العربية . والغاية من الإهتداء بما فيه من حكمة ومن

---

١ « والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله » ، اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) « صادر » ، نهاية الارب (٣/٢ وما بعدها) ، كتاب جمهرة الامثال ، لابي هلال العسكري ، (القاهرة ١٩٦٤ م) ، (١/٧) .

٢ اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) ، (مثل) .

حسن توجيه ، ومثل أخلاقية للسير على هديها في الحياة[1] . وقد ضربت التوراة الأمثال للناس للاتعاظ بها والأخذ بما فيها من عبر . ورد في سفر (حزقيال) : « هو ذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً : مثل الأم بنتها »[2] ، وجاءت الأمثال في الأناجيل فورد : « في هذا يصدق القول : إن واحداً يزرع وآخر يحصده »[3] .

وقد لخص الاصحاح الأول من سفر (الأمثال) الغاية من ضرب الأمثال بقوله: « لمعرفة حكمة وأدب ، لادراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطي الجهال ذكاءً والشاب معرفة وتدبراً ، لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم: مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب »[4] . فالأمور المذكورة ، تمثل الغاية التي يتوخاها ضراب الأمثال من الأمثال : وقد جعلت أسفار الأمثال المثل : مخافة الرب رأس المعرفة أول أمثالها : وهو في العربية : رأس الحكمة مخافة الله .

ونجد في سفر (أمثال) كلاماً للحكماء ، هو مزيج من أمثلة وحكم وألغاز ، دون أن يشير الى أسماء أصحابه[5] ، ونجد مثل ذلك في الأدب العربي . وقد اشتهر أبناء الشرق بالحكمة عند العبرانيين .

والمثل بعد ، هو عقل ضاربه ، وثقافة البيئة التي ظهر فيها . ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً بروح المزارعين، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية . ومن هنا اختلفت أمثال قريش عن أمثال الأعراب ، وأمثال عرب العراق عن أمثال أهل العربية الجنوبية ، وهكذا . ولهذا فإن للمثل في نظر المؤرخ قيمة كبيرة من حيث انه يرشده الى مظاهر تفكير من ضرب بينهم ، ويعرفه بمبلغ ثقافة قائليه .

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية زمانها ولعقلية من ينسب قول المثل اليه ، أو من

---

١ Hastings, p. 767.

٢ حزقيال ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤٤ .

٣ انجيل يوحنا ٤ ، الاية ٣٧ .

٤ أمثال ، الاصحاح الاول ، الاية الاولى وما بعدها .

٥ أمثال ، الاصحاح الثاني والعشرون ، والاصحاح الرابع والعشرون .

ضرب به المثل . تباينت في البلاغة وفي قوة التعبير وعمق المعنى ، وفي الفكرة ، فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان وفي عمق المغزى والمعنى ، وصار بعض منها بسيطاً تافهاً . ونجد هذه الحالة في أمثال كل الأمم . إذ ان المثل لا يصدر عن طبقة معينة ، بل قد يأتي من رجل جاهل بسيط ، وقد ينسب الى غبي بليد أو الى شخص من سواد الناس اتخذ رمزاً للتعبير عن ناحية من نواحي الحياة ، أو نموذجاً يعبر عن طبقة من الطبقات . وانما المهم في رواج المثل وفي بقائه، أن يكون منبعثاً عن واقع حال ، معبراً عن رأي سديد ، قصير قدر الامكان مركزاً له وقع حسن على السمع ، يصلح أن يكون مثلاً لكل زمان ومكان . فيروج ويدوم ، وقد يتخذ مثلاً من أمثلة الحكمة ، وهو كلما قصر ، سهل حفظه وطال عمره .

وأفضل المثل السائر ، أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : مثل شرود ، وشارد ، أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد . وقد تأتي الأمثال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس ، وإذا جاءت في الشعر ، سهل حفظها[1] .

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والاسلامي . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكر والتعقل ، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي . والأمثال المضروبة مرجع لمن يريد الوقوف على بعض الأمثلة التي استعملها الجاهليون . وفي الحديث النبوي مادة مهمة تمدّ هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين[2] .

و « الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه »[3] . فالأمثال اذن عند الجاهليين نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس . يقولها السيد والمسود ، البارز والخامل ، وهي تحفظ بسهولة ولا يحتاج المرء لتعلمها الى

---

١ العمدة (١/٢٨٠ وما بعدها) .
٢ المستطرف في كل فن مستظرف (١/٢٧ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢٣٤) .

مهارة وذكاء . وكان لحفّاظ الأمثال مقام عندهم ، لأنهم ممن وهبوا بياناً ناصعاً وقوة في اللسان، تمكن صاحبه من ضرب المثل في موضعه ، ومن قوله في مكانه . والعادة أن يكثر الحكيم من الأمثال في كلامه ، لأنها المادة التي يستعين بها في إظهار حكمته وعقله ، يضيف عليها أمثالاً من عنده ، هي من وحي تجاربه وقوة ملاحظته .

وقد وردت كلمة (مثل) و (أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين . وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والتذكر ، لتكون درساً يتعظ به أولو الألباب . ويلاحظ ان العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ، ورد في القرآن الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً »[1] ، و « ضرب الله مثلاً »[2] ، وورد « وضربنا لكم الأمثال »[3] ، و « فلا تضربوا لله الأمثال »[4] ، و « تلك الأمثال نضربها للناس »[5] ، وفي مواضع أخرى منه . وضرب المثل ايراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً وضرب به وتمثله وتمثل به . وضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به[6] .

وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهمية في الحث على إصلاح النفس ، فقال بعضهم : « انما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً » ، وقال بعض آخر : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد من العقل ، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ » . وروي ان الرسول قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »[7] . وجعل (الماوردي) الأمثال من أعظم علم القرآن[8] .

---

١ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٢٤ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٥ وما بعدها ، ومواضع أخرى .
٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٤٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٤ .
٥ الحشر ، الرقم ٥٩ ، الاية ٢١ .
٦ تاج العروس (٣٤٧/١) ، (ضرب) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٣٨/٤) .
٨ المصدر نفسه .

وللرسول أمثال كثيرة ، وذكر عن (عمرو بن العاص) ، أنـه حفظ عن النبي ألف مثل[1] . ونجـد في كتب الأمثال أمثالاً نسبت الى الرسول . منها : « إن من البيان لسحراً »[2] ، و « إن مما ينبت الربيعُ لما يقتل حبطاً أو يلم »[3] . و « إياكم وخضراء الدمن »[4] ، و « من كثر كلامه كثر سقطه »[5] ، و « أنصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً » ، ويروى أنه من أمثلة أهل الجاهلية[6] . وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى الى الرسول .

والأمثال أقوال مختصرة ، يراعى في وضعها الايجاز والبلاغة والتأثير . وقـد يكون المثل كلمتين ، وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن العادة ألا يكون طويلاً ، لأن طول المثل يفقده روعته وتأثيره ، فلا يكون مثلاً ، ولا يمكن حفظه عندئذ فيضيع . ويراعى أن يكون سجعاً أو طباقاً . وأن يرتب في جمل متوازية بسيطة العبارة ، أو مزدوجـة أو أكثر من ذلك قليلاً . وأن تكون هنالك مناسبة بين الجمل حتى يبدو المثل جميلاً متناسقاً .

والقاعدة في الأمثال الاّ تغير ، بل تجري كما جاءت . وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً . لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت،ولا تستعمل فيها الإعراب[7] . والأمثال قد تخرج عـن القياس ، فتحكى كما سُمِعت ، ولا يطرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال . « قال المرزوقي : من شرط المثل ألاّ يغير عما يقع في الأصل عليه »[8] .

وقال المرزوقي « في شرح الفصيح : المثلُ جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه الى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر الى

---

١ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ العسكري ، جمهرة الامثال (١/١٣) .
٣ المصدر نفسه (١/١٦) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/١٧) ، الميداني (١/٢١) ، المستقصي (١٨٠) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/١٩) .
٦ العسكري ، جمهرة (١/٥٨) ، الميداني (٢/١٩٤) ، الفاخر (١٤٧) ، السيوطي ، الجامع الصغير (١/١٨٨) .
٧ المزهر (١/٤٨٧) ، (النوع الخامس والثلاثون . معرفة الامثال) .
٨ المزهر (١/٤٨٧ وما بعدها) .

أشباهه من المعاني ، فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستجيز من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام »[1] .

ويلاحظ ان العرب قد أجازت لضارب المثل الخروج فيه على قواعد اللغة ، كما أجازت ذلك للشاعر بدعوى ضرورات الشعر ،ليستقيم الشعر مع القوافي والوزن . أجازته في المثل لأنه قد يصدر شعراً ، وقد يصدر سجعاً ، وقد يصدر من أفواه أناس جهلة لا يبالون بالقواعد ، أو ليس لهم علم بها ، وقد يصدر من قبيلة لا تتبع في لغتها قواعد الإعراب .

ونجد في كتب الأمثال وفي كتب الأدب أمثالاً وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التعليمي ، أي تعليم من يقرأها حكمة الحياة ، وتجارب الماضين حتى يُستفاد ويُتعظ . بعض منها نابع من محيط البداوة ومن الطبيعة الأعرابية ، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات[2] .

والأمثال عند بعض الشعوب صنف من أصناف الشعر ، لما فيها من الخصائص المتوفرة في الشعر عندهم . وقد روعي في المثل بصورة عامة أن يكون قصيراً موجزاً وبليغاً معبراً عن حكمة ، فيه نغمة وترنيم . ليؤثر في النفوس . ويحمل الطبع قائل المثل على مراعاة هذه الأمور من غير تفكير ولا تصنع ، وهو إذا كان صادراً من قلب وسجية ، ومعبراً عن نفس جياشة وعن حس بشري عام، يشعر به كل إنسان تقبله الناس بسرعة ، ووجد له مجالاً من الانتشار ، وعمر عمراً طويلاً .

والأمثال ، هي في صدر المؤلفات التي وضعها المسلمون ، فقد روي : أن عبيداً بن شَرْيَةَ الجُرْهمي ، وهو من أهل (صنعاء) باليمن ، من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب والعجم ، ألف كتاب (الأمثال) وقد رآه (ابن النديم) في نحو خمسين ورقة . كذلك ألف صحار بن العباس العبدي ، وهو من بني عبد القيس ، وممن أدرك الرسول ، (كتاب الأمثال)[3] . وذكروا

---

١ المزهر (٤٨٦/١ وما بعدها) .
٢ الامالي (١١/٢ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٧٧ ومواضع أخرى) ، المستطرف (٢٧/١ وما بعدها) ، المزهر (٤٨٨/١ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣٨) ، ابن الاثير (١٤٩/١) .

ان (عِلاّقة الكلابي) جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية [1] ، وأن (المفضل الضبي) (١٦٨هـ) من مشاهير علماء الكوفة في الشعر واللغة ألف كتاباً في الأمثال دعاه : كتاب الأمثال [2] ، وأن أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ) (٢٢٤هـ) ، ألف كتاباً في الأمثال كذلك [3] .

وألّف (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) كتاباً دعاه (كتاب الأمثال) [4] ، وألّف (أبو المنهال) كتاباً في الأمثال ، عرف بـ (كتاب الأمثال السائرة) وقف عليه (ابن النديم) [5] ، ولأبي عبيدة (٢٠٩ هـ) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) كتاب في الأمثال ، عرف بكتاب الأمثال [6] ، وللأصمعي (٢١٧ هـ) كتاب في الأمثال كذلك [7] ، وللشورى ، وهو ممن أخذ عن الأصمعي كتاب في الأمثال [8] ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن سفيان ، من تلامذة الأصمعي ، كتاب في الأمثال [9] . وألّف غير هؤلاء من العلماء كتباً في هذا الموضوع طبع بعض منها فنال شهرة ، مثل كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨ هـ) [10] ، وقد أخذ (أبو هلال العسكري) أمثالاً وردت في كتاب لحمزة الأصبهاني في الأمثال ، وهو كتاب توجد نسخة خطية منه في القاهرة [11] .

وبين المؤلفات في الأمثال رسالة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

---

١ الفهرسبت (٩٠) ، بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (٢٦١/١) ، فجر الاسلام (ص ٦١) « الامثال » ، « الطبعة العاشرة » .
Wüstenfeld, Geschichtschr., 11, Goldziher, Muh. Stud., II, 204.

٢ الفهرست (١٠٨) .

٣ الفهرست (١١٢) .

٤ الفهرست (٦٩) .

٥ الفهرست (٧٨) .

٦ الفهرست (٨٥) .

٧ الفهرست (٨٨) .

٨ الفهرست (٩١) .

٩ الفهرست (٩٢) .

١٠ كارلو نلينو ، تاريخ الاداب العربية (٩٦) .

١١ العسكري ، جمهرة (٦/١) ، (حاشية رقم ٥) .

(٣٩٥ هـ) ، طبعت بعنوان : (كتاب أبيات الاستشهاد)[١] ، دوّن فيها بعض الشعر الذي استشهد به الناس في أمثالهم . ورسالة أخرى ألّفهـا (أبو العباس محمد بن يزيد المـبرد) الأزدي (٢٨٥ هـ) ، بعنوان : « رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها »[٢] .

وهنالك مؤلفات عديدة أخرى ، وضعت في الأمثال . وفي إقبال المؤلفين على التأليف بها بهذه الكثرة ، دلالة على ما كان للمثل من أهمية ، وعلى ما كان له من قيمة في نظر أهل الجاهلية . حفظوه حفظهم للشعر ، بل أكثر من الشعر ، لأنه يرد على كل لسان ، يرد على لسان الحكيم البليغ كما يرد على لسان الغبي والجاهل ، ثم إنه توجيه وتربية وتعليم ، فلا نستغرب إذن إذا ما وجدنا كتب الأمثال في صدر الكتب التي ظهرت في الاسلام . وقد رأيت أنها ظهرت في عهد (معاوية) وبأمره ، فهي بحق من أوائل المؤلفات التي وصلت الينـا بالعربية . وكان معاوية مولعاً بسماع الأمثال والقصص وأخبار الماضين والشعر .

والأمثال ، هي أيضاً مادة مهمة لفهم التأريخ الجاهلي . فقد تعرض جامعوها لأصل المثل وللأسباب مضربه ، وجاؤوا بشروحهم هذه بمادة تأريخية استعنّا بها على فهم مواضع من ذلك التأريخ . ولكننا يجب أن نأخذ هـذه الأمثال وشروحها بحذر . ففي أكثر الشروح تكلف وضعف ، يدلان على عدم امكان الاعتماد عليها في تكوين حكم علمي .

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس ، مثل : أسخى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأعز من كليب وائل ، وأوفى من السموأل ، وحجام ساباط ، وقوس حاجب ، وغيرها . ونجد أمثالاً تمثل فيها بالبهائم ، وغير ذلك . ولكل مثل قصة تروي منشأ ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر . وهي تعبير عن روح الزمان الـذي قيـل فيه وعن نفسية المتمثلين به . وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على ألسنة الناس . وفي وجودها دلالة على ان الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة ، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات .

---

١ سلسلة نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٣٧ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (القاهرة ١٩٥١ م) .

٢ نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٦٣ وما بعدها) .

وبين أمثال العرب أشعار جاهلية الأصل صارت مثلاً ، ولا يزال بعض منها حي يضرب به مثل ، لما فيه من حكمة ومن ملاءمة لكل وقت وزمان[1]. وضرب المثل بعجز البيت أحياناً أو بجزء منه ، كما في المثل : « بعض الشر أهون من بعض » . فهو من بيت ينسب لطرفة هو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض[2]

ومن الأمثلة القديمة المشهورة حتى اليوم : (آخر الدواء الكي) ، و (آخر الطب الكي) ، زعم أنه من أمثلة (لقمان بن عاد) . وقد ذكر (الزمخشري) سبب ضرب (لقمان) له ، وأورد له كلاماً مع امرأة خانت زوجها ، وكلاماً مع زوجها وكيف عرفه فأرشده الى خيانتها له[3] . وأورد مثلاً ضرب بكثرة أكل (لقمان) ، هو: آكل من لقمان . وكانوا يزعمون أنه كان يتغدى بجزور، ويتعشى بأخرى ، ويتخلل بحوار . وانه ضاجع امرأته يوماً ، وقد أكل جزوراً ، وأكلت فصيلاً ، فما قدر على الإفضاء اليها ، فقال : كيف أفضي اليك وبيني وبينك بعيران[4] .

ويظهر من القصص المنسوب اليه ، أنه قد انتزع من قصص قديم ، كان معروفاً عند الجاهليين ، مروياً بينهم . فإذا أعدنا قصته المذكورة مع المرأة ، وقد رواها (ابن الكلبي) عن (عوانة)[5] نجدها وقد غصت بالأمثلة ، وبطريقة الجاهليين في التفسير والتعليل ، مما يجعل الإنسان يرى أنها من القصص الجاهلي القديم ، الذي احتفظ بمعناه ومضمونه ، وإن صيغ بلغة حاكيه .

ورووا لقس بن ساعدة الايادي ، أمثالاً ، منها : إذا خاصمت فاعدل ، وإذا قلت فاصدق ، ولا تستودعن سرك أحداً ، فإنك ان فعلت لم تزل وجلاً ، وكان بالخيار ، إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك ، وان وفى لك كان الممدوح

---

١ المستطرف (١/ ٣٠ وما بعدها) .

٢ العسكري ، جمهرة (١/ ٦٧) .

٣ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/ ٣) ، (حيدر اباد الدكن ١٩٦٢ م) ، العسكري ، جمهرة (١/ ٩٧ ، ٤٢٦) .

٤ المصدر نفسه (ص ٧) .

٥ العسكري ، جمهرة (١/ ٤٢٤ وما بعدها) .

دونك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى تسد قومك . الى غير ذلك من أمثال نسبوها اليه[1] .

وفي (كتاب الجوهرة في الأمثال) من (العقد الفريد) ، باب خاص عنوانه : « أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي »[2] . وهي تستحق الدرس والنقد ، لمعرفة أصولها وعلاقة هذه الأمثال بالأدبين العربي والفارسي .

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة ، نسبت الى (أكثم بن صيفي) ، منها : ربّ عجلة تهب ريثاً ، وادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، والمرء يعجز لا المحالة ، ولا جماعة لمن اختلف ، ولكل امرىء سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح فإنه كفى بالمشرفية واعظاً ، وأسرع العقوبات عقوبة البغي ، وشر النصرة التعدي ، ورب قول أنفذ من صول ، والحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ساعده الجد ، واذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، وربّ كلام ليس فيه اكتتام ، وحافظ على الصديق ولو في الحريق ، وليس من العدل سرعة العذل ، وليس بيسير تقويم العسير ، واذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة ، ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم[3] .

وليس في امكان أحد اثبات ان هذه الأمثال وغيرها هي لأكثم بن صيفي حقاً ، وبينها أمثال انسانية عامة نجدها عند مختلف الأمم ، وبينها أمثال قيلت في اليونانية وفي بعض اللغات الأخرى قبل أيام (أكثم) بزمان طويل . إلا ان نسبة هذه الأمثال اليه ، تشير الى انه كان من حكماء الجاهلية البارزين ومن ذوي الرأي والحكمة عند قومه .

والأمثال النابعة من صميم الحياة الانسانية ومن التجارب العملية ، والاختبارات الطويلة ، تكون ذات طبيعة حكيمة عامة ، فتظهر لذلك عند كل الناس ، وتخرج على كل لسان ، فلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلانية ، ومن مبتكرات العقل الفلاني ، لأنها كما قلت خواطر إنسانية ، تخطر على بال كل

---

١ العسكري ، جمهرة (١/٢٤٩) ، الميداني (١/٧٣) .
٢ العقد الفريد (٣/٦٣ وما بعدها) ، ومن أمثاله : « مقتل الرجل بين فكيه » و « ربما أعلم فأذر » ، يريد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم لما يحذر من عاقبته ، العقد الفريد (٣/٨١) .
٣ المزهر (١/٥٠١ وما بعدها) .

شخص ، له رأي سديد ، وفكر صائب . وإن نسبت الى شخص معين ، لذلك يصعب علينا إرجاع الأمثال الانسانية العامة الى جماعة معينة . قال (الجاحظ) : وقد كان الرجلُ من العرب يقف الموقفَ فيرسل عدة أمثلة سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ؛ ومدار العلم على الشاهد والمثل »[1] .

ومن أمثال أهل الجاهلية : إن من البيان لسحراً ، وإن الجواد قد يعثر ، وان البلاء موكل بالمنطق ، وان أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك . وأنف في السماء وأنف في الماء . وأجع كلبك يتبعك ، واشتدي أزمة تنفرجي ، وربَّ رمية من غير رام ، وربَّ أكلة تمنع أكلات ، واستراح من لا عقل له ، وسبق السيف العذل ، الى غير ذلك من أمثلة[2] .

ومن الأمثال الجاهلية الباقية حتى اليوم المثل : مواعيد عرقوب ، مثل يضرب لمن يعد ولا يفي . فقد ورد في شعر المتلمس ، إذ قال :

الغـــدر والآفات شيمته فافهم فعرقوبٌ له مثل

وورد في شعر كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدهـــا إلا الأباطيـــل

قيل : عرقوب رجل من خيبر ، كان يهودياً وكان يعد ولا يفي ، فضربت به العرب المثل . وقيل : رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقـــال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة ، فقال : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً ، فلما أزهت قال: دعها حتى تصير رُطباً ، فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً ، فلما أتمرت عمد اليها عرقوب من الليل فجذّها ، ولم يعطِ أخاه منه شيئاً ، فصار مثلاً ، وفيه يقول الأشجعي :

وعدتَ وكان الخُلف منك سجيةً مواعيـــد عُرقُوب أخـــاه بيثرب

---

١ البيان والتبيين (١/٢٧١) .
٢ المستطرف (١/٢٨ وما بعدها) .

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجةً   وأبين شؤماً في الحوائج من زُحل[1]

وذكر ان اسمه (عرقوب بن صخر) ، أو (عرقوب بن معبد (معيد) بن أسد) ، رجل من العمالقة على القول الأول . قاله ابن الكلبي ، وعلى القول الثاني ، فهو رجل من (بني عبد شمس بن سعد) ، وقيل انه كان من الأوس . كان أكذب أهل زمانه ، ضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب[2] .

ومن الأمثال القديمة : صحيفة المتلمس ، روى ان الرسول كتب كتاباً لعيينة بن حصن ، فلما أخذه ، قال : « يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس » . هي احدى الصحيفتين اللتين كتبها (عمرو بن هند) لطرفة والمتلمس ، الى عامله بالبحرين في إهلاكهما ، وخيّلها انهما كتابا جائزة ، فنجّى المتلمس عمله على الحزم وهربه الى الشأم ، وسارت صحيفته مثلاً في كل كتاب يحمله صاحبه يرجو منه خيراً وفيه ما يسوءه[3] .

ومن الأمثلة القديمة (عنقاء مغرب) ، والمثل به « طارت به عنقاء مُغرِبٌ » زعموا انه طائر كان على عهد (حنظلة بن صفوان الحميري) نبي أهل الرس عظيم العنق ، وقيل كان في عنقه بياض ولذلك سمي عنقاء، اختطف غلاماً فأغرب به ، ولذلك سمي المغرب ، فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة . وقد ذكر المثل في الشعر[4] .

ومن الأمثال الجاهلية الحية التي لا تزال ترزق ، المثل : « تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه » . يضرب مثلاً لمن خبره خير من مرآه . ذكر (ابن الكلبي) ان هذا المثل ضُرب (للصقعب بن عمرو) النهدي . قاله له النعمان بن المنذر . وقال (المفضل) : المثل للمنذر بن ماء السماء ، قاله لشقة بن ضمرة سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فأرسلها مثلاً

---

١ المزهر (٤٩٤/١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣٧٨/١) ، (عرقب) .
٣ الفائق (١٣/٢) .
٤ الزمخشري ، المستقصى (١٥٠/٢) .

فقال : له شقة : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بجُزر يراد منهم الأجسام ، وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فذهب مثلاً ، وأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه ، ثم سمّاه باسم أبيه فقال: أنت ضمرة بن ضمرة . وقيل إن المثل للنعمان ابن المنذر ، قاله لشقة بن ضمرة[1] .

وقد أورد (ابن الكلبي) قصة تأريخ المثل على هـذا النحو : قال : وفد (الصقعب بن عمرو) النهدي في عشرة من (بني نهد) على (النعمان بن المنذر) وكان (الصقعب) رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين ، شريفاً بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للآذن : إئذن للصقعب ، فنظر الآذن الى أعظمهم وأجملهم ، فقال : أنت أنت الصقعب ؟ قال : لا . فقال : الذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو : فقال : لا . فاستحيا فقال : أيكم الصقعب ؟ فقال الصقعب : هأنذا ! فأدخله الى النعمـان ، فلما رآه قال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! فقال الصقعب : أبيت اللعـن ! إن الرجال ليسوا بالمسوك يستقى فيها ، انما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ، إن قاتل قاتـل بجنان ، وإن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك ! ثم سأله أسئلة امتحنه بها ، ليرى عقله ، فكان يجيبه أحسن جواب . فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه[2] .

وينسب المثل : « ألوى بعيد المستمر » ، الى (النعمان بن المنذر)، وأخوه (طُفيل الغنوي) فأدخله شعره[3] . ومن الأمثلة الشهيرة القديمة قولهم : « على أهلها جنت براقش » ، يضرب مثلاً للرجل يهلك قومه بسببه[4] .

وينسب المثل : « إن الشقي وافد البراجم » لعمرو بن هند ، ملك الحيرة، حلف ليقتلن مائة من تميم ، فقتل تسعة وتسعين رجلاً منهم إحراقاً بالنار، وبقي واحد ، فلما دنا رجل من البراجم من الملك ، وسأله عن أهله ، فقـال : من

---

١ الخزانة (١/١٥١) ، (بولاق) .
٢ المزهر (١/٤٩٥ وما بعدها) ، العمدة (١/٢٨٥) .
٣ ألفيتني ألوى بعيد المستمر   أحمل ما حملت من خير وشر
العسكري ، جمهرة (١/٣٢ وما بعدها) .
٤ العمدة (١/٢٨٥) .

البراجم ، قال : إن الشقي وافد البراجم ، وأمر به فألقي في النار[1] .

ومن الأمثال المشهورة قولهم : « عند جهينة الخبر اليقين » . وقيل : « عند جفينة الخبر اليقين » (حُفينة) . وكان من حديثه أن (حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن كلاب) خرج،ومعه رجل من (جهينة) يقال له (الأخنس) فنزلا منزلاً ، فقام الجهني الى الكلابي فقتله ، وأخذ ماله ، وكانت أخته (صخرة) بنت (عمرو) تبكيه في المواسم ، وتسأل عنه فلا تجد من يُخبرها، فقال الأخنس فيها :

كصخرة إذ تسائل في مِراح ... وفي جَرْمٍ وعلمها ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين[2]

ومن أمثالهم المشهورة قولهم : بمثل جارية فلتزن الزانية ، وذلك أن (جارية بنت سليط بن الحرث بن يربوع بن حنظلة) كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم قامة ، وأتى سوق عُكاظ فأبصرته فتاةٌ من خثعم فأعجبها فتلطفت له ، حتى وقع عليها ، فعلقت منه ، فلما ولدت أقبلت هي وأمها وخالتها تلتمسه بعكاظ ، فلما رأته الفتاةُ قالت : هذا جارية ! فقالت أمها : بمثل جارية فلتزن الزانية سراً أو علانية ، فذهب مثلاً[3] .

ونسب المثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » الى (الزبير بن عبد المطلب)[4]، ونسب المثل « استنوق الجمل » لطرفة بن العبد[5] . ومن الأمثلة القديمة : « على أهلها دلت براقش » ، و « عش رجباً تر عجباً »[6] ، و « العصا من العصية» و « أعز من كليب وائل » ، و « أعزّ من بيض الأنوق » و « أعز من

---

١ العسكري ، جمهرة (١/١٢١) ، (يذكر ٩٨ شخصا ، ثم يتم العدد ، بذكر هذا الرجل ، ثم اكمله بالحمراء بنت خمرة ، حيث أحرقها ، وتحلل من يمينه ، وتذكر الموارد الاخرى خلافه . وقد تحدثت عن هذا المثل) .

٢ المزهر (١/٤٩٨ وما بعدها) ، العسكري ، جمهرة (٢/٤٤) .

٣ المزهر (١/٤٩٩) .

٤ العسكري ، جمهرة (١/٩٨) .

٥ العسكري ، جمهرة (١/٥٤) ، الاغاني (١/١٣٢) ، الشعر والشعراء (١/١٣٥)

٦ العسكري ، جمهرة (٢/٥٢ وما بعدها) ، الميداني (١/٣١٠) ، الحيوان (١/٢٦٠) ، العقد الفريد (٣/٥٤) .

الغراب الأعصم » ، و « أنصف القارة من راماها » . والمثل : « أرسل حكياً ولا توصه » ، هو في الواقع مثل قديم ، لا بد وأن يكون قد وضع في العربية، قبل أيام (الزبير) ، إذ ينسب الى الحكيم (أحيقار) ، وربما نقل من السريان الى العرب .

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية ، تركت أثراً في أيامها ، فضرب بها المثل . مثل : « أبلغ من قس » ، ويراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير ، وأعيا من باقل . وهو رجل من إياد ، وقيل من ربيعة . اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمر بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمد يديه وأخرج لسانه يريد أحد عشر ، فشرد الظبي حين مد يديه ، وكان تحت ابطيه[1] . وضرب المثل ببخل مادر ، فقيل : أبخل من مادر ، وبفصاحة سحبان ، فقيل : أخطب من سحبان ، وهو القائل :

لقد علم الحي اليمانون أنني اذا قلت أما بعد أني خطيبها[2]

وضرب الجاهليون الأمثال بكل ما وجدوه حولهم من حيوان ومن نبات وصخور. ولذا نجد على أمثالهم طابع محيطهم ، فالحيوان الذي ضربوا به المثل ، هو من حيوان جزيرة العرب ، ومن النوع المألوف عندهم ، مثل الضب والحية والعنز والإبل وما الى ذلك . ومن هنا اختلفت أمثلة الأعراب أهل البادية عن أمثلة الحضر ، أهل المدر ، لاختلاف طبيعة البادية عن طبيعة الريف ، ولوجود أشياء في أحدهما يندر وجودها في المحيط الآخر .

وفي شعر (عدي بن زيد) العبادي أمثلة كثيرة ، تميز شعره عن شعر بقية الشعراء الجاهليين . ولو درسنا شعره ، نجد أن فيه ما يشير الى مواعظ ترد في النصرانية كما ترد على خاطر كل إنسان يصاب بنكبة ، فتهز مشاعره فتجعله ينظر الى الدنيا نظرة زاهد فيها ، ولا استبعد احتمال تأثره بالكتب التي كان قد وقف عليها ، فقد كان نصرانياً « وقد قرأ كتب العرب والفرس »[3] . ولم يذكر أهل

---

١ المزهر (٥٠٣/١) .
٢ المزهر (٥٠٤/١) .
٣ الطبري (١٩٣/٢) ، (دار المعارف) .

الأخبار شيئاً عن (كتب العرب) ، هل أريد بها كتب دينية وضعت في العربية ، أم قصد بها كتب في القصص والأمثال وفي الشعر والأخبار وما شابه ذلك ، ولعلهم أرادوا بكتب الفرس ، الكتب التي تبحث عن قصص ملوكهم . وقد ترجم قسم منها في الاسلام ، وقصص الأساطير . وقد رأينا أنها كانت معروفة عند العرب وان (النضر) كان يقص منها لأهل مكة ، وكانوا يسمونها الأساطير.

ونجد في شعر الشعراء الآخرين أمثلة عديدة دخلت شعرهم ، أخذوها من المثل السائر ، ومن الحكم التي كانت شائعة في أيامهم ، أو من القصص ، أو من مبتكراتهم ومخترعاتهم ، ولا تزال بعض الأمثال الشعرية حية ترزق ، يضرب بها الناس المثل فيما يريدون التمثيل به .

ومن الموارد التي أمدت الأدب الجاهلي بالمثل ، الكهان ، وكلام الكهان قصير مسجع يميل الى الرمز والألغاز ، يتجنب الصراحة ، لتكون فيه قابلية التفسير والتأويل واعطاء كثير من الاحتمالات ، وذلك لما تقتضيه طبيعة الكهانة من تأويل التكهن حسب الأحوال والمناسبات . ونجد في كتب الأدب أمثلة عديدة منسوبة الى هؤلاء الكهان . ولما كان كلامهم مسجوعاً ، قيل له : « سجع الكهان » . وقد جاء في الحديث النبوي : « هذا من سجع الكهان »[1] . وفي الكهان جماعة من الكاهنات ، عرفن بالتكهن ، مثل : الشعثاء الكاهنة ، وطريفة ، ويذكرون انها هي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب[2] ، وزبراء الكاهنة[3] ، وسلمى الهمدانية الحميرية[4] ، وعفيراء الكاهنة الحميرية[5] ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، وقد ذكروا انها كانت قد قرأت الكتب[6] .

ومن الأمثلة الواردة في كتب الأدب : « إن العصا من العُصية » ، وهو مثل ينسب الى (الأفعى الجرهمي) ، وهو من الكهان . قاله لما احتكم اليه أولاد (نزار) بمدينة النجران[7] . و « الصيف ضيعت اللبن » ، وأول من قاله (عمرو

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٩٦ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/٣٠٥ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٣/٧ وما بعدها) .

ابن عدس)[1] ، والمثل « أوسعتهم سبآ وأودوا بالابل » وينسب الى (كعب بن زهير بن أبي سلمى)[2] ، والمثل « ان الشقي وافد البراجم »[3] . الى غير ذلك من أمثلة تجدها في كتب الأمثال والأدب . ولا يزال بعضها حياً يتمثل الناس به. وبعض منه يرد على لسان كل إنسان . أي أمثلة تنطبق على كل البشر ، لأنهـا صادرة من نفس انسانية عامة،فلا تعدّ من الأمثلة المحلية أو القومية ، أي أمثلة نبعت من محيط أمة معينة . لذلك نجد لها شبهاً عند أمم أخرى . ولا نستطيع أن نقول إن الأمة أخذتها من تلك .

---

١ نهاية الارب (٣/١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١٧) .
٣ نهاية الارب (٣/١٨) .

الفصل الثامن والعشرون بعد المئة

القصص

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي ، أشير اليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين . ودراسته تمكن الدارس من تحليل عقلية صاحب القصص ، وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه . وقد ورد في المؤلفات الاسلامية شيء منه ، وفي بعضه ملامح يمكن ارجاعها الى عناصر أعجمية : دينية ، وغير دينية ، تسرب الى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم ، واتصال الأعاجم بهم .

والقص البيان ، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها ، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها . وقيل : القاص يقص القصص لأتباعه ، خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً . وقد كان القص شائعاً متفشياً بين الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا يقبلون عليه اقبالاً شديداً ، ومن هنا ورد في الحديث « ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا . وفي رواية لما هلكوا قصوا ، أي اتكلوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا بترك العمل أخلدوا الى القصص »[1] . ولما نزل القرآن : « قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، قال : فنزلت : نحن نقص عليك أحسن القصص »[2] . وذكر ان أصحاب رسول الله سألوه أن يقص عليهم ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ،

١ تاج العروس (٤/٤٢٢) ، (قصص) .
٢ سورة يوسف ، الاية ٣ ، تفسير الطبري (١٢/٩٠) .

« من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم » . وورد انهم قالوا له : « يا رسول الله ! حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص » فأنزل الله الآية المذكورة[1] . وفي هذا الالحاح على الرسول بأن يقص عليهم ، دلالة على مدى حب الجاهليين واعجابهم بالقصص .

وللجاهليين غايات من الاستماع الى القصص ، منها : العبرة والاتعاظ . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »[2] . وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم ، ولما جاء الاسلام كانوا على عادتهم يقصون لإثارة العقول الى أنباء الماضين وأخبار السالفين، ولإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة، كالذي يظهر من القرآن الكريم: « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[3] و « نحن نقص عليك أحسن القصص »[4] و « تلك القرى نقص عليك من أنبائها »[5] . ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ، ومعناه القصص التعليمي ، الذي يتعظ بـه ، ويستفاد منه ، إذ يعد دروساً تعلم الانسان في حياته وترشده الى النجاح ، ويشمل قصص الماضين ، ما قاموا به من خير ، وما عملوا في أيامهم من شر ، فأصابهم من أجله الهلاك وسوء المصير ، وقصص الأشخاص ، أما القصص المروي على ألسنة الحيوانات على نمط قصص (كليلة ودمنة) ؛ فإننا لا نجد منه مادة غزيرة في القصص المروي عن الجاهليين ، وهو قليل المادة أيضاً في الأدب الاسلامي ولا سيما في القصص الطويل . وقد نجد بقايا قصص على ألسنة الحيوانات مروياً في كتب الأدب ، لكنه من النوع القصير الذي لا يمثل نفساً طويلاً في القص . وأغلب الظن انه منتزع من قصص قديم ، فقد طوله ، بسبب قدمه ، فبقيت منه هذه البقايا .

ومن أبواب القصص ، المقال على ألسنة الحيوانات ، كالقصص المقال على لسان (النعامة) ، من انها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . والقصص

---

١ تفسير الطبري (١٢/٩٠) .
٢ يوسف ، الاية ١١١ .
٣ الاعراف ، الاية ١٧٦ .
٤ يوسف ، الاية ٣ .
٥ الاعراف ، الاية ١٠١ .

الذي وضعوه عن الغراب ، وعن الضفدع ، والهدهد ، والهديل ، وغير ذلك مما يميل اليه العامة بصورة خاصة ، لما يتركه من أثر في نفوسهم[1] .

ومن القصص ، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام ، ويلعب قصص الأيام الدور الأول في هذا القصص ، لما له من أثر في العصبية . وكان هذا القصص من أحب القصص الى نفوسهم ، وقد زوّق ونمق ، وتولى قصه قصاصون كانت لهم مواهب خاصة وقابلية على القص والتأثير في النفوس ، وكان أصحاب الرسول حين يتسامرون يتناشدون الشعر ويتذاكرون الأيام ، جرياً على سنتهم في الجاهلية ، وقد استمر هذا القصص الى عهد قريب ، ولا زال معروفاً في القرى وفي بعض الأقطار العربية ، لا سيما في أيام رمضان ، حيث تقرأ قصص أبو زيد الهلالي وقصة عنترة وغيرها في المقاهي ، يقرأها قصاصون متخصصون بأسلوب مؤثر جذاب ، يتلاعبون به في عقول السامعين ، ويثيرون فيهم الحماس ، ينصتون بكل خشوع الى صوت القاص ، يريدون منه سماع المزيد من الأخبار .

وفي قصص أهل الأخبار المنسوب الى الجاهلية ، قصص عن الأسفار وعن مشقات السفر وعن الأهوال التي كان يلاقيها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالى والغيلان ، وقد رصع بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً ، في وصف تلك المخلوقات الرهيبة المفزعة ، ولم ينس بعض هذا القصص من ايراد شعر لها في محاورة الأشخاص الذين تعرضوا لها ، تجد فيه الجن والسعالى والغيلان ، تنظم الشعر بلسان عربي مبين ، وتجيب فيه الشعراء بشعر مثل شعرهم ، قد تظهر رقة وأدباً فيه ، مع ما عرف عن هذه القوى من الميل الى الأذى والشر .

وفي قصصهم قصص له أصل تأريخي ، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله ، وانما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله الى أسطورة ، رصعت بالشعر في الغالب ، وبالجنس ، لتثير الغرائز ، فتقبل الأنفس على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس[2] ، وقصص الزباء ، والتبابعة ، والأقوام الغابرة ، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب .

وفي أبواب القصص ، باب للمجون والخلاعة ، وأحاديث الهوى والتشبب .

---

١ فجر الاسلام (٦٦) ، (١٩٦٥ م) .
٢ المحاسن والاضداد (١٣٨) .

وهو باب يقدم على سماعه الشبان ، طلاب هذا الفن في هـــذا الدور من أدوار الحياة ، أما الشبيبة ومن تقدمت بهم السن ، فإن الجنس ، يكون قد ابتعد عنهم وتركهم في الغالب ، وما تمسكهم به وهم في أرذل العمر ، إلا من باب التذكر بأيام الزمان ، وذكريات الشباب ، لتطرية العمر ، والترويح عن كربة التقدم في السن .

والقاص من الشخصيات المحببة الى نفوس الجاهليين ، يقص عـــلى أبناء حيّه القصص المسلية ، مستمداً مادته من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتأريخية المأثورة عن العرب،أو عمن جاورهم . ومن ذلك قصص الأقوام القديمة التي بقيت ذكرياتها في أذهان الجاهليين، وقصص الملوك مثل الزباء ، التي كيفت قصتها ، وابتعدت عن التأريخ وقصص جذيمـــة الأبرش ، وقصير ، وعمرو بن عدي ، والتبابعة وغير ذلك من قصص،له أصل تأريخي ، لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير . وهو يصلح أن يكون اليوم موضع دراسة خاصة للوقوف على مقدار عناصر الابتكار والخيال فيـــه ، ومقدار التحوير الذي ألمّ به ، وسببه ومن أدخله عليه من جاهليين أو مسلمين .

وقصص النوادر والنكات من القصص المعروف عند أهل الجاهلية . وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم ندماء عرفوا بإغراقهم في قول الملح والنوادر والأمور الغريبة المضحكة ، حتى اشتهر أمرهم بين الناس ، وحتى بالغ الناس في نسبـــة النوادر اليهم ، وحوّلوا بعضهم الى شخصيات أسطورية ، من كثرة مـا تقولوا عليهم وما نسبوه اليهم . ومنهم من سجلت كتب أهل الأخبار والأدب أسماءهم ، لما حصلوا عليه من شهرة بين الناس في أيامهم . منهم (سعد) المعروف بـ (سعد القرقرة) هازل (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، كان يضحك منه[1] . ذكـر أنه كان من أهل (هجر) ، فدعا النعمان بفرسه اليحموم ، وقال له : اركبـه واطلب الوحش ، فقـــال سعد اذن والله أصرع . فأبى النعمان إلا أن يركبه . فلما ركبه سعد نظر الى بعض ولده قال : وا بأبي وجوه اليتامى ، ثم قال :

نحن بغرس الـــوديّ أعلمنا منّا بركض الجياد في السدف[2]

---

١ تاج العروس (٤٨٩/٣) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (١٣٦/٦) ، (سدف) .

وفيه قال الشاعر (أبو قُردُودة) ، وكان (سعد القرقرة) قد أكل عند النعمان بن المنذر مسلوخاً بعظامه :

بين النعامِ وبين الكلب منبته وفي الذئب لـه ظئر وأخوال[1]

ومنهم (النعمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرث) من (بني النجار) من يثرب ، المتوفى في أيام (معاوية) . كان هازلاً ومازحاً لطيفاً . ذكر أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها الى النبي ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها أحضره الى النبي ، وقال : اعطِ هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ! فيقول : إنه واللهِ لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . ودخل أعرابي على النبي ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا الى اللحم . ففعل . فخرج الأعرابي وصاح واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا النعمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد. فأشار رجل الى النبي حيث هو فأخرجه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلّوك عليّ يا رسول الله ، هم الذين أمروني بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غرمها للأعربي . وروي أن (مخرمة بن نوفل) كان قد كبر وقد عمي،فقام في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس المسجد المسجد ! فأخذه نعيمان بيده وتنحى به ، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجد فقال له : بل ههنا . فصاح به الناس . فقال : ويحكم فمن أتى بي الى هذا الموضع ! قالوا : نعيمان . قال : أما إن لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت . فبلغ ذلك نعيمان . فكث ما شاء الله ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد . فقال لمخرمة : هل لك في نعيمان . قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت . فقال : دونك هذا نعيمان فجمع يده بعصاه فضرب عثمان فشجه ، فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين[2] .

---

١ الحيوان (١/١٤٧) .
٢ الاصابة (٣/٥٤٠) ، (رقم ٨٧٩٠) .

وروي ان (أبا بكر) خرج تاجراً الى (بصرى) ومعه (نعمان) و (سويبط ابن حرملة) ، وكان (سويبط) على الزاد ، فجاءه (نعـمان) ، فقال : أطعمني . فقال : لا،حتى يجيء (أبو بكر) ، فقال : لأغيظنك ، فذهب الى ناس جلبوا ظهراً . فقال : ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي . فقالوا : بلى نبتاعه منك بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونـكم هو هذا . فجاء القوم . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سويبط : هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبـل في رقبته فذهبوا به . وجاء أبو بكر ، فأخبر . فذهب هو وأصحاب له فردّوا القلائص وأخذوه . فضحك النبي وأصحابه من ذلك حولاً[1] .

وبعض القصص الشائع المتواتر عن الجاهليين ، مثل قصة يومي البؤس والنعيم، وقصة (شريك) مع الملك (المنذر) ، وقصة (سنمار) وأمثال ذلك ، قصص وان اقترن بأسماء جاهلية ، إلا ان أصوله غير عربية ، دخلت العرب من منابع خارجية ، من منابع يونانية وفارسية ، ونصرانية ، وهو أيضاً من القصص الوارد عند شعوب أخرى ، بدليـــل وجود شبه ومثيل له في أساطـير الأعاجم ، وفي حكايات النصارى[2] .

وقاص ذلك اليوم ، هو أديب الحي ، وأديب القوم ، وهو لا بد أن يكون من أصحاب المواهب والفطنة،وممن رزق موهبة التأثير على القلوب بفضل ما رزق من حسن عرض الكلام وتخريج القصص ، وتنسيقها . واظهـــار الأدوار البارزة للأبطال ، وعرضها بأسلوب مشوق مرغب ، تنسي السامع كل شيء إلا تتبـــع الحكاية . ولا بد وأن يُملّح القاص قصصه بادخال شيء من الشعر فيها ، لا سيما شعر الفرسان والحروب والمغامرات .

ولا نعرف من أسماء قصاص الجاهلية أسماء كثيرة،وأشهر اسم نعرفـه هو اسم (النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) . (النضر بن الحارث

---

١ الاستيعاب (٣/٥٤٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ فجر الاسلام (٦٧) ، (١٩٦٥ م) .

ابن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الـدار بن قصي)[1] ، وكان من (شياطين قريش) ، أي أذكيائهم ، وممن يؤذون الرسول ، وكان يحدث قريشاً بأحاديث رستم واسفنديار وما تعلم في بلاد فارس من أخبارهم[2] ، ويزعم ان في استطاعته ان يأتي بمثل ما أتى به الرسول من أمر القرآن ، فأشير اليه في الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] ، وذكر ان كـل ما ذكر في القرآن من (الأساطير) ، فإنمـا قصد به (النضر) ، وقد نزلت في حقه ثماني آيات[4] ، تدل على انه كان يتحدى الرسول ويخاصمه ويقول في القرآن انه من صنع محمد ، وكان يأتي بقصص يزعم انه يضاهي بها كتاب الله . وقـد أرسلته قريش مـع (عقبة بن أبـي معيط) الى يهود (يثرب) ليأخذا منهم من أمور التوراة والدين ما يجادلا به الرسول ، فعلموهما ما يجب أن يسألا به ، فجـاءا وسألا الرسول وحاججاه ، وقد أشير الى هذه المحاججة في القرآن[5] .

وقد أمر الرسول بقتل (النضر) ، فقتله (عليّ) وهو بالصفراء ، فقالت فيه (ليلى) ابنته ، أو (قتيلة) ابنته ، وهي ابنته في رواية ، أو أخته في روايـة أخرى ، شعراً تبكيه وتتوجع فيه على قتله . أوله :

يا راكبـاً ان الأثيـل مظنّة	من صُبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بهـا ميْتاً بأن قصيـدة	ما ان تزال بها الركائب تخفق
فليسمعن النضر ان ناديتـه	إن كان يسمع ميت لا ينطـق
ظلت سيوف بني أبيـه تنوشه	لله أرحـام هنـاك تشقق
قسراً يقاد الى المنيّة متعبـاً	رَسْفَ المقيد وهو عان موثق
أمحمد هـا أنت ضَنْءُ نجيبةٍ	في قومها والفحل فحل معرق

١ الاشتقاق (٩٩) ، كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، ابن هشام (١/١٨٨ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٢ الروض الانف (١/١٨٨) .
٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ ، الروض الانف (١/١٨٩) ، ابن هشام (١/١٨٩ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .
٥ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .

ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقربُ من تركت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق[1]

وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني ، هو (تميم بن أوس بن خارجة) الداري[2] ، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة ، وأنه كان نصرانياً ، وانه لقي النبي ، فقص عليه قصة الجسّاسة والدجّال . وذكر انـه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ، وانه استأذن الخليفة (عمر) أو الخليفة (عثمان) في أن يذكر الناس في يوم الجمعة ، فأذن لـه ، فكان يقص في مسجد الرسول . وكان بذلك أول من قص في الإسلام . وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد[3] . وكان قد قدم مع أخيه (نعيم) الداري في وفـد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك[4] . وكان مقامه في الشام ، وربمـا وضع القصص على اسمه[5] .

وهذا النوع من التذكير والوعظ والارشاد القائم على الترغيب والترهيب بذكر أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب والقصص المتعلق بالحيوانات أو المدون على ألسنتها،هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي ارشادهم الى سواء السبيل،على نحو ما كانوا يتخيلونه ويتصورونه . ومن مدرستهم في الوعظ ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر .

ويمكن الوقوف على طبيعة قصص (تميم) ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع الى ما نسب اليه من قصص ، وما ورد على لسانه من وعظ . ولكننا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بموجبها على نوعيته . ولكننا

---

١ البيان (٤/٤٣ وما بعدها) ، الحصري ، زهر الاداب (١/٢٧) ، الاغاني (١/٩) ، العمدة (١/٣٠) .

٢ « تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل خارجة بن سود ، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدى بن الدار ، أبو رقية الداري » ، الاصابة (١/١٨٦) ، (رقم ٨٣٧) .

٣ الاصابة (١/١٩١) ، أسد الغابة (٢/٢١٥) ، ابن سعد ، الطبقات (١/٧٥) .

٤ الاصابة (٣/٥٣٦) ، (رقم ٨٧٧٠) ، صحيح مسلم ، شرح النووي ، (٥/٤٢٠ وما بعدها) .

٥ مسالك الابصار (١/١٧٢) ، البخلاء (٣١٣) .

لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية . فقد كان نصرانياً ، يسمع أقوال وعّاظ الكنائس ، فتعلم منهم ، وطبق ما تعلمه في الاسلام .

وذكروا ان (الأسود بن سريع بن حمير (خمير) بن عبادة بن النزال) التميمي السعدي ، كان قاصاً ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو من الصحابة ، وكان أول من قص في مسجد البصرة . قيل انه مات سنة اثنتين وأربعين[1] . ولعله كان من النصارى كذلك .

ويجب أن نشير الى قاص آخر هو (عبيد بن شرية الجرهمي) ، وان كان من المتأخرين . فقد كان في أيام (معاوية) ، وقد كان من الملازمين له . وكان الخليفة يحنّ اليه ، ويتلذذ بسماع قصصه عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة ، وأمر افتراق الناس في البلاد . وهو شخص لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وذكر (ابن النديم) أنه عاش الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، وأن معاوية أمر غلمانه بتدوين ما كان يقصه وينسب اليه . وله من الكتب : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[2] .

---

١ الاصابة (١/٥٩ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (١/٧٢) ، البيان والتبيين (١/٦٧) .
٢ الفهرست (ص ١٣٨) .

الفصل التاسع والعشرون بعد المئة

الطب والبيطرة

والطب من العلوم المطلوبة في كل زمان ومكان ، لما له من صلة بحياة الانسان. ولعلماء اللغة آراء في معنى (الطب) وقد ذكروا أن من المجاز : الطب بمعنى السحر ، قال ابن الأسلت :

ألا من مبلغ حسان عني أطب كان داؤك أم جنون[1]

فوجدوا أن بين الطب والسحر صلة . وهو تعبير عن مداواة الأمراض في السابق بالسحر ، فقد كان الساحر طبيباً ، يداوي المرض ويشفي المريض بسحره، وكذلك كان الكهان يداوون المرضى ، ولا زال الناس يعتقدون بأثر السحر في مداواة المرض ، فيراجعون من يدعي العلم بالسحر لنيل الشفاء[2] .

وكان الطب ، في ذلك الزمان ، شرف ، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهليين. قال (المرتضى) في حديثه عن زهير بن جناب : « كان سيد قومه ، وشريفهم، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم . والطب في ذلك الزمان

---

١ وورد : « اسحر كان طبك » ، تاج العروس (١/٣٥١) ، (طب) .

٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٠) .

شرف ، وحازي قومه ، والحُزاة الكهان »[1] . فهو قد جمع خلالاً كثيرة وفي جملتها الطب والكهانة . وقد كان الكهان يداوون المرضى ، فكان كهنة مصر يعالجون المرضى ويطببونهم ، لاعتقادهم ان الأمراض هي من الآلهة ، تصيب الانسان فلا تشفيه منها إلا التوسلات اليها باشفائه ، وحيث ان المقربين اليها هم الكهنة ، لذلك لجأ المرضى اليهم لاشفائهم . ونجد في النصوص العربية الجنوبية توسلات كثيرة وتضرعات الى الآلهة ، لأن تمنّ على المتوسلين اليها بالصحة والعافية ، وبالشفاء من الأمراض التي نزلت بهم ، وأن تحميهم من الأوبئة التي تفشت بين الناس ، فأخذت تميتهم .

ولا بد وأن يكون السحرة والحزاة والكهنة في الجاهلية ، هم الذين مارسوا الطب ، وعالجوا المرضى ، بالسحر وبالأدعية ، أو بالأدوية التي أخذوها عمن سبقهم ومن تجاربهم الخاصة . ونحن نأسف لأن نقول إن النصوص الجاهلية لم تعطنا حتى الآن نصوصاً طبية ، أو نصوصاً فيها وصفات أدوية الشفاء من الأمراض .

والطب ، هو من فروع العلم المحظوظة بالنسبة الى فروع العلم الأخرى عند الجاهليين . فقد أشير اليه ، وأشير الى اسم نفر من الأطباء ، هم : الحارث بن كَلَدة الثقفي ، والنَّضْر بن الحارث ، و (ابن أبي رمثة التميمي) و (ضماد) وكلهم ممن عاصر الرسول وأدرك زمانه ، وبفضل هذه المعاصرة ، ذكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار ، ولولاها لكان شأنهم شأن غيرهم ممن لم يصل اسمهم الى أحد ، فصاروا نسياً منسياً .

وذكر ان رجلاً جاء الى النبي ، فرأى بين كتفيه خاتم النبوة . فقال : إن أذنت لي عالجتها فإني طبيب . فقال له النبي ، طبيبها الذي خلقها ، معناه العالم بها خالقها الذي خلقها لا أنت[2] .

أما الحارث بن كلدة الثقفي ، فإنه من ثقيف ومن أهل الطائف . ذكر أنه سافر إلى البلاد ، وتعلم الطب بناحية فارس على رجل من أهل جُنْدَيْسابور ، وغيرها.

---

١ أمالي (٢٣٨/١) .

٢ اللسان (٥٥٣/١) ، (طبب) ، تاج العروس (٣٥٢/١) ، (طبب) ، « فان يك بك طب داويتك ، فاني أطب العرب » ، الطبري (٢٩٧/٢) .

وتمرن هناك ، وطب بأرض فارس ، وعالج وحصل له بذلك مـال ، وعرف الداء والدواء . وكان صاحب حسّ مرهف ، وموسيقياً يضرب بالعود . تعـلم ذلك بفارس واليمن .

قيل إن سعد بن أبي وقّاص مرض بمكة ، فعاده رسول الله ، فقال له : أُدْعُ الحارث ، فإنه يتطبب . فعاده الحارث وداواه فشفاه . ونسبوا له كلامـاً مع كسرى أنو شروان . وقيل : إنه هو القائل : « الطب : الأزم ، والبطنة بيت الدواء ، والحِميّةُ رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد » ، وأشياء أخرى تنسب الى فلاسفة متقدمين ، ولحكماء من العرب غير الحارث[1] .

وقيل إن من حكمه : « خير الدواء الأزم ، وشرّ الدواء إدخال الطعام على الطعام » . وقيل إنه وصى ولده بقوله : « يا بني عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال . إن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطيناً فعد نفسك مع الزمنى »[2] . ومن حكمه قوله: « لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتي ، ولا من الفاكهة إلا النضيج »[3] .

وقد نسبوا الى الحارث كتاباً ، هو كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان[4] ،ولم يشيروا الى مضمونه ومحتوياته وحجمه . والظاهر أنه هذه المحاورة التي دبجوها في ترجمته ، ونسبوها اليه ، وزعموا أن كسرى أمر بتدوين مـا نطق به[5] .

---

١ عيون الانباء لابن أبي اصيبعة (١٠٩/١ وما بعدها) ، أخبار الحكماء (ص ١١١ وما بعدها) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن جلجل (ص ٥٤ وما بعدها) ، ابن القفطي تاريخ الحكماء (ص ١٦١ وما بعدها) ، ابن العبري (ص ١٥٦ وما بعدها) ، ابن حجر ، الاصابة (٢٨٨/١) ، بلوغ الارب (٣٢٨/٣ وما بعدها) ، شرح ديـوان لبيد (ص ١٠٢) .

٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٦) .

٣ المحاسن والاضداد (١١٠) .

٤ عيون الانباء (١١٠/١ وما بعدها) .

٥ ابن أبي أصيبعة (١١٢/١) ، بلوغ الارب (٣٢٨/٣ وما بعدها) ، العقد الفريـد (٣٧٣/٦) .

وقد ذكر أن الحارث بن كلدة كان شاعراً ذا حكمة في شعره ، وقد أورد الآحدي له أبياتاً في أثناء ترجمته له[1] . وذكره (أبو العلاء المعري) في (رسالة الغفران) ، ونسب له قوله :

فما عسل ببارد ماء مزن على ظمأ ، لشاربه يُشاب
بأشهى من لقيكم الينـا فكيف لنا به ومتى الإياب[2]

وذكر الأخباريون ، ان (الحارث) هذا ، كان قد داوى الملك (أبا جبر) الكندي ، وكان ملكاً شديد البأس ، فخرج الى كسرى يستجيشه على قومه فأعطاه جيشاً من الأساورة ، فلما بلغوا (كاظمة) سمّوه ، ثم تركوه وعادوا ، فسار (أبو جبر) الى (الطائف) ، ليداويه (الحارث بن كلدة) ويشفيه ، فداواه فبرىء وارتحل يريد اليمن فنكس ومات . فرثته عمته (كبشة)[3] .

وقد عاصر رسول الله ، وفي بعض الروايات أنه أسلم ومات مسلماً في خلافة (عمر) ، وأنه أكل مع (أبي بكر) وانه شهد ان (ابا بكر) مات مسموماً[4] وأنه خرج مع النساء حينما حاصر المسلمون الطائف سنة تسع للهجرة . وأنه عاش الى أيام معاوية في رواية . وان (آل نافع) و (آل أبي بكرة) كانوا يزعمون أنهم من نسله[5] .

وأما النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي فهو ابن خالة الرسول . وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع بالأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأخبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب وغيره وكان يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي : ويحسده ، ويكثر الأذى له ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة ، ويحط من قدره عند أهل مكة . فلما كانت وقعة بدر ، كان على رأس

---

١ المؤتلف والمختلف (ص ١٧٢) .
٢ (١٦٦) ، (تحقيق بنت الشاطىء) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٨٤) .
٤ الطبري (٣/٤١٩) « ذكر مرض أبي بكر ووفاته » .
٥ الاشتقاق (ص ١٨٥) ، مختصر ابن العبري (ص ١٥٦) ، أخبار الحكماء ، لابن القفطي (١٦١) ، Die Araber IV, S. 33.

المشركين ، فوقع أسيراً ، ولما كان الرسول بالصفراء أو الأثيل ، أمر بقتله ، فقتل[1] .

وقد نسب بعض أهل الأخبـــار (النضر بن الحارث) على هذه الصورة : (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار)[2] ، وقالوا إنه من أشراف قريش وأسيادها ، وكان من مطعمي (بني عبد الدار)[3] ، ونصوا أنه « كان من كفّار قريش شديد العداوة لرسول الله »[4] ، وانه كان ابن خالـــة الرسول ، ولهذا فلا يمكن أن يكون هذا النضر ابناً للحارث بن كلـدة الثقفي ، الذي هو (الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج) على رواية من ضبط نسبه من أهل الأخبار[5] . ثم إن (الحارث بن كلدة الثقفي) ، لم يخلف إلا ابنة يقال لها أزدة ، على ما ذكره (أبو عبيدة)[6] ، لذلك فلا يمكن أن يكون (النضر بن الحارث) ابناً له ، كما ذهب الى ذلك (ابن أبي أصيبعة) وغيره[7] ، لا سيما وان (ابن أبي أصيبعة) نفسه قد جعله في عـــداد المشركين من قريش الذين آذوا الرسول ، وذكر انه ابن خالة النبي ، وأنه آذاه وساهم مع المشركين في معركة بدر ، فأسر . وأن أخته (قتيلة) قد رثته بشعر دوّنه، كما دوّنه غيره[8]. وما دوّنه عنه ، دوّنه غيره من ترجمة (النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبدار) القرشي ،وتجده مذكوراً مع شعر الرثاء في كتاب (نسب قريش)

---

١ عيون الانباء (١/١١٣ وما بعدها) ، البلاذري (١/١٤١) ، شمس العلوم (١/٧٩) بلوغ الارب (٣/٣٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٩٩) . شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٣/٣٤٨) ، البيان والتبيين (٢/٢٣٦) ، (٤/٤٣) ، (عبـــد السلام هارون) ، البلدان (١/١١٢) ، شرح ديوان الحماسة ، للتريزي . حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٤/٤١) .

٢ نسب قريش ، للزبيري (٢٥٥) ، ابن هشام ، سيرة (١/٣٢٠) ، (النضر بـــن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) .

٣ سيرة ابن هشام (١/٣٢٠) ، (٢/٣٢٠) .

٤ الاشتقاق (٩٩) .

٥ الاشتقاق (١٨٥) .

٦ الاشتقاق (١٨٥) .

٧ عيون الانباء (١٦٧) ، (النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي) .

٨ عيون الانباء (١٦٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٢/٢٩٧ وما بعدها) .

للزبيري[1]. وهو من العلماء بنسب قريش ومن المتقدمين على (ابن أبي أصيبعة)[2].

وفي رواية يرجع سندها الى (الكلبي) و (مقاتل) ، أن في حق (النضر ابن الحارث) ، نزلت الآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث »[3] . فقد قيل : « إنه كان يخرج تاجراً الى فارس،فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً ، عليه السلام ، يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة،فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن »[4] . وقد نزلت في حقه ثماني آيات[5]، يفهم من تفسير علماء التفسير لها ، أنه كان ذكياً لبقاً و (شيطاناً) من شياطين قريش ، له علم بالشعر وبأخبار الأمم ، يراجع أحبار اليهود وعلماء النصرانية ، ليزيد بذلك علماً على علمه، وكان يعتقد لذكائه وعلمه أنه أحق بالدعوة من النبي ، وحسده وصار يعاكسه في كل مكان .

ووصف بأنه صاحب أحاديث ونظر في كتب الفرس . كان يحدّث ، ثم يقول : أينا أحسن حديثاً : أنا أم محمد ؟ ويقول : إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين . وقيل : إنه كان يقول إنما يعينه على ما يأتي به في كتابه هذا جبر ، غلام الأسود بن المطلب ، وعدّاس غلام شيبة بن ربيعة ، ويقال : غلام عتبة ابن ربيعة ، وغيرهما . فأنزل الله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسانُ الذي يُلْحِدون اليه أعجميٌ وهذا لسان عربي مبين »[6] . وكذلك « قال الذين كفروا إن هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا : أساطير الأولين ، اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[7]، وروي أنه كان يحدث قومه أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار[8] . وعلى هذا ، فلم يكن النضر ، في عداد الأطباء ، وإنما كان في عداد الواقفين

---

١ (ص ٢٥٥) .
٢ (١٥٦ – ٢٣٦ هـ) .
٣ سورة لقمان ، الاية ٦ .
٤ أسباب النزول (٢٥٩) ، (سورة لقمان) .
٥ سيرة ابن هشام (١/٣٢٠ وما بعدها) .
٦ النحل ، الاية ١٠٣ .
٧ الفرقان ، الاية ٤ وما بعدها ، البلاذري (١/١٤١) .
٨ ابن هشام (١/٣٢٠) .

على أساطير الفرس ولغتهم ، ولا تستبعد مع ذلك عنه مزاولة الطب ، لأن المثقفين في ذلك الوقت ، كانوا يعالجون ويدرسون مختلف العلوم والمعرفة .

وأما ابن أبي رمثة التميمي ، فكان طبيباً على عهد الرسول مُزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح[1] . ولم يذكروا عنه شيئاً غير هذا المذكور . وذكر من الأطباء طبيب يقال له ابن حِذْيم ، من تيم الرباب . قيل : إنه حاز على شهرة واسعة بين الجاهليين ، وانه ذكر في شعر لأوس بن حجر ، هو :

فهل لكم فيهـا إليّ ، فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حِذيما[2]

وزعم انه كان أطب العرب ، وانه كان أطب من الحارث بن كلدة ، حتى ضرب بطبّه المثل ، فقيل : أطبّ من حِذْيم . وذكر أنه كان بارعاً في الكي ، فقيل : أطبّ في الكي من ابن حِذيم[3] . وقيل هو انه كان من (تيم الرباب) وكان متطبباً عالماً ، وهو أقدم من الحارث بن كلدة . وقد جعله بعضهم (ابن حذام) (ابن حمام) الشاعر المذكور في شعر (امرىء القيس) ، وهو خطأ ورد من باب التصحيف[4] .

ويظهر من كتب الحديث والأخبار والتراجم ، ان هناك نفراً آخرين مارسوا التطبيب في أيام النبي . فقد أشير الى نفر من قبيلة أنمار زاولوا الطب في أيام الرسول[5] . وذكر ان النبي بعث الى أبيّ بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً ، وكواه عليه[6] .

وأشير الى اسم طبيب آخر ، عرف بـ (ضماد بن ثعلبة الأزدي) ، ذكر أنه كان يداوي ، وانه جاء الى رسول الله[7] . وانه كان صديقاً للنبي في الجاهلية ،

---

١ عيون الاطباء لابن أبي أصيبعة (١/١١٦) ، ابن جلجل (ص ٥٧) ، ابن صاعد (ص ٤٧) ، ابن القفطي (٤٣٦) ، تهذيب التهذيب (١٢/٩٧) ، مسند ابن حنبل (٤/١٦٣) ، اللسان (٦/٢٣٢) .
٢ تاج العروس (٨/٢٣٨) ، (حذم) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٣٧) .
٤ الخزانة (٢/٢٣٢) ، (بولاق) .
٥ ابن جلجل (ص ٥٤) .
٦ ابن جلجل (ص ٥٨) ، زاد المعاد (٣/٨٤) .
٧ نهاية الارب (١٨/٧ وما بعدها) ، (١٧/٣٥٠) .

وكان من أزد شنوءة . وكان رجلاً يتطبب ويرقي ويطلب العلم ، ويداوي من الريح . وقد أسلم . وكان محترماً مقدراً . ذكر أن بعثاً بعثه رسول الله أو ابو بكر ، مرّ ببلاد ضماد ، فلما جاوزوا تلك الأرض . وقف أميرهم ، فقال : أعزم على كل رجل أصاب شيئاً من أهل هذه الأرض إلا ردّه ، لمكانة هذا الرجل ولشرفه ولصداقته للرسول [1] . « وروي انه قدم مكة معتمراً ، فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون ، فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته . فجاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً ، فقال : أعِدها عليّ ، فأعادها عليه فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط »[2] .

ولا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء في جنديسابور مركز الطب والعلوم في الانبراطورية الساسانية ، او في أماكن من بلاد الشأم ، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجاً في هذا اليوم الى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء . وقد كان السفر متصلاً غير منقطع،فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب الى هذه الأماكن للتعلم فيها .

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً . فقد قامت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين يوم ذهابهم الى (بني قريظة)[3] . وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكانت لها خيمة في المسجد، مسجد الرسول بيثرب تداوي بها الجرحى . ولما جرح (سعد بن معاذ) يوم الخندق ، قال رسول الله : « اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب » ، وكان الرسول يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء[4] .

واشتهرت (زينب) ، وهي من (بني أود) بالطب . كانت تطبب وتعالج العين والجراح[5] .

---

١ الاصابة (٢/٢٠٢) ، (رقم ٤١٧٧) ، الاستيعاب (٢/٢٠٩) ، حاشية على الاصابة .
٢ ابن سعد ، طبقات (٤/٢٤١) .
٣ نهاية الارب (١٧/١٩١) .
٤ الاصابة (٤/٢٩٥) ، (رقم ٤٢٤) .
٥ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١/٤٠) ، (١٩٥٧ م) .

والوجع المرض المؤلم[1] ، والعرب تسمي كل مرض وجعاً[2] ، ويعبر عنه بالسقام كذلك[3] . وذكر أن (الوعك) الحمّى او ألمها وأذاها ومغثها في البدن ، وذكر ان الوعك لا يكون إلا من الحمّى دون سائر الأمراض[4] .

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح ، أي بتضميده بها ، ويقال لذلك (الغميل) . وكانوا إذا ارادوا تعريق المريض، غملوه[5] ، اي غطوه بالثياب ليعرق ، فيشفى من البرد والزكام . والضماد العصابة او الخرقة تشد فوق الجرح او الرأس ، او اي موضع من الجسم يشتكي من وجود ألم به، فكانوا يضمدون الرأس للصداع ، كما كانوا يضمدون العين ، بوضع الدواء في العين ، أو على الخرقة ثم تضميد العين بها ، ورد ان (طلحة) ضمد عينيه بالصبر ، كذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد، لتضميد الجروح ، أو الأورام او موضع الألم[6] .

ويذكر علماء اللغة أن (النطاسي) ، العالم الشديد النظر في الأمور[7] ، فهي بمعنى الحاذق . ويقال : طبيب نطّيس ونطاسي ، وورد : نطس الاطباء . وهي أكثر ما ترد مع الاطباء ، للدلالة على الحذق والفهم في هذه الصناعة . وذكر علماء اللغة ان اللفظة من المعربات ، عربت من أصل (نسطاس) ، وهي من لغة الروم . والنُطس الاطباء الحذاق ، والعالم بالطب بالرومية[8] .

ولعدم وصول كتب او صحف او أحجار لها علاقة بالطب عند الجاهليين ، اضطررنا الى أخذ معارفنا في الطب من الموارد الاسلامية ، مثل كتب التفسير والحديث والادب ، ففيها إشارات الى بعض الامراض ، وفي بعضها اشارات الى معالجة بعض منها . هذا ، وتفيدنا الموارد الاعجمية في هذا الباب كثيراً ،

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٣) ، (وجع) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٦) ، (سقم) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٤٣) ، تاج العروس (٧/١٩٢) ، (وعك) .
٥ تاج العروس (٨/٥٠) ، (غمل) .
٦ تاج العروس (٢/٤٠٥ وما بعدها) ، (ضمد) .
٧ بلوغ الارب (٣/٣٣٨) .
٨ تاج العروس (٤/٢٥٨) ، (نسطاس) ، (نطس) ، (٦/٣١٠) .

لورود أمراض فيها وطرق معالجة ، كانت معروفة وشائعة في الشرق الأوسط قبل الإسلام . ونجد في المعجمات الخاصة بالعهدين القديم والجديد وفي تواريخ الطب القديم معلومات ذات أهمية كبيرة بالنسبة الينا ، لأنها تعيننا على تكوين رأي في الطب عند الجاهليين .

والمذكورون ، هم أطباء نشأوا في المدن ، وأقاموا في الحضر ، وتعلموا من أطباء محترفين . أما الأعراب ، فقد كان لهم أطباء ، ولكن طبهم ، هو طب العرف والعادة . طبّ موروث ،يداوي بالوصفات التي داوى بها الآباء والأجداد، دون تغيير وتبديل وجدل ونقاش . ولهذا ، فهو طب بدائي تقليدي موروث ، يعتمد في مداواته على قدرة القبيلة،وعلى ما يجده الطبيب حوله من نبات وأعشاب وحيوان ونار فيداوى بها . وما زال الأعراب على طبّهم هذا ، يداوون به على نحو ما داوى أجدادهم وأجداد أجدادهم في الاسلام وقبل الاسلام .

وليس لطب البادية اتصال بالطب الخارجي ، إلا ما كان من طب القبائل القاطنة على مقربة من الحواضر ، أو القبائل التي كان لها اتصال مباشر منتظم أو غير منتظم بالعالم الخارجي . فقد تسرب الى علم (العوارف) فيها نفح من الطب الغريب ، عالج به (عوارف) القبيلة ، واستمروا على المعالجة به ، حتى صار سنّة لهم وطباً قبلياً . ومن أهم صفات الطب القبلي ، انه طب لا يثق إلا بنفسه ، ولا يرى الشفاء إلا من أطبائه وبأدويته المتعارفة عنده . والمريض الأعرابي لا يعمل إلا بطب أصحاب الخبرة من الشيبة والعجائز الذين عرفوا بممارستهم معالجة المرضى. وللسن عندهم قيمة في نجاح المعالجة والحصول على الشفاء ، فالسن تجربة وعلم . ولذلك فللمسن المعالج الذي يرجع اليه عند الشكاية من الألم والمرض ، تأثير كبير على المريض من الناحية النفسية،لاعتقاده بأن السنين تزيد في خبرة الانسان وتضيف الى علمه القديم علماً جديداً . لذلك يثق المرضى به ، مع ان طب الأعراب ، لا يعرف البحث والمطالعة لزيادة العلم ، ولا يركن الى التجديد بالحصول على معارف طبية جديدة ، بدراسة أثر أعشاب البادية بصورة مستمرة في شفاء المرضى واستخلاص النتائج من مراقبة تأثير الدواء على حالة المريض .

وقد عرف طب البادية بـ (طب الأعراب) وبطب البادية ، وعرف دواء الأعراب بدواء أهل البادية . وهو دواء نابت من محيطهم يستند على المعالجة بالأعشاب وبالرماد وبالألبان وبأبوال الإبل وبالخرز . ومن أدويتهم (النهاء) دواء

يكون بالبادية يتعالجون به ويشربونه . ويظهر انه من حجر يقول له (النهاء) ، وهو حجر أبيض أرخى من الرخام ، يكون بالبادية ، ويجاء بسه من البحر . وضرب من الخرز[1] .

و (العقار) و (العقاقير) الأدوية . وقيل ما يتداوى به من النبات أو أصولها والشجر[2] . و (العُقار) في الآرامية ما يتداوى به من النبات ، أي دواء[3] .

وطب مثل هذا ، لا يمكن أن يأتي بنتائج ايجابية في معالجة الأمراض الصعبة العسيرة ، وفي حالات مرضية مهمة جداً في نظر بعض الناس ، ولا سيما مشايخ القبائل ، كالعقم وتقوية الشهوة الجنسية ، ولهذا كانوا يلجأون الى أطباء الحضر . وقد أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولا سيما الأمراض النفسية منها في نفوس أولئك الرؤساء ، وجلهم ممن درس الطب وقرأ الكتب المؤلفة فيه ومارسه عملياً ، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبشير،وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية في الغالب ، وأثروا فيهم ، ونجحوا في مثل هذه الحالات في كسب عطفهم عليهم وتأييدهم لهم ، وفي الدخول في جوارهم ، للقيام بالتبشير . ونجد في النتف الباقية عن حياة المبشرين الذين بشروا بين العرب قصصاً من هذا النوع روي في معالجة بعض الرؤساء،يذكر أنهم نجحوا في معالجتهم وأن نجاحهم هذا هو كرامة ومعاجز قد تمت بفضل الله ومنّة المسيح .

ويكون الشفاء عند العرب في ثلاثة : شربة عسل وشرطة محجم وكيّة نار . واذا عجز الطبيب من اشفاء مريضه بما عنده من وسائل لجـأ الى (الكيّ) ، ولذلك جاء : « آخر الدواء الكي » . وكان أهل الجاهلية يرون انه يحسم الداء بطبعه فيبادرون اليه قبل حصول الاضطرار اليـه ويعالجون بـه أكثر الأمراض . وروى في الحديث قوله : « الشفاء في ثلاثة : شربـة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنهى أمتي ثمن الكيّ »[4] .

والعسل من الأدوية والوصفات التي أمر بها الأطباء في معالجة بعض الأمراض، ولا سيما أمراض المعدة ، عولج به وحده ، وعولج به ممزوجاً بمواد أخـرى ،

---

١ تاج العروس (٣٨٢/١٠) ، (نهى) .
٢ تاج العروس (٤١٧/٣) ، (عقر) .
٣ غرائب اللغة (١٩٦) .
٤ ارشاد الساري (٣٦١/٨) « كتاب الطب » .

لتكوين عجائن ولصقات منه[1] . واستعملت العجائن المكونة من الدقيق والتمر والسمن في معالجة أمراض الجلد وآلام المفاصل ، والنزلات . كذلك استعملت لصقات كونت من مواد أخرى في معالجة مثل هذه الأمراض . والمناقيع هي من طرق المعالجة أيضاً ، ومنها مناقيع الخل والزيوت .

وقد ورد في رواية : ان الرسول أرسل عكّة عسل الى لبيد الشاعر الشهير حين علم بمرضه ، فشرب منها ، وبرىء[2] ، وفي هذا الخبر دلالة على تداويهم بالعسل .

وقد أقام أهل مكة والحجاز وزناً كبيراً للمداواة بالعسل . ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأدب والأخبار إشارات الى هذه المداواة . وقد استعملوا العسل في مداواة « المبطون » الذي يشتكي بطنه من الاسهال المفرط ، ومن سوء الهضم، لاخراج الفضول المجتمعة في المعدة وفي الأمعاء[3] .

وفي جملة معالجات الأطباء ووصفاتهم للمرضى ، استعمال الحجامة ، أي استخراج مقدار من الدم بكأس يسحب هواؤها بالمص ، فيخرج الدم من الشروط التي عملت في ظهر الرقبة . وقد استخدموها في معالجة الرأس والشقيقة والصداع[4] . والفصد . واستعمال ديدان خاصة لامتصاص الدم[5] . والشقيقة صداع يصيب شقي الرأس ، وان أصاب الصداع قنة الرأس أحدث داء البيضة . وأما الصداع فهو عام[6] .

والفصد ، هو شق العرق لإخراج مقدار من الدم للمعالجة من بعض الأمراض.

---

١ عمدة القارىء (٢١/٢٣٢) ، « عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل » العقد الفريد (٦/٢٧٣) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٢٥ مقدمة) .

٣ ارشاد الساري (٨/٣٧٨ ، ٣٦٣) .

٤ عمدة القارىء (٢١/٢٤٢ وما بعدها) ، « أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يحجم في غأس رأسه » فقال : ما هذا ؟ قال : هذا خير ما تداويتم به ، « الحجامة والكي » ، العقد الفريد (٦/٢٧٥ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

٥ عمدة القارىء (٢١/٢٣٠ وما بعدها) .

٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٠) .

وقد عرف عند العرب كما عرف عند غيرهم[1] . وقد داووا الصبيان بـ (الفصيدة) تمر يعجن ويُشاب،أي يخلط بدم[2] . والظاهر أن هذا الدم ، هو من دم الفصد . وقد كان الجاهليون يأكلون دم الحيوان ، يجففونه بعد خلطه مع مادة أخرى ، أو وضعه في أمعاء ليجف فيؤكل ، أو مع الشعر ثم يأكلونه ، ومنهم من كان يشرب الدم ، للقوة . و « وفي حديث عكرمة : كان طعام أهل الجاهلية العلهز. قال ابن الأثير : هو طعام من الدم والوبر » ، وذلك أن يخلط الدم بالوبر ، أو الصوف ينفش ويشرب بالدماء ويشوى ويؤكل . وقد نسب أكله الى الفقراء وإلى أيام المجاعة ، وزعم أنهم كانوا يخلطون فيه القردان . أو دم الحلم . ونسب أكله الى القحطانيين ، وذلك في شعر هجاء ، هو :

وإن قرى قحطان قرف وعلهز   فأقبح بهذا ويح نفسك من فعل[3]

وهو من الشعر المنبعث عن عاطفة العصبية ولا شك .

وكان الفصد عند العرب من جملة وسائل القتل التي تستعمل في قتل الملوك والأشراف . تمييزاً لهم عن السوقة وسواد الناس الذين يقتلون بحدّ السيف . فقد كان الشريف إذا سقط في أيدي عدوّه ووجد نفسه أنه مقتول لا محالة ، أوصى بإسقائه الخمر ، حتى يسكر ، فيخف بذلك ألمه ثم يفصد عرق اليد فيخرج منه الدم حتى يموت ميتة الأشراف .

واستعمل الكيّ في معالجة أمراض المفاصل ، مثل الرَثْيَة «الروماتزم» ، وقد برع في ذلك الأعراب بصورة خاصّ. وهو معالجة أخذ بها أطباء أهل الوبر أيضاً، وطريقتهم هي كي الجزء المريض بحديدة محماة ، أو بحجر محمى . وقد استعمل الكي أيضاً في معالجة الجروح والقروح ووجع الرأس . وفي العربية مثل قديم ، له علاقة به ، هو : آخر الدواء الكي . فالكي اذن معالجة يلجأ اليها حينما يعيا الدواء عن الشفاء . واستعمل في معالجة الاستسقاء ، بالكي على البطن[4] . وينسب أهل الأخبار المثل المذكور الى (لقمان بن عاد)[5] . وفي نسبتهم هذه المعالجة اليه

---

١ اللسان (٣/٣٣٦) ، (فصد) .
٢ اللسان (٣/٣٣٦) ، (فصد) ، تاج العروس (٢/٤٥٣) ، (فصد) .
٣ تاج العروس (٤/٦١) ، (العلهز) .
٤ الفاخر (ص ٥٨ ، ١٢٦) .
٥ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر آباد الدكن ١٩٦٢ م) .

دلالة على قدمها عند العرب . وهي معالجة لا زال الأعراب يستعملونها في مداواة أمراض عديدة عندهم ، لا سيا في معالجـــة أمراض الروماتزم . وقــد ورد أن (خباب بن الأرت) اكتوى في بطنه سبع كيّات[١] .

و (الرثية) وجع المفاصل واليدين والرجلين ، وقيل وجع الركبتين والمفاصل ، أو ورم وظلاع في القوائم ، أو هو كل ما منعك من الالتفات أو الانبعاث من كبر أو وجع[٢] .

وقد استعملوا (الكي) للشوكة . والشوكة حمرة تظهر في الوجه وغيره من الجسد . وقــد كوى (أسعد بن زرارة) من الشوكة[٣] . وقيــل الشوكة داء كالطاعون ، وكانوا يسكنون الشوكة بالرقي كذلك[٤] .

والبصل والثوم والكمون والكرفس والخردل هي من النباتات التي عولج بها ، فاستعمل البصل لمعالجة النزلات الصدرية وبعض أنواع الحميات وللقضاء على الديدان في داخل الجسم . واستعمل الثوم لمعالجة أمراض المعدة والديدان أيضاً، وفي معالجة أمراض القلب[٥] . واستعمل الكمون في معالجة النزلات الصدرية كذلك . وهو من الأدوية المعروفة عند غير العرب أيضاً ، فقد كان العبرانيون يستطبون بـــه[٦] ، وكانوا يحصلون عليه بواسطة الفينيقيين والعرب . وأحسنه هو الكمون المستورد من (سيلان)[٧] . وعالجوا به في الادرار ، وفي مطاردة الريح في المعدة وللهضم[٨] .

وعولج بالسنا وبالشبرم وبالزبيب ، ويرون أن الزبيب يُذهب النّصب، ويشد العصب ، ويطفىء الغضب ، ويصفي اللون ، وبالسفرجل ويرون أنه يشد القلب، ويطيب النفس ويذهب بطخاء الصدر[٩] . وعالجوا بالتين ، استعملوه لمعالجة الإمساك والكبد والطحال[١٠] ، وعالجوا بالرمان[١١] .

---

١ ارشاد الساري (٣٥٦/٨) .

٢ تاج العروس (١٤٤/١٠) ، (رثى) .

٣ الطبري (٣٩٨/٢) ، النهاية لابن الاثير (٢٤٠/٤ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١٥٢/٧) ، (شوك) ، اللسان (٤٥٥/١٠) ، (شوك) .

٥ « الثوم : ويسمى ترياق البدو » ، شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٧٠) .

٦ The Bible Dictionary, I, p. 275.

٧ تاج العروس (٣٢٢/٩) ، (كمن) .
W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 330.

٨ تاج العروس (٣٢٢/٩) ، (كمن) .

٩ العقد الفريد (٢٧١/٦ وما بعدها) .

١٠ تاج العروس (١٥٤/٩) ، (التين) .

١١ تاج العروس (٢١٩/٩) ، (رمان) .

و (الحُلْبَةُ) من النبات الذي عولج به في أمراض كثيرة ، فعولج به أمراض الصدر مثل الربو والسعال والبلغم ،وعولج به الكبد والمثانة والبواسير وآلام الظهر . وذكر أن (الحلبة) طعام أهل اليمن عامة ، وبالغوا في فوائدهـا حتى رووا أن حديثاً ورد فيها : « لو يعلم الناس ما في الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً »[1] .

وتطيب بالسعوط والنشوق . وقد استعملوا لذلك جملة مواد ، منهـا : دهن الخردل ، ودهن البان ، والقسط الهندي والبحري ، وبالعود الهندي والكافور . وقد استخدم العـود الهندي في معالجة ذات الجنب[2] . ويرى بعض البـاحثين أن النشوق من أصـل آرامي هو (نسكو Nosko) من Nsk بمعنى أسال في شيء ، أي دواء يسكب في الأنف[3] . واستخدم (السُنبل) ، وهو نبات طيب الرائحة في التداوي كذلك ، ويعرف بـ (سنبل) في السريانية أيضاً[4] .

وذكر أن (السعوط) اسم الدواء يصب في الأنف . وذلك بأن يوضع الدواء في إناء يجعل فيه السعوط ويصب منـه في الأنف ويقال للإناء المِسعط والسعيط والمُسعط[5] . ويستعمل السعوط من مختلف الـدهون . وقد استعمل في مـداواة (العذرة) ، وهو وجع يأخذ الطفل في حلقه ، يهيج من الـدم أو في (الخرم) الذي هو بين الأنف والحلق ، وهو سقوط اللهاة . وقيل قرحة تخرج بين الأنف والحلق تعرض للصبيان غالباً عند طلوع العذرة.وهي خمس كواكب تحت الشعرى، أي العبور وتطلع وسط الحر[6] .

و (القسط) عود يجاء به من الهند ، فعرف لذلك بالقسط الهندي ، وعود يؤتى به من اليمن ، ويعرف بالقسط البحري . وعود عرف بـ (قسط أظفار) وقسط عرف بـ (القسط المر) وهو كثير ببلاد الشأم . ويقال للقسط (الكست) و (كشط) . وذكر ان الرسول أشار الى (القسط) فقال : « عليـكم بهذا العود الهندي ، فإن فيه سبعة أشفية : يستعط بـه من العذرة ويلدّ به من ذات

---

١ تاج العروس (٣١٢/٢) ، (طبعة الكويت) ، (٢٢٢/١) ، (حلب) .
٢ عمدة القارىء (٢٣٨/٢١ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٧٥/٦) ،
٣ غرائب اللغة (ص ٢٠٧) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٩) .
٥ اللسان (٣١٤/٧ وما بعدها) ، (سعط) .
٦ ارشاد الساري (٣٦٧/٨) .

الجنب[1] . وقد استعمل القسط بخوراً ودواء . وهو من نبات أصله من الهند ، يقال له (قسطس) ، وهو معروف عند غير العرب أيضاً ويداوى به[2] .

وعالجوا بـ (العيد) ، شجر جبلي ضمدوا بلحائه الجرح الطري فيلتئم[3] . وبـ (السنى) ، نبت يتداوى بـه . وقد جاء ذكره في الحديث . وقد خلطوه بالحنّاء لتقوية اللون وتسويده[4] . وداووا بـ (السعتر) (الصعتر)[5] ، وبالقرطم ، في معالجة أمراض عديدة[6] .

وقد كانت النساء تعالج الصبيان من العذرة بالغمز ، وذلك أن المرأة كانت تأخذ خرقة فتفتلها فتلاً شديداً وتدخلها في حلق الصبي وتعصر عليه ، فينفجر منه دم أسود وربما أقرحته[7] .

وعرف (الدرياق) (الترياق) في التطبيب به . استعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، والعرب تسمي الخمر (ترياقاً) و (درياقاً) لأنها تذهب بالهم . و (الترياق) ، فارسي معرب . ويقال درياق . بالدال أيضاً . « وفي الحديث إن في عجوة العالية ترياقاً . الترياق ما يستعمل لدفع السُم من الأدوية والمعاجين»[8].

والبلسم ، من المواد المهمة في المعالجات الطبية ، وقد اشتهر كثيراً في الطب القديم ، ليس عند العرب فقط ، ولكن عند أكثر الأمم الأخرى . اشتهر في معالجة الجروح خاصة ، اذ هو مادة صمغية تضمد بها الجراحات . ووطنه بلاد الحبشة ، واشتهر من أنواعه الجيدة (بلسم جلعاد) عند العبرانيين ، وهو ذو رائحة عطرة . وقد مدحه الأطباء وأثنوا عليه في معالجة الأمراض والجروح[9] .

وذكر علماء اللغة أن (البلسم) ، هو (البلسام) وهو البرسام ، والموم .

١ ارشاد الساري (٨/٣٦٧) ، اللسان (٧/٣٧٩) .
٢ غرائب اللغة (٢٦٥) .
٣ تاج العروس (٢/٤٣٨) ، (عود) .
٤ تاج العروس (١٠/١٨٥) ، (سنى) .
٥ تاج العروس (٣/٢٦٩) ، (السعتر) .
٦ تاج العروس (٩/٢٤) ، (قرطم) .
٧ ارشاد الساري (٨/٣٦٩) .
٨ اللسان (١٠/٣٢) ، (ترق) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٤٥) . Hastings, p. 872. f.

والبلنسم: القطران[١] . و (البلسم) هو (بلسمون) ، و (بلسان) Valsamon [٢].

وقد استعمل لحاء (العقد) لتضميد الجرح الطري ، فيلتحم لخاصية فيه[٣] :

وعالجوا بـ (البان) ، وهو شجر معروف ، ذكر في شعر (امرىء القيس)، ولحب ثمره دهن ، وحبّه نافـع للبرش ، والنمش ، والكلف ، والحصف ، والبهق ، والسعفة ، والجرب ، وتقشر الجلد ، واستعمل في الاسلام لمداواة أمراض عديدة [٤] .

و (السفوف) كل دواء يؤخذ غير معجون ، مثل سفوف حب الرمان وغيره[٥] . وترد اللفظة في الآرامية بالمعنى نفسه ، وهي من المعربات عنها [٦] .

واستعملت الزيوت في معالجة عدد من الأمراض والجروح،فاستعملت في معالجة البطنة مثلاً . وقد تخلط بغيرها،كالخمر أو الخل أو الملح،وقد تغلى ثم توضع على الجرح لقطع التزيف منه ولتعقيمه . والمعالجة بالزيوت ، قديمة معروفة عند المصريين والعبرانيين واليونان وغيرهم ، أشير اليها في كثير من الموارد القديمة [٧] . وعولج (الباسور) بدهنه بزيت الزيتون[٨] .

وعالجوا باستعمال (الحبّة السوداء) . استعملوها قليلاً ، وأكلاً ولطوخاً ، كما سحقوها وخلطوها بالزيت لاستعمالها قطرات في معالجة أمراض الأنف . وقد كانوا يبالغون في منافعها ، فاستعملوها في معالجة أمراض كثيرة باطنية وخارجية[٩] وذكروا أن الرسول قال : « إن هذه الحبّة السوداء شفـاء من كل داء ، إلاّ السام) ، والسام الموت[١٠] .

وعولج بالألبان ، ولا سيما ألبان الإبل . وهم يفضلون لبن الإبـل على سائر

---

١ تاج العروس (٨/٢٠٦) ، (بلسم) .
٢ غرائب اللغة (٢٥٥) .
٣ تاج العروس (٢/٤٢٧) ، (عقد) ، (٢/٤٣٨) ، (عود) .
٤ تاج العروس (٨/١٤٧) ، (بون) .
٥ تاج العروس (٦/١٣٩) ، (سف) .
٦ غرائب اللغة (١٨٧) .
٧ The Bible dicti., vol., II, p. 154.
٨ العقد الفريد (٦/٢٧٤) .
٩ عمدة القارىء (٢١/٢٣٥ وما بعدها) .
١٠ ارشاد الساري (٨/٣٦٥ وما بعدها) .

الألبان[1] . وقد عولج به مختلف الأمراض ، ومن ذلك (السقم)[2] .

وعالجوا بأبوال الإبل أيضاً . وورد في شعر (لبيد بن ربيعة العامري) أنهم عالجوا ببول الإبل ، وكانوا يغلونها أحياناً ليشربها المريض[3] .

وعولج بـ (التلبينة) ، حساء من نخالة ولبن وعسل ، وقيل حساء يتخذ من ماء النخالة فيه لبن . وذكر أنها تُجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن وتنظف المعدة[4] . وعالجوا بالحساء لغسل البطن وتنظيفها من سوء الهضم[5] .

وعولج بإهراق الماء على المريض ، وذلك في أمراض الحمى ، وفي الأمراض التي يشعر المريض بأن في جسمه حرارة والتهاباً ، فيجلس على كرسي ويصب الماء عليه ، حتى يخفف من شدة حرارة المريض[6] . كما عولجت الحمى بنصح المريض بالاكثار من شرب الماء البارد وغسل الأطراف[7] .

وللمحافظة على الأسنان ولظهورها بيضاء نظيفة ، استعملوا السواك وبعض الأعواد لاستخراج الفضلات التي تتخلل الأسنان ، وما زال الحجاج يستوردون المساويك من مكة . وقد اشتهرت مكة منذ الجاهلية بالسواك ، يستخرج من أغصان أشجار تنبت هناك ، لأغصانها رائحة طيبة ، وتساعد على تبييض الأسنان . ومن المواد التي عملت منها المساويك : البشام ، والضرو ، والعتم ، والأراك ، والعرجون ، والجريد ، والإسحل[8] .

وقد حث الاسلام على تنظيف الأسنان بالمسواك . ورد في الحديث : « السواك مطهرة للفم » أي يطهر الفم . وأشير الى المسواك في الشعر ، إذ ورد :

وكأن طعم الزنجبيل ولذة صهباء ساك بها المسحر فاها

---

١ عمدة القاري (٢١/٢٣٤ وما بعدها) .
٢ ارشاد الساري (٨/٣٦٤) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١١٦) ، عمدة القاري (٢١/٢٣٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٨/٣٦٤ وما بعدها) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٣٧٦) ، (لبن) .
٥ ارشاد الساري (٨/٣٦٦ وما بعدها) .
٦ ارشاد الساري (٨/٣٧٧) .
٧ ارشاد الساري (٨/٣٨١) .
٨ البيان (٣/١١٤) .

وهو للشاعر (عدي بن الرقاع) ، وورد في شعر آخر :

إذا أخذت مسواكها ميحت به رضاباً كطعم الزنجبيل المعسل[1]

واستعمل الإثمد والكحل في معالجة الرمد[2] ، كما استعملوا قطرات من أدوية استحضروها مثل ماء الكمأة في معالجة أمراض العين[3] . وذكر ان الإثمد يحد البصر ، ويقوي النظر[4] .

والكحل ، من جملة مواد تطبيب العيون ، ومن جملة وسائل الزينة كذلك . يستعمله الرجال والنساء . وقد كان معروفاً عند الشعوب الأخرى ، يصنع من حرق اللبان أو قشور اللوز ،ومن السخام المتبقي من حرق بعض الدهون والزيوت[5]. وقد عرفت مكة بصنع الكحل قبل الإسلام ، ولا تزال مشهورة به . وقد كان الناس يحملون المكاحل في جيوبهم ويحتفظون بها في بيوتهم ، يعملونها من القرون أو المعادن ، ويبالغ الأغنياء منهم في زخرفتها وفي تزيينها للتبجح بها عند اخراجها أمام الناس[6] .

ونصحوا بتنقيط نقط من ماء بارد في العين عند النهوض من النوم ، لجلائها وإزالة الغشاوة عنها ، كما نصحوا بوضع القدمين واليدين في ماء بارد أو حار ، وذلك لمعالجة العين ، ولمعالجة القدمين واليدين أيضاً . وقد عرف العبرانيون هذه المعالجة كذلك[7] .

وكانوا يعالجون الماء الأسود الذي يحدث في العين بالنقب ، أي القدح . وقد ورد في حديث (أبي بكر) أنه اشتكى عينه فكره أن ينقبها[8] . و (الناقب)

---

١ تاج العروس (١٤٦/٧) ، (سوك) .
٢ عمدة القارىء (٢٤٥/٢١) ، ارشاد الساري (٣٧٣/٨) .
٣ عمدة القارىء (٢٤٨/٢١) ، « ان الكمأة من اكمن ، وماؤها شفاء للعين ، وهي شفاء من السم » ، العقد الفريد (٢٧٢/٦) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ٢٦١) ، « عليكم بالاثمد عند النوم ، فانه يحد البصر ، وينبت الشعر » العقد الفريد (٢٧٣/٦) .
٥ The Bible dictio., vol., II, p. 234.
٦ Hastings, Dict., vol., I, p. 814.
٧ Ency. of Relig. knowledge, vol., III, p. 1456.
٨ تاج العروس (٤٩٣/١) (نقب) .

و (الناقبة) داء يعرض للإنسان من طول الضجعة ، وقيل هي القرحة التي تخرج بالجنب[1] . وعالجوا الماء الأبيض باستعمال الأشياء الرفيعة الحادة مثل السكين أو العاقول ، لرفع الغشاء الرقيق وسحبه عن للعين ، بعد اكتمال نزول الماء بها .

ولقطع نزيف الدم المنبعث من الجروح ، استعملوا الرماد[2] ، والزيوت المغلية تسكب على الجرح ، لقطع نزيف الدم . أما النزيف النازل من الأنف ، وهو الرعاف ، فقد استخدموا الماء البارد لقطعه . وقد عرفوا كذلك ربط الجروح بشدة حتى يقف الدم فينقطع ، واستعملوا الضماد والمناديل لمنع الدم من الخروج ، ومن ذلك قولهم : ضمد الجرح ، أي شده[3] . واستعملوا حرق الحصير والمواد القابلة للاشتعال لاستعمال رمادها لقطع النزيف[4] ، أو وضع الملح على الجرح لايقاف نزيف الدم منه . ولمعرفة عمق الجروح ومقدار غورها ، استعملوا آلة يسمونها المسبار[5] . والسِّبار[6] ، فتيل يجعل في الجرح[7] . ويعبرون عن مداواة الجرح بقولهم أسا الجُرحَ ، أي داواه وشفاه[8] .

وقد عولج الإمساك بالحقن ، أي حقن المريض ، وباستعمال المسهلات لتليين المعدة[9] .

والباسور من الأمراض المعروفة عند الجاهليين ، وقد أشير اليه في كتب الحديث[10] . « وفي حديث عمران بن حصين ، وكان مبسوراً ، أي به بواسير » . واللفظة معربة . والبواسير جمع (باسور)[11] . والناسور علة تحدث في حوالى المقعدة ، وعلة تحدث في المآقي ، وفي اللثة[12] .

---

١ تاج العروس (١/٤٩٣) ، (نقب) .
٢ عمدة القارىء (٢١/٢٥٣) ، صحيح مسلم (٥/١٧٨) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٤ ارشاد الساري (٨/٣٨٠) .
٥ المغرب (٢٤٠) .
٦ ككتاب ، المعاني الكبير (٢/٩٨٣) .
٧ شرح القاموس (٣/٢٥٣) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ المغرب (١٣٣) ، تاج العروس (٩/١٨٢) ، (حقن) .
١٠ صحيح البخاري (٢/٤٨١) ، الجمهرة (١/٢٥٥) ، المعرب للجواليقي (٥٨) .
١١ تاج العروس (٣/٤٢) ، (بسر) .
١٢ تاج العروس (٣/٥٦٤) ، (نسر) .

وعولجت الأورام التي تصيب الجلد بالمناقيع واللصقات ، ولا سيما اللصقات الحارة ، كي تعجل في اخراج الصديد من العضو المتورم . واستعملت هذه اللصقات من سحق بعض الحبوب ذات المادة الدهنية ، مثل حب الكتان أو حب البخور ، وبعد سحقها توضع على النار ثم تفرغ في قماش لتوضع فوق الورم لازالته ، وتحويله الى صديد . واستعملت من مواد أخرى مثل التمر مع الزبد وأمثالها ، وكلها على أساس ان الدفء الذي يكون فيها يسبب زوال الورم وتحوّل الدم الفاسد الى صديد يخرج أو يجف .

واستعمل (الزقوم) في معالجة الجروح . وهو مرّ شديد المرارة ، وأشير الى (شجرة الزقوم) و (شجر من زقوم) في القرآن الكريم[1] ، ولما نزلت الآية لم تعرف قريش معنى الكلمة ، « فقال أبو جهل : إن هذا الشجر ما ينبت في بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم ؟ فقال رجل قدم عليهم من أفريقية : الزقوم بلغة أفريقية : الزبد بالتمر . فقال أبو جهل : يا جارية هاتي لنا زبداً وتمراً نزدقه ، فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد في الآخرة ! »[2] . والزقوم نبات بالبادية له زهر ياسميني الشكل . وقيل شجرة غبراء صغيرة الورق مدورتها لا شوك لها ذفرة مرة لها كعابر في سوقها كثيرة ولها وريد ضعيف جداً يجرسه النحل ونورتها بيضاء ورأس ورقها قبيح جداً . وفي أريحا شجرة يقال لها الزقوم لها ثمر كالتمر حلو عفص ، ولنواه دهن عظيم المنافع في تحليل الرياح الباردة وأمراض البلغم وأوجاع المفاصل والنقرس وعرق النسا ، وذكر أن أصلها من الهند ، جاءت به بنو أمية من أرض الهند وزرعته بأريحا[3] .

وعولجت كسور العظام بالجبائر ، وبالدلك ، ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر ، والجبيرة : العيدان التي تجبر بها العظام ، وذلك بعد جبر المجبر لها[4] .

ومن المصطلحات الطبية المتعارفة عند الجاهليين : (البطنة) ، وهي التخمة .

---

١ الصافات ، الآية ٦٢ ، الدخان ، الآية ٤٣ ، الواقعة ، الآية ٥٢ .
٢ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٣ تاج العروس (٣٢٦/٨) ، (زقم) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٧) .

وتعالج بالحمية وبالمنتقعات والحقن . وقد عرف الجاهليون أثر المعـدة في الصحة العامة ، فعُدّت بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

والأمراض التي تعرض لها الجاهليون عديدة ، منهـا : العمى ، والعوّر ، والتهاب العيون ، والرمد ، ومنها : ما يصيب الجلد ، مثل البرص والوضح ، والبهق ، والحكة ، والدمامل ، والبثور ، والجرب ، والقرح ، ومنها أمراض داخلية ، مثل أوجاع المعدة والكبد واليرّقان والصداع والشقيقة ، وذات الجنب وأوجاع المفاصل والعظام ، والفالج ، والسل ، والحمى ، وأمراض أجهزة البول والحمى والبُرَداء . وأمراض القلب والرعشة والجنون والأمراض العصبية الأخرى وغير ذلك من أمراض لا تزال معروفة .

ومن الأمراض المعروفة عند الجاهليين البرص ، وهو مرض يصيب الجلد ، وهو غير الجذام ويطلقون عليه (الوضح) كذلك ، لبياض يظهر في ظاهر البدن [1] ومنه قيل لجذيمة الأبرش جذيمة الوضاح[2] . وقد كان معروفاً في الشرق الأدنى ، وأشير اليه في التوراة ، وهو نوع من (البسورياس) Psoriasis أو (اللبرا) Lepra, Leprosy[3] . ويظهر انه كان كثير الانتشار ، وممـن أصيب به (الحرث ابن حلزة اليشكري)[4] ، وجماعة آخرون من الأشراف والمعروفين ذكـرهم أهل الأخبار[5] .

وقد نعت البرص ببعض النعوت،فقيل لمن به برص (المحجل)[6]،و (الوضاح)، و (الوضح) البرص . وقد كان الناس يكرهون مجالسة البُرْص خشية العدوى ، فكان الملك (عمرو بن هند) يتجنب مؤاكلة البُرص ، ويأمر بنضح الأمكنـة التي يجلسون عليها حذر العدوى[7] . وكانت قريش قد أخرجت (أبا عزة ، عمرو

---

١ تاج العروس (٤/٣٧٣) .
٢ « ويكنى به عن البرص ، ومنه قيل لجذيمة الابرش : الوضاح. وسيأتي الكلام عليه وفي الحديث : رجل بكفه وضح ، أي برص » تاج العروس (٢/٢٤٧) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٢٢٠ وما بعدها) ،
The Univer. Jewish Ency., 7, p. 434.
٤ شرح المعلقات السبع ، للزوزني « دار صادر » (ص ١٥٤) .
٥ المحبر (ص ٢٩٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (ص ٣٠١) .
٧ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٥٤) .

ابن عبدالله بن عمـــير بن وهيب بن حذافة) ، وهو من البُرص ، من مكة مخافة العدوى ، فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل بالشجر [1] .

وأما الجذام ، فإنه من الأمراض المعدية ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وقد ورد النهي عن الاختلاط بالمجذومين في حديث : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » مما يدل عــلى شدة عدواه واختلاط المجذومين بين الناس في ذلك العهد . وذكر علماء اللغة أن الجذام علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها ، وربمــا انتهى الى تقطع الأعضاء وسقوطها عن تقرح [2] .

و (البهق) ، هو مرض جلدي أيضاً ، يترك بياضاً في الموضع المصاب من الجسد ، وهو (زرعة) في العبرانية . ويدعى Laprosy [3] .

وقد كانت أمراض الجلد من الأمراض المتفشية بالنسبة الى تلك الأزمنة ، لقلة العناية الطبية وللفقر وعدم توفر وسائل النظافة والتنظيف بين معظم الناس . ولسوء تغذيتهم بسبب فقرهم العام .

و (السفعة) من أمراض الجلد ، وهي سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة ، تظهر في الوجه . وقد علل حدوثها بإصابة العين [4] . والثؤلول ، بثر صغير صلب على صور شتى تصيب الجسد [5] . وقـد مات (أبو سفيان بن الحارث بن عبــد المطلب) من ثؤلول كان برأسه ، حلقه حلاق فقطعه فمات منه [6] .

ومن الأمراض الخطيرة التي أشير اليها في كتب الحديث والأخبار : الحمى ، وقد كانت شديدة الانتشار في المدينة [7] ، حتى أضعفت أجسام معظم أهل المدينة والمهاجرين . وهي علة يستحر بها الجسم . وقد أهلكت كثيراً من الناس، ولذلك

---

١ المحبر (ص ٣٠٠ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢٢٣/٨) ، تفسير الطبري (٢٠٠/٣٠) .
٣ Hastings, A Dictionary of Chirst and The Gospels, II, p. 24.
٤ ارشاد الساري (٣٩٠/٨) .
٥ تاج العروس (٢٤٣/٧) ، (تثالل) .
٦ الاصابة (٩٠/٤) ، (رقم ٥٣٨) .
٧ « والحمى والحمة : علة يستحر بها الجسم من الحمم ، قيــل سميت لما فيهــا من الحرارة المفرطة ، ومنه الحديث : الحمى من فيح جهنم » ، تاج العروس (٢٦١/٨) (حمــم) .

قيل : الحُمى رائد الموت ، أو بريد الموت ، وقيـل : باب الموت[1] . وقد اشتهرت خيبر بنوع خاص من الحمى عرف باسمها ، فقيل : حمى خيبرية وحمى خيبر وحمى خيبري[2] . وذكر علماء اللغة أسماء للحمى تحكي صفاتها وكيفية ظهورها وتحكمها في البدن ، فقالوا : حمى الغب ، وذلك اذا أخذت المريض يوماً وتركته يوماً[3] ، وحمى الربع ، وحمى الصالب ، وهي الحمى التي يكون معها صداع ، والنافض ، والراجف التي تكون معها رعدة ونفضة ، وحمى مغبطة ومردمة ، أي دائمة عليه لا تقلع ، وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ، والوعك الحمى ، وحمى الروح ، وحمى الدق أن يغمى عليه في الحمى ، والورد هو يوم الحمى . ويقال للعرق الذي يتصبب من الحمى : الرُحَضاء ، ولأول ما يحس بالحمى : المسّى[4] . ويقال في السريانية للحمى (حمتو) Hemto بمعنى حرارة[5] .

وذكر أن (حمى صالب) ، أو (الصالب) حمى معها حر شديد وليس معها برد . وقال بعض علماء اللغة : الصالب من الحمى الحارة خلاف النافض . وقيل هي التي فيها رعدة وقشعريرة[6] . و (الحمة) في تعريف العلماء علة يستحر بها الجسم ، سميت لما فيها من الحرارة المفرطة ، وإما لما يعرض فيها من الحميم ، وهو العرق . وورد في الحديث : الحمى من فيح جهنم[7] .

وقد لاقى الرسول[8] والصحابة شدة من (حمى) المدينة ، وقد ذكر أن (أبا بكر) كان إذا أصابته الحمى — وكانت تزوره مناوبة — قال :

كل امرىء مصبح في أهلـه   والموت أدنى من شراك نعله

---

١ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .
٢ « قال الشاعر الاخنس بن شهاب :
كما اعتاد محموما بخيبر صالب » تاج العروس (٣/١٦٩) .
٣ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .
٦ تاج العروس (١/٣٣٨) ، (صلب) .
٧ تاج العروس (٨/٢٦١) ، (حمم) .
٨ ارشاد الساري (٨/٣٤٩ وما بعدها) .

وكان بلال ، إذا أقلعت عنه الحمى ، يقول :

ألا ليتَ شعري هل أبيتن ليلة بــواد وحولي اذخر وجليــل
وهــل أردن يوماً ميــاه مجنة وهــل تبدون لي شامة وطفيــل

وكان عامر بن فهيرة ، يقول :

قد وجدت الموت قبــل ذوقه كــل امرىء مجاهد بطوقــه
كالثور يحمي جسمه بروقه[1]

الى غير ذلك مما يخبر عن شدة وقع تلك الحمى في أجساد المهاجرين ، ولما رأى الرسول ما حلَّ بصحابته من هذه الحمى ومن ضجرهم من الإقامة بيثرب بسببهــا توسل الى الله أن يخفف عنهم أذاها وأن يزيل عنها هــذا المرض و يبرأها منه[2] .

ويقسم العرب الحمى الى نوعين : حمى يشعر الانسان فيها بحرارة شديدة تصيب الجسم ، قد تجعله يتصبب عرقاً من شدة وقع الحمى على الجسم ، ولا يكون معها برد ، وقد يصاب المريض بها بصداع ووجــع شديد في الرأس ، وحمى يشعر الانسان فيها بنفضة ورعدة وقشعريرة ، يقال لهــا (نافض) و (النافض) و (حمى نافض)[3] ، وهي حمى الرعدة ، لوجود رعــدة وقشعريرة بها تصيب الجسم[4] . ويقول العرب لقرة الحمى ومسها في أول ،عدتها (العرواء) ، وقد أول ما تأخذ من الرعدة[5] . ويقال لهذه الحمى (الراجف) ، لأنها ذات رعدة ترجف مفاصل من هي به[6] . و (القعقاع) ، وهي حمى نافض تقعقع الأضراس[7] و (القفة)[8] .

---

١ ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٢ « اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » ارشاد الساري (٣٤٧/٨) .
٣ تاج العروس (٩٢/٥) ، (نفض) .
٤ تاج العروس (٣٥٤/٢) ، (رعد) .
٥ تاج العروس (٢٣٩/١٠) ، (عرى) .
٦ تاج العروس (١١٣/٦) ، (رجف) .
٧ تاج العروس (٤٧٧/٥) ، (قع) .
٨ تاج العروس (٢٢٥/٦) ، (قف) .

وقد كانت الحمى منتشرة في المواضع التي تكون فيها الينابيع والمستنقعات والمياه الآسنة الواقفة وما شاكل ذلك من أمكنة ، ولما كان العرب في حاجة شديدة الى الماء ، كانوا يشربون منها اضطراراً ، فأصيبوا بسبب ذلك بأنواع من الأمراض : وقد كانت وسائل مقاومة البعوض الناقل للحمى غير معروفة ، كما ان وسائل العناية بالصحة وتنظيف الجسم لم تكن متوفرة عندهم بسبب فقر أكثرهم ، لذلك صارت أجسامهم معرضة لمختلف الأمراض ، ولا سيما بين أهل المدر الذين لم تكن بيوتهم صحية ، ولا مياههم نقية ، وكانت بيوتهم ضيقة غير صحية ، فكانوا يصابون بالسل وبالأمراض الأخرى ، أكثر من الأعراب المتباعدين في السكن ، والذين لا يعرفون البعوض ، ويستنشقون الهواء النقي ، وتقيهم الشمس من شر الجراثيم .

والذبحة ، وهي داء يأخذ بالحلق ، وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، وكانوا يعالجونها بالكي . ذكر أن الرسول كوى (أسعد بن زرارة) في حلقه من (الذبحة) ، وقيل (الشوكة)[1] . وأنه عاد (البراء بن معرور) ، وأخذته الذبحة ، فأمر من لعطه بالنار[2] :

وقد أشير الى مرض عرف بـ (خبط) في نصوص المسند ، وقد فسر أنه برد شديد في الرأس[3] .

وقد كانت الأوبئة تفتك بالناس فتكاً ، فكان الأغنياء والموسرون يفرون من الأماكن المزدحمة الى أماكن بعيدة ، ويلجأون إلى الصحارى ابتعاداً عن المصابين بها . وكانوا يرجعون أسبابها وأسباب الأمراض عموماً الى غضب الآلهة على الناس ، والى أرواح شريرة تصيب الجسم من الأكل والشرب ، والى أنواع من الهوام والحشرات . ومن أشهر أنواع هذه الأوبئة الطاعون والجدري والهيضة .

والطاعون المرض العام والوباء ، وقد أشير اليه في كتب الحديث . ويظهر انه كان منتشراً معروفاً في الحجاز وفي سائر أنحاء جزيرة العرب آنئذ[4] . وقد جعل

---

١ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) ، الاصابة (١/٥٠) ، (رقم ١١١) .
٢ اللسان (٢/٤٣٨) ، (ذبح) .
٣ Mahram, p. 437.
٤ تاج العروس (٩/٢٦٩) ، « طاعون عمواس » في أيام عمر ، ارشاد الساري (٨/٤٨٣ وما بعدها) .

بعض العلماء الطاعون نوعاً من أنواع الوباء ، وفرّق بينهما بعض علماء اللغة ، وجعلوا الوباء المرض العام عامة ، مهما كان ، مثل انتشار الحمى والجُدَري والطاعون والنزلات والحكه والأورام . وقد ذُكرت الأوبئة في كتب الحديث[1] . و (الدبل) الطاعون[2] .

ونسب الجاهليون حدوث الطاعون الى (وخز الجن) ، فهو يقع لأن الجن تطعن الشخص وتخزه فيصاب بالطاعون . وقد أشار الى هذا الرأي (حسان بن ثابت) ، أشار اليه في أثناء حديثه عن أعاصير نزلت بـ (بصرى) وبـ (رمح) وعن (دخان نار) ، حتى أثرت في كل قصر ومنزل في ذينك المكانين ، ثم أعقب ذلك (وخز جن بأرض الروم)[3] ، أي بلاد الشأم وفيها المكانان المذكوران إذ كانت تحت حكم الروم ، كما أشار الى هذه الفكرة شاعر آخر اسمه (الغساني)[4] .

ونجد في كتابات المسند إشارات الى أوبئة تكتسح البلاد فتفني عدداً كبيراً من الناس . فنجد فيها أن فلاناً يحمد آلهته لأنها منت عليه بالعافية وأنقذته من الوباء الذي تفشى في أيامه فأهلك الناس.وقد كان القدراء من الناس يهربون من الأرضين الموبوءة إلى أرضين أخرى بعيدة سالمة ليتخلصوا من الوباء . ونجد في الكتابة الموسومة بـ (CIH 343) رجلاً اسمه (يحمد) يشكر إلهه (تألب ريام) ، لأنه منّ عليه بالعافية وشفاه من المرض الذي نزل به في وباء انتشر فيما بين (هوزن) (هوازن) (هوزان) و (سهرتن) (سهرت) . وقد كانت الأوبئة تكتسح المناطق الواقعة عند قواعد الجبال وفي المناطق الحارة الرطبة ، ولا سيما التهائم . وتقع (هوزن) (هرزان) (هوازن) عند مرتفعات (حراز)[5] .

وقد كانت الحروب من المصادر التي غذت العربية الجنوبية بمادة دسمة من الأوبئة . فقد كانت تأتي على عدد كبير من الناس ، فتتركهم جثثاً تتعفن على ظاهر الأرض ، كما كانت تأتي على مواطن السكن ومواضع المياه وتأتي على كل

---

١ شرح القاموس (١/١٣٠) .
٢ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .
٣ فأعجل القوم عن حاجاتهم شغل من وخز جن بأرض الروم منكور
البرقوقي (ص ٢١٩) .
٤ البرقوقي (ص ٢١٩) ، ديوان حسان (ص ٧٩) « هرشفلد » .
٥ Beiträge, S. 119.

ما يملكه الناس ، وتزيد في مشكلة الفقر مشكلة ، وتبعد النـــاس عن النظافة ، فتهيىء بذلك للأوبئة أمكنة جيدة ، لتلعب بها كيف تشاء . ودليل ذلك ما نجده في كتابات المسند من اشارات الى أمراض وأوبئة تعم المناطق المنكوبة بالحروب ، حيث تكتسح من الأحياء ، ما لم يتمكن السيف من اكتساحه منهم .

وذكر الأخباريون نوعاً من البثور يخرج بالبدن ، دعوه : العـدسة ، عرفوه أنه : بثرة صغيرة شبيهة بالعدسة ، تخرج بالبدن مفرقة ، كالطاعون ، فتقتـــل غالباً ، وقلما يسلم منها . وقد رمي بها أبو لهب فمات . والظاهر أن هذا المرض كان منتشراً بمكة ، فقد روي أن قريشاً كانت تتقي العدسة ، وتخاف عدواها[1].

وقد كان الجاهليـــون يعرفون عدوى بعض الأمراض ، فكانوا يتجنبونها ولا يقتربون من المريض المصاب بها ، ويطلقون عليها العدوى[2] ، فكانوا إذا أصيبوا بأوبئة ، فرّوا الى أماكن بعيدة سليمة تهرباً منها ، وحجروا على المريض ، لئلا يقرب منهم ، فينتقل المرض اليهم . وذلك لما كانت الجاهلية تعتقـــده في بعض الأمراض من أنها تعدي بطبعها ، مثل الجذام[3] .

والحصبة ، من الأمراض المعروفة عند الجاهليين[4] . وكذلك الجُدَري . وقد ذكر بعض الأخباريين أن أول جدري ظهر هو ما أصيب به أبرهة[5]. وهو قول من هذه الأقوال المعروفة عند الأخباريين ، فالجدري من الأمراض القديمة المعروفة عند الجاهليين قبل أبرهة بزمان .

وذكر ان العرب عالجت الحصبة والجدري بمَرار الشجر ، وبالحنظل والحرمل[6].

و (السل) من الأمراض المعروفة بين الجاهليين . ذكر بعض أهل الأخبار انه عرف بـ (داء الياس) ، لأن (الياس بن مضر) أول من مات من السل ، فسمي بذلك ، وسمي بـ (ياس)[7] .

---

١ تاج العروس (٤/١٨٦) ، الاشتقاق (ص ١٤٣) .
٢ شرح القاموس (١٠/٢٣٤) .
٣ ارشاد الساري (٨/٣٧٣) .
٤ شرح القاموس (١/٢١٤) .
٥ شرح القاموس (٣/٨٩) .
٦ الاشتقاق (ص ١٠١) .
٧ الروض الانف (١/٧) ، تاج العروس (٧/٣٧٨) ، (سلل) .

ومن العلل : البرقان ، والصداع ، و (الشقيقة) ، وهو وجع يكون في شق الرأس ، و (السعال) وجع في الصدر ، والزكام ، والزحير ، والحصر وهو انقباض البطن ، والأسر وهو احتباس البول والحصى في مجرى البول، والحكة ، والحصف ، والحمرة ، والشرى ، والحماق ، والقُوَباء ، والثؤلول ، والعُرّ وهو الجرب الأبيض ، وداء الثعلب ويصيب الشعر ، وداء الفيل ويعتري الرجلين، والدّوّار ، والهيفة ، وتسمى الفضجة ، والنملة ، وهي بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، وتسمى أيضاً الذباب ، والجنون والخدر ، والفالج، والحزاز وهي القشرة التي تصيب الرأس ، والحدبة ، والطرش ، والطلق ، والجشاء ، والباسور ، والناسور ، والبهق ، والكلف ، والمغس ، والمغص ، والاستسقاء ، والإغماء ، والاختلاج ، والبخر ، والفواق ، والجشاءة ، والقلس[1] .

وعرفت القُوَباء بأنها الحزازة ، وذكر أنه كانت بوجه أبيض بن حمال بن مرثد بن ذي لحيان المأربي السَّبَئي حزازة ، توسعت فالتقمت أنفه[2] . والقوباء هو الذي يظهر في الجسد ويخرج عليه ، يتقشر ويتسع ، يزعمون أنه يعالج بالريق . وقالوا :

يا عجباً لهذه الفليقة هل تغلبن القوباء بالريقة [3]

ودم الملوك ، دواء ينفع ويفيد في معالجة من يعضه كلب كَلِب في نظر الجاهليين . فإذا أصيب إنسان بداء الكلب ، فشفاؤه بمعالجته بدم الملوك . وقد عرفه (ابن دريد) بقوله : « والكَلَب داء يصيب الناس والإبل شبيه بالجنون. وكانت العرب في الجاهلية إذا أصاب الرجلَ الكَلَبُ ، قطروا له دم رجل من بني ماء السماء ، وهو عامر بن ثعلبة الأزدي ، فيسقى ، فكان يشفى منه . قال الشاعر : دماؤهُمُ من الكلب الشفاء »[4] .

وكانوا إذا خافوا على المرأة الحامل ، ووجدوا أن ولدها ميْت في بطنها ،

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٣٩ وما بعدها) .

٢ الاصابة (١/١٧) .

٣ تاج العروس (١/٤٤١) ، (قوب) .

٤ الاشتقاق (ص ١٤) .

استخرجوه منها . وجوّزوا قيام الرجل بذلك . وعبّروا عن ذلك بـ (السطو)[1] .

ويلعب التطبيب بالسحر والرقي والتعويذ دوراً خطيراً في حياة الجاهليين ، كما يظهر ذلك من الأخبار الواردة في كتب الحديث والأدب ، حتى عدّ السحر نوعاً من الطب[2] . وقد منع الاسلام أكثرها وحرمها ، ومع ذلك بقيت حية مستعملة بين الأعراب والجهلة من أهل القرى الذين لا تساعدهم أحوالهم المعاشية على مراجعة الأطباء . ويقوم هذا التطبيب على التأثير في المريض ، واستعمال بعض الخرز أو عظام بعض الحيوانات والسحر ، بحجة وجود علاقة بين المرض والأرواح ، وأن هذا النوع من التطبيب يطرد الروح الخبيثة التي تدخل الجسم فتصيبه بالمرض من ذلك الجسم . وهذا الرأي في المرض ، رأي شرقي قديم ، سيطر على كل الشعوب القديمة . فقد كان في رأي الأطباء ، أن المرض روح شريرة تستولي على الجسم المريض بدخولها فيه ، وان واجب الطبيب العمل بعلمه وبفنه لاخراج الروح الشريرة من الجسم[3] .

وفي جملة الوسائل التي استعملت لمكافحة المرض والتغلب على الأرواح الشريرة أو النظر ، أي إصابة الانسان بالعين من حاسد تصيب عينه إصابة مؤذية ، الاستعانة بالرقي والتعاويذ . وقد كان العبرانيون يطلقون على التعاويذ لفظة (حرط)[4] ، وهي أنواع ، بعضها على هيأة قلب يعلق بسلسلة في العنق ، ويتهدل القلب الى الصدر ، فيكون من جملة وسائل الزينــة ، وبعضها يربط بالعضد وفي مواضع أخرى من الجسم .

ولم يقتصر الجاهليون في اتخاذ هذه الوسائل على حماية أنفسهم فقط ، بل اتخذوها لحماية ما يملكونه أيضاً من حيوان وزرع وملك ، فعلقوا العظام أو المعادن أو نعل الحيوان مثل نعل الفرس ، ورسموا العين واليد على الجدر وفوق الأبواب ، لحمايتها من العيون المؤذية ومن حسد الحاسدين ، ولا يزال الناس يستعملونها لحماية أنفسهم ومقتنياتهم من الاصابة بأذى العين وبحسد الحاسدين .

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٧) ، (سطا) .
٢ عمدة القارىء (٢١/٢٦٣ وما بعدها) شرح القاموس (١/٣٥١) .
٣ A. Jeremias, Altorientalische Geisteskultur, S. 55. ff., The Universal Jewish Ency., Vol., 7 pp. 434.
٤ Hastings Dict., Vol. I, p.88.

والجنون وسائر الأمراض العصبية معروفة بين الجاهليين أيضاً ، وهم يعدونها من الأمراض التي تحدث للإنسان بسبب دخول الجنون والشياطين في جسد الانسان فتتملكه ، ولا يمكن شفاء من أصابه مس من الجنون أو لوثة في العقل ، إلا بإخراج الأرواح المسيطرة على المريض من جسده. ولذلك كان علاج هذه الأمراض من واجب الكهان والسحرة في الغالب ، بسبب كونها أمراضاً لم تقع من آفة في الجسد ، وإنما وقعت من عارض خارجي ، هو دخول الأرواح الى الأجساد ، ومهمة اخراج تلك الأرواح من وظائف المذكورين .

وقد عالج العرب الجنون والخبل بشرب دماء من دماء الملوك . ومن أقوالهم: دماء الملوك شفاء من عضة الكلب الكَلِب والجنون والخبل . ومعالجة داء الكلب، بلعق دم الملوك أو الأشراف من الأدوية المشهورة عند الجاهليين في مداواة هذا المرض . ونسب الى (الخليل بن أحمد) « أنه قال : دواء عضة الكَلْب الكَلِب الذراريح والعدس والشراب العتيق . وقد ذكر كيف صَنعته وكم يُشرب منه وكيف يتعالج به »[1] . وذكر أهل الأخبار أن (الأسود بن أوس بن الحُمرة) أتى (النجاشي) فعلّمه دواء الكَلَب ، وقد ورث ولده هذا الدواء . ومن ولده (المحل) . وقد داوى (عتيبة بن مِرداس) فأخرج منه مثل جراء الكلب[2] . و (الأسود بن أوس) ، هو من (بني الحمرة) ، وهم من (ثعلبة بن يربوع) . وقد ذكر (ابن دريد) ، أن (الأسود بن أوس) تعلم من (النجاشي) ، دواء الكلب ، وأن نسله يداوون به العرب الى اليوم ، أي الى يومه ، وقد صار منهم اليوم الى (بني المحل) ، فهو فيهم أيضاً[3] .

وقد ظن الجاهليون ان النوم يؤدي الى امتداد السم في جسد اللديغ ، فكانوا يعلقون الجلاجل والحلى على اللديغ ثم تحرك لئلا ينام فيدب السم في جسده[4] . ويقولون انه اذا علق عليه أفاق ، فيلقون عليه الأسورة والرُعاث ، ويتركونها عليه سبعة أيام ويمنع من النوم . قال النابغة :

---

١ عيون الاخبار (٧٩/٢) .

٢ عيون الاخبار (٨٠/٢) .

٣ الاشتقاق (١٣٨) .

٤ المعاني الكبير (١٠٠٨/٢) .

يسهد في وقت العشاء سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع[1]

وفي جملة ما داووا به الخدر الذي يصيب الرجل ، انهم كانوا يذكرون أحب الناس الى الشخص ، فيذهب الخدر عنه[2] .

وزعموا انه اذا ظهرت بشفة الغلام بثور ، يأخذ منخلاً على رأسه ويمر بين بيوت الحي ، وينادي : الحلأ الحلأ ، فيلقى في منخله من ها هنا تمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثم بضعة لحم ، فإذا امتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثر ، وذلك البثر يسمى : الحلأ[3] .

وإذا أراد أحدهم دخول قرية ، فخاف وباءها ، أو جنها ، فله سبيل سهل يحميه ويقيه ، هو أن يقف على باب القرية والموضع الذي يريد دخوله ، ثم ينهق نهيق الحمار، ثم يعلق عليه كعب أرنب ، فيدخل عندئذ الموضع دون خوف . فقد فعل ما يتقي به الأذى والسوء . ويسمون ذلك التعشير . قال عروة بن الورد:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع[4]

واذا أردت المرأة المقلاة أن يعيش ولدها ، ففي إمكانها ذلك اذا تخطت القتيل الشريف سبع مرات، وعندئذ يعيش ولدها . وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر[5]

والجاهليون ، مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، وفي جملتهم العبرانيون ، كانوا يرون أن الأمراض هي غضب يسلطه الآلهة على الانسان لتنتقم منه ، لسبب ما ، مثل عدم قيام المريض بواجباته تجاهها ، ولهذا كانوا يسرعون بتقديم النذور والقرابين اليها ترضية لها . ويرد المرض اليهم ، بتسلط الهوام وبعض الديدان والأرواح الشريرة على الانسان ، فتصيبه بالمرض . ولهذا كان الطب من واجب

---

١ نهاية الارب (٣/١٢٤) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٣ نهاية الارب (٣/١٢٥) .
٤ نهاية الارب (٣/١٢٥) ، بلوغ الارب (٢/٣١٥) .
٥ نهاية الارب (٣/١٢٤) .

الكهان ورجال الدين بالدرجة الأولى ، هم يداوون المريض ويعطونــه الوصفات التي يعتقدون أن فيها الشفاء للمريض ، كما كانوا يعتقدون بالنظر ، أي بإصابة الإنسان ، فيلحقه المرض[1] .

وقد مارس التطبيب بين العرب المبشرون ، وذلك بعد الميلاد بالطبع،وأكثرهم من الأعاجم ، وكانوا قد درسوا الطب وتعلموه على الطريقة اليونانية في الغالب ، فلما أرسلوا الى بلاد العرب أو جاءوا هم أنفسهم للتبشير ، مارسوا تطبيب المرضى ، وقد شفوا جماعة من سادات القبائل ، وأثر شفاؤهم هذا عليهم فاعتنقوا النصرانية. واشتهر (العباديون) بالتطبيب كذلك[2] ، ولعل ذلك بعامل تنصرهم ، فقد كان أكثر رجال الدين النصارى يدرسون مختلف العلوم ، وفي جملــة ذلك الطب ، ومنهم من ترجم كتب العلوم اليونانية إلى السريانية ، فدرس العباديون هذه العلوم . وكان طبهم مبنياً على العلوم والتجارب السابقة ، ومتقدماً جداً بالنسبة إلى طب أهل البادية ، لذلك نجح المبشرون والنصارى في معالجة أمراض الأعراب ، ولا سيما سادتهم ، الذين صاروا يقصدونهم لنيل الشفاء على أيديهم . ومن ثم اشتهر النصارى بالطب ، ولما جاء الاسلام ، كان أكثر الأطباء من النصارى ، وعلى أيديهم تخرج الأطباء المسلمون .

وقد استخـدم الجاهليون النساء لتمريض الجرحى في غزوهم وغاراتهم ، وقد فعل المسلمون فعلهم . قالت (بنت معوذ بن عفراء) : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسقي القوم ونخدمهم ونردّ القتلى والجرحى الى المدينة »[3]. وقد كان في مسجد الرسول موضع يعالج فيه المرضى والجرحى ، وكان الرسول والصحابة يتفقدون المرضى النازلين به[4] .

وليس في الموارد المتوفرة لدينا ما يدل على إقدام الأطباء الجاهليين على التشريح، للاستفادة منه في زيادة علمهم بالطب . وقــد كانت شعوب الشرق الأدنى تنفر من تشريح الإنسان ، وتعدّه مثلة واهانة للمتوفى ، وعملاً مخالفاً لأحكام الدين،

---

١ Hastings. Dict. of the Bible, p. 597. ff.

٢ الفاخر (ص ٥٨) .

٣ ارشاد الساري (٨/٣٦١) .

٤ كتاب الجهاد .

ولذلك نهت عنه[1]. والجاهليون لا يختلفون من هذه الناحية عن غيرهم إن لم يزيدوا عليهم في هذه الأمور التي يعدّونها حرمة وكرامة للإنسان. وتشريح الميت وتقطيع بعض أجزاء جسمه، اعتداء على حرمة الميت، واهانة له ولأهله الأحياء، ولهذا لا نطمع في الحصول على موارد قد تفيد بوجود خبرة علمية عند الأطباء الجاهليين ناتجة من تجاربهم وبحوثهم التي حصلوا عليها من التشريح.

ولم يرد الينا أي شيء مفيد في الكتابات الجاهلية عن الطب والأطباء، وإن أملنا الوحيد في الحصول على معارف عن الطب، متوقف على المستقبل يوم يقوم علماء الآثار بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن الأطلال الأثرية، للكشف عن تأريخ الماضين. وعندئذ يكون من الممكن العثور على نصوص قد تكشف النقاب عن الطب الجاهلي وعن العلوم الأخرى وعن مختلف نواحي الثقافة عند الجاهليين.

ويقال للمرض (مرضم) أي مرض في الكتابات الجاهلية[2]. وتؤدي لفظة (حلصم) (حلظم) (حلظ) معنى مرض ووباء[3]. ويتبين من بعض الكتابات ان أوبئة شديدة وأمراضاً مهلكة كانت تقع في بعض الأحيان، فتفتك بالناس. وقد كانوا يتجنبونها بالتضرع الى الآلهة للرحمة بهم وتخليصهم من الضر، كما كانوا يتركون المدن والأماكن المزدحمة إلى محلات بعيدة مكشوفة غير موبوءة حتى ينكشف الوباء. وفي جملة هذه الأوبئة الطاعون.

ويعبر عن المرض في المسند بلفظة أخرى هي (شين)، وهي في معنى (شعين) Sha'en في الأثيوبية و (سيعون) Se'on في العبرانية و (شينو) Shenu في البابلية[4]، وذلك كما في هذا النص السبئي: «تشين شين ارجلهو»[5]، أي

1 Hastings, Dict., p. 598.

2 Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 33, Jamme, Sabaen Inscriptions, p. 441.

3 خليل يحيى نامي، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرقها، (ص ٣٦)، السطر السادس من النص رقم ٢٢.
Rhodokanakis, Kata. Texte, II, S. 33, CIH, 407, Mardtmann und mittwoch, alt. Inscri., S. 47.

4 Repe. Epi. Semi., Tome VII, Prim. Livr., p. 30. f. Num. 3991.

5 المصدر نفسه، الفقرة: ٧.

المرض الذي مرض أرجله ، و (تشين) بمعنى المرض . وكما في هذه الجملة : « بن هوت تشين »[1] ، أي « في هـذا المرض » و « من هـذا المرض » . وتعني (شين) أذى ومكروه ومعنى سوء كذلك ، وهي في عربيتنا العراقية ضد (الزين) أي الحسن ، فنقول : زين وشين ، أي حسن وقبيح ، أو جيد ومكروه .

ووردت لفظة (عوس) بمعنى وباء أو طاعون . وأما (خوم) ، فتؤدي معنى (وخم) و (خامة) ، ويراد بها انتشار الأمراض والأوبئة ، أي وباء . جاء في بعض النصوص (عـوس ذكون بأرضن) ، أي (الأوبئة التي انتشرت بالأرضين)[2] . وورد (خوم وعوس وموت كون بأرضن)[3] ، أي (الوخامة) (الوخم) والأوبئة والوَفَيات التي تفشت في الأرض . ورد « كن ضلم وعوسم باشعبن وهكرن » ، أي « وكانت أو وتفشت أمراض وأوبئة بالقبائل والمدن »[4] . وورد « خوم ذكين بكل ارضن) ، أي « الوخامة (أوبئة) تفشت في كل أرض »[5] . ويفهم من هذه النصوص أن العربية الجنوبية ، كانت معرضة لأوبئة عامة ، تأتي فتكتسح البلاد اكتساحاً ، تميت الأعراب ، أبناء القبائل ، كما تميت أهل المدن،فتشمل مناطق واسعة من البلاد . وقد كانت تظهر خاصة بعد الحروب التي كانت تفني القرى والمدن ، وتدمر مواضع المياه ، وتترك الجثث ملقاة على سطح الأرض حتى تنتن وتجيف ، فتتفشى منهـا الأمراض ، وتظهر الأوبئة ، وتتسرب الى مواضع نائية لتضيف الى خسائر الحرب خسائر أخرى فادحـة في الأرواح .

وقـد وردت في نصوص ثمودية اشارات إلى أمراض كانت معروفة في ذلك الوقت[6] .

---

١ المصدر نفسه ، الفقرة : ١٢ .

٢ خليل يحيى نامي ، نقوش عربية جنوبية ، مجلة كلية الآداب، القاهرة ١٩٣٧، (ص ١ ، ١٣ قسم ٢ ، ١٦) ، (١٩٥٤) (ص ٢١ وما بعدها) .
CIH 81, 4, Jamme 645, Ma. Mb. 275.

٣ Ja 645, 13-14.

٤ CIH 541, 72-73.

٥ Rep. Epig., 4138, 4-5.

٦ Grimme, S. 40.

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن الأوجاع والآلام والأمراض والأسقام التي تصيب الانسان ، وتستعمل للتعبير عن منزلة ودرجة من درجات الأمراض التي تصيبه ، من نفسية وغير نفسية . وتحديد مدلولاتها وحدودها ، يفيدنا كثيراً في تكوين رأي في مدى تأثر الجاهليين بالنواحي الطبية والنفسية في ذلك العهد .

وقد كان الختان شائعاً بين العرب ، ويستعمل (الموسى) للختان ، ولوقف الدم تستعمل أدوية خاصة من مراهم ومواد ، كما يستعمل الضماد أيضاً . ولم يكن الختان من أعمال الطبيب ، انما يقوم به الختّان ، والحلاقون والحجّامون .

وقد عرف الجاهليون طريقة تغطية بعض العيوب أو الاصابات التي تلحق بأعضاء الجسم ، بالاستعانة بالوسائل الصناعية ، فشدوا الأسنان وقووها بالذهب ، وذلك بصنع أسلاك منه تربط الأسنان ، أو بوضع لوح منه في محل الأسنان الساقطة [1] . واتخذوا أنوفاً من ذهب ، لتغطية الأنف المقطوع ، كالذي روي عن عرفجة بن أسعد من انه اتخذ أنفاً من ذهب ، وكان قد أصيب أنفه (يوم الطلاب) في الجاهلية [2] .

وتخصص نفر من الجاهليين بمعالجة الحيوان ، وهم البياطرة ، يعالجون أمراضها فيصفون الأدوية ، يقال للواحد منهم البطير والبيطر والبيطار ، وقد أشير اليهم في أشعار الجاهليين [3] . ويعالجون الجروح التي تصيبها . وفي جملة ما كانوا يعالجون به الكيّ . والمعالجة باستعمال القطران ، وذلك بطلي الحيوان المريض به [4] . ومن هذه الأمراض الجرب . ويقال للحيوان المطلي بالقطران (المقطور) أما اذا كان أنثى ، مثل ناقة ، فيقال : « مقطورة » [5] . ويقال إن الجرب ، هو العُرّ . والعُرّ بثر في الإبل ، ويعالج بالقطران . قال علقمة الفحل :

قد أدبر العُر عنها وهي شاملها　　من ناصع القطران الصرف تدسيم [6]

---

١ المعارف (ص ٨٢) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٤) ، الطبقات ، لابن سعد (٧/٤٥) .
٣ تاج العروس (٣/٥١) ، (بطر) .
٤ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ١٢٢) .
٦ الفاخر (ص ٦٦) .

وكان بعضهم إذا وقع العُرّ في إبلهم ، « اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل ، فكووا مشفره وعضده وفخذه ، يرون أنهم اذا فعلوا ذلك ذهب العُرّ عن إبلهم » . ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : تؤمن معه العدوى . قال النابغة :

وكلفني ذنب امرىء وتركته كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع[1]

والهناء : ضرب من القطران تطلى به الإبل ، لمعالجة الجرب وغير ذلك . ويقال للجرب عند أول ظهوره : النقب[2] . ويقال للبعير المهنوء بالقطران (المشوف)[3] .

وعالجوا أمراض الجلد التي تصاب بها الإبل بطليها بالنفط . ويقال لذلك : (الكحيل)[4] .

ومن الأمراض التي تصيب (الإبل) مرض (الدبرة) ، يظهر في سنام الإبل فلا يزال يأكل سنامه حتى يُجَبّ ، أي يقطع ، وإلا نزل على السناسن فيصيبها ويموت الحيوان . واذا كان السنام مكشوفاً ، فإن الطيور تنقره فيتأذى الحيوان ويتألم وقد يموت ، ولعل ذلك هو الذي حمل الجاهليين على التشاؤم من (الأخيل) وبعض الطيور الأخرى التي كانت تحط على ظهور الإبل فتنقر سنامها . ويقال للجمل الذي يقطع سنامه (الأجبّ)[5] .

ومن الأمراض التي كانت تصيب الإبل (السوّاف) ، وقد عرف بأنه داء يصيب الإبل فتهلك[6] . و (الجارود) ، وهو مرض معد ، إذا فشا أهلك الإبل . وقد ظهر في (بكر بن وائل) ، فأهلك إبلها . وهم يعلمون انه من

---

1 نهاية الارب (٣/١٢٣) ، اللسان (٦/٢٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٣٩٨ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٦) .
2 البيان (١/١٠٧) .
3 شرح ديوان لبيد (ص ١١٥) .
4 تاج العروس (١/٣٣٢) ، (صبب) .
5 شرح ديوان لبيد (ص ١) .
6 الاشتقاق (٢/٣١١) .

الأمراض التي تعدي ، وتنتقل بالعدوى[1] . وذكـر أهل الأخبار ان (الجارود العبدي) ، وهو رجل من الصحابة من عبد القيس ، إنما سمي (جاروداً) لأنه فرّ بإبله إلى أخواله من (بني شيبان) وبإبله داء ، ففشا ذلك الداء في إبـل أخواله فأهلكها ، وفيه يقول الشاعر :

لقد جرّد الجارودُ بكر بن وائل

ولذلك سمي المشؤوم جاروداً[2] .

ومن أمراض الدواب مرض يقال له (العقل) ، يصيب رِجل الدابـة ، إذا مشت ظلعت ، وأكثر ما يعتري في الشاء[3] . ومرض (الحلمـة) ، دودة تقع في جلد الشاة الأعـلى وجلدها الأسفل ، وقيل : دودة تقع في الجلد فتأكله ، فإذا دبغ وهى موضع الأكل وبقي رقيقاً . وقيل : القراد أول ما يكون صغيراً قمقامة ، ثم يصير حمنانة ، ثم يصير قراداً ، ثم حلمة[4] .

وكانوا ينقون رحم الفرس أو الناقة من النطف ، ويخرجون الولـد من بطن الفرس أو الناقة ويعبر عن ذلك بلفظة (مسى)[5] .

ويذهب بعض الباحثين الى أن لفظة (بيطار) ، هي من أصل يوناني ، هو Ippiyatros[6] .

ومن الذين عرفوا بـين الجاهليين بمعرفتهم بالبيطرة (العاص بن وائل) ، وكان يعالج الخيل والإبل[7] . وقد برع البياطرة بمعرفتهم خاصة بالخيل والإبل ، لأنها أثمن أموال العرب . وعناية العرب بالخيل ، هي التي حملت الإسلاميين على وضع مؤلفات خاصة فيهـا . ومن جملة من ألف في الخيـل (أبو عبيدة)

---

١ الاشتقاق (ص ١٩٨) .
٢ اللسان (١١٦/٣) ، (صادر) ، (جرد) .
٣ اللسان (٤٦٣/١١) ، تاج العروس (٢٨/٨) ، (عقل) .
٤ تاج العروس (٢٥٦/٨) ، (حلم) .
٥ تاج العروس (٣٤٢/١٠) ، (مسى) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٥٦) .
٧ المعارف (٥٧٦) ، (اخراج ثروت عكاشة) .

و (أبو زيد الأنصاري) و (الأصمعي) وآخرون[1] . وللأصمعي كتاب في الإبل[2] ، ولأبـي عبيدة كتاب في الابل كذلك[3] . ولأبـي زيد الأنصاري كتاب في هــذا الموضوع أيضاً . ولأحمد بن حاتم مثله ، وقد ألف غيرهم في الابل وفي حيوانات أخرى[4] . وقد طبعت بعض هذه الكتب .

---

١ الفهرست (ص ٨٥ وما بعدها) .
٢ الفهرست (ص ٨٨) .
٣ الفهرست (ص ٨٦) .
٤ الفهرست (ص ٨٧ وما بعدها) .

الفصل الثلاثون بعد المئة

الهندسة والنوء

ولا بد أن يكون للجاهليين علم بطرق السيطرة على المياه ، وبطرق استنباطها والاستفادة منها . ففي مواضع من اليمن والحجاز والعربية الجنوبية آثار سدود مثل سد مأرب ، لا يمكن أن تكون قد أنشئت بغير علم ودراية وخبرة . ففيها فن في كيفية جمع المياه في خزاناتها ، وفن في كيفية تصريفها وتوزيعها وقت الحاجة بقدر ، وفيها أبواب تتحكم في سير الماء . كذلك كان لهم علم في حفر الآبار وإنشاء الصهاريج لجر المياه الى الأماكن التي تحتاج اليها . وقد اشتهرت ثقيف بعلمها بطرق استنباط المياه . واشتهرت قبائل أخرى بهذا العلم أيضاً ، وذكر أن بعضها كانت تتفرس وتحدس بوجود الماء من نظرها الى لون التربة ومن شمها ومن علامات أخرى عرفوها وأدركوها بالتجربة .

ونجد اليوم بقايا سدود استخدمت لحبس (السيول) للاستفادة منها في الشرب وفي الزراعة . وتقع أكثر هذه السدود في الأودية التي تكون مسايل تسيل منها الأمطار المتساقطة في موسمي المطر في العربية الجنوبية . فتعمل الأحباس بين طرفي الوادي لتحبس الماء ، فلا يندفع إلى المواضع المنخفضة فيذهب عبثاً ، وبذلك يرتفع مستواه ، فيسقي الزرع على جانبيه ، وتعمل سواقي لتسيل منها المياه إلى الأماكن المنخفضة التي تقع تحت هذه الأحباس وهكذا تسقى بقية المزارع. وتختلف هذه الأحباس من حيث جودة العمل والاتقان ، فبعضها أحباس بدائية بسيطة ،

عملت من الأتربة ، أو من الأحجار والصخور ، على شكل (سكر) ، يمنع الماء من المرور ، وبعضها عملت بصورة فنية متقنة من الحجر الموضوع بعضه فوق بعض ، مع استخدام مواد ماسكة لشد الحجر بعضه إلى بعض ، وقد يطلى السد بمادة تمنع الماء من اللعب به . وتعمل به منافذ ذات أبواب ، تسد وتفتح حسب الحاجة للتحكم بالماء . وتلاحظ بقايا هذه السدود اليوم في وادي مبلقه ، وفي وادي بيحان ، وفي وادي حريب ، وفي أودية أخرى عديدة .

أما أهل المواضع المرتفعة مثل الهضاب والجبال ، فقد عمدوا الى عمل حواجز وحوائط منخفضة ، لمنع المطر من الانحدار ، إذ تحصره هذه الحواجز ، فيسيل الى المزارع ليسقيها ، وقد تعمل له مجارٍ ليسيل الزائد منه والذي لا يحتاج اليه الى أسفل ، فلا يغرق الزرع . وقد يوجه الى كهوف وآبار محفورة وكهاريس ، لتمتلىء بالماء ، للاستفادة منه في مواسم انحباس الأمطار .

وتوجد في المعابد فوهات تدفع مياه الأمطار حين سقوطها الى مجاري بنيت تحت الأرض تؤدي الى صهاريج تخزن فيها مياه الأمطار . وقد عثرت بعثة (وندل فيلبس) الأميركية على مواضع خزن الماء في معبد مأرب المعروف في الكتابات بمعبد (اوم) ، (اوام) المخصص لعبادة (المقه) إلـه سبأ الرئيس . ونجد مثل هذه المخازن في المعابد الأخرى أيضاً . وخزن الماء على هذه الطريقة،أسلوب متبع في فلسطين وفي المواضع الأخرى ذات الأرض الصلدة الحجرية ، حيث تنقر الأرض وتعمل بها كهوف كبيرة تخزن فيها المياه [١] .

وقد تخصص قوم وتفرسوا بمعرفة مواطن المياه واستنباطها وساعدوا في حفر الآبار وفي حفر القني وإنشائها . وفي كتب اللغة ألفاظ أطلقت على الأدلاء الخبراء أصحاب العلم بمواضع وجود الماء في باطن الأرض ، مثل جوّاب الفلاة ، وذلك لأنه كان لا يحفر صخرة إلا أماهها ، والقناقن ، وهو الدليل الهادي البصير بالماء تحت الأرض في حفر القنى ، والعيّاف ، وقد تحدثت عنها وتطلق أيضاً على الدليل الذي يعرف موضع الماء من الأرض[٢] .

والماء في الأرضين الجافة القاحلة ، نعمة كبرى وحياة لأهلها ، فكانوا يفرحون

---

١ Archaeological Discoveries in South Arabia. p. 226.

٢ المخصص (١٢/٣٥ وما بعدها) .

ويشكرون آلهتهم ويتقربون اليها بالذبائح والنذور عند عثورهم على الماء في الأرضين التي يحفرون فيها الآبار . ولهذا قدسوا الآبار وأسبغوا عليها القدسية ، وتقربوا لها بالنذور والهدايا،وعدّوا مياهها شافية نافعة مقدسة . والبئر ثروة تدر على أصحابها المال . وقد يبارك الكهان والرؤساء تلك الآبار ، لتنعم على أصحابها بالماء الغزير. وقد كان (المحققون) (محتقيم) ، وهم الرؤساء عنـد العبرانيين ، يحضرون الاحتفالات ، ويشكرون إلَه اسرائيل عند ظهور الماء في الآبار،على نحو ما يفعله العرب في مثل هذه الأحوال[1] .

وقد لجأ الجاهليون الى التحايل في استصلاح الماء الأجاج أو الكدر ، للاستفادة منه في الشرب ، فذكر إذا كانت بهم حاجة ماسة الى الماء ، ولم يجدوا إلا ماء البحر أو المـاء الأجاج الملح ، وضعوه في قدر ، ووضعوا فوق القدر قصبات وعليها صوف منفوش ، ثم يوقـد تحت القدر ، حتى يرتفع البخار ، فيدخل مسامات الصوف ، ويمتلىء به . فإذا كثر ، عصر في إناء ، ولا يزال على هذا الفعل حتى تتجمع كمية من الماء العذب ، وتترسب الأملاح في القدر . وذكر أيضاً أنهم كانوا يحفرون في الشاطىء حفرة واسعة ، ليترشح اليها ماء البحر ، ثم الى جانبها وقريب منها حفرة أخرى يترشح اليها الماء من الثانية ، ثم تحفر حفرة ثالثة ، وهكذا حتى يعذب الماء .

أما الماء الكدر ، فقـد كانوا يتخلصون من كدرته بإلقاء مواد فيها لتعلق الكدرة بها ، فإذا رسبت ، رسبت الكدرة معها ؛ وبذلك يتنقى الماء . وفي جملة المواد التي استعملوها الجمر الملتهب ، يلقى به في الماء ، فـإذا انطفأ وتحول الى فحم ، أخذ معه ما يجده من الكدرة ، فيصفو بذلك الماء ، واستعملوا نوعاً من الطين وسويق الحنطة[2] .

وقد عرفت هذه الفراسة ، فراسة استنباط الماء من الأرض ، بالأمارات الدالة على وجوده ، على نحو ما ذكرت من شم التربة ، أو برائحة بعض النباتات فيه، أو بمراقبة حركات الحيوان ؛ ويقال لها : الريافة[3] .

---

١ Ency. Bibli., vol., I, p. 515.

٢ بلوغ الارب (٣٩٦/١) .

٣ بلوغ الارب (٣٤٣/٣) .

وتوجد اليوم آبار قديمة في مواضع مختلفة من جزيرة العرب عميقة جداً ، ولا زال الناس يستقون منها الماء . وهي عادية ، أي قديمة تعود إلى ما قبل الاسلام. وكانت عليها مستوطنات تعيش على ماء هذه الآبار . ولهذا فلا غرابة إذا ما وجدنا القدماء يقدسون الآبار ويعتبرونها من مصادر الحياة بالنسبة لهم ، لأنها تمدهم وتمد إبلهم وكل ماشيتهم بعرق الحيـاة وروحها . ويدل عمقهـا على مقدار ما بذله الحفارون من جهد حتى توصلوا إلى تلك الأعماق بوسائلهـم البدائية التي كانت متوفرة عندهم في ذلك العهد .

والآبار هي من مصادر الحضارة والتحضر في جزيرة العرب ، فلولاها ولولا موارد الماء الأخرى ، لما ظهرت المستوطنات ، ولما ظهر زرع ، ولما عاش ضرع . ولهذا صارت البوادي أرضين قفراً لا يسكنها ساكن إلا إذا استنبط ماء فيها ، أو سقط غيث عليها . ولقيمة الماء في حياة جزيرة العرب ، نجد نصوص المسند تذكرها وتشير إلى الأرضين التي تسقى منها ، وتعتبرها من مصادر النعمة والثراء.

ولأهمية الماء ، كانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرابين وبالأدعية والتوسلات ، لأن تمنحهم المطر ، وتسقي أرضهم على أحسن وجه ، وقد كان من واجب رجال الدين الإستسقاء ، وذلك بأن يتوسلوا إلى آلهتهم بأن تمنّ عـلى عبيدها بالمطر ، يقومون به بإجراء طقوس دينية خاصة ، وربما استعانوا بالسحر في هذا الاستسقاء. وقد كانت الشعوب الأخرى تستسقي كذلك ، وتستعين بالسحر في إرضاء الآلهة لكي تنزل الغيث على المحتاجين اليه . وقد عرف الاستسقاء بمكة وعند سائر العرب، كما تحدثت عن ذلك في مواضع من هذا الكتاب . والأغلب أن الكهنة كانوا هم الذين يقومون بالاستسقاء ، لأنه من صميم أعمالهم وواجباتهم[١] .

وقد سبق أن تحدثت عن شق الطرق في الهضاب وفي جبال اليمن ، لايصال القرى والمدن بعضها ببعض . وقد أبدع المهندسون في ذلك الوقت في شق الطرق في المناطق الجبلية ، ويسمونها (مسبا)[٢] ، ولا تزال آثار بعض منها موجودة حتى اليوم . ووردت لفظة (مذهب) في نصوص المسند ، بمعنى الممر والطريق والمعبر[٣] .

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte., II, S. 53, amm. 2, 5, R. Smith, Religion der Semiten, S. 59, Goldziher, im Festschrift für Th. Nöldeke, S. 309.

٢ راجع النص رقم ٤٦٢٤ المنشور في الصفحة ٢٧٦ من كتاب : REP. EPIG., VII, II.

٣ Jamme 618, 16, Mahram, p. 119.

وقد قام المهندسون بإصلاح الطرق ، ونجد لفظة (درك) Derek في العبرانية بمعنى (الطريق)[1] . والدرك في العربية أسفل كل شيء ، ومراتب الهبوط[2] ، ولعلها في الأصل الطريق المنحدر إلى أسفل . وأما السبيل ، فالطريق . وتقابل هذه اللفظة لفظة (شبيل) في العبرانية[3] . و (السراط) (الصراط) الطريق الممهد المعبد ، واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، من أصل Strata ، بمعنى طريق مبلط ، وطريق كبير واضح[4] .

النوء والتوقيت :

ومعارفنا بالأنواء والتوقيت عند الجاهليين قليلة ضحلة . وهي مبعثرة في كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى ، مثل كتب الجغرافيا والأنواء . ولم يصل الينا شيء منها في نصوص المسند . غير ان ما نجده في المؤلفات المذكورة على قلّته وضآلته يدل على ان الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودراية بالأنواء والتوقيت وانهم كانوا على علم أو شيء من العلم بالأنواء عند غيرهم ، مثل أهل العراق أو أهل بلاد الشأم . ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان واللاتين بالأنواء .

وعدم وصول شيء — في كتابات المسند — من علم النجوم والأنواء وما يتعلق بعلم الفلك ، لا يمكن أن يكون دليلاً بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوبية الجاهليين بالفلك ، ولا يعقل ألاّ يكون لهم علم به . فقد كان العرب الجنوبيون أصحاب زراعة وتجارة ، وكانوا يركبون البحر . وركوب البحر يحتاج الى علم بالنجوم وبتقلبات الجوّ كما كانت ديانتهم تقوم على أساس تقديس النجوم. ولهذه الملاحظات لا بد أن يكون لأهل اليمن وغيرهم من أهل العربية الجنوبية علم بالأنواء . وقد يعثر في يوم ما على نصوص مدوّنة بلهجاتهم فيها شيء ما من أمر هذا العلم .

---

١ Hastings, extra volume, p. 368.
٢ تاج العروس (٧/١٢٧) ، (درك) .
٣ Hastings, extra volume, p. 368.
٤ غرائب اللغة (٢٧٨) .

والنوء عند الجاهليين هو النجم إذا مال للغروب ، أو هو سقوط النجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق . وانما ُسمي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع ، وذلك الطلوع هو النوء . وبعضهم يجعل النوء هو السقوط . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحرّ والبرد الى الساقط منها ، فتقول : مطرنا بنوء كذا [1] . قال الشاعر :

ينعى امرءاً لا تغب الحيّ جفنته   إذا الكواكب أخطا نوءها المطر [2]

وذكر أن من طلوع كل نجم الى طلوع رقيبه ، وهو النجم الآخر الذي يليه ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ، ما خلا الجبهة ، فإن لها أربعة عشر يوماً ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وذلك لتكمل السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وذكر بعض العلماء أن العرب لا تستنيء بالنجوم كلها ، إنما يذكر في الأنواء بعضها . وقال (ابن الأعرابي) : « لا يكون نوء حتى يكون مطر معه ، وإلا فلا نوء » [3] .

وقد زعموا ان لكل نوء أثر في هذا الكون وفي الانسان . فإذا حدث شيء ووقع أمر نسبوه إلى نوئه . وفي جملة ما نسبوا أثره إلى الأنواء : حدوث المطر ، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى أثر النجم الطالع في ذلك الوقت . فيقولون مطرنا بنوء كذا . وقد ذهبوا إلى أن الأنواء (٢٨) نوءاً أو نجماً اعتقدوا انها علة الأمطار والرياح والحر والبرد [4] . وقد ذكروا الأنواء الممطرة ومواسم المطر [5] . ونظراً إلى أن السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نوء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، فيكون مجموع أيام السنة (٣٦٥) يوماً ، وهو المقدار الذي تقطع الشمس فيه بروج الفلك الاثني عشر [6] .

ونظراً لأهمية المطر في حياة جزيرة العرب ، اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء

---

١ تاج العروس (٤٧٢/١ وما بعدها) ، المخصص (١٣/٩ وما بعدها) ، العمدة (٢٥٣/٢) .
٢ الخزانة (٩٣/١) ، (بولاق) .
٣ تاج العروس (٤٧٣/١) « الكويت » ، العمدة (٢٥٣/٢) .
٤ زيدان : تأريخ اداب اللغة العربية (٢٠٢/١) .
٥ تاج العروس (٤٧٣/٢) .
٦ العمدة (٢٥٣/٢) .

وألوان السحب ، وقد علمتهم تجاربهم ان السحب البيضاء ، لا تكون ممطرة ، وأن السحب السوداء تكون هطلة ، تهطل الأمراض وتغيث الناس[1] .

هذا وتجد للسحب أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقربهـا أو بعدها عن الأرض ومن حيث لونها واحتمال وجود الغيث فيها[2] . وفي كثرة هذه الأسماء دلالة على شدة اهتمام العرب بالسحاب لما له من أثر في حياتهم ، لا سيما بالنسبة الى نزول الغيث . فقد كانوا يستسقون بالنوء،ويرجعون سبب سقوط المطر إليه .

ولتعارض عقيدة الجاهليين هذه مع عقيدة الإسلام في الخلق والأسباب ، جاء النهي عنها في الإسلام . ورد في الحديث : « من قال سقينا بالنجم ، فقد آمن بالنجم وكفر بالله »[3] . وجعلت الأنواء من الأمور الثلاثة التي عرفت بالجاهلية والتي نهى عنها الإسلام : الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء[4] .

وكانوا يكرهون نوء السماك ، ويقولون فيه داء الإبل ، قال الشاعر :

ليت السماك ونوءه لم يخلقـا ومشى الأفيرق في البلاد سلما[5]

والسماك ، سماكان : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران : وسمي أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب ، كالأعزل الذي لا رمح معـه . ويقال لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها . وهو من منـازل القمر ، والرامح ليس من منـازله ولا نوء له ، وهو إلى جهة الشمال . والأعزل من كواكب الأنواء وهو الى جهة الجنوب . وهما في برج الميزان . ويقول الساجع : إذا طلع السماك ، ذهب العكاك ، فأصلح قتـاك ، وأجد حذاك ، فإن الشتاء قد أتاك[6] .

وقد تخصص قوم بالنوء ، ورد أن (عمر بن الخطاب) « نادى العباس : كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال : إن العلماء بها يزعمون انها تعترض في الأفق سبعاً

---

١ الميداني (١٠٩/٧) .
٢ نهاية الارب (٧٢/١٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤٧٤/١) « الكويت » .
٤ الانواء (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ نهاية الارب (١٢٦/٣) .
٦ تاج العروس (١٤٤/٧ وما بعدها) .

بعد وقوعها . فوالله ما مضت تلك السبعُ حتى غيث النـــاس »[1] . وكانوا إذا أرادوا الوقوف على ظواهر الجو لجأوا إلى العالمـــين بالأنواء ، وكانوا إذا أرادوا التعبير عن خبير بها ، قالوا مثلاً : « ما بالبادية أنوأ منه ، أي أعـلم بالأنواء منه »[2] . وذكر أهل الأخبار أن (الحارث بن زياد بن ربيع) ، لم يكن في الأرض عربي أبصر منه بنجم[3] .

واعتقاد راسخ مثل هذا في الكواكب والنجوم ، لا بد أن يحمل الجاهليين على تتبع ما ورد عند الأمم الأخرى من علم الأنواء ، للاستفادة منه في حياتهم العملية، وقد عاش بينهم عدد كبير من اليهود ، ولهؤلاء علم أيضاً بالأنواء ، ولهم اهتمام بهذا العلم ، لما له من علاقة بشؤونهم الدينية . ثم كان بينهم نصارى وقفوا على هذا العلم أيضاً ، وكان هؤلاء قد هضموا علم الشرقيين به وطعّموا علمهم وعلم الشرقيين بما ورد في كتب اليونان واللاتين من علم به .

وقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر . وقد أشير إلى ذلك في سورة الأنعام : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلماتِ البر والبحر »[4] . ولا بد للاهتداء بها من الوقوف عليها ، ووضع أسماء لها ، وتعيين البارز منها ، ووضع معالم لها ، ليكون في الامكان معرفتها ومعرفة اتجاهات السير بها ، والاستعانة بها وبالجهات الأربع في معرفـة الاتجاه المؤدي إلى المكان المراد . فكانوا إذا سألهم سائل عن طريق قالوا : « عليك بنجم كـذا وكذا » ، أو « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها .. »[5] إلى آخر ذلك من إشارات تفيد استدلالهم بالنجوم والكواكب وبالمطالع لمعرفة الطرق .

وفي الشعر الجاهلي أبيات تشير الى اهتداء الناس في سيرهم بالنجوم فـورد في شعر لسلامة بن جندل في المسير ليلاً :

ونحن نعشو لـكم تحت المصابيح

---

١ تاج العروس (٤٧٤/١) .
٢ تاج العروس (٤٧٤/١) .
٣ الاشتقاق (٢٣٩) .
٤ الانعام ، سورة رقم ٩٧ .
٥ البيروني ، الآثار الباقية (٢٣٨) ، تأريخ التمدن الاسلامي (١٥/٣) .

ويقصد بالمصابيح الكواكب[1]

وقد سار أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء الى (بروج) . وقد أشير إلى البروج في القرآن في سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً »[2] ، وفي سورة البروج : « والسماء ذات البروج »[3] . وقد قسم اليونان واللاتين السماء الى (بروج) . وعرف كل برج عندهم بلفظة : (بركس) ، Burgus . ومن هذا الأصل أخذت لفظة (البرج) و (البروج). أخذت إما من اللاتينية أو اليونانية مباشرة ، وإما من السريانية بالواسطة[4]، وذلك قبل الإسلام بأمد ، فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل ، مثل ألفاظ أخرى دخلت العربية من أصل يوناني ولاتيني قبل الاسلام بسنين .

وللكواكب أفلاك تدور فيها ، وقد أشير اليها في القرآن ، فورد : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون »[5] . وهي عندهم مدارات دائرية على هيأة حجر الرحى ، تدور الشمس والقمر والكواكب بها ، كل في فلك مقدر له[6] .

ويرى (نالينو) ، ان ما ورد في القرآن الكريم عن (البروج) ، وكذلك ما ورد في الخطبة المنسوبة إلى قُس بن ساعدة الإيادي من قوله : « وسماء ذات أبراج » لا يعني بالضرورة وقوف الجاهليين على البروج الاثني عشر ، وأخذهم بهذه النظرية الفلكية ، وذلك لأمور ذكرها ، وحجج أوردها . وفي جملتها أن أسماء كل البروج ، ما عدا الجوزاء مترجمة من أسمائها اليونانية والسريانية . ثم إن هذه البروج لم تكن ذات فائدة عملية للجاهليين ، ولهذا لا يحتمل اهتمامهم بها ، وأخذهم بها ، ولا سيما ان معارفهم الفلكية لم تكن واسعة عميقة . ولهذا ذهب إلى أن ما ورد في القرآن عن البروج ، لا يراد به الصور المعروفة الموجودة عند

---

١ الانواء (ص ١٨٦) .
٢ السورة رقم ١٦ .
٣ سورة البروج .
٤ كتاب صور الكواكب الثمانية والاربعين ، تأليف عبد الرحمن بن عمر الرازي الصوفي ، المطبعة العثمانية ١٩٥٤ م ، كتاب الانواء (ص ط) ، المخصص (١٢/٩) Ency., I, p. 796, Fränkel, Die Aramaische Fremdwörter in Arabisch, S. 235.
٥ الانبياء ، الاية ٣٣ ، تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (١٦/١٧ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .

اليونانيين والتي وقف عليها العرب في عصور الترجمة ، وإنما هي مجرد نجوم . وقد استشهد ببعض مقطفات من كتب التفسير ، في تفسير لفظة (البروج)[1] .

وقد ذكر (الطبري) أن (البروج) الواردة في (سورة البروج)[2] الكواكب، والنجوم ، والأصوب : منازل الشمس والقمر ، « وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة ، ومن ذلك قــول الله : ولو كنتم في بروج مشيدة . وهي منازل مرتفعة عالية في السماء . وهي اثنا عشر برجاً ، فسير القمر في كل برج منها يومان وثلث ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ثم ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس في كل برج منها شهر »[3] .

ونسب الى أميــة بن أبي الصلت علم بالبروج والكواكب ، وقد ورد في الأخبار : أن الرسول أنشد قوله :

زُحَلٌ وثور تحت رجل يمينه   والنّسر للأخرى وليث يرصد[4]

وفي هذا البيت ، إن صح قول الرواة ، أن الرسول أنشده دلالة على وقوفه على شيء من هذا بالفلك .

ويذكر العرب ان القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً ، وقد أشير إلى المنازل في القرآن : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »[5] . والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر ينزلها القمر[6] . وكل من الشمس والقمر يجريان في فلكهما ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس ، وكل في فلك يسبحون»[7] . والعرب تزعم أن الأنواء المنازل ، وتسميها نجوم الأخذ ، لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها حتى يصير هلالاً ، وهي منسوبة إلى البروج الاثني عشر . وفي كل برج من

---

١ نالينو (ص ١٠٨ وما بعدها) .
٢ البروج ، الرقم ٨٥ .
٣ تفسير الطبري (٣٠/٨١) ، تفسير النيسابوري (٣٠/٥٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٤/٤٩١) .
٤ الاصابة (١/١٢٩) .
٥ سورة يس ، الآية ٣٩ .
٦ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٧ تفسير الطبري (٢٣/٥ وما بعدها) .

البروج منزلان وثلث من منازل القمر ، وهي نطاق الفلك ، والفلك مدار لها . وإنما سُمي فلكاً لاستدارته[1] .

وأول ما يعد العرب من (المنازل) (الشَّرطان) ، وهما كوكبان يقال هما قرنا الحمل ، ويسمّيان النطح والنــاطح ، وبينهما في رأي العين قاب قوسٍ ، وأحدهما في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب والى جانب الشمال كوكب صغير يعد معهما أحياناً فيقال الأشراط ، وقد يعرف بـ (الأشرط) . و (الشرطان) نجمان من الحمل ، وهما قرناه ، والى جانب الشمالي منهما كوكب صغير[2] . ومن العرب من يسمي هذه النجوم الثلاثة الأشراط . وقيل هما أول نجم الربيع ، ومن ذلك صار أوائل كل أمر يقع أشراطه[3] ، والربيع أول الأزمنة للعرب ، فيــه الخير والبركة لهم . وإذا نزلت الشمس بهذا المنزل فقــد حلت برأس الحمل ، وهو أول نجوم فصل الربيع ، وعند ذلك يعتدل الزمان ، ويستوى الليل والنهار فإذا استوى الزمــان ، يليه نهاية الربيع ، وعودة العرب الى الأوطان . « يقول ساجع العرب : إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحُضِرت الأوطان ، وتهــادت الجيران . أي : رجع الناس الى أوطانهم من البوادي بعد مــا كانوا متفرقين في النجع »[4] .

ثم (البطين) ، وهو ثلاثة كواكب خفية ، ويقال : هي بطن الحمــل ، ثم (الثريا) ، وهي أشهر منازل القمر ، ويسمونها : النجــم . وقــد أكثر الشعراء من التشبيه بها[5] . ولهم في فعلها أسجاع . منها : « إذا طلع النجم ، فالحر في حدم ، والعشب في حطم ، والعانة في كدم » ، و « إذا طلع النجم عشاء ، ابتغى الراعــي كساء » ، و « إذا طلع النجم غديــة ابتغى الراعي شكية »[6] .

وعرفت (الثريا) بـ (كيمه) Kimah عند العبرانيين وعند السريان ، وعرفت

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠١) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٢) .
٣ تاج العروس (١٦٦/٥ وما بعدها) ، (شرط) .
٤ الجمان (٢٠٢ وما بعدها) .
٥ المصدر نفسه (٢٠٣ وما بعدها) .
٦ الجمان (٢٠٦ وما بعدها) .

بـ (النجم) كذلك[1] . وقد ذكرت بـ (النجـم) وبـ (النجم الثاقب) في القرآن الكريم . وقد ذكرت الثريا في شعر امرىء القيس[2] ، وفي شعر (قيس بن الأسلت) ، و (قيس بن الخطيم) ، و (أحيحة بن الجلاح)[3] ، كما ذكرت في شعر شعراء آخرين من جاهليين وإسلاميين .

ويرى العرب أن لها أثراً في الصحة وفي وقوع الأوبئة . وأوبأ أوقات السنـة عندهم ما بين مغيبها إلى طلوعها . « قال طبيب العرب : اضمنوا ما بين مغيب الثريا إلى طلوعها ، وأضمن لكم سائر السنة . ويقـال : ما طلعت ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل وغروبها أعوه من شروقها » . وفي الحديث : « إذا طلع النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلا رُفع . فإنه يريد بذلك عامة الثمار ، لأنها تطلع بالحجاز وقد أزهى البسر ، وأمنت عليه الآفة وحلّ بيع النخل »[4] .

ثم الدبران ، وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ويسمى تابع الثريا ، ثم الهقعة ، وهي ثلاث كواكب صغار ، يقال انها رأس الجوزاء ، ثم الهنعة ، وهي كوكبان أبيضان ، ومنها الشعرى العبور ، التي ذكرت في القرآن : « وانه هو رب الشعرى »[5] ، وكان من العرب من يتعبد لها ، وأول من عبدهـا (أبو كبشة) ، الذي كان المشركون ينسبون الرسول اليه . والغميصاء ، والنثرة[6] ، ثم الطرف ، ثم الجبهة ، ثم الزبرة ، ثم الصرفة ، ثم العوّاء ، ثم السماك الأعزل ، ثم الغفر ، ثم الزبانى ، ثم الإكليل ، ثم القلب ، ثم الشولة ، ثم العولة ، ثم النعائم ، ثم البلدة ، ثم سعد الذابح ، ثم سعد بُلَع ، ثم المرع ، ثم سعد السعود ، ثم سعد الأخبية ، ثم الحواء ، ثم الفرغ المقدم ، ثم الفرغ المؤخر ، ثم بطن الحوت[7] .

وقد جعلوا لكل منزل من المنازل المذكورة أثراً في حياة النـاس ، يتمثل في أسجاعهم المروية في كتب الأدب وفي كتب الأنواء . أخذوها من الظروف والأحوال

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.
٢ اذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل
الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .
٣ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٠٤) .
٤ الجمان (٢٠٧) .
٥ النجم ، الاية ٤٩ .
٦ الجمان (٢١١ وما بعدها) .
٧ الجمان (٢١١ وما بعدها) .

والتجارب العملية التي كانت تقع لهم عند طلوع الكواكب المذكورة. فنسبوا الفعل اليها ، من جفاف ورطوبة وحرّ وبرد ، وهطول مطر أو انحباسه ومن حصول أوبئة إلى غير ذلك من أثر .

ويظهر من دراسة ما ورد عن أنواء أرباع السنة وعن عدة المنازل وصفاتها ومن الأسماء التي أطلقت عليها على أن الجاهليين كانوا على علم بها وبالبروج[1] . فالمصطلحات المستعملة في هذه الأنواء وكذلك الأسماء هي مصطلحات أخذها المسلمون من لغة أهل الجاهلية ، وأخذهم لها عنهم ، كلاً أو بعضاً ، هو دليل على وجود علم للجاهليين بالأنواء والفلك . ولا يستبعد ذلك عنهم ، لأن الجاهليين كانوا في حاجة شديدة الى معرفة الأنواء وعلم الفلك ، وقد كان لأهل العراق ولأهل بلاد الشأم علم بهما ، يعود بعضه الى البابليين ويعود بعض آخر الى اليونان ، وقد كان السريان يدرسون الفلك ، والعرب على اتصال بهم ، ولا سيما عرب النصارى مثل أهل الحيرة ، حيث درسوا علوم تلك الأيام ، ولما كانت معارف الأنواء والفلك ضرورة لهم ، فلا يستبعد أخذ الجاهليين معرفتهم بهما من المكانين .

والأجرام السماوية هي كواكب ونجوم ، وقد أشير اليهما في القرآن الكريم . و (الكوكب) من التسميات التي ترد في اللهجات السامية الأخرى. فهي (كوكب) (كوكاب) في العبرانية ، و (كوكبا) في السريانية ، و (كوكب) في الحبشية ، و (ككبو) Kakkabu في الأشورية[2] . ويراد بالكوكب النجوم المتحركة التي تتغير مواضعها . أما الأجرام التي تبدو ثابتة لا تترك محلاتها ، فهي النجوم.

وقد اشتهرت مجموعة من النجوم باسم (بنات نعش) عند العرب. ولا تزال هذه التسمية دائرة على ألسنة الناس يطلقونها على المجموعة نفسها المعروفة بهذه التسمية عند الجاهليين ، وللأخباريين قصص أوردوه عن هذه التسمية يرجع إلى ما قبل الاسلام . وتعرف بنات نعش بـ (عش) (عاش) و (عيش) عند العبرانيين[3] .

وعرفت مجموعة أخرى من النجوم باسم (جبار) . وتسمى (جبارا) Gabbara

---

١ العمدة (٢٥٢) « باب ذكر منازل القمر » .
٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 191.
٣ Hastings, Dict., Vol., I, p. 191.

في السريانية ، وبـ (نفله) Niphla في الكلدانية ، و (فسيل) في العبرانية . ويظهر انها من الأبراج السماوية القديمة المعروفة عند الساميين[1] .

وعرفت (زُحَل) و (سهيل) عند الجاهليين كذلك . وكذلك (عثتار) معبودة العرب الجنوبيين . و (العقرب) أحد البروج .

وقد وردت في سفر (أيوب)[2] جملة (حدرى تيمان) ، ومعناها (الخادر الجنوب) أو (مخادع الجنوب)[3] ، مما يدل على أن المراد بها نجوم تقع في الجنوب ، أي في جنوب فلسطين . وقد ورد في العربية (وسهيل يمان) ، أي جنوبية ، وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز .

و (الزُّهَرَةُ) ، هي من الكواكب الظاهرة البارزة التي تعرف بسهولة . وهي (هيلل) عند العبرانيين .

وهناك كوكب اسمه Kaawanu عند الأشوريين . ويراد به (كيون) Kiyyun عند العبرانيين . ويقابل (كيوان) في العربية . وهو معروف عند المنجمين . ومن المعربات[4] . والساطرون ، من الكواكب المعبودة عند بعض الشعوب السامية[5] .

أما الشمس ، فهي أعرف الأجرام السماوية ، وبها استدل على الوقت على الساعات والأيام والسنين والمواسم . وفي القرآن الكريم آيات توضح لنا رأي الجاهليين في الشمس .

وأما القمر ، فمن آلهة العرب الجنوبيين البارزة . ويعرف عندهم بـ (هلل) أي (هلال) . والقمر من التسميات العربية الشمالية . وأما الهلال ، فإنه القمر في أيامه الأولى عند أهل الحجاز . وللقمر أسماء نطقت بها العرب . فمنها : الطوس والباهر والغاسق والزبرقان والواضح والزمهرير والسنمار والساهور[6] . والساهور هو القمر في الآرامية ، من Sahro[7] .

---

١ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٢ أيوب ، الاصحاح التاسع ، الاية التاسعة .

٣ Hastings, Dict., Vol., I, p. 192.

٤ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٥ Hastings, Dict., Vol., I, p. 193.

٦ نهاية الارب (١/ ٥١ وما بعدها) .

٧ غرائب اللغة (١٨٩) .

وقد اشتهر بعض الجاهليين بعلمهم بمواقع النجوم ، منهم : (بنو مُرّة بن همام الشيباني) و (بنو مارية بن كلب)[1] .

الكسوف والخسوف :

والكسوف والخسوف من الظواهر المعروفة عند الجاهليين . وقد عُدّ وقوعهما من الأمارات التي تشير إلى وقوع حوادث جسيمة في العالم . شأنهم في ذلك شأن شعوب العالم الأخرى في ذلك العهد .

فقد كان بعض الجاهليين يرى أن كسوف الشمس آية دالة على موت رجل عظيم . فقد ورد أن الشمس كسفت في عهد رسول الله ، ووافق ذلك موتَ ابراهيم بن رسول الله ، فقال الناس : انما كسفت الشمس لأجله . فقال النبي : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يخوّف بهما عباده،وانهما لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته »[2] . وقد حدث ذلك في المدينة . وورد في الاخبار أن الانصار كانوا يقولون في النجم الذي يرمى به ، مات ملك ، ولد مولود[3] . وكانوا يتصورون أن الكهان كانوا يستعينون على معرفة المغيبات والخفايا بواسطة شياطينهم الذين كانوا يصعدون إلى السماء فيأخذون أخبارهم . وأن الرعد صوت الموكل بالسحاب يزجر السحب من أن تخالف أمره ، حيث يسوقها من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله[4] .

ويظهر من الموارد الإسلامية أن الجاهليين كانوا يثبتون الوقت بموقع ظل الشمس. ويستعين أهل البادية بالظل ، ظل إنسان أو عصا أو ظل خيمة ، ويدركون من هذا الظل مقدار الوقت بصورة تقريبية . وعلى هذا المبدأ قدر الفقهاء أوقات الصلاة . ولا يستبعد استعانة أهل القرى والمدن بمزاول ثابتة في تقدير الوقت . وذلك بأن تخطط درجات على جدار ثابت أو على أرض ، أو تعمل فتحات في

---

١ البيروني (٢٤١) ، زيدان : اداب اللغة (١/٢٠٦) .
٢ نهاية الارب (١/٤٨) .
٣ نهاية الارب (١/٨٧) .
٤ نهاية الارب (١/٨٨ وما بعدها) .

جدار ، ويعين الوقت برؤية ظل قضيب أو عمود مثبت على الدرجة المرسومة أو الفتحة ، ويستدل من الظل على منزلة الساعة من النهار .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يلجأون الى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخافية عليهم من حاضر ومستقبل،وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم . والكهان ، هم المتخصصون بهذه المعرفة عند الجاهليين ، فكانوا يتنبأون لهم بما سيقع من أمور وأحداث بالاستدلال بحركات تلك الأجرام ، وبما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها في هذا الشأن . وقد كان الجاهليون يبالغون في ذلك كثيراً ويؤمنون بالتنجيم وبتأثير الطالع في حياة الانسان،ولهذا ذم الاسلام المنجمين وكذبهم ومنع المسلمين من التصديق بهم .

وكان لأهل الجاهلية رأي في تساقط الشهب والنيازك ، ويرون ان لتساقط النجوم أثر في الإنسان وفي العالم . ذكر أنهم كانوا يرون أنه إذا انقض شيء من البروج الاثني عشر ، فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء ، بل رأوا انقضاض النجوم وسقوطها ، فإن ذلك يدل على حدوث أمر عظيم في الدنيا[1] .

التوقيت :

وقد اهتم الجاهليون بأمر التوقيت ، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، لعوامل ضرورية عديدة . فالزراعة خاضعة لتقلبات الجو وتبدل المواسم ، والاعياد وكثير من الشعائر الدينية وأمور العبادة لها علاقة بالتوقيت كذلك ، كما أن للتجارة وللسير في البر وفي البحر صلة كبيرة بمعرفة الأنواء . ولهذا عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وظواهر الطبيعة التي لها علاقة بالرياح والامطار وبأمثال ذلك للاستفادة منها في الحياة العملية .

ويحدثنا الجاحظ في كتاب الحيوان عن حاجة الأعرابي إلى معرفة حال السماء وتقلبات الجو ، فيقول : « عرفوا الآثار في الارض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا أمارة ولا هاوي مع حاجته إلى بعد الشقة ، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه . ولحاجته

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع (٨٢/١٧ وما بعدها) ، (سورة والنجم) .

إلى الغيث ، وفراره من الجدب وضنه بالحياة ، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً »[1] . وفي هذا وفي غيره تفسير لسبب اهتمام الجاهليين بالتوقيت ودراسة الأنواء[2] .

وقد اعتبر القدماء أمر التوقيت من واجبات رجال الدين ، فكان رجال المعابد والكهّان هم الذين يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة . ظلّوا على ذلك أمداً طويلاً ، ولا تزال آثار ذلك باقية حتى اليوم . وكان هؤلاء الرجال قد احتكروا المعرفة والعلم لاعتقاد الناس أنهم أقرب البشر الى الآلهة ، وأن ما يتكلمون به إنما هو وحي منها ، يوحي الى هؤلاء ، فعلمهم اذن نابع من مصدر صادق لا يتطرق اليه الشك .

وإذا كانت كتابات المسند لم تتحدث عن الموقتين ضبّاط الزمن في العربية الجنوبية ، فإننا لا نعتقد بشذوذ العرب الجنوبيين عن غيرهم في هذا الباب ، خاصة وأننا نرى أن الكهان وسدنة الكعبة ومن لهم صلة بالأصنام ، كانوا هم الذين يقومون في الحجاز بضبط المواقيت والنسيء ، فليس بمستبعد أن يختص رجال الدين في العربية الجنوبية بالتوقيت .

---

١ مقدمة كتاب الانواء في مواسم العرب ، لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ، سنة ١٩٥٦ م (ص ١ وما بعدها) ، وسيكون رمزه : الانواء .

٢ العمدة ، لابن رشيق (٢/٢٥٢) « القاهرة ١٩٦٤ م » .

الفصل الحادي والثلاثون بعد المئة

الوقت والزمان

يقول علماء العربية : الوقت مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حيناً، فهو موقت . والوقت تحديد الاوقات كالتوقيت[1] . واختلفوا في الزمان ، فقالوا: الزمان الدهر ، وعارضه آخرون . إذ قالوا : يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع. والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه[2] ، ويظهر أن بين العلماء خلافاً في تحديد المراد من اللفظتين ثم في تحديد معنى كل لفظة منهما ، وفي معنى (الدهر) ، وذلك بسبب مسألة القدم والحدوث، وما للتفاسير من صلة بهما ، وأثر ذلك في مسائل ذات صلة بعلم الكلام .

وروي عن الرسول قوله : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وفي رواية أخرى : « فإن الله هو الدهر » ، وورد في الحديث عن (أبي هريرة) ، « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وإنما أنا الدهر . أقلب الليل والنهار »[3] . فالدهر الزمان الطويل ، أو الدائم . وقد عبر عنه في الاسلام بالأبدية، التي هي الله .

ويقاس الوقت بالسنين . والسنة أطول وحدة قياسية له . وتنقسم الى أجزاء .

---

١ تاج العروس (٥٩٤/١) ، (وقت) .
٢ تاج العروس (٢٢٧/٩) ، (زمن) .
٣ تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) .

ولفظة (سنة) من الألفاظ العربية القديمة ، وترد في جميع لهجــات الجاهليين ، وهي من الألفاظ السامية التي ترد في كل لغاتها ، مما يدل على أنهـا من الكلمات السامية القديمة . ويعبر عن كثرة السنين بمصطلحات ، مثل : (عصر) ، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تنقرض بانقراضهم ، وفي القرآن الكريم: « والعصر إن الإنسان لفي خسر »[1] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (العصر) الدهر[2] . وتقابل لفظة (العصر) لفظة (دور) Dor في العبرانية . ومنهـا جملة (دور وآدهور) Dor Wadhor ، بمعنى الدهر والدهور ، أي الزمان الدائم . وذلك بالنسبة لله[3] . لأن الزمن لا شيء بالنسبة له . « لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل »[4] ، و « أن يوماً واحداً عنــد الرب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد »[5] . وقد أيد القرآن الكريم هــذا المعنى ، فذكر أن الوقت لا شيء بالنسبة الى أبديته : « وإن يوماً عنــد ربك كألف سنة مما تعدون »[6] .

ولفظة سنة لفظة عربية شمالية ، ترد في عربية القــرآن الكريم ، كما ترد في النصوص العربية الشمالية ، مثل نص النمارة الذي يعود عهـده إلى سنة (٣٢٨) للميلاد ، ونص (حرّان) الذي يعود تأريخه إلى سنة (٥٦٨) للميلاد ، أي إلى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول . وقد كتبت لفظة (سنة) على هذه الصورة (سنت) ، أي بالتاء المبسوطـة . وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصفوية وفي اللهجات العربية الشمالية الاخرى أيضاً[7] .

ولدينا لفظة أخرى مرادفة للسنة هي العام ، فيقال لعامنا هذا ، أي لسنتنا .

---

١ سورة والعصر ، تاج العروس (٣/٤٠٤) ، (عصر) .

٢ تفسير الطبري (٣٠/١٨٧) .

٣ « من دور الى دور » ، Hastings, p. 288. المزمور العاشر ، الايــة ٦ ، « وخلاصي الى دور الادوار » ، اشعياء ، الاصحاح ٥١ ، الاية ٨ ، المزمور التسعون ، الايــة ١ .

٤ المزمور التسعون ، الاية ٤ .

٥ رسالة القديس بطرس الثانية ، الاصحاح الثالث ، الاية ٦ .

٦ سورة الحج ، الرقم ٢٢ ، الاية ٤٧ .

٧ « سنت حرب نبط » ، « سنة حرب النبط » « سنة محاربة النبط » ، تأريخ اللغات السامية (ص ١٨٠) .

وذكر علماء اللغة ان العام أخص مطلقاً من السنة ، فتقول كل عام سنة ، وليس كل سنة عاماً . وذكر بعض العلماء أن العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الجدب والشدة ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء والخصب . وقال بعض آخر : السنة أطول من العام ، وهي دورة من دورات الشمس ، والعام يطلق على الشهور العربية بخلاف السنة . وذكر بعضهم أن العام لا يكون إلا شتاءً وصيفاً ، وانك إذا عددت اليوم إلى مثله فهو سنة [١] .

وقد وردت لفظة (عوم) في نص واحد من نصوص المسند ، بمعنى سنة ، أي في معنى (عام) في لساننا [٢] . ولكن الغالب أن يعبر عن السنة بلفظة (خرف) ، أي (الخريف) ، ويظهر أنهم أطلقوا على السنة (الخريف) ، لأن الخريف هو من أبرز المواسم في العربية الجنوبية وله أهمية خاصة بالنسبة لهم ، ولذلك غلّبوا التسمية على كل العام .

و (الحول) السنة اعتباراً بانقلاب الشمس ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. وقد وردت في القرآن الكريم . ويظهر انها من الألفاظ الجاهلية القديمة . والحولي: ما أتى عليه حول من ذي حافر وغيره ، ويقال جمل حولي ونبات حولي [٣] .

وذكر علماء اللغة أن (الخريف) السنة والعام ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في كتابات المسند . وذهب بعض العلماء الى أن الخريف هو الفصل المعروف . وأما ورود اللفظة بمعنى السنة والعام في أحاديث الرسول ، فلأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة ، ولذلك قصد باللفظة المسافة تقطع من الخريف الى الخريف ، وهو السنة [٤] .

ويستعمل العرب الجنوبيون لفظة (خرف) (خريف) في مكان سنة في لغتهم . وترد في النصوص المؤرخة ، حيث تفيد توريخ حادث ما وتثبيته بذكر السنة التي وقع بها من سني الملك أو الرئيس الذي أرخ الحادث به . فيكتب :

---

١ تاج العروس (٨/٤١٢) .

٢ Le Muséon, 66, p. 119, Beeston, p. 20, 44, CIH. 575, 8, Rep. Epig. 2958 A.

٣ تاج العروس (٧/٢٩٣) .

٤ تاج العروس (٦/٨٣) .

(بـ خرف ..) (بخرف ..) ، أي (بسنة ...) ، ثم يذكـــر بعدها اسم المؤرخ به . كما ترد بمعنى الخريف ، الفصل المعلوم من السنة .

وتؤدي لفظة (كبر) معنى سنة في بعض الأحيان ، وقد رأينا أن اللفظة تعني (كبير) ، وهي كناية عن وظيفة كبيرة في الحكومة ، والظاهر أن الناس قد تجوّزوا في الاصطلاح ، فأطلقوه بمعنى السنة ، لأنهم كانوا يؤرخون بسني حكم الكبراء ، فصاروا يطلقونها على السنة أيضاً ، ويفهم معناهـا عندئذ من الجملة . كما في جملة : « عد ورخ وكبر نجو ذت هقنيتن »[1] ، ومعناها : « إلى شهر وسنة إعلان ذلك التمليك »[2] .

وتؤدي لفظة (الحِقبة) معنى السنة عند بعض علماء اللغة ، وتجمع على حقب، وذكر أن الحقب ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، والجمـــع أحقاب . وتؤدي لفظة (الحجة) معنى السنة كذلك[3] .

وتتألف السنة عند العرب وسائر العجم من اثني عشر شهـراً[4] ، وأيام السنة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم ، لأن أيام السنة عند السريان ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربـع يوم . وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير[5] .

الفصول الأربعة :

وتقسم السنة إلى فصول أربعة بحيث يتكون كل فصل من هـذه الفصول من ثلاثة أشهر ، تكون ربـــع السنة . وهـذه الفصول هي : الشتاء ، والربيـــع ، والصيف ، والخريف . ويقال للصيف القيظ أيضاً[6] . ويظهر من هذه التسميات ومن هذا النوع من التقسيم أنه تقسيم بني على أساس التقويم الشمسي ، لا التقويم

---

١ M. Tawfik, Les Monuments de Main, Plate, 32, fig. 65. (Cairo 1951).

٢ Beeston, p. 20.

٣ المخصص (٩/٦٦ وما بعدها) .

٤ مروج الذهب (٢/١٧٧) .

٥ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .

٦ Reste, S. 95.

القمري . وهو تقسيم بقي مستعملاً في الاسلام ، مع أن التقويم الرسمي الاسلامي هو تقويم قمري ، لأنه تقسيم طبيعي مبني على طبيعة التغير الذي يطرأ على شهور السنة . ولو بني تقسيم الفصول على الشهور القمرية ، لما كان في الامكان السير عليه بالقياس إلى الحياة العملية المبنية على الزرع والتجارة والتنقل في المراعي،وكل هذه لها علاقة بتبدل طبيعة الشهور .

والتقسيم المذكور قائم على أساس ملاحظات الانسان للطبيعة ودراسته لها،وعلاقة البرد والحر بحياته وبزرعه وحيوانه . فقسم السنة إلى موسمين : موسم زرع يبذر فيه ويزرع ، وموسم حصاد يحصد فيه زرعه ويجني ثمره . وهو موسم يبدأ فيه الزرع بالأفول وبالذبول ، حتى إذا ما جاء البرد ، تساقط فيه الورق ، وتعرت الأشجار من الخضرة ويقابل هذا البرد الحر ، وهو موسم واضح ظاهر في جزيرة العرب حياته فيها أطول من بقية الفصول . فأدرك الانسان من تأثير الطبيعة عليه وجود أربعة فصول . وقد عبرت التوراة عن هذه الفصول بقولها : « مدة كل أيام الارض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل »[1] .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب : الصيف . ويستأثر بالنصيب الاكبر من السنة،لامتداد حره ، ثم الشتاء . ولذلك نجد الناس يقسمون السنة إلى نصفين: صيف وشتاء .

ونجد هذه الفكرة عند العبرانيين كذلك،فالصيف والشتاء هما الفصلان الواضحان البارزان عندهما . ويسمى الصيف بـ (قيز) (قيض) عندهم ، أي بالتسمية الواردة عند العرب ، أما الشتاء ، فهو (خرف) في العبرانية[2] .

وبعض العرب يقسم السنة نصفين : شتاءً وصيفاً ؛ ويقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله ، والربيع آخره . ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله ، والقيظ آخره[3] .

وذكر أهل الاخبار وعلماء اللغة أن العرب تبتدىء بفصل الخريف وتسميه

---

١ التكوين ، الاصحاح الاول ، الاية ١٤ ، الاصحاح الثامن ، الاية ٢٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٧٨) .

٢ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 315.

٣ الانواء (ص ١٠٤) ، بلوغ الارب (٣/٢٤٤) .

الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه ، ثم يكون بعده فصل الشتاء ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ، وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني ، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف[1] . وذكر (اليعقوبي) أن العرب اختلفت « في أسماء الأزمنة الأربعة : فزعمت طائفة منها أن أولها الوسْمي ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القيظ ، ومنهم من يعد الاول من فصول السنة الربيع ، وهو الاشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا في بلد كذا ، وشتونا في بلد كذا ، وتربعنا في بلد كذا ، وصيفنا في بلد كذا »[2] .

وأول وقت الربيع عندهم ، وهو الخريف ، ثلاثة أيام تخلو من أيلول . وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الاول . وأول الصيف عندهم ، وهو الربيع الثاني ، خمسة أيام تخلو من آذار . وأول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران . والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان[3] .

وهناك أسماء أخرى لهذه الفصول ، فـ (الصفرية) هو الجزء الاول من السنة وسمي مطره الوسمي ، والشتاء هو الجزء الثاني منها . أما الصيف فهو الجزء الثالث . وأما الجزء الرابع ، فهو القيظ ، وسمّوا مطره الخريف . وقد حددوا مبدأ كل فصل ومنتهاه بالفصول .

وهناك كما يتبين من روايات علماء اللغة اختلاف في تشخيص الربيع ، منهم من يذهب إلى أنه الفصل الذي يتبع فيه الشتاء ، ويأتي فيه الورد والنَّور ، « ومنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده . ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذي تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذي تدعوه العامة الصيف . ومن العرب من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الاول ، ويسمي الفصل الذي يتلو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع»[4] .

---

١ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) ، المخصص (٧٩/٩ وما بعدها) .
٢ مروج (١٩٢/٢) .
٣ الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٢٤٣/٣ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤١٤/٢ وما بعدها) .

وهناك من يجعل السنة ستة أزمنة : الوسمي ، والشتاء ، والربيع ، والصيف، والحميم ، والخريف[1] . وحصة كل زمن من هذه الأزمنة شهران .

وذكر بعض العلماء أن السنة عند العرب ستة أزمنة : شهران منها الربيع الأول وشهران صيف وشهران قيظ وشهران الربيع الثـــاني ، وشهران خريف وشهران شتاء . وذكر بعضهم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول وهو عند العامة الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف وهو الربيع الآخر ، ثم القيظ . وهذا هـــو قول العرب في الباديـــة . والربيع جزء من أجزاء السنة ، وهو عند العرب ربيعان : ربيع الشهور وربيع الأزمنة . فربيع الشهور شهران بعد صفر . سمّيا بذلك لأنهما حدّا في هذا الزمن فلزمهما في غيره . ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهـر ربيع الآخر . وأما ربيع الأزمنة . فربيعان : الربيع الأول وهو الفصل الـذي يأتي فيه النور والكمأة ، وهو ربيع الكلأ . والربيع الثاني ، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار . ومن العرب من يسمي الفصل الــذي تدرك فيه الثمار ، وهو الخريف : الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يتلـــو الشتاء ويأتي فيه الكمأة والنور الربيع الثاني . وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع[2] .

وقسم بعضهم الشتاء الى ربيعين : ربيع الماء والأمطار وربيع النبات لأن فيـــه ينتهي النبات منتهاه . والشتاء كله ربيع عند العرب لأجل الندى[3] .

ويظهر من المسند أن العرب الجنوبيين كانوا يقسّمون السنة الى فصول كذلك، وأنهم كانوا مثـــل غيرهم يقسمونها الى فصول أربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف . ولا يعني هذا التقسيم الرباعي أن الجو في العربية الجنوبيـــة أو في أي مكان آخر في جزيرة العرب كان يختلف اختلافاً واضحاً بيّناً من حيث التطرف أو الاعتدال باختلاف هذه الفصول الأربعة ، وأن شهور الفصـــــول هي متساوية بالفعل ، وأن عدة كل فصل ثلاثة أشهر ، بل هو في الواقع تقسيم علمي نظري. أما من الناحية العلمية ، فإن فصلي الصيف والشتاء هما أبرز الفصول وأوضحهـــا

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٤٤) ، صبح الاعشى (٢/٤٠٥) .
٢ تاج العروس (٥/٣٤٠ وما بعدها) ، (ربع) ، صبح الاعشى (٢/٤١٥ ومـــا بعدها) .
٣ تاج العروس (٥/٣٤٠) ، (ربع) .

في جزيرة العرب كلها . ولا سيا فصل الصيف الذي يعدّ أطول الفصول وأوضحها فيها . وهذا هو الذي دفع العرب ولا شك الى تقسيم السنة الى نصفين ، شتاء وصيف . يبتدئون بالشتاء ويجعلونه النصف الأول ، ويبتدىء عندهم بابتداء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة . وأما الصيف ، فيبدأ عند انتهاء النهار بالطول وابتدائه بالنقصان[١] .

والشتاء هو (صربن) في المسند . أما الربيع ، فهو (دثا) . وأما الصيف ، فـ (قيضن) ، أي القيظ ، وأما الخريف ، فـ (خرفن) ، أي الخريف[٢] . ويذكر علماء اللغة أن القيظ هو أشد الحرّ ، وأن الخريف ليس في الأصل باسم للفصل ، إنما هو اسم لمطر القيظ ، ثم سمّي الزمان به فجرى[٣] .

وترتبط مسميات الفصول ارتباطاً متيناً مع مواسم الحصاد . ففي أحد النصوص: (صربم وقيضم)[٤] ، ومعناه (شتاء وصيف) ، ويظهر أن صاحبه قصد من لفظة (صربم) الحصاد الذي يتم في أول موسم الشتاء[٥] . وأما (قيض) ، فهو الصيف ، حيث تشتد الحرارة فيه . وفي نص آخر: (قيض ودثا وصرب وميلم)[٦] وكلمة (ميلم) يجب أن تؤدي معنى الخريف، إذ القيض ، هو الصيف و(دثا) الربيع و (صرب) الشتاء ، فتكون لفظة (ميلم) بمعنى الخريف إذن ، وربما الحصاد ، أي الحصاد الذي يجمع في آخر الشتاء ، قبل هطول أمطار الربيع[٧] .

وفي الربيع والخريف تتساقط الأمطار الفصلية في العربية الجنوبية ، تتساقط الأمطار الربيعية في شهري آذار ونيسان. وأما أمطار الخريف القوية الثقيلة ، فتهطل في تموز (جولاي) وآب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) . وتعرف أمطار الخريف فتسمى بـ (خرف) (خريف) . دعيا بذلك لنزولها في هذين الموسمين . والى هذين الفصلين أشار (بلينيوس) Pliny حين قال إن العرب الجنوبيين

---

١ المخصص (٩/٧٩) ، الانواء (ص ١٠٤ وما بعدها) .

٢ Mitt., S. 62, 65, 71, Rep. Epi., 4250.

٣ المخصص (٩/٨٠) .

٤ Rep. Epig. 4230/8.

٥ Beeston, p. 20.

٦ CIH 174/4.

٧ Beeston, p. 20.

يسمّون غلة البخور التي يجمعونها في فصل الخريف باسم Dathiathum ، ويسمون الغلة التي تجمع من هذه المادة في فصل الصيف بـ Carfiathum . والكلمة الأولى هي تحريف للفظة (خريف) . وأما الثانية ، فتحريف للفظة (دثا) ، أي الربيع[1].

وقد دخلت التسميتان بواسطة التجارة والتجار الى اليونان ، ولا شك . وهما تسميتان واضحتان صحيحتان .

وتؤدي لفظتا (دثا) و (خرفن) معنى الأمطار الموسمية في الغالب، أي أمطار الربيع وأمطار الخريف في بعض الكتابات[2] . وقد تؤديا معنى (الغلات) أي (فرع) ، التي تجمع في موسمي الربيع والخريف[3] .

ولدينا نص طريف يفيد أن أصحابه قد أذنبوا بعدم ايفائهم بما نذروه لآلهتهم وكان عليهم الوفاء به في (ذ موصبم) كما عاهدوا آلهتهم . ولمخالفتهم عهدهم هذا ، أرسلت الآلهة عليهم سيلاً جارفاً من أمطار شديدة سقطت في موسمي الربيع والخريف ، فأتلفت زرعهم وأصابتهم بضرر كبير، واعترافاً منهم بتقصيرهم هذا وبذنبهم ، كتبوا النص المذكور ، وقدموا نذرهم كاملاً ، راجين من الآلهة الصفح عن ذنبهم والعفو عنهم ، وأن تبارك في زرعهم ، وأن تعوضهم عن خسارتهم التي أصابتهم بغلة وافرة وحاصل غزير[4] .

الشهور :

وتتألف السنة عند العرب الشماليين من اثني عشر شهراً ، وقد أشير الى ذلك في القرآن : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله . يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم »[5] . وهو التقسيم الشائع المعروف عند بقية الساميين واليونان وغيرهم . والمعمول به حتى اليوم . ولم ترد إشارة الى هذا التقسيم في نصوص المسند ، ولكن ورود ذكر السنين والشهور في كتابات

---

١ Pliny, Hist. Nat., XII, 60, Beesten, p. 19, CIH 540, 547.

٢ CIH 547, 540.

٣ CIH 2.

٤ CIH 547, Beeston, p. 20 f.

٥ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٧ ، ابن الاجدابي (٣٠) .

المسند ، واستعمال العرب الشماليين وغيرهم التقسيم الاثني عشري للسنة ، يحملنا على القول إن العرب الجنوبيين كانوا يقسمون السنة الى اثني عشر شهراً أيضاً ، وان لم ينص على ذلك في النصوص .

وقد لاحظ (رودوكناكس) أن المزارعين المحدثين في العربية الجنوبية يسيرون بموجب تقويم فلكي Sidereal Calender ، يقسم السنة الى ثمانية وعشرين شهراً ، مدة كل شهر ثلاثة عشر يوماً ، فاستنتج من ذلك احتمال كون هذا التقويم من بقايا تقويم عربي جنوبي كان العرب الجنوبيون يسيرون عليه قبل الإسلام . ولهذا رأى أن (ذ فرع) و (ذا جبي) (ذا جبو) ، لا يمثلان شهرين من شهور السنة ، وإنما يمثلان وقتاً من أوقات العمل والزرع ، بالمصطلح المستعمل الآن في العربية الجنوبية ، أي جزءين من (٢٨) جزءاً من أجزاء السنة[١] . وذهب (بيستن) الى احتمال تقسيم العرب الجنوبيين للشهر الى ثلاثة أقسام ، يتكون كل قسم منها من عشرة أيام[٢] .

ويرى (رودوكناكس) أن سنة العمل عند القبائل تبدأ باليوم الأول من شهر (ذ فرعم) (ذو فرعم) (ذو الفرع) ، وتمتد الى اليوم السادس من (ذ فقحو) ، ويرى أن السنة عند الفلاحين ، تتكون من (٣٦٠) يوماً ، أما الأيام الباقية وهي ما بين (٥) و (٦) ، فتضاف الى أحد الأشهر وتأخذ اسمه ، فتكون السنة بهذا العمل سنة شمسية كاملة . ويحتفل الفلاحون عند انتهاء تقويمهم الزراعي بانتهاء السنة ، حيث يعيدون عيداً يسمونه (مصب) ، (مصوب) ، ويعد شهر (فرعم) الشهر الأول من السنة الزراعية ، حيث تزهر الأشجار ، وتظهر الأوراق . وتختلف هذه السنة عن سني التقويم الرسمي الذي تسير عليه الحكومة في جباية استحقاقها من حاصل الزرع[٣] .

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعيين أوائل الشهور[٤] . فإذا اختفى القمر في آخر الشهر ولم يظهر ، خرجوا لمراقبة الهلال وتثبيت مبدأ الشهر .

---

١ Beeston, p. 4, R.B. Serjeant, Star Calendero and an Almanac from South West Arabia, in Anthropos, Bd. 49, 1954, S. 433.

٢ Beeston, p. 5.

٣ Rhodokanakis, Katab. Texte II, S. 19 ff.

٤ صبح الاعشى (٣٦٩/٢) ، نهاية الارب (١٥٦/٣) .

وقد كانوا يعدون الرؤية من الحوادث المؤثرة في حياة الشخص . من حيث جلب النحس والسعادة للمستهل . ولهذا كانوا ينظرون الى المناظر الجميلة حين الاستهلال، لاعتقادهم أن ذلك يجلب لهم البركة والخير . والشهر كما جاء في الحديث : «مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1] ، أي يوماً .

ويعبر عن الشهر بلفظة (ورخ) في العربيات الجنوبية . والجمع (اورخم) (اورخ) . ولفظة (ورخ) تعني القمر في عربية القرآن الكريم . وهي من الألفاظ السامية القديمة ، وتؤدي معنى (ارخ) وتأريخ أيضاً[2] . فكان العرب الجنوبيون إذا أرادوا التأريخ بالأشهر ، قالوا : « ورخ كذا ... » ، أي « شهر كذا ... » . والتوريخ بالشهور لا يعني أن العرب الجنوبيين أو غيرهم من العرب ، كانوا لا يؤرخون إلا بالتقويم القمري ، وأنهم لم يكونوا يستعملون غير هذا التقويم . فقد كان غيرهم يؤرخون بالشهور القمرية كذلك ، وكانوا مع ذلك يؤرخون بالتقويم الشمسي ، أو بالتقويمين .

ولا تعني لفظة (ورخ) التي هي (الشهر) أن العرب الجنوبيين كانوا يتبعون تقويماً قمرياً ، بسبب أن لفظة (ورخ) تعني (قمر) في الأصل ، فالانكليز يستعملون لفظة Month بمعنى الشهر ، وهي من أصل Moon أي القمر ، ومع ذلك فإن شهورهم شمسية ، ولفظة (الشهر) نستعملها في عربيتنا ، هي في معنى (ورخ) في الأصل . فالشهر : القمر ، والهلال[3] . أي مرادف (ورخ) تماماً . وقد سمي الشهر به ، لأنهم كانوا يوقتون به ، فالمدة التي تمضي بين هلال وهلال جديد ، هي شهر . نسي المعنى الأصلي للكلمة ، وبقي الاصطلاح ومن ذلك قولهم : أشهروا ، بمعنى أتى عليهم شهر ، وشاهره مشاهرة وشهاراً ، استأجره للشهر[4] .

ووردت لفظة (شهر) بمعنى هلال في العربيات الجنوبية ، وذلك كما في هذه الجملة : « بيوم شهرم ويوم ثنيم ذنم »[5] ، أي « بيوم الهلال ، وبيوم

---

١ ارشاد الساري (٣٥٩/٣) .
٢ نص ابنة Rhodokanakis, Stud. II, S. 48, Bruno Meissner Supplement nyu den Assyrischen Worterbüchern, Leiden, 1891, S. 16.
٣ تاج العروس (٣٢١/٣) ، (شهر) .
٤ تاج العروس (٣٢١/٣) ، (شهر) .
٥ Jamme 651, 19.

المطر الثاني » ، أو بعبارة أخرى « يوم الاهلال ، وزمان سقوط المطر الثاني ».

وقد وردت في كتابات المسند أسماء عدد من الأشهر ، يتبين من دراستها أن بعضها وارد في نصوص لهجتين مثل لهجة معين وسبأ ، ولهجة سبأ وقتبان ، مما يدل على أنها كانت مشتركة ومستعملة عند المعينيين والسبئيين ، أو عند السبئيين والقتبانيين . ولكن الأغلب انفراد كل لهجة بتسمية شهر ، بدليل ما نجده في كتابات كل لهجة من اللهجات التي نعرفها من أسماء أشهر لا ترد في الكتابات الأخرى . ومن الأشهر المشتركة التي ورد اسمها في كتابات سبئية ومعينية ، شهر (ذ دثا) وشهر (ذ سحر) ، وقد ورد اسمه في كتابات سبئية وقتبانية ، و (ذ ابهى) (ذ ابهو) ، وقد ورد في كتابات معينية وسبئية وقتبانية كذلك[1].

وعثر على أسماء هذه الشهور في النصوص المعينية : (ذ ابهى) (ذو أبهى) ، و (ذ ابرهن) ، و (ذ اثرت) ، (ذو عثيرة) ، و (دثا) ، و (ذ حضر) ، و (ذ طنفت) ، و (ذ نور) ، و (ذ سمع) ، و (ذ شمس)[2] .

ومن الشهور الواردة في كتابات السبئيين المتقدمة : (ورخ ذا بهي) ، أي شهر ذو أبهى ، و (ورخ ذ دنم)[3] ، و (ورخ دثا) ، (ذ دثا) ، و (ورخ ذ نيلم) ، و (ورخ ذ نسور) ، و (ورخ ذ سحر) ، و (ورخ ذ فلسم) ، و (ورخ ذ قيضن) ، و (ورخ صربن) ، و (ورخ صر) ، و (ورخ ذ الالت) ، و (ملت)[4] ، و (ذ عثتر) ، و (ذ موصبم) ، و (ذ مخضدم)[5] . وشهور أخرى .

أما الشهور : (ورخن ذ الالت) ، و (ورخ ذ داون) و (ورخو ذ حجتن) و (ورخ ذ خرف) و (ورخو ذو مذران) و (ورخن ذ مهلتن) و (ورخن ذ محجتن) و (ورخ ذ معن) و (ورخ ذ صربن) و (ورخو

---

١ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٥/٢٣٤ وما بعدها) ، Rhodokanakis, Kataba. I, S. 133, Beeston, p. 10, Rhodokanakis, Studi. II, S. 141, Sab. Denkm. 21, CIH 380.

٢ Beeston, p. 10.

٣ « بورخ ذ دونم » ، Rhodokanakis, Studi. II, S. 75 ZDMG. 29.

٤ Beeston, p. 12 f.

٥ CIH 547.

ذ قيضن) و (ورخ ذ ثبتن) ، فإنها من الشهور الواردة في الكتابات السبئية المتأخرة [١] .

ويظهر من اسم الشهر (ورخن ذ الالت) (ذ ا ل ا ل ت) [٢] ، و (ورخن ذ حجتن) ، أن لها صلة بالحياة الدينية عندهم . فورخن ذ الالت معنـاه شهر الآلهة . فالظاهر أنه شهر خصص بالآلهة ، كانوا يتقربون فيه اليها بالنذور مثلاً أو العبادة . فهو شهر مقدس ، ربما يكون مثل شهر (رمضان) في الإسلام . وأما (ورخن ذ حجتن) ، فمعنـاه (شهر الحج) ، فهو شهر يحج فيه الى الأصنام ، على نحو (شهر ذي الحجة) في الإسلام .

أما الشهور القتبانية التي وردت أسماؤها في كتـاباتهم ، فهي : (ورخس ذ ابهو) و (ورخس ذ برم) و (ورخس ذ بشمم) و (ورخس ذ مسلعت) و (ورخس ذ سحر) و (ورخس ذ عم) و (ورخس ذ تمنع) و(ورخس ذ فرعم) ، و (ورخ ذ فقهو) [٣] . ويلاحظ أن اللهجة القتبانيـة تضع حرف (و) في نهاية (ابهى) (فقهى) ، فتقول : (ذ ابهو) ، و (ذ فقهو) بدلاً من (ذ ابهى) و (ذ فقهى) كما هو الحال في اللهجـات الأخرى ، مما يدل على ان هذا الحرف ، هو من خصائص هذه اللهجة [٤] .

وذكر (بيستن) أن الكتابات الحضرمية لم تذكر من أسمـاء الشهور إلا اسم شهر واحد ، هو (ورخس ذ صيد) [٥] .

ويلاحظ ورود لفظتي (قد من) و (اخرن) مع أسماء بعض الأشهر كما في هـذه الجمل : (ورخ ذ نسور قـد من) و (ورخ ذ نسور اخرن) ، و (ورخس ذ برم قد من) ، و (ذ برم اخرن) [٦] . ومعناهـا : (شهر

---

١ Beeston, p. 13 f.

٢ Jamme 642, 6, Mahram, p. 141.

٣ Rhodokanakis, Katab. I, S. 96, II, S. 5, Glaser, 1396, 1310, Die Inschri. an der Mauer von Kohlan — Tamna' 1924, S. 15, SE80, Beeston, p. 11 f.

٤ Beeston, p. 41, note : 4.

٥ Beeston, p. 15.

٦ Rhodokanakis, Die Inschri. an der Maner von Koblan — Timna' 1924, S. 52 ff., Glaser 1609, Beeston, pp. 11, 13, REP. EPIG. 3688, 3879.

ذو نسور الأول) و (شهر ذو نسور الثـاني) و (ذو نسور الآخـر) ، و (شهر ذو برم الأول) و (شهـر ذو برم الآخر) . وذلك أن لفظة : (قد من) تعني (الأقدم) و (الأول) . وأما (اخرن) ، فتعني «المتأخر والثـاني والآخر » . وذلك كما نفعل نحن اليوم إذ نقول (شهر ربيع الأول) و (شهر ربيع الآخر) و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخـرة) في التقويم الهجري ، و (كانون الأول) و (كانون الثاني) في التقويم الميلادي .

ويتبين من استعمال اللفظتين المذكورتين أن بعض العرب الجنوبيين ، ويجـوز أن يكونوا كلهم ، كانوا كالعرب الشماليين ومثل بعض الساميين ، قد استعملوا اسماً واحداً لشهرين ، وللتفريق بينهما أطلقوا لفظة (قد من) بعـد اسم الشهر الأول ، لتمييزه عن سميّه الشهر التالي له ، ولفظة (اخرن) أي المتأخر والتالي أو الثاني بعد اسم الشهر الثاني لتمييزه عن الأول المتقدم عليه .

ويظن أن شهر (ذ برم اخرن) ، (ذ برم الآخر) (ذ برم التـالي) أو (الثاني) إنما هو من شهور (الكبس) ، ولهذا فهو لا يكون في كل سنة ، بل في السنين المكبوسة فقط[١] .

ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن لبعضها معاني ذات علاقة بالجو ، ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو بالناحية الزراعية . ومن النوع الأول : (ذ دثا) ، (ذو دثا) وله معنى الربيع ، وهو مثل شهر (ربيع الأول) أو (ربيع الآخر) في التقويم الهجري . فـ (دثا) هو الربيع في المسند[٢] . وأما شهر (ذ خرف) فإن له صلة بموسم الخريف ، وقد يكون من شهور هذا الموسم . و (خرف) بمعنى (الخريف) الموسم المعروف بلغتنا ، وبمعنى سنة[٣] . وأما شهر (ذ قيضن) فإنـه من أشهر القيظ ، والقيظ هـو الحرّ ، فهو شهر من أشهر الصيف . و (القيض) ، بمعنى الصيف كذلك ، والموسم الذي تنضج اثمار الصيف فيه[٤] .

ومن الشهور التي لها علاقة بالزراعة ، شهر (ذ مذرن) ، (ذ مذران)

---

١ Beeston, p. 12.

٢ Jamme 610, 615, 618, 623, 627, 628, 650, 661, 666, 704.

٣ Mahram, p. 437.

٤ Mahram, p. 447.

(ذو مذران) ، ومعناه شهر البذر ، ولعله دعي بذلك لأن الزرّاع كانـوا يبذرون بذورهم للزرع فيه . وشهر (ذ صربن) ، (ذو صربن) . وهو من أشهر الخريف ، قد يكون في أوله وقد يكون في أواخره ، أي في ابتداء الشتاء، وهو يقابل شهر (صراب) من الأشهر المستعملة في العربية الجنوبية في أيامنا هذه . و (صربن) (صراب) ، بمعنى أثمار الخريف وحاصل الخريف ، أي غلة الخريف[1] .

ويرى بعض الباحثين أن لشهر (ذ ثبتّن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأنـه يعني الشهر الذي تتهاطل فيه الأمطار ، وتجمع فيه السيول لخزنها في السدود ، وأن لشهر (ذ مهلتّن) علاقة بالزراعة كذلك ، وأن في معناه (المهلة) أي التأخير في عمليات الزرع أو جمع الحاصل[2] .

ويظن أن للشهرين (ذ دونم) (ذ دنم)[3] و (ذ نيلم) علاقة بالزراعـة كذلك . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن معنى (دونم) (دينم) الدين ، وأن المراد بها الشهر الذي تجمع فيه ديوان المعبد . أي ضرائب المعبد . وذهب بعض آخر الى أن اللفظة من أصل (دون) ، ومعناها الإرواء والإسقاء ، وأن لهـذا الشهر علاقة اذن بشؤون الري . وأمـا (ذ نيلم) ، فإنه شهر حصاد الغلات وجمع الحبوب[4] .

ومن الشهور التي لهـا علاقة بالحياة الدينية ، (ذ عثتر) و (ذ الالت) و (ذ حجتن) و (ذ محجتن) و (ذ شمسى) وغيرها . وشهر (ذو عثتر) منسوب الى الإلـه (عثتر)[5] . وأما (ذ الالت) ، فبيّن الدلالة عـلى المعنى الديني كذلك . فإنه يعني شهر الآلهة . وأما (ذ حجتن) و (ذ محجتن) ، فهو مثل شهر (ذي الحجة في التقويم الهجري وفي معناه . وأمـا (ذ شمسى) (ذو شمس) فيجوز أن يكون نسبة الى الآلهة الشمس من الناحية الدينية ، ويجوز أن يكون نسبة الى الشمس من ناحية تأثيرها في الجو ، أي من ناحية تأثير حرارة

---

١ Jamme 594, 617, 631, 651, 655, 719.

٢ Beeston, p. 17.

٣ « ورخ ذ دنم » Jamme 633, 16'.

٤ Beeston, p. 17.

٥ Jamme 611, 7-8, Mahram, p. 108.

أشعتها في الناس وفي المزروعات . وذلك بكونه من أشد الشهور حراً ، فيكون هذا الشهر بذلك من أشهر الصيف .

ويفهم من جملة : « ورخ ذ هبس وعثتر » ، أن هناك شهراً اسمه شهر (هوبس وعثتر) ، أو شهراً اسمه (هوبس) ، نسبة إلى الإلـه (هوبس) وشهراً آخر اسمه (عثتر) ، نسبة إلى الإلـه (عثتر)[1] . وورد اسم الشهر (ورخ ذ عثتر) في جملة نصوص[2] .

والأشهر التي لها صلة بالحياة الدينية ، هي : (شهر الآلهة) (ورخ ذ ال الـ ت) (ذ الالت) ، و (شهر ذ حجتن) ، (ورخ ذ حجتن) ، و (شهر ذ محجتن) ، (ورخ دمحجتن) ، أي شهر المحجة . ويصعب في الوقت الحاضر علينا تثبيت أوقات هذه الأشهر المقدسة بالنسبة للمواسم ولترتيب الشهور ، لعدم وجود أدلة يمكن أن نستخرجها من النصوص لتثبيت زمن الحج عندهم مثلاً ، أو زمن الشهر المخصص للآلهة .

ونجد أسماء بعض الشهور مثل : (ذ سمع) ، تمثل صفة من صفات الآلهة . فـ (ذ سمع) يعني (ذو السمع) ، فالآلهة تسمع الناس وتجيب دعواتهم . كما نجد أسماء شهور أخرى تشير الى أمور دينية وطقوس . مثل شهر (ذ حضر)، فإنه شهر الأضاحي ، من (حضر) بمعنى ضحى ، أي ذبح ذبيحة للآلهة ، ومثل شهر (ابر) ، ومعناه (شهر حرق البخور) ، أو تقديم النذور ، أو النذور التي تقدم لمحارق الآلهة . وربما أدى اسم شهر (ذ نور) هـذا المعنى أيضاً ، فـ (نور) بمعنى نار . فيكون المعنى شهر النيران .

وقد ورد اسم الشهر (ورخ ذ ملت) ، (ورخ ذ مليت) في عدد من النصوص[3] . وهو من الأشهر التي لها صلة بموسم الزرع والمواسم . وهذه الأشهر هي : (ذ دثـا) ، و (ذ ملت) (ذ مليت) ، و (ذ قيضـن) ، و (ذ دنم) (ذ دونم) ، و (ذ نيلم) .

ومن الشهور الواردة في نصوص (هرم)،شهر (ذ سلام) (ورخ ذ س ل ا م).

---

١ راجع السطر ٧ ــ ٨ من النص : Jamme 611, MaMB 277.

٢ Jamme 567, 6-7, 607.

٣ Jamme 613, 10, 653, 10, 14.

وهناك احتمال بأن : (ذ موص ب م) ، و (ذ عثتر) ، و (ذ مخضدم) ، هي أسماء شهور كذلك . وقد ورد : (حين ذ مخضدم قد متن) ، مما يدل على أن اسم هذا الشهر هو مؤنث ، وهو الشهر الأول ، لوجود لفظة (قد متن) وأن هنالك شهراً آخر ، يمكن تسميته بـ (حين مخضدم الثاني)[1] .

ويظهر من أسماء هذه الشهور المتقدمة ، أن العرب الجنوبيين ، كانوا يسمون بعض أشهرهم بما يقع فيها من حوادث مهمة ، مثل موسم جمع الدبون أو التعبد للآلهة أو لإله معين ، أو للحج إلى المعابد ، أو بالظواهر الطبيعية التي تمتاز بها مثل الحر أو البرد ، أو بموسم الصيد .

وقد حاول (بيستن) تثبيت بعض شهور العرب الجنوبيين بالنسبة إلى المواسم وإلى الأشهر المستعملة في الوقت الحاضر ، فذهب إلى أن شهر (ذ ثبتن) قد يكون هو شهر آذار أو شهر نيسان ، وأن شهر (ذ قيضن) ، أي شهر القيظ ، بمعنى الحر ، الذي يقابل (رمضان) قد يكون شهر (مايس) أو حزيران ، وأن شهري (ذ خرف) ، و (ذ مذرن) قد يكونا تموز إلى ايلول ، وأن شهر (ذ داون) ، قد يكون شهر (اكتوبر) (تشرين الأول) ، وأن شهر (ذ صربن) قد يكون شهر (نوفمبر) (تشرين الثاني) ، وأن شهر (ذ معن) قد يقابل شهر (دسمبر) ، أي (كانون الأول)[2] .

وليس في امكاننا في الزمن الحاضر وضع تقاويم ثابتة كاملة للشهور في العربية الجنوبية . نعم ، يمكننا تثبيت بعضها استناداً الى معاني أسمائها كما رأينا ذلك فيما تقدم ، وذلك بأن نجعل الشهر الفلاني في الفصل الفلاني من فصول السنة مثلاً . ولكننا عاجزون عن ترتيب كل الشهور الإثني عشر ترتيباً زمنياً صحيحاً لنقص في علمنا بالشهور . ومن أجل الوصول الى ذلك ، لا بد من أن نتريث حتى تتهيأ لنا نصوص كثيرة جديدة ، قد تكون من بينها نصوص فلكية ، أو نصوص أخرى ترد فيها أسماء شهور جديدة ، وأسماء شهور مرتبة ترتيباً زمنياً يساعدنا على ترتيبها وتنظيمها في تقاويم منتظمة لمختلف القبائل العربية الجنوبية ودويلاتها . ولا بد لي هنا من الإشارة الى وجوب الاستعانة بالتقاويم المستعملة عند بقية الساميين

---

١ Beeston, p. 12.

٢ Beeston, p. 24.

وعند القبائل العربية الشمالية وعند القبائل الإفريقية التي كانت لها صلات بالعرب الجنوبيين ، لمطابقة شهورها على شهور التقاويم العربية الجنوبية وتثبيتها عندئذ على هذا الأساس .

ولم ترد في كتابات المسند أسماء الشهور المستعملة عند الشعوب السامية الشمالية، وهي : نيسان ومايس وحزيران وتموز وآب وايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار .

ويظهر أن سنة العرب الجنوبيين ، كانت تتكون من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة على اثني عشر شهراً ، ولأجل جعل هـذه السنة سنة طبيعية كاملة ، متفقة مع الدورة السنوية الحقيقيـة للأرض ، كانوا يعالجون ذلك بالكبس . إما بكبس بقية الأيام على السنة نفسها ، ويتم ذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر إضافي على التقويم في نهاية كل ثلاث سنين[١] .

وربما يدل اسم الشهر (ذ برم اخرن) ، (ذو برم الآخـر) ، وهو من شهور قتبان ، على انه شهر كبس ، يضاف إلى سنـة الكبس لتكون سنة شمسية تامة . وربما أدى اسم الشهر : (ذ نسور اخـرن) ، وهو من شهور السبئيين هذا المعنى كذلك . وهناك شهر اسمه (بين خرفنهن) أي (بين الشهرين) ، ربما يدل على الكبس ، واضافة شهر بين الشهرين ، لتكون السنـة كاملة ، أي كبس شهر على السنة الاعتيادية ، فتكون عدتها ثلاثة عشر شهراً ، وذلك بعـد السنين اللازمة ، لإصلاح التقويم ، حتى يكون مطابقاً لدورة الأرض حول الشمس[٢] . وقد كان العبرانيون يضيفون شهراً عـلى تقويمهم بسبب أن الشهور الاثني عشر القمرية لم تكن إلا (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فنقصت بذلك السنة اليهودية أحد عشر يوماً عن الرومانية ، ولسبب ذلك أدخل اليهود شهراً ثالث عشر كل ثلاث سنوات ، سموه (فيادارا) ، أي (آذار الثاني) ، وهكذا جعلوا طول السنة القمرية يعادل الشمسية تقريباً[٣] .

وقد ورد في النصوص اللحيانية اسم (منر) ، يظهر أنه اسم شهر ، يقـال

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Beeston, p. 18.

٣ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١ وما بعدها) .

له (مـسنر) ، أي (منير)[1] . واسم آخر هو (سمر) ، يظهر انه اسم شهر كذلك .

أما النصوص العربية الشمالية ، فهي بخيلة كل البخل في ايراد أسماء الشهور ، فلم يرد في النصوص العربية الخمسة المدوّنة بعربية قريبة من عربية القرآن الكريم من أسماء الشهور ، إلا اسم شهر واحد ، هو (كسلول) . وقـد ورد اسمه في (نص النمارة) . ويقابل هذا الشهر ، كانون الأول . ويدل استعمال النص لهذه التسمية على أن العرب الشماليين ، كانوا يستعملون التقويم البابلي في التأريخ .

و (كسلول) ، هو الشهر التاسع من الشهور المتـداولة في العراق وفي بلاد الشأم . وأصله (كسلو) ، وهو بابلي . وهذه الشهور هي : نيسان ، وزيو ، وسيوان ، وتموز ، وآب ، وايلول ، وايثانيم ، وبول ، وكسلو ، وطيبيت ، وشباط ، وآذار . وهي الشهور المقدسة عند العبرانيين[2] . ويقال لشهر نيسان شهر (أبيب) ، ولشهر (زيف) (أيارا) ، وأما (سيوان) فهو (سيوان) وتموز هو تموز ، وآب هو آب ، وأما أيلول فهـو أيلول ، وأما ايثانيم فهو تشرى (تسرى) و (تشريتو) ، وأما (بول) فهو مرشوان ، وكسلو هو (كسلو) ، و (طيبت) هو (تبت) ، ويسمى بـ (تمطرو) أيضاً . وأما (شباط) فهو (سبت) (شبات) ، وأما (اذار) فهو آذار[3] .

وقد ذكر الأخباريون أسماء أشهر ترك استعمالها في الاسلام ، ذكروا انها كانت مستعملة عند قدماء الجاهلية ، وهم العرب العاربة ، كما ذكروا أسماء شهور قالوا انها كانت أسماء الشهور عند ثمود ، وأسماء شهور قالوا انهـا الشهور التي كان يستعملها العرب عند ظهور الاسلام .

أما الشهور التي زعموا انها كانت شهور العرب العاربة ، فهي : المؤتمر ، وقد زعموا انه في مقابل المحرم ، وناجر ، وهو في موضع صفر ، وخوّان (وروي حوّان) ويقابل ربيعاً الأول ، ووبصان (ويقـال صوان وبصان) ، وهـو في مقابل ربيع الآخر ، والحنين أو شيبان ، وهو جمادى الأولى ، وملحـان وهو

---

١ Caskel, Lihyan, S. 129, 127.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٦٣٩/١) ، (شهر) ، Hastings, p. 936.

٣ The Bible Dictionary, vol. II, p. 182.

جمادى الآخرة ، والأصم ، وهو شهر رجب ، وعاذل (عادل) ، وهو شعبان ، وناتق ، وهو شهر رمضان ، ووعل وهو شوّال ، ورنة ، وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة . وذكر بعضهم أن خوّاناً اسم يوم من أيام الأسبوع ، وأن شيبان اسم كانون الأول ، وأن ملحاناً هو كانون الثاني . وهذا الترتيب الذي ذكرته هو كما جاء في رواية ابن سيدة [1] .

وذكر الفرّاء أن من العرب من سمّى المحرم المؤتمر ، وصفر ناجراً ، وربيع الأول خواناً ، وربيع الآخر بصان أو وبصان أو بوصان ، وجمادى الأولى الحنين [2] ، وجمادى الآخرة ورنة (ورنى) ، ورجب الأصم ، وشعبان وعلاً ، ورمضان ناتقاً ، وشوّال عاذلاً ، وذو القعدة هُواعاً ، وذ الحجة بركاً [3] . وذكرها غيره على هذا النحو : المؤتمر وهو المحرم ، وناجر وهو صفر . وخوّان ، وهو ربيع الأول ، ووبصان وهو ربيع الآخر ، وحنين وهو جمادى الأولى . وربي وربة لجمادى الآخرة . والأصم وهو رجب . وعادل وهو شعبان وناتق وهو رمضان . ووعل وهو شوال ، وورنة وهو ذو القعدة ، وبرك وهو ذو الحجة [4] .

ورتب المسعودي أسماء الشهور الجاهلية على هذا النحو : ناتق ، وثقيل ، وطليق ، وناجر ، وسماح (أسلخ) ، وأمنح (أميح) ، وأحلك ، وكسع ، وزاهر ، وبرط ، وحرف ، ونعس . وجعلها في مقابل المحرم ، وصفر ، فبقية الشهور . وذكر أن (نعساً) هو ذو الحجة [5] .

ورتبها البيروني على هذا النحو : المؤتمر ، وناجر ، وخوّان (حوّان) ، وصوان ، وحنّم أو حنين ، وزبّاء ، والأصم ، وعادل ، ونافق ، وواغل ، وهواع أو رنة ، وبُرّك [6] .

---

١ المخصص (٤٣/٩) ، الايام والليالي والشهور ، للفراء ، القاهرة ، ١٩٥٦ م (ص ١٨) ، المزهر (٢١٩/١) .
٢ بالفتح وبالضم ، المرزوقي (٢٧٩/١ وما بعدها) ، المزهر (٢٢٠/١) ، نزهة الجليس (٢١٨/١) .
٣ الايام والليالي والشهور ، للفراء ، (ص ١٧ وما بعدها) .
٤ صبح الاعشى (٣٧٨/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٠/٣) ، (أمر) .
٥ مروج الذهب (١١٠/٢) ، (١٩١/٢) ، (دار الاندلس) .
٦ الاثار الباقية (٦٠/١) « طبعة سخاو » ، « لايبزك ١٨٧٦ م » ، التقاويم (ص ١٦٧) .

ورتبها آخرون على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) ، وصوان ويقال فيه وبصان ، ورُبى ، وأيدة ، والأصم ، وعادل ، وناطل ، وواغل ، وورنة ، وبرك[1] . أو على هذا النحو : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، واسنح ، وانخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويغش .

وذكرها بعض آخر على هذا النحو : مؤتمر ، وناجر ، وخوّان ، وصوان، أو (وبصان) ، و (حنين) ورُبيّ ، وأيدة ، والأم ، وعادل ، وناطل، وواغل ، وورنة ، وبرك . أو هي : ناتق ، ونقيل ، وطليق ، وأسنح ، وأنخ ، وحلك ، وكسح ، وزاهر ، ونوط ، وحرف ، ويغش . وهناك من يقول : مؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصوان ، وحنتم ، وزبا ، والأصم ، وعادل ، وناقق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وما شاكل ذلك . وهناك آراء أخرى في ترتيب هذه الشهور وفي ضبط هذه الأسماء[2] .

وذكر علماء اللغة أن الخالص من الشتاء عند العرب شهران ، يطلقون عليهما (قماحاً) ، ويقال للشهرين : ملحان وشيبان[3] .

ويسمّون شهري القيظ الذي يخلص فيهما حرّه، شهري ناجر ، وذكر أنهما: وقدة وعكّان . وهذان الشهران هما بيضة الصيف[4] .

وذكر علماء اللغة كذلك ، أن شهرا (قماح) شهرا الكانون لأنهما يكره فيهما شرب الماء الا على ثفل . قال مالك بن خالد الهذلي :

فتى ما ابن الأغرّ إذا شتونا وحب الزاد في شهري قماح[5]

و (ملحان) اسم شهر جمادى الآخرة ، سمي بذلك لابيضاضه ، قال الكميت:

---

١ نهاية الارب (١/١٥٧) .

٢ وسيان وبصان اذا ما عددته وبرك لعمري في الحساب سواء
صبح الاعشى (٢/٣٦٨ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٤٤٤) ، اللسان (٨/٣٧٤) .

٣ الانواء (ص ١٠٥ وما بعدها) ، المرزوقي (١/٢٧٩) .

٤ الانواء (ص ١٠٦ وما بعدها) .

٥ تاج العروس (٢/٢٠٩) .

إذا أمست الآفاق حمراً جنوبها لشيبان أو ملحان واليوم أشهب

شيبان جمادى الأولى ، وقيل كانون الأول ، وملحان كانون الثاني[1] . وورد أن (شيبان) ، شهر فيه برد وغيم وصراد ، و (قماح) أشد الشهور برداً . وهما اللذان يقول من لا يعرفها كانون الأول وكانون الثاني[2] .

ويتبين من البيت المنسوب الى (الكميت) انهما كانا معروفين في أيامه .

وأما شهور ثمود على حد زعم الأخباريين ، فهي : موجب ، وموجر ، ومور (مورد) ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذيمر (ديمر) ، ودابر (دابل) ، وحيقل ، ومسيل (مسل)[3] . وضبطها بعض آخر على هذا النحو : موجب ، وموجز ، ومورد ، وملزج ، ومصدر ، وهوبر ، ومويل ، وموهب ، وذيمر ، وجيقل ، ومحلس ، ومسبل[4] . وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويذكرون انهم كانوا يبدأون في تقويمهم بذيمر ، وهو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم[5] .

وذكر أن (مُصْدِر) من أسماء جمادى الأولى[6] .

ونحن لا نستطيع في الوقت الحاضر التأكيد على أن هذه الشهور ، هي شهور (ثمود) ، كما لا نريد أن نقف منها موقفاً سلبياً ، فنقول إنها من مخترعات أهل الأخبار ، وضعوها على لسانهم وضعاً . وعندي أن من الخير لنا في الوقت الحاضر وجوب البحث عن كتابات ثمودية علنا نجد فيها أسماء أشهرهم .

أما الشهور التي ذكر الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور الإسلام ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثاني ، وجمادى

---

١ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٢ وقد أعاد ذكر بيت الكميت ولكن على هذه الصورة :
إذا أمست الافاق غبرا جنوبها بشيبان أو ملحان واليوم أشيب
تاج العروس (١/٣٢٨) ، (شاب) .
٣ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) ، الاثار الباقية (١/٦٣) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٨) .
٤ المرزوقي (١/٢٨٣) .
٥ بلوغ الارب (٣/٧٦ وما بعدها) .
٦ اللسان (٤/٤٥٠) ، (صدر) .

الأولى،وجمادى الآخرة ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة، وذو الحجة . زعموا أن أسماءها وضعت على هذه الصورة باتفاق حال وقعت في كل شهر منها ، فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . وذكروا التعليل الذي رووه عن كل تسمية . وذكروا أيضاً أن أول من سماها بهذه الأسماء هو كلاب بن مرّة . ومن هذه الشهور أربعة حرم لا يجوز فيها غزو ولا قتال[1] . وقال (الطبري) : « وكان المشركون يسمون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع ، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة[2] .

ويذكر الأخباريون ان الاسم القديم للمحرم هو صفر ،وانه كان يعرف عندهم بـ (صفر الأول) ، ثم قيل له (المحرم) . وقد عرف الشهران : المحرم وصفر لذلك بـ (الصفرين)[3] . ويظن ان هذه التسمية الجديدة : أي المحرم لصفر الأول انما ظهرت في الاسلام[4] . وذهب بعض علماء اللغة إلى أن لفظة (موجب) هي الاسم العادي للمحرم . أي التسمية القديمة لهذا الشهر عند قدماء العرب[5] . فلفظة (محرم) اذن ، لم تكن تسمية لذلك الشهر ، وانما كانت صفة له ، لحرمته ، ثم غلبت عليه ، فصارت بمنزلة الاسم العلم عليه . وأما اسمه عند الجاهليين ، فهو : صفر ، أي صفر الأول ، تمييزاً له عن صفر الثاني ، الذي اختص بهذه التسمية أي (صفر) بعد تغلب لفظة (المحرم) على صفر الأول . بحيث صار لا يعرف إلا به ، فصار صفر لا يعرف بعد ذلك إلا بـ (صفر) . وقد تغلبت لفظة (محرم) عليه ، لأنه شهر من الأشهر الحرم ، فهو (صفر)

---

١ بلوغ الارب (٣/٧٨) ، صبح الاعشى (٢/٣٦٤ وما بعدها) ، نهاية الارب (١/١٥٨) .

٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) ، صبح الاعشى (٢/٣٧٤ وما بعدها) .

٣ « اللهم اني قد أحللت لهم أحد الصفرين . الصفر الاول ، ونسأت الاخر العام المقبل » ابن هشام (١/٤٥) ، « أول من نسأ الشهور » ، اللسان (٦/١٣٣) ، البخاري (٢/٢٥٧) ، تاج العروس (٣/٣٣٦) .

٤ تاج العروس (٣/٣٣٦) .

Reste, S. Raccolta, vol. V, p. 169, Winckler, Zur Altarabischen Zeitrechnaung, in Altorientalische Farschungen, II, Reihe, Bd. 2, S. 324, 1900, Arabisch — Orientalish, Berlin, 1901, S. 81, in MVG., VI, 4-5, 1901.

٥ تاج العروس (١/٥٠٢) .

المحرم ، تمييزاً له عن (صفر) الثاني ، الذي لم يكن من الأشهر الحرم. ثم غلب المحرم عليه ، وماتت لفظة صفر منه . قال (السخاوي) : « إن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً ، وعندي انه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً »[1] .

وذكر أن المحرم لم يكن معروفاً في الجاهلية ، « وإنما كان يقال له ولصفر الصفرين ، وكان أول الصفرين من أشهر الحرم ، فكانت العربُ تارة تحرّمه ، وتارة تقاتل فيه ، وتحرم صفر الثاني مكانه » ، « فلما جاء الإسلام ، وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي صلى الله عليه وسلم ، شهر الله المحرم»[2].

ويتبين من دراسة أسماء هذه الشهور أن منها ما هو تكرار للاسم الواحد،وهي ربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ومجموعها أربعة أشهر، فهي ثلث السنة إذن . وتقع في النصف الأول من السنة وعلى التوالي ، تليها أشهر مفردة ، ثم شهران يبتدىء اسماها المركبان بكلمة (ذو) ، وهما : ذو العقدة وذو الحجة ، وهما آخر شهور السنة . وإذا صحت رواية من قال ان الاسم القديم للمحرم هو صفر الأول ، كانت الأشهر المكونة للنصف الأول من السنة أشهراً مزدوجة تتألف من ثلاثة أزواج ، هي : صَفَران ورَبيعان وجماديان[3] .

وإذا درسنا أسماء هذه الشهور الجاهلية التي ذكرها أهل الأخبار ، وجدنا أنها لا تشبه أسماء الشهور البابلية ولا الشهور السريانية والعبرانية . وهي لا تشبه كذلك أسماء الشهور الواردة في المسند. فليس في الذي بين أيدينا من أسماء للشهور العربية الجنوبية على اختلافها ما يشبه هذه الشهور .

وقد انتبه علماء العربية الى أن أسماء بعض الأشهر التي استعملت في الاسلام ، مثل رمضان ، لا تنطبق مع المعاني التي يفهم منها ، فرمضان من الرمض، وهو الحر الشديد ، مما يدل على انه من أشهر الصيف ، بينما هو شهر متنقل ، يأتي في كل المواسم ، فلجأوا الى تعليل مصطنع ، على عادتهم عند وقوفهم على اسم لا يعرفون عن أصله شيئاً ، فقالوا : « يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٢ المزهر (١/٣٠٠) .
٣ Reste, S. 95, Shorter, p. 409.

القديمة سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر ، فسمي بذلك »[1] ، ولم يعرفوا أن ذلك بسبب اتباع الاسلام التقويم القمري ، مما دعا الى تحرك الشهور وتنقلها في الفصول ، لكون الشهور القمرية غير ثابتة على نمط الشهور الشمسية .

ويبدأ الجاهليون بالمحرم ، فهو أول السنة عندهم[2] ، وهو أيضاً الشهر الأول من شهور السنة الهجرية في الاسلام . وأرى ان اتخاذ المسلمين للمحـرم ، مبدءاً للسنة الأولى من الهجرة ، وجعله الشهر الأول من التقويم الهجري ، هو من الأمور التي أبقاها الاسلام من أمور الجاهلية ، لأن هجرة الرسول الى المدينة لم تكن في شهر (محرم) حتى نقول إن المسلمين جعلوا (المحرم) الشهر الأول من السنة الهجرية ، لهذه المناسبة ، إذ كانت الهجرة في شهر ربيع الاول ، وأرخ بها[3] ، لذلك يكون الابتداء بشهر محرم ، هو اقرار لما كان عليه الجاهليون من ابتدائهم بـ (محرم) ، مبدءاً لشهور السنة . وقد قيل إن وصوله المدينة كان يوم الاثنين الثامن من ربيع الاول ، وقيل لثنتي عشرة منه ، وقيل دخل لهلال ربيع الاول ، وقيل غير ذلك[4] .

وقد أورد العلماء شروحاً وتفسيرات لمعاني الشهور المتقدمة الجاهلية ، والشهور التي استعملت في الإسلام واقترنت بالتقويم الهجري . فذكروا مثـلاً أن المؤتمر معناه أن يأتمر بكل شيء مما تأتي به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر ، وهو شدة الحر ، وخوان من الخيانة ، وصوان من الصيانة ، والزباء بمعنى الداهيـة العظيمة المتكاثفة سمّي بذلك لكثرة القتال فيه وتكاثفه ، والبائـد سُمي لأنه كان يبيد فيه كثير من الناس ، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ ما كان لهم من الثأر والغارات قبل دخول شهر رجب وهو شهر حرام ، والأصم لأنهم كانـوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شراب ولم يدعوه ، وذلك لهجومه على شهر رمضان ، وكان يكثر في رمضـان شربهم

---

١ المزهر (١/٢٢٠) .
٢ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) .
٣ تأريخ الطبري (٤/٣٨) ، اليعقوبي (١/١٣٥) ، « أيام عمر بن الخطاب » ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٥) ، (حاشية على الروض) .
٤ امتاع الاسماع (١/٤٤) .

للخمر ، لأن ما يتلوه شهور الحج ، وناطل مكيال للخمر ، سمي لإفراطهم في الشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال ، والعادل من العدل ، لأنه من أشهر الحج، وكانوا يشتغلون فيه عن الناطل ، والرنة كانت الأنعام ترن فيه لقرب النحر ، وبرك سمي لبروك الإبل إذا أحضرت المنحر[1] .

وعللوا تسمية المحرم بهذا الاسم ، لكونه من جملة الحرم ، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية ، وشهري الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار ، وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن الخريف ، وكانوا يسمونه ربيعاً ، وشهري جمادى لجمود الماء فيها ، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه ، لا من جهة القتال ، أو لخوفهم إياه ، يقال : رجبت الشيء ، اذا خفته ، وشعبان لتشعب القبائل فيه ، ورمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحر ، وشوال لارتفاع الحر وادباره ، وذي القعدة للزومهم منازلهم ، وذي الحجة لحجهم فيه[2] .

وعلل بعضهم تسمية الاشهر بقوله : سمي المحرم محرماً تأكيداً لتحريمه ، لأن العرب كانت تتقلب به ، فتحله عاماً وتحرمه عاماً ، وسمي صفر بذلك ، لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار . وشهر ربيع الاول ، سمي بذلك ، لارتباعهم فيه ، والارتباع الاقامة في عمارة الربع ، وربيع الآخر كالاول . وجمادى : سمي بذلك لجمود الماء فيه . ورجب من الترجيب ، وهو التعظيم . وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة . ورمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق ، وذو القعدة ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، وذو الحجة : لايقاعهم الحج فيه[3] .

ويظهر من تفسير أسماء بعض الاشهر وتعليلها أن لتسمياتها علاقة بالمواسم وبالعوارض الطبيعية الجوية مثل البرد والحر والاعتدال في الجو ، وأن مسمياتها ، أي الشهور المسماة بها ، كانت شهوراً ثابتة في الاصل ، وإلا فلا يعقل تفسيرها

---

١ الاثار الباقية (١/٦١) ، المرزوقي (١/٢٧٥ وما بعدها) .

٢ الاثار الباقية (١/٦٠) ، الفراء (ص ٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٨) ، المسعودي ، مروج (٢/١٨٨ وما بعدها) ، (ذكر سنى العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) ، وتجد تفسيرات عديدة أخرى في تعليل تسمية هذه الاشهر، تدل على أنها مما وضعه الرواة فيما بعد ، حينما احتاج الناس الى التعرف على سبب التسميات ، صبح الاعشى (٢/٣٧٥ وما بعدها) .

٣ ابن كثير (٢/٢٥٤) ، المسعودي ، مروج الذهب (٢/١٨٨ وم بعدها) .

بغير هذا التفسير . فكيف يسمى رمضان رمضان مثلاً لرمض الحجارة من شدة الحر فيه ، إن لم يكن ثابتاً وشهراً من أشهر الصيف الحارة ؟ وكيف يسمى جمادى بجمادى لجمود الماء فيه ، إن لم يكن هو والشهر التالي له والمسمى بجمادى الآخرة ثابتين ، ومن أشهر الشتاء ؟ وهكذا يجب أن يقال عن بقية الشهور ، وإلا لم يصح ما قيل فيها من التفاسير[1] . وقد فطن (المسعودي) إلى ذلك فقال: « وجمادى ، لجمود الماء فيها في الزمان الذي سميت به هذه الشهور ، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك »[2] . فأدرك ان شهور العرب في الجاهلية كانت أشهراً تمثل ظواهر طبيعية مثل الحرارة والبرودة في الاصل ، لكنه لما وجد – كما وجد غيره أيضاً – أن أوقات الشهور هي متغيرة ، بحيث لا تستقر على قرار في المواسم ، ذهب إلى أن الجاهليين لم يكن لهم علم بأن الحر والبرد يدوران ، مع انهم كانوا على علم تام بذلك ، فكانت أشهرهم ثابتة ، ولم يفطن المسعودي إلى ذلك ، لأنه أخذ حكمه من الوضع الذي كانت عليه الاشهر في الاسلام ، ولم يفطن إلى أن إبطال النسيء في الاسلام ، هو الذي أطلق هذه الحرية للأشهر فصارت تدور بحرية وتدخل في كل المواسم ، ولم تتقيد بالوقت الذي خصصت به . ولما تكلم (المسعودي) عن الشهور قال : « شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب : وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة ولا على حساب سنة الشمس ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربيع وتارة في غيره من فصول السنة »[3] .

ويعد شهر شوال أول شهر من أشهر الحج ، وكانت العرب تتطير من عقد المناكح فيه ، وتقول : إن المنكوحة تمتنع من ناكحها ، ولذلك كانت الجاهلية تكره التزويج فيه لما فيه من معنى الاشالة والرفع الى أن جاء الاسلام بهدم ذلك[4] .

الاسبوع :

ويقسم الشهر الى أربعة أقسام ، كل قسم منها هو اسبوع ، ويتكون من

---

١ الاثار الباقية (٦٢/١) .
٢ المسعودي ، مروج (١٨٩/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢ وما بعدها) .
٣ مروج (١٩٢/٢) .
٤ تاج العروس (٤٠١/٧) ، (شول) ، صبح الاعشى (٣٧٦/٢) .

سبعة أيام . وتعزى فكرة هذا التقسيم الى البابليين . ولكن ضبط الأسابيع وتتابعها على النحو المعروف حتى اليوم هو نظام ظهر بعدهم بأمد[1] . وقد ذكر الاسبوع (شبوعة) Shabu'a في التوراة ، في سفر التكوين[2] . وعلى أساس الجمع بين السبت اليهودي وقصة الخلق ، نظم الاسبوع بحسب العرف الشائع اليوم[3].

ولا أعرف للاسبوع اسماً في المسند ، إذ لم ترد لفظة (اسبوع) أو أية لفظة أخرى مرادفة لها في تلك النصوص[4] . غير أن هناك نصاً من نصوص قوانين البيع والشراء ، ذكر أن إنساناً إذا اشترى حيواناً ، ثم مات ذلك الحيوان بعد سبعة أيام من يوم البيع ، فلا يكون البائع مسؤولاً عن وفاته ، ولا يتحمل أي ضرر عنها[5] . فلعل النص على هذه الأيام السبعة ، يشير الى وجود فكرة الاسبوع عند العرب الجنوبيين .

وقسم الجاهليون الشهر الى عشرة أقسام . يتألف كل قسم منها من ثلاث ليال . هي : غرر . والغُرر : ثلاث ليال من أول كل شهر . وغرة الشهر ليلة استلال القمر[6] . ونفل أو شهب وتسع أو بهر . وهي الليلة السابعة والثامنة والتاسعة[7] وعشر وبيض ودرع وظلم وحنادس أودهم ودادىء (داداً) ومحاق[8] . ويذكر أهل الأخبار « أن العرب في الجاهلية إذا كان يوم المحاق من الشهر بدر الرجل الى ماء الرجل اذا غاب عنه فينزل عليه ويسقي به ما له ، فلا يزال قيم الماء ذلك الشهر وربه حتى ينسلخ ، فإذا انسلخ كان ربه الاول أحق به . وكانت العرب تدعو ذلك المحيق »[9] .

---

١ Universal Jewish Encyclopaedia, vol. 10, p. 482.

٢ التكوين الاصحاح السابع ، الاية ٤ وما بعدها ، والاصحاح الثامن الاية ١٠ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١/٧٩) .

٣ Universal Jewish Encylopaedia, 10, p. 482.

٤ Beeston, p. 3.

٥ Rep. Epigr. 3910.

٦ اللسان (٥/١٥) ، (غرر) .

٧ اللسان (٤/٨١) ، (بهر) .

٨ اللسان (٦/٥٨) ، (حندس) ، اللسان (١٠/٣٣٩) ، (محق) ، (أسماء أيام الاسبوع وأسماء العدد وتفسير معانيها) ، لانيس فريحة ، الابحاث ، السنة (١١) الجزء الاول (١٩٥٨ م) (ص ٣٢) .

٩ اللسان (١٠/٣٣٩) ، (محق) .

وذكر بعض أهل الاخبار ، أن العرب كانت « تسمي الثلاث الاولى من ليالي الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التي تليها ثلاث سَمَر ، والثلاث التي تليها ثلاث زهر ، والثلاث التي تليها ثلاث درر ، والثلاث التي تليها ثلاث قمر ، وثلاث بيض ، وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول ثلاث درع ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث ظلم ، وفي الثلاث التي تليهـا ثلاث حناديس ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث دواري ، وفي الثلاث التي تليها تلاث محاق . وقيـل انه يقال لليالي الشهر : ثلاث هلل ، وثلاث قمر ، وست نقـل ، وثلاث بيض ، وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاق[1] .

الأيام :

واليوم في عرف علماء اللغة من طلوع الشمس الى غروبها[2] . ولكنهم يتوسعون في معناه أيضاً ، فيقصدون به معاني أخرى ، مثل الدهر . أمـا في الاصطلاح فإنه جزء من أيام الاسبوع والشهر والسنة . وهو ليل ونهار ،وهما مجتمعان يكونان اليوم . فاستعمل اليوم على وجهين : أحدهما أن يجعل اسماً للنهار خاصة . والوجه الآخر أن يكون اليوم اسماً للمدة الجامعة للزمانين جميعاً ، أعني الليل والنهار[3] .

واعتبر الجاهليون مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فبابتداء الغروب التالي له . فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عـن الأفق الى غروبها من الغد ، فصارت الليلة عندهم قبل النهار[4] .

ولهذا السبب غلبت العرب الليالي على الايام في التأريخ ؛ « لأن ليلـة الشهر سبقت يومه ، ولم يلدها ، وولدته ، ولأن الاهلة لليالي دون الايام ، وفيها دخول الشهر »[5] . والعرب تستعمل الليل في الاشياء التي يشاركه فيها النهار ، فيقولون :

---

١ مروج (٢/١٩٥) ، وتختلف هذه التسميات باختلاف روايات أهل الاخبار ، صبح الاعشى (٢/٣٧٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٢/٦٤٩) « صادر » « يوم » ، صبح الاعشى (٢/٣٣٩) .

٣ الازمنة والانواء ، لابن الاجدابي (ص ٢٨) ، (الدكتور عزة حسن) ، (دمشـق ١٩٦٤ م) .

٤ الاثار الباقية (١/٥ وما بعدها) ، ابن الاجدابي (٢٨) .

٥ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

أدركني الليل بموضع كذا ، وصمنا عشراً من شهر رمضان ، وإنما الصوم للأيام، ولكنهم أجازوه إذ كان الليل أول شهر رمضان[1] .

أما اليونان ، فقد عدّوا مبدأ اليوم عند شروق الشمس ، وأما منتهاه فابتداء شروق آخر ، وذلك بخلاف الرومان الذين عدّوا منتصف الليل هو ابتداء اليوم . ومنتهاه عند منتصف ليلٍ تالٍ له[2] . وقد عدّ التقويم العبراني (لوح) ، مبدأ اليوم من وقت غروب الشمس . وأما انتهاؤه فابتداء الغروب التالي له[3] .

وذكر أن العرب خصصوا من الشهر لليالي بأسماء مفردة كآخر ليلة منه ، فإنها تسمى (السرار) لاستسرار القمر فيها ، وتسمى (الفحمة) أيضاً لعدم الضوء فيها ، ويقال لها البراء ، وكآخر يوم من الشهر ، فإنهم يسمونه النحير ، وكالليلة الثالثة عشرة ، فإنها تسمى السواء ، والرابعة عشرة ليلة البدر[4] .

وقد عرف اليوم بـ (يوم) في نصوص المسند كذلك . كما وردت فيها لفظة (ليلم) ، أي (ليل) للتعبير عن الليل ، أي اللفظة ذاتها التي تستعملها عربية القرآن الكريم . ووردت فيها لفظة (صبحم) بمعنى صبح وصباح . ولا بد أن تكون في لهجات العرب الجنوبيين مسميات لأقسام الليـل والنهار على نحو ما نجده في عربية القرآن الكريم . ولا يستبعد أن يظفر بها الباحثون بعد قيام العلماء بحفريات علمية منظمة في العربية الجنوبية .

وقد أوردت كتب اللغة والاخبار أسماء الايام التي كان يستعملها بعض الجاهليين، ويتبين منها أن الجاهليـين كانوا يسمون الأيام بأسماء مختلفة متباينة حسب تباين الأماكن والقبائل . وقد ماتت تلك الاسماء الجاهلية ، وحلت محلها أسماء متأخرة لم تكن معروفة عند قدماء الجاهليين . فأسماء الايام عند بعض الجاهليين ممن أخـذ علماء اللغة عنهم ، هي كما زعموا : (شيار) ويراد به السبت ، وأول ويراد به الاحد ، وأهون ، وأوهد ويراد بها يوم الاثنين ، وجُبار ويراد بـه الثلاثاء ، ودبار ويراد به الأربعاء ، ومؤنس ويراد به الخميس ، وعَرُوبة أو العَرُوبـة

---

١ بلوغ الارب (٣/٢١٦) .

٢ Dictionary of Classical Antiquities, p. 110.

٣ The Jewish Encyclopaedia, III, p. 501.

٤ الاثار الباقية (١/٦٤) .

أي بالتعريف ويراد به الجمعة[1] .

وقد جمعت أسماء الايام القديمة المذكورة في هذين البيتين :

أؤمل أن أعيش ، وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو التالي دبار ، فإن أفته فمؤنس فالعروبة أو شيار

وهي أبيات ، يرى بعض علماء اللغة انها موضوعة[2] . وقد زعم (ابن كثير) أن البيتين المذكورين من شعر العرب العرباء المتقدمين[3] .

وقد نسب بعض هذه الأخبار هذه الأيام إلى العرب العاربة من بني قحطان وجرهم الأول[4] .

ويذكر علماء اللغة أن أيام الاسبوع المعروفة والمتداولة عندنا في الزمن الحاضر ، وهي : الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة والسبت ، هي أسماء إنما عرفت وظهرت في الإسلام[5] . ولكنهم لم يذكروا ، ويا للأسف ، متى كان ظهورها ولا في أية سنة كان ذلك ، أكان ذلك في مكة أي قبل الهجرة أم بعد الهجرة الى المدينة ؟ وقد ذكر (المسعودي) هذه الايام ، ثم قال : « وكانت العرب تسميها في الجاهلية : الاحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والاربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار »[6] .

---

١ المخصص (٤٢/٩) ، « أسماء الايام في الجاهلية » ، نهاية الارب ، للنويري (١٤٢/١) ، مروج الذهب (١١٠/٢) ، الاثار الباقية (٦٤/١) ، الايام والليالي والشهور للفراء (ص ٦) ، شرح القاموس (٥٤٩/٢) ، (٣٠٦/٥) ، صبح الاعشى (٣٥٤/٢) ، نهاية الارب (١٤٨/١) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) ، المزهر (٢١٩/١) ، Ency. IV, p. 1210.

٢ اللسان (٥٩٣/١) ، (عرب) ، المسعودي ، مروج (١٩١/٢) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) ، صبح الاعشى (٣٦٥/٢) ، اللسان (٢٧٥/٤) ، (دبر) ، نزهة الجليس (٢٩١/١) ، وتجد بعض الاختلاف في النص .

٣ تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٤/٢) .

٥ الاثار الباقية (٦٣/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١ وما بعدها) ، الابحاث (١٩٥٨ م) (حـ ١ ص ٣٣) ، نهاية الارب ، للنويري (١٤٢/١) .

٦ المسعودي ، مروج (١٩١/٢) .

وهناك من اللغويين والأخباريين من يرى أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن العرب العاربة لم تكن تعرف هذه الأسماء[1] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، أن الايام المذكورة ، هي ما نطقت به العرب المستعربة من ولد اسماعيل ، وهي مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة ، وهي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت[2] .

ولا يملك الاخباريون دليلاً مقنعاً يثبت لنا بجلاء أن أيام الاسبوع المعروفة اليوم إنما وضعت في الاسلام . وفي رواياتهم عن يوم الجمعة ما يخالف زعمهم هذا . ثم إن كلمة (السبت) وردت في آية مكية[3] . وورودها في آية مكية دليل على وقوف أهل مكة عليها ومعرفتهم بها . أما لفظة (الجمعة) ، فقد وردت في سورة مدنية ، أي أنها نزلت بعد الهجرة[4] .

وعندي أن أسماء أيام الاسبوع المستعملة عندنا كانت معروفة في يثرب وفي مكة قبل الاسلام . وقد تعلمها أهل يثرب من اليهود ، من اختلاطهم بهم . فإن هذا الترتيب للأسبوع مبني على قصة الخلق الواردة في التوراة . ولا بد لذلك لمستعملي هذا الترتيب من أن يكونوا قد تعلّموه من مصدر يهودي أو من مصدر له صلة باليهود ، أو من النصارى الساكنين بيثرب أو بمكة . فإننا نعرف أن العبرانيين كانوا لا يسمون أيام الاسبوع بأسماء خصوصية ، ولكنهم كانوا يعدّونها بحسب ترتيبها ، فيقولون اليوم الأول والثاني والثالث كما هو في العربية ، إلا يوم الجمعة والسبت، فقد كانوا يسمون الجمعة (عريب شبات) Ereb Shabat ، ومعناه (مساء السبت) و (عشية السبت) . وأما السبت ، فهو (شبت) (شبات) ومعناه الراحة Rest ، وذلك لاعتقادهم ولما ورد في سفر التكوين: أن الله خلق العالم في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع . فسموا هذا اليوم :

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٥) .
٢ صبح الاعشى (٢/٣٦٥) .
٣ النحل : الاية ١٢٤ .
٤ الجمعة : الاية ٩ .

(يوم الراحـــة) (يوم ها - شبـــات) yom ha-shabbat . واختصرت بـ (شبات) أي السبت[1] .

ولست أعرف نصاً من نصوص المسند ، ورد فيه اسم معين ليـــوم من أيام الاسبوع،مثل الجمعة أو السبت أو الاحد وغير ذلك . وكل ما نعرفه من النصوص أن العرب الجنوبيين كانوا يذكرون موقع اليوم من الشهر ، فيكتبون في اليـــوم السابع من الشهر الفلاني ، أو في اليوم الخامس عشر منه ، أو في اليوم العشرين منه ، وهكذا . وذلك لتعيين مكان اليوم من الشهر . وطريقتهم هـــذه طريقة معروفة عند الساميين وعند غيرهم ، وهي لا تزال مستعملة حتّى في هـــذه الأيام كتابة وفي الاستعمال الاعتيادي وفي التوريخ ، وذلك للسهولة والاختصار .

ولا نستطيع أن نتحدث عن اليوم المهم في الاسبوع مثل يوم السبت عند اليهود أو يوم الأحد عند النصارى وعند الوثنيين ، وإن كـان في بعض الروايات مـــا يفيد أن يوم الجمعة كان من الايام المعظمة في نظر قريش ، وقـد عرف عندها بـ (يوم العروبة) ، وكانت تجتمع في كل جمعة الى كعب بن لؤي بن غالب فيخطب فيها ، وأنه هو الذي سمى يوم العروبة يوم الجمعة ، وذلك لتجمع الناس حوله في ذلك اليوم[2] .

وقيل : إن يوم الجمعة لم يعرف بهذا الاسم إلاّ في الاسلام[3] . وأن الانصار هم الذين بدلوا اسم (يوم العروبة) فجعلوه (الجمعـــة) ، ذلك أنهم نظروا فإذا لليهود يوم في الاسبوع يجتمعون فيه ،وللنصارى يوم يجتمعون فيه هو الاحد، فقالوا : مالنا لا يكون لنا يوم كيوم اليهود أو النصارى ، فاجتمعوا الى سعـــد ابن زُرارة ، فصلى بهم ركعتين وذكرهم،فسموا ذلك اليوم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله سورة الجمعة ، فهي على حد قول أصحاب هـذه الرواية أول جمعة في الإسلام[4] . وقد انتبـــه بعضهم الى خطل رأي من ذهب الى أن يوم الجمعة انما سمي بهذه التسمية في الاسلام ، فقال إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا

---

١ The Jewish Encyclopedia, Vol., III, p. 502, Art : Calender.

٢ تاج العروس (٣٠٦/٥) ، بلوغ الارب (٢٧٣/١) .

٣ الايام والليالي (ص ٦) .

٤ صبح الاعشى (٣٦٣/٢) ، بلوغ الارب (٢٧٤/١) .

الاسم قبل أن يصلي الأنصار الجمعة[١] .

وقد انتبه علماء العربية الى اسم (يوم عروبة) ، فقالوا : هو اسم قديم للجمعة. (وكأنه ليس بعربي)[٢]. و (عروبة) بمعنى غروب في السريانية وفي العبرانية، وقد سمي اليوم السابق للسبت (عروبة) ، لأنه غروب ، أي مساء نهار مقدس[٣] .

وذكر أهـل الأخبار ، أن كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقيت ، وأربع وعشرين ، وأربـع بقين ، فهي : (أيام نحسات)[٤] . ونظراً لورود الاشارة الى هـذه الأيام في كتب أهل الأخبار ، ولاعتقاد الجاهليين بالنحس ، وبوجود نجمين للسعد وللنحس، كما في قول الشاعر :

يومين غيمين ويوماً شمسا نجمين بالسعد ونجماً نحسا[٥]

فإن في استطاعتنا القول بوجود الأيام النحسات عند الجاهليين .

ويقسم النهار والليل الى اثني عشر قسماً ، كـل قسم منها ساعة ، فيكون مجموع ساعات اليوم أربعاً وعشرين ساعة . وساعتنا المعروفة مأخوذة من الساعة السومرية البابلية ، فقد قسّم البابليون الليل والنهار الى ساعات متساوية هي اثنتا عشرة ساعة لكل من الليل والنهار ، وجرى الناس على هذا التقسيم حتى اليوم[٦] .

وذكر بعض علماء اللغة أن (الآناء) الساعات . وكان الجاهليون اذا شغلوا انساناً بالساعات ، قالوا لذلك (المساوعة)[٧] .

ويروي الأخباريون أن العرب وضعت لساعات النهار والليل أسماء غير مستعملة عندنا ، فأما ساعات النهار ، فهي : (الذرور) (الدرور) ثم البزوع (البزاغ) ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الهاجـرة ، ثم الزوال ، ثم الدلوك ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصبوب ، ثم الحدود ، ثم الغروب . ويقال فيها أيضاً : البكور

---

١ صبح الاعشى (٢/٣٦٣) .
٢ اللسان (١/٥٩٣) ، (عرب) .
٣ الابحاث ، السنة (١٩٥٨م) ، (حـ ١ ص ٤٨) .
٤ المسعودي ، مروج (٢/١٩١) .
٥ تفسير الطبري (٤/٦٧) .
٦ Alfred Jeremias, Handbuch der Altorientalischen Geisteshultur, Leipzig, 1929, S. 29.
٧ المخصص (٩/٤٤) .

ثم الشروق ، ثم الاشراق ، ثم الرأد ، ثم الضحى ، ثم المتوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطَّفل ، ثم العشي ، ثم الغروب[1] .

وأما ساعات الليل ، فهي على حد قولهم : الشاهد[2] ، ثم الغسق ، ثم العتمة ، ثم الفحمة ، ثم الموهن ، ثم القطع ، ثم الجوسر (الجوس) (الجوشن) ، ثم العبكة ، ثم التباشير ، ثم الفجر الأول ، ثم المعترض ، ثم الإسفار . وأسماء أخرى يذكرها اللغويون[3] ، حيث يروون أن الجاهليين كانوا يقسمون اليوم الى أربع وعشرين ساعة . غير ان من الصعب العثور على دليل يفيد وجود هذا التقسيم عندهم[4] .

ويقول أهل مكة بوجود فجرين ، أحدهما قبل الآخر . فالفجر الأول هو الفجر الكاذب ، ويسمى (ذنب السرحان) لدقته . والفجر الثاني هو الفجر الصادق ، ويقال له (المستطير) ، ومنه الحديث : « ليس بالمستطيل ، يعني الفجر الأول ، ولكن المستطير » ، يريد المنتشر الضوء . ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود[5] .

وهناك شفقان ، أحدهما قبل الآخر : الشفق الأحمر ، والشفق الأبيض . وهو يغرب في نصف الليل[6] .

ويقال لليوم الذي يسبق اليوم الذي نحن فيه . يوم أمس ، أو الأمس ، ونهار أمس . أما البارحة ، فيراد بها أقرب ليلة مضت ، أي الليلة الماضية . وأما اليوم الذي يلي اليوم الذي نحن فيه ، فهو نهار الغد ، والغد ، وبكرة .

---

١ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) ، نهاية الارب (١/١٤٧) .
٢ « الشاهد يوم الجمعة ... وصلاة الشاهد صلاة المغرب ... » ، تاج العروس (٢/٣٩٢) .
٣ بلوغ الارب (١/٢٧٤) ، « الهتكة » ، صبح الاعشى (٢/٣٤٨) .
٤ Ency., IV, p. 1210.
٥ الانواء (ص ١٤٣) .
٦ الانواء (ص ١٤٣ وما بعدها) .

الفصل الثاني والثلاثون بعد المئة

الاشهر الحرم

قسّم الجاهليون شهور السنة الى قسمين : أشهر اعتيادية هي ثمانيــة شهور . وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بآلهتهم ، لا يجوز فيها قتال ولا بغي ولا انتهاك لحرمات . وكانوا يقاتلون في الشهور الثمانية يغزون بعضهم بعضاً ، ويغيرون بعضهم على بعض . ثم يتوقفون عن القتال في الشهر الحرم الباقية .

والأشهر الحرم هي أربعة : ثلاث متواليات سرد ، وهي : ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر منفرد هو شهــر (رجب)[1] . فهي ثلث السنة اذن . وكان الجاهليون يعظمونها ، ولا يستبيحون القتال فيها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ، استعظاماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدنة تستريح فيها القبائل فتنصرف الى الكيل والامتيار والذهاب الى الأسواق،وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتداءً ولا هجوماً مفاجئاً . وتحريم هذه الأشهر ضرورة من الضرورات استوجبتها طبيعة الحياة في البادية ، فأهل البادية بما هم فيه من فقر وضنك عيش يتنافسون فيما بينهم ويتقاتلون على الكلأ والماء وعلى أخذ حق المرور من القوافــل وعلى الغزو والغارات يعيشون . وحياة عاصفة هذا شأنها لا بد لها من فترة تستريح

---

١ بلوغ الارب (٣/٨٢) ، روح المعاني (١٠/٩٠) ، كتاب الازمنة والامكنة للمرزوقي (١/٢٢١ وما بعدها) ، (طبع حيدرآباد الـدكن ١٣٣٢ هـ) ، تفسير الطبــري (١٠/٨٨) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

فيها ، وتمتار فيها ، وتصفّي فيها حسابها بدفع أثمان الديات بهدوء وبتسوية المشكلات بالمساومة والمفاوضة ، وتلك الفترة هي الأشهر الحرم .

هذا ما يذكره ويرويه العلماء عن الشهور بصورة عامة . ويجب حمل كلامهم هذا على قريش ومن والاها،وعلى القبائل التي كان للعلماء اتصال بها وعلم بأخبارها أما القبائل البعيدة عنهم ، والقبائل التي لم يتصلوا بها اتصالاً وثيقاً ، فنحن لا نستطيع أن ندخلهم في هذا الكلام فنقول انهم كانوا يحرمون أشهراً ويحرمون أخرى ، لعدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك ، وسنبقى على رأينا هذا حتى يظهر لنا دليل يؤيده أو ينفيه .

والمذكورون قوم يحرمون إذن شهوراً ويحلّون أخرى ، لا يقاتلون ولا يغزون في شهور ، حرمة وتقديساً لها ، إلا عن ضرورة ولحاجة ، ويقاتلون ويغزون في الأشهر الأخرى المتبقية من السنة ، فيقصرون نشاطهم في الغزو وفي الأخذ بالثأر على أشهر الحل فقط .

قال (الطبري) في تفسيره الآية : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »[1] : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، وهي الأربعة التي عددت لك ، يعني عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيعاً الاول ، وعشراً من شهر ربيع الآخر . وقال قائلو هذه المقالة : قيل لهذه الأشهر الحرم ، لأن الله عزّ وجل حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والعرض لهم إلا بسبيل خير »[2] . وقال (النيسابوري) في تفسيرها : « واختلفوا في الأشهر الأربعة ، فعن الزهري أن براءة نزلت في شوال ، والمراد : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقيل : هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر . وكانت حرماً لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم ، أو سميت حرماً على التغليب لأن ذا الحجة والمحرم منها . وقيل : ابتداء المدة من عشر ذي القعدة الى عشر من ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان .

---

١ التوبة ، الرقم ٩ ، الاية ٥ .

٢ تفسير الطبري (١٠/٥٦) .

ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة »[1]. فدخل صفر وربيع الأول وربيع الآخر في الأشهر الحرم، حسب هذه الروايات . مع أنها ليست من الأشهر الحرم المقررة المعروفة عند الجاهليين . وقد رأيت تعليل ذلك في تفسير (النيسابوري) لها، وهو فعل عامل النسيء .

ولما وصل (الطبري) الى الآية : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض . منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم »[2] ، قال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وهو قول عامة أهل التأويل »[3]. وقال (النيسابوري) : « منها أربعة حرم : ثلاثة سرد ، أي مسرودة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد هو رجب »[4] . وورد في خطبة الوداع : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »[5] . فهذه هي الشهور الحرم . أما ما تقدم ، فقد كانت محرمة بموجب ما كان قد وقع عليها بفعل النسيء . فقد كانت العرب قد نسأت النسيء، فكانوا يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة[6] .

وعرف المحرمون للأشهر الحرم بـ (المحرمين) ، وبـ (البسل) أيضاً . ذكر ان من معاني (البسل) : الحرام والشجاعة ، وهي معاني نجدها في لفظتي (حمس) و (حرم) . وذكر علماء اللغة ، أن « البسل ثمانية أشهر حرم كانت لقوم لهم صيت . وذكر انهم من غطفان وقيس . يقال لهم : الهباآت »[7] . وذكر أن البسل : (بني عامر بن لؤي)[8] ، أو (عوف بن لؤي) ، أو (مرة بن

---

١ تفسير النيسابوري (١٠/٣٧) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ التوبة ، رقم ٩ ، الاية ٣٦ .
٣ تفسير الطبري (١٠/٨٨) .
٤ تفسير النيسابوري (١٠/٧٩) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٥ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣) .
٦ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .
٧ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .
٨ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

عوف بن لوى) . وكانوا يحرمون ثمانية أشهر من السنة . وقـد امتنعت بعض القبائل من الاغارة عليهم في هذه الأشهر[1] . فالبسل اذن جماعة تعظم ثمانية أشهر من السنة ، وتحرمها فلا تقاتل فيهـا . فهم يختلفون اذن عن (المحرمين) من قريش ومن دان بدينهم في انهم يحرمون ثمانية أشهر من أشهر السنة ويحلون الأربعة الباقية ، أي على العكس منهم ، يفعلون ذلك تعمقاً وتشديداً[2] .

والبسل كما يتبين من تفسير علماء اللغة لها : الحرام . ولهذا قالوا : الإبسال : التحريم . ومن ذلك قيل للأشهر الحرم (البسل) . وهي الأشهر الثمانية التي حرمها قوم من (غطفان) و (قيس) . وبهذا المعنى وردت في قول الأعشى :

أجارتـكم بسل علينـا محرم وجارتنا حلّ لـكم وحليلها[3]

وذكر أنها تعني الحرام وأيضاً الحلال . وهي من الأضداد[4]

فنحن اذن أمام طائفتين من العرب المحرمين للشهور . طائفة اقتصرت عـلى تحريم أربعة أشهر من السنة ، جعلتها أشهراً حرماً . وطائفة جعلت عـدة الشهور الحرم ثمانية ، وعدة الشهور الحل أربعة ، وهم أقل عدداً من الطائفة الأولى .

ولكننا نجد طائفة أخرى من الجاهليين ، استهترت بحرمة كل الأشهر ، فلم تحرم أي شهر من شهور السنة ، ولم تعترف لها بقدسيته ، وساوت بـين جميع أشهر السنة ، بأن أحلتها كلها ، فعرفوا بالمحلين وهم عكس (المحرمين) . فقد نص أهل الأخبار على وجود قوم من العرب هم : خثعم وطيء ، ذكروا أنهم كانوا يستحلون الأشهر الحرم فيقاتلون فيها ، ولا يقدسونها ولا يرعون للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة . وذكر بعضهم أن أحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب كانوا عـلى مذهب هؤلاء[5] . فهم لا يفرقون بين الأشهر ، ولا يميزون

---

١ أبو ذر ، شرح السيرة (١/٧٨) ، ابن كثير ، البـداية (٢/٢٠٤) ، القلاعي ، الاكتفاء (١/٧٨) ، Kister, p. 141.

٢ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

٣ تاج العروس (٧/٢٢٧) ، (بسل) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الجاحظ ، الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها) ، النجيرمي (١٢) ، المحبر (٣١٩) ، الازرقي (١/٣٤١) .

بينها ، وهي كلها في نظرهم سواء . فلا يؤمنون بوجود أشهر حرم مقدسة ، ولا بوجود أشهر حل ، بل الأشهر عندهم كلها حلال . ولا يمتنعون من القتال في أي يوم أو شهر من السنة . فهم اذن على نقيض (المحرمين) للأشهر المعظمين للحرم وللأشهر الحرم ، قوم لا عهد لهم ولا ذمة بالنسبة الى شهور السنة .

والظاهر ان (المحلّين) كانوا يتحارشون بالمحرمين وبغيرهم في الأشهر الحرم ، ولما كان من شرع (المحرمين) الامتناع عن القتال في تلك الأشهر ، فللدفاع عن النفس أباح النسأة لمقلديهم المحرمين مقاتلة المحلّين اذا تعرضوا لهم . إذ جاء : « كان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين . فكانت العرب تستحل دماءهم في هذه الشهور »[1] . وجاء : « وإني قد أحللتُ دماء المحلين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم »[2] .

ويجب أن نضيف على هؤلاء طائفة من العرب من ذي البانة والصعاليك وأصحاب التطاول ، وأمثالهم ممن كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للأشهر الحرام قدراً[3] . فكانوا يغيرون في هذه الأشهر ويحلون القتال فيها وفي كل وقت ، كما كانوا لا يؤمنون على الحرم . فإذا وجدوا فرصة سرقوا في الحرم وأخذوا ما يقع في أيديهم دون استحياء ولا مبالاة بحرام وحلال ، نظراً لما هم فيه من جوع وفاقة وحاجة ، دفعتهم إلى الكفر بكل قانون وعقيدة وعرف .

ويجب أن نضيف الى المحلين العرب الذين لم يكونوا على دين أهل الشرك ، مثل النصارى واليهود . فقد كانت النصرانية قد وجدت سبيلها بين تغلب، وشيبان، وعبد القيس ، وقضاعة ، وغسان ، وسليح ، والعباد ، وتنوخ ، وعاملة ، ولخم ، وجُذام . وكثير من بلحارث بن كعب[4] ، وبعض طيء وتميم . فهؤلاء لم يكونوا على شرك ، لذلك لم يراعوا حرمة تلك الأشهر ، ولم يحجوا الى محجات المشركين ، وإنما كانوا يتقربون الى قبور شهداء الكنيسة والى أضرحة القديسين ،

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٤) ، (حرم) .
٢ نقلا عن مخطوطة أنساب الاشراف على رواية : Kister, p. 142.
٣ ثمار القلوب (٨٨) ، Kister, p. 143.
٤ الحيوان (٧/٢١٦) ،

ولهم أعيادهم الخاصة بهم لا يقاتلون فيها إلا دفاعاً عن نفس ، ولم يقم اليهود كذلك لتلك الأشهر المقدسة حرمة ، إذ كان السبت ، يوم راحة بالنسبة لهم ، لا يحل فيه قتال ، وكذلك كانت أعيادهم أيام حرمة ، لا يجيزون فيها قتال ، أي مهاجمة أحد ، إلا إذا هوجموا ، فيحل عندئذ لهم القتال دفاعاً عن نفس ، ولما وقعت المناوشات بينهم وبين المسلمين كانوا يتجنبون فيها القتال أيام السبت والأعياد .

وذكر أن قريشاً، كانت لا تتاجر إلا من ورد اليها في مكة في الأشهر الحرم . لا تبرح دارها ولا تتجاوز حرمها . وذلك لتحمسها في دينها والحب لحرمها . وكانت تخاف على تجارتها من لصوص الطرق وصعاليك الأعراب وطلاب الطلائب وذؤبان العرب ، لأنهم كانوا يرون للشهور الحرم حرمة،ولا للشهر الحرم قدراً ، ولا للحرم حرمة ، فأعطت الإيلاف ، والفت القبائل ، وقاومت بذلك المحلين .

وقد قسّم (المرزوقي) العرب الى ثلاثة أهواء بالنسبة الى أشهر الحج . منهم المحلّون ، الذين كانوا يستحلون الكعبة والأشهر الحرم ويسرقون ويقتلون في (الحرم) ، ومنهم من يحرم الشهور الحرم ، ومنهم (أهل هوى) على شرع (صلصل) . وهو (صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف) من بني عمرو بن تميم)[1] . وهو الذي أحلّ للعرب قتال المحلين في الأشهر الحرم[2] . وكان من حكام العرب ومفتوهم وممن اجتمع له الموسم والقضاء في عكاظ .

والمحرمون هم : الحمس والحلة . أما (المحلّون) ، فالقبائل التي لم تحترم حرمة الكعبة ولا الاشهر الحرم ، أي أولئك الذين أباح النسأة دمهم ، وجوّزوا قتالهم في الأشهر الحرم . وأما اولئك الذين كانوا على شرع (صلصل) ، فلا ندري مذهبهم وهواهم ، فلم يتحدث (المرزوقي) عنهم[3] . وقد كان (صلصل) ممن اجتمع له الموسم وقضاء عكاظ من بني تميم[4] . ولم يذكر (ابن حبيب) الأمور التي أوجدها وأحدثها ، حتى كوّن له طائفة خاصة لها رأي في الحرم وفي الأشهر الحرم .

---

١ المرزوقي ، الامكنة (١٦٦/٢) ، المحبر (١٨٢ وما بعدها) ، Kister, p. 143.

٢ Kister, p. 143.

٣ Kister, p. 144.

٤ المحبر (١٨٢ وما بعدها) .

وتجويز مقاتلة (المحلين) في الأشهر الحرم ، هو دفاع عن النفس ، وضرورة واجبة . لذلك نص عليه النسأة في أمرهم السنوي الذي يعينون فيه (النسيء) في الموسم ، ليقف الناس على موعد الأشهر الحرم ومكانها من السنة في السنة المقبلة . إذ لا يعقل بالنسبة للمحرمين الامتناع من قتال مقاتل في الأشهر المذكورة ، لأنها أشهر حرم مقدسة . وإلا عرّضوا أنفسهم وأهلهم وأموالهم الى التهلكة ، خاصة وان المقاتلين هم من أهل عقيدة مخالفة لعقيدتهم تمام المخالفة ، فشرعة الدفاع عن النفس أباحت لهم حق قتال المحلين .

ويلاحظ ان شهري ذي القعدة وذي الحجة هما الشهران الأخيران من السنة ، يليهما في الحرمة الشهر الأول من السنة الجديدة وهو المحرم ، فهذه الأشهر الثلاثة هي في الواقع زمن واحد متصل . أما (رجب) ، فهو الشهر الوحيد المنفرد بالحرمة . ولذلك عرف بـ (رجب الفرد) ، و (بالفرد) . وقد علل أهل الأخبار سبب ذلك بقولهم : « وانما كانت الأشهر المحرمة : أربعة . ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرم قبل أشهر الحج شهراً ، وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذي الحجة ، لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك . وحرم بعده شهراً آخر ، وهو المحرم ، ليرجعوا فيه الى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم اليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ، ثم يعود الى وطنه فيه آمناً »[1] .

ولكن تعليل أهل الأخبار لحرمة (رجب) التعليل المذكور لا يتناسب مع تعليلهم لحرمة الأشهر الثلاثة المحرمة ، فإذا كانوا قد حرموا ذا القعدة والمحرم بسبب الاستعداد للحج ، وبسبب العودة منه الى ديارهم كما زعموا ، فإن تحريم (رجب) بسبب مجيء العرب فيه من أقصى جزيرة العرب للعمرة فيه ، يستوجب أيضاً اعطاء المعتمرين مدة مناسبة قبله وبعده للاعتمار فيه ، حتى يضمنوا ذهابهم الى مكة وعودتهم منها بأمان ، فالسفر سفر واحد لا يتغير من حيث الطول أو القصر في موسم الحج أو في موسم العمرة ، لأن المسافات لا تتبدل بتبدل الطقوس الدينية ، ولو عللنا سبب اطالة تحريم الأشهر الثلاثة بسبب الحج ووجود الأسواق،

---

١ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٥) .

أي لعوامل اقتصادية ومنافع مادية ، جاز قبول هذا التعليل ، ولكن لمَ لم يفعلوا هذا الفعل بالنسبة لرجب ، الذي تحتاج العمرة فيه الى مدة أطول من الشهر للوصول في خلالها من أقصى مكان في جزيرة العرب الى مكة ، وللعودة منها إلى مواطنهم ، إذ لا يعقل أبداً بلوغ مكة والعودة اليها سالمين الى مواطنهم في العربية الجنوبية أو الخليج أو العراق في خلال شهر واحد ، بل هو في نظري زعم من مزاعم أهل الأخبار . وما كان الحج الى مكة إلا من القبائل القريبة منها ، وإنما صار الحج اليها عاماً ومن كل مكان في الاسلام وبفضله وحده . وعندي أن شهر رجب ، كان شهراً مقدساً محرماً ، تعتر فيه العتائر ، عند قبائل مضر وقبائل ربيعة ، وهما حلفان في الأصل ، وقد تناول قبائل متجاورة ، ثم انفصل ، فصار ربيعة ومضر . وفي هذا الشهر كانوا يتقربون الى (الله) بالعتائر ، ومنهم من يعتمر ، فيبقى بمكة ما يشاء ، ولم تكن العمرة على شاكلة الحج من حيث العدد والكثرة ، بل كانت قاصرة على المتمكنين الذين لهم عهود ومواثيق مع أهل مكة وغيرها من سادات قبائل مضر وربيعة ، فلا خوف على أمثال هؤلاء من الرجوع إلى وطنهم في أي وقت شاؤوا ، إذ لا يطمع فيهم طامع بسبب ما كانوا يحملونه من تجارة ، كالذي كان يفعله التجار الذين يذهبون الى الاتجار بالأسواق وفي جملتها سوق مكة في موسم الحج الذي هو تجارة وحج ، لأنهم كانوا من عامة القبائل ومعهم تجارة ، فكان من الضروري تطويل الموسم ليكون أمناً لهم يحميهم من الأذى الى عودتهم الى مواطنهم .

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذي المجاز وذي المجنة ودومة الجندل وغيرها ، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة ، وتكتظ أرضها بجموع غفيرة لم تكن تقصدها في غير هذه (المواسم) .

وقد عرف شهر (ذو القعدة) بهذا الاسم ، لأن الناس – كما يقول علماء اللغة – كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ويحجون في ذي الحجة[1] . وهو تفسير أخذ من ظاهر التسمية ، ودليل ذلك قولهم : « لقعودهم فيه عن القتال والترحال »[2] . فالقعود فيه عن القتال جائز بالنسبة للمحرمين ،

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٩) ، (قعد) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

٢ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

ولكن قعودهم عن الترحال خطأ ، إذ كانوا على العكس يتهيأون فيه للأسفار الى الاتجار والحج ، فهو شهر ترحال لا شهر قعود وجلوس .

وأما (ذو الحجة) ، فقد عرف بذلك لايقاعهم الحج فيه . وقد رأينا ان في نصوص المسند اسم شهر عرف بـ (ذ حجتن) ، أي (ذي الحجة) ، وبـ (ذ محجتن) ، أي (ذي المحجة) ، مما يدل على أن له صلة بالحج[1] . ولم تعين نصوص المسند موسم حج العرب الجنوبيين ، ولم تذكر اسم محجتهم ، ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت الى محجات آلهتهم المعروفة المنصوص عليها في نصوصهم ، وهي غير آلهة أهل مكة من غير شك .

وقد ذكر بعض علماء اللغة أن العرب كانت تسمي شهر رجب (رجب الأصم) و (المحرم) ، وذكر بعض آخر أن المحرم لم يكن يعرف بهذا الاسم إلا في الاسلام ، فقد كان الجاهليون يسمونه صفراً . ولذلك كان في تقويمهم صفران، كما كان عندهم شهران باسم ربيع الأول وربيع الآخر ، وشهران باسم جمادى الاولى وجمادى الآخرة . وصفر الأول هو المحرم في عرفنا ، وصفر الآخر هو صفر في اصطلاحنا اليوم . وقد كان الجاهليون يؤخرون المحرم الى صفر في تحريمه ، فيكون شهراً حراماً[2] .

ويظهر أن لدخول (ال) أداة التعريف على (المحرم) أهمية في تثبيت هذا الشهر ، فإن للفظة (محرم) دلالة دينية ، يراد بها كل شهر من الأشهر الحرم. فكل شهر من هذه الشهور الحرم هي محرم وحرام ، ومن ضمنها (المحرم) . وقد دخلت (ال) على هذه اللفظة لتخصيصها وجعلها علمية خاصة بهذا الشهر . وإلا دخلت على الشهور الأخرى العلمية ، مثل رجب وشعبان ورمضان وصفر ، فلا يقال فيها الرجب والشعبان والرمضان والصفر ، بل يقال قدم شهر رجب . وقدم شعبان وشهر رمضان وصفر . وهذا يفسر قول (ابن كثير) : «وعندي

---

١ REP. EPIG. 4176/7.

٢ تاج العروس (٣/٢٣٦) ، (٨/٢٤٠ وما بعدها) ، (حرم) ، قال حميد بن ثور :

رعين المرار الجون من كل مذنب ... شهور جمادى كلها والمحرما

وقال آخر :

أقمنا بها شهري ربيع كلاهما ... وشهري جمادى واستحلوا المحرما

تاج العروس (٨/٢٤١) (حرم) .

أنه سُمي بذلك ، تأكيداً لتحريمه، لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتح
عاماً »[1] أي انه كان قلقاً متنقلاً ، ولم يكن ثابتاً ، ثم ثبت في الإسلام .

وقد ورد في كتب الحديث أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء ، كما
اليهود يصومون ذلك اليوم . ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحـــرم .
الرسول حين قدم المدينة وجـــد اليهود يصومونه . وأن الرسول كان يصومه
الجاهلية أيضاً . ولما قدم المدينـة ، كان يصومه ، وأمـــر بصيامه . فلما فر
رمضان ، ترك عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه[2] . وورد «أن قر
كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيم
ولكن انما كانوا يعدّون بالأهلة ، فكان عندهم عاش المحرم . فلما قدم المدي
وجدهم يعظمون ذلك اليوم ويصومونه ، فسألهم عنه ، فقالوا : هو اليوم ا
نجّى الله فيه موسى وقومه من فرعون »[3] .

وذكر أيضاً : أن رسول الله ، كان يتحرى يوم عاشوراء على سائر الأيا
وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صام
ومن شاء تركه ، وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه
تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل
شاء الله صمنا اليوم التاسع ، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[4] .

ويرجع حديث صيام قريش يوم عاشوراء الى (عائشة) ، وقد رواه ع
(عروة بن الزبير بن العوّام) . فقد روى انها « قالت : كان يوم عاشو
تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله يصومه . فلما قدم المدينة صامه و
الناس بصيامه ، فلما فرض رمضان ، ترك يوم عاشوراء ، فمـن شاء صامه و
شاء تركه »[5] . ويروى أيضاً عن معاوية ، فقد ورد عن (حميد بن عبد الر
ابن عوف انه سمع معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنهما ، يوم عاشوراء

---

١ ابن كثير ، تفسير (٢/٣٥٤) .
٢ جامع الاصول (٧/١٩٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٠٠) ، الازمنة والامك
للمرزوقي (١/٧٢٦ وما بعدها) .
٣ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٢/٤١٧ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١/٦٠) ، زاد المعاد (١/١٦٤
٥ ارشاد الساري (٣/٤٢١) .

عام حج على المنبر ، يقول : يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر »[1] .

وقد حاول شراح حديث (عائشة) إيجاد مخرج له ، فقالوا في شرح: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية » ، « يحتمل أنهم اقتدوا في صيامه بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه » . وقد وضع بعضهم بعد « وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يصومه » جملة (في الجاهلية). وحاولوا إيجاد مخرج آخر لحديث (معاوية) ، بقولهم : « والظاهر أن معاوية قاله لما سمع من يوجبه أو يحرمه ، أو يكرهه ، فأراد إعلامهم بنفي الثلاثة ، فاستدعاؤه لهم تنبيهاً لهم على الحكم أو استعانة بما عندهم على ما عنده ». وقالوا: « ان معاوية من مسلمة الفتح ، فإن كان سمع هذا بعد اسلامه ، فإنما يكون سمعه سنة تسع أو عشر ، فيكون ذلك بعد نسخه بإيجاب رمضان ، ويكون المعنى لم يفرض بعد ايجاب رمضان ، جمعاً بينه وبين الأدلة الصريحة في وجوبه ، وان كان سمعه قبله فيجوز كونه قبل افتراضه »[2] . ثم ذكروا بعد هذين الحديثين ، حديثاً يناقضها تماماً، وهو أن النبي حين قدم المدينة فرأى اليهود تصوم ، فقال: ما هذا الصوم ، قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى . قال النبي : فأنا أحق بموسى منكم فصامه ، وأمر بصيامه »[3] . وهو حديث للعلماء عليه كلام .

وحديث معاوية لا يدل على صوم قريش ليوم عاشوراء في الجاهلية ، وقد استدل به (ابن الجوزي) على أن صوم عاشوراء لم يكن واجباً ، ولا يفهم منه أبداً أن قريشاً كانوا يصومونه قبل الاسلام . ولو كان معروفاً لما خفي أمره عليه وعلى غيره من قريش ، وحديث (عائشة) حديث مفرد ، ويجوز أن يكون قد وضع على لسانها ، ولا يعقل انفرادها به وعلمها وحدها بصيام قريش في ذلك اليوم ، وخفاء أمره على غيرها من الرجال والنساء ممن عاش معظم حياته في الجاهلية .

---

١ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٢ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .
٣ ارشاد الساري (٣/٤٢٢) .

ويوم (عاشوراء) هو يوم (ع ش و ر) Ashura' (عشور) (عشورا) عند العبرانيين ، ويقع في اليوم العاشر من شهـر (تشرى)[1] . وهو يوم خاص بيهود . وأنا أشك في صحة رواية أهل الأخبار القائلة ان قريشاً كانوا يصومونه في الجاهلية ، إذ ما هي صلة قريش الوثنيين الذين لم يكونوا من أهـــل الكتاب بصيام يوم هو من صميم أحكام ديانة يهود . ومما يؤيد رأيي ، هو ان أهـــل الأخبار أنفسهم يذكرون ان الرسول « حين قدم المدينة ، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم ، فأخبروه انه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم ، فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فُرض صوم شهر رمضان ، لم يأمرهـم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[2] . فلو كان الصيام معروفاً عند قريش ، لما سأل الرسول يهود يثرب عن صومهم صيام عاشوراء ، وما جاء من قوله : « نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه » الى أن فرض رمضان ، فرفع عنهم صومه ، وجعلهم أحراراً إن شاءوا صاموه وإن شاءوا أفطروا ، أي صار تطوعـــاً ، وهو حديث يشك فيه العلماء كذلك . وهذه الرواية تناقض تماماً رواية صيام قريش يوم عاشوراء. ثم اننا لا نجد في القـرآن ولا في الحديث — غـــير حديث عائشة — ما يشير الى وجود ذلك الصوم بمكة قبل الهجرة ، ولو كان معروفاً لما سُكت عنه . ويرجع بعض المستشرقين دعوى صيام قريش لذلك اليوم الى محاولة ارجاع الأصول الاسلامية الى الحنيفية القديمة والى قدماء العرب ثم الى ابراهيم، فصيروا قريشاً تصوم عاشوراء لارجاع الصيام الى أصل قديم[3] .

ولا يعقل وجود الصيام عند المشركين ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، وانما كان الصيام معروفاً عند الاحناف لاتصالهم بهم ، وتأثرهم بكتبهم وبما كان عندهم من أحكام ، ومن ذلك ترهبهم وزهدهم ، وقد كان الرهبان يكثرون من الصوم والاعتكاف .

وأنا لا استبعد أن لفظة (محرم) هي نعت لهذا الشهر لا اسماً له ، عرف بها لكونه شهراً حراماً . تقع عليه الحرمة ، ومن حرمته أن الجاهليين كانوا يبتدئون

---

١ Shorter Ency., p. 47.

٢ الطبري (٢/٤١٧) .

٣ Shorter Ency. p. 48.

سنتهم به . فالمحرم ، هو أول شهر من شهور السنة في حسابهم، ولابتدائهم به، فقد تكون له حرمة خاصة عندهم .

وقد نسب أهل الأخبار شهر رجب الى مضر، فقالوا رجب مضر ، وقد أشير الى ذلك في الحديث أيضاً ، مما يدل على أن هذا الشهر هو شهر مضر خاصة . وقد ذكر العلماء أنه إنما عرف بذلك لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به[1] . وذكروا أيضاً أنهم كانوا يرجبون فيه ، فيقدمون الرجبية، وتعرف عندهم بالعتيرة ، وهي ذبيحة تنحر في هذا الشهر . ويقال عن أيامه هذه أيام ترجيب وتعتير[2] .

ويذكر علماء الأخبار أن تأكيد الرسول على « رجب مضر الـذي بين جمادى وشعبان» في خطبة حجة الوداع،هو أن ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسميه رجباً ، فعرف من ثم بـ (رجب ربيعة) ، فوصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيـد على أنه غير رجب ربيعة المذكور الذي هو بين شعبـان وشوّال . وهو رمضان اليوم[3] . فرجب اذاً عند الجاهليين رجبان : رجب مضر ورجب ربيعة ، وبين الطائفتين اختلاف في مسائل أخرى كذلك .

ومما يؤيد ان شهر (رجب) كان شهر مضر المحرم عندهم بصورة خاصة ، ما ورد في أقوال علماء التفسير من ان (الشهر الحرام) الوارد في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدي ولا القلائد »[4] ، هو شهر (رجب) ، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال[5] . وما ورد في الآية:

---

١ « رجب مضر : انما اضيف رجب الى هذه القبيلة ، لانهم كانوا يحافظون على تجريمه، أشد من سائر العرب » ، عمدة القارىء (٤٢/١٨) ، تاج العروس (٢٦٦/١ وما بعدها) ، روح المعاني (٩٠/١٠) .

٢ تاج العروس (٧٢/٣) .

٣ الروض الانف (٣٥١/٢) (حجة الوداع) ، بلوغ الارب (٧٢/٣) ، تفسـير الطبري (٨٨/١٠ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٣٥٥/٢) ، « وان عدة الشهور عندالله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بـين جمادى وشعبان » ، ابن هشام ، سيرة (٣٥١/٢) ، (حاشية على الروض) .

٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الاية ٢ .

٥ تفسير الطبري (٣٦/٦ وما بعدها) ، روح المعاني (٤٧/٦) .

« يسألونك عن الشهر الحرام . قتال فيه ؟ »[1] ، واجماع علماء التفسير والأخبار على انه شهر (رجب) ، وان الآية نزلت في أمر قتل (ابن الحضرمي) في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأول ليلة أو يوم من رجب . وقد كان المسلمون يهابونه ويعظمونه ، وكان النبي يحرم القتال في الشهر الحرام ، حتى نزلت الآية في حق القتال فيه وفي بقية الشهور . وقد ذهب المفسرون أيضاً الى ان (الشهر الحرام) ، هو كل شهر حرام من هذه الأشهر الأربعة ، وان الآية لا يراد بها التخصيص ، وان ما ذكر من انه شهر رجب ، فلأجل وقوع الحادث المذكور فيه[2].

وعرف (رجب) بـ (منصل الألّ) والألة والألال في الجاهليـة . أي مخرج الاسنة من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام ابطالاً للقتال فيه ، وقطعاً لأسباب الفتن بحرمته ، فلما كان سبباً لذلك سمي به ، اعظاماً له ، فلا يغزون ولا يغير بعضهم على بعض[3] . وعرف أيضاً بـ (منزع الأسنة) للسبب المذكور .

ومن دلائل حرمة شهر (رجب) ومكانته العظيمة عند أهل الجاهلية ، تقديمهم العتائر فيه والاضاحي التي عرفت عندهم بـ (الرجبية) ، ووقوع أكثر المناسبات الدينية فيه . وقد نعت هذا الشهر بـ (الاصم) ، فقيل له (رجب الاصم) ، لعدم سماع استغاثة أو قعقعة سلاح فيه[4] ، لان العرب كانت لا تقرع فيه الاسنة ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يهيجه ، تعظيماً له[5] . وعرف بـ(رجب الفرد) وبـ (الفرد) ، لانفراده وحده من بين الاشهر الحرم الاخرى[6] .

ويرى (ولهوزن) ، استناداً الى بعض الموارد اليونانية وغيرها ان العرب كانوا يحرمون شهراً واحداً منفرداً ، هو (رجب الفرد) ، وهو من شهور الربيع ، وشهرين آخرين متصلين يقعان في القيظ ، أي في أوج الصيف . أما الشهر الثالث

---

١ البقرة ، الرقم ٢ ، الاية ٢١٧ .

٢ تفسير الطبري (٢/٢٠١ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٨/١٣٧) ، (نصل) .

٤ تاج العروس (٣/٣٨٠) ، (عتر) ، اللسان (٤/٥٣٧) ، المعاني الكبير (٢/١١٣) .

٥ تفسير الطبري (٢/٢٠١) .

٦ تاج العروس (٨/٢٤١) ، (حرم) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١/٨٥) .

الذي ألحق بالشهرين ، فصارت به ثلاثة أشهر حرم متسلسلة متداخلة ، فقد حرم في عهد متأخر لا يبعد كثيراً عن الاسلام ، وهو المحرم[1] .

ويلاحظ ان الموارد الاسلامية قد وضعت بعض الأحداث المهمة في شهر محرم مثل صوم يوم عاشوراء ، ومثل اختيار القدس قبلة للمسلمين ، فقد ذكروا ان ذلك كان في اليوم السادس عشر من المحرم ، ومثل ذكرهم ان وصول حملة الفيل الى مكة كان في اليوم السابع عشر منه ، وان ابتداء السنة الهجرية، كان في أول المحرم[2] ، مع اننا لو دققنا ذلك تدقيقاً عميقاً ، وجدنا ان أكثر هـذا المروي لم يثبت وقوعه في هذا الشهر .

ونجد في كتب الحديث والأخبار ما يفيد بأن الجاهليين كانوا يعظمون شهري شعبان ورمضان تعظيماً يكاد يضاهي تعظيمهم للأشهـر الحرم . وسبب ذلك في نظري ، هو بفعل النسيء في الشهرين ، وتلاعبهم بالأشهر وتسميتهم لها تسميات كيفية ، ووقوع ذلك التلاعب على الشهرين المذكورين دون بقية الشهور . وقد يكون بسبب أن العـرب كانوا يقدسون الشهرين ويحرمونهما أيضاً ، وأن قريشاً كانت تحترمها أيضاً ، ومن هنا فضل شعبان ورمضان على بقية الأشهر الثمانية مع انهما من الأشهر الاعتيادية على حسب رواية أهل الأخبار . ولم يدخلوهما في جملة الأشهر الحرم . ونجد للشهرين حرمة كبيرة في الاسلام .

وقد كان عرب العراق وبادية الشام يتجنبون أيضاً مثل عرب الحجاز القتـال في أشهر معينة ، لأنها أشهر مقدسة حرم عندهم ، كما يفهم ذلك من مؤلفات الروم والسريان . فقد أشار المؤرخ (افيفانوس) Epiphanius الى وجود شهر عند العرب ، قال إن العرب تحتفل فيه ، وهو عندهم شهر مقدس ، ويقع في شهر تشرين الثاني ، ويريد به شهر (ذي الحجة) على ما يظن . وقـد دعي بـ (حجت) في بعض المـوارد اليهوديـة[3] . كما ذكر (بروكوبيوس) Procopius أن عرب المناذرة لم يكونوا ليحاربوا في شهورهم المقدسة ، وقال إنهم كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيهـا ولا يقاتلون

١ Reste, S. 100.
٢ Shorter, p. 410.
٣ Aboda Zara, II b., Epiphanius, Haer., 51, 24.

بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] . وذكر (فوتيوس) أن العرب يحجون الى معبدهم مرتين في السنة: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] .

وفي هذه الإشارات معلومات قيمة ، تشير الى وجود الاشهر الحرم عند العرب الشماليين . ويفهم منها أن الاشهر الحرم كانت ثابتة لا تتغير ، فلا يقع حجهم مرة في شتاء ومرة في صيف ، وأخرى في ربيع ، ومرة في خريف . فحجهم ثابت ، وأشهرهم ثابتة . ومما يؤسف له أن أولئك المؤرخين لم يشيروا الى أسماء المواضع التي كانوا يحجون اليها .

الشهور الحل :

وأما الشهور الثمانية الاخرى ، غير الحرم ، فهي : صفر ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ،وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، وشعبان ، وشهر رمضان، وشوال . وقد استحل فيها القتال والغزو .

وقد عرفت هذه الشهور : الحرم منها والشهور الحل بشهور معدّ[3] . وكان أهل مكة يستعملونها عند ظهور الاسلام . والظاهر ان القبائل المجاورة لمكة كانت تستعملها أيضاً . وبهذه الأشهر أرخت رسائل الرسول وأوامره ، وصارت باستعمال الرسول لها الشهور الرسمية في الاسلام ، عليها يسير كل المسلمين على اختلاف ألوانهم حتى اليوم لما لها من صلات بأمور دينهم في مثل الصوم والحج .

وصفر ، هو الشهر الذي يلي المحرم . « قال بعضهم : انما سمي لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع ، وقيل لاصفار مكة من أهلها اذا سافروا،وروي عن رؤبة انه قال : سمّوا الشهر صفراً لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفراً من المتاع ، وذلك ان صفراً بعد المحرم ، فقالوا صفر الناس منا

---

1 Reste, S. 100. f., De Bello Persi., 11, 16, Photius, Bibl. Cod., 3.

2 Reste, S. 101, Winckler, Alt. Orient. Forsch., II, Reihe, I Band, S. 336.

3 قال قائل من بني كنانة :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

تاج العروس (٤/٢٢) .

صفراً »[1] . وكانوا اذا جمعوا المحرم مع صفر ، قالوا : صفران . وفي ذلك قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف   شهري جمادى وشهري صفر[2]

وكان أهل مكة يفتتحون سنتهم بالمحرم . فهو أول شهر عندهم من أشهر السنة . وقد أقر الإسلام هذا المبدأ ، فجعل المحرم أول شهر من شهور السنة الهجرية[3] .

ويذكر أهل الأخبار أن أول من سمى الشهور المحرم وما بعده بأسمائها هذه هو (كِلاب بن مرّة)[4] .

---

١ تاج العروس (٣٣٦/٣) ، (صفر) .

٢ المصدر نفسه .

٣ « قال أبو جعفر : فاذا كان الامر في تأريخ المسلمين كالذي وصفت ، فانه وان كان من الهجرة ، فان ابتداءهم اياه قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بشهرين وأيام ، هي اثنا عشر ، وذلك ان أول السنة المحرم ، وكان قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، بعد مضي ما ذكرت من السنة ، ولم يؤرخ التأريخ من وقت قدومه ، بل من أول تلك السنة » ، الطبري (٣٨٨/٢ وما بعدها) ، « ذكر الوقت الذي عمل فيه التأريخ » ، روح المعاني (٩٠/١٠ وما بعدها) ، الايام والليالي والشهور (ص ٩) ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، المرزوقي (٢٨٣/١) ، Reste, S. 97.

٤ بلوغ الارب (٧٨/٣) .

الفصل الثالث والثلاثون بعد المئة

النسيء

عرف علماء العربية النسيء بقولهم : « والنسيء المذكور في قول الله تعالى : انما النسيء زيادة في الكفر[1] . شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، فنهى الله عز وجل عنه في كتابه العزيز حيث قال : انما النسيء زيادة في الكفر ، الآية، وذلك انهم كانوا اذا صدروا عن منى يقوم رجلٌ من كنانة ، فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[2] . وعرف النسيء بأنه تأخير بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر . وذلك من (نسأ) . والنسء تأخير الوقت[3] . وجعله بعضهم بمعنى (الكبس) ، المعروف[4] . وقد ذهب العلماء الى أن النسيء كل زيادة حدثت في شيء ، فالشيء الحادث فيه تلك الزيادة بسبب ما حدث فيه نسيء[5] . فالنسيء تأخير حرمة المحرم الى صفر ، وجعل المحرم شهراً حلالاً ، يجوز لهم القتال فيه ، لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم ، لا يغيرون فيها

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٠/٩١) ، روح المعاني (١٠/٣٨) ، تاج العروس (١/٤٥٦) ، (طبعة الكويت) ، اللسان (١/١٦٧) ، الكشاف (٢/٢٣)، صبح الاعشى (٢/٣٦٦) ، (صادر) ، المختار من صحاح اللغة (٥٢٠) .

٢ اللسان (١/١٦٧) ، (صادر) ، (تاج العروس (١/٤٥٦) ، (الكويت) .

٣ المفردات (٥١١) ،الروض الانف (١/٤١ ، ٨٥) .

٤ ابن الاجدابي (٣٠) .

٥ تفسير الطبري (١٠/٩١) ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٨/١٣٧) .

ولا يغزون ، ومعاشهم على الغارات والغزو . ففعلوا النسيء ، لإحلال ذمتهم من حرمة محرم ، ولتجويز القتال فيه،فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ، ثم يزول التحريم الى المحرم،ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة[1] . وقد عرف بعض العلماء النسيء بأنه تأخير حرمة شهر الى شهر آخر[2] . و « العرب تقول : نسأ الله في أجلك ، وأنسأ الله أجلك ، أي أخر الله أجلك »[3] .

فهم كانوا يستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه ، ويوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه،وجوّزوا ذلك عليهم حتى ضلّوا باتباعهم هذا التجويز . بأن جعلوا الشهر الحرام حـــلالاً ، إذا احتاجوا الى القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً ، ويقولون شهراً بشهر ، وإذا لم يحتـــاجوا الى ذلك لم يفعلوه[4] . فكانوا « يحجون في كثير من السنين ، بل أكثرها في غير ذي الحجة »[5] ، ومن هنا تلاعبـــوا بالأشهر وأخرجوها عن حقيقتها ، بأن جعلوا الشهر الحرام حلالاً والشهر الحلال حراماً ، فخالفوا بذلك ما اتفق عليه من تحريم أشهر بعينهـــا هي من الأشهر الحل ، ومن تحليل أشهر هي الاشهر الحرم .

واذا أخذنا بما جاء على لسان بعض الشعراء عن النسيء ، مثل قولهم :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما

وقول أحدهم :

وكنا الناسئين على معدّ شهورهم الحرام الى الحليل

---

١ تفسير الطبرسي (٥/٩) ، (طبعة طهران) ، الامالي ، للقالي (١/٤) .
٢ تفسير الرازي (١٦/٥٥) ، تفسير البيضاوي (١/٢٥٣ وما بعدها) ، الكشاف (٢/٣٨) ، التسهيل لعلوم التنزيل ، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي (٢/٧٥) ، تفسير القاسمي (٨/٣١٤٣) .
٣ الامالي ، لنقالي (١/٤) .
٤ تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) .
٥ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

وقول الآخر :

نسئوا الشهورَ بها [1] وكانوا أهلها من قبلكم والعز لم يتحول [2]

واعتبرناه صحيحاً ، نستنتج منه أن النسيء كان خاصاً بحج (مكة) ، وبالقبائل التي عرفت بقبائل (معد) . وقد عرفنا قبائل وعشائرها وفي جملتها قريش .

واذا أخذنا النسيء بهذا المعنى ، صار معناه مجرد تبديل شهر بشهر ، وتأخير حرمة شهر الى الشهر الذي يليه . وليس هذا بزيادة ، أي زيادة أيام أو شهر على شهور السنة ، وهي الأيام التي تتخلف فيها السنة القمرية عن السنة الشمسية، لتتساوى بها ، فتثبت الأشهر في مواضعها من الفصول ، وهو ما يعبر عنه بالكبس فليس هذا النسيء كبساً اذاً .

وقد تعرض (البيروني) لموضوع النسيء عند العرب ، فقال : « وكانوا في الجاهلية يستعملونها على نحو ما يستعمله أهل الاسلام . وكان يدور حجهم في الأزمنة الأربعة . ثم أرادوا أن يحجوا في وقت ادراك سلعهم من الادم والجلود والثمار وغير ذلك ، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة ، وفي أطيب الأزمنة وأخصبها. فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم . وذلك قبل الهجرة بقريب من مئتي سنة . فأخذوا يعملون بها ما يشاكل فعل اليهود من إلحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس شهراً بشهورها اذا تم ... ويسمون هذا من فعلهم النسيء ، لأنهم كانوا ينسأون أول السنة في كل سنتين أو ثلاث شهراً ، على حسب ما يستحقه التقدم » [3] .

وتعرض (ابن الأجدابي) لموضوع (الكبس) والسنة (الكبيسة) عند العبرانيين واليونانيين كذلك ، فقال : « وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل مثل هذا ، وتزيد في كل ثالثة من سنيها شهراً ، على نحو ما ذكرناه عن العبرانيين واليونانيين. وكانوا يسمون ذلك النسيء . وكانت سنة النسيء ثلاثة عشر شهراً قمرية . وكانت

---

١ مرجع الضمير فيه « مكة » .
٢ الامالي ، للقالي (١/٤) .
٣ الآثار الباقية (١١ ، ١٢ ، ٦٢ ، ٣٢٥) ، ابن الاجدابي (٣٢) ، القانون المسعودي (٩٢ ، ١٣١) ،التفسير الكبير ، للرازي (٤/٤٤٧) ، روح المعاني (١٠/ ٩١ وما بعدها) .

شهورهم حينئذ غير دائرة في الأزمنة ، كان لكل شهر منهـا زمن لا يعدوه . فهذا كان فعل الجاهليـة حين أحدثوا النسيء ، وعملوا به . فلما جاء الله تعالى بالإسلام بطل ذلك ، وحرم العمل به . فقال : إنما النسيء زيـادة في الكفر[1] . وقال عزّ وجلّ : إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتـاب الله[2] . فسنة العرب اليوم اثنا عشر شهراً قمرية دائرة في الأزمنة الأربعة »[3] .

والنسيء الذي ذكره (البيروني) و (ابن الأجدابي) ، هو كبس صحيح، وليس مجرد تقديم شهر وتأخير آخر على نحو ما رأيت . غايتـه تثبيت الأزمنة ، وجعل الحج في موسم ثابت معين ، فلا يكون في شتـاء مرة ، وفي صيف مرة أخرى ، وفي ربيع مرة ، وفي خريف مرة أخرى ، بجعل السنة سنة قمرية شمسية على نحو فعل يهود بسنتهم . وهو بهذا المعنى في رواية (المسعودي) . فقد قال: « وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : « إنمـا النسيء زيادة في الكفر »[4] .

وكان النسيء الأول للمحرم ، فسمي صفر به . وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور . وكان النسيء الثاني لصفر ، فسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً . وكذلك حتى دار النسيء في الشهور الاثني عشر ،وعاد الى المحرم ، فأعادوا بها فعلهم الأول . وكانوا يعدون أدوار النسيء ، ويحدّون بها الأزمنة ، فيقولون : قد دارت السنون من زمان كذا الى زمان كذا دورة . فإن ظهر لهم مع تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنـة الشمس وبقية فضل ما بينها وبين سنة القمر الذي ألحقوه بها ، كبسوه كبساً ثانياً . وكان يبين لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي عليه السلام، وكانت نوبة النسيء كما ذكرت بلغت شعبان ، فسمي محرماً ، وشهر رمضان صفـراً ، فانتظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حينئذ حجة الوداع ، وخطب بالنـاس ، وقال فيهـا : « ألا ، وإن الزمان قد استدار كهيأتـه يوم خلق الله السموات

---

١ سورة التوبة ، الآية ٣٧ .
٢ التوبة ، الآية ٣٦ .
٣ ابن الاجدابي (٣٣) .
٤ مروج الذهب (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها) .

والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي يدعى شهر مضر الذي جاء بين جمادى الآخرة وشعبان ، والشهر تسعة وعشرون وثلاثون»[1]. ومنذ ذلك الحين ترك النسيء . « وعنى بذلك ان الشهور عادت الى مواضعها ، وزال عنها فعل العرب بها . ولذلك سميت حجة الوداع الحج الأقوم . ثم حرم ذلك ، وأهمل أصلاً »[2] . وقد ذكر (المسعودي) ان عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهراً[3] . وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً ، هو تقسيم قديم يعود الى ما قبل الميلاد .

وذُكر أن نسيء العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير شهر المحرم الى صفر . لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات ، والآخر تأخير الحج عن وقته تحرّياً منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود الى وقته[4] . وهذا الرأي يلخص ما أورده أهل الأخبار في النسيء . ويتلخص في شيئين : النسيء تأخير الشهور ، وذلك بإحلال شهر في مكان شهر آخر ، للإستفادة من ذلك في التحليل والتحريم ، والنسيء بمعنى الكبس ، وهو إضافة الفرق الذي يقع بين السنة الشمسية والسنة القمرية الى الشهور القمرية لتلافي النقص الكائن بين السنتين ، ولتكون الشهور القمرية بذلك ثابتة لا تتغير ، تكون في مواسمها المعينة ، فلا يقع حادث في شهر من شهورها في الشتاء ، ثم يتحول بمرور السنين ، فيقع بعد أمد في الصيف أو في الربيع ، كما يقع ذلك في الشهور القمرية الصرفة المستعملة في الاسلام .

وتسمى الطريقة الثانية ، وهي إضافة فرق الأيام بين السنتين الشمسية والقمرية الى السنة القمرية . (الكبس) في اصطلاح العلماء . وقد كانت شهور اليهود ، وهي شهور قمرية . تساوي (٣٥٤) يوماً وست ساعات ، فهي لذلك أنقص بأحد

---

١ امتاع الاسماع (١/٥٣١) ، ويختلف هذا النص في مختلف الموارد ، راجع عمدة القارىء (١٨/٤١) ، مجالس ثعلب (١٢١) ، سيرة ابن هشام (٢/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) ، الروض الانف (٢/٣٥١) .

٢ الآثار الباقية (١/٦٢ وما بعدها) ، روح المعاني (١٠/٩١ وما بعدها) .

٣ مروج الذهب (٢/١٧٧) ، (ذكر سني العرب والعجم وشهورها) .

٤ بلوغ الارب (٣/٧١) ، نهاية الارب (١/١٦٦ وما بعدها) .

عشر يوماً عن السنة الرومانية ، فأدخلوا شهراً ثالث عشر في كل ثلاث سنوات، سموه (فيادار) أو (آذار الثاني) ، وبهذه الطريقة جعلوا السنـــة القمرية مساوية للسنة الشمسية[1] . وقد ذكر (المسعودي) ، أن أيام السنة « ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السرياني أحـــد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة ، فتنسلخ تلك السنة العربية ولا يكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً ، وتسميه النسيء وهو التأخير »[2] . وذكر (القلقشندي) ، أنهم كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً ، حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود الى وقته،فلما كانت سنة حجة الوداع، وهي تسع من الهجرة ، عاد الحج الى وقته اتفاقاً في ذي الحجة كما وضع أولاً ، فأقام رسول الله،صلى الله عليه وسلم ، فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحجة »[3] . وذكروا ان المشركين كـانوا « يحجون في كل شهر عامين ، فحجّوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبي بكر التي حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم ، في العـــام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ، فذلك قوله في خطبته : ان الزمان قد استدار ... الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت الي مواضعها ، وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء[4] .

وورد في خبر يرجع سنده الى (إياس بن معاويـــة) ، أن المشركين كانوا « يحسبون السنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوماً ، فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة ، ولم يحج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة في العشر ، ووافق ذلك الآهلة »[5] . وقد ورد في الحديث : « الشهر هكذا وهكذا ، يعني

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٦٣٩ وما بعدها) .
٢ مروج (٢/١٨٨) ، (ذكر سني العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها) .
٣ صبح الاعشى (٢/٣٩٧) .
٤ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٨/١٣٧) .
٥ المصدر نفسه (٨/١٣٨) .

مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين »[1] ، كما ورد : « شهران لا ينقصان شهراً رمضان وذو الحجة »[2] . فإذا أخذنا بذلك ، كان الفرق بين أيام السنة الق وأيام السنة الشمسية ، هو ما يجب اضافته على السنة القمرية لتكون سنة شمسي ذات أشهر ثابتة .

واذا صحت رواية بعض الأخباريين عن إضافة الجاهليين أحد عشر يوماً، السنة القمرية ، ليضمنوا بذلك ثبات الأشهر ، وعدم تغير أوقاتها . فإن يكون كبساً صحيحاً بالمعنى المفهوم من الكبس ، مؤدياً للغاية المتوخاة منه . وع تكون سنة أولئك الجاهليين المستعملين للكبس سنة قمرية شمسية . وأنا لا أستبع شيوعها عند أهل المدينة ، بسبب اختلاطهم باليهود ، ولا أستبعد كذلك اتفا مع يهود يثرب في استعمال السنة المستعملة عند اليهود نفسها ، وابتدائهم بالش الذي كان يبدأ به أولئك اليهود .

ويؤيد هذه الرواية ما ذكره أهل الأخبار كلهم من ان الغاية التي حملت العا بالنسيء على استعمالهم له « انهم كانوا يحبون ان يكون يوم صدَرهم عن ا في وقت واحد من السنة » فكانوا ينسئونه . والنسيء التأخير ، فيؤخرونه في سنة أحد عشر يوماً ، فإذا وقع في عدة أيام من ذي الحجة ، جعلوه في ا المقبل لزيادة أحد عشر يوماً من ذي الحجة ، ثم على تلك الأيام يفعلون كذ في أيام السنة كلها . وكانوا يحرمون الشهرين اللذين يقع فيهما الحج ، والشهر ال بعدهما ، ليواطئوا في النسيء بذلك عدة ما حرم الله . وكانوا يحرمون رجباً ك وقع الأمر . فيكون في السنة أربعة أشهر حرم »[3] .

أما التفسير الأول للنسيء ، وهو تفسيره بمعنى تحليل شهر محرم ، وتحريم ش حلال ، وتأخير شهر وتقديم شهر ، فإنه لا يحقق ما ذكر من رغبة الناس بو في حجهم في وقت ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، لأن الحج يتغير فيه ، فيك أحياناً في الصيف ، وأحياناً في الشتاء ، وأحياناً في الربيع ، وأحياناً في الخريف وهذا لا يتفق مع زعم أهل الأخبار في السبب الذي دعا الى الأخذ بالنسيء .

والنسيء بهذا التفسير ، لا يفيد إلا من ناحية التحايل والتلاعب في ايجاد ح

---

١ ارشاد الساري (٣/٣٥٩) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .

مشروعة في تجويز القتال في بعض الأشهر الحرم ، وذلك كأن تكون قبيلة قوية تريد القتال في شهر محرم ، لاستعدادها له فيه فتعمد الى هذا الحل ، والتحايل على العرف بالتوسل الى (القلمس) لتغيير الشهور ، فيصير الشهر الحرام حلالاً ، وبذلك يتاح لها القتال فيه .

وإني أرى في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، وهو يعارض مع ما ذكر من الغاية من النسيء . واذا جاز إحداثه في سنة ما للغايات المذكورة ، فلا يعقل إحداثه في كل سنة بانتظام . وإلا لم يبق له معنى ما ولا فائدة ترجى عندئذ منه .

وقد جاء معنى النسيء في الآية : « إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً . ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين »[1] . فقال بعض علماء التفسير : كانوا يجعلون السنه ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفراً، فيستحلون فيه الحرمات ، فأنزل الله إنما النسيء زيادة في الكفر[2] . « وكان المشركون يسمّون الأشهر : ذو الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع ، وربيع، وجمادى ، وجمادى ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفر صفر . ثم يسمون رجب جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون رمضان شوّالاً ، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة ، فيحجون فيه ، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هذه القصة ، فكانوا يحجون في كل شهر عامين ، حتى وافق حجة أبي بكر ، رضي الله عنه ، الآخر من العامين في ذي العقدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حجته التي حج ، فوافق ذا الحجة ، فذلك حين يقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في خطبته إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض »[3] . فالنسيء هو المحرم ، وكان يحرم المحرم عاماً، ويحرم صفر عاماً ، وزيد صفراً في آخر الأشهر الحرم ، وكانوا يؤخرون الشهور

---

١ التوبة ، الآية ٣٧ .

٢ تفسير الطبري (١٠/٩٣) .

٣ تفسير الطبري (١٠/٩٢ وما بعدها) ، تفسير النسفي (٢/١٢٥ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٨/١٣٧ وما بعدها) .

حتى يجعلوا صفر المحرم ، فيحلوا ما حرم الله . وكانت هوازن ، وغطفان ، وبنو سليم ، يعظمونه ، وهم الذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية [1] . وهكذا كانوا يجعلون سنة المحرم صفراً ، فيغزون فيه ، فيغنمون فيه ويصيبون ويحرمونه سنة [2] . وذكر أنهم كانوا يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ، ثم يعودون فيسمون صفراً [3] .

وقد تحدث (الطبرسي) عن النسيء فقال : « قال مجاهد : كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور حتى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ، ثم حج النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في العام القابل حجة الوداع ، فوافقت في ذي الحجة ، فذلك حين قال النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وذكر في خطبته ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . أراد عليه السلام الأشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذي الحجة وبطل النسيء » [4] .

وهذا الفعل الذي هو النسيء ، هو الذي جعل العلماء يقولون : إن الصفر النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه ويجعلون صفراً هو الشهر الحرام [5] . فهم يدخلون شهراً جديداً على السنة بعد ذي الحجة ، يكون مقامه بين هذا الشهر وبين شهر صفر الأول ، الذي هو المحرم من الأشهر الحرم . وبذلك يكونون قد فصلوا بين الأشهر الحرم الثلاثة ، بأن جعلوا شهراً حلالاً جديداً بين الشهرين المحرمين : ذو القعدة وذو الحجة ، وبين الشهر الثالث المتصل بهما ، وهو المحرم ، ففصل عن الشهرين ، وصار وحيداً . فعلوا ذلك ليحافظوا على وقت الحج ، بجعله ثابتاً . ولما كان ذلك معناه

---

١ تفسير الطبري (١٠/٩٢ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٣ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٧) .
٤ تفسير الطبرسي (٥/٢٩) .
٥ تاج العروس (٣/٣٣٦) ، (صفر) .

تغيير حرمة الأشهر الحرم الثلاثة بجعل الشهر الحلال شهراً حراماً ، والشهر الحرام حلالاً ، حرم النسيء في الاسلام . فابتعدت السنة بذلك عن السنة الشمسية، وصار الحج يدور باختلاف المواسم ، لأن السنة صارت سنة قمرية . وبذلك تغير وقت الحج عما كان عليه في الجاهلية ، فلم يعد ثابتاً على نحو ما كان عليه عند الجاهليين.

وفراراً من اسم النسيء ، الذي هو زيادة في الكفر ، كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية ، سنة ويسمونها : سنة الازدلاق لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية تساوي اثنتين وثلاثين سنة شمسية تقريباً [1] .

مبدأ النسيء :

ويرجع أهل الأخبار مبدأ ادخال النسيء الى الجاهليين الى (عمرو بن لحي) أو الى (القلمس) ، وهو (حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحارث) ، أو (حذيفة بن عبد بن فقيم) [2] ، أو (نعيم بن ثعلبة) [3]، أو (قلع بن حذيفة بن عبد بن فقيم) ، أو آخرون [4] . وذلك ان العرب كانوا لا يكبسون ، الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادوا « أن يكون حجهم في أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد في التجارة ، ولا يزول عن مكانه ، فتعلموا الكبس من اليهود » [5] . فصار النسيء عادة من عادات العرب منذ ذلك الحين الى منعه في الاسلام .

وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم القلمس حذيفة بن عبد ابن فُقيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم ابنه قلع بن حذيفة ، ثم عباد بن قلع ، ثم (قلع بن عبّاد قلع) ثم أمية بن قلع

---

١ صبح الاعشى (٢/٣٩٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٧١) ، نهاية الارب (١/١٦٥) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طبعة طهران) .
٣ الروض الانف (١/٤١) ، تفسير الطبرسي (٥/٢٩) ، (طهران) ، تفسير الخازن (٢/٢٢١) ، تفسير القاسمي (٨/٣١٤٣) ، البحر المحيط (٥/٣٩) .
٤ تاج العروس (١/٤٥٦ وما بعدها) ، (الكويت) .
٥ بلوغ الارب (٣/٧١) .

ثم عوف بن أمية ، ثم جنادة بن أمية بن عوف بن قلع[1] . وذكر أن أول من نسيء قلع ، نسأ سبع سنين ، ونسأ أمية إحدى عشرة سنة[2] . وذكر عن (ابن اسحاق) أن أول من نسأ عند العرب (القلمس) ، وهو (حذيفة بن عبد فقيم ابن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، ثم قام بعده على ذلك ابنه (عباد) ، ثم من بعد عبّاد ابنه (قلع بن عبّاد) ، ثم ابنه (أمية ابن قلع) ، ثم ابنه (عوف بن أمية) ثم ابنه (أبو ثمامة) (جنادة بن عوف)، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام[3] . وذكر (القرطبي) عن (ابن الكلبي) أن « أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة ، يقال له : نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جنادة بن عوف ، وهو الذي أدركه رسول الله، صلى الله عليه وسلم . وقال الزهري : حيّ من بني كنانة ثم من بني فُقيم منهم رجل يقال له القلمس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية مالك بن كنانة . وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لتريس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ومنّا ناسيء الشهر القلمس

وقال الكميت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراما »[4]

وذكر (اليعقوبي) ، ان أول من نسأ الشهور : (سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة) . وهو والد (هند) التي تزوجها (مرة بن كعب) ، فولدت له (كلاباً) . وشرف (كلاب بن مرة) وجلّ قدره واجتمع له شرف الأب ، وهو (كعب بن لؤي) ، الذي كان أول من سمى يوم الجمعة بالجمعة، وكانت العرب تسميه (عروبة) ، وشرف الجد من قبل الأم ، لأنهم كانوا

---

١ تاج العروس (٤٥٧/١) (١٢٥/١) ، (نسأ) ، مروج الذهب (٣٦٧/١ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٧٢/٣) ، نهاية الارب (١٦٦/١) ، (حذيفة بن عبد بن نهم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، المحبر (١٥٧) .
٢ تاج العروس (٤٥٦/١) ، تفسير الطبرسي (٢٩/٥ وما بعدها) ، تفسير سورة التوبة ، الآية ٣٦ وما بعدها ، تاج العروس (١٢٤/١) ، (نسأ) .
٣ تفسير ابن كثير (٣٥٧/٢) .
٤ تفسير القرطبي (١٣٨/٨) .

يجيزون الحج ويحرمون الشهور ويحللونها ، فكانوا يسمون النسأة والقلامس[1] .

وذكر (الزبيري) ، ان (سريراً) أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سرير، ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القلمس ، واسمه عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن كنانة . ثم صار النسيء في ولده . وكان آخرهم جنادة بن عوف[2] ، وهو (أبو ثمامة) . وورد في رواية أخرى ، ان آخرهم هو (فقيم بن ثعلبة) ، أو هو غيره . وقد ذكروا أن (أبا ثمامة) ، وهو (جنادة بن أمية) من بني (المطلب بن حدثان بن مالك بن كنانة) ، من نسأة الشهور على معد ، كان يقف عند (جمرة العقبة ، ويقول : اللهم اني ناسيء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا (أحاب) أجاب : اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك في الرجبين ، يعني : رجباً وشعبان . ثم يقول : انفروا على اسم الله تعالى . وفيه يقول قائلهم :

ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحل نجعلها حراما[3]

وذكر أن أول من نسأ بعد (القلمين) القلمسين : (حذيفة بن عبد نعيم ابن عدي) ، و (زيد بن عامر بن ثعلبة) (وهو القلمين بن عامر بن ثعلبة) (عياد بن حذيفة) ، ثم (قلع بن عياد) ، ثم (أمية بن قلع) ، ثم (عوف ابن أمية) ، ثم (جنادة) فأدركه الإسلام[4] .

وذكر (الطبري) ، « أن جنادة بن عوف بن أميـة الكناني ، كان يوافي الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادى : ألا ان أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا وان صفر العام الأول حلال ، فيحله الناس ، فيحرم صفر عاماً ويحرم المحرم عاماً »[5] . ودعاه بـ (أبي ثمامة صفوان بن أمية)، أحد (بني فقيم

---

١ اليعقوبي (٢٠٧/١) ، (طبعة النجف) .
٢ نسب قريش (ص ١٣) .
٣ تاج العروس (٢٢٢/٤) ، (القلمس) ، تاج العروس (١٢٥/١) ، (نسأ) ، ينسب هذا البيت الى « عمير بن قيس بن جذل الطعان » ، اللسان (١٦٧/١) ، (صادر) ، نهاية الارب (١٦٦/١) .
٤ الاصابة (٢٤٨/١) ، (رقم ١٢٠٧) .
٥ تفسير الطبري (٩١/١٠) .

ابن الحارث ، ثم أحد بني كنانة)[1] . وذكر أنه « كان رجل من بني كنانة ، يأتي كل عام في الموسم على حمار له ، فيقول : أيها الناس : اني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مردّ لما أقول . انا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده ، فيقول مثل مقالته . ويقول إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ليواطئوا عدة ما حرم الله[2] » . وكان هذا الرجل يقال له:القلمس[3] .

وكان آخر النسأة ، (جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عيّاد (عباد) بن حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن زيد بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة) ، أبو (ثمامة)[4] (أبو أمامة) الكناني . نسأ الشهور أربعين سنة ، وأدرك الاسلام . وكان أبعد النسأة ذكراً ، وأطولهم أمداً . وذكر ان اسمه (أمية بن عوف بن جنادة بن عوف بن عياد بن قلع بن فقيم بن عدي بن عامر ابن الحارث بن ثعلبة)[5] ، وذكر أيضاً انه (القلمس بن أمية بن عوف بن قلع ابن حذيفة بن عبد بن فقيم)[6] .

وورد في خبر ينسب الى (ابن عباس) ، انه قال : النسأة في كندة[7] . وانهم كانوا النسأة الأول ، قبل المذكورين[8] . وذهب (الجاحظ) الى ان النسيء كان في كنانة ، وأما السدانة ، فكانت في (مرّ بن أدّ) « من رهط صوفة والرُّبيط منها أصحاب المزدلفة ، وكانت عدوان وأبو سيّارة عميلة بن أعزل ، تدفع الناس »[9] . ويكاد يكون الاجماع على أن النسيء كان من حق (كنانة) ، لم يتولّه غيرهم .

وذكر أن الناسيء ، كان يحل للمحرمين قتال (خثعم) و (طيء) ، « لأنهم كانوا لا يحرمون الأشهر الحرم ، فيغيرون فيها ويقاتلون . فكان من نسأ الشهور

---

١ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٢ تفسير الطبري (١٠/٩٢) .
٣ تفسير الطبري (١٠/٩٣) ، تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/١٢٤) ، (نسأ) ، (١/٤٥٦) ، « طبعة الكويت » ، نهاية الارب (١/١٦٦) ، الروض الانف (١/٤٢) .
٥ الاصابة (١/٢٤٨) ، (رقم ١٢٠٧) .
٦ نهاية الارب (١/١٦٦) ، تاج العروس (١/١٢٤) ، (نسأ) .
٧ اللسان (١/١٦٧) ، (صادر) .
٨ الازرقي (١/١١٨) .
٩ الحيوان (٧/٢١٥) .

من الناسئين يقوم ، فيقول : إني لا أحاب ولا أعاب ، ولا يرد ما قضيت به، وإني قد أحللت دماء المحللين من طيء وخثعم ، فاقتلوهم حيث وجدتموهم إذا عرضوا لكم »[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن أولئك الناسئين كانوا نابهين في قومهم ، لهم مركز عظيم وشأن . فكان (القلمس) ، مثلاً ملكاً في قومه ، وهو من بني كنانة[2] ، وكان عالم قومه وفقيههم في الدين ، وكان الذي يلي النسيء يظفر بالرياسة لتريس العرب إياه[3] . ويظهر أنهم كانوا أصحاب علم ونظر ومكانة محترمة ، في أمور الدين ، في قومهم وفي القبائل التي تحج الى مكة .

وكلمة (قَلَمّس) على ما يتبين من روايات الأخباريين ، لم تكن اسم علم، وإنما هي لفظة يراد بها عند الجاهليين ما يراد من معنى الفقيه والمفتي في الاسلام[4]. وقد ذكر علماء اللغة أن من معاني القلمس : السيد العظيم ، والرجل الخيّر المعطاء والمفكر البعيد الغور ، والداهية من الرجال ، ونحو ذلك من معانٍ تشير الى صفات عالية في الرجل الذي أطلقت عليه ، وقد تكون بمعنى العالم العارف، وقد أطلقت بصورة خاصة على هذه الجماعة ، لسعة علمها بهذا الموضوع وغيره ، ولوقوفها على التوقيت وعلم الفلك في تلك الأيام[5] . وقد تكون لفظة من جملة الألفاظ المعربة التي دخلت العربية قبل الإسلام .

وطريقة الناسيء في اعلانه النسيء على الناس في الحج ، أن يقوم رجل من كنانة فيقول : أنا الذي لا يردّ لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم »[6] . وهذا الرجل هو الناسيء، أو أن يدعو الناسيء الناس في آخر موسم الحج الى الاجتماع حوله ، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعاً مرتفعاً ظاهراً ، أو قام على ظهر جمله ليراه الناس ثم يقول بأعلى

---

١ تاج العروس (١/١٢٥) ، (نسأ) .
٢ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، المحبر (١٥٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٧٢) .
٣ تفسير القرطبي (٨/١٣٨) .
٤ المحبر (ص ١٥٦) ، تاج العروس (٤/٢٢٢) ، (القلمس) ، تفسير الطبري (١٠/٩٣) .
٥ راجع معنى « القلمس » في اللسان (٦/١٨٢) .
٦ تاج العروس (١/٤٥٦) (الكويت) .

صوته : « اللهم إني لا أعاب ولا أحاب ، ولا مردّ لما قضيت . اللهم ، إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهراً من الأشهر الحرم ، وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه) ، وأنسأته الى العام القابل ، أي أخرت تحريمه ، وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي ، فكانوا يحلّون ما أحل ويحرمون ما حرم » . فإذا انتهى من هذا الخطاب وأمثاله ، أباحوا لأنفسهم الغارة في ذلك الشهر ، وغزوا من نووا غزوه . فإذا جاء العام القابل ، نهض الناسىء ليقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلاني ، وهو الشهر الذي أحله في العام الماضي فحرّموه، فيحرمونه[1] .

وورد في بعض الروايات ، انه كان يقوم فيقول : « إني لا أحاب ولا أعاب ولا يرد ما قضيت به ، وإني قد أحللت دماء المحللين من طيء وخثعم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم اذا عرضوا لكم » . وذلك لما ذكر من عدم تحريم طيء وخثعم للشهور الحرم ، فكانوا يغيرون ويقاتلون فيها ، ولذلك استثناهم القلامسة من عدم مقاتلتهم في تلك الشهور ، وذلك لضرورات الدفاع عن النفس[2] .

وقد نسب الى بعض القلامسة شعر ، قيل انهم قالوه يفتخرون فيه باحتكارهم النسيء ، وبارشادهم الناس الى مناسك دينهم ، وقيادتهم الحجاج ، يسيرون تحت لوائهم ، يبينون لهم شهور الحل والأشهر الحرم ، كما ورد شعر منسوب الى بعض كنانة يفتخر فيه بأن قومه ينسئون الشهور على معدّ ، فيجعلون شهور الحل حراماً والشهور الحرام حلالاً[3] .

وقد قال (عمير بن قيس بن جذل الطعان) ، شعراً افتخر فيه وتعرض لأمر النسيء ، فكان مما جاء فيه قوله :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ ، نجعلها حراما[4]

---

١ المعاني الكبير (٣/١١٧١) ، بلوغ الارب (٣/ ٧٣) ، نهاية الارب (١/ ١٦٦) ، « أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ؟ ولا يرد لي قضاء ، فيقولون : نعم · صدقت أنسئنا شهرا ، أو أخر عنا حرمة المحرم ، واجعلها في صفر وأحل المحرم ، فيفعل ذلك » ، تفسير الطبرسي (٥/ ٢٩) ، (طهران) ·

٢ تاج العروس (١/ ٤٥٧) ، (الكويت) ، مادة : « نسأ » ·

٣ تاج العروس (١/ ٤٥٧) ·

٤ اللسان (١/ ١٦٧) ، ونسبه (الطبرسي) الى الكميت ، تفسير الطبرسي (٥/ ٢٩)، (طهران) ، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٦) ، سنن ابن ماجة (٥/ ١٨٠) ، السنن الكبرى (٥/ ١٦٥) ،

وقال بعض بني أسد :

لهم ناسيءٌ يمشون تحت لوائه يحل إذا شاء الشهورَ ويُحْرِمُ[1]

وقال آخر :

نسوء الشهور بها وكانوا أهلها من قبلكم والعزّ لم يتحول[2]

وقد نسب (القرطبي) البيت :

ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ ، نجعلها حراما

الى الكميت[3] .

وقد استمرت طريقة النسيء هذه الى أيام الإسلام ، فحجّ أبو بكر في السنة التاسعة من الهجرة ، فوافق حجه ذا القعدة ، ثم حج رسول الله في العام القابل الموافق للسنة العاشرة للهجرة ، المصادفة لسنة (٦٣١) للميلاد ، فوافق عود الحجّ في ذي الحجة . ثم نزل الحكم بإبطال النسيء في الآيات : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين . إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين »[4] . وخطب الرسول في جموع الحجاج خطبته الشهيرة التي بيّن فيها مناسك الحج وسننه وأموراً أخرى أوضحها لهم ، فكان مما قاله لهم : « أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان

---

١ تاج العروس (١/٤٥٧) ، (الكويت) .
٢ تفسير بحر المحيط (٥/٣٩) .
٣ تفسير القرطبي (٨/١٣٨) .
٤ سورة التوبة : الاية ٣٦ وما بعدها ، راجع تفسير الطبري (١٠/٩١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤/٤٤٦ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٣/٢٣ وما بعدها) ، الكشاف (٢/١٥٠ وما بعدها) .

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً »[1] . فألغى الإسلام منذ ذلك الحين النسيء، وثبت شهور السنة وجعل التقويم القمري هو التقويم الرسمي للمسلمين .

وروي كلام الرسول عنه على هذه الصورة : « أيها الناس . ان النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلّونه عامـاً ويحرمونه عاماً ، ليواطأوا عدة ما حرم الله ، فيحلّوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض . وان عـدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم . ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[2] . فألغى الاسلام منذ ذلك الحين النسيء ، وجعل التقويم القمري الخالص هو التقويم الرسمي للمسلمين .

ويظهر من القرآن الكريم ان سبب تحريم النسيء في الاسلام هو تلاعب القلامسة بالشهور ، بتحريمهم شهراً حلالاً في عام ، ثم تحليلهم له في العام القابل . فأزال الاسلام ذلك التلاعب بتحريم النسيء ، واتخاذ السنة سنة قمرية ذات اثني عشر شهراً لا غير . كما صيرها الجاهليون ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً[3] . ولما كان الزرع يعتمد على المواسم الطبيعية ، وعلى الأشهر الشمسية ، لذلك صار اعتماد المزارعين في الزرع وفي الحصاد على الشهور الشمسية ، أي على السنة الشمسية . أما الأمور الدينية ، مثل الحج والصيام ، فالاعتماد بالطبع على الشهور القمرية[4] .

واتخاذ التقويم القمري تقويماً رسمياً للاسلام ، هو من السمات التي امتاز بهـا الاسلام عن الجاهلية، واعتبر من النقاط الفاصلة التي فصلت بين الجاهلية والاسلام . وهكذا زال الكبس كما زال النسيء عن السنة القمرية وعن الشهور لتحويلها الى سنة شمسية على نحو ما رأيناه من فعل الجاهليين .

ويرى بعض المستشرقين أن النسيء والناسىء من الألفاظ المعربة عن العبرانية .

---

١ ابن الاثير (٢/١٢٦) ، الواقدي (٤٣١) (طبعة ولهوزن) ، ابن كثير (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، وقد رويت خطبة الرسول بصور مختلفة ، اختلافا يدل على أن الرواة لم يكونوا قد دونوا النص ، وانما رووا عن ذاكرة وحفـظ ، فاختلفوا من ثم في رواية النص .

٢ ابن هشام (١/٣٥١) ، (حاشية على الروض الانف) .

٣ بلوغ الارب (٣/٧١) ، روح المعاني (١٠/٩٣ وما بعدها) .

٤ Caetani, I, 356, Bubl, Muhammed, S. 350, H. Winckler, in Arabisch — Semitisch Orientalish, 85. ff., Berlin, 1901.

وقد دخلت الى العربية بتأثير يهود يثرب . والناسيء عند اليهود هو الرئيس الديني . وكان يقوم عندهم بتقديم وتأخير الشهور ، ويعين مواعيد الأعياد والصيام، ويذيع النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة[1] . والناسيء يقابل رئيس قبيلة عند بني اسرائيل[2] ، وهذا التعريف ينطبق تماماً مع ما ذكره أهـل الأخبار عن (الناسيء) عند الجاهليين .

وقد بحث عدد من المستشرقين في حساب السنين عند الجاهليين وفي النسيء ، فجاؤوا بآراء متباعدة غير متفقة ، لكل واحد منهم رأي ومذهب في طريقة العرب قبل الإسلام في حساب الشهور وفي السنين القمريـة والشمسية والكبس والنسيء . وقـد ناقشها ولخصها (نالينو) في كتابه : « علم الفلك تأريخه عند العرب في القرون الوسطى » . وهو ممن يرون أن البحث في هذا الموضوع صعب عسير ، وأن البت فيه غـير ممكن في الزمن الحاضر ، لقلة الموارد وعدم وجود أخبار وروايات واضحة صريحة يمكن أن يستند اليها في ابـداء رأي علمي ناضج في الموضوع[3] .

والذي أراه ان أهل الحجاز كانوا يتبعون التقويم الشمسي مع مراعاة الإهلال، أي تقويماً شمسياً قمرياً ، بدليل ان لأسماء الأشهر علاقـة بالجو من برد وحر ، وربيع وخريف . فقد ذكر علماء اللغة ان الربيـع انما سمي ربيعاً ، لارتباعهم فيه والارتباع الاقامة في عمارة الربع ، وأن (جمادى) سمي بذلك لجمود الماء فيه ، أي انهما من أشهر الشتاء . قال الشاعر :

وليلة من جمادى ذات أندية   لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة   حتى يلف على خرطومه الذنبا[4]

وأن رمضان من شدة الرمضاء ، وهو الحر . ولا يعقل أن تكون هذه التسميات قد جاءت عفواً ومن غير ارتباط بحالة من حالات الطبيعة . وقـد انتبه المتقدمون

---

١ ولفنسون : تأريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٣١ ، العدد ، الاصحاح ٧ ، الاية ٣٢ ، تاريخ اليهود في بلاد العرب (ص ٨١) .
٣ (ص ٩٤ وما بعدها) .
٤ تفسير ابن كثير (٢/٣٥٤) .

اليها ، فقال بعضهم « وكانت الشهور في حسابهم لا تدور » ، ولكن بعضهم لم يقبل بذلك إذ قال : « وفي هذا نظر ، إذ كانت شهورهم بالأهلة ، فلا بد من دورانها » ، وقال في تفسير اسم جمادى « فلعلهم سمّوه أول ما سمي عند جمود الماء في البرد »[1] .

والذي أراه ان تلك الأشهر كانت ثابتة لا تدور ، بمعنى انها كانت ثابتة في مواسمها ، يسيرون بموجبها في زراعتهم وفي أسفارهم ، ولكنهم كانوا يسيرون على الإهلال ، أي الشهور القمرية في أمورهم الاعتيادية وفي الأعمال المالية ، مثل الديون ، حيث يسهل تثبيت المدة بعدد الأهلة ، ومن هنا اختلط الأمر على أهل الأخبار فخلطوا بين التقويمين ، بسبب عدم وضوح الروايات . وكان شأنهم في ذلك شأن العرب الشماليين الذين كانوا يحجون في وقت واحد ثابت ، هو في شهر (ذي الحجة) ، الذي تحدثت عنه في مكان آخر ، وشأن العرب الجنوبيين الذين كانوا يحجون في شهر (ذي الحجة) الذي كان وقته ثابتاً أيضاً ، فلا يكون في صيف ، ثم يكون في ربيع أو في خريف أو في شتاء ، ولا يعقل خروجهم على هذا الاجماع الذي نراه عند العرب الشماليين ، أي عرب بلاد العراق وعرب بلاد الشأم ، وينفردون وحدهم باتخاذ تقويم قمري بحت .

ما ذكرناه عن النسيء وعن الكبس يخص عرب الحجاز ، وأهل مكة بصورة خاصة ، ولا يتناول العرب الجنوبيين . ولا عرب بقيـة أنحاء جزيرة العرب ، لعدم وجود أخبار لدينا عنها تتناول المواضع الأخرى ، لا في النصوص الجاهلية ولا في أخبار أهل الأخبار . ولكن الذي يظهر من النصوص العربية الجنوبية المتعلقة بالزراعة ومن أسماء الشهور ، أنها كانت شهوراً ثابتة ، أي شهوراً شمسية لا قمرية ، وأن السنة التي كانوا يسيرون عليها سنة شمسية ، غير أن هـذا لا يمنع مع ذلك من سيرهم على مبدأ الإهلال في حياتهم الاعتيادية ، أي على الشهور القمرية ، بحيث تكون الرؤية مبدءاً للشهور . وذلك لوضوح الأهلة وإمكان رؤيتها بسهولة وتثبيت الأوقات بموجبها ، بمعنى أنهم كانوا يسيرون على التقويمين : التقويم الشمسي في الزراعة وفي دفع الغلات ، والتقويم القمري في الأمور الاعتياديـة .

---

١ تفسير ابن كثير (٣٥٤/٢) .

ولا نستطيع أن نتحدث عن كيفية احتساب العرب الجنوبيين للسنة الشمسية ، ولا عن الكبس عندهم ، لعدم ورود شيء عنها في النصوص .

ويظن أن سنة العرب الجنوبيين كانت من (٣٦٠) يوماً ، مقسمة الى اثني عشر قسماً ، أي شهراً ، نصيب كل شهر منها (٣٠) يوماً . وحيث أن هذا المقدار من الأيام ، وهو (٣٦٠) يوماً هو دون الآيام التي تمضيها الأرض في دورانها الحقيقي حول الشمس ، لذلك كانوا يعوضون عن الفرق إما بإضافة الأيام اللازمة على أيام السنة لتكبسها فتجعلها مساوية للسنة الطبيعية ، وذلك في كل سنة ، وإما بإضافة شهر كبيسة مرة واحدة في نهاية كل ست سنوات[١] .

ويظن (بيستن) ، أن القتبانيين قد أخذوا بالطريقة الثانية : طريقة إضافة شهر زائد كامل على التقويم في كل ست سنوات ، لتتعادل السنة بذلك مع السنة الطبيعية ، وان ذلك الشهر المضاف هو الشهر المسمى بـ (ذ برم اخرن) ، أي بـ (ذى برم الآخر) ، أو (ذى برم الثاني) ، عند القتبانيين وبشهر (ذ نسور اخرن) ، أي (ذى نسور الآخر) ، أو (ذى نسور الثاني) عند السبئيين .

ووردت في احدى الكتابات جملة (بين خرفهن) ، أي بين السنتين . وقد رأى (ونكلر) ، انها تعني الأيام التي تضاف الى نهاية السنة لكبسها حتى تكون سنة طبيعية كاملة . أي سنة شمسية ، ولذلك عُبر عنها بـ (بين السنتين) ، أي الاضافة التي توضع فيما بين السنتين . السنة المتقدمة والسنة التالية لها[٢] . وذهب (كريمه) الى انها تعني شهراً ، هو الشهر الذي يضاف على التقويم لكبس السنين ، ويرى (بيستن) ، ان هذا الرأي يصعب قبوله ، لأنه لو كان شهراً كاملاً ، لسموه باسم معين ، أو لرمزوا اليه برمز يميزه عن شهور السنة الأخرى ، كأن يقولوا له (اخرن) ، أي الآخر ، أو الثاني[٣] .

أما اليهود ، يهود جزيرة العرب ، فقد كانوا يسلكون طريقتهم الخاصة في

---

١ Beeston, p. 18.

٢ Winckler, Altorientalische Forschungen, II, (1900), S. 351.

٣ Beeston, p. 43.

التوقيت ، ويسلكون منهجهم في تعيين الشهور ، كما يتأيد ذلك من الأخبار التي نجدها عنهم في كتب الأخباريين .

وأما النصارى العرب ، فقد كانوا يتبعون التقاويم الشرقية ، ويسيرون عـلى الشهور السريانية المعروفة ، وعلى وفق شعـائر الكنيسة ، ويحتفلون بأعيادهم على وفق ما ثبت عندهم في كنيستهم . وقد أشير اليها في بعض الشعر الجـاهلي وفي كتب الأخباريين .

الفصل الرابع والثلاثون بعد المئة

التقاويم والتواريخ

التقاويم :

هناك نوعان من السنين : سنين بنيت على أساس الشهور القمرية التي تثبت بمراقبة القمر ، وسنتها سنة قمرية Lunar Year . والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري . وسنون بنيت على أساس شمسي Solar Year . والتقويم القائم عليها ، تقويم شمسي ، شهوره ثابتة لا تتغير . وعدة الشهور عند العرب اثنا عشر شهراً ، سواء كانت السنة شمسية أم قمرية [١] .

ولقد قلت فيما سبق : يظهر من النصوص الجاهلية ، أن أهل العربية الجنوبية كانوا يعملون بالتقويم الشمسي ، وفقاً للمواسم الزراعية ، لأننا نراهم في هذه النصوص يزرعون ويبذرون ويحصدون في شهور معينة ، ويدفعون الضرائب في مواسم ثابتة ، كما نرى أن أسماء الشهور ، عندهم ذات معان متصلة بالطبيعة ، مثل الجفاف ، والمطر ، والحر ، والبرد ، والربيع ، والخريف ، ولو كانت سنتهم سنة قمرية محضة ، لما سمّوا أشهرهم بأسماء اشتقت من الحر والبرد واعتدال الجو وحلول الخريف ، إذ لا يعقل وقوع المعاني المذكورة مع تغير الشهور وعدم استقرارها على حال من الأحوال . إلا أن تواريخهم بالسنة الشمسية ،

---

١ اليعقوبي (١/١٧٧) .

لم يمنعهم من التوريخ بالتقويم القمري في أمورهم الاعتيادية ، كما في وفاء الديون ، وأخذ الديات ، والبيع والشراء ، والأسفار ، لوضوح الشهر القمري ، وامكان حساب الأهلة وضبط عددها بسهولة ويسر ، فيسهل على المتعاقدين التعاقد بموجب عدد الأهلة ، أما الزراعة ، وتربية الحيوان ودفع الضرائب وما شابه ذلك ، فلا صلة لها بالأهلة ،وإنما صلتها بالمواسم والفصول ، وهي من مكونات السنة الشمسية. إذن كان العرب الجنوبيــون يؤرخون ويعملون بتقويمين : تقويم قمري ، وآخر شمسي .

استعمل العرب الجنوبيون التقويم الشمسي في الزراعة ، واستعملوا التقويم القمري للأغراض التي ذكرتها ، والتقويم النجمي ، أي التقويم الذي يقوم عــلى رصد النجوم لأغراض دينية وللوقوف على الأنواء الجوية لما لها من صلة بالزراعة وبالحياة العامة [1] .

ويتبين من النصوص الثمودية واللحيانية والصفويــة ، ومن النصوص النبطية ، ومن نص النمارة ، ان أصحابها كانوا يتعاملون وفقــاً للتقويم الشمسي في الأمور التي لها اتصال مباشر بالطبيعة ، ووفقاً للتقويم القمري في الأمور الأخرى، لسهولة ضبط الأهلة ، وتحقيق العقود بموجبها . واذا كان الحال على هذا المنوال عنــد هؤلاء وعند العرب الجنوبيين ، فبامكاننا القول ان بقية الجاهليين ، ممن لم يتركوا لنا نصوصاً ، كانوا يتبعون التقويمين كذلك ، جرياً على سنة الناس في ذلك العهد ، ومنهم الأعاجم ، من اتباعهم التقويمين المذكورين في تنفيذ العقود والالتزامات وفي ضبط الأزمنة .

ومما يؤيد اتباع العرب الشماليين للتقويم الشمسي ، ما ذكــره الكتّاب اليونان واللاتين ، من أن العرب كانوا يقيمون طقوسهم الدينية ويؤدون شعائرهم المقدسة كالحج الى المحجات في أوقات ثابتة ، فقد ذكر (أفيفانيوس) ، ان للعــرب شهراً يحجون فيه الى محجاتهم ، ويقع ذلك في شهــر (تشرين الثاني)[2] ، كما

---

١ Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsüdarabischen, Band., 2 S. 145, Sab. Denkm., S. 21, Glaser, Zwei Inschriften, S. 47, Note 7, ZDMG., 46, 322, Glasser, Die Sternkunde der Südarabischen Qabylen in SBWA., Winckler, AOF., 2, S., 351.

٢ Epiphanius, Haer., 51, 24, Reste, S. 85, 100, Ency. Religi., 10, p. 10.

ذكر (بروكوبيوس) ، ان العرب كانوا قد جعلوا شهرين في السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً ، ويقعان في تموز وآب[1] ، وذكر (فوثيوس) ، أن العرب كانوا يحتفلون مرتين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس: مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف ، وذلك لمدة شهرين[2] . وفي هذه الاشارات الى الأشهر المقدسة ، والى كونها ثابتة لا تتغير بتغير المواسم ، دلالة على سير العرب في تقويمهم ، وفقاً للتقويم الشمسي .

وقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل عثور الباحثين على نصوص كثيرة مؤرخة . وقد زعم علماء اللغة « أن التأريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض ، وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب »[3] ، وفي كلامهم صحة ، إذا كان قصدهم التأريخ العام للعالم ، الذي يبدأ وفقاً لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم فالأنبياء والرسل والملوك الى أيامهم ، وفيه خطأ ، إذا قصدوا به ، التأريخ مطلقاً ، أي تثبيت الوقت ، على نحو ما نفهم من قولنا أرخت الحادث ، وأرخت الكتاب ، فقد عرف التأريخ عند الجاهليين ، بدليل وروده في نصوصهم . واستعمالهم لفظة (بورخ) ، للتأريخ . وكلمة (ورخ) ، من الكلمات الواردة بكثرة في النصوص ، ومنها لفظة (توريخ) و (ورّخ) بمعنى أرخ في عربيتنا . ولفظة (أرخ) نفسها هي من هذا الأصل .

وقد عرف (الجاحظ) أن الجاهليين كانوا يؤرخون إذ قال : « وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخلقة مركبة في البنيان ؛ فربما كان الكتاب هو الناتيء ، وربما كان الكتاب هو الحفر ، إذا كان تأريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، أو تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان ... وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر ،وعلى الأبلق الفرد ... يعمدون الى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ،

---

١ Procopius, II, p. 16.

٢ Reste, 101, Winckler, Alt. Orient. Faroch., II, Reihe, 1 Band, S. 336.

٣ تاج العروس (٢/٢٥٠) ، (أرخ) .

وأجدر أن يراها من مرّ بها ، ولا تنسى على وجه الدهر »[1] .

ثم قال : « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها ، بأن تعتمد ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها ... ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر ، فبنوا غمدان ، وكعبة نجران وقصر مارد ، وقصر مأرب ، وقصر شعوب ، والأبلق الفرد ، وفيه وفي مارد، قالوا : تمرد مارد وعز الأبلق ، وغير ذلك من البنيان »[2] . ثم تعرض لأهمية الكتب ولشأنها في تخليد الذكرى،فقال : « والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر،وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان »[3].

وتتناسب أساليب التأريخ مع درجة عقلية المؤرخ ومستواه العقلي ، لذلك نجد التواريخ بالأمور العادية البسيطة بين الرعاة والأعراب والسوقة من النـــاس ، بينما نجد غيرهم ممن هم فوقهم درجة في العقل والثقافة يؤرخون بمناسبات لهـــا شأن وأهمية ، مثل التقاويم العامة المهمة ، المثبتة بمبدأ ، حيث يؤرخ بموجبها .

وقد تبين لنا من دراسات نصوص المسند ، أن أصحابها استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وتثبيت زمانها ، فأرخوا بحكم المـــلوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، من غير تعيينه بسنين ، وذلك كما في هذا المثل : « بيوم اليفع يشر ملك معنم »[4] ، أي « بيوم اليفـــع يشر ملك معين » ، و « بيوم يذمر ملك وترال »[5] . ومعناهما في « أيام حكم اليفع يشر ملك معين » ، أو « وكان ذلك في حكم اليفع يشر ملك معين » بالنسبة للفقرة الأولى و « في أيام يذمر ملك وترايل » ، أو « في حكم يذمر ملك ووتر ايل»،

---

١ الحيوان (١/٦٨ وما بعدها) ، المحاسن والاضداد (٣) ، (مجلس الكتابة والكتب) .
٢ الحيوان (١/٧٢) .
٣ الحيوان (١/٧٣) .
٤ REP. EPI. 2869.
٥ المصدر نفسه الرقم ٢٧٤٠ ، Beeston, p. 26

أو « وكان ذلك في أيام حكم يذمر ملك وترايل » بالنسبة للجملة الثانية . فلم يذكر النص السنة التي دوّن فيها النص ، أو أرخ فيها النص من سني حكم الملك المذكور . وهي سنون قد تكون قصيرة ، وقد تكون طويلة . ولفظة (يوم) هي بمعنى : (حكم) و (أيام) .

وقد يؤرخ بحكم موظف من كبار موظفي الحكومة من حملة درجة (كبر) (كبير) ، مثلاً ، أو غيرها من الدرجات العالية في الحكومة أو في المجتمع . كما أرخوا بأيام الرؤساء والسادات وأرباب الأسر . وليس العرب الجنوبيون بدعاً في هذا الباب ، فقد كان غيرهم يؤرخ بهذه الطرق ، وذلك قبل توصلهم الى اتخاذ تقويم واحد ثابت له بداية معينة تؤرخ به .

والغالب ذكر اسم الشهر مع حكم الكبير أو الرئيس أو أي انسان آخر ، كما في هذا المثال : « بورخ ذ طنفت ذ كبر ايتم ذ عرقن »[1] ، ومعناها « بشهر ذو طنفت من كبارة أيتم ذو عرقن » ، وبعبارة أوضح « بشهر ذو طنفت من حكم الكبير أيتم ذو عرقن » ، و (ذو طنفت) ، اسم شهر من الشهور .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، على انها أحسن حالاً في نظرنا من الكتابات المهملة التي لم يؤرخها أصحابها بتأريخ ، إلا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر . إذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة ، أو حكمه ، أو زمانه ، أو زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات ان شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً سينسى بعد أجيال ، وقد يصبح نسياً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وإن استفدنا منها في أمور أخرى لا صلة لها بتثبيت تواريخها .

وقد تجمعت لدينا أسماء أشخاص أرخ الناس بأيامهم لأنهم كانوا أصحاب جاه ونفوذ ، لكننا لا نعرف اليوم من أمرهم شيئاً ، لأن النصوص لم تذكر شيئاً

---

١ REP. EPI. 3608, 3, Beeston, p. 26.

عنهم ، وعن أيامهم،منهم : (عم على) من (آل رشم) من عشيرة (قفعن)[١]،
و (موهبم ذ ذرحن) ، أي (موهب ذو ذرحان)[٢] . و (غوث ايـــل)
من (آل بيحان) (بيحن)[٣]. و (شهر بجر)[٤] ، و (ذران) (ذرءان)[٥]،
و (اب على بن شحز) ، أي (أبو على) من قبيلة (شحر)[٦] . وكل هؤلاء
الذين أرخ بهم هم من قتبان .

ومن الأسر التي أرخ بأيامها أسرة (نبط) و (مبحظ)[٧] و (حزفرم كـــبر
خلل) (حزفر كبير خليل) و (حذمت) و (فضحم)[٨] .

كما تجمعت لدينا أسماء عدد من الأشهر في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة ،
تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة للمواسم والسنة. ويظهر انهم كانوا يستعملون
احياناً مع التقويم الذي يؤرخ بحكم الرجال ، تقويماً آخـــر هو التقويم الحكومي ،
وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال[٩] .

وقد تغير الحال في كتابات المسند منذ سنة (١١٥) قبل الميلاد ، على رأي
غالبية الباحثين ، أو السنة (١٠٩) على رأي (ريكمنس) ، إذ أرخت بتقويم
ثابت أرخت بموجبه الى قبيل الاسلام . مبدأه سنة سقوط حكومـــة سبأ وتكوين
حكومة (سبأ وذي ريدان) ، على رأي بعض علماء العربيات الجنوبية ، فأرخ

---

١ السطر الثاني والعشرون من النص المنشور في :
Rep. Epig., VI, I, p. 218, Glaser, Alt. Nachr., S. 162. ff. ,Grundriss, S. 33, Glaser 2566.

٢ راجع نهاية الفقرة ٦ وأول الفقرة ٧ من النص Glaser 1601. Rhodokanakis, K.T.B., I, S. 8. ff.

٣ Rep. Epig., 3693, Tome VI, II, p. 275.

٤ Rhodokanakis, K.T.B. I, S. 122. f., Rip. Epig. 3663, Tome VI, II ,p. 259.

٥ SE. 80a, Glaser 1398, 1609, Rep. Epig. 3879, Vol., VI, II, p. 334.

٦ Halevy 504, Rhodokanakis, K. T.B., I, S. 34, II, S. 7.

٧ A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calenders and Datings, London, 1956, A.G. Lundin, Eponymat Sabéen et Chronologie Sabéene, 26, Congr. Intern. des Orientalistes, Conf. Prés. par la délégation de l'URSS, Moscou, 1963, Le Muséon, 1964, 3-4, p. 429.

٨ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 496.

٩ Rhodokanakis, KTB., I, S. 81. f.

بهذا الحادث ، ولا سيا في الكتابات الرسمية المتأخرة [١] . ويرى (بيستن) ان مبدأ هذا التقويم غير مضبوط ، وأن مبدأه فيا بين السنة ١١٨ — ١١٠ قبل الميلاد . ويرى أيضاً ان العرب الجنوبيين لم يؤرخوا به في هذا العهد ، لأن النصوص التي تعود الى القرن الأول قبل الميلاد كانت لا تزال تؤرخ بالتأريخ القديم ، أي بالتواريخ الغير الثابتة ، مثل التأريخ بأيام الملوك والكبراء والكهنة وأمثالهم ، فلو كانوا يؤرخون به لما أهملوه . ويرى انهم انما أرخوا بـه بعد ذلك ، في حوالي القرن الثالث للميلاد .

وقد ساعدنا هذا التقويم على تثبيت تواريخ عدد من النصوص أرخت بموجبه، وعلى معرفة تأريخ هذه الحقبة التي أرخت بها . ولكن النصوص المؤرخة قليلة العدد ، ثم إننا لا نملك نصاً واحداً منها من ابتداء العهد بالتأريخ بـه ، كذلك لا نملك نصوصاً مؤرخة يعود عهدها الى قبيل الميلاد ، أو الى القرن الأول أو الثاني منه .

وأقدم نص مؤرخ بهذا التقويم ، هـو النص الموسوم بـ CIH 46 ، وتأريخه سنة (٣٨٥) من هذا التقويم ، وهو يساوي السنة (٢٧٠) أو (٢٧٦) للميلاد . وهو من أيام الملك (يسرم يهنعم) (ياسر يهنعم) ملك سبأ وذي ريدان وابنه (شمر يهرعش) . ويراد بهما (ياسر يهنعم) الثاني و (شمر يهرعش) الثالث على رأي (فون وزمن)[٢] . ونص آخر للملك (ياسر يهنعم) ، تأريخه سنة (٢٧٤) أو (٢٨٠) للميلاد . والنص الموسوم بـ MM 150 = CIH 448 ، وهو يساوي سنة (٢٨١) أو (٢٨٧) بعد الميلاد .

وهناك نصوص مؤرخـة أخرى من أيام الملك (شمر يهرعش) ، ونصوص من بعد أيامه حتى أيام تملك الحبشة لليمن . أما ما بعد أيام الحبشة في اليمن ، أي أيام استيلاء الفرس عليها ثم أيام دخولها في الإسلام ، فلم يصل الينا منهـا نص ، لا مؤرخ ولا غير مؤرخ[٣] .

---

١ Mordtmann und Eugen Mitwoch, Sabaische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

٢ Le Muséon, 1964, 3-4, p. 484, Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 353.

٣ Mordtmann und Eugen Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931, S. I.

وآخر هذه النصوص المؤرخة ، هو النص الموسوم بـ CIH 525 ، وتاريخه سنة (٦٦٩) من التأريخ الحميري ، وهو يقابل سنة (٥٥٤) للميلاد . ويمكن أن نقول إن هذا النص هو آخر نص مؤرخ عثر عليه لا في المسند وحده ، بل في كل اللهجات العربية الأخرى ، وهو أقرب تلك الكتابات عهداً بالاسلام .

ويلاحظ ان بعض الكتابات المؤرخة تذكر لفظة (بورخ) أو (ورخسن) (ورخ) ، ثم تذكر بعدها اسم الشهر الذي أرخ النص به ، ثم عدد السنين بالنسبة للتقويم . ويراد بها معنى (شهر) ، وذلك كما في هذه العبارة : « ورخس ذو سحر .. » ، أي « في شهر ذو سحر .. » ، و « بورخ ذو خرف .. » ، أي « بشهر ذو الخريف .. » ، أو « بورخ ذ معن » ، أي « بشهر ذي معان .. » « بشهر ذي معين » ، « بشهر ذي معون » ، وهناك كتابات مؤرخة استعملت لفظة « (ورخهو) بمعنى (وتأريخه) . كما في هذه الجملة : « ورخهو ذ لثني وسثي وسث ماتم »[1] ، أي « وتأريخه لاثني وستين وست مئة » ، وبعبارة أوضح : « وتأريخه لسنة اثنين وستين وست مئة » . فاستعملت لفظة (ورخهو) اذن ، بالمعنى العلمي الذي نستعمله اليوم حين نؤرخ عهودنا ووثائقنا ، فتقول : (أرخت بـ ..) أو (تأريخها ..) .

وترد لفظة (خرفن) ، أي سنة قبل عدد السنين في بعض النصوص ، مثل : « خرفن ذ لثلثت واربعي وخمس ماتم »[2] ، ومعناها : « السنة الثالثة والأربعين بعد الخمس مئة » ، وقد تلحق لفظة (خرفتم) ، بعد عدد السنين . كما في هذا المثال : « ورخهو ذ حجتن ذل اربعي وسث ماتم خرفتم »[3] . ومعناه : « تأريخه أو شهره ذو الحجة لأربع وستمائة سنة» . وتقابل هذه السنة سنة (٤٨٩) أو (٤٩٥) للميلاد .

ويلاحظ أن النصوص السبئية المؤرخة قد أرخت بتقويمين : تقويم عرف بـ (خريفتم بن خريف نبط) ، (خرفتم بن خرف نبط)[4] ، أي بـ (سنين

---

١ CIH 541, Glaser 618.

٢ Ryckmans 534, Beeston, p. 57.

٣ CIH 621, Beeston, p. 37, Glasr, Die Abessinier in Arabien und Afrika, 1896, S. 152 ,Zwei Inschriften, S. 86.

٤ REP. EPIGR. 4196.

من سنة نبط) ، ومعناه أن هذه السنين المذكورة ، هي وفقاً للتقويم الجاري على سني (نبط) ، أو تقويم (نبط) ، وتقويم آخر قدّرت السنين فيه وفقاً لسني (مبحض بن ابحض) ، (ذ بخرفن ذل بن خرف مبحض بن ابحظ)[1]. ويشير ذلك الى وجود مبدأين للتأريخ عن السبئيين : التأريخ بتقويم (نبط) ، والتأريخ بتقويم (مبحض بن أبحض) . وذلك في الكتابات التي تعود الى القرن الثالث ونهايته لما بعد الميلاد . كالكتابات التي تعود إلى أيام (ياسر يهنعم) و (شمر يهرعش) ، أما الكتابات المتأخرة ، فقد اختفت منها هاتين التسميتين ، ويظن أنهم أخذوا بالتأريخ بتقويم (مبحض) ولذلك اهملوا الاشارة الى الاسم ، لأنه كان معلوماً عندهم . ويرى (بيستن) أن الفرق بين التقويمين هو قرابة نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن[2] .

وأسلوب التوريخ في النصوص السبئية المتأخرة هو أن تذكر لفظة (ورخن) أولاً ، ثم اسم الشهر من بعده ، ثم السنة ، كأن تقول : « ورخهن ذ مذرن ذل ٣١٦ خرفتم بن خرف نبط »[3] ، أي « وبشهر ذ مذران لـ ٣١٦ سنة من سنة نبط » ، أو « وبتأريخ ذ مذران من سنة ٣١٦ من سني نبط » ؛ أو مثل « ورخهو ذ داون ذ لخرفين ذل اربعت وسبعى وخمس ماتم » ، أي « وشهره ذ داوان للسنين التي هي ٥٧٤ »[4] ، أو « وتأريخه ذ داوان للسنة ٥٧٤ » ، ومثل : « خرفن ذل ثلثت واربعى وخمسمس ماتم » ، أي « سنة ٥٤٣ »[5] ، ومثل : « وخرفهو ذ حجتن ذل اربعى وسث ماتم خرفتم »[6] ، أي « وشهره ذو الحجة لأربعين وستمائة سنة » ، أو « وتأريخه ذو الحجة الموافق لـ ٦٤٠ سنة مضت » ، ومثل : « وخرفهو ذل ثنى وسثى وسث ماتم »[7] . أي « وتأريخه لاثنين وستين ومائة »[8] .

---

١ CIH 46, 448, REP. EPIGR. 3866, Beeston, p. 36.

٢ Beeston, p. 36.

٣ REP. EPIG. 4196.

٤ Ryckmans 520.

٥ Ryckmans 534.

٦ CIH 621.

٧ Ryckmans 506.

٨ Beeston, p. 73.

ومن الغريب ان أهل الأخبار قد أغفلوا الاشارة الى هذا التقويم فلم يذكروا عنه شيئاً ، ولم يشيروا الى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤرخون بـه ، مع أهميته وكونه تقويماً رسمياً .

هذا ، وان في استطاعتنا القول بأن اليمن لم تسر رسمياً على التقويم العبراني أو التقويم النصراني ، حتى في أيام احتلال الحبش الأخير لليمن ، أو في أيام استيلاء الفرس عليها ، وذلك بدليل توريخ أبرهة عامل الحبشة على اليمن ، وهو نصراني ، نصوصه بالتقويم اليماني المستعمل في اليمن الذي تحدثت فيما سلف عن مبدئه ، مع أنه حاكم اليمن وممثل الحبش فيها وهو نصراني . وبدليل توريخ عدد من كتابات المسند المتأخرة من عهد لا يبعد كثيراً عن الاسلام بهذا التقويم . وليس بالتقويمين المذكورين،أو بأي تقويم آخر من التقاويم المستعملة عند الشرقيين .

ولكن ما أذكره لا يعني بالطبع عدم احتمال توريخ يهود اليمن أو نصاراهـا أو غيرهم بتقاويم أخرى ، مثل التقويم العبراني أو الميلادي ، أو غيرهما . وما أقوله هو عن التقويم الرسمي المدون في المسند ، وربما سيعثر في المستقبل على نصوص تعود الى عهد احتلال الحبش لليمن ، يرد فيها التأريخ بأيام الحبش فيها، أو بالتأريخ الرسمي الذي كان يتبعه الأحباش في مملكتهم .

أما العرب الشماليون ، عرب العراق وبادية الشأم وبلاد الشأم ، فلم يرد الينا من نصوصهم المؤرخـة إلا عدد محدود ، منها نص النمارة الذي يعود عهده الى السنة (٣٢٨) للميلاد . وهو مؤرخ بتقويم بصرى ، وبصرى مركز مهم ، كان يقصده عرب الحجاز للاتجار وقد وصل اليه النبي . وكان عرب هذه المنطقـة يؤرخون به . ويبدأ هذا التقويم بدخول بصرى في حوزة الروم سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد ، أي السنة التي تم فيها القضاء على حكومة النبط والحاق (بترا) بـ (الكورة العربية)[١] .

ولهذا فإذا أردنا تحويل سنة من السنين التي أرخ بها وفقـاً لتقويم بصرى ، فعلينا اضافة الرقم (١٠٥) أو (١٠٦) على سني تقويم بصرى ، فيكون حاصل

١ Die Araber, II, S. 319.

الجمع السنة وفقاً للتقويم الميلادي تقريباً . فتأريخ نص النمارة هو سنة (٢٢٣) من تقويم بصرى ، وقد أضفنا اليه الفرق وهو (١٠٥) ، فصار الحاصل (٣٢٨) ، وهو ما يقابلها من سني الميلاد .

وقـد أرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربـع مئة وثلاث وستين من الأندقطيّة الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ للميلاد ، والأندقطية هي دائرة ثماني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة . أما النص العربي فقد أرخ بسنة (٤٦٣) ، بعد مفسد خيبر بعام . ويراد بجملة : « بعد مفسد خيبر بعم » ، غزوة قام بها أحد أمراء غسان أو غيره لخيبر ، وذلك في رأي الأستاذ (ليتمان)[1] . وعندي ان السنة (٤٦٣) ، التي أرخ بها النص العربي ، هي من سني تقويم بصرى ، بدليل اننا لو أضفنا اليها الرقم (١٠٥) المذكور ، صار الحاصل (٥٦٨) ، وهو كناية عن سني الميلاد ، المقابلة لسني بصرى . وعلى ذلك يكون تدوين هذا النص قد تم بعد غزو خيبر بعام ، أي ان هذا الغزو قد وقع سنة (٥٦٧) للميلاد . وقد كان (الحارث بن جبلة) يحـكم (غسان) آنذاك ، فتصدق رواية (ابن قتيبة) حينئذ التي تذكـر انه غزا خيبر ، وسبا أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام[2] .

وقد استعمل التقويم الذي يؤرخ بحكم (الاسكندر) تقويماً عند اليونان وفي بلاد الشأم ، وعند عرب بلاد الشأم أيضاً . ومبدأه الأول من شهر نيسان لسنة (٣١١) قبل الميلاد[3] ، ونجد أثر التأريخ بهذا التقويم في الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن عرب بلاد الشأم والعراق . وقد بقي الناس يؤرخون به الى أن حـل التقويم الميلادي محله ، فنسي ذلك التقويم . وذكر (المسعودي) أن ما بين الاسكندر الى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون[4] .

وقد كان الصفويون مثل غيرهم يؤرخون بالحوادث التي يكون لها شأن عندهم،

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١٨/١) ، السامية (١٩٢) ، Rivista degli stud. Orientali, 1911, p. 195.

٢ المعارف (٦٤٢) .

٣ Die Araber, II, S. 236, Hastings, extra Volume, (1904), p. 483.

٤ مروج الذهب (١٨٣/٢ وما بعدها) ، (ذكر شهور السريانيين) .

مثل حروبهم بعضهم مع بعض ، أو حروبهم مع غيرهم مثل النبط أو الروم . وقد أرخ بعضها بحوادث ذات صفة خاصة وعائلية ، مثل (سنة قتله خاله) ، أو (سنة وفاة والده) . وهي حوادث لا يمكننا الاستفادة منها في استنباط تأريخ منها ؛ لأننا لا نعرف من أمرها شيئاً . غير أن هنالك نصوصاً مؤرخة أفادتنا بعض الإفادة في الوقوف على التوقيت عند الصفويين . ففي نص لرجل اسمه (انعم بن فخش) ، ما يفيد أنه استولى على غنائم (سنة الحرب مع النبط). ويقصد بسنة الحرب مع النبط ، السنة التي قضى فيها الرومان على مملكة النبط ، وهي سنة (١٠٥) أو (١٠٦) للميلاد . وقد صارت هذه السنة مبدءاً للتأريخ في (بصرى) ، وعند العرب الصفويين[1] .

ولدينا نص صفوي آخر ، أرخ بـ « سنت حرب همدى ال روم » ، أي « سنة محاربة الميديين الروم » ، أو « سنة حرب الميديين الروم » . ويرى (ليتمان) انه قد توصل الى ضبط تأريخ هذه الحرب . وهناك نص أرخ بـ « سنت قتل ال حمد » ، ويظن انه يشير الى معركة دارت على قبيلة تسمى (آل حمد) . وصاحب النص رجل من قبيلة تسمى (الرحبة)[2] ، ولا زال الأعراب يؤرخون بأيام قتالهم بعضهم مع بعض .

ونحن لا نعلم اليوم كيف كان يؤرخ أهل الحيرة أو الغساسنة ، لعدم ورود نصوص مدونة عن ذلك سوى ما ذكرته من نص النمارة المؤرخ بموجب تقويم بصرى . ولا أستبعد احتمال استعمال أهل الحيرة التقاويم العراقية أو الفارسية التي كانت شائعة عندهم في ذلك العهد أساساً للتأريخ . وقد يكون من بينها التقويم النصراني بالنسبة للنصارى ، وينطبق ذلك على نصارى الغساسنة أيضاً ، كما لا أستبعد استعمال الغساسنة لتقويم الروم . وللتقاويم العربية المألوفة التي تستعمل الأساليب المحلية في تثبيت التواريخ . ويظهر من تأريخ (ابن الكلبي) لحوادث الحيرة وعرب العراق بتقويم الساسانيين لتواريخ ملوكهم ، ان أهل الحيرة كانوا قد دوّنوا تواريخهم بموجبها ، ولكن هذا لا يمنع من احتمال أخذ ابن الكلبي أقواله في تواريخهم من تواريخ الفرس ومن رواتهم رأساً ، فلا يكون عندئذ ذكره

---

١ رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٣) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

لتواريخهم دليلاً على تأريخ أهل الحيرة بتقويم الفرس .

ويروي أهل الأخبار أن العرب كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي تحدث لهم ، من ذلك عام الخُنان . وهو عام وقع فيه كما يقولون مرض خطير عضال فتك بالناس وبالإبل ، فأرخوا به ، ورووا في ذلك شعراً للنابغة الجعدي[1] . وقد وقع زمن الخنان في عهد المنذر بن ماء السماء ، وماتت الإبل منه . فصار ذلك تأريخاً لهم[2] . ويظهر أنه كان وباء فتك بالناس وبالإبل ، وانتشر في العراق وفي نجد ، فأرخ به لأهميته بالنسبة لهم، والتأريخ بالأوبئة شيء مألوف ، وأهل بغداد كانوا يؤرخون بطاعون وقع عندهم في عهد العثمانيين وقبل الحرب العالمية بسنوات ولا زال الشيبة يؤرخون به .

وكان أهل مكة يؤرخون بما يقع عندهم من أحداث جسيمة ، فإذا أرخوا بحادث ومضى عهد عليه ، ووقع لهم حادث آخر أكثر أهمية وشعبية منه ، أرخوا به . فتوالت لهم عدة تواريخ ، نسخت بعضها بعضاً ، فأرخوا كما يذكر أهل الأخبار بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن لحي ، وهو الذي يقال انه بدّل دين ابراهيم ، وحمل من مدينة البلقاء صنم هُبَلْ ، وعمل إسافاً ونائلة، وذلك كما يقال في زمن (سابور ذي الأكتاف) . وأرخوا بعام موت كعب بن لؤي الى عام الغدر ، وهو الذي نهب فيه بنو يربوع ما أنفذه بعض ملوك حمير الى الكعبة من الكسوة ، ووثب بعض الناس على بعض في الموسم . ثم أرخوا بعام الغدر الى عام الفيل الذي أرخوا به[3] . قال (الجاحظ) : « ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي ، وكان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر ، فلما مات أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل »[4] .

---

١ فمن يحرص على كبري فاني من الشبان أيام الخنان
بلوغ الارب (٣/٢١٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٩/١٩٣) (خنن) ، بلوغ الارب (٣/٢١٤) ، اللسان (١٣/١٤٣) « صادر » ، (خنن) .

٣ الآثار الباقية (١/٣٤) .

٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .

وذكر (اليعقوبي) ، أن قريشاً كانوا يؤرخون بالسنين ، يؤرخون بموت (قصي) لجلالة قصي عندهم ، فسنة وفاته هي مبدأ تأريخهم الى أن كان عام الفيل ، فأرخوا به لاشتهار ذلك العام[1] .

وذكروا أنهم أرخوا بعام وفاة هشام بن المغيرة المخزومي،وهو والد أبي جهل، وكان من رؤساء بني مخزوم ، وله صيت عظيم بمكة ، كما كان سيد قريش في زمانه[2] . وقد مات بالرعاف ، ذكر أنه كان آخر من مات به من سادة قريش . وزعموا أن الرعاف من منايا (جرهم) أيام جرهم ، وأنه أهلكهم ، فأرخوا به . قال بشير بن الحجير الإيادي :

ونحن إياد عبادُ الإلـه ورهط مناجيه في سُلّم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمانَ الرعاف على جرهم[3]

وورد (زمان النخاع) في موضع (زمان الرعاف) ، وهو داء أيضاً ، زعم أنه فتك بجرهم ، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان[4] . فهو وباء أيضاً زعم أن الناس أرخوا به .

وأرخوا بعام الفيل ، بقوا يؤرخون به الى أن أرخ بالهجرة[5] . وقد ترك الحادث أثراً مهماً في ذاكرة قريش ، ولهذا ذكروا به في القرآن ، حتى يتعظوا به . ويجعلون عام الفيل في الثانية والأربعين من ملك كسرى أنو شروان ، وقبل ولاية النعمان بن المنذر المعروف بـ (أبي قابوس) بنحوٍ من سبع عشرة سنة ،

---

١ اليعقوبي (٢/٤) ، (مولد رسول الله) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢١٥) ، (واتخذت قريش موته تأريخا . وله يقول بجير بن عبد الله بن عامر بن سلمة بن قشير :
فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الارض ليس بها هشام) ،
المحبر (١٣٩) .
٣ الحيوان (٦/١٥١) .
٤ الحيوان (٦/١٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢١٥) .

وهي احدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الاسكندر على دارا ، وهي سنة ألف وثلاثمائة وستة عشر لابتداء ملك بخت نصر[1] . وهو العام الذي ولد فيه الرسول على أغلب الروايات .

وأرخت قريش بيوم الفجار وبحلف الفضول .

وكانوا يسمون السنين بالحوادث الخطيرة الجليلة التي تقع فيها . وقد فعل ذلك المسلمون أيضاً في صدر الإسلام ، فسموا كل سنة مما بين الهجرة والوفاة باسم مخصوص بها مشتق مما اتفق فيها للنبي . فسموا السنة الأولى للهجرة سنة الأذن ، والثانية سنة الأمر بالقتال ، والثالثة سنة التمحيص ، والرابعة سنة الترفئة ، والخامسة سنة الزلزال ، والسادسة سنة الاستئناس ، والسابعة سنة الاستغلاب ، والثامنة سنة الاستواء ، والتاسعة سنة البراءة ، والعاشرة سنة الوداع ،فكانوا يستغنون بذكرها عن عددها من لدن الهجرة[2] .

وأما الأعراب ، فتواريخهم برئاسة ساداتهم ، وبالأحداث التي تقع لهم من أفراح وأتراح ، ومن غزو أو نكبة ، وبالعوارض الطبيعية ، مثل سقوط مطر غزير ، أو انحباسه مدة طويلة ، أو هزة أرضية ، أو ظهور جراد ، أو وقوع وباء ، وما أشبه ذلك من أمور . وهم على هذا النوع من التأريخ حتى اليوم .

وليس في الذي رواه أهل الأخبار عن أهل الجاهلية ما يشير الى وقوف العرب على كتب في التأريخ يونانية أو لاتينية أو سريانية أو عبرانية ، أو على معربات لها . وليس في كل الذي ذكروه اسم مؤرخ من المؤرخين الذين نجلتهم الشعوب المذكورة . غير ان هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وقوفهم على تواريخ تلك الأمم وأخبارهم ، ففي القصص المنسوب الى الجاهليين ، قصص يدل على انه مأخوذ عن تلك الأمم مستورد منها . ثم ان أهل الأخبار أنفسهم أشاروا الى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في كتب الأساطير ورووا منها أخبار العجم ، والى نفر ذكروا عنهم انهم نظروا في الكتب القديمة وحذقوا لغات أهل الكتاب ، ورووا في شعرهم أو في كلامهم شيئاً مقتبساً من قصص أهل الكتاب ، يضاف

---

١ امتاع الاسماع (١/٤) .

٢ الآثار الباقية (١/٣٤) .

الى ذلك وجود الكنائس والنصرانية في بلاد العرب . والتأريـخ ، ولا سيما تأريخ الكنيسة موضوع مهم من الموضوعات التي استعان بهـا المبشرون ورجال الدين في الوعظ والارشاد . ولا يستبعد أن تكون كتب التأريخ التي كتبها آباء الكنيسة ، مثل (أوسبيوس القيصري) وأمثاله ، في جملة الكتب التي استعانت بها الكنيسة لافهام الناس تأريخها وتطورها وتطور العالم على نحو ما دوّنوه بالاستناد الى التوراة والانجيل .

الفصل الخامس والثلاثون بعد المئة

اللغات السامية

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى وكذلك سائر لهجات العرب الأخرى ، هي فروع من مجموعة لغات عرفت عند المستشرقين بـ (اللغات السامية). وقد أولع بعض المستشرقين بدرس هذه اللغات، فألفوا فيها كتباً وأبحاثاً ، وأنشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون في توسيعها وتنظيمها وتبويبها، وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات « Semitistik ». وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية : تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدمه في هذا اليوم ، فالبحث علم ، والعلوم تبتغي المعرفة دون قيد بزمان أو مكان .

وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية وفي معرفة مميزات كل لغة ، وما بينها وبين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه ، ومجال بحثهم في تقدم وتوسع ، خاصة بعد أن أخذ هؤلاء العلماء بأساليب البحث الحديثة التي تعتمد على الفحوص والاختبارات والملاحظات والنقد[1] .

وقد جاءت نظرية (اللغات السامية) من التسمية التي أطلقها (شلوتسر) « Schlözer » على العبرانيين والفينيقيين ، والعرب والشعوب المذكورة في التوراة على أنها من نسل (سام بن نوح)[2] . ولم تقم نظرية التوراة في حصر اولاد

---

١ Theodore Nöldeke, Sketches from Eastern History, Beirut, 1963, p. 1.

٢ الاصحاح العاشر من سفر التكوين .

سام على أساس عرقي ، بل بنيت على عوامل جغرافية وسياسية ، ولهذا أدخلت العيلاميين واللوديين « Lud » في أبناء (سام) ، مع أنهما ليسا من الساميين ، ولا تشابه لغتهما لغة العبرانيين[١] .

والقرابة بين اللغات السامية واضحة وضوحاً بيناً ، وهي أوضح وأمتن وأوثق من الروابط الـتي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغـات الهندوأوروبية « Indoeurpaichen Sprachen » أو الهندوجرمانية « Indogermanischen Spraden » على حد تعبير بعض العلماء[٢] . وقد أدرك مستشرقو القرن السابع عشر بسهولة الوشائج التي تربط بروابط متينة ما بين اللغات السامية ، وأشاروا اليها ، ونوهوا بصلة القربى التي تجمع شملها . بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج والى التنويه بها . فقد تحدث عالم يهودي اسمه : (يهودا بن قريش) « Jehuda ben Koraish » ، وهو ممن عاشوا في أوائل القرن العاشر ، عن القرابة التي تجمع بين اللغـات السامية ، وعن الخصائص اللغوية العديدة المشتركة بين تلك الألسن ، كما أبـدى ملاحظات قيمة عن الأسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات[٣] .

والأساس الذي بني عليه رأي العلـماء في حشر من يرون حشره في عائلـة الساميات ، أو إخراج من يرون اخراجه منها ، هو قرب لغة من يرون فحصه لترشيحه لعضوية تلك العائلة من اللغات السامية ، أو بُعد لغته عنها ، ثم قرب عقلية من يرون إدخاله في السامية من العقلية العامة التي رسمت حدودها لعقليـة الساميين ، من دين وأساطير وحيـاة اجتماعية وأدب ونحو ذلك مما يحدد عقليات الناس . وبهذه الطريقة يبحث العلماء اليوم موضوع الساميات[٤] .

---

١ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig, 1899, S. I, Richard J.H. Gottheil, Semitci Literatures, p. 1, The Columbia University Press, 1911.

٢ Theodore Nöldeke, Die Semitischen Sprachen, S. II,
وسيكون رمزه : 'Sprachen
Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Bd. I, S. I.

٣ Sprachen, S. 2, Grūndriss, I.., S. I, Geiger, Ursprung der Sprache, 1869, 22.

٤ Richard Hartmann und Helmuth Schell, Beiträge Zur Arabistik, Semitistik und Ielamwissenschafts, Leipzig, 1944, S. 3 ff.

وقد حملت الخصائص المشتركة والألفاظ المهمة الضرورية لشؤون الحياة التي ترد في كل اللهجات السامية بعض العلماء على تصور وجود لغة أم ، في الأيام القديمة، تولدت منها بعوامل مختلفة متعددة مجموعة (اللغات السامية) . ويؤدي تخيل وجود هذه الأم الى تخيل وجود موطن قديم للساميين كان يجمع شملهم ، ويوحد بين صفوفهم ، الى أن أدركتهم الفرقة لعوامل عديدة ، فاضطروا الى الهجرة منه الى مواطن جديدة ، والى التفرق،فكانت هذه الفرقة إيذاناً بتبلبل ألسنة البابليين ، وسبباً الى تفرق ألسنتهم وظهور هذه اللغات .

ولا يعني تصور وجود لغة ساميّة أم « Ursemitish » على رأي بعض العلماء ضرورة وجود لغة واحدة بالمعنى المفهوم من اللغة الواحدة ، كانت أماً حقيقية لجميع هذه اللغات البنات . بل الفكرة في نظرهم مجرد تعبير قصد به شيء مجازي هو الإفصاح عن فكرة تقارب تلك اللغات وتشابهها ، واشتراكها في أصول كثيرة اشتراكاً يكاد يجمعها في أصل واحد ، ويرجعها إلى شجرة واحدة هي الشجرة الأم . فالسامية الأولى أو السامية الأم ، أو السامية الأصلية ، هي بهذا المعنى تعبير مجازي عن أقدم الأصول المشتركة التي جمعت بين اللهجات السامية القديمة في الأيام القديمة ، أيام كان المتكلمون بها يعيشون في أمكنة متجاورة وفي اتصال وتقارب عبر عنه بفكرة النسب المذكور في التوراة[1] .

وليس من السهل علينا أن نتصور كيف كانت اللغة السامية الأولى . ولكننا لا نستطيع – بسبب قدم زمان هذه اللغة إن كانت هناك لغة سامية أولى وبسبب الأحوال البدائية التي كانت تحيط بالمتكلمين بها شأن البشرية جمعاء في ذلك العهد ولقلة مستلزمات المعيشة يومئذ وانخفاضها – أن نتصور أن هذه اللغة كانت واسعة جداً بمفرداتها غنية بمسمياتها ، وفي قواعد صرفها ونحوها وفي أساليب بيانها ، لأن ما نذكره لا يمكن أن يتوفر إلا في مجتمع متطور متقدم ، وإلا بعد تطور استمر أمداً طويلاً ، ولم يكن الساميون الأولون في ذلك العهد على درجة كبيرة من التطور والتقدم،حتى تكون لغتهم الأولى على نحو ما نذكره من اتساع وارتقاء .

وتسوقنا إشارتنا العابرة هذه الى السامية الأم الى الإشارة الى الوطن السامي الأول الذي عاش فيه الساميون . أيام اجتماعهم وتكتلهم في وطن واحد ، وأيام

---

١ جواد علي تأريخ العرب قبل الاسلام (١٦٦/١ وما بعدها) ، (١٠/٧ وما بعدها) .

تكلمهم بلسان واحد أو بألسنة متقاربة متشابهة ، يفهم أحدهم الآخر بيسر وسهولة. ثم عن الأيام التي نزلت فيها المكاره على أولئك الساميين القدماء فأجبرتهم على ترك ذلك الوطن في دفعات وفي هجرات متعددة والارتحال عنه الى مواطن أخرى جديدة .

وقد اختلف العلماء في تعيين الموطن الأصلي للساميين ، وذهبوا في ذلك مذاهب ، يخرجنا الحديث عنها عن صلب موضوعنا هذا . والمفروض في هذا الوطن أن يكون المهد الأول الذي ضم الشعوب السامية ، والمكان الذي اتصلت فيه تلك الشعوب بعضها ببعض ، الأثر الذي نراه في اللغة وفي الدين وفي النواحي العقلية وما شاكل ذلك .

وبما أن من غير الممكن التعرف على اللغة السامية الأم ، لأن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك العهد ، فكّر المستشرقون في دراسة أقرب اللغات السامية الى الأصل ، فذهب بعضهم الى أن العبرانية هي أكثر تلك اللغات شبهاً بالسامية الأولى ، وهي لذلك أقرب بنات سام اليها . وذهب آخرون الى تقديم لغة بني إرم على غيرها جاعلين إياها البنت الأولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الأصلية أكثر من اجتماعها في أية لغة أخرى ، ولهذا استحقت في رأيهم هذا التكريم والتقديم . وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الأخرى ، لمحافظتها أكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الأولى وعدم تنصلها منها وتركها لها . كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت من قواعد بقية اللغات . غير ان هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة ، يقابلها من جهة أخرى مميزات في العربية لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرأت عليها فيما بعد ، وأن اللغة العربية قد مرت بأدوار تطورت فيها كثيراً ، والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الأصل . ثم اننا نجد في العبرانية وفي لغة بني إرم قطعاً من الكلام قديماً جداً لا نجد له مثيلاً في العربية ، وهذا مما يدعو الى حسبان اللغتين المذكورتين أقدم عهداً من اللغة العربية . غير اننا لا نستطيع مع كل ذلك أن ننكر أن معرفتنا وإحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانيها معرفتنا وإحاطتنا ببقية اللغات السامية . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقلاً مهماً لإجراء التجارب والاختبارات في ميدان

مقارنات اللغات السامية ودراستها ، فيه من الامكانيات والقابليات ما لا نجده في بقية الحقول[1] .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية ، وذلك بأن نأخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتهـا وقواعدها وكيفية النطق بألفاظها وما الى ذلك، ثم نقارن ما سجلناه بما يقابله في بقية اللغات السامية ، لنقف بذلك على ما بين هذه اللغات من مفارقات ومطابقات . ولا بأس في رأيه من الاستعانة باللهجات الحالية أيضاً ، لأنها مادة مساعدة جـداً ومفيدة كثيراً في الكشف عن خصائص اللغات السامية وعن مميزاتهـا وتطورها في مختلف العصور . وفي رأيه ان دراسة من هذا النحو ليست بالأمر اليسير ، فإنها تتطلب جلداً وعلماً وإحاطة باللغات السامية كلها وبآثارها القديمة ، وأن يقوم بهـا علماء لغويون متخصصون ، عـلى جانب كبير من العلم والذكاء والإحاطـة بالساميات[2] .

وليس بين اللغات السامية لغة واحدة تستطيع أن تدعي انها سامية صافية نقية ، وانها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي الى مجموعات لغويـة غير سامية ؛ وقضية صفاء لغة ما من لغات العالم وخلوّها من الألفاظ والكلمات الغريبة ، قضية لا يمكن أن يقولها رجل له إلمام بعلوم اللغات ولو يسيراً جداً . واذا كانت اللغات السامية قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها ببعض نتيجة ذلك الاختلاط ، فإن من الطبيعي أن تكون اللغات السامية قد أثرت بعضها في بعض ، ولهذا نجد في كل لغة من اللغات السامية ألفاظاً أخذتها من لغة ما من لغات أبناء سام .

وخير ما يمكن أن نفعله الآن في موضوع اللغة السامية وأقرب اللغات الساميـة اليها ، هو ان نقوم باستخلاص القديم المشترك من كل اللغات السامية ، ثم نكوّن من هذا المجتمع لغة نعدّها أقرب اللغات السامية صورة الى اللغة السامية الأولى . وتعدّ للضمائر وأسماء العدد وأسماء أعضاء الجسم الأساسية المهمة وجملة ألفاظ تخص الحياة الانسانية الأساسية ، مثل بيت وسماء وأرض وجمل وكلب وحمـار وعدد

١ Sprachen, S. 5 ff.

٢ Sprachen, S. 7.

من حروف الجر ، من جملة القديم المشترك في جميع اللغات السامية أو في أكثرها ، وهو لذلك يفيدنا من هذه الناحية كثيراً في تكوين فكرة عن اللغة السامية القديمة وعن أقرب اللغات السامية الى الأصل .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية الى قسمين : لغات سامية شمالية ، ولغات سامية جنوبية . ويقسم بعض العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية . ويقصدون بالمجموعة الشرقية اللغات السامية المتركزة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المتركزة في بلاد الشأم . وقد تأثرت كل مجموعة من المجموعتين بالمؤثرات اللغوية والحضارية للمكان التي عاشت فيه ، ومن هنا حدث بعض الاختلاف بين الجماعتين .

ومن أهم الخصائص التي امتازت بها اللغات السامية من غيرها من اللغات :

اعتمادها على الحروف الصامتة « Konsonant » = « Consonant » أكثر من اعتمادها على الأصوات « Vocal » = « Vokale » ، فنرى أن أغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة . أما الأصوات ، فلا نجد لها حروفاً تمثلها في اللغات السامية . وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالأصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة.وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك الى الاستزادة من الحروف ، فزادت في عددها عن العدد المألوف في اللغات الآرية ، وأوجدت لها حروفاً للتفخيم والترقيق وإبراز الأسنان والضغط على الحلق[1] .

ويتولد في اللغات السامية من تغيير حركات الأحرف الثلاثية الصامتة وتبديلها، معان جديدة . ولهذا كان من أهم واجبات الأصوات في اللغات السامية تغيير حركات الحروف لتوليد معان جديدة . فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن هي التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الأصول الثلاثية لا تبقى على حالها متى تغيرت حركات هذه الحروف . فكلمة (فعل) المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، هي حروف الفاء والعين واللام ، هي أصل ، غير أن هذا الأصل غير ثابت . بل هو عرضة للتغيير ،ويكون تغيره بتغيير حركات أحرفه ، فإذا تغيرت

---

١ ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (ص ١٤) ،
Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

حركات هذه الأحرف تغيرت معانيها حتماً . فكل تغيير إذن في حركات أحرف الأصل يعقبه تغير في معنى ذلك الأصل . فلفظة (فَعَلَ) ، تختلف في المعنى عن لفظة (فعِل) ، واللفظتان (فَعَلَ) و (فعِل) تختلفان أيضاً في المعنى عن معنى لفظة (فُعِلَ) . وقد تولد هذا الاختلاف من تغير حركات حروف الأصل وتبدلها .

ومن الممكن إحداث معان جديدة في اللغات السامية ، وذلك بإضافة زوائد تتألف من حرف أو أكثر الى الأصول الثلاثية ، فيتبدل بذلك معنى الأصل . فإذا أضفنا حرف الألف بين حرفي الفاء والعين من (فعل) ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فاعل) ، وإذا وضعنا حرف الواو بين حرفي العين واللام من فعل ، تغير المعنى ، وصارت اللفظة (فعول) ، وهكذا .

فنرى مما تقدم ان المعاني المشتقة من الكلمات ذات الأصل الثلاثي مهما تغيرت وتولدت نتيجة لتغيير حركات تلك الحروف الثلاثة الصامتة ، فإنها لا تتنصل من هذه الحروف ولا تتركها ، بل تبقى في صلب كل كلمة ، مهما صار معناها . فكلمة (قتل) العربية مثلاً المؤلفة من ثلاثة أحرف صامتة ، يمكن أن نولد منها معاني جديدة ، أي كلمات جديدة ، بتغيير هذه الأحرف الثلاثة ، أو بادخال زوائد عليها ، أو بتشديد بعض حروفها كما ذكرت ، غير اننا لا نستطيع أن نترك حرفاً من هذه الأحرف الثلاثة التي هي الأصل .

فألفاظ مثل قاتل،وقتيل،وقتال،ومقتول ، وقتْل ، وقتّلَ ، وقُتِلَ ، وكلها مشتقة من الأحرف الصامتة الثلاثة : القاف والتاء واللام ، لم نتمكن من الاستغناء عن حرف من هذه الأحرف الثلاثة ، بل اضطررنا الى ابقائها كلها فيها . إلا أنا أجبرنا على التفريق بينها بسبب دخول الزيادات[1] .

وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات ، أي وصل كلمة بأخرى ، لتكون من الكلمتين كلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين كما في اللغات الآرية . وأما ما نراه من عدّ كلمتين مضافتين كلمة واحدة تؤدي معنى واحداً ، فإن هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيء جديد في اللغات

---

[1] Semitistik, Dritter Band, Erster Abschnitt, 1953, S. 10 ff.

السامية ، لم يكن معروفاً عند أجدادهم القدماء[1] . وهو معروف في اللغات الآرية ، كما في حالة الـ « Genitive » في اللاتينية حيث تتولد معان جديدة باضافة لفظة الى لفظة أخرى ، فتتولد من هذا التعاقب دلالة جديدة لمعنى جديد .

هذا ، ونجد أن بين اللغات السامية وبين اللغات الآرية اختلافات في كثير من الأمور ، فاللفظة في اللغات السامية ذات مدلول عام ، وقد يكون لها جملة مدلولات تدل على معان عامة مطلقة ، أما اللغات الآرية ، مثل السنسكريتية ، واليونانية ، والألمانية ، فكل جذر فيها هو كلمة ذات معنى مقيد محدود ، أخذت منه المصادر والنعوت. وهناك اختلافات أخرى في موضوع الـ « Conjuctions » والـ « Substansive » والـ « Syntax » ، والـ « Interdependence of sentences » وغير ذلك من أمور يعرفها علماء اللغات والنحو والصرف .

ويرى العلماء أن الفعل قد تطور في اللغات السامية تطوراً خطيراً ، استغرق قروناً طويلة ، وأن ما نعرفه من تقسيم الأفعال الى ماض ومضارع وأمر ،لم يكن معروفاً على هذا النحو عند قدماء الساميين . ويرى بعضهم أن الصيغة الأصلية للفعل إنما كانت صيغة الأمر ، فهذه الصيغة هي أقدم صيغ الأفعال عند الساميين. وقد كانت هذه الصيغة تستعمل للدلالة على جميع صيغ الفعل من الماضي والمضارع والأمر ، ثم تخصصت فصارت تشير الى حدوث الفعل في صيغة الأمر ، وذلك بعد ظهور صيغتي المضارع والماضي .

ومن صيغة فعل الأمر ، اشتق فعل المضارع . وذلك بزيادة حرف على أول لفظة فعل الأمر ، لتدل على حالة الإسناد الى الفاعل أو الضمير مثلاً . وقد سبقت هذه الزيادةُ الزيادةَ التي لحقت آخر الفعل ، فمن فعل (قم) مثلاً تولد الفعل (أقوم) و (يقوم) و (نقوم) و (تقوم) ثم يقومون وتقومون[2] .

ومن علماء اللغات من يرى أن صيغة المضارع كانت أمداً تدل على جميع الأزمنة ، وأن هذا الأداء كان مستعملاً عند قدماء الساميين استعمال اللغة الصينية

---

١ Brockelmann, Grundriss, I, S. 5.

٢ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) ، The Bible Dictionary, Vol. II, p. 429.

واللغة الهندوجرمانية الأصلية له[1] .

ونجد اليونانية تغير معاني الفعل بإدخال حرف الجر عليه ، فإذا دخل حرف جرّ على الفعل تغير معناه .

ويظن ان الكلمات المؤلفة من حرفين صامتين ، أي الألفاظ الثنائية الأصل مثل أب وأم وأخ ويد، كانت أقدم من الأفعال المشتقة من ثلاثة أحرف مثل فعل، صنع ، أكل ، ذهب ، وأن الأفعال الثلاثية أقدم من الأفعال الرباعية . وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان الأفعال الرباعية المؤلفة من أربعة أحرف كانت مؤلفة في الأصل من حرفين اثنين ، ثم تطورت بالاستعمال في خلال العصور الطويلة حتى صارت رباعية الأصل[2] .

وفي العبرانية صيغتان للفعل الماضي : الصيغة المألوفة للماضي ، وصيغة ثانية مشتقة من المضارع مع إضافة واو العطف ، وهي صيغة قديمة جداً . وهي موجودة في البابلية القديمة وفي الكنعانية العتيقة . ولعلها كانت صلة بين المضارع وبين الماضي. وليس لهذه الصيغة وجود في العربية الشمالية وفي العربية الجنوبية والحبشية وفي لغة بني إرم[3] .

ويلاحظ ان العبرانية تشارك اللهجات العربية الجنوبية في أمور عديدة غير معروفة في عربية القرآن الكريم ، كما توجد أوجه شبه بين ألفاظ حبشية وعبرانية[4] .

وللدلالة على الجمع استعملت العبرانية حرفا (يم) للمذكر ، و (واو وتاء) للمؤنث . أما الآرامية ، فاستعملت حرفا (ين) علامة للجمع ، وأما العربية فاستعملت (الواو والنون) للجمع المذكر السالم ، و (الألف والتاء) في الجمع المؤنث السالم ، وهناك جموع تكسير كثيرة كثرة لا نكاد نرى لها مثيلاً في اللغات السامية الأخرى[5] . وذلك بسبب أن هذه الجموع هي في الواقع جموع وردت في لهجات عربية متعددة ، وردت سماعاً ، فلما جمعها علماء العربية ودونوها

---

١ المصدر السابق (ص ١٦) .
٢ ولفنسون ، السامية (١٧) .
٣ ولفنسون ، السامية (١٦) .
٤ ولفنسون ، السامية (١٩) .
٥ ولفنسون ، السامية (١٩) .

في كتب اللغة والمعاجم ، لم يشيروا الى أسماء من كان ينطق بها، فظن انها جموع استعملت في هذه العربية التي نزل بها الوحي .

ومن أهم الإختلافات التي نراها بين اللغات السامية . اختلافها في التعريف . فبينا نرى بعض اللغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها ، نرى العبرانية وبعض اللهجات العربية مثل الثمودية واللحيانية تستعمل حرف الـ (هـ) أداة له ، تضعه في أول الكلمة ، وبينا نرى السبئية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى تستعمل أداة أخرى للتعريف هي حرف (النون) ، تضعها في آخر الكلمة المراد تعريفها ، نجد العربية الفصحى تستعمل (ال) أداة للتعريف ، تضعها في أول الكلمة . وتشارك السريانية العربيات الجنوبية في مكان أداة التعريف ، فمكانها عندها في نهاية الكلمة أيضاً ، غير أنها تختلف عنها في استعمالها أداة أخرى هي حرف الـ (ه) أي الواو .

وقد درس بعض المستشرقين أوزان الأسماء في اللغات السامية ، كما درسوا اشتقاقها وأصولها التي أخذت منها ، وبحثوا في حالات التصغير أي في الأسماء المصغرة وطرق التصغير عند جميع الساميين ، والأسماء البسيطة والأسماء المركبة ، ليستخرجوا منها قواعد قدماء الساميين في كيفية تكوين الأسماء ، ولا سيا تلك الأسماء التي ترد في جميع اللغات السامية . ففي اللغات السامية أسماء مشتركة ترد في كل اللغات ، منها ما هو بسيط مؤلف من كلمة واحدة ، ومنها ما هو مركب ، أي أسماء مؤلفة من أكثر من كلمة بطريقة الإضافة . ودراسة هذه الأسماء بأنواعها ، تفيدنا كثيراً في الوقوف على العقلية السامية وعلى الخواص المشتركة التي كانت تربط بين الساميين .

ونجد الإعراب في اللغة العربية الفصحى ، ويذهب العلماء الى أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة [1] .

---

١ ولفنسون ، السامية (ص ١٥) .

ونجد العربية ذات حروف يزيد عددها على حروف اللغات السامية الأخرى . ولعلّ اللغات الأخرى كانت تملك حروفاً أخرى ، ثم قلّ استعمالها فزالت من أبجديتها ، ولم تبق لها حاجة بها . فالعبرانية لا تمتلك الحروف : (ذ) ، و(ع) ، و (ظ) ، و (ض) . والبابلية لا تمتلك أيضاً الحروف : العين والحاء والغين والهاء وهي من أحرف الحلق ، ولا الأحرف : الطاء والظاء والصاد ، وهي من أحرف التضخيم والتفخيم ، ولا القاف . ونجد يهود السامرة لا يستعملون حرف السين[1] . وهناك أمثلة أخرى تثبت حدوث تطور في عدد الحروف في اللغات السامية ، مما سبب حدوث اختلاف في عددها،ولهذا حدث هذا الاختلاف الذي نراه ونلاحظه بين أبجديات تلك اللغات .

ونجد العربية الجنوبية تمتلك حروفاً لا تمتلكها العربية الفصحى ، وذلك بسبب اختلاف طبيعتي اللهجتين .

ولا بد أن تكون هنالك عوامل عديدة دعت الى حدوث تغيير في عدد الحروف في لغات الساميين . وقد عزا بعض الباحثين سقوط الأحرف التي ذكرتها من الكتابة البابلية الى استعمال البابليين للكتابة المسمارية[2] . غير أن هذا رأي يجب أن يدرس بعناية ، وأن يكون مبنياً على دراسات عديدة أصيلة ، ليكون في الامكان تكوين رأي صحيح في هذا الموضوع .

واللغة العربية اليوم ، هي من أعظم اللغات السامية الباقية ، بكثرة من يتكلم ويكتب بها ، وبكثرة ما ألّف ودوّن بها . وهي تستعمل اليوم قلماً اشتق من قلم سامي شمالي ، وكان لها في الماضي قلم قديم كان مستعملاً عند العرب من أيام ما قبل الميلاد الى ظهور الاسلام ، مات بسبب اتخاذ الاسلام القلم الجزم قلماً للوحي ، دوّن به القرآن الكريم ، فصار بذلك القلم الشرعي الرسمي ، وأمات بذلك الأقلام الجاهلية الأخرى المشتقة من القلم (المسند) . ونجد في المعاجم اللغوية مئات الألوف من الألفاظ المعبرة عن معان ، وقد قدّر بعض العلماء عدد ألفاظ العربية بنحو من (١٢٣٠٥٠٥٢) كلمة[3] . ويعود سبب غناها في الألفاظ الى

---

١ ولفنسون ، السامية (١٩ وما بعدها ، ٣٩) .

٢ ولفنسون ، السامية (٣٩) .

٣ The Bible Dictionary, Vol. I, p. 101.

كثرة وجود المترادفات فيها ، التي هي من بقايا لغـــات قبائل ، والى خاصية جذور الكلم فيها في توليد الألفاظ الجديدة بتحريك هذه الجذور .

وهناك لهجات تستحق الدراسة ، فهي من اللهجات السامية المتفرعة عن لهجات قديمة ، وهي لهجات منبوذة لم يحفل بها علماء اللغة ، مثل اللهجـة (الأمهرية) واللهجة (الهررية) لغة أهل (هرر) . وهي من بقايا لهجات لم يعتن بها العلماء إلا منذ احتكاك الغربيين بالمتكلمين بها . ومع ذلك فلا تزال البحوث العلمية عنها قليلة .

الفصل السادس والثلاثون بعد المئة

العربية لسان آدم في الجنة

رأى علماء العربية أن العربية قديمة ، وهي في نظرهم أقدم من العرب أنفسهم ، فلما كان آدم في الجنة كان لسانه العربيـة ، ولما عصى سلبه الله العربية فتكلـم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه وعلى بعض أحفاده العربية . ونظرية ان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، فلما بعد العهـد وطال ، حرِّف وصار سريانياً ، وكان يشاكل اللسان العربي ، إلا انه محرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح إلا رجلاً واحداً يقال له جرهـم ، فكان لسانه لسان العرب الأول ، فلما خرجوا من السفينـة تزوج إرم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعبيل ،وجاثر أبي ثمود وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم ؛ لأنه كان جدّهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل الى يشجب بن قحطـان من ذريته وكان باليمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[1] .

وقد تحدث (المعري) على لسان (آدم) في موضوع لسانه ، وما روى من شعر نسب اليه ، فجعله يقول : « أبيتم إلا عقوقاً وأذية ، إنمـا كنتُ أتكلم

---

1 « عن ابن عباس ، ان آدم عليه السلام ، كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية » المزهـر (١/٣٠) .

بالعربية وأنا في الجنة ، فلما هبطت الى الأرض ، نقل لساني الى السريانية ، فلم أنطق بغيرهـا الى أن هلكت ، فلما ردني الله — سبحانه وتعالى — الى الجنة ، عادت على العربية ، فأيّ حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة أم الآجلة ؟»[1] . وذلك ردّاً على من زعم أن آدم كان يعرف الشعر العربي ، وقد نظم شعره بالعربية ، ورووا له شعراً زعموا أنه قاله لتأييد صحة دعواهم .

وقد ذهب قوم من العلماء الى أن لغة العرب ، هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً ، واستدلوا بأن القرآن كلام الله هو عربيّ ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات[2] .

ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدهما : عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هـود ومن قَبْله ، وكانت قبل اسماعيل .

والثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من أنطق لسانه بهـا إسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقيف اسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحاً بينـه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله[3] .

والعربية المحضة هي العربية الخالصة ، وهي العربية الأصيلة عربية اسماعيل ، وقد نعتت بالعربية المتينة . قالوا : أول من فُتق لسانه بالعربية المتينة اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . روي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا: قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألهم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً »[5] . والعربية التي تكلم بها (اسماعيل) والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهـد النبي ، تختلف عن عربية حمير وبقايا جرهم[6] ، وذكر أن (عمر بن الخطاب) ،

---

١ رسالة الغفران (٣٦١ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢٨/١) .
٣ المزهر (٢٨/١) .
٤ المزهر (٣٤/١) .
٥ المزهر (٣٣/١) .
٦ المزهر (٣٣/١) .

قال للرسول : يا رسول الله ؛ مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال رسول الله : كانت لغـة بني اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها[1] .

والعربية بعد ، في اصطلاح أئمة العربية : العربية المتينة . أما عربية أهـل اليمن : عربية أبناء قحطان فعربية أخرى . وعلى هذا فنحن أمام عربيتين : عربية قحطانية ، وعربية عدنانية اسماعيلية . وبالعربية المتينة تكـلم عرب الحيرة ، كما يظهر ذلك من خبر دوّنه (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) ، والطبري في تأريخه ، فقد ذكر (الجاحظ) ان (خالد بن الوليد) سأل (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن بقيلة) : « أعرب أنتم أم نبط ؟ قال : عرب استنبطنا، ونبط استعربنا . قال : فحرب أنتم أم سلم ؟ قال : سلم »[2] ، أو انه قال لهم: « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة، فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عـدي : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية »[3] . فلسان أهـل الحيرة عربي ، ليس لهم لسان سواه . بها كانوا ينظمون الشعر وبها كتبوا . فهذه العربية هي عربيـة الحيرة وعرب العراق .

وساير كثير من المستشرقين علماء العربية في تقسيم اللهجات العربية الى عربيتين: عربية جنوبية ، هي العربية القحطانية . وعربية شمالية ، هي عربية القبائل العدنانية . ولكل مجموعة لهجات محلية ، لم تكن تختلف فيما بينها اختلافـاً كبيراً ، وتتباين بوناً شاسعاً ، وانما اختلفت في أمور بسيطة من الفروق اللسانية ، بحيث لا نستطيع أن نضعها في مجاميع لغوية جديدة[4] .

ومن الكتابات الجاهلية التي يعود عهد بعض منها الى ما قبل الميلاد ، حصل الباحثون على علمهم بلغة العرب الجنوبيين وبحضارتهم ، وقد تبـين لهم منها أن تلك الكتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية، وانها كانت لغة التدوين

---

١ المزهر (١/٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٢/١٤٨) ، أمالي المرتضى (١/٢٦١) .
٣ الطبري (٣/٣٦١ وما بعدها) .
٤ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2, (1966).

عندهم ، وقد استعملت مصطلحات فنية تدل على وجود حضارة لدى الكاتبين بها ، وقد دام التدوين بها الى ظهور الاسلام[1] .

أما علمنا بقواعد نحو وصرف اللغة العربية الشمالية ، التي نسميها اللغة الفصحى ، فستمد من الموارد الإسلامية فقط ، لعدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بها . ولهذا اقتصر علمنا بها على ما جاء عنها في الموارد الاسلامية ليس غير . أما النصوص المعدودة القصيرة ، التي تبدأ بنص النمارة ، وتنتهي بكتابة (حران اللجا) التي يعود عهدها الى سنة (٤٦٣) من سقوط (خبر) (خيبر) ، المقابلة لسنة (٥٦٨) للميلاد ، فإنها وان كانت قد كتبت بعربية قريبة من العربية المحضة ، إلا أنها تمثل في الواقع لهجة من اللهجات العربية الشمالية ، متأثرة بالإرمية (النبطية) ولذلك لا أستطيع اعتبارها نصوصاً من نصوص العربية الفصحى الخالصة ، ثم إنها قصيرة أطولها نص النمارة ، المدوّن بخمسة سطور فقط . ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . ولهذا لم نتمكن من استنباط شيء مهم منها ، يفيدنا في تعيين صرف ونحو العربية الفصحى ، أو هذه العربية التي دوّنت بها . ولهذه الأسباب صار علمنا اليوم بقواعد وبنحو كتابات المسند ، والكتابات الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية ، مستمد من موارد هي أقدم جداً من الموارد الاسلامية ، يعود تأريخ بعض منها الى ما قبل الميلاد . ووثائق هذه العربيات جاهلية أصيلة ، لا يشك أحد في أصالتها ، أما العربية الفصحى فنصها الوحيد ، الذي لا يشك أحد في أصالته هو القرآن الكريم ، فلا نص بها قبله ، وهو أطول نص ورد الينا بهذه العربية وبسائر العربيات الأخرى بغير استثناء .

هذا وقد سبق لي أن تحدثت في الفصل الأول من هذا الكتاب عن تحديد لفظة العرب ، وعن معانيها ، وعن ورودها في مواضع من القرآن ، مثل : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[2] . وفيه « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[3] . وفيه : « أأعجمي وعربي

---

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .

٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٣ وما بعدها .

قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء »[1] . وفيه : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[2] . و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[3] . و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[4]. و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[5]. و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[6] . وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[7] . و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[8] . و « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[9] .

فاللسان الذي نزل به القرآن ، هو اللسان العربي « الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً الى المحجة »[10] . وقد نزل « محكماً معرباً »[11] . وذلك تمييزاً لهذا اللسان عن ألسنة الأمم الأخرى التي نسبت الى العجمة ، فصارت ألسنتها ألسنة أعجمية[12] .

فاللغة العربية إذن ، هي لغة (العرب) ، وبهم سميت وعرفت فأخذت تسميتها من اسمهم . وقد عرفنا أن المدلول الأول للفظة (العرب) هو البداوة والأعرابية ، ثم توسع في مدلولها ، حتى شمل كل سكنة جزيرة العرب من بدو وحضر ، فأهل المدر عرب ، وأهل الوبر عرب كذلك ، وعرف أهل البوادي بالأعراب ، تمييزاً لهم عن أهل القرى ، أي الحضر ، وصارت اللفظة سمة خاصة بهم . أما لسانهم ولسان الحضر ، فهو اللسان العربي وكفى .

ووسمت هذه العربية بسمة أخرى ، صارت ترادفها حتى اليوم ، هي (العربية الفصحى) و (اللغة الفصحى) ، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

---

١ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٤٤ .
٢ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٣ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٤ طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ١١٣ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٢٨ .
٦ فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣ .
٧ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٨ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٣ .
٩ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الآية ١٢ .
١٠ تفسير ابن كثير (٣٤٧/٣) ، (تفسير سورة الشعراء) .
١١ تفسير ابن كثير (٥١٨/٢) ، (تفسير سورة الرعد) .
١٢ الجزء الاول (ص ١٣ وما بعدها) من هذا الكتاب ، والجزء الاول من كتابي القديم : تأريخ العرب قبل الاسلام .

تمييزاً لها عن بقية اللغات واللهجات . والفصح والفصاحة البيان[1] . وبما أن اللغة العربية بينة بليغة قيل لها ذلك . وهي في معنى (لسان عربي مبين) ، أي لسان عربي فصيح أو بين . وبذلك لا ينصرف الذهن الى لغات العوام ولا الى لهجات القبائل في الجاهلية أو لغات أهل العربية الجنوبية ، لأنها لا تتصف بصفة الفصاحة في نظر علماء اللغة .

واللغة العربية التي نكتب بها ، لغة واسعة ، ما في سعتها من شك : ألفاظها كثيرة ، حتى لتجد فيها مئات وعشرات من المسميات وضعت كلها لمسمى واحد على ما يذكره أهل اللغة . فللأسد وللفرس وللجمل وللسيف وما يتعلق بها ألفاظ كثيرة ، تجدها في كتب اللغة والمعجمات . ونحن لا نريد الشك في ذلك ، ولكننا إذا أردنا أن نبحث بأسلوب علمي حديث مستند الى لهجات القبائل ، والى ما ورد في النصوص الجاهلية ، فإننا سنضطر الى القول بأن هذه الكثرة من الألفاظ ليست مسميات لشيء واحد في لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم ، وإنما هي مسميات لذلك الشيء في لهجات عربية أخرى ، جمعها علماء اللغة في الاسلام من أفواه أناس ينتمون الى قبائل متعددة ، أشاروا الى أسماء القبائل التي تكلمت بها أحياناً ، ولم يشيروا اليها في أغلب الأحيان . فذهبت بين الناس على أنها مسميات لمسمى واحد في لغة واحدة ، هي هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، أي انهم جعلوها من الألفاظ المترادفة .

ولم تعين الموارد الأعجمية شكل اللغة العربية ، ولم تنص على لسان واحد من ألسنة العرب ، على انه اللسان العربي الفصيح العام الذي كان يتكلم به كل العرب. ولم يعين القرآن هوية اللسان العربي ، ولم يخصصه بلسان معين من ألسنة العرب المتعددة ، وانما جاءت التسمية فيه عامة شاملة ، لا تخص لساناً واحداً ، ولا لغة معينة محددة . قال المفسرون في تفسير الآية : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً » ، « فأنزلنا هذا القرآن عربياً اذ كانوا عرباً »[2] ، وقالوا في تفسير الآية: « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ، « كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً » وجعل ذلك عربياً ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربي

---

١ تاج العروس (١٩٧/٢) ، (فصح) .
٢ تفسير الطبري (١٥٩/١٦) .

فنسب الدين اليه ، اذ كان عليه نزل فكذب به الأحزاب »[1] ، وقالوا في تفسير الآية : « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » : « يقول تعالى ذكـره وهكذا أوحينا اليك يا محمد قرآناً عربيـاً بلسان العرب لأن الذين أرسلتك اليهم قوم عرب فأوحينا اليك هذا القرآن بألسنتهم ليفهموا ما فيـه من حجج الله وذكره لأنا لا نرسل رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم،لتنذر أم القرى وهي مكة وما حولها »[2] .

وقال (الطبري) في مقدمة تفسيره « فإن كان ذلك كذلك ، وكان غير مبين منّا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب ، كان معلوماً انه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب ، ولا يرسل الى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل اليه ، لأن المخاطب والمرسل اليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به اليه فحاله قبل الخطاب وقبـل مجيء الرسالة اليه وبعده سواء ، إذ لم يفـده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً . والله جـل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابـاً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت اليه ، لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث والله تعالى عن ذلك متعال . ولذلك قال جـل ثناؤه في محـكم تنزيله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فغير جائز أن يكون بـه مهتدياً من كان بما يهدى اليه جاهلاً . فقد تبين اذن بما عليه دللنا من الدلالة ان كل رسول لله جل ثناؤه أرسله الى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله اليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة ، فإنما أنزله بلسان من أرسله اليه،وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها الى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله اليه . واتضح بمـا قلنا ووصفنا ان كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عربياً ، فبيّن ان القرآن عربي . وبذلك نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : إنا أنزلناه قرآناً عربياً

---

١ تفسير الطبري (١١٠/١٣) .

٢ تفسير الطبري (٦/٢٥ وما بعدها) .

لعلكم تعقلون ، وقال : وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »[1] .

وقد تعرض علماء العربية لمعنى (العجم) والعرب ، فقالوا : (العجم) خلاف العرب ، والأعجم من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب ، ومن في لسانه عجمة وإن أفصح بالعربية ، « وفي التنزيل : ولو نزلناه على بعض الأعجمين »[2] . وكل من لم يفصح بشيء فقد أعجمه ، وأعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه بالنقط ، وورد في شعر قيل هو لرؤبة ويقال للحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت بـه الى الحضيض قدمه

ومنه :

والشعر لا يطيعه من يظلمه   يريد أن يعربه فيعجمه

أي يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبينه فيجعله مشكلاً لا بيان له[3] .

وقالوا : العرب خلاف العجم ، ورجل معرب ، إذا كان فصيحاً وان كان عجمي النسب . والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء . وأن يعرب بن قحطان هو أول من تكلّم بالعربية ، وأول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية ، وبه سمي العرب عرباً . وقيل : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا قرآناً عربياً لقوم يعلمون ثم قال : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً » ، وقيل إن يعرب أول من نطق بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن[4] . الى غير ذلك من أقوال تحاول ربط لفظة (العرب) بالإعراب والافصاح والإبانة ، وربط العربية ، أي لسان العرب بقحطان ، وباسماعيل ، ووراء كل هذه الأقوال المصطنعة عصبية تتحزب لقحطانية

---

١ تفسير الطبري (١/٥ وما بعدها) .
٢ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٩/٦٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .

أو لعدنانية ، التي هي اصطنعت هذه الأقوال في الاسلام ، وحذلقة مصطنعة باردة استغلت المجانسة اللفظية بين عرب ويعرب وأعرب ، لإيجاد صلة بين معاني هذه الألفاظ وفي جذورها .

وتشمل لفظة (العجم) كل من ليس بعربي ، وهي في مقابل لفظة : « Barbarian » في اللغة الانكليزية المأخوذة من أصل يوناني،وهي لا تعني المتوحشين وإنما (أعاجم) و (غرباء) بتعبير أصح ، الذين كانوا لا يحسنون التكلم بلغة المهذبين ، بل كانوا يرطنون في كلامهم ، ويتكلمون بلهجات رديئة ، ثم أطلقها اليونان على كل من لا يحسن التكلم باليونانية وعلى كل من يتكلم بلغة غير يونانية. ولما دخل اليونان في حكم الرومان ، صارت الكلمة تطلق على كل الشعوب الأخرى التي لا تتكلم باليونانية ، أو اللاتينية [1] . ولا استبعد احتمال مجيء هذه النظرية عند العرب من اليونان ، وإن كان اليونان ، لم ينفردوا بها وحدهم ، فقد كانت الشعوب القديمة تعرف مثل هذه المصطلحات ، ومصطلح : (كويم) « Goim » العبري ، الذي يعني « Gentiles » في الانكليزية ، وغرباء ، وشعوب،ومشركين عبدة أصنام [2] ، يعبر عن هذه النظرة . فكل الشعوب باستثناء (العبرانيين) هم (كويم)،والعبرانيون هم المتكلمون بالعبرانية،وغيرهم هم الذين لا يتكلمون بها .

ولفظة (العجم) ، وإن كانت لفظة عامة ، قصد بها كل من هو ليس بعربي ، لكنها أطلقت في الغالب على الفرس واليونان ، وهم أرقى الشعوب التي احتك بها العرب في ذلك الوقت . وأطلقت على الفرس بصورة خاصة ، لما كان للساسانيين من اتصال خاص بالعرب قبيل الاسلام . أما سكان إفريقية ، فلم تطلق عليهم هذه اللفظة إلا قليلاً ، لأن العرب لم ينظروا اليهم نظرة احترام ، ولهذا عرفوا عندهم بالعبيد ، وبالحبش ، وبالسودان . وقد نعتوا بالطمطمانية ، فورد (طمطمٌ حبشيون) ، بالنظر الى لغتهم ، وعدم تمكنهم من الافصاح بالعربية . وقد ورد في معلقة (عنترة) : (أعظم طمطم) ، في هذا البيت:

تأوى له قلص النعام كما أوت حزق يمانيةٌ لأعجم طمطم [3]

---

١ Hastings, P. 84.

٢ Hastings, P. 303.

٣ البيت الـ (٢٥) من المعلقة .

ومن القرآن واللغة استنبط علماء اللغة قولهم في أن العربية من الإبانة والإفصاح ، وانها انما دعيت بذلك لأن (يعرب بن قحطـــان) كان أول من أعرب بلسانه فنسب هذا اللسان اليه . فقد رأينا ان الآيات المتقدمة التي أشرت اليها ، ذكرت ان القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وقد جعلته في مقابـــل اللسان الأعجمي ، فاستنتجوا منها ان العربية بمعنى الافصاح والإبانة ، وان التسمية انما جاءت من هذا القبيل ، مع ان الوصف راجع للغة القرآن ، لا للعربية نفسها ، ثم وجدوا أن الإعراب في اللغة بمعنى الإفصاح والإبانة ، فربطوا بين هذه اللفظة وبين لفظة (العرب) ، وقالوا ان (عرب) بمعنى فصح ، وأن (العرب) من هذاالأصل، مع انهم يذكرون أيضاً ان تعرب معناهـــا أقام بالبادية ، وأن تعرب واستعرب ، بمعنى رجع الى البادية بعد ما كان مقيماً بالحضر فلحق بالأعـراب . وأن تعرب بمعنى تشبّه بالعرب وتعرب بعد هجرته ، أي صار أعرابياً ، وأن في الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب ، بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجـرة الى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد[1] ، ومعنى هذا ان صلتها بالأعرابية وبـ (العرب) بمعنى البدو أهل البادية ، أقرب الى المنطق والمعقول من صلتها بالإبانة والفصاحة ، أي الإعراب . وقد سبق أن ذكرت ان معنى اللفظة في النصوص الأشورية وفي كتب اليونان واللاتين والعبرانيين والسريان ، وفي المسنـد ، هو (البداوة) والأعرابية لا غير ، ثم أطلقت على جميع سكنة جزيرة العرب ، لغلبة الحياة الأعرابية عليها حتى صارت لفظة (العربية) بمعنى بلاد العرب ، تدخل فيها مواطن أهل المدر وأهل الوبر ، وصارت لفظة (العرب) علماً على جنس وقوم .

وإذا أخذنا بهذا التفسير التأريخي المستمد من النصوص ، لزم علينـا القول إن العربية من (عرب) (العرب) ، أهل العربية ، وهم (الأعراب) ، وقد أطلقت على ألسنتهم جميعاً من غير تمييز ، فكل لهجات العرب : لهجات بدو أو لهجات حضر ، هي لهجات عربية ، لأنهم عرب ومن سكنة بلاذ العرب ، ولهذا عرفت (جزيرة العرب) كلها (بالعربية) في كتب اليونان واللاتين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، لا نستثني منها لهجة من اللهجات ، مهما كان قربها أو بعدها من العربية التي نزل بها الوحي .

---

١ تاج العروس (٣٧٧/١) ، (عرب) .

فما ذكره علماء اللغة من تخريج في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، من اشتقاق اللفظة من (عربة) التي قالوا إنها باحة العرب ، أو من (يعرب) ، أو من اعراب لسانهم ، أي ايضاحــه وبيانه ، لأنه أوضح الألسنة وأعربها عن المراد بوجوه من الاختصار ، أو بما شاكل ذلك ، هو كله تخريج متكلف ، يمثـل تخبطهم فيه ، كتخبطهم في تفسير الأسماء التي لم يعرفوا من أصلها شيئاً، فوضعوا لها تخريجات أوجدوهـا لإظهار علمهم بها ، ووقوفهم عليها ، وعلى كل شيء قديم[1] .

وفي العربية الحالية : الإعراب . وهو تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون . احتفظت العربية به على حين فقدته معظم اللغات السامية ، باستثناء البابلية القديمة[2] . ويظهر من القرآن ومن الشعر الجاهلي، أن الإعراب كان من سمة هذه اللغة التي نزل بها الوحي .

ويرى بعض المستشرقين أن الإعراب كان موجوداً في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات . ونرى له أثراً يدل عليـه في العبرانية في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين تدلان على وجود الإعراب في أصولها القديمة[3] .

ولعلماء العربية بحوث مستفيضة في (الإعراب)[4] ، كما أن للمستشرقين بحوثـاً فيه . وقد ذهب بعض منهم الى أن بعض اللهجات العربية القديمة ، مثل لهجـة قريش لم تكن معربة ، أو انها لم تكن على هذا النحو من الإعراب الذي ثبتـه وضبطه علماء العربية في الاسلام ، حتى ذهب (كارل فولرس) الى أن القرآن لم يكـن معربـاً في أول أمر نزوله ، لأنه نزل بلسان قريش ، وهو لسان غير معرب ، وانما أعرب حين وضع علماء اللغة والنحو قواعد العربيـة على وفق لغة

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٤٣) .

٢ العربية ، ليوهان فك (ص ٣) ، السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها)، الخصائص (١/٣٤) ، السيوطي ، الحاوي للفتاوي ، (٢/٢٦٩ وما بعدها) .

٣ تأريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٧/٣١) .

٤ راجع الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون (١/١٢١) ، حيث تقف على أسماء بعض المؤلفات التي ألفت في اعراب القرآن .

الأعراب المعربة ، التي أخذوها من تتبعهم الشعر الجاهلي وكلام الأعراب[1] .

وقد لمس (كاله) هذا الموضوع كذلك ، وتطرق الى ما ورد في الرواية من أخبار تحث المسلم على وجوب مراعاة قواعد الإعراب عند قراءته القرآن . فاستنتج منها ان كتاب الله لم يكن عند نزوله معرباً ، فلما جعل الإعراب من سمات العربية ، أعرب وفقاً لقواعده . وساق دليلاً على رأيه هذا ما ورد من آراء بهذا الموضوع للفرّاء (٢٠٧ هـ) . وهو يرى ان علماء العربية استنبطوا قواعد الإعراب من الشعر ومن لغات الأعراب ، ثم ضبطوا بها النص القرآني بموجبها ، وبذلك سعوا لخدمة القرآن[2] .

وقد خالف (كاير) « R. Geyer » و (نولدكه) « Th. Nöldeke » رأى (فولرس) ، وذهبا الى أن ما ذهب اليه من أن القرآن لم يكن معرباً ، ثم أعرب ، رأي لا يؤيده دليل ، لا من حديث ولا من خبر أو لغة ، وذهبا الى احتمال حدوث اختلاف في القراءات ، بسبب كون الحروف صامتة ، فلما كان الرسول يتلو القرآن ، وكان الصحابة يدوّنونه بحروف صامتة ، لا حركات فيها ولا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها من بعض ، وقع اختلاف في التلفظ بسبب عدم وجود الحركات ، ووقع اللحن من بعضهم في القراءة ، ولكن القرآن معرب ، وآية ذلك وجود آيات عديدة لا يمكن فهم معانيها إلا بقراءتها معربة[3] .

ففي القرآن آيات لا تترك مجالاً للشك في أنه نزل معرباً ، ففي آية « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[4] ، وفي آية « أن اللهَ بريء من المشركين ورسولُه»[5] ، وآية « وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ »[6] ، وآية « وإذا حضر القسمةَ أولوا القربى»[7] ، وغيرها ، براهين واضحة تفيد أن موقع الكلم فيها كان معرباً ، وأن هذا التركيب الذي تختلف معانيه باختلاف تحريك أواخر كلمه ، لا بد وأن يكون كلاماً معرباً

---

١ K. Vollers, Volkssprache und Schriftsschprache in alten Arabien. Strassburg, 1906, Shorter Ency., p. 276.

٢ يوهان فك ، العربية (٥ حاشية) .

٣ Shorter Ency., p. 276.

٤ سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

٥ التوبة ، الآية ٣ .

٦ البقرة ، الآية ١٢٤ .

٧ النساء ، الآية ٨ .

في أصله ، وليس من التراكيب التي أصلحت فيا بعد وفقاً لقواعد الإعراب [1] .

وروي ان أعرابياً سمع إماماً يقرأ : « ولا (تَنْكِحوا) المشركين حتى يؤمنوا » ، بفتح تنكحوا ، فقال : سبحان الله هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده ! فقيل له : إنه لحن والقراءة : « ولا تُنكِحوا » ، فقال : قبحه الله ، لا تجعلوه بعدها إماماً ، فإنه يحل ما حرم الله [2] .

والعربية المحضة ، هي عربية معربة ، فيها كل خصائص الإعراب ، غير ان الإعراب يتباين فيها بعض التباين بحسب تباين اللهجات ، نقول ذلك استناداً الى ما ضبطه علماء اللغة من وجوه الاختلاف بين لغات العرب . ونرى أثر الإعراب في النص المعروف بنص (حران) لصاحبه (شرحيل بن ظلمو) (شراحيل بن ظالم) ، ففي جملة (بنيت ذا المرطول) الواردة فيه ، والمكتوبة بصيغة المفعولية بنصب لفظة (ذا) لوقوع الفعل عليها ، دلالة على وجود الإعراب في لغة هذا النص . أما جملة (انا شرحيل بر ظلمو) ، فقد دونت وفقاً لقواعد النبطية لا العربية الفصيحة ، مما يدل على تأثر الكاتب باللهجة النبطية .

أما بالنسبة الى عربية المسند ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجود من يتكلم بها على نحو ما كانت في الجاهلية من الصفاء والأصالة ، ولأن المسند لا يستعمل الحركات في الكتابة ولا أية علامة تدل على تغير أواخر الكلمات ، فلا ندري كيف كانوا يحركون أواخر الكلم ، وعلى معرفة هذه الحركات يتوقف بالطبع معرفة وجود الاعراب من عدم وجوده في لهجة من اللهجات .

وأما بالنسبة الى النبطية ، وهي لهجة عربية شمالية ، أقرب الى العربية الفصحى من العربيات الجنوبية ، فقد ذهب الباحثون في قواعدها ، الى أن أواخر الكلمات فيها ، تتغير فيها بحسب مواقعها من الإعراب ، حتى ذهب بعضهم الى وجود الحركات فيها ، وهي الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب ، والكسرة في حالة الجر ، غير انهم لم يكونوا يعقبون هذه الحركات بالنون .

والإعراب وإن سقط اليوم من لغاتنا الدارجة ، ومن لهجات الأعراب ، غير أن هنالك قبائل في جزيرة العرب ، لا تزال تتكلم بلهجة عربية معربة ، إعرابها

---

١ يوهان فك ، العربية (٣ وما بعدها) .
٢ عيون الاخبار (٢/١٦٠) .

موافق لإعراب هذه العربية الفصحى . ونحن نأسف لأن علماء العربية في هذا اليوم، لم يهتموا حتى الآن بدراسة لهجات هذه القبائل ، ودراسة أصولها وأنسابها ، ولم يعتنوا بوضع خريطة بمواضع القبائل موزّعة على حسب لهجاتها وخصائص ألسنتها، في الماضي وفي الحاضر ، مع ان في وضع هذه الخرائط أهمية كبيرة في تعيين لغات العرب ، وفي كيفية تثبيت المناطق التي انتشرت فيها العربية الفصحى ، والمناطق التي لا تزال تتحدث بها بطبيعتها ، لا عن دراسة وتمرين .

والعربية لغة واسعة ، « قال بعض الفقهاء : كلامُ العرب لا يحيط به إلا نبي »[1] . و « أن الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير »[2] . وفي كلام علماء اللغة هذا حق ، فالألفاظ وهي مادة اللغة وسداها ولحمتها لا يمكن أن يساير عمرها عمر اللغة ، فمنها ما يموت ، لذهاب الحاجة اليه ، ومنها ما يقل استعماله فيهمل ، ومنها ما يولد ، لظهور الحاجة اليه ، وقد تتبدل معاني الألفاظ وتتغير ، الى غير ذلك من أمور تطرأ على الألفاظ بحث عنها علماء اللغة ، وهي لا تدخل في موضوعنا هذا ، في هذا المكان .

هذا وليس من السهل على أحد التحدث في هذا الوقت عن مبدأ نشوء العربية الفصحى ، وعن الأدوار التي مرت عليها حتى بلغت المرحلة التي وصلت اليها بتثبيتها في القرآن الكريم . وذلك بسبب عدم وجود نصوص جاهلية مدونة بهذه اللهجة . فالقرآن الكريم هو الذي ثبتها وعرّفنا عليها ، وبفضل كونه كتاباً مقدساً أقبل العلماء على دراسة لغته،واضطروا على جمع قواعدها،فصارت لغتنا الفصحى ، أما الشعر الجاهلي ، فمع انه أقدم عهداً من القرآن ، لكنه ثبت ودوّن بعده ، إذ لم يصل الينا حتى الآن أي أثر منه مدون تدويناً جاهلياً ، ولهذا فالقرآن والشعر هما أقدم ما عندنا من نصوص بهذه العربية في النثر وفي النظم ، ولولاهما لما كان في وسعنا الوقوف عليها .

ولعربيتنا بعد ، في نظر علماء العربية خصائص ومميزات ، ميزتها كما يقولون عن بقية اللغات منها : اتساعها من حيث المفردات ، ومنها تخصصها دون غيرها

---

١ المزهر (١/٦٤) ، الصاحبي (٤٧) .
٢ المزهر (١/٦٦) .

على حدّ قولهم بالاعراب ، ومنها ، تفردها بالمترادفات ، وبالأضداد ، أضف الى كل ذلك اتساع حجم قواعد نحوها وصرفها . قال (ابن فارس) : « فلما خصّ — جل ثناؤه — اللسان العربي بالبيان عُلم ان سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه . فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي ، لأن كل من افهم بكلامه على شرط لغته فقد بين ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان،لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يُسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذ غلط ، لأنّا لو احتجنا الى أن نعبر عن السيف وأوصافه بالفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ »[1] .

المترادفات :

وفي العربية ألفاظ عديدة يراد بها معنى واحد ، فللعسل (٨٠) اسماً ، وللأسد (٣٥٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وقيل (٦٧٠) ، وللحيّة (٢٠٠) ، وقيل (٥٠٠) ، وللداهية (٤٠٠) ، وقيل أربعة آلاف ، وللحجر (٧٠) ، وللكلب (٧٠) ، وللسيف (٣٠) ، وقيل (١٠٠٠) ، وللناقة (٢٥٥) ، وللبعير (١٠٠٠) ، وللشمس (٥٢) ، وللخمر (١١٠) ، وقيل (٢٠٠) ، وللبئر (٨٨) ، وللماء (١٧٠) وغير ذلك ، وخاصة ما يدخل في باب الصفة ، وما يدخل في باب الميل الجنسي ، فلا تكاد تتصفح مادة في معجم ، حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر[2] .

ويقال لهذه الألفاظ التي تدل على شيء واحد : (المترادفات) . والمترادف

---

١ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

٢ الرافعي (١/١٩٣) ، المزهر (١/٤٠٧) ، « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين » « حفظت للحجر سبعين اسما » ، الصاحبي (٤٤) .

أن تكون أسماء لشيء واحد ، وهي مولدة ومشتقة من تراكب الأشياء[1] . وعرف بعض العلماء المترادف ، بأنه الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[2] . ولعلماء اللغة كلام في المترادفات . منهم من يقول بالمترادفات ، وبأن الألفاظ وإن اختلفت فإنها ترجع الى معنى واحد ، ومنهم من أنكر الترادف ، وزعم ان كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات[3] ، وان في كل واحدة معنى منها معنى ليس في الأخرى[4] . ومن قال بالترادف ، نظر الى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن يمنع نظر الى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات . وجعل بعضهم هذا قسماً آخر ، سمّاه المتكافئة[5] .

والذين ينكرون الترادف ، يقولون : إن كثرة الألفاظ للمعنى الواحد إذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنه هذه اللغة . ويرون أن كل لفظ من المترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة ، وان كل حرفين أوقعتها العرب على معنى واحد ففي كل واحد منها معنى ليس في صاحبه[6].

وهم يعتبرون المترادفات أسماءً تزيد معنى الصفة ، ويختلفون بذلك عن غيرهم ممن أنكر الترادف وقالوا إن الموضوع للمعنى الأصلي اسماً واحداً والباقي صفات له لا أسماء ، فأسماء السيف كلها أصلها السيف وسائرها صفات له ، كالمهند ، والصارم والعضب وغيرها[7] ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الإسمية[8] .

ومذهب آخر يرى إثبات الترادف ، لكنه يخصه بإقامة لفظ مقام لفظ آخر لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد . كما يقال أصلح الفاسد ، ولمّ الشعث ، ورتق

---

١ تاج العروس (١١٦/٦) ، (ردف) .
٢ المزهر (٤٠٢/١) .
٣ المزهر (٤٠٣/١) .
٤ المزهر (٤٠٥/١) .
٥ المزهر (٤٠٥/١) .
٦ الرافعي (١٩٠/١) .
٧ الرافعي (١٩٠/١) .
٨ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي (٣٧) .

الفتق ، وشَعَب الصدع ، ونحوها . أما اطلاق الأسماء على المسمى الواحد ، فيسمونه المتوارد : كالخمر ، والعقار ، والليث ، والأسد .

ومنهم من أثبت الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ، ولا تقسيم ؛ وعليه أكثر اللغويين والنحاة [1] .

ومن أهم أسباب الترادف في العربية ، ان العرب كانوا قبائل لها لهجات وألسنة مختلفة ، فتباينت بتباين ألسنتها أسماء الأشياء . فالسكين لغة في المدية ، والمدية لغة في السكين عند دوس . وفي حديث أبي هريرة : « والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ » ، وذلك حين قدم من دوس ولقي الرسول ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولني السكين ، فلم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، فقال : آلمدية تريد ؟ وأشار اليها فقيل له : نعم ، فقال: أو تسمى عندكم السكين ، والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ [2] . فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى ، أو استعملت غيرها ، خصوصاً وان بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى في جبل ، وثالثة في بادية ، وقد تأخذ قبيلة اسماً من الأعاجم لشيء لم يعرف اسمه عندها فتعربه ، فيكون اسماً له ، وقد تأخذ قبيلة اسماً أو أسماء توجد في لسانها من لسان قبيلة أو ألسنة قبائل أخرى ، فلما جمع علماء اللغة ألفاظ العربية ودونوها ، ولم يفطنوا الى أصلها ولا الى القبائل التي استعملتها ، ولا الى تأريخها ، لعدم وجود هذا النحو من البحث عندهم في ذلك الوقت ، فدونت على انها مترادفات ، وهم في ذلك على صواب ، ولكنهم كانوا على خطأ ، من حيث انهم لم يدركوا انها كانت لغات قبائل ، وان جمعهم للألفاظ ، وإهمالهم الاشارة الى أسماء القبائل المتكلمة بها ، جعلها مترادفات بالمعنى الذي ذهبوا هم اليه . وبذلك اتسعت مادة مفردات المعجم العربي اتساعاً كبيراً ، وهو في حقيقته حاصل جمع لهجات ، أخذ من اختلاف الألسنة ومن مختلف اللهجات ، فضم كله الى معجم العربية ، وظهر على انه مفردات هذه العربية ، لعدم إفصاح علماء اللغة

---

١ الرافعي (١/١٩١) .

٢ تاج العروس (٩/٢٣٨) ، (سكن) ، الاصابة (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (رقم ١١٩٠) ، الاستيعاب (٤/٢٠٠ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، فجر الاسلام (٥٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١/٢١٤) .

عن أصل كل مترادف وعن اللسان الـذي نطق به في الغالب، فعمي الأمر علينا ، وصرنا نعتبر هذه الألفاظ التي تقصد مسمى واحداً من المترادفات .

ويرى بعض علماء اللغة أن من أسباب وقوع الترادف أن الصفات قد تتحول بتفشي الاستعمال وبكثرة ورودها على الألسنة فتنزل هذه الصفات منزلة الحقـائق العُرفية[1] . وقد تضخمت كتب اللغة كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، « فمثلاً إذا أطلق شاعر كلمـة الهَيْصم على الأسد من الهصم وهو الكسر، وأطلق عليه آخر الهرّاس من الهرس، وهو الدق ، وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للأسد »[2].

ولا يعدّ ثراء لغة بكثرة مفرداتها ومترادفاتها دليلاً على ثراء تلك اللغة ، ولا امارة على تقدمها من الناحية العقلية ، فإن اللغة تستمد مادتها من جميع محصولات اللغة الخاصة بالحرف ، والمهن ، وبالحياة الروحية ، كما تستمدها من جميع لهجات القبائل ، وما نجده من كثرة مفردات ومترادفات في العربية ، لا يعود الى كون هذه العربية لغة قبيلة واحدة ، أو عرب من العرب ، وإنما بسبب كونه حاصل جمع لغات ، جمعه العلماء من ألسنة متعددة فدوّنوه ، فظهر الشيء الواحد وقد يكون له عشرة أسماء أو أكثر من ذلك أو أقل حسب كثرة أو ندرة استعماله بين العرب ، فما كان مألوفاً عندهم ، وكانوا في حاجة ماسة اليه ، وكان استعمالهم له كثيراً ، وفوائده بالنسبة لهم عديدة ، كثرت مسمياته ، بل مسميات أجزائه كما كثرت عندهم صفاته ، التي تتحول بمرور الزمن الى أسماء ، ولهذا نجد في العربية كثرة من الأسمـاء والألفاظ ، هي في الأصل صفات ونعوت لخصائص أشياء[3] .

ومن أمثلة المترادفات في العربية : القمح ، والبُر ، والحنطة ، قال علماء اللغة : القمح : البر ، لغة شامية ، « وأهل الحجاز قد تكلموا بها ، وقد تكرر ذكره في الحديث . وقيل لغة قبطية »[4] ، والبر بالضم الحنطة ... قال المتنخل الهذلي :

---

١ المزهر (١/٤٠٢ وما بعدها) ، الرافعي (١/١٩٢) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ بروكلمن (١/٤٣) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٨) ، (قمح) .

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندي البر مكنوز

قال ابن دريد : « البُر أفصح من قولهم الحنطة واحدته بُرة »[1] ، «والحنطة بالكسر البُر الحب المعروف »[2] . وهي في الواقع ألفاظ وردت في لغات ، حين ضبطها علماء اللغة ، فات عليهم انها لم تكن مستعملة في كل لغات العرب ، وانما هي في لغات بعض منهم . فالقمح مثلاً ، لفظـــة وردت في لغات عرب الشأم والحجاز ، لأنها من أصل آرامي ، هو (قمحو)[3] ، وقد كان أهل الحجاز في الجاهلية يستوردون القمح من بلاد الشأم ، فأبقوا التسمية الآرامية على حالها ، بعد أن أجروا عليها بعض التعديل . وأما (الحنطة) ، فنجد لها مقابلاً في العبرانية هو « Chittah » في العبرانية[4] ، مما يدل على ان اللفظة كانت مستعملة في العربية الغربية . وأما لفظة (بُر) ، فهي من الألفاظ التي وردت في نص (أبرهة) ، فهي لغة يمانية وحجازية ، وقد نص علماء اللغة على ورودها في لغة أهل الحجاز ، وربما أخذوها من أهل اليمن ، الذين عرفوا بزراعتهم للبر قبل الاسلام . ووردت لفظة (بُر) بمعنى حنطة في النص الموسوم بـ « Jamme 670 » إذ ورد فيه : (برم وشعرم عدى ارضهمو)[5] ، أي (حنطة وشعير في أرضهم) (حنطة وشعير من أرضهم).

ومما يكثر في هـــذه العربية (المشترك) ، وحده : اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة . ولعلماء اللغـــة بحوث فيه ، فمنهم من يؤيد وقوعـــه ومنهم من ينكر : ومن المشترك : العم ، فالعم أخو الأب ، والعم : الجمع الكثير ، ومشى ، فمشى يمشي من المشي ، ومشى إذا كثرت ماشيته ، وللنوى مواضع ، وللروبة والرؤبة معان ، وللأرض معان ، وللفظة الهلال معان ، وللفظ العين معان كثيرة ومواضع عديدة ، الى غـــير ذلك من ألفاظ تجدها في كتب اللغة[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٣٨) ، (برر) .

٢ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حنط) .

٣ غرائب اللغة (٢٠٢) .

٤ راجع سفر التكوين ، الاصحاح ٣٠ ، الآية ١٤ ، سفر الخروج ، الاصحاح ٣٤ ، الآية ٢٢ ، الأصل « العبري » .

٥ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص .

٦ المزهر (١/٣٦٩) ، (النوع الخامس والعشرون) .

وفي العربية : الأضداد . وهو أن يكون للكلمة معنى ، ثم يكون لها معنى آخر مضاد له . وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ، مثل جلل للكبير والصغير ، وللعظيم وللحقير . ومثل الجون ، للأسود والأبيض . والقوي ، للقوي والضعيف ، والرجاء للرغبة والخوف . والبسل للحلال وللحرام . والناهل للعطشان ، والناهل ، الذي قد شرب حتى روي . والسدفة في لغة تميم : الظلمة ، والسدفة في لغة قيس : الضوء . واللمق : الكتابة في لغة بني عقيل ، والمحو في سائر قيس . والجادي : السائل ، والمعطي . والرسُّ : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضاً . والشرى : رُذال المال ، وأيضاً خياره . الى غير ذلك من أمثلة ذكرها علماء العربية [1] .

ولبعض علماء العربية قصة يضربونها مثلاً على الأضداد ، فيقولون : « خرج رجل من بني كلاب ، أو من سائر بني عامر بن صعصعة ، الى ذي جدن ، فأطلع على سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِب أي اقعد . فقال : ليعلم الملك إني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح : فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطّمر . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ؛ من ظفر حمر . أي من أراد أن يقيم بظفار فليتكلم العربية » [2] . ورواها (السيوطي) في كتابه (المزهر) الذي أخذت منه القصة بهذا الشكل أيضاً : « وروي أن زيد بن عبدالله بن دارم ، وفد على بعض ملوك حمير ، فألفاه في مُتصيد له على جبل مشرف ، فسلّم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثِب ، أي اجلس ، وظن الرجل أنه أمر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً ؛ ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما إنه ليست عندنا عربيّت ، من دخل ظفار حَمّر . أي فليتعلم الحميرية » [3] . وذكر أن « عامر ابن الطفيل » قدم على الرسول ، فوثبه وسادة ، والوثاب الفراش بلغة حمير .

---

1 المزهر (١/٣٨٧) ، (النوع السادس والعشرون : معرفة الأضداد) .

2 المزهر (١/٣٩٦ وما بعدها) .

3 المزهر (١/٢٥٦ وما بعدها) ، تاج العروس (١/٤٩٩) ، (وثب) ، الصاحبي (٥١) ، الفائق (٣/١٤٤) .

وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو موثبان، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو[1] .

ومن الأضداد ألفاظ قليلة ، واضحة الضدية يطلقها الناس على الضد لاعتبارات لديهم ، مثل اطلاق لفظة (البصير) على الأعمى ، و (السليم) على اللديغ .

ولعلماء العربية بحوث وآراء في علة ظهور الأضداد . منهم من يرى ان الحرف اذا وقع على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحيّ من العرب والمعنى الآخر لحي غيره[2] ، فلما سجل علماء اللغة مفردات الألفاظ لم يسجلوا في الأكثر اسم القبيلة أو القبائل التي كانت تنطق بها ، فظن أن هذا التضاد هو مما وقع هذه العربية ، وانما هو في الأكثر حاصل جمع لغات .

وقد أنكر ناس مذهب الأضداد ، ومذهبهم ان الشيء لا يمكن أن يدل على الشيء وضده ، وأن النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد ، ومن هؤلاء : (أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه) ، (توفي نيف وثلاثين وثلاثمائة) ، وهو من علماء البصرة ومن المتعصبين لأهل البصرة ، وهو صاحب مؤلف في الأضداد ، ذكره (ابن النديم)[3] ، فهو ممن ذهب الى انكار الأضداد[4] ، وأثبته آخرون قائلين : يجوز أن يوضع لهما لفظ واحد من قبيلتين . وأن المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين[5] . ومن المثبتين له : قطرب ، وابن الأنباري، و (ابن فارس) ، وغيرهم[6] .

وقد ألف في الأضداد قوم من العلماء ، منهم : أبو علي محمد بن المستنير ، ويقال أحمد بن محمد ، ويقال الحسن بن محمد ، المعروف بقطرب المتوفى سنة

---

١ الصاحبي (٥١) .
٢ المزهر (١/٤٠٠ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٩٩ وما بعدها) ، المزهر (٣٨٧/١) .
٤ المزهر (٣٩٦/١) .
٥ المزهر (٣٨٧/١) .
٦ المزهر (٣٨٧/١ وما بعدها) .

(٢٠٦) للهجرة ، فله كتاب في هذا الموضوع ، يسمى : كتاب الأضداد ، كما أن له كتاباً مهماً في علل النحو ، اسمه كتاب العلل في النحو ، ولـه مؤلفات أخرى ذكرها (ابن النديم)[١] . ومنهم (الأصمعي)[٢] ، و(التوزي) ، وهو (أبو محمد عبدالله بن محمـد بن هارون) المتوفى سنة (٢٤٠ هـ)[٣] ، و (ابن السكيت)[٤] ، و (السجستاني)[٥] ، وابن الأنباري ، أبو بكر محمـد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، صاحب مؤلف في الأضداد دعاه (ابن النديم) كتاب الأضداد في النحو . وهو ممن اشتغل بجمع دواوين من أشعار العرب الفحول[٦] ، وغيرهم .

وعدّ علماء اللغة القلب ، والإدغام ، والابدال من خصائص العربية التي امتازت بها على اللغات الأخرى[٧] . وهي أمور تحتاج الى دراسة عميقة ، لأن دراسة علماء اللغة لها ، لم تنبعث عن دراسات علمية لبقية اللهجات ، ثم انها ملاحظات سطحية أخذت من أشخاص ، وليس من دراسة لقبيلة كلها ، إذ كان ذلك إذاك أمراً غير ميسور ولا ممكن . ولو درسنا الأمور المذكورة ، نجد انها حاصل لهجات ، لا من تبديل شخص لحرف أو قلبه حرفاً أو ما شاكل ذلك ، واتباع الناس بعد ذلك له .

ومما يلاحظ في هذه العربية هو كثرة ما فيها من جموع التكسير . وقد نجد فيها لفظة واحدة ، وقد جمعت في عدة جموع ، وهو دليل في نظري على انه من بقايا اللهجات . فلما شرع العلماء بالتدوين،وراجعوا الشعر والأخبار،والأعراب، وجدوا أمامهم جموعاً لكلمة واحدة ، فسجلوها دون أن يشيروا الى الجهة التي أخذوا الجمع منه ، والى قبيلة الأعرابي الذي نطق لهم به ، فظن انها جموع هذه العربية ، ولا يعقل أن تكون كل هذه الجموع حاصل لغة واحدة . وهي

---

١ الفهرست (٨٤) ، المزهر (٣٩٧/١) ، .
٢ الفهرست (٨٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٣ المزهر (٣٩٧/١) .
٤ الفهرست (١١٤) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٥ الفهرست (٩٣) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٦ الفهرست (١١٨) ، المزهر (٣٩٧/١) .
٧ الصاحبي (٤٠ وما بعدها) .

سماعية سمعت من أبناء القبائل فجمعت ، وهي لم تخضع لذلك لأحكام القياس والقواعد المألوفة .

ومن هذا القبيل بعض الجموع الملحقة بجمع المذكر السالم ، مثل : أرضون ، وأهلون ، وعالمون ، وسنون ، ومئون ، وعضون ، وعزون ، فهذه من بقايا قواعد قديمة ، ترجع الى لهجات ، حين شرع علماء اللغة في تدوينها لم يفطنوا الى تدوين اسم اللسان الذي نطق بها .

وطبيعي أن تكون العربية فقيرة في الألفاظ التي لا تدخل معانيها في ضمن حياة أهلها ، كألفاظ الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة ، والألفاظ المستعملة في الحكومات وفي أنواع الدواوين والصناعات وما شاكل ذلك مما يكون عند الحضر ، ولا يألفه أهل الوبر ، لعدم وجوده عندهم ، ولكن العربية ، إذا شعرت بالحاجة اليها ، أو اضطرت الى استعمالها ، أخذ أهلها أسماءها عمن يعرفها ، واستعملوها معربة أو بأصولها في لغتهم ، ومن هنا كثر الدخيل في العربية في الإسلام[1] .

وحيث أن للغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية ، نجد العربية غنية غنى مفرطاً في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنياء في الجمل ، يعرفون كل جزء منه ، وقد وضعوا ألفاظاً لكل عضو من أعضائه مهما دق فيه . وهم أغنياء فيما يتعلق بالصحراء وفي المطر ، وفي كل شيء يتصل بحياتهم ، فهي من هنا لغة تمثل عقلية المتكلمين بها ، غلبت مصطلحات البداوة فيها على مصطلحات الحضارة ، سنة كل أمة تكون حياتها على هذا النمط من المعيشة .

وليست اللغة العربية غنية بمفرداتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً، فجموع التكسير وأحياناً الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة[2] . وهي « غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء »[3] .

---

١ فجر الاسلام (٥٥) .
٢ فجر الاسلام (٥٤) .
٣ فجر الاسلام (٥٥) .

وليس غنى العربية بالمفردات بدليل حتمي على سعة هذه اللغة . وانما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم . فلما كانت القبائل تتصل بعضها ببعض وتكوّن مجموعات وكتل وأحلاف سياسية ، للدفـاع عن نفسها وللغزو ، ولما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم ، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان الى مكان ، وقد يقيمون اقامة طويلة في مكان ما ، يجاورون ويوالون، اشتبكت ألسنتهم ، فأخذت وأعطت ، وزاد هذا الاشتباك حدة ، تنافس المناذرة والغساسنة على الزعامة ، وتدخل الروم والفرس والحبش في شؤون جزيرة العرب، ومجيء المبشرين النصارى الى القبائل للتبشير بينها ، واختـلاط اليهود بالعرب ، وهم أصحاب دين ، واختلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن، وسفر أهل القرى وسادات القبائل الى الشأم والعراق للتجارة وللزيارة وللترويـح عن النفس ، وأمثال ذلك ، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعياً وحساً وشعوراً بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أمـة واحدة ، وبأن في حياتهم التي يحيونها من جميع نواحيها ما يحتاج الى اصلاح وتغيير ونظـر . وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت ، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي ، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهين والمتعقلين منهم ، وفي الشعر الجاهلي ، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة ، وجالسوا أهل الديانات واطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتبهم ، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثر ، حتى في استعمال الألفاظ ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعجمية، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت ، الذي أدخل ألفاظاً في شعره غير مألوفة عند العرب .

ثم جاء الإسلام ، بكتاب سماوي ، صار لسانـه لسان المسلمين ، فظهرت الحاجة الى التدوين والبحث والتنقيب لشرح كتاب الله وحديث رسوله وتفسير أحكام الله . فكان حاصـل ذلك علوم اللسان . من مفردات جمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن ألسنة العرب ، ضبطت في كتب اللغة والمعاجم، وكوّنت بذلك هيكل العربية الفصيحة . وهو بناء عملاق لم يعمل من مادة واحدة ، وإنما من مواد أساسية عديدة ، هي لهجات القرآن والشعر ولغات القبائل التي رجـع علماء اللغة الى أفرادها واليها للأخذ منها ، فهذا الغنى الملحوظ في مفردات العربية الفصحى ، إذن هو غنى سببه كونه حاصل لغات قبائل ، لا حاصل لغة واحدة أو لسان عربي معين .

وتولدت في الاسلام معان خاصة لألفاظ جاهلية غلبت عليها واختصت بها ، والى معانيها الجديدة قصد في الاسلام ، كما ماتت ألفاظ جاهلية أماتها الاسلام ، بسبب انها كانت تؤدي معاني خاصة بالنسبة لذلك الوقت ، فقد روي ان النبي قال : « لا تقولوا دعدع ولا لعلع ، ولكن قولوا : اللهم ارفع وانفع . فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي »[1] ، وروي انه نهى عن قول : خبثت نفسي ، واستأثر الله بفلان[2] .

ومن الألفاظ الاسلامية : المؤمن ، والمسلم ، والكافر ، والمنافق[3] ، ومخضرم، وصلاة ، وصوم،وغير ذلك . ومن الألفاظ التي كانت فزالت بزوال معانيها : المرباع ، والنشيطة ، والفضول ، والإتاوة ، والحلوان ، وأبيت اللعن،والنوافج، للإبل تساق في الصداق ، وحجراً محجوراً ، لمعنيين : الحرمان ، اذا سئل الانسان قال : حجراً محجوراً ، والوجه الآخر الاستعاذة[4] ، وأنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وأنعم ظلاماً ، وعموا صباحاً ، وعموا ظلاماً ، اذ حل السلام محلها في الاسلام[5].

وظهرت الحاجة في الوقت نفسه الى وضع قواعد في نحو وصرف هذه اللغة ، لصيانة اللسان من الخطأ ، وليتعلم الأعاجم بها كيفية النطق بفصاحة وسلامة بهذا اللسان الجديد عليهم . فكان ما كان من وضع النحو مستعينين بالأسس النحوية (الغراماطيقية) ، التي كانت قد وجدت سبيلها الى العراق من أصول قديمة ، ثم بتتبع كلام العرب وبالاستقراء ، وقياس القواعد بعضها على بعض وبالتعليل ، يعللون النحو ويعتبرون به كلام العرب ، ثم لم يكتفوا بذلك كله،فأخذوا دروب البادية ، للأخذ عن القبائل التي اشتهرت بالفصاحة وبالمحافظة على سلامة لسانها ، وتلقوا الأعراب الذين يطرأون من البادية على الحضر ، فأخذوا من هؤلاء ومن هؤلاء علماً كثيراً باللغة وبالشعر وبالغريب وبالنوادر وبكل ما يتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد في بطون الكتب .

---

١ الصاحبي (٧٠) .
٢ الصاحبي (٩٢ وما بعدها) .
٣ الصاحبي (٧٩) .
٤ الصاحبي (٨٩ وما بعدها) .
٥ المزهر (٢٩٤/١ وما بعدها) ، (النوع العشرون : معرفة الألفاظ الاسلامية) .

الفصل السابع والثلاثون بعد المئة

لغات العرب

قال (الطبري) في تفسيره : « كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان متباينو المنطق والكلام »[1] . وأن ألسنتهم كانت كثيرة كثرة يُعجز عن احصائها[2] . وقد ذكر غيره مثل ذلك ، ذكر أن لغات العرب كانت متباينة ، وأن بعضها كانت بعيدة بُعداً كبيراً عن عربيتنا، كالألسنة العربية الجنوبية ومنها الحميرية . قال (ابن جني) : « وبعد فلسنا نشك في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة بن نزار »[3] ، وقال (أبو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . وذكر (ابن فارس) ، أن ولد (اسماعيل) ، يريد بهم العدنانية « يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ، وأنهم يسمّون اللحية بغير اسمها مع قول الله — جل ثناؤه — في قصة من قال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، وأنهم يسمون الذئب القلوب مع قوله : وأخاف أن يأكله الذئب ... وما أشبه ذلك»[4].

وقد عرف ذلك الكتبة (الكلاسيكيون) وغيرهم . فذكر مؤلف كتاب

---

١ تفسير الطبري (١/٩) ، (بولاق) .

٢ تفسير الطبري (١/١٥) .

٣ الخصائص (١/٣٩٢) ، « وقال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

٤ الصاحبي (٥٥) .

(الطواف حول البحر الأريتري) « Periplus mare Erythrae » أن سكان سواحل البحر الأحمر الذين كانـــوا يقيمون بين مدينة « Leuke Kome » ، وميـنـــاء « Muza » ، يتكلمون بلهجـــات مختلفة ولغات متباينة ، قلّ منهم من يفهمها عن الثاني ، وبعضها بعيد عن بعض بعداً كبيراً[1] . وقد عاش مؤلف هـــذا الكتاب في القرن الأول للميلاد ، والساحل الذي ذكره هو ساحل الحجاز .

وأصبح اليوم من الأمور المعروفة أن أهل العربية الجنوبية كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، بدليل هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها في تلك الأرضين ، وهي بلسان مباين لعربيتنا ، حيث تبين من دراستهـــا وفحصها أنها كتبت بعربية تختلف عن عربية الشعر الجاهلي ، وبقواعد تختلف عن قواعـــد هذه اللغة[2] . وهي لو قرئت على عربـي من عرب هذا اليوم ، حتى إن كان من العربية الجنوبية ، فإنه لن يفهم منها شيئاً ، لأنهـــا كتبت بعربية بعيدة عن عربية هذا اليوم ، وقد ماتت تلك العربية ، بسبب تغلب عربية القرآن عليها .

كما عثر في العربية الغربية وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب على نصوص معينية ولحيانية وثمودية وغيرها ، وهي مختلفة بعضها عن بعض ، ومختلفـــة أيضاً عن (العربية) لغة القرآن الكريم .

ومع إدراك الرواة وعلماء اللغة وجود الخلاف في ألسنة العرب ، فإنهم لم يدوّنوا اللهجات على أنهـــا لهجات مستقلة ذات طابع لغوي خاص ، لها قواعد نحويـــة وصرفية ، تختلف اختلافاً متبايناً عن نحو وصرف عربية القرآن الكريم ، وإنمـــا « تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام ، وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روايته قُبيل ذلك . أما سواد ما كتبوه ، فقد شافهوا بـه العرب في بواديها وسمعوه منهم ، وهو بلا ريب من بقايا اللهجات التي كانت لعهد الجاهلية»[3].

على انهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام أو ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين من شواهد في الغريب والنادر وفي القواعد . أما تدوين اللهجات على انها أصل من أصول اللغة ، وأما تسجيل

---

١ The Periplus of the Erythrean Sea, 24.

٢ الصفة (١٣٤) .

٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .

قواعد صرف ونحو تلك اللهجات ، فهذا ما لم يحفل به أحد ، ولم يقدم عليه عالم فيما نعلم من أخبار الكتب التي وصلت الينا ، لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع الى علوم القرآن والحديث ، ولغتها اللغة الفصحى ، اللغة التي تعلو على اللغات ، أما ما دونها فلغات دونها في المنزلة والفصاحة ، وألسنة شاذة غير فصيحة ، ليس من اللائق بالعالم إضاعة وقته في البحث عنها ، وفي التنقيب في قواعد نحوها وصرفها ، وهي فوق ذلك لغات بطون وعشائر وقبائل ومواضع ، ليس لها أتباع كثيرون ، وقد أقبلوا على استعمال عربية الاسلام ، وفي إحياء العربيات الأخرى إحياء للجاهلية [1] .

« رأينا علماء اللغة وأهل العربية قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم ، فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عُرض كلامهم ، لأنهم لم يعتبروها اعتباراً تأريخياً ، فقد عاصروا أهلها ، واستغنوا بهذه المعاصرة عن توريث تأريخها لمن بعدهم ، ولو ان منهم من نصب نفسه لجمع هذه الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب ، وتمييز أنواعها بحسب المقاربة والمباعدة ، والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في لهجاتها والتي تتباعد، وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تأريخها الى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل أنسابها، لخرج من ذلك علم صحيح في تأريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية ، يُرجع اليه على تطاول الأيام وتقادم الأزمنة ، ولكان هذا يعد أصلاً فيما يمكن أن يسمى تأريخ آداب العرب ، يفرعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب .

ولكن القوم انصرفوا عن هذا وأمثاله لاعتقادهم أصالة اللغة ، وانها خلقت كاملة بالوحي والتوقيف ، وان أفصح اللهجات انما هي لهجة اسماعيل عليه السلام ، وهي العربية القديمة الجيدة كما قال سيبويه » [2] .

« وعلى هذا اعتبروا لهجات العرب لعهدهم كأنها أنواع متحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقادم العهد وعبث التأريخ ، فلم يجيئوا ببعضها إلا شاهداً على الفصاحة الأصلية في العربية وخلوّها من التنافر والشذوذ ، وتماماً

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/١٢٣ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٣٣ وما بعدها) .

على الذي جمعوه من أصول العربية ، وتفصيلاً لكل شيء إلا التأريخ »[1] .

« ومع أن الرواة قد وضعوا كتباً كثيرة ومصنفات ممتعة في قبائل العرب ومنازلها وأنسابها وأسمائها واشتقاق الأسماء وألقابها ومدحها وأشعارها وفرسانها وأيامها ، ونحو ذلك مما يرجع الى التأريخ المتجدد ، فلو أنهم اعتقدوا اللغات بسبب من ذلك ولم يعرفوها بالوصف الديني الثابت الذي لا يتغير في حقيقته ، لأجروها مجرى غيرها من آثار التاريخ ، ولكن ذلك الزمن قد طُوي بأهله ، ولحق فرعه بأصله ، فبقي ذلك الخطأ التاريخي كأن صوابه من بعض التأريخ الذي هو حديثُ الغيب ! »[2] .

ويستمر (الرافعي) في حديثه هذا ، فيقول : « نقول هذا وقد قرأنا ما بين أيدينا من كتب الفهرست والتراجم والطبقات على كثرتها ، وتبينّا ما يسرد فيها من أسماء الكتب والأصناف ، عسى أن نجد من آثار أحد الرواة أو العلماء ما يدل على وضع كتاب في تأريخ لهجات العرب وتمييز لغاتها على الوجه الذي أومأنا اليه ، أو ما عسى أن نستدل به على أنهم كانوا يعتبرون ذلك اعتباراً تأريخياً ؛ ولكنّا خرجنا منها على حساب ما دخلنا فيها : صفر في صفر ؛ ولم يزدنا تعدادُ أسماء الكتب علماً بموت هذا العلم وأنه لا كتب له ، للسبب الذي شرحناه من اعتبارهم أصالة العربية »[3] .

وفي كتاب (الفهرست) لابن النديم ، وفي المؤلفات الأخرى أسماء كتب وضعها علماء اللغة في اللغات ، من ذلك (كتاب اللغات) ليونس بن حبيب (١٨٣ هـ) من علماء العربية ، وكان أعلم الناس بتصاريف النحو[4] ، و (كتاب اللغات) لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ هـ)[5] ، و (كتاب اللغات) للأصمعي (٢١٣ هـ) ، (٢١٧ هـ)[6] ، و (كتاب اللغات) لابن دريد (٣٢١ هـ)[7] ، و (كتاب

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١٣٤/١) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١٣٤/١) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١٣٤/١ وما بعدها) .
٤ الفهرست (ص ٦٩) .
٥ الفهرست (٨٧) .
٦ الفهرست (٨٨) .
٧ الفهرست (٩٧) .

اللغات) لأبي عمرو الشيباني (٢١٣ هـ)[1] ، و (كتاب مجرد الغريب) على مثال العين وعلى غير ترتيبه ، « وأوله هذا كتاب ألفه في غريب كلام العرب ولغاتها على عدد حروف الهجاء الثمانية والعشرين » ، وهو لعلي بن الحسن ، ويكنى أبا الحسن الهنائي[2] ، و (كتاب الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات) لعمر بن شبة (٢٦٢ هـ)[3] ، الى غير ذلك من مؤلفات دونت في هذا الباب .

لكننا لا نستطيع أن نتحدث عما عالجته من موضوعات وعما ورد فيها من بحوث ، بسبب اننا لا نملك نسخاً منها ، فلا ندري إذا كانت قد وضعت في خصائص لغات العرب من نحو وصرف ومفردات ، أم أنها ألفت في الشواذ والنوادر وفي الأضداد واختلاف الألفاظ ،وما يتعاور الأبنية من الاختلاف الصرفي والنحوي،لأن كل وجه من ذلك إنما هو أثر من لغة . والأصح ، أنها لم توضع في خصائص لغات الجاهليين وفي قواعد نحوها وصرفها لضبطها ، كالذي فعلوه في دراسة عربية القرآن الكريم ، فهذا عمل كبير ، يحتاج الى استقراء وتتبع لألسنة العرب في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وإنما كانت قد ألفت فيما جاء في الشعر الجاهلي وفي نوادر الأعراب وكلامهم من اختلاف وتغاير وشواذ ، مما يغاير لغة القرآن الكريم . ودليل ذلك ، أننا نرى أن المؤلفات التي نقلت من تلك الكتب في باب لغات العرب ، لم تتحدث بشيء عن أصول نحو وصرف تلك اللغات ، وإنما تحدثت عن أمور ذكرت أنها خرجت فيها على قواعد العربية الفصحى ، وشذت بها عنها ، مما يدل على أن علماء اللغة لم يوجهوا عنايتهم نحو تلك اللغات لدرسها بذاتها دراسة مستقلة ، كما فعلوا بالنسبة للعربية الفصحى وإنما أرادوا إظهار بعض مواضع خلافها مع العربية ، أو مواضع الاتفاق معها لإثبات قاعدة نحوية أو صرفية ، أو لإظهار سمو هذه العربية وعلوها على العربيات الأخرى من حيث السليقة والذوق والسلامة .

وقد بني سبب اهمالهم اللهجات الأخرى ، على اعتقادهم انها لهجات رديئة فاسدة ، وأن اللغة الفصحى هي اللغة الوحيدة التي يجب حفظ قواعدها والعناية بها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، وأن البحث في اللهجات الأخرى يؤدي الى تثبيت

---

١ الفهرست (١٠٧) .
٢ الفهرست (١٣٠) .
٣ الفهرست (١٦٩) .

لغات فاسدة الى جانب لغة الوحي ، ولم يكن هذا عملاً مطاقاً ولا مقبولاً بالنسبة الى ذلك الوقت . ولذلك انحصر عملهم في المجال اللغوي على التوسع والتبسط في هذه اللغة التي أسموها اللغة العالية أو الفصحى ، وعلى ما تحتها من لهجات ، وما اختلفت فيه بعضها عن بعض ، وهي لهجات كانت قريبة من مواطن علماء اللغة، أما اللهجات البعيدة عنهم ، فلم تنل منهم أية رعاية أو عناية ، ونجد مواضع الاختلاف مسجلة في كتب اللغات والنحو وشواهده وفي كتب النوادر والغريب ، ومجالس العلماء ، حيث كانوا يتباحثون في أمور اللغة والشعر وأيام العرب وما كان يتلذذ بسماعه الخلفاء والحكام الذين كانوا يثيبون من يستمعون اليه ، مما حمل العلماء وأهل الأخبار على تطلب الغريب والتفتيش عن الشارد والهارب للتفوق به على أصحاب الحرفة المتنافسين فيما بينهم في عرض بضاعتهم على أصحاب الحكم والمال .

وأجمل ما ذكره هنا علماء العربية من مواضع اختلاف العربيات الأخرى عن العربية المحضة في الأمور الآتية :

أحدها الإختلاف في الحركات ، نحو نَستعين ونِستعين بفتح النون وكسرها. فهي مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يكسرها ، ونحو الحَصاد والحِصاد .

والوجه الآخر ، الإختلاف في الحركة والسكون نحو مَعَكم ومَعْكم .

ووجه آخر هو الإختلاف في إبدال الحروف ، نحو : أولئك وأولالك . ومنها قولهم : أن زيداً وعنّ زيداً .

ومن ذلك : الإختلاف في الهمز والتليين نحو مستهزئون ومُستهزُون .

ومنه : الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو صاعقة وصاقعة .

ومنها : الإختلاف في الحذف والاثبات ، نحو استحييت واستحيت ، وصددت وأصددتُ .

ومنها : الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً مُعتلاً ، نحو أمّا زيد ، وأيما زيد .

ومنها : الإختلاف في الإمالة والتفخيم مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخّم وبعضهم يميل .

ومنها : الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله فمنهم من يكسر الأول ، ومنهم من يضم ، نحو اشتروا الضلالة .

ومنها : الاختلاف في التذكير والتأنيث ؛ فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، وهذه النخل ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذا النخل .

ومنها : الاختلاف في الإدغام نحو : مهتدون ومُهَدّون .

ومنها : الاختلاف في الإعراب نحو : ما زيدٌ قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان . وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب .

ومنها : الاختلاف في التحقيق والإختلاس نحو : يأمرُكم ويأمرْكم، وعُفِيَ له ، وعُفْي له .

ومنها : الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمَّهْ وهذه أمّت .

ومنها : الاختلاف في الزيادة نحو : أنظرُ ، وأنْظُورُ .

ومن الاختلاف اختلاف التضادّ ، وذلك كقول حمير للقائم : ثب ، أي اقعد ، وثب بمعنى اقفز[1] .

ومنها الاختلاف في الكلمة ، فقد يقع فيها ثلاث لغات ، نحو : الزُّجاج ، والزَّجاج ،والزِّجاج . وقد يقع في الكلمة أربع لغات ، نحو الصَّداق ،والصِّداق، والصُّدقة ،والصَّدقة . ويكون فيها خمس لغات ، نحو : الشَّمال ،والشَّمْل ،والشَّمْأل ، والشَّيْمَل ، والشَّمَل . ويكون فيها ستُ لغات ، نحو : قُسْطاس ،وقِسْطاس ، وقَسْطاس ، وقستاط ، وقِسّاط ، وقُستاط ، وقِسَّاط ، ولا يكون أكثر من هذا[2] .

ومنها الاختلاف في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى ، ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس ، نحو يأمرُكم ويأمرْكم ، وعُفي وعفى له . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل : هذه أمه وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو : أنظر وأنظور[3] .

وقد أشار (أبو العلاء) المعري في رسالة الغفران الى أن (عدي بن زيد) العبادي ، كان يجعل (الجيم) (كافاً) ، فيقول : (يا مكبور) يريد (يا مجبور) ، « وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن . وجاء في بعض الأحاديث

---

١ المزهر (١/٢٥٥ وما بعدها) ، الصاحبي (٤٣ ، ٤٨ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٢٦٠) .
٣ الصاحبي (٥٠) ، المزهر (١/٢٥٦) .

ان الحارث بن هانيء بن أبي شمر بن جبلة الكنـدي ، استلحم يوم ساباط ، فنادى : يا حُكْر يا حُكْر ، يريد يا حجر بن عـدي الأدبر ، فعطف عليه فاستنقذه ، ويكب في موضع يجب »[1] . و(الحارث بن هانيء) من كندة ،وهو من الصحابة ، وكندة من العربية الجنوبية في الأصل[2] ، فلا يستبعد منه نطق الجيم كافاً على الطريقة المصرية في الوقت الحاضر ، إذ يقول العرب الجنوبيون (هكر) في موضع (هجر) ، ولكن (عدي بن زيد) من (تميم) ، وليست (تميم) من العربية الجنوبية ، ثم إن (المعري) ، يقول عنه : « فيقول عدي بعباديته يا مكبور لقد رزقت ما يكب أن يشغلك عن القريض »[3] ، أي : « يا مجبور لقد رزقت ما يجب أن يشغلك عن القريض » فجعل قلب الجيم كافاً من سمات لغة العباديين .

ولخص بعض العلماء الوجوه التي تتخالف بها لغات العرب ، في سبعة أنحـاء لا تزيد ولا تنقص : الوجه الأول ابدال لفظ بلفظ كالحوت بالسمك وبالعكس، وكالعهن المنفوش ، قرأها (ابن مسعود) كالصوف المنفوش . الثاني : إبدال حرف بحرف كالتابوت والتابوه . الثالث : تقديم وتأخير ما في الكلمة ، نحو : سلب زيد ثوبه ، وسلب ثوب زيد . وأما في الحروف نحو : أفلم ييأس الذين ، وأفلم يايس . الرابع زيادة حرف أو نقصانه نحو : ماليه وسلطانيه ، وفَلا تَكُ في مِرْية . الخامس : اختلاف حركات البناء نحو تحسين بفتح السين وكسرها . السادس : اختلاف الأعراب نحو ما هذا بشر بالرفع . السابع : التفخيم والإمالة . وهذا اختلاف في اللحن والتزيين لا في نفس اللغة . والتفخيم أعلى وأشهر عنـد فصحاء العرب . فهذه الوجوه السبعة التي بها اختلفت لغات العرب[4] .

وجمع (مصطفى صادق الرافعي) أنواع الاختلاف الواردة في كتب اللغـة ، فحصرها في خمسة أقسام :

---

١ رسالة الغفران (٢٠١) .

٢ الاصابة (٢٩٢/١) ، (رقم ١٥٠٢) .

٣ رسالة الغفران (٢٠٠/١) .

٤ تفسير النيسابوري (٢٢/١) ، (حاشية على تفسير الطبري . بولاق) .

١ – لغات منسوبة ملقبة .
٢ – لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف .
٣ – لغات من ذلك في تغير الحركات .
٤ – لغات غير منسوبة ولا ملقبة .
٥ – لغة أو لثغة في منطق العرب[1] .

النوع الأول :

وقد عدّه علماء اللغة من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ ، ولذلك أطلقوا على اللغات التي تمارسها : اللغات المذمومة[2] ، من ذلك :

(الكشكشة) وهي ابدال الشين من كاف المخاطب للمؤنث خاصة ، كعليش ومنش وبش ، في عليكِ ، ومنكِ ، وبكِ ، في موضع التـأنيث ، أو زيادة شين بعد الكاف المجرورة . تقـول عليكش ، واليكش ، وبكش ، ومنكش ، وذلك في الوقف خاصـة . ولا تقول عليكش بالنصب . وقد حكى كذا كش بالنصب . وإنمـا زادوا الشين بعد الكاف المجرورة لتبين كسرة الكاف فتؤكد التأنيث ، وذلك لأن الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفى في الوقت فاحتاطوا للبيان أن أبدلوها شيناً ، فإذا وصلوا حذفوا لبيان الحركة ، ومنهم من يجري الوصـل مجرى الوقف فيبدل فيه أيضاً . وربما زادوا على الواو في الوقف شيناً حرصاً على البيان أيضاً ، فـإذا وصلوا حذفوا الجميع وربما ألحقوا الشين فيه . وذكر أن (الكشكشة) في بني أسد وفي ربيعة . « وفي حديث معاوية تياسروا عن كشكشة تميم ، أي ابدالهم الشين من كاف الخطاب مع المؤنث »[3] .

« و الكشكشة في ربيعة ومضر . يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً . فيقولون رأيتكش ومررت بكش . والكسكسة فيهم أيضاً ، يجعلون بعـد الكاف أو مكانها سيناً في المذكر »[4] . وورد : « والكسكسة لغة لتميم لا لبكـر ، كما

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٣٧/١ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٣) ، المزهر (٢٢٢/١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣٤٥/٤) ، (كشش) ، الصاحبي (٥٣) ، المزهر (٢٢٢/١ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، تاريخ آداب العرب (١٣٨/١) ، (لمصطفى صادق الرافعي) ، المزهر (٢٢١/١) .

زعمه ابن عباد ، وإنما لهم الكشكشة بإعجام الشين . هو إلحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف دون الوصل . يقال : اكرمتكس ومررت بكس ، أي أكرمتك ومررت بك . ومنهم من يبدل السين من كاف الخطاب ، فيقول أبوس وأمس، أي أبوك وأمك . وبه فسر حديث معاوية رضي الله عنه تياسروا عن كسكسة بكر . وقيل : الكسكسة لهوازن »[1] . « ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكنها في الوقف ؛ فيقول : مِنْش وعَلَيْش »[2] .

والديش بالكسر : الديك ، لغة فيه عند من يقلب الكاف شيناً ، شبه كافه بكاف المؤنث لكسرتها[3] .

وذكر (السيوطي) أن الكسكسة في ربيعة ومضر ، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سيناً[4] . وذكر بعضهم ان الكشكشة في لغة تميم ، والكسكسة في لغة بكر . وذكر بعضهم أن الكسكسة لبكر لا لربيعة ومضر،وهي زيادة سين بعد كاف الخطاب في المؤنث لا في المذكر[5] .

« والوتم في لغة اليمن ، بجعل الكاف شيئاً مطلقاً . كلبيش اللهم لبيش . ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة »[6] . وقيل : « الوتم في لغة اليمن ، تجعل السين تاءً كالنات في الناس »[7] . « والشنشنة في لغة اليمن، تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش اللهم لبيش ، أي لبيك »[8] .

وقد استشهد علماء اللغة على الوتم بشعر نسبوه الى (علباء بن أرقم) هو :

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ
ليسوا أعفاء ولا أكيات

---

١ تاج العروس (٢٣٤/٤) ، (كسّ) ، الصاحبي (٥٣) .
٢ المزهر (٢٢١/١) ، (النوع الحادي عشر) .
٣ تاج العروس (٣١٢/٤) ، (الديش) .
٤ المزهر (٢٢١/١) .
٥ الرافعي (١٣٨/١) .
٦ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) .
٧ المزهر (٢٢٢/١) .
٨ المزهر (٢٢٢/١) .

فاستعمل النات بدل الناس ، والأكيات بدل الأكياس . ولكن الشاعر من (بكر) لا من حمير[1] .

و « الفحفحة في لغة هذيل ، يجعلون الحاء عيناً . والوكم والوهم كلاهما في لغة بني كلب . من الأول يقولون : عليكِم وبكِم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة في موضع عليكم وبكم ، ومن الثاني يقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم ، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة »[2] . « وهم يكمون الكلام بكسر الكاف من يكمون ، أي يقولون السلام عليكِم بكسر الكاف »[3] . ومن أمثلة الفحفحة قولهم عياة في موضع حياة ، وعلى لغتهم قرأ (ابن مسعود) عتّى عين في قوله تعالى : حتّى حين . فكتب اليه (عمر) إن القرآن لم ينزل على لغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش[4] . ومن الفحفحة قولهم : العسن في الحسن ، واللعم في اللحم . وذكر ان ثقيفاً كانت تفحفح في كلامها ، فتقول عتّى في موضع حتّى . وقد ورد في (تاج العروس) ، أن (الوكم) « لغة أهل الروم الآن »[5] ، ولعل هذه اللغة انما جاءتهم من (كلب) ، وهم من عرب بلاد الشأم القدماء .

« قال الفرّاء : حتّى لغة قريش وجميع العرب إلا هذيلاً وثقيفاً ، فإنهم يقولون : عتّى . قال : وأنشدني بعض أهل اليمامة :

لا أضع الدلو ولا أصلّي عتّى أرى جلّتها تولي
صوادراً مثل قباب التلّ

قال أبو عبيدة : من العرب من يقول : أقم عنّي عتّى آتيك ، وأتى آتيك ؛ بمعنى حتّى آتيك ، وهي لغة هذيل »[6] .

و (العجعجة) في قضاعة كالعنعنة في تميم . يحوّلون الياء جيماً مع العين .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (٢٢٢/١) .
٣ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٤ الفائق (١١٣/٢) .
٥ تاج العروس (٦٩/٩) ، (وكم) .
٦ الفائق (١١٤/٢) .

يقولون : هذا راعج خرج معج ، أي راعي خرج معي[1] . وقيل : « العجعجة في قضاعة . يجعلون الياء المشددة جيماً . يقولون في تميمي تميمج »[2].وكانت قضاعة إذا تكلموا غمغموا ، فلا تكاد تظهر حروفهم . وقد سمى العلماء ذلك غمغمة قضاعة [3] .

والاستنطاء ، قول أنطى بدل أعطى . « قال الجوهري : هي لغة اليمن ؛ وقال غيره : هي لغة سعد بن بكر . والجمع بينهما أنه يجوز كونها لهما » ، وقيل : « هي لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار يجعلون للعين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء ... وهؤلاء من قبائل اليمن ، ما عدا هذيل . وقد شرفها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى الشعبي أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لرجل : أنطه كذا وكذا ، أي اعطه . وفي حديث آخر أن مال الله مسؤول ومنطى،أي معطى . وفي حديث الدعاء : لا مانع لما أنطيت. وفي حديث آخر : اليد المنطية خير من اليد السفلى . وفي كتابه لوائل : وأنطوا الثبجة . وفي كتابه لتميم الداري : هذا ما أنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخره . ويسمون هذا الانطاء الشريف . وهو محفوظ عند أولاده . وقرىء بها شاذاً إنّا انطيناك الكوثر »[4] .

وعرفت لغة (بهراء) بوجود (التلتلة) بها . وتلتلة بهراء كسرهم تاء تفعلون ، مثل كسر تاء تعلم ، في موضع الفتح . وكسر التاء من (تكتب)[5] . وذلك انهم يكسرون أحرف المضارعة مطلقاً . « ونسب ابن فارس في فقه اللغة هذا الكسر لأسد وقيس ، إلا انه جعله عاماً في أوائل الألفاظ ، فمثل له بقوله : مثل تِعلمون وتِعلم وشِعير وبِعير »[6] .

وعرفت « القطعة في لغة طيء : وهي قطع اللفظ قبل تمامه ، فيقولون في

---

١ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، (٢/٧١) ، (عج) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٣ الرافعي (١/١٣٩) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٧٢) ، (نطا) ، المزهر (١/٢٢٢) .
٥ تاج العروس (٧/٢٤١) ، (تل) .
٦ الرافعي (١/١٤٠) .

مثل يا أبا الحكم : يا أبا الحكا . وهي غير الترخيم المعروف في كتب النحو ، لأن هذا مقصور على حذف آخر الاسم المنادى ، أما القطعة فتتناول سائر أبنية الكلام »[1] .

ومن لغة تميم كسر الشين في شهيد ، وكذا كل فعيل حلقي العين سواء كان وصفاً كهذا ، واسماً جامداً كرغيف وبعير . « قال الهمداني في اعراب القرآن: أهل الحجاز وبنو أسد يقولون رحيم ورغيف وبعير بفتح أوائلهن . وقيس وربيعة وتميم يقولون : رحيم ورغيف وبعير بكسر أوائلهن . وقال السهيلي في الروض : الكسر لغة تميم في كل فعيل عين فعله همزة أو غيرها من حروف الحلق،فيكسرون أوله كرحيم وشهيد . وفي شرح الدريدية لابن خالويه : كل اسم على فعيل ثانيه حرف حلق يجوز فيه اتباع الفاء العين كبعير وشعير ورغيف ورحيم . وحكى الشيخ النووي في تحريره عن الليث أن قوماً من العرب يقولون ذلك وإن لم يكن عينه حرف حلق ككبير وكريم وجليل ونحوه. قلت : وهم بنو تميم كما تقدم »[2].

ومما اختلفت بــه تميم عن قريش أنها تذكر السوق والسبيل والطريق والزقاق والصراط والكلاء ، وهو سوق البصرة ، أما أهل الحجاز فذكرون الكل[3] .

ومن ميزات لهجة تميم ، أنها تنطق بالهمزة إذ وقعت في أول الكلمــة عيناً . فيقولون في أسلم عسلم ويسمي العلماء ذلك (العنعنة) . « وعنعنة تميم ابدالهم العين من الهمزة . يقولون : عن موضع أن » . « قــال الفراء : لغة قريش ومن جاورهم أن،وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عيناً . يقولون أشهد عنك رسول الله ، فإذا كسروا رجعــوا الى الألف . وفي حديث قيلة : تحسب عين نائمة ، وفي حديث حصين بن مشمت أخبرنا فــلان عن فلاناً حدثه . أي أن فلاناً حدثه . قال ابن الأثير رحمه الله تعالى : كأنهم يفعلونه لبحح في أصواتهم . والعرب تقول : لأنك ولعنك ، بمعنى لعلك . قال ابن الأعرابي لعنك لبني تميم ، وبنــو تيم الله بن ثعلبة يقولون رعنك . ومن

---

١ الرافعي (١/١٤٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٩١) ، (شهد) .

٣ تاج العروس (٦/٣٧١ ، ٣٨٧) ، (زق) ، (ساق) .

العرب من يقول رغنك بمعنى لعلك »[1] . « قال الفرّاء : العنعنة في قيس وتميم. تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك وفي أسلم عسلم »[2] .

وذكر ان العنعنة في كثير من العرب ، في لغة قيس وتميم ، وقيل في لغة قضاعة أيضاً ، وفي لغة أسد ومن جاورهم ، يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً ، فيقولون في انك عنك ، وفي أسلم عسلم ، وفي أُذُن عُذن ، وفي ظننت أنك ذاهب ، ظننت عنك ذاهب[3] .

ومن مواضع الاختلاف بين لغة أهل الحجاز ، ولغة تميم ، الاختلاف في عمل ما وليس النافيتين . وتردد الكلمة بين الإدغام والفك ، وبين الإتمام والنقص ، أو بين الصحة والإعلال والإعراب والبناء ، فمثلاً أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المجزوم بالسكون وأمره ، وتميم تقولها بالإدغام ، وخثعم وزبيد تنقص نون من الجارة ، فيقولون : خرجت ملبيت في قولهم : خرجت من البيت وغيرهم يتمها[4] .

و (ضللت) بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع . وهذه هي اللغة الفصيحة ، وهي لغة نجد . و « ضللت تضل مثل مللت تمل ، أي بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع ، وهي لغة الحجاز والعالية . وروى كراع عن (بني تميم) كسر الضاد في الأخيرة أيضاً . قال اللحياني : وبهما قرىء قوله تعالى : قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي . الأخيرة قراءة أبي حيوة ، وقرأ يحيى بن وثاب اضل بكسر الهمزة وفتح الضاد . وهي لغة تميم . قال ابن سيده: وكان يحيى بن وثاب يقرأ كل شيء في القرآن ضللت وضللنا بكسر اللام. ورجل ضال تال »[5] . و (الضلالة والتلالة)[6] .

واللخلخانية العجمة في المنطق ، وهو العجز عن ارداف الكلام بعضه ببعض . ورجل لخلخاني غير فصيح . ويعرض ذلك في لغة أعراب الشحر وعمان . كقولهم

---

١ تاج العروس (٢٨٣/٩) ، (عنن) .
٢ تاج العروس (٨/١) ، (المقصد الخامس في بيان الافصح) .
٣ المزهر (٢٢١/١) ، الصاحبي (٥٣) .
٤ محمد هاشم عطية ، الأدب العربي وتأريخه (٣٩) .
٥ تاج العروس (٤١١/٧) ، (ضلل) .
٦ تاج العروس (٢٤١/٧) ، (تل) .

في ما شاء الله مشا الله[1] . والطمطمانية تعرض في لغة حمير ، كقولهم طابم هوا ، أي طاب الهواء[2] . « وطمطمانية حمير بالضم ما في لغتهـــا من الكلمات المنكرة ، تشبيهاً لها بكلام العجم . وفي صفة قريش ليس فيهم طمطمانية حمير ، أي الألفاظ المنكرة المشبهة بكـــلام العجم »[3] . وذكر أن الطمطمانية كانت أيضاً عند بعض عشائر طيء ، « وهي ابدال لام التعريف ميماً . فيقولون في السهم والبر والصيام: امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنيـــة ، إذ كانوا يُعرّفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب اليـه النسّابون من أن طيء قبيلة يمنية »[4] . ولكن حمير لا تعرف بالألف والميم ، وانما تعرف بـ (ان) (ن) ، تضع هذه الأداة في آخر الكلمة التي يراد تعريفهـا . ولهذا ، أخطأ من ذهب الى أن هذه الطمطمانية ابـــدالاً ، أو « ليس ابدالاً ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم »[5] ، لما ذكرته مـــن أن التعريف يلحق في الحميرية أواخر الكلم ، ولا يكون في أولهـــا ، ويكون بالأداة (ن) (ان) ، لا بالألف واللام، كما هو الحال في عربيتنا ، وان التنكير عندهم يكون بإلحاق حرف (الميم) أواخر الألفاظ التي يراد تنكيرهـــا ، ولم يصل الى علمي أن أحداً من الباحثين عثر على نص جاهلي في العربية الجنوبية عرف بـ (ال) أداة التعريف في عربية القرآن الكريم .

ومن الشائع بين الناس ، أن الرسول قال : « ليس ممبرم صيامم فم سفر » ، أي « ليس من البر الصيام في السفر »[6] ، وعندي ان هذا الحديث من الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة ، وقد وضع ليكون شاهداً على (الطمطمانية) المذكورة ، جاءوا به شاهداً على تكلم الرسول بلسان حمير ، ولكن لسان حمير لم يكن يعرّف الغير معرف بهذه الأداة من التعريف ، وقد يكون لهجة من لهجات بعض القبائل على نحو ما نسب الى بعض عشائر طيء ، كما ذكرت ذلك قبل قليل .

---

١ تاج العروس (٢/٢٧٧) ، (لخ) ، المزهر (١/٢٢٣) .
٢ تاج العروس (١/٨) ، (المقصد الخامس) ، « طاب امهواء : أي طاب الهواء » ، المزهر (١/٢٢٣) ، (معرفة الرديء المذموم من اللغات) .
٣ تاج العروس (٨/٣٨١) ، (طم) .
٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٣) .
٥ شوقي ضيف (١٢٣) .
٦ تاج العروس (٣/٣٧) ، (برر) .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة . ومنهم من يستعمل الحرف الذي بين القاف والكاف كما في لغة تميم ، والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن ، وإبدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج ، وفي النسب نحو بصرّجّ وكوفجّ[1] . ومن ذلك الحرف الذي بين الباء والفاء ، مثـل بور اذا اضطروا قالوا : فور[2] .

ومن النوع الثاني ، وهو الخاص بلغات منسوبة غير ملقبة عند العلماء :

إبدال (فقيم) الياء جيماً ، ولغتهم في ذلك أعم من لغة قضاعة التي مرت في النوع الأول ، لأنها غير مقيدة ، فيقولون في مُخّيّ وعليّ ؟ مُخّجّ وعلجّ . وحجتج في حجتي ، وبج في موضع بي . « وقال ابن فارس في فقه اللغة : إن الياء تجعل جيماً في النسب عند بني تميم ، يقولون غلامـج ، أي غلامي ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً في النسب ، يقولون بَصرّج وكوفّج في بصريّ وكوفي . وعكس هـذه اللغة في تميم – على ما نقله صاحب المخصص – وذلك انهم يقولون : صِيهْرِيٌّ والصهاري ، في صهريج والصهاريج »[3] .

في لغة مازن يبدلون الميم باءً والباءَ ميماً ، فيقولون في بكر : مكر ، وفي اطمئن اطبئن ، ويقولون باسمك ؟ مكان ماسمك ؟

وفي لغة طيء يبدلون تاء الجمع هاءً إذا وقفوا عليها ، إلحاقاً لها بتاء المفرد؛ وقد سمع من بعضهم : دفن البناه من المكرماه ، يريد : دفن البنات من المكرمات. وحكى قول بعضهم : كيف البنون والبناه ، وكيف الإخوه والأخواه ؟

وفي لغة طيء أيضاً يقلبون الياء ألفاً بعد إبدال الكسرة التي قبلها فتحة،وذلك من كل ماضٍ ثلاثي مكسور العين ، ولو كانت الكسرة عارضة كما لـو كان الفعل مبنياً للمجهول ، فيقولون في رضي وهُدي : رَضا وهُدى ، بل ينطقون بها قول العرب : فرس حَظِيّة بظيّة فيقولون : حظاة بظاة ، وكذلك الناصاة، في الناصية .

ومن لغتهم أنهم يحذفون الياء من الفعل المعتل بها إذا أُكّد بالنون ، فيقولون

---

١ المزهر (٢٢٢/١ وما بعدها) .
٢ الصاحبي (٥٤) .
٣ الرافعي (١٤١/١ وما بعدها) .

في اخشَيَنَّ وارمينَّ : اخشنّ وارمنّ . وجاء في الحديث على لغتهم : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتّى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها ». وتنسب هذه اللغة الى فزارة أيضاً .

وورد في بعض الروايات انهم يبدلون الهمزة في بعض المواضع هاءً، فيقولون هِنْ فعلت ، يريدون إن فعلت[1] .

وورد أن بعض (طيء) كان يقلب (العين) همزة ، فيقول : دأني بدلاً من دعني .

وفي لغة تميم أنهم يجيئون باسم المفعول من الفعل الثلاثي إذا كانت عينه ياءً على أصل الوزن بدون حذف ، فيقولون في نحو مَبِيع : مبيوع ، ولكنهم لا يفعلون ذلك إذا كانت عين الفعل واواً إلا ما ندر ، بل يتبعون فيه لغة الحجازيين ، نحو : مقول ، ومصوغ .

وفي لغة هذيل لا يبقون ألف المقصور على حالها عند الاضافة الى ياء المتكلم، بل يقلبونها ياءً ثم يدغمونها ، توصلاً الى كسر ما قبل الياء ، فيقولون في عصاي وهواي : عَصِيّ وهَوِيّ . ولا يفعلون ذلك إذا كانت الألف في آخر الاسم للتثنية ، كما في نحو (فَتَيَاي) ، بل يوافقون اللغات الأخرى .

وفي لغة فزارة وبعض قيس ، أنهم يقلبون الألف في الوقف ياءً ، فيقولون: الهُدَيْ وأفعيْ وحبليْ ، في مكان الهدى وأفعى وحبلى .

ومن تميم من يقلب هذه الألف واواً ، فيقول : الهُدَوْ ، وأفعو ، وحُبلَو. ومنهم من يقلبها همزة ، فيقول : الهُدأ وأفعأ وحُبلأ .

في لغة خثعم وزَبيد يحذفون نون (مِنْ) الجارة إذا وليها ساكن . وقد شاعت هذه اللغة في الشعر واستخفها كثير من الشعراء فتعاوروها[2] .

في لغة (بلحرث) (بلحارث) يحذفون الألف من (على) الجارة واللام الساكنة التي تليها ، فيقولون في على الأرض علأرض .

في لغة قيس وربيعة وأسد ، وأهل نجد من بني تميم ، يقصرون (أولاء) التي يشار بها للجمع ويلحقون بها (لاماً) ، فيقولون : أولالِك .

---

١ الرافعي (١/١٤٢) .
٢ الرافعي (١/١٤٣ وما بعدها) .

في لغات أسماء الموصول :

بلحرث بن كعب وبعض ربيعة يحذفون نون اللذين واللتين في حالة الرفع . وتميم وقيس يثبتون هذه النون ولكنهم يشددونها ، فيقولون : اللذانّ واللتانّ ، وذلك في أحوال الإعراب الثلاث .

وطيء تقول في الذي : ذو ، وفي التي ذات ، ولا يغيرونهما في أحوال الإعراب الثلاث رفعاً ونصباً وجراً [1] . وقد عرفت بـ (ذي) الطائية . وترد (ذ) (ذو) هذه بهذا المعنى في الصفوية واللحيانية والثمودية .

في لغة ربيعة يقفون على الاسم المنوّن بالسكون في كل أحوال الإعراب ، فيقولون : رأيت خالدْ ، ومررت بخالدْ ، وهذا خالدْ ، وغيرهم يشاركهم إلا في النصب .

وفي لغة الأزد يبدلون التنوين في الوقف من جنس حركة آخر الكلمة ،فيقولون: جاء خالدو ، ومررت بخالدي .

وفي لغة سعد يضعفون الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عليها إلا اذا كان هذا الحرف همزة أو كان ما قبله ساكناً ، فيقولون : هذا خالدّ ، ولا يضعفون في مثل رشأ وبكر .

في لغة بلحرث وخثعم وكنانة ، يقلبون الياء بعد الفتحة ألفاً ، فيقولون في اليك وعليك ولديه : إلاكَ ، وعلاك ، ولداه ، ومن لغتهم أيضاً إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً ، وذلك لقلبهم كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفاً ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجلان ، ومررت بالرجلان .

وورد في بعض الروايات أن بني سعد بن زيد مناة ، ولخم ومن قاربها ، يبدلون الحاء هاءً ، فيقولون في مدحته ، مدهته . وأن بني أسعد بن زيد مناة ومن وليهم يبدلون من الهاء فاءً ، فيقولون فودج في موضع هودج .

وورد أن أزد شنوءة تقول : تفكهون ، وتميم يقولون : تفكنون ، بمعنى تعجبون [2] .

وورد أن (الكلابيين) يلحقون علامة الإنكار في آخر الكلمة ، وذلك في

---

١ الرافعي (١/١٤٤) .
٢ الرافعي (١/١٤٥ وما بعدها) .

الاستفهام إذا أنكروا أن يكون رأي المتكلم على ما ذكر في كلامه أو يكون على خلاف ما ذكر .

فإذا قلتَ : رأيت زيداً ، وأنكر السامع أن تكونَ رأيته ، قال : زيداً إنيه ! بقطع الألف وتبيين النون ، وبعضهم يقول : زيد نيه ! كأنه ينكر أن يكون رأيك على ما ذكرت[1] .

وذكر (الرافعي) الأمور التالية على النوع الثالث ، من تغيير الحركات في الكلمة الواحدة حسب اختلاف اللهجات :

هَلُمَّ في لغة أهل الحجاز تلزم حالة واحدة بمنزلة رويد ، على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً ؛ وتلزم في كل ذلك الفتح؛ وفي لغة نجد من بني تميم تتغير بحسب الإسناد ، فيقولون : هلمَّ يا رجل، وهلمي، وهلما ، وهلمّوا ، وهلمُمْنَ ؛ واذا اسندت لمفرد لا يكسرونها . فلا يقولون : هَلِمِّ يا رجل ، ولكنها تكثر في لغة كعب وغنى.

وفي لغة تميم يكسرون أول فَعيل وفَعِل إذا كان ثانيها حرفاً من حروف الحلق الستة ، فيقولون في لئيم ونحيف ورغيف وبخيل : لِئيم ، ونِحيف بكسر الأول ، ويقولون : هذا رجل لِعِبٌ ، ورجل مِحِكٌ ، كل ذلك بالكسر وغيرهم بفتحه .

في لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقاً مع الظاهر والضمير ، وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع الضمير غير ياء المتكلم ؛ فيقولون : المال لِكَ ولِهُ .

هاء الغائب مضمومة في لغة أهل الحجاز مطلقاً إذا وقعت بعد ياء ساكنة ، فيقولون : لَدَيْهُ وعَلَيْهُ ؛ ولغة غيرهم كسرها .

في لغة الحجازيين يحكون الاسم المعرفة في الاستفهام اذا كان علماً كما نُطق به ، فإذا قيل : جاء زيد ، ورأيت زيداً ، ومررت بزيد ، يقولون : من زيدُ ؟ ومن زيداً ؟ ومن زيدٍ ؟ أما اذا كان غير علم : كجاءني الرجل ، أو كان علماً موصوفاً : كزيد الفاضل ، فلا يستفهمون إلا بالرفع ، يقولون : من الرجلُ ؟ ومن زيدٌ الفاضلُ ؟ في الأحوال الثلاث .

---

١ الرافعي (١٤٦/١ وما بعدها) .

وإذا استفهموا عن النكرة المعربة ووقفوا على أداة الاستفهام ، جاءوا في السؤال بلفظة (مَن) ولكنهم في حالة الرفع يُلحقون بها واواً لمجانسة الضمة في النكرة المستفهم عنها ، ويلحقون بها ألفاً في حالة النصب ، وياءً في حالة الجر، فإذا قلتَ : جاءني رجل ، ونظرت رجلاً ، ومررت برجل ، يقولون في الاستفهام عنه : مَنُو ؟ ومَنا ؟ ومني ؟ وكذلك يلحقون بها علامة التأنيث والتثنية والجمع . فيقولون : مَنَه ؟ في الاستفهام عن المؤنثة ، ومنان ؟ ومنين ؟ للمثنى المذكر ، ومَنَتان ؟ ومَنتين ؟ للمثنى المؤنث : ومنون ؟ ومنين ؟ للجمع المذكر ، ومنات ؟ للجمع المؤنث . وهذا كله اذا كان المستفهم واقفاً ، فإذا وصل أداة الاستفهام جردها عن العلامة ، فيقول : مَن يا فتى ؟ في كل الأحوال .

وبعض الحجازيين لا يفرق بين المفرد وغيره في الاستفهام ، فيقول : مَنو ، ومنا ، ومَني ، إفراداً وتثنية وجمعاً في التذكير والتأنيث .

وحفظ عن أهل الحجاز انهم يعاقبون أحياناً بين الواو والياء، فيجعلون احداهما مكان الأخرى ، فيقولون في الصوّاغ : الصياغ ، وقد دوّخوا الرجل وديّخوه. وسمع عن بعض أهل العالية قولهم ، لا ينفعني ذلك ولا يضورني ، أي يضيرني، وسمع عن قوم قولهم : في سريع الأوبة : سريع الأيبة . ومنهم من يقول في المصايب : مصاوب ، ويقول حكوت الكلام ، أي حكيته . وأهل العالية يقولون : القصوى ، ويقول أهل نجد : القصيا .

وقد وردت أفعال ثلاثية تُحكى لاماتها بالواو والياء ، مثل عزوت وعزيت ، وكنوت وكنيت . وهي قريب من مائة لفظة .

في لغة بكر بن وائل وأناس كثير من بني تميم ، يسكنون المتحرك استخفافاً، فيقولون في فَخِذ ، والرَّجُل ، وكَرُمَ ، وعَلِمَ : فَخْذ ، وكرْم ، والرَّجْل ، وعَلْمَ . وهذه اللغة هي في كثير من تغلب . ثم اذا تناسبت الضمتان أو الكسرتان في كلمة خففوا أيضاً ، فيقولون في العُنُق والإبِل ، العُنْق ، والإبْل .

وحكى أن في لغة أزد السراة تسكين ضمير النصب المتصل[1] .

---

١ الرافعي (١/١٥١ وما بعدها) .

ولبعض القبائل لغات في كلمات : فتميم نجد يقولون نِهر ، للغدير ، وغيرهم يفتحها . والوَتر في العدد حجازية ، والوِتر بالكسر في الذّحل : الثأر ، وتميم تكسرهما جميعاً ، وأهل العالية يفتحون في العدد فقط .

ويقال وَتِدٌ ، ووتَدٌ ، وأهل نجد يدغمونها فيقولون . وَدٌّ . وبعض الكلابيين يقولون : الدِّواء ، وغيرهم يفتحها . والعرب يقولون شُواظٌ من نار ، والكلابيون يكسرون الشين .

والحجازيون يقولون لعمري ، وتميم تقول : وعملي . واللص في لغة طيء ، وغيرهم يقول : اللّصت[1] .

وهناك لغات في الإعراب :

فتستعمل (هذيل) (مـتى) بمعنى (مِنْ) ويجرون بها ، سمع من بعضهم قوله : أخرَجها متى كُمّه ، أي من كُمه .

وفي لغة تميم ينصبون تمييز (كم) الخبرية مفرداً ، ولغة غيرهم وجوب جرّه وجواز افراده وجمعه ، فيقال : كم درهمٍ عندك ، وكم عبيدٍ ملكت ! وتميم يقولون : كم درهماً ، وكم عبداً !

في لغة الحجازيين ينصب الخبر بعد (ما) النافية نحو : ما هذا بشراً ، وتميم يرفعونه .

في لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد إن النافية ، سمع من بعضهم قولـه : إن أحدٌ خيراً من أحدٍ إلا بالعافية .

الحجازيون ينصبون خـبر ليس مطلقاً ، وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بإلا ، فيقول الحجازيون : ليس الطيب إلا المسكَ ، وبنو تميم : إلا المسكُ .

في لغة بني أسد يصرفون ما لا ينصرف فيما علّة منعه الوصفية وزيادة النون ، فيقولون : لست بسكرانٍ ، ويلحقون مؤنثه التاء ، فيقولون : سكرانة .

في لغة ربيعة وغنم ينون (مع) الظرفية على السكون ، فيقولـون : ذهبتُ مَعْهُ ، وإذا وليها ساكن يكوسرنها للتخلص من التقاء الساكنين ، فيقولون ذهبت معِ الرجلِ .

---

١ الرافعي (١٥٢/١) .

في لغــة (بني قيس بن ثعلبة) يعربون (لَدُن) الظرفية ، وعلى لغتهم قرىء (من لدنِه علماً) ، وغيرهم يبنيها .

الحجازيون يبنون الأعلام التي على وزن فعَال : كحذام ، وقطام ، عــلى الكسر في كل حالات الإعراب ؛ وتميم تعربها ما لم يكن آخرها راءً وتمنعهــا من الصرف للعلَميــة والعدل ، فإذا كان آخرها راء كوبار ، اسم قبيلة وظفار اسم مدينة فهم فيها كالحجازيين .

وتعرب هذيل (الذين) اسم الموصول إعراب جمع المذكر السالم ، فيقولون :

نحن الّذون صبحوا الصبّاحا   يوم النخيـل غارة ملحاحــا

ومن لغة هذيل أيضاً،فتح الياء والواو في مثل بيْضات، وهيآت ، وعوْرات، فيقولون : بيَضات ، وهيَآت ، وعوَرات ، وبقية العرب على إسكانها [1] .

وذكر (الرافعي) بعض الأمثلة على المثال الرابع من قبيل : إبدالهم أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، كقولهم في الثعالب والأرانب والضفادع : الثعالي والأراني والضفادي . وقد يبدلون بعض الحروف ياء كقولهــم في سادس : سادي ، وفي خامس : خامي [2] .

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً ، فيقول مثلاً : الجعبة ، في الكعبة ، وبعضهم ينطق بالتاء طاء : كأفلطني ، في أفلتني ، وهي لغة تميمية .

وتقول بعض العرب أردت عنْ تفعل كذا ، وبعضهم يقول : لألّني ، في (لعلّني) . وفي لعل لغات يقولها بعض العرب دون بعض ، وهي : لعلّي ، ولعلني ، وعلّي ، وعلّني ، ولعنّي ، ولغني . ورعَنّ ، ورعنّ ، وعنّ ، وأن ، ولعاء .

وورد تلعثم وتلعزم في لغة بعض الناس ، وتضيفت الشمسُ للغروب ، وتصيفت [3] .

وفي (عند) لغات ، هي : عِندي ، وعُندي ، وعَندي ، وفي لدن ثماني

---

١ الرافعي (١٥٣/١ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١٥٥/١) .
٣ الرافعي (١٥٧/١) .

لغات ، وهي لَدُن ، ولُدُن ، ولَدَى ، ولَدُ ، ولَدْن ، ولُدْن ، ولَدْ ، ولَدَى ؛ وفي (الذي) : الذي ، واللِذ ، واللّذ ، واللذيُّ ، وفي التثنية اللذانِ ، واللذانّ ، واللذا ، وفي الجمـــع : الذين ، والذون ، والملاءون ، واللاءو ، واللائي ، — باثبات الياء في كل حال — والألى ؛ وللمؤنث اللائي ، واللاء ، واللاتي : واللتِ ، واللتْ ، واللتان ، واللتا ، واللتانّ ، وجمع التي اللاتي ، واللات ، واللواتي ، واللوات ، واللوا ، واللاء ، واللاتِ[1] .

ومن لغـــات (هو) و (هـــي) : هُوْ ، وهِيْ ، وهُوّ ، وهِيّ و هُ ، هِ .

ومن لغات لاجرم : لاجرَ ، ولا ذا جرم ، ولا ذا جر ، ولا إن ذا جرم ، ولا عنْ ذا جرم .

ومن لغات نعم ، حرف الايجاب : نَعِمْ ، ونِعِم ، ونَحَم .

وبعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءً في الوقف ، فيقول : هذه أمت ، في أمة ، وبقرت في بقرة ، وآيت في آية[2] .

وذكر (الرافعي) ان النوع الخامس ، هو النوع الخاص باللثغة من المتكلم . كالألفاظ التي وردت بالراء والغين وبحروف أخرى[3] .

ومن مواضع الاختلاف التي ذكرها (الرافعي) ، والـــتي وقعت في القرآن بسبب القراءات : تحقيق الهمز وتخفيفه ، والمد والقصر ، والفتح والإمالة ومـــا بينهما ، والاظهار والادغام ، وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم وإلحاق الواو فيهما وفي لفظتي منهُمُو وعنهُمُو ، وإلحاق الياء في اليه وعليه وفيه ، ونحو ذلك، فكان كل أهل لحن يقرءونه بلحونهم[4] .

والتضجيع : الإمالة ، وكانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون ، ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة،فقد كان بعض منها يميل وبعض منها لا يميل ، وفي ذلك قول سيبويه :

---

١ الرافعي (١/١٥٧ وما بعدها) .
٢ الرافعي (١/١٥٩) .
٣ الرافعي (١/١٥٩ وما بعدها) .
٤ الرافعي (٢/٤٩) .

« اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبه ، ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلط في لغته ولكن هذا من أمرهم »[1] .

وذكر (ابن فارس) ، ان من اختلاف العرب في لغاتهم ، اختلافهم « في التذكير والتأنيث ، فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذه النخيل ، وهذا النخيل » ، واختلافهم « في الإعراب، نحو : ما زيد قائماً ، وما زيد قائم ، وإن هذين ، وإن هذان ، وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب » ،واختلافهم « في صورة الجمع ، نحو أسرى وأسارى»[2]. وفي هذه اللغة فسر المفسرون الآية : « إن هذان لساحران » ، اذ قالوا إنها نزلت على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم ، « وهم يجعلون الاثنين في رفعها ونصبها وخفضها بالألف.وقد أنشدني رجل من الأسد عن بعض بني الحارث ابن كعب :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصما[3]

ويظهر من اختلاف العلماء — الذي رأيناه — في نسبة الأمور المذكورة الى ألسنة القبائل وفي عدم اتفاقهم في كثير من الحالات في تثبيت اللغات المذكورة الى قبيلة معينة أو حصرها في قبائل وترددهم في أقوالهم ، ان ما ذكروه من اختلاف لم يكن حاصل دراسة استقرائية عميقة ، وانما هو حاصل اتصال بأفراد أو بعدد قليل من الأعراب ومن المدعين بالعلم في ألسنة العرب ، ولهذا نجد التناقض بادياً في أقوالهم ، وصارت دراساتهم المتقدمة ناقصة غير كاملة ، لا تتناول إلا أموراً جانبية لا تمس صلب اللغة ولا تنال قواعدها في الصميم . وعلى علماء اللغة في الوقت الحاضر واجب الخروج على الجادة القديمة التي يسيرون عليها اليوم في دراسة

---

١ العصر الجاهلي ، دكتور شوقي ضيف (١٢٢) .
٢ الصاحبي (٤٩ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (١٦/١٣٦) .

اللغة ، بالذهاب بأنفسهم من جديد الى مواطن اللغة، للأخذ من أحجارها المكتوبة إن وجدت ومن ألسنة الأحياء الباقين ، أخذاً علمياً مقروناً بدراسات حديثة مبنية على تسجيل الأصوات ، للاستعانة بها في الكشف عن لغات العرب بأسلوب علمي حديث .

ويلاحظ أيضاً أن علماء اللغة ، قد جمعوا بعض الملاحظات التي ظهرت لهم، من دراساتهم للغة أهل الحجاز ، وللغة تميم . فسجلوها في كتب اللغة والقواعد ، وقد أشرت اليها فيما تقدم بايجاز . واذا قلت أهل الحجاز ، فلا أعني لغة قريش وحدها ، وانما لغات القبائل الحجازية ، التي تكوّن مجموعة القبائل الساكنة في الحجاز . فإن العلماء حين شرعوا بتدوين اللغة ، وجدوا ان لغة أهل مكة لم تعد صافية نقية بسبب اختلاط أهلها بالأعاجم ، وظهور الفساد على لسانهم ، لذلك ، لا نجد لهم ذكراً بارزاً عند علماء اللغة ، وانما حل محلهم مصطلح : أهل الحجاز. ويظهر ان عرب (تميم) من علماء اللغة ، ووجود عدد من عشائرها في العراق على مقربة من المصريين ، ونزول رجال منها البصرة والكوفة ، ثم اشتهار رجال من تميم بالفصاحة والبلاغة والخطابة قبل الاسلام ، كل هذه وأمور أخرى مكّنت العلماء من تسجيل ملاحظات كثيرة عن لغة تميم ، زادت بكثير عن الملاحظات التي دونتها عن القبائل الأخرى ، وقد ذكر العلماء في مقابلها ما كان يختلف فيه أهل الحجاز عنهم ، فتجمعت لدينا بذلك ملاحظات لغوية ونحوية ميزت لهجات تميم عن لهجات (أهل الحجاز) ، وبعض القبائل الأخرى . وقد دخلت هذه الفروق في قراءة القرآن ، فقرأ بعض القراء على لغة الحجازيين ، وقرأ بعض آخر الآيات نفسها على لهجة تميم . كل قرأ على لسانه وتمسك بقراءته ، وقد ساعد ذلك عدم وجود الحركات الضابطة للحروف ، ولو كانت هناك حركات في مبدأ التدوين تضم الحرف أو تكسره أو تفتحه ، لضاق نطاق هذا الاختلاف إذ كان على الناس القراءة وفقاً للمصحف المحرك المشكل الذي اتخذ إماماً لهم ، ولكن عدم وجود مصحف إمام استعمل الشكل والإعجام ، سهّل ظهور القراءات .

والخلاف بين (أهل الحجاز) (لغة أهل الحجاز) وبين (تميم) ، هو خلاف في إطار مجموعة واحدة من القبائل ، هي مجموعة (مضر) . فالقبائل الحجازية التي ذكروها هي قبائل مضرية ، و (تميم) من قبائل مضر كذلك ،

في عرف أهل الأنساب . وكان بين أهل مكة ، أي (قريشاً) وبين (تميم) اتصال وثيق قبل الاسلام ، وكانت بينهم مصاهرة . وقد عرفت (تميم) واشتهرت بالفصاحة ، ولو أخذنا برأي أهل الأخبار ، وبما ذكروه عن فصاحة (تميم) وعن كثرة وجود الخطباء والشعراء فيهم ، وعن حكومتهم في (عكاظ) ، وبما ذكروه عن (قريش) فإننا نخرج بنتيجة هي أن (تميماً) ، كانت أكثر شهرة في بضاعة الكلام من (قريش) ، وهي نتيجة تناقض زعمهم أن قريشاً كانت أصفى العرب لغة ، وأن لسانها هو اللسان العربي الفصيح الذي نزل به القرآن ، وأنها كانت تجتبي أحسن الألفاظ وأعذبها من بين سائر لغات العرب حتى صار لسانها أفصح الألسنة ، وذلك بدليل استشهاد علماء اللغة بلغة تميم من نثر وشعر في شواهدهم وأدلتهم على قواعد اللغة ، كثرة لا تقاس بها الشواهد التي استشهد بها العلماء على ضبط اللغة والقواعد ، المنتزعة من لسان قريش .

ولو استقصينا ما دوّنه علماء اللغة عن مواطن الاختلاف بين لغات العرب ، نصل الى نتيجة أخرى ، هي ان لغات كثير من القبائل تميل الى ترجيح كفة (لغة تميم) على لغة أهل الحجاز ، ففي الفتح والكسر ، كما في (الوتَر) و (الوِتر) ، نجد الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد وقيس[1] . وقد قرأ بالقراءتين في سورة : « والفجر . وليالٍ عشرٍ . والشفع والوتر »[2] . قال (الطبري) : « واختلف القراء في قراءة قوله والوتر ، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والبصرة وبعض قراء الكوفة بكسر الواو . والصواب من القول في ذلك ، أنهما قراءتان مستفيضتان معروفتان في قراءة الأمصار ، ولغتان مشهورتان في العرب فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب »[3] . فنرى من رواية (الطبري) المذكورة أن غالبية القراء ، انما قرأت بقراءة تميم وأسد وقيس ، وان كانت القراءة الثانية التي هي بالفتح لغة مكة صحيحة .

والقبائل : (تميم) و (قيس) و (أسد) ، هي من القبائل التي أكثر علماء العربية أخذ اللغة عنها ، ونصوا على اسمها بالذات ، فقالوا : « والذين

---

١ الامالي ، للقالي (١/١٣) .
٢ سورة الفجر ، الرقم ٨٩ ، الآية ٣ .
٣ تفسير الطبري (٣٠/١١٠) .

عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] . فهي في مقدمة القبائل التي ركن اليها علماء اللغة في أخذ اللغة عنهم ، يليهم هذيل ، فكنانة ، وبعض الطائيين .

ومعنى هذا أن بناء العربية ، الذي قام به علماء اللغة ، انما أخذ معظم مادته من لغات القبائل الثلاث المذكورة ، وهي قبائل أقامت في مواضع متجاورة منذ القدم،وكانت بطونها قد توغلت في بوادي العراق في الجاهلية القريبة من الاسلام وفي الاسلام ، وفي البحرين ونجد وبعض مناطق اليمامة . فهي تكوّن جزءاً كبيراً من جزيرة العرب والعراق .

ولتجاور القبائل الثلاث المذكورة في القديم ، أثر كبير في تشابك اللغات وفي تقاربها ، لأن للجوار أثراً خطيراً في تطور اللغة ونموها . ونحن في حاجة اليوم الى وضع صورة مضبوطة لتوزع القبائل في الجاهلية في جزيرة العرب وبادية الشام على مرّ الأدوار ، لنتمكن بواسطتها من تتبع الأثر السياسي والثقافي لهذه القبائل وذلك فيما قبل الاسلام ، ومن دراسة ما ذكره علماء اللغة من فروق بين اللغات بصورة علمية دقيقة مضبوطة ، بتسجيل كل ما ذكروه واحصائه بالضبط ، ثم تطبيق ما ذكروه على مواطن هذه القبائل التي ضبطت ضبطاً صحيحاً على هذه الصورة .

ونجد في كتب اللغة والمعاجم أموراً لغوية كثيرة ، مبعثرة لم يشر اليها العلماء إلا عرضاً ، مثل قول بني أسد (ييجع) بكسر أوله ، مع عدم قولهم (يعلم) استثقالاً للكسرة على الياء وأمثال ذلك[2] ، مما يحتاج الى جمع وتصفية للوقوف على قديم اللغات .

وقد عرفت (بنو أسد) ببروزها في شقي الكلام : الشعر والنثر . « قال يونس بن حبيب : ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ،

---

١ المزهر (٢١١/١) .
٢ تاج العروس (٥٣٣/٥) ، (وجع) .

أو شديد العدو »[1] . وهي قبيلة شهيرة . أرى أنها قبيلة « Asateni » المذكورة في جغرافية (بطلميوس)، بين « Iodistae » التي تقع أرضها شمال « Asateni » ، وهي (جديس) ، وقبيلة « Mnasemanes » التي تقع منازلها في شمال غربها في خريطة بطلميوس ، وبين « Laeeni » و « Thaemae » الواقعتين الى الشرق منها ، وموضع « Baeti fl. Fontes » الواقع الى الجنوب وقبيلة « Thanuitae » التي تقع منازلها جنوبي هذا الموضع ، ثم موضع « Salma » ، وهو في الخريطة موضعان : موضع يقع شمالي « Mnasaemanes » ، وموضع يقع جنوب غربي « Baeti fl. Fontes »[2] .

وأما (هذيل) ، فمواطنهم (جبال هذيل)[3] ، وهم جيران (سعد بن بكر)[4] وجيران (كنانة)[5] ، و (هوازن) ، وهي كلها من القبائل التي أثنى العلماء على لغتها . وهذيل من قبائل مضر ، ومن القبائل التي اعرقت في الشعر[6] ، وقد استشهد العلماء بشعر شعرائها في اللغة وفي القواعد ، ومن هنا عدّت في القبائل التي أخذ علماء العربية اللغة منها . وأما (سعد بن بكر) ، و (كنانة) ، و (هوازن) فهي مثل (قريش) و (هذيل) من مجموعة (خندف) من (مضر) .

وأما (بعض الطائيين) الذين أخذ عنهم علماء العربية العربيةَ، فقد نص العلماء على أسمائهم حين استشهدوا بشعر شعرائها . وطيء ، من القبائل اليمانية في عرف النسابين . وهم من القبائل القديمة التي كان لها شأن يذكر قبل الاسلام ، بدليل أن (بني إرم) والفرس ، أطلقوا على العرب عموماً كلمة (طيايه) (طيايو) من أصل (طيء) اسم هذه القبيلة . وأن العبرانيين أطلقوا (طيعا) (ط ي ي ع ا)، (طيايا) (طياية) في مرادف (عرب) مما يدل على انها كانت أقوى قبائل العرب

---

١ البيان والتبيين (١/١٧٤) .
٢ راجع خريطة « بطلميوس » ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٣/٣٧١) .
٣ بلاد العرب ، للاصفهاني (١٤ وما بعدها ، ٢٠ وما بعدها ، ٢٣ وما بعدها ، ٢٥ وما بعدها ، ٣٢) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٣ وما بعدها) .
٥ كذلك (ص ١٩ وما بعدها ، ٢١ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٨/١٦٦) .

قبل الاسلام بزمن طويل[1] ، وربما كان هذا شأنهم قبل الميلاد .

ولا يفهم من أقوال علماء اللغة عن لغتهم ، انها كانت ذات صلة بالعربيات الجنوبية ، وأما ما ذكروه من (ذي) التي نعتوها بـ (ذي) الطائية ، فليس لها صلة بـ (ذ) الواردة في العربيات الجنوبية ، وانما هي سمة خاصة بلهجة (طيء) التي هي من العربية الشمالية ، أو من مجموعة عربية (ال) في اصطلاحي الذي أطلقته على العربية الشمالية ، لامتيازها بأداة التعريف هذه عن بقية اللهجات العربية التي استعملت أداة أخرى للتعريف . ولهذا فإن قبيلة (طيء) هي قبيلة عربية من القبائل المتكلمة بعربية (ال) ، وإن عدّ النسابون نسبها من الجنوب .

وما ذكرته من فروق واختلاف ، فإنما هو مما يتناول الاختلاف الكائن بين اللهجات العربية الشمالية ، وأكثره مما يتناول لهجات القبائل في عهد التدوين ، في الأيام التي ظهر فيها الوعي بوجوب تسجيل علوم اللغة وضبطها ، فكان أن أخذ علماء اللغة من الفصحاء وممن اشتهر بالعلم باللغة من الصحابة والتابعين ، كما أخذوا من الأعراب الذين كانوا يفدون على البصرة والكوفة ، وهم من قبائل مختلفة ، لكنهم على الأكثر من أعراب البوادي القريبة من العراق ، ومن القبائل الضاربة في البادية ، فقد ذهب قوم من علماء اللغة الى البادية معدن اللغة للأخذ من ألسنة أهلها مباشرة ، ولاستقراء لهجاتها للتوصل بذلك الى معرفة اللغة والقواعد . فكان من هذا الجمع ومن مراجعة القرآن والشعر والحديث ، هذا المدوّن في الكتب من علوم العربية . فهو كله إذن تدوين ظهر في الاسلام .

ولكننا لا نستطيع أن نتحدث عن ذهاب عـــدد كبير من العلماء الى البوادي لدراسة لهجات القبائل ، كما لا نستطيع التحدث عن الطرق والأساليب التي سلكوها في جمع اللغة وفي البحث عنها وأخذها من أفواه أصحابها ، لعدم وجـــود شيء من ذلك في الموارد الموجودة لدينا الآن . نعم لقد ذكروا أن أقدم من ذهب الى البادية : يونس بن حبيب (١٨٣ هـ) ، و (خلف الأحمر) (١٨٠) ، و(الخليل ابن أحمد) (١٧٥ هـ) ، و (أبو زيد) الأنصاري (٢١٥ هـ) ، و (الكسائي) (١٨٩ هـ) الذي ذهب الى وادي الحجاز ونجـــد وتهامة ، ورجع وقد أنفد خمس

---

١ الجزء الاول من هذا الكتاب (ص ٣١) .

عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[1] ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن بحوثهم وعن استقراءاتهم ولا عن طرقهم التي اتبعوها في بحثهم وتنقيرهم عن اللغة ، والأغلب أنها تناولت الغريب والشعر ، ثم إننا لا نستطيع التحدث عن هذه الرحلات بشيء من الاطمئنان والثقة ، لما قد يكون في كلام رواتها من المبالغة والاضافة والافتعال بسبب العصبية الى المدينة والى العلماء .

ويلاحظ ان معظم الملاحظات المدونة عن اللغات تناولت قبائل ألف علماء العربية الأخذ عنها والاستشهاد بكلامها ، وهي قبائل يرجع النسابون نسبها على طريقتهم الى (معد) ، ويظهر من ملاحظات العلماء عن لهجاتها انها كانت تتكلم بلهجات متقاربة ، ترجع الى المجموعة التي تستعمل (ال) أداة للتعريف . أما القبائل التي رجع أهل النسب نسبها الى قحطان ، والتي استشهد بشعرها فهي : الأزد ، وحمير ، وبعض طيء ، وخثعم . أما كندة ، ومنها الشاعر (امرؤ القيس) ، فلا نجد لها ذكراً في هذه اللغات ، وإن استشهد بشعر شاعرها وبشعر غيره من شعراء هذه القبيلة ، وقد أشير الى اليمن ، ولكنهم لم يذكروا قصدهم منها ، ويظهر انهم أرادوا بهم أعراب اليمن ، وهم مهاجرون في الأصل هاجروا من باطن الجزيرة الى اليمن بعد أن ضعف الحكم فيها على أثر تدخل الحبش في شؤون اليمن وتقاتل الملوك بعضهم مع بعض ، مما أفسح المجال للأعراب بدخول العربية الجنوبية ، فكوّنوا قوة خطيرة فيها ، أشير اليها في كتابات المسند بـ (واعربهم) . (واعربهمو) كما أشرت الى ذلك في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

ولا تزال بعض اللهجات باقية ، تتكلم بها القبائل على سليقتها الأولى ، وآسف لأن أقول ان علماء العربية في الوقت الحاضر ، لم يوجهوا عنايتهم نحوها لدراستها قبل انقراضها وزوالها ، مع ان دراستها من الأمور الضرورية بالنسبة لهم ، لأنها تساعد في تعيين أصول العربيات وفي تثبيت المجموعات اللغوية العربية ، وقد نستنبط منها أموراً علمية كثيرة فات على علماء العربية القدامى يومئذ تسجيلها ، لأنها لا تزال باقية ، فبواسطة الطرق الحديثة في البحث يمكن العثور على ما فات على أولئك العلماء من أمور .

---

١ الزافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

وقد لاحظ (فؤاد حمزة) ، ان أهل نجد أصرح في الوقت الحاضر لغة من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين واختلاطهم بالأجانب ، وبعد أولئك عن كل تلك العوامل . ولكن أفصح اللهجات وأقربها الى الفصحى هي اللهجات اليمانية الواقعة ما بين جنوبي الحجاز واليمن . وقد ذكر انهم يتكلمون الألفاظ من مخارجها الصحيحة ، ويتكلمون بما هو أقرب الى الفصيح من سواه . ويتكلم بعض البداة منهم بكلم معرب فصيح[1] .

ولاحظ أن لغات القبائل لا تزال مختلفة ، فمنهم من يقلب (الجيم) ياء فيقول: (المسيد) ، بدلاً من (المسجد) ، وهم قوم من اليمن والنمور في وادي محرم ، ومنهم من يقلب القاف والكاف (تس) ، فيقول (حكى) (حتسى) ، وهم من أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (تش) ، فيقول : (بكى) (بتش) ، ومنهم من يقلب (القاف) (گافاً) مفخمة ، فيقول (گال) في موضع (قال) ، وهي من لغات أهل نجد ، ومنهم من يقلب (الكاف) (سيناً) ، فيقول (عبيسي) ، في موضع (عبيكي) ومنهم من يقلب (القاف) (جيماً) ، فيقول (العجير) في موضع (العقير) ، ومنهم من يقلب (الظاء) (لاماً) ، فيقول (اللهر) في موضع (الظهر) ، ومنهم من يقلب (الضاد) (لاماً) ، فيقول (الليف) في موضع (الضيف) ، ومنهم من يجعل (الياء) بين الألف والياء ، فيقول (امطاير) في موضع (مطير)[2] .

ويلاحظ أن قبائل العراق لا تزال تستعمل مثل هذه اللجهات وغيرها ، فيستعمل بعضها حرف العين في موضع الهمزة ، فيقولون (سعال) في موضع (سؤال) وتستعمل بعض القبائل حرف (الياء) في موضع (الميم) ، فتقول (يومن) ، في موضع (مومن) ، أي (مؤمن) ، وغير ذلك ، وتستعمل بعضها الياء في موضع (الجيم) ، فتقول : (ريال) في موضع (رجّال) ، أي (رجل) .

وذكر ان أهل اليمن يستعملون (الميم) في موضع (ال) أداة التعريف ، فيقولون (أم بيت) في موضع (البيت)[3] . وقد أشير في الحديث الى هذه

---

١ قلب جزيرة العرب (٩٩) .
٢ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .
٣ قلب جزيرة العرب (١٠٠) .

اللغة ، ويظهر أنها لغة خاصة ، ربما كانت حاصل ادغام حرف الجر (من) في الكلمة التي دخلت عليها ، فـ (أم بيت) ، هي (من البيت) أو أنها لهجة من اللهجات التي تكلم بها أهل اليمن الشماليون ، جعلت (الميم) أداة للتعريف . لأننا نعلم — كما سبق أن ذكرت — أن حرف (الميم) أداة للتنكير في اللهجات العربية الجنوبية ، فيقال (بيتم) في موضع (بيت) ، وتلحق آخر الاسم . أما أداة التعريف فحرف (ن) يلحق آخر الكلمة كذلك ، ولا يدخل على أولها كما في (ال) ، يقال (بيتن) في موضع (البيت) ، و (ملكن) في مقابل (الملك) .

وذكر (فؤاد حمزة) أن قبيلة (فهم) ، وتقع منازلها اليوم بين بني ثقيف شمالاً والجحادلة غرباً ، تتكلم بعربيـة قريبة جداً من العربية الفصحى ، وهي مشهورة بالفصاحة [1] .

وفي العربية الجنوبية قبائل تتكلم اليوم بلهجات يرجع نسبها الى اللهجات العربية الجنوبية القديمة ، لأن في ألفاظها وفي تراكيب جملها ، ودراستها في هذا اليوم، ضرورة لازمة لمن يريد الوقوف على تأريخ اللغة العربية قبل الإسلام،ومن الضروري كذلك وجوب دراسة اللهجـات (الشحرية) و (المهرية) و (السواحلية) و (السقطرية) ، ولهجات السواحل الافريقية المقابلة لجزيرة العرب للوقوف على تطور اللغات العربية الجنوبية ، وعلى حل رموزها التي لا تزال مغلقة غير معروفة عند علماء هذا اليوم . لما لهذه اللهجات من صلات بالعربيات المذكورة .

وأرى من الضروري دراسة اللهجات العربية الحالية في كل مكان من أمكنـة جزيرة العرب ، ولا سيما في المواضع التي استخرج العلماء من باطنها نصوصاً مدوّنة بلهجات عربية قديمة ، مثل أعالي الحجاز لنتمكن بهذه الدراسة من حلّ معضلات تلك الكتابات ومن تكوين رأي علمي واضح عـن تطوّر تلك اللهجات فيما قبل الاسلام .

وأرى من الضروري في هذا اليوم وجوب تأليف معجم لغوي ، يضم اللهجات العربية القديمة ، أي اللهجات الجاهلية التي وردت في النصوص الجاهلية، للوقوف عليها ، ولا سيما على اللفظ الغريب منها ، ومقارنتها بالألفاظ التي ترد في اللهجات

---

١ قلب جزيرة العرب (١٧٨) .

العربية الأخرى لإحياء ما يمكن احياؤه من الميت منها ، واستعماله في هذا اليوم ، للأشياء التي قصرت العربية الفصحى عن وضع مسميات لها ،أو أن مسمياتها حوشية ، لا تنسجم مع الذوق ، وادخال الألفاظ الواردة في النصوص في المعاجم الموسعة العلمية التي تؤرخ الألفاظ ، بأن تشير الى ورودها لأول مرة في الشعر أو في النصوص الجاهلية . كما أرى من الضروري وجوب العناية بدراسة ما ذكره العلماء عن اللهجات دراسة علمية نقدية تقوم على المقابلة والمطابقة والمقارنة باللغات الأخرى مع تسجيل قواعدها حسبما أمكن .

الفصل الثامن والثلاثون بعد المئة

لغة القرآن

ولتشخيص لغة القرآن صلة كبيرة في تعيين وتثبيت المراد من العربية الفصيحة أي العربية المبينة . ولهذا فأنا مضطر الى التعرض لها ، وإن كان الموضوع بحثنا إسلامياً ، فأقول نزل القرآن منجماً (بلسان عربي مبين) . ولكن العرب كانوا ولا زالوا يتكلمون بلهجات ، فبأية لهجة من لهجاتها نزل القرآن الكريم ؟

لقد تطرق (الطبري) في مقدمة تفسيره الى هذا الموضوع بعد أن تعرض لرأي من زعم أن في القرآن كلاماً أعجمياً ، وأن فيه من كل لسان شيئاً ، فقال : « قال أبو جعفر : قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه ، على أن الله جلّ ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم ، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها . فنقول الآن : إذا كان ذلك صحيحاً في الدلالة عليه ، فبأي ألسن العرب أنزل ؟ أبألسن جميعها أم بألسن بعضها ؟ إذ كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب ، فهم مختلفو الألسن بالبيان ، متباينو المنطق والكلام . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جلّ ذكره قد أخبر عباده أنه قد جعل القرآن عربياً ، وأنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم كان ظاهره محتملاً خصوصاً وعموماً ، لم يكن السبيل الى العلم بما عنى الله تعالى ذكره من خصوصه وعمومه إلاّ ببيان من جعل اليه بيان القرآن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كان ذلك كذلك ،

وكانت الأخبار قد تظاهرت عنه، صلى الله عليه وسلم ، بما حدثنا خلاد بن أسلم، قال : حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة ، قال : لا أعلمه إلاّ عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمراء في القرآن كفرٌ ، ثلاث مرّات . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه الى عالمه »[1] .

واستمر الطبري بعد ذلك في تعداد الطرق التي ورد فيها هذا الحديث: حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ورواية بعض الأخبار الواردة في حدوث اختلاف بين الصحابة في حفظ بعض الآيات وقراءتها . ثم خلص بعد هذا السرد الى نتيجة ، هي أن القرآن « نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين أظهرهم هي ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها »[2] ، فلم يجزم بتعيين اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم .

وحديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » حديث معروف مشهور ، يرد في كتب التفاسير وفي كتب المصاحف والقراءات . ورد بطرق متعددة ، وبأوجه مختلفة . وهذه الطرق والأوجه ، وان اختلفت في سرد متن الحديث وفي ضبط عباراته ، قد اتفقت في الفكرة ، وخلاصتها نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف. ويقصدون بالحرف وجهاً من أوجه الألسنة ، أي لهجة من اللهجات[3] .

أما رجال سند هذا الحديث ، فعديدون ، وفي حال بعضهم كابن الكلبي وأبي صالح مغمز[4] . وهم جميعاً يرجعون سندهم الى جماعة من الصحابة ، هم نهاية سلسلة السند ، قالوا : إنهم سمعوا الحديث من الرسول ، ويعنون بهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان ، وابن عبّاس ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنساً ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبا بكرة ، وأبا جهم ، وأبا سعيد

---

١ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٥) .
٣ تفسير الطبري (١/٩) ، تاج العروس (٦/٦٨) ، (حرف) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٣ وما بعدها) ، الصاحبي (٥٧) .
٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الخدري ، وأبا طلحة الأنصاري ، وأبا هريرة ، وأبا أيوب ، وجملتهم واحد وعشرون صحابياً على بعض الروايات[1] .

وورد في الحديث ، حديث آخر يرجع سنده الى (ابن عباس) فيه تأييد له ، نصه أن رسول الله قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف » ، وحديث آخر ، نصه : «إن ربي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ،فرددتُ إليه : أن هوّن على أمتي ، فأرسل اليّ : أن اقرأ على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرأه على سبعة أحرف » ، وحديث ثالث نصه : « إن جبريل وميكائيل أتياني ، فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري ؛ فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ... حتى بلغ سبعة أحرف » ، « وفي حديث أبي بكرة عنه : فنظرت الى ميكائيل فسكت . فعلمت أنه قد انتهت العدة »[2] . وهناك أحاديث أخرى بهذا المعنى[3] .

ونجد في كتب التفسير والحديث والأخبار أحاديث وأقوالاً تشير الى أن بعض الصحابة كانوا يقرأون قراءات متباينة وكانوا يتعززون بقراءتهم ويتمسكون بها ، ومنهم من كان يقرأها على الرسول فلم يعترض عليها ، بل روى أنه قال : « اقرأوا كما علمتم »[4] . وروى أنه « جاء رجل الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقرأني عبدالله بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أُبيّ بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعليٌّ الى جنبه ، فقال عليّ : ليقرأ كل إنسان بما عَلِمَ كلّ حسن جميل » . ورووا على لسان عمر بن الخطاب قوله : « سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلّم . فلما سلّم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١/١٣١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٤) .
٣ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٣٢ وما بعدها) .
٤ تفسير الطبري (١/٩) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها . فانطلقت به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هـــذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . اقرأ يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منها »[1] . وكالذي ذكروه من أن رجلاً قرأ عند (عمر) فغير عليه ، « فقال : لقد قرأت عـــلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يغير عليّ . فاختصما عند النبي صلى الله عليـــه وسلم . فقال : يا رسول الله ألم تقرئني آية كذا وكذا ؟ قال : بلى .. فوقع في صدر عمر شيء . فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك في وجهه .. فضرب صدره . وقال : أبعد شيطاناً ! قالها ثلاثاً . ثم قال : يا عمر : إن القرآن كله صواب ، ما لم تجعل رحمة عذاباً ، أو عذاباً رحمة »[2] .

وروي « أن رجلين اختصما في آية من القرآن وكلّ يزعم أن النبي صلى الله عليـــه وسلم أقرأه ، فتقارأا الى أُبـيّ فخالفهما أبـيّ فتقارأوا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله اختلفنا في آية من القرآن وكلّنا يزعم أنك أقرأته ! فقال لأحدهما : اقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : أصبت . وقال للآخر : اقرأ ، فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه ، فقال : أصبت . وقال لأبـيّ : اقرأ ، فخالفهما . فقـــال : أصبت . قال أُبيّ : فدخلني من الشك في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دخل فيّ من أمر الجاهلية . قال : فعرف رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، الذي في وجهي ، فرفع يده فضرب صدري ، وقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : ففِضتُ عرقاً ، وكأني أنظر الى الله فَرَقاً ، وقال :

---

١ تفسير الطبري (١٠/١) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٥٧١/٣) ، (٥٧١/٣) ، (رقم ٨٩٦٥) .

٢ تفسير الطبري (١٠/١) .

إنه أتاني آت من ربّي ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : ربّ ، خفف عن أمتي . قال : ثم جاء ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلتُ : رب خفف عن أمتي . قال : ثم جاء الثالثة ، فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد. فقلت : رب خفف عن أمتي . قال : ثم جاءني الرابعة ، فقال إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسألة الخ »[1] .

ورُوي عن زيد بن وهب ، قال : أتيت ابن مسعود استقرئه آية من كتاب الله ، فأقرأنيها كذا وكذا . فقلت : إن عمر أقرأني كذا وكذا خلاف ما قرأها عبدالله . قال : فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى ، ثم قال : إقرأها كما أقرأك عمر ، فوالله لهي أبين من طريق السيلحين[2] .

وأورد العلماء أحاديث أخرى بهذا المعنى ، تظهر كلها وقوع الخلاف بين الصحابة في قراءة القرآن ، وعلم الرسول به ، وتجويزه لهم القراءة بقراءتهم كل إنسان بما علم[3] .

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال . جمعها القرطبي على خمسة وثلاثين قولاً[4] ، وجعلها (السيوطي) على نحو أربعين قولاً[5] ، تحدث هو وغيره عنها ، والحديث عنها في هذا الكتاب يخرجنا من حدود بحثنا المرسومة ، وهو التأريخ الجاهلي ، لذلك فسوف لا أتكلم في هذا المكان إلاّ عن الأقوال التي عينت تلك الأحرف ونصت على أسمائها بالنص والتعيين، فأقول :

قد رأينا الأحاديث المذكورة والأخبار المروية ، وهي عامة ، لم تنص على أن المراد من الأحرف السبعة حرفاً معيناً ، ولساناً خاصاً من ألسنة العرب ، غير أننا نجد أخباراً ، نصت على تلك الأحرف وعينتها وشخصتها ، إذا تتبعنا سندها

---

١ تفسير الطبري (١٤/١) .
٢ ابن سعد (٢٧٠/١) .
٣ تفسير الطبري (٩/١ وما بعدها) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٥٥ وما بعدها) .
٤ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٤ وما بعدها) ، السيوطي ، الاتقان (١٣٨/١) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١٣١/١) .

ورجالها نجدها تنتهي بـ (ابن عباس) . وأكثر القائلين بها هم من علماء العربية مثل (أبو عبيد) و (أبو عمرو بن العلاء) وثعلب ، والأزهري ، وسند هذه الأخبار (الكلبي) عن (أبـي صالح) عن (ابن عباس) ، أو عن (قتادة) عن ابن عباس ، وأمثال ذلك من طرق . فقد ورد عن (ابن عباس) قوله : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، قال أبو عبيد : والعجز ، هم بنو سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية، وثقيف، وهؤلاء كلهم من هوازن . ويقال لهم : عليا هوازن . ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ، يعني بني دارم[1] ، « وأخرج أبو عبيد من وجه آخر ، عن ابن عباس ، قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خُزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة ، يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش ، فسهلت عليهم لغتهم »[2] .

« وقال أبو حاتم السجستاني : نزل بلغة قريش وهُذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر»[3] . وذكر بعض آخر أنه نزل بلغة قريش، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن[4] وسعد بن بكر، هم من عليا هوازن[5] . ومعنى هـذا أنه نزل بلغات عدنانية ولغات قحطانية ، أي بجميع ألسن العرب .

وقد تعرض (الطبري) للأقوال المذكورة ، فقال : « وروى جميع ذلك عن ابن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقلـه ، وذلك أن الذي روي عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن : الكلبي عن أبـي صالح ، وأن الذي روي عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة : قتادة، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه »[6] . وقـد ضعف (ابن الكلبي) ، ورفض علماء

---

١ تفسير الطبري (١/٢٣) ، ابن كثير ، فضائل القرآن (٦٧) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) ، الصاحبي (٥٧) .
٢ تفسير الطبري (١/٢٣) ، السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٣ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٣) .
٥ المزهر (١/٢١٠ وما بعدها) .
٦ تفسير الطبري (١/٢٣) .

الفقه والحديث الأخـذ عنه[1] .. وضعف (أبو صالح) كذلك واتهم بالكذب : « قال ابن معين : إذا روى عنه الكلبي فليس بشيء[2] » .

وأما (قتادة) ، فذكر (الطبري) عنه أنه لم يلق (ابن عباس) ، ولم يسمع منه[3] فحديثه عن ابن عباس إذن مما لا يجوز الأخذ به . فروايته : « نزل القرآن بلسان قريش ولسان خزاعة » ، رواية لا يعتمد عليها لهذا السبب . ولقتادة رواية أخرى بهذا المعنى نسبها الى (أبي الأسود الدؤلي) ، زعم أنه قال : « نزل القرآن بلسان الكعبين : كعب بن عمرو ، وكعب بن لُؤي » . وقد علق (خالد ابن سلمة) على هذا الكلام فقال : « ألا تعجب من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نزل بلسان الكعبين؟وإنما نزل بلسان قريش » . قال مخاطباً به (سعد بن ابراهيم)[4]. وقد رمي قتادة بالتدليس[5] .

وينتهي سند هذا الحديث: « أنزل القرآن على سبعة أحرف » الى (أبي هريرة)[6]، وقد كثر القول عن أبي هريرة ، وأكـثر (أبو هريرة) الحديث عن رسول الله ، حتى قال الناس أكثر أبو هريرة الحديث عن رسول الله ، وكان يقـول لهم : « اني كنت امرءاً مسكيناً ، أصحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم على ملء بطني . وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام عـلى أموالهم » ، وذكر أن مسند « تقي بن مخلد ، احتوى من حديث أبي هريرة على خمسة آلاف وثلثمائة حديث وكسر »[7] ؛ وقد يكون بعض مـا أسند اليه مما أكثر عليه ، أكثره عليه من جاء بعده ، ثم إن علينا نقد حديثه ، فليس هو بمشرع ولا معصوم ، حتى نقبل منه كل ما روي عنـه[8] . بل روي أن (عمر بن الخطاب) قال له : « أكثرت يا أبا هريرة من الرواية ، وأحر

---

١ ميزان الاعتدال (٣/٢٥٦) ، لسان الميزان (٦/١٩٦) .

٢ ميزان الاعتدال (١/١٣٧ وما بعدها) .

٣ وقد تحدثت عنه بالمناسبة في بحث « موارد تأريخ الطبري » المنشور في مجلدات مجلة المجمع العلمي العراقي ، تفسير الطبري (١/٢٣) .

٤ تفسير الطبري (١/٢٣) .

٥ ميزان الاعتدال (٢/٣٤٥) .

٦ تفسير الطبري (١/٩ وما بعدها) .

٧ الاصابة (٤/٢٠٢) ، (رقم ١١٩٠) .

٨ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ، وكتابه شيخ المضيرة .

بك أن تكون كاذباً على رسول الله . ثم هدده وأوعده إن لم يترك الحديث عن رسول الله فإنه ينفيه الى بلاده .

وقد أخرج ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد : لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس »[1] .

وهناك رأي ثالث يقول إنه نزل بلغة مضر ، لقول (عمر) : نزل القرآن بلغة مضر وعيّن بعضُهم – فيما حكاه – ابن عبد البرّ السبع من مضر ، أنهم هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبّة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش. فهذه قبائل مضر ، تستوعب سبع لغات »[2] . وذكر أن (عمر) لما أراد « أن يكتب الإمام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[3] . ولما كانت القبائل المذكورة من مجموعة (مضر) ، تكون لغة القرآن ، وفقاً لهذا الرأي لغة مضر ، لا لغة قريش ، وروي عن (عبدالله بن مسعود) ، أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر[4] .

وعندنا أخبار أخرى تفيد أن القرآن إنما أنزل بلغة قريش . من ذلك ما روي من قول عمر : « لا يملينّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[5] وفسروا ذلك بأنـه يعني أن القرآن إنما نزل بلغة قريش . وما روي من قول (عثمان) للرهط القرشيين الذين أوكل اليهم جمع القرآن وكتابته : « إذا اختلفتم أنتم وزيـد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم . ففعلوا »[6] ، ومـا روي عنه أيضاً ، من أنه لما استفتي في اختلاف

---

١ أضواء على السنة المحمدية (٢٠٠ وما بعدها) .

٢ السيوطي ، الاتقان (١٣٦/١) .

٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .

٤ الصاحبي (٥٧) .

٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمـان قريش وثقيف » ، الصاحبي (٥٧ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (١١) ، السيوطي ، اتقان (٥٩/١) .

٦ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣١) ، (اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فان القرآن أنزل بلسانهم » ، المصاحف (٢٠) .

(زيد) مع الرهط في كتابة (التابوت) أيكتبونه بالتاء أو الهاء ، وقال الثلاثة القرشيون إنما هو التابوت ، وقال زيد إنما هو التابوه ، قال : « اكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم »[1] ، وما روي عنه أيضاً من قوله للرهط الذين أمرهم بكتابة القرآن : « إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ففعلوا »[2] .

واستنكر (ابن قتيبة) قول من قال إن القرآن نزل بلغات أخرى ، فقال : « لم ينزل القرآن إلاّ بلغة قريش » ، واحتج بالآية : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه »[3] . واحتج آخرون بقول (عمر) لعبدالله بن مسعود : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش »[4] .

وروي في (البخاري) ، أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب . وقريش خلاصة العرب[5] . وذكر بعض العلماء أنه نزل « بلغة الحجازيين إلاّ قليلاً ، فإنه نزل بلغة التميميين كالإدغام في : ومن يشاقّ الله ، وفي : ومن يرتد منكم عن دينه ؛ فإن ادغام المجزوم لغة تميم،ولهذا قل ، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر »[6].

وذكر بعض العلماء « إن في القرآن من أربعين لغة عربيسة وهي : قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمن ، وأزد شنوءة ، وكندة ، وتميم ، وحمير ، ومدين ، ولخم ، وسعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومذحج ، وخُزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطيء ، وعامر ابن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبليّ ، وعذرة ، وهوازن ، والنمر ، واليمامة[7] .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٣٥) ، تفسير النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/٢٤) ، (حاشية على تفسير الطبري) .
٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (١٩) ، ارشاد الساري (٨/٦ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .
٤ الفائق (٢/١١٣) .
٥ ابن كثير ، فضائل القرآن (١/١٩ وما بعدها) .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٣) .
٧ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٧٤) ، السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٢) ، الصاحبي (٥٨ وما بعدها) .

وذكروا أن مما وقع في القرآن من غير العربية : الفرس ، والروم ، والنبط ، والحبشة ، والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، والقبط[1] .

وقال بعض العلماء : « انزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الإنتقال عن لغته الى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحميّة ، ولطلب تسهيل فهم المراد »[2].

وذهب (الباقلاني) الى أن « معنى قول عثمان إنه نزل بلسان قريش ، أي معظمه ، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله ، قال الله تعالى : قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً ، قال : واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً يعني حجازها ويمنها ، وكذا قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، قال : لأن لغة غير قريش موجودة في صحيح القراءات كتحقيق الهمزات فإن قريشاً لا تهمز ، وقال ابن عطية : قال ابن عباس : ما كنت أدري معنى فاطر السماوات والأرض ، حتى سمعت أعرابياً يقول لبئر ابتدأ حفرها : أنا فطرتها »[3] .

وسند القائلين : ان القرآن نزل بلسان قريش ، كون الرسول من مكة ، ومكة موطن قريش . فلا بد من نزول كتاب الله بلسانهم ، ليكون حجة عليهم واعجازاً لفصحائهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[4] ، فعلى هذا تكون لغة القرآن لغة قريش[5] ، ولما جاء في الأخبار التي رويت عن (عمر) و (عثمان) من أنه نزل بلسان قريش .

ومن حججهم أيضاً ما رووه عن (أبي عبيد الله) من قوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . وذلك أن الله — جل ثناؤه — اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . فكانت وفود العرب من

---

١ السيوطي ، الاتقان (١/١٠٢) ، الصاحبي (٦١) .
٢ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٦) .
٣ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
٤ سورة ابراهيم ، الآية ٤ .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٣٥) .

حجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلّمهم مناسكهم وتحكم بينهم. ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتسميها أهل الله، لأنهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام، ولم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله جـل ثناؤه، لهم وتشريفاً، إذ جعلهم رهط نبيّه الأدنين وعترته الصالحين. وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقـة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغـات الى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفيـة قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس »[1].

وروي عن (قتادة) قوله : « كانت قريش تجتبي، أي تختـار، أفضل لغات العرب، حتى صار أفضل لغاتهم لغتهم، فنزل القرآن بها »[2].

ثم إنها كانت بعيدة عن الأعاجم، فصان بعدهـا عنهم لسانها عن الفساد، وحفظها من التأثر بأساليب العجم، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية[3].

ولكننا نجد خـبراً يذكر أن (عثمان) قال للرهط الذين أمرهم بجمع القرآن وكتابته : « اجعلوا المملي من هذيل، والكاتب من ثقيف »[4]، وليست هذيل ولا ثقيف من قريش. ونجد خبراً آخر يذكر أنه كانت غمغمة في لغة قريش، والغمغمة من اللغات الرديئة التي أخذها علماء اللغة على اللغات العربية الأخرى[5]، فكيف تتفق الغمغمة مع ما ذكروه من صفاء ونقاء وسهولة وبيان لغـة قريش ! ثم نجد خبراً يذكر أن الخليفة (أبو بكر)، لما همّ بجمع القرآن، بعد إلحاح

---

١ الصاحبي (٥٢ وما بعدها)، (باب القول في أفصح العرب)، المزهر (١/ ٢١٠)، غريب القرآن (١/ ١٠) .

٢ اللسان (٢/ ٧٧)، (١/ ٥٨٨)، (صادر)، (عرب) .

٣ مقدمة ابن خلدون، الفصل الثامن والثلاثون من القسم السادس، الهلال، السنة ٢٦، (اكتوبر ١٩١٧ م)، (١/ ٤٣) .

٤ الصاحبي (٥٨) .

٥ تاج العروس (٩/ ٦)، (غمم) .

(عمر) عليه بذلك، « أجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش ، وخمسين رجلا من الأنصار ، وقال : اكتبوا القرآن ، واعرضوا على سعيد بن العاص ، فإنه رجل فصيح »[1] ، ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش ، لما اختار هذا العدد الكثير من الأنصار ، وهم من غير قريش،ومن منافسي مكة في الجاهلية والاسلام، إن صح هذا الخبر ، الذي أشك في صحته .

ثم نجد خبراً آخر يناقض الخبر المتقدم،يقول : « لما كُتبت المصاحف عُرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ؛ فإن العرب ستغيرها – أو قال ستعربها – بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل ، لم توجد فيه هذه الحروف »[2] . وهو خبر أشك في صحته ، وللعلماء فيه آراء .

وأما ما قالوه من اختلاف (زيد) مع النفر القرشيين الذين أشركوا معه في جمع القرآن من كتابة (التابوت) بالتاء أو بالهاء ، وكان من رأيه كتابتها (التابوه) ، ومن رأي (عثمان) (التابوت)[3] ، فقد ذكر العلماء أن (التابوه) لغة في التابوت أنصارية[4] . واللفظة هي من المعربات،أخذها الأنصار من العبرانية، فهي عندهم (ت ب ه) (ط ب ه) « Tebh » « Teba » بمعنى صندوق[5] . وقد كتبت في القرآن بالتاء . وقد وردت اللفظة في سورة (طه) ، وهي مكية[6] ، ووردت في سورة البقرة وهي مدنية[7] .

وأقرب الأقوال المذكورة الى المنطق ، هو قول من قال إنه نزل بلسان عربي وكفى . فاسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً ، يعني حجازها وعمنها وكل مكان آخر من جزيرة العرب[8] ، ثم ما بالنا نفسر ونؤول ، ونلف وندور في تفسير : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وهو حديث ، روي بروايات

---

١ اليعقوبي (١/١٢٥) ، (خلافة أبي بكر) .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٣ الزينة (١/١٤٦) .
٤ تاج العروس (١/٥٣٢) ، (تبت) .
٥ غرائب اللغة (٢١١) .
٦ السورة رقم ٢٠ ، الآية ٣٩ .
٧ السورة رقم ٢ ، الآية ٢٤٨ .
٨ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

تحتاج الى نقد ، وفيها ضعف ، وأخبار ضعيفة ، لا تقف على قدميها ، ثم نترك كتاب الله القائل : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »[1] ، و « هذا لسان عربي مبين »[2] و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[3] ، و « كذلك أنزلناه حكماً عربياً »[4] ، و « كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد »[5] ، و « قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون »[6] ، و « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[7] ، و « كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً »[8] ، و « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[9] ، « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا »[10] ، ولم يقل قرشياً[11] ، ولو نزل بلغة قريش لما سكت الله تعالى عن ذلك ، لما في التنويه بلسانهم إن كان أفصح ألسنة العرب من حجة على العرب في فصاحته وبيانه وكونه معجزة بالنسبة لقريش ، أفصح الناس وألسنهم ، وليس بكلام العرب عامة الذين هم على حدّ قول أهل الأخبار دون قريش في اللغة والكلام .

وما آية : « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبين لهم »[12] ، إلا دليلاً وحجة على نزول القرآن بلسان العرب ، لا بلسان قريش ، أو بلسان قبيلة معينة ، أو قبائل خاصة . فالآية تقول : « ما أرسلنا الى أمة من الأمم يا محمد من قبلك ومن قبل قومك رسولاً إلا بلسان الأمة التي أرسلناه اليه ولغتهم ، ليبين لهم . يقول : ليفهمهم ما أرسله الله اليهم من أمره ونهيه وليثبت حجة الله عليهم

١ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٣ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .
٤ الرعد ، الرقم ١٣ ، الاية ٣٧ .
٥ طه ، الرقم ٢٠ ، الاية ١١٣ .
٦ الزمر ، الاية ٢٨ .
٧ فصلت ، الرقم ٤١ ، الاية ٣ .
٨ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الاية ٧ .
٩ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣ .
١٠ الاحقاف ، الرقم ٤٦ ، الاية ١٢ .
١١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .
١٢ سورة ابراهيم ، الاية ٤ .

ثم التوفيق والخذلان بيد الله »[1] . ولما كان النبي عربياً ، وقد نعت في القرآن بأنه « النبي الأمي »[2] ، الذي أرسله الله الى الأميين ، « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم »[3] ، والأميون هم العرب ، العرب كلهم ، ولما كان الله قد أرسله الى قومه العرب ، وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم ، بلسان طائفة منهم ، يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم نفسه من أنه نزل بلسان عربي مبين . « قال الأزهري : وجعل الله ، عز وجل ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها ، العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنه من صريح العرب »[4] . وقال (ابن خلدون) : « إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه »[5] . وقال (الطبري) في تفسيره للآية : « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[6] ، « يقول تعالى ذكره : انا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآناً عربياً على العرب ، لأن لسانهم وكلامهم عربي ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه . وذلك قوله عزّ وجلّ لعلكم تعقلون »[7] .

« قال ابن أبي داود في المصاحف : حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز : أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن[8] . ونعت أنه كان أحد أشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة » وفي هذه الاشارة دلالة على أن لهجة الرسول ، لم تكن لهجة عامة قريش ، وإنما كانت بالعربية التي نزل بها القرآن ، ولهذا نص على أن لهجة (سعيد) كانت

---

١ تفسير الطبري (١٢١/١٣) .
٢ الأعراف ، الآية ١٥٧ وما بعدها .
٣ الجمعة ، الرقم ٦٢ ، الآية ٢ .
٤ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) .
٥ المقدمة (٣٦٧) ، (١٩٣٠ م) .
٦ سورة يوسف ، الآية ٢ .
٧ تفسير الطبري (٨٩/١٢) .
٨ الاصابة (٤٥/٢) ، (رقم ٣٢٦٨) .

مشابهة للهجة الرسول ، وكان من أفصح رجال قريش ، ولو كانت عربية القرآن عربية قريش ، لما كان هنالك معنى لقولهم : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ، إذ لو كانت عربية القرآن عربية قريش ، لنص عليها ، ثم لكان في وسع أي رجل كاتب من قريش ، تدوينه ، لفصاحة قريش ، ولكن سعيداً كان من فصحاء قريش ، لأنه كان يتكلم بعربية فصيحة ، هي العربية التي نزل بها القرآن ، والتي عرف فصحاء قريش فصاحتها، فاعترفوا لذلك بنزوله بأفصح لغة وأبين بيان .

وقد ذهب (نولدكه) الى أن القول بنزول القرآن بلسان قريش ، إنما ظهر في العصر الأموي ، لإظهار عصبيته منها على الأنصار . ونظراً لكون القرآن كتاب الله فلادعاء نزوله بلغة قريش أهمية كبيرة بالنسبة لهم ، ولتأييد سياستهم المناهضة للأنصار وللقحطانيين[1] .

ويلفت حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » النظر إليه حقاً ، فقد حصر القراءات في (سبعة أحرف) . والأحرف الألسنة ، مع أن العلماء يذكرون أن في القرآن من كل لغة ، وأن فيه خمسين لغة[2] . فإذا كان فيه هذا العدد أو نحوه ، فما بال هذا الحديث يحصرها في سبعة فقط لا تزيد ولا تنقص وهي أحرف ثبتها العلماء ونصوا على أسمائها نصاً . هل أخذوا هذا الحديث من (السبع المثاني) في القرآن الكريم ، من قوله : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم »[3]. أو أخذوه من عدد سبعة الذي يرد في مواضع عديدة من القرآن الكريم ؟ مثل سبع سماوات[4] ، وسبع سنابل[5] ، وسبع سنبلات[6] ، وسبع بقرات[7] ، وسبع سنين[8] ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٧) .

٢ « وقال أبو بكر الواسطي في كتابه : الارشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة : لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ... الخ » ، السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٢) .

٣ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٧ ، تفسير الطبري (١٤/٣٥ وما بعدها) .

٤ البقرة ، الآية ٢٩ .

٥ البقرة ، الآية ٢٦١ .

٦ يوسف ، الآية ٤٣ .

٧ يوسف ، الآية ٤٣ .

٨ يوسف ، الآية ٤٧ .

وسبع شداد[1] ، والسماوات السبع[2] ، وسبع ليـــال[3] ، وسبعاً شداداً[4] ، وسبعة أبواب[5] ، وسبعـــة أبحر[6] ، والعدد سبعة هو عدد الأيام التي أتم الله فيها الخلق كله ، وعدد أيام الاسبوع ، ونحو ذلك . والعدد سبعة عدد لعب دوراً خطيراً عند الشعوب القديمة ، فالأرض سبع طبقات ، والسموات سبع طبـــاق ، وأنغام الموسيقى سبعة ، والعدد سبعة عدد مقدس ، لعب دوراً في الرياضيات القديمة وفي نظريات (فيثاغورس) ، وعيون الشعر الجاهلي هي سبعة ، هي القصائـــد السبع الطوال ، أو المعلقات السبع ، فهل اقتصر الحديث على هذا العدد لسبب من هذه الأسباب أو ما شابهها ، من أسباب ؟

وقد ذهب بعض العلماء الى أن العدد سبعة لا يمثل حقيقة العـــدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة . ولفظ (السبعة) يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين ، ولا يراد العدد المعين . ويرده ما في كتب الحديث والأخبار من النص على العدد سبعة بصورة لا تقبـــل الشك في أن المراد منه حقيقـــة العدد وانحصاره ، ثم تعيين هذه الكتب اللهجات السبـــع بالأسماء[7] ، وقد ألف (الصفدي) كتاباً في عدد السبعة ، سماه (عين النبع على طرد السبع » قال فيه إن السبعة جمعت العدد كله ، وهذا العدد يمثـل الكمال ، فأنا لا استبعد أن يكون هذا الحديث قد جاء من هذه الفكرة[8] .

القراءات السبع :

ومن الأحرف السبعة ظهرت نظرية القراءات السبع ، القراءات المعتبرة المعتمدة عند القراء ، وهي ترجع الى أئمة ارتبطت القراءات بأسمائهم ، وعليها يقتصر في

---

١ يوسف ، الآية ٤٨ .
٢ الاسراء ، الآية ٤٤ ، المؤمنون الآية ٨٦ ، فصلت ، الآية ١٢ ، الملك ، الآية ٣ ، نوح ، الآية ١٥ .
٣ الحاقة ، الآية ٧ .
٤ النبأ ، الآية ١٢ .
٥ الحجر ، الآية ٤٤ .
٦ لقمان ، الآية ٢٧ .
٧ السيوطي ، الاتقان (١٣١/١ وما بعدها) .
٨ الرافعي (٥٤/٢) .

القراءات . وهي نتيجة تطور سابق لقرّاء سبقوا هؤلاء الأئمة الذين اعتمد عليهم في القراءات [1] ، وعلى قراءاتهم يقرأ من يستحق لقب (مقرىء) أو (قارىء) [2] ، وإن كانت هنالك روايات تزيد بعض الزيادات على هذه القراءات .

ولأجل تكوين فكرة علمية صحيحة عن هذه الأخبار وعن درجة سعة هذا الاختلاف ومقدارها وما يجب أن يقال فيها ، لا بد من نقد كل ما ورد في هذا الباب من حديث وروايات ، وغربلته غربلة دقيقة . وتكون أول هذه الغربلة في نظري بنقد سلسلة رجال السند ، أي الرواة ، لمعرفة الروابط التي كانت تربط بينهم وصلة بعضهم ببعض وملاقاتهم ، وما قيل وورد فيهم ؛ إذ نسبت أحاديث الى أشخاص قيل إنهم رووها عن أناس ثقات ، ثبت من النقد أن بعض رجال السند لم يلتقوا في حياتهم بمن حدثوا عنهم كما في حديث قتادة عن ابن عباس ، أو أنهم رووا ما رووه تسرعاً وبدون سند أو إجازة لمجرد سماعهم برواية أولئك الأشخاص لتلك الروايات [3] .

ثم إن هذا النقد لا يكفي وحده ، بل لا بد من نقد متن الحديث من حيث لغته وأسلوبه ومضمونه وروحه ، ومن حيث انطباق بعض الروايات على جوهر القرآن الكريم وما عرف عن الرسول . فبهذا النقد للمتن ، نتمكن من الحكم على إمكان صدور الحديث عن الرسول أو عدمه .

وبعد كلّ ما تقدم ، علينا حصر أمثلة الاختلاف التي ذكرها العلماء ، وضبط كل ما ورد في الأخبار من هذا القبيل ، لنتمكن من الحكم على مقدار ما اختلف فيه وسعته ودرجة موافقته لما جاء في ذلك الحديث وفي تلك الأخبار ، ثم دراسة هذه الكلمات التي قيل انها تمثل لهجات قبائل وانها حرف من هذه الأحرف السبعة المذكورة في الحديث .

لقد لخص (ابن قتيبة) الأحرف السبعة بالأوجه التي يقع بها التغاير :

فأولها : ما تتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته ، مثل : ولا يضار كاتبٌ بفتح الراء وضمها .

---

١ ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله (١٢١) ، النشر (٣١/١ وما بعدها) .
٢ كولدزيهر ، المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن (٣٧) .
٣ تفسير الطبري (٢٣/١) ، (٧٢/٢٥) ، المذاهب الاسلامية (٨١ وما بعدها) .

وثانيها : ما يتغير بالفعل مثل بَعِّدْ وباعد ، بلفظ الطلب والماضي .

وثالثها : ما يتغير باللفظ مثل : نُنشزها ونُنْشرها بالراء المهملة .

رابعها : ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل طلح منضود وطلع منضود .

خامسها : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل: وجاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت سكرة الحق بالموت .

وسادسها : ما يتغير بالزيادة والنقصان ، مثل : وما خلق الذكر والأنثى ، والذكر والأنثى ، بنقص لفظ ما خلق .

سابعها : ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كالعهن المنفوش، وكالصوف المنفوش[1].

وأجمل (ابن الجزري) الأوجه السبعة بـ :

١ — وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو : البخل بأربعة أوجه ، ويحسب بوجهين .

٢ — أو بتغير في المعنى فقط نحو : فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ ، برفع آدم ونصب لفظ كلمات وبالعكس .

٣ — واما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو : تبلو ، وتتلو .

٤ — وعكس ذلك ، نحو بصطة وبسطة ، ونحو الصراط والسراط .

٥ — أو بتغيرهما نحو فامضوا ، فاسعوا .

٦ — وإما في التقديم والتأخير ، نحو فيقتلون ، ويقتلون ، بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل في إحدى الكلمتين، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول في الكلمة الأخرى .

٧ — أو في الزيادة والنقصان .

وقد أوجز (أبو الفضل) الرازي ، الحروف السبعة في :

١ — اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث . مثل : والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، قرىء هكذا جمعاً ، وقرىء لأمانتهم بالإفراد .

---

١ الزرقاني ، مناهل (١٥٢) .

٢ ـ اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ، ومضارع ، وأمر . مثل: فقالوا : ربَّنا باعد بين أسفارنا ، قرىء هكذا بنصب لفظ ربنا على أنه منادى ، وبلفظ باعد فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء . وقرىء هكذا: ربُّنا بعَّد برفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ بعَّد ، فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر .

٣ ـ اختلاف وجوه الإعراب . مثل : ولا يُضارَّ كاتب ولا شهيدٌ . قرىء بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن لا ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة في الراء هي إدغام المثلين . أما الضمّ فعلى أنّ لا نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

٤ ـ الاختلاف بالنقص والزيادة . مثل : وما خلقَ الذكَرَ والأنثى ، قرىء بهذا اللفظ . وقرىء أيضاً والذكَرِ والأنثى ، بنقص كلمة ما خلق .

٥ ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير . مثل : وجاءت سكرة الموت بالحق ، وقرىء : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ ـ الاختلاف بالإبدال . مثل : وانظر الى العظام كيف ننشزها ، بالزاي، وقرىء ننشرها بالراء . ومثل : وطلح منضود ، بالحاء ، وقرىء طلع بالعين . فلا فرق في هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

٧ ـ اختلاف اللغات ، أي اللهجات ، كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم، والإظهار ، والإدغام ونحو ذلك[1] .

ونحن إذا تعمقنا في درس مواضع الاختلاف ، وهي أهم ما يتصل بلهجة القرآن الكريم ، وسجلناها تسجيلاً دقيقاً شاملاً ، نجد أنها ليست في الواقع اختلافاً في أمور جوهرية تتعلق بالوحي ذاته ، وإنما هي في الغالب مسائل ظهرت بعد نزول الوحي من خاصية القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز بين الحروف المتشابهة هو النقط ، وقد ظهر النقط بعد نزول الوحي بأمد كما يقول العلماء ، ثم إنّ هذا القلم كان خالياً في بادىء

---

١ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٤٨ وما بعدها) .

أمره من الحركات ، وخلوّ الكلم من الحركات يحدث مشكلات عديدة في الضبط من حيث إخراج الكلمة ، أي كيفية النطق بهـا ، ومن حيث مواقع الكلم من الإعراب[1] .

كل هذه الأمور وأمور أخرى تعرض لها العلماء ، أحدثت في الغـالب القسم الأعظم مما يعدّ اختلافاً في القراءات .

ويعود القسم الباقي من مواضع الاختلاف الى سبب أراه لا يتعلق أيضـاً بمتن النص ، وإنما هو ، كما يتبين من الإمعان في دراسته ومن تحليل الآيات المختلف فيها ، زيادات وتعليقات من ذهن الحفّاظ والكتّاب على ما أتصور ،لعدم وضوح المعنى لديهم ، لعلها كانت تفسيراً أو شرحاً لبعض الكلم دوّنت مـع الأصل ، فظنت فيما بعد من الأصل . واثبات التفسير مع المتن ، جائز على بعض الروايات[2].

ويعـود قسم آخر منه الى استعمال كلمات قد تكون مخالفة لكلمة من حيث شكلها ، ولكنها متفقة معها في معناها ، والى استعمال كلمات متباينـة في الشكل وفي المعنى . وهذا القسم هو ، ولا شك ، أهم أقسام الاختلاف ، واليـه يجب أن توجه الدراسة .

هذه الأمور المذكورة ، تحصر جميع ما ورد من اختلاف في كلمات أو آيات من القرآن الكريم . أما ما ذكره العلماء من الأوجه التفسيرية للحـديث : حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف ، ومن جعلها خمسة وثلاثين وجهاً أو سبعة أوجـه أو أقل من ذلك أو أكـثر[3] ، فإنها تفاسير متأخرة ، وأوجه نظر قيلت لإيجاد مخارج مسوّغة لتفسير هذا الحديث .

ويصعب في هذا الموضع ذكر أمثلة لهذه الأمور ، فهي عديدة كثيرة، ذكرت في كتب المصاحف وفي كتب التفسير ، وأورد شواهـد منها (كولد تزيهر) في كتابه عن (المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن)، يمكن الاطلاع عليها في الصورة

---

١ الهمداني ، الاكليل (٨/١٢٢) ، المذاهب الاسلامية (٤ وما بعدها) .

٢ « جواز اثبات بعض التفسـير على المصحف ، وان لم يعتقده قرآنا » ، المذاهب الاسلامية (١١ وما بعدها) ، الزرقاني على الموطأ (١/٢٥٥) .

٣ النشر (١/٢١ وما بعدها) ، السيوطي ، اتقان (١/٧٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١/١٦) .

العربية له المطبوعة بمصر[1] . فمن أمثلة الاختلاف الحادث من الخط (تستكبرون) بالباء الموحدة و (تستكثرون) بالثاء المثلثة في الآية : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم ما كنتم تستكبرون»[2]. و (بشراً) أو (نشراً) في الآيـة : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته »[3] . وكلمة (إياه) في الآية : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » ، إذ وردت أيضاً (أباه) بالباء الموحدة[4] . وأمثال ذلك مما كان سببه النقط .

وبعد ملاحظة ما تقدم ، وحصر كل ما ورد في المصاحف وما قرأه القراء من قراءات ، نجد أن ما يختص منه باللهجات وباللغات قليل يمكن تعيينه، ومعظمه مترادفات في مثل : أرشدنا واهدنا ، والعهن والصوف ، وزقية وصيحة ، وهلم وتعال وأقبل ، وعجل وأسرع[5] ، والظالم والفاجر ، وعتى وحتى[6] ، وأمثال ذلك . وهذه الأمثلة هي كلمات مختلفة لفظاً ، ولكنها في معنى واحد . وهي كما ترى مفردات لا دخل لها في قواعد اللهجات .

وأما الاختلاف في الاظهار ، والإدغام ، والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق ، والمد ، والقصر ، والإمالة ، والفتح ، والتحقيق ، والتسهيل ، والإبدال . فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ؛ لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً[7] ، وليس هو من قبيل الإختلاف المؤثر في قواعد اللهجة ، إنما هو اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج حروف الكلمات، فلا يصح أن يعد فارقاً كبيراً يمكن أن يكون حداً يفصل بين اللهجات، بحيث يصيرها لغة من اللغات، ثم إن بعضه يعود الى الخط ، وبعضه الى التجويد،

---

١ (القاهرة ١٩٤٤ م) ، (علي حسن عبدالقادر) .
٢ الأعراف ، آية ٤٨ .
٣ الأعراف ، آية ٥٧ .
٤ التوبة ، آية ١١٤ .
٥ النشر (١/٢٩ وما بعدها) ، القرطبي (١/١٦) ، السيوطي ، اتقان (١/٧٩ وما بعدها) .
٦ مباني (٩) ، Noldeke, Geschichte, I, 51.
٧ النشر (١/٢٦ وما بعدها) .

أي طريقة التلاوة والأداء[1] .

وللحكم على أصل المترادفات ، تجب مراجعة سلسلة السند للوصول الى صحة تسلسل الأخبار من جهة ، والى معرفة راوي الخبر والقبيلة التي هو منهـا لمعرفة القراءة التي قرأها ، وهل هي من لهجة قبيلته ، أم هي مجرد كلمة من اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم نفسها ، تلقّاها القارىء عـلى الشكل الذي رواها في قراءته .

لقد أشار العلماء الى أمثلـة من كلمات غير قرشية وردت في القرآن الكريم ، ذكروا أنها من لهجات أخرى ، ومنها : الأرائك ، ولا وَزَرَ ، و (حور) ، وأمثال ذلك رجع بعضهم أصولها الى خمسين لهجة من لهجات القبائل ، كما أشاروا الى وجود كلمات معربـة أخذت من لغات أعجمية مثل الرومية ، والفارسية ، والنبطية ، والحبشية ، والسريانية ، والعبرانية وأمثـال ذلك[2] ، وألّفوا في ذلك كتباً ، منها : كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٣ هـ) (٨٣٨ م) ، واسمه : « رسالة في مـا ورد في القرآن من لغات القبائل »[3] ، وكتاب لغات القرآن ، لأبي زيد الأنصاري المتوفى سنة (٢١٤ هـ) (٨٢٩ م)[4] ، وغيرهما . ولكن بحوث هؤلاء العلماء انحصرت في دراسة المفردات ، أي الكلمات لا غير . ثم إن الذين تناولوها لم يكن لهم علم بأكثر اللغات التي رجعوا أصولها اليها ، ولا سيما اللغات الأعجمية مثل الرومية ، والسريانية ، والنبطية، والحبشية . غير أن من الجائز أن يكون هؤلاء قد سمعوا عنها من الأعاجم الذين دخلـوا في الاسلام . ولكن طريقة السماع هذه لا تكفي لإعطاء حكم على أصل لغة ، بـل لا بد من وجود عـلم ومعرفة بقواعد تلك اللغة وتأريخها وتطورها ، والإحاطة بالعلاقات التأريخية بين العرب وغيرهم قبل الإسلام لمعرفة كيفية دخول تلك الكلمات الى العرب ، وإيجاد وجـه صحيح للمقارنة بين اللغتين . وهذا ما لم يحدث في تلك الأيام .

---

١ راجع بعض الامثلة في (ص ٧) من كتاب المصاحف : للسجستاني « تحقيق آرثر جفري » ، (القاهرة ١٩٣٦ م) .

٢ السيوطي ، اتقان (٢٢٩/١ وما بعدها) .

٣ طبع مع كتاب الديريني المسمى (التيسـير في علم التفسـير) ، في القاهرة سنة ١٩١٠ هـ ، ومع تفسير الجلالين المطبوع في القاهرة كذلك سنة ١٣٥٦ هـ .

٤ الفهرست (٥٥) .

ولمّا كانت قراءة عبدالله بن مسعود من القراءات المشهورة المعروفة ، وكان عبدالله بن مسعود من قبيلة هُذيل[1] ، وجب علينا البحث في لهجة هذيل لمعرفة خصائصها ومميزاتها وما انفردت به عن غيرها من اللهجات . وهذيل من القبائل التي عرفت بجودة لهجتها ، في تدوين القرآن الكريم[2] . ولذلك رأى الخليفة عثمان أن يكون المملي من هذيل والكاتب من ثقيف . وقد ذكرت لهجتها في جملة اللهجات التي نص عليها في الحديث المذكور على نحو ما أشرت اليه ، كما أخرجت عدداً من الشعراء جمع بعض العلماء أشعارهم في ديوان ، وقد طبع في القاهرة ديوان شعراء هذيل[3] . ويفيدنا شعر هؤلاء الشعراء بالطبع في الوقوف على لهجة هذه القبيلة . ولكن هذا الشعر هو مثل شعر سائر الشعراء الجاهليين الآخرين ، مصقول مهذب ، هذّب على وفْق قواعد اللغة العربية التي ضبطت في الإسلام ، ثم هو مضبوط برواية رواة هم في الأغلب من غير هذيل . ولهذا قلما نجد في شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم ما يختلف عن قواعد اللهجة العربية ، حتى أننا لا نستطيع في هذه الحالة أن ندعي ان هذا الشعر هو بلهجة هذيل . وقد حرمنا العقلُ الوقوفَ على لهجات القبائل التي أخرجت أولئك الشعراء ومعرفة مؤثراتها في شعر أولئك الشعراء .

ومن أهم الأمثلة التي أوردها العلماء في قراءة (ابن عباس) مما له علاقة باللهجات ، قراءته كلمة (حتى) (عتى) في الآية : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين »[4] . وقد ذكر المفسرون وعلماء اللغة أن هذه القراءة هي بلهجة هذيل[5] ، وأن (عتى) هي (حتى) عند هذه القبيلة ؛ ذلك لأن هذه القبيلة تستعمل حرف العين بدلاً من الحاء في لهجتها[6] . ولم يشر

---

١ طبقات ابن سعد (١/١٥) ، (٣/١٠٥) ، عيون الاخبار (٣٧٣) .
Ency., 2, 403, Goldziher, Vorlessungen, S., 65.

٢ الصاحبي (٢٨) ، « وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف . وقال عثمان : اجعلوا المحلى من هذيل ، والكاتب من ثقيف » ، Rabin, p. 79.

٣ الخصائص (١/١٣٠) ، ديوان الهذليين : القاهرة ١٩٤٥ ، مطبعة دار الكتب المصرية .

٤ سورة يوسف الرقم ١٢ ، آية ٣٥ .

٥ البيضاوي (١/٤٦٠) ، ابن مالك ، التسهيل (٥٧) .

٦ المزهر (١/١٣٣) ، (١/٢٢٢) ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الباب الحادي عشر) ، Rabin, p. 84.

العلماء الى موضع أخرى استعمل (ابن مسعود) فيها كلمة (عـتّى) في موضع (حتّى) الواردة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد في كتب اللغة المتقدمة إشارة الى استبدال هذيل حرف العين بحرف الحاء . ونظرية (فحفحة) هـذيل ، رأي متأخر لم يقرن بأدلة وأمثلة ، فهو رأي لا يمكن الأخذ به[1] . وأظن أن هذه القراءة المنسوبة الى (ابن مسعود) ، هي من القراءات المتولدة من حدوث اشتباه في القراءة ، من جراء عدم حصول التمييز بين (العين) و(الحاء) في (حتّى) . ووقوع الاشتباه بين الحرفين في ابتداء الكلمات ، أمر ليس بصعب، وإلا فلِمَ انفرد ابن مسعود في هذا الموضع فقط ، باستعمال (عتّى) ، ولم يستعملها في المواضع الأخرى وهي كثيرة في القرآن الكريم ؟

نعم ، لقد ورد في روايات ان ابن مسعود قرأ (نحم) بدلاً من (نعم) في القرآن الكريم[2] ، وأنه قرأ (ّ بُحثِرَ) عوضاً عن (بُعثِرَ)[3] . وهذه الروايات تناقض الروايات السابقة التي تزعم أنه قرأ (عتّى) في موضع (حتّى) في الآية المذكورة،إذ نجده في هذه الروايات يقرأ (العين) حاءً ، أي عكس تلك القراءة المنسوبة اليه . ثم إنّ المفسرين وعلمـاء القراءات ، لم يشيروا الى قراءات أخرى له من هذا النوع قلب فيهـا حرف العين حاءً مع تعدّد ورود حرف العين في القرآن الكريم .

وهناك روايات تفيد أن أسداً وتميماً استعملوا حرف الحاء في موضع العين في بعض الحالات ، فقالوا : (مَحَهُمْ) بدلاً (معَهُم) و (أَأحهـد) في موضع (أأعهد)[4] . ولكنها لم تشر الى أمثلة أخرى من هـذا القبيل . وهذان المثالان لا يكفيان بالطبع لإعطاء حكم في هذا الإبدال عند القبيلتين . ولكن هنالك رواية متأخرة لا نعرف مرجعها تفيد أن هذا الإبدال واقع في لهجة سعد بن بكر، وهي قبيلة تقع مواطنها في شمالي المدينة[5] . ولكن ما صلة ابن مسعود بهذه القبيلة وهو

---

١ Rabin, p. 85.

٢ المغني (٢/٢٥) .

٣ « أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور » ، العاديات ، الرقم ١٠٠ ، الآية ٩ ،
Rabin, p. 85. Beck, in Orientalia, vol., XV, 182.

٤ Rabin, p. 85.

٥ المصدر نفسه .

من هذيل ؟ هل نفترض أنه أخذ قراءته تلك من أفواه رجال هذه القبيلة ؟ إذا أخذنا بهذا الظنّ ، وجب علينا اثبات ذلك بدليل ، وذكر أسماء الصحابة الذين أخذ ابن مسعود منهم قراءته . ويجب حينئذ رَجْعُ تلك القراءة الى أولئك الصحابة لا الى ابن مسعود . والواقع أننا لا نستطيع أبداً الاتيان بدليل ما يثبت استعمال هذيل حرف العين في كلامها في موضع الحاء وبالعكس .

ورأيي أن ما نسب الى ابن مسعود في هذه القراءة أو القراءات الثلاث، سببه وهمٌ وقع فيه مَنْ نسب تلك القراءة إليه، وهو ناتج من كتابة المصحف المنسوب إليه . وإلا ، فلا يعقل أن يقتصر ابن مسعود على هذه القراءة أو القراءات التي هي ليست من لهجة أهل مكة ولا أهل يثرب ولا هذيل ، ثم يترك سائر المواضع. ولا يعقل كذلك تلفظ الرسول بهذه اللهجة الشاذة التي لا نعرف من كان يستعملها على وجه ثابت ، وقد نزل القرآن بأفصح اللهجات .

والى أمثال هذه القراءات الشاذة ، التي يجب نقدها وتمحيصها بعناية ، استند (كارل فولرس) في نظريته القائلة بحدوث تغيير في نص القرآن الكريم . وهي نظرية لم يُقرّها عليه بعض كبار المستشرقين . ولو فحصت ودققت ، لتبين أنها بنيت على روايات لا تثبت أمام التمحيص ، أخذها لمجرد ورودها في الكتب . ولكن ليس كل ما يرد في الكتب بأمر مسلم به .

وقد بحث العلماء في اللغات التي وقعت في القرآن بغير لغة قريش ، وفي جملتها لغة حمير ، ورجعت الى بحوثهم ، فوجدت أن ما نسب الى الحميرية من كلمات، لا يحمل طابع الحميرية ، وليس من لغة العرب الجنوبيين بشيء . وقل مثل ذلك عن لغة (جرهم) ، فقد دوّنوا ألفاظاً زعموا أنها وردت بلغة (جرهم)، ونحن نعلم من أقوال أهل الأخبار أنفسهم أن (جرهماً) كانوا من الشعوب العربية البائدة التي هلكت قبل الاسلام بزمن طويل . وقد ماتت لغتهم معهم بالطبع ، فكيف تمكن العلماء من تشخيص هذه الألفاظ ومن إرجاعها الى جرهم ؟ وقد وجدت أيضاً ان ما ذكروه من أمثلة أخرى على لغات القبائل التي وردت ألسنتها في القرآن هو من هذا القبيل ، ولا سيما القبائل الهالكة مثل (مدين) ، فالعلماء الذين شخصوا تلك اللهجات التي زعموا أنها وردت في القرآن، يذكرون أن بعض أصحاب هذه اللهجات هم من العرب البائدة ، فهم ممن ماتوا وبادوا ، وماتت

لغتهم بموتهم ، فما يذكرونه من ألفاظ لغاتهم الواردة في القرآن ، هو مما لا أصل له إذن . ثم إنهم نسبوا ألفاظاً الى (حمير) ، وجدنا أنها ليست حميرية أبـداً ، أضف الى ذلك أنهم لم يدرسوا العربيات الجاهليـة دراسة علمية ، ولم يكن لهم علم بها ، ولهذا فما ثبتوه ودوّنوه عن اللغات العربية في القرآن ، لا يمكن الأخذ به ، لأنه لا يستند على علم بالموضوع ، ولا على دراسات لتلك اللهجات .

ومن أمثلة ما ذكروه عـلى أنه من لسان (حمير) ، الأرائك ، ولا وزر ، بمعنى لا جبل ، وحور ، ولهو ، بمعنى المرأة ، ولا تفشلا ، وعثر ، وسفاهة ، وزيلنا ، ومرجواً ، وإمام وغـير ذلك[1] ، وذكروا أن (باءوا) ، وشقاق ، وخيراً وكدأب ، وأراذلنا ، ولفيفاً ، وغير ذلك من لغة جرهم[2] ، وهي كلها من تخرصات من نسبها الى جرهم ، لما قالوه أنفسهم من هلاك جرهم قبـل الاسلام بزمـان طويل ، فمن أبلغهم اذن أن هذه الألفاظ من ألفاظ جرهم ، ولِمَ نزلت في القرآن ، وقد نزل الوحي للأحياء وليس للأموات !

وقد ذهب البعض مذهباً بعيداً في اللغات الواردة في القرآن ، فـذهب الى أن (غساق) ، بمعنى المنتن بلسان الترك ، وهـو بالطخارية[3] ، وأن (سيدها) زوجها بلسان القبط ، وأن (الأرائك) بالحبشية ، وأن (سبحى) بلسان الحبشة ، وأن (الجبت) الشيطان بلغة الحبش ، وأن (حرم) بمعـنى وجب بالحبشية ، وأن (سكر) ، بمعنى الخلّ بلغة الأحباش ، وأن (سينين) بمعـنى الحسن بلسان الحبشة ، وأن (شطر) حبشية ، وان (العرم) حبشية ، وأن قنطـار بلسان أهل إفريقية ، الى غير ذلك من ألفاظ[4] .

ونجد رواية تذكر أن الصحابة لما تشاوروا في أمر تسمية القرآن ، ما يسمونه؟ « فقال بعضهم : سموه السفر ، قال ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوه ، فقال رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف»[5] ، فجعلوا اللفظة حبشية .

---

١ المزهر (٢/٩٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٩٥ وما بعدها) .
٣ الاتقان (٢/١١٥) .
٤ الاتقان (٢/١٠٩ وما بعدها) .
٥ السيوطي ، الاتقان (١/١٦٦) .

ولو درسنا الألفاظ المعربة المذكورة ، نجد أن العلماء قد أخطأوا في تشخيصها وخلطوا في الغالب بين أصولها ، بسبب أنهم لم يكونوا يحسنون اللغات الأعجمية ، ما عدا الفارسية ، وأنهم لم يراجعوا أهل العلم والتخصص في اللغات الأعجمية ، من رجال الدين من أهل الكتاب ، أو المتبحرين بالأدب من الروم والسريان ، بل اكتفوا بمراجعة أياً كان ممن كانوا يعرفونهم من نصارى ويهود ، وحيث أنه لم يكن لدى هؤلاء علم المتبحرين في الدين والأدب ، جاءت أجوبتهم فجّة أو مغلوطة ، ودوّنت على هذه الصورة .

ونظراً لعدم وقوف العلماء على اللغات العربية الجنوبية ، جعلوا ألفاظاً عربية واردة في القرآن مثل (العرم) لفظة حبشية[1] ، مع أنها لفظة عربية جنوبية ، مدوّنة في النصوص ، وجعلوا ألفاظاً أخرى من هذا القبيل ، من الألفاظ المعربة عن لغات أعجمية .

وقد اتخذ بعض العلماء حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف دليلاً على نزول القرآن بلغة قريش ، فقد قالوا : إن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن واقعة كلها في لغة قريش ، ذلك أن قريشاً كان قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ، وأيامها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ، ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة ، وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة اليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم ، ومن هنا شاءت الحكمة أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق ، وأن يطل عليهم من سماء قريش[2] .

وهو استنتاج غير مقنع ، لما أورده العلماء أنفسهم من أقوال وتفسير للحديث المذكور ، ولما أوردوه من أن الصحابة من قريش ، كان يشكل عليهم اللفظ من القرآن مثل (أبا) فيسألون عنه ، لأنه لم يكن من لغة قريش . فقد ذكروا أن (عمر) ، قرأ (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية : وفاكهة وأبّاً ، فقال : قد علمنا الفاكهة فما الأب[3] . ثم قال : لعمرك يا ابن الخطّاب ان هذا

---

١ الاتقان (٢/١٠٩) .

٢ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨٣) .

لهو التكلف . وذهب البعض الى أن المراد من اللفظة ما أنبتت الأرض للأنعام ، وذكر بعض العلماء أنها بلغة الحبش[1] . وذكروا أشياء أخرى من هـذا القبيل ، تعارض قبول هذا الاستنتاج .

والذي أراه أن نص القرآن يعارض حديث الأحرف السبعة ، ففيه : « بـل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ »[2] ، وفيه : « قل : ما يكون لي أن أبدّلَه من تلقاء نفسي ، إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ، اني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم »[3] وفيه « إنّا نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . فليس للرسول أن يغير أو يبدل ما نزل به الوحي عليه ، ثم إنه كان لا ينتهي من الوحي ، حتى يأمر من يكون عنده بتدوينه بلسانه حال نزوله عليه ، وإذا لم يكن هناك كاتب أمر من يستدعي له كاتباً ليدونه ، فكيف يتفق ذلك مع هذا الحديث ، ومـع الأمثلة التي ذكروها في القراءات ؟ ورد أن الرسول علم (الـبراء بن عازب) دُعاء فيه : « ونبيك الذي أرسلت » ، فلما أراد البرّاء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله قال : « ورسولك الذي أرسلت » ، فلم يوافقه النبي على ذلك، بل قال له: « لا ، ونبيك الذي أرسلت » . وهكذا نهاه أن يضع لفظة رسول، موضع لفظة نبيّ ، مع أن كليهما حق لا يحيل معنى ، إذ هو رسول ونبي معاً، فكيف كان يُجيز أن يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحـيم ، أو سميع عليم ، وكيف نقبل هذه الرواية التي تذكر أن (عبدالله بن مسعود) أقرأ رجلاً كلمة (الفاجر) بدلاً من كلمة الأثيم في الآية : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم[4] ، مع ورود المنع عن تغيير أي حرف من حروف القرآن ، وهـل يعقل قيام (ابن مسعود) بذلك ، وسكوت الصحابة عن عمله ، لو صحّ أنه فعل ذلك .

ولو كان القرآن قد نزل بلغة قريش وحدها ، فلمَ كان الصحابة مـن قريش مثل (أبو بكر) و (عمر) وغيرهما ، يتحيرون في تفسير ألفاظ وردت فيه، أو يلجأون الى الشعر يستعينون به في تفسير القرآن ، والشعر هـو شعر العرب ، لا شعر قريش وحدها . قال (ابن عباس) « إن الشعر ديوان العرب »،وكان

---

١ عبس ، الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٣٨/٣٠) ، الاتقان (١٠٨/٢) .
٢ البروج ، ٨٥ ، الآية ٢٢ .
٣ يونس ، ١٠ ، الآية ١٥ .
٤ الزرقاني ، مناهل العرفان (١٨١ وما بعدها) .

إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر[1] ، وقال : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً »[2] .

قال (ابن قتيبة) : « العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عزّ وجلّ : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم[3] ... ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله : إنك اتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقاً . فقال : إن ربي علمني فتعلمت » .

---

١ مقدمتان في علوم القرآن (١٩٨ وما بعدها) ٠

٢ العمدة (١/٣٠) ٠

٣ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ٠

الفصل التاسع والثلاثون بعد المئة

العربية الفصحى

نطلق اليوم على العربية التي ندوّن بها أفكارنا : (العربية الفصحى) ، وهي كما نعلم لغة الفكر والإدارة في العالم العربي . والعربية الفصحى ، هي لغة الفصاحة والبيان ، ومدار تركيب الفصاحة على الظهور والإبانة . يقال : أفصح إذا تكلم بالفصاحة . وفصح الأعجمي فصاحة ، إذا تكلم العربية وفهم منه[1] . وهي اللغة العربية العالية التي لا تدانيها لغة عربية أخرى من اللغات العربية الباقية ، واللسان الذي يحاول أن ينطق به كل مثقف مهذب ، وأن يؤلف ويعبر عن مراده به .

وعرفت العربية الفصيحة بالعربية العالية ، وكان علماء اللغة إذا وسموا كلمة بسمة الفصاحة ، قالوا : كلمة فصيحة ، وكلمة عالية ، وإذا وسموها بالضعف وبالركاكة ، قالوا : ليست بعربية فصيحة ، أو ليست بالعالية . «قال ابن سيده: أشكد لغة ليست بالعالية »[2] . وقالوا في (لغة رديئة) ، وقالوا : « وهي لغة أهل العالية »[3] . « والعالية ما فوق أرض نجد الى تهامة والى ما وراء مكة ، وهي الحجاز وما والاها .. وقيل عالية الحجاز ، أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية : قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي ،

---

١ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .
٢ تاج العروس (٢/٣٩٠) ، (شكد) .
٣ تاج العروس (٢/٢٢٨) ، (ملح) .

وأدناها من المدينة على أربعة أميال وأبعدها من جهة نجد ثمانية ، والنسبة اليها عالي على القياس ، ويقال أيضاً علوي بالضم ، وهي نادرة على غير قياس »[1] .

وعرفت هذه العربية العالية بالعربية المبينة ، دعيت بذلك ، لأن (اسماعيل) أول من فتق لسانه بها ، فأبان وأفصح[2] ، وأرى أنها إنما نعتت بذلك ، من القرآن الكريم ، ففيه « بلسان عربي مبين »[3] ، و « هذا لسان عربي مبين »[4] .

وقصد العلماء من قولهم : « ليست بالعالية » ، بمعنى ليست بفصيحة ،ولم يقصدوا النسبة الى (العالية) التي هي الأرض المذكورة . غير أننا نجدهم أحياناً يقصدون بها أهل العالية ، فنرى (الطبري) يذكر في تفسيره في قراءة « فيسحتكم » : « والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . غير أن الفتح فيها أعجب إليّ ، لأنها لغة أهل العالية . وهي أفصح ، والأخرى وهي الضم في نجد »[5] . والعالية ما فوق أرض نجد الى أرض تهامة والى ما وراء مكة . وهي الحجاز وما والاها « وقيل : عالية الحجاز أعلاها بلداً وأشرفها موضعاً ، وهي بلاد واسعة ، والمسمى بالعالية قرى بظاهر المدينة المشرفة ، وهي العوالي » . « وعليا مضر بالضم أعلاها ، وقيل قريش وقيس ، وما عداهم سفلى مضر »[6] .

ونجد علماء العربية يستعملون مصطلح : «وليس بالعالي» ، أو « ليس في اللغة العالية » ، و « الفصيح ... » ، أو « والفصحاء يقولون »[7] ، في تقييم الكلم ، كما استعملوا : « وليس بالمعروف » ، أو « والأول أعلى » ، و« لغة مجهولة » ، أو « متروكة » ، أو و « يحتمل أن يكون من أمثلة المنكر » ، و « كلام قديم قد ترك » ، و « وهذا لا يعرف في أصل اللغة » ، أو و « المعروف »[8] ، وأمثال ذلك من مصطلحات للتعبير عن درجة الكلمة ومكانتها

---

١ تاج العروس (١٠ / ٢٥٠) ، (علا) .
٢ المزهر (١/٨١) .
٣ الشعراء ، الرقم ٢٦ ، الآية ١٩٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٥ تفسير الطبري (١٦/١٣٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٥٠ وما بعدها) ، (علو) .
٧ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٨ المزهر (١/٢١٤ وما بعدها) .

في مقاييس علماء اللغة من حيث الفصاحة والركاكة وما بينهما من درجات. والفصيح في نظر علماء العربية « ما كثر استعماله في ألسنة العرب ودار في أكثر لغاتهم، لأن تكراره على الألسنة المستقلة بطبيعتها في سياسة المنطق دليلٌ على تحقيق المناسبة الفطرية فيه »[1].

ويسوقنا البحث في موضوع اللغة العربية الفصحى الى التفكير في موضوع له صلة وثيقة بهذا الموضوع، بل هو في الواقع جزء منه، هو: لغة الأدب عند الجاهليين، وهل كان لأهل الجاهلية لسان عربي واحد مبين، استعملوه في التعبير عن عواطفهم شعراً أو نثراً؟ وإذا كان لهم ذلك اللسان، فهل كان فوق سائر لهجاتهم المحلية أو لهجات القبائل المتعددة؟ أو أنه كان لهجة خاصة؟ واذا كان لهجة عالية خاصة، فلهجة من يا ترى كانت هذه اللهجة؟ وبأي موطن ولدت؟ وهل كانت لهجة عامة مستعملة عند العرب عامة، من عرب جنوبيين وعرب شماليين، أو أنها كانت لهجة خاصة بالعرب الشماليين؟ ثم هل كانت هذه اللهجة هي العربية التي نزل بها القرآن، أم كانت عربية أخرى لا صلة لها بها؟ أماتها الإسلام كما أمات أموراً من أمور الجاهلية، لصلتها بالوثنية، وأحلّ محلها لغة القرآن، لغة قريش؟ ثم هل كانت هذه العربية، هي عربية الشعر، بمعنى أن الشعراء كانوا إذا أرادوا النظم، نظموا شعرهم بهذه اللغة العالية، متجاهلين لغتهم القبلية، لأنها لغة الأدب الرفيع، وبها كان يخطب الخطباء؟

لقد عُني عدد من المستشرقين بالإجابة عن أمثال هذه الأسئلة، فكتب (نولدكه)، رأيه في الموضوع في كتابه: تأريخ القرآن في باب القراءات واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم، كما تطرق اليه أيضاً في أثناء كلامه على الشعر الجاهلي ولغة الأدب عند الجاهليين، وخلاصة رأيه أن الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات لم تكن كبيرة، وأن اللهجة الفصيحة شملت جميع هذه اللهجات[2]. وذهب (غويدي) الى أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها، ولكنها لم تكن لهجة معينة لقبيلة معينة[3].

---

١ المزهر (١/١٢٦).

٢ Nöldeke, Geschichte des Korans, Zweite Auflage, Erste Teil, S., 42, Neue Beiträge zur Semitischen sprachwissenschaft, Strassburg, 1910, S. I - 14.

٣ Guidi, Mix. Ling., Torino, 1901, p. 323.

ورأى (نلينو) ، أن العربيـــة الفصحى تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها ، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة . وعزا سبب ذلك الى ملوك هذه المملكة الذين أغدقوا على الشعراء وشجعوهم مما كان له وقع في نفوسهم ، ثم الى توسع رقعة هذه المملكة التي ضمت أكثر قبائل معدّ، وكان لها فضل توحيـــد تلك القبائل وجمع شتاتها ، فشاعت هذه اللهجة على رأيه في منتصف القرن السادس للميـــلاد ، وخرجت خارج نجد ، وعمّت معظم أنحاء الجزيرة ولا سيا القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف ، مع بقاء اللهجات العامية في منطق الناس المعتاد ، وكان للعواصم المشهورة وللملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع العجيب[١] .

وذهب (هـــارتمن) « Hartmann » و (فولرس) « Vollers » الى أن العربية الفصحى هي لهجة أعراب نجد واليمامة ، غير أن الشعراء أدخلوا عليهـــا تغييرات متعددة[٢] . وذهب (لنديرك) « Landburg » الى أن الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هـــذه اللهجة ، وعلى قواعدهم سار المتأخرون ، ومـــن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو .

وزعم (فولرس) ، أن القرآن لم يتزل بلغة أعراب نجد واليمامة ، وإنما نزل بلغة أهل مكة ، أي لغة قريش ، وهي لغة لم تكن معربة ، وإنما كانت لغـــة محليـــة ، فلما دوّنت قواعد العربية وثبتت طبق الاعراب على القرآن ، وصقلت لغة قريش وفقاً لهذه القواعد .

ولم يعين (فيشر) اللهجة التي نبعت منها العربية الفصحى ، غـــير أنه رأى أنها لهجة خاصة[٣] . ولـ (بروكلمن) و (ويتزشتاين) آراء في نشوء هذه اللغة وتطورها ، ولكنهما لم يتحدثا عن علاقتها ببقية اللهجات[٤] .

ذهب (بروكلمن) الى أن لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء

---

١ الهلال ، السنة السادسة والعشرون ، اكتوبر ١٩١٧ ، (ص ٤٧ وما بعدها) ، جواد علي ، في كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

٢ Völlers, Völkssprache, S., 184.

٣ Rabin, p. 17.

٤ Rabin, p. 17.

اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمـــة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميع اللهجات[1] .

وذهب (برجيه) الى أن العربية كانت لهجة قبلية صغيرة وصلت في وقت من الأوقات بفضل ظروف محلية الى درجة من الكمال خارقة للعادة ، وهي مدينة بانتشارها الى الاسلام[2] .

و (ريجيس بلاشير) من المستشرقين الـذين أيدوا رأي من ذهب الى وجود لغة عالية عند أهل الجاهلية ، فقال : « إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيـه شيء مخالف للعادة ، كما أن نمو لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خـــارق»[3] . واللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحلية ، بل هي امتـــداد لها ، «وهي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفني عن بعض أنواع التفكير» ، لها خصائص اللهجات في وسط الجزيرة وشرقيها ، ولم تكن هـــذه اللهجة العالية قاصرة في الاستعمال على أهل جزيرة العرب ، بل كانت لغة الشعر أيضاً عنـــد عرب العراق وعرب بلاد الشأم . ولهذا كان الشعر مفهوماً عند جميع الجاهليين، أينما كانوا : سواء كانوا في جزيرة العرب ، أم في العراق وفي بـــلاد الشأم . وكانت الفوارق بين هذه اللهجة وبقية اللهجات تختلف تبعاً للمجموعات اللغوية . فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشرقيها ، ولها خصائص الأقسام الشرقيـــة والوسطى من جزيرة العرب . وكان الشاعر ، ينزع دوماً الى الابتعاد عن مؤثرات لهجته القبلية ، والارتفاع عنها ، الى لغة الشعر المتعارفة بين الجاهليين آنذاك ، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الجاهلية ، وكانت تـدل على تهذيب الشاعر وسمو مداركه وثقافته[4] .

ويرى (بلاشير) أن علماء اللغة والنحو حين أخذوا بضبط قواعد اللغة ، غربلوا اللهجات ، وتوغلوا بين الأعراب مدفوعين بعقلية تنهيج وتنقية اللغة مما أدى بهم

---

١ بروكلمن ، تأريخ الأدب العربي (١/٤٢) .

٢ ريجيس بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (٨٦) .

٣ تأريخ الأدب العربي (٨٨) ، (تعريب ابراهيم كيلاني) .

٤ ريجيس بلاشير ، تأريخ الأدب العربي (٨٧ وما بعدها) .

الى توحيد لغتي القرآن والشعر الجاهلي ، في الوقت الذي نظموا فيه واستخرجوا قواعد العربية الفصحى ، مما أدى الى إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية الجاهلية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة القرآن . وما العربية الفصحى الحالية إلا لهجة ولدت من لغة الشعر ولغة القرآن ، والقرآن والشعر الجاهلي المضبوط في شكله الحاضر لا يمثلان اللغة الشعرية في شكلها القديم ، وانما يبتعدان بعض الابتعاد عن تلك اللهجة ، بسبب ما فعله علماء النحو والصرف ، في تلك اللهجة من تشذيب وتهذيب لتلتئم مع لغة القرآن ومع قواعدها وقواعد لغة الشعر التي رسخها علماء اللغة .

وأما رأي علماء العربية ، فخلاصته أن لغة قريش هي الأصل ، «وانما صارت لغتهم الأصل ، لأن العربية أصلها اسماعيل عليه السلام ، وكان مسكنه مكة »[1]. وعندهم ان العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة ، وبهذه الأخيرة نزل القرآن ، وقد انفتق بها لسان اسماعيل[2] ، وهي العربية الفصحى ، لسان اسماعيل ، ألهم بها اسماعيل إلهاماً[3] . رووا عن (عمر) انه قال : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغةُ اسماعيل قد دَرست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها ، فحفظتها »[4] . وهم يقولون إن : « أول من تكلم بالعربية اسماعيل بن ابراهيم » ، أو ان « أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم » ، بل تجاوز بعض منهم ، وبالغ حتى زعم أن «العرب كلها ولد اسماعيل ، إلا حمير وبقايا جرهم » ، وأن العربية الصحيحة الفصيحة هي العربية التي نزل بها القرآن ، أما لسان حمير وأقاصي اليمن ، فليس « بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[5] .

ورأيهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأنقاهم لساناً ، « وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٨٠) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٨٠) .
٣ المزهر (١/٣٢ وما بعدها) .
٤ المزهر (١/٣٤ وما بعدها) .
٥ ابن سلام ، طبقات (٤ وما بعدها) .

حُجّاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لُغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ؛ فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ؛ فصاروا بذلك أفصح العرب .

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عَنعَنَة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا كَسْر أسد وقيس »[1] .

« وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عمّا في النفس »[2] . وقال ابن خلدون : كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم ، حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهـل الصناعة العربية[3] .

وروي أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح الناس ؟ فقـال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيـامنوا عن عنعنة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش »[4] . وقال (ثعلب) : « ارتفعت قريش في الفصاحة عـن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبّة ، وتلتلة بهراء »[5] . وورد كلام (معاوية) مع الأعرابي على هذه الصورة : أن (معاوية) « قال : أي الناس أفصح ؟ فقام رجل فقال : قوم ارتفعوا عن فراتية العراق ،

---

١ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) ، (الفصل الثاني في معرفة الفصيح من العرب) ، الصاحبي في فقه اللغة (٥٢) ، (تحقيق مصطفى الشويمي) .
٢ المزهر (١/٢١١) .
٣ ابن خلدون ، مقدمة (٤٠٩) ، « الفصل الثاني والثلاثون من الفصل السادس » .
٤ البيان والتبيين (٣/٢١٣) .
٥ مجالس ثعلب (٨١) ، المزهـر (١/٢١١) ، ابن جنـي ، الخصائص (٤١١) ، الصاحبي (٤٤) ، الخزانة (٤/٥٩٥ وما بعدها) .

وروي : لخلخانية العراق ، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن كسكسة تميم ، ليست فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك قريش . قال : صدقت . ممن أنت ؟ قال : من جرم »[1] . واللخلخانية اللكنة في الكلام ، والغمغمة : ألا يبين الكلام ، والطمطمانية : العجمة . « قال الأصمعي : وجرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم من اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] فمضر هم أهل الفصاحة على رأيه .

ورووا « عن أبي بكر الصدّيق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة . وقال قتادة : كانت قريش تجتبي ، أي تختار أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتهـا لغتها ، فنزل القرآن بها »[3] .

وقد استدلوا نزول القرآن بلغة قريش بأدلة أخرى ، منها قول عمر: «لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »[4] .

وزعموا ان العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً ، فقدم علقمة بن عبدة التميمي،فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدتـه : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمط الدهر »[5] . فما كان علقمة ولا غـيره ليكلف نفسه مشقة الذهاب الى قريش ، والى سوق عكاظ ، لو لم تكن لغتها أفصح لغات العرب وأعذبها وأسلسها ، ولو لم يكن لها علم بالشعر يفوق علم غيرها به .

وزعموا أيضاً أن العرب كانوا في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرض على أندية قريش فإن استحسنوه روى ، وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى

---

١ الفائق (٤٥٩/٢) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (٥٨٨/١) ، (عرب) ، (طبعة دار صادر) ، تاج العروس (٣٧٤/١) ، (عرب) .
٤ الصاحبي (٥٧ وما بعدها) .
٥ الأغاني (١١٢/١٢) .

ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب. وقال « أبو عمرو بن العلاء: كانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش[1]. وكان العرب يعلقون أشعارهم بأركان الكعبة ، كما فعل أصحاب المعلقات السبع، وانما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وبعصبيته ومكانه في مضر[2] .

فقريش أفصح العرب ، ومعدن الفصاحة ومركزها وينبوعها ، ثم من جاورهم وقاربهم ، ثم من جاء بعد هؤلاء ، فكلما بعد قوم عن قريش ، بعدت لغتهم عن الفصاحة ، ولهذا كان احتجاج علماء اللغة بلغات العرب على نسبة بعدهم عن قريش ، « فاعتبروا لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبني كنانة ، وغطفان ، وبني أسد ، وبني تميم . ثم تركوا الأخذ عمن بعُد عنهم من ربيعة، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن ، لمجاورتهم الفرس ، والروم ، والحبشة »[3] .

وأما رأي المحدثين من علماء العربية عندنا ، فهو رأي الموافق المؤيد . هذا الدكتور (طه حسين) يقول في كتابه : (في الأدب الجاهلي) : « أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش ، فما نرى أنه يحتمل شكاً أو جدلاً ؛ فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام ، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن القرآن نزل بلغة قريش ، أو قل على ان هذا الحرف الذي بقي لنا من الأحرف السبعة إنما هو حرف قريش.وقد يكون من التكلف والتحذلق أن يجمع العرب كافة على أن لغة القرآن هي لغة قريش . وألا يظهر في العصر الاسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ، ثم يزعم زاعم أن هذه

---

١ خزانة الادب (١/٨٧) .

٢ مقدمة ابن خلدون (١/٥٠٩) ، (١١٥) .

٣ الرافعي (١/٢٥٩) .

اللغة ليست لغة قريش ، وإنما هي لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة »[1] .

ثم يمضي قائلاً : « فنحن مضطرون أمام هـذا الاجماع من جهـة ، وأمام قرشية النبي من جهة أخرى ، وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة ، وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقة ولا عنف من جهـة رابعة ، وأمام اتفاق القرآن في اللغة واللهجة مـع ما صح من حديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحابه القرشيين من جهة خامسة ، الى أن نسلم بأن لغة القرآن انما هي لغة قريش .

ستقول : ولكن هذه اللغة قد كانت تفهم في غير قريش من قبائـل الحجاز ونجد ، ومن هذه القبائل المضري كقيس وتميم ، ومنها اليمني كخزاعة والأوس والخزرج ، بل منها قبائل لم تكن عربية بوجه من الوجوه وهي هذه اليهوديـة التي كانت تستعمر شمال الحجاز . ولكنك تعرف رأينا في النسب وفي انتماء هذه القبائل الى اليمن أو الى مضر . ومع هذا فقد قلنا إن لغة قريش سادت قبيـل الاسلام . ونحن إن فكرنا عرفنا ان سيادة اللغات انما تتصل عادة بالسيادة السياسية والاقتصادية . فلنبحث عن البيئات الممتازة من الوجهة السياسية والاقتصادية في شمال البلاد العربية قبيل الاسلام .

الحق اننا لا نستطيع أن نفكر في هذه السيادة الفارسية في الحيرة أو هذه السيادة الرومية في أطراف الشأم ، فقد كانت هناك أسر عربية تمثل هذه السيادة ، وكانت لهذه الأسر ضروب من السلطان ، ولكن هذه الأسر لم تكن فيها يظهر حجازية ، ولم تكن بيئاتها بيئات عربية خالصة ، انما كانت بيئات مختلطة أقرب الى الأعجمية منها الى أي شيء آخر . فلم تبق إلا بيئات أربع : بيئة كندية في نجد ، ولكن هذه البيئة كانت يمنية إن صح ما زعم الرواة والمؤرخون . وسيادتهم لم تطل ولم يكن لها من الضخامة ما يمكنها من أن تسلط سلطانها السياسي والاقتصادي والديني على شمال البلاد العربية . وبيئة أخرى قرشية في مكة ، كان لها سلطـان سياسي حقيقي ، ولكنه قوي في مكة وما حولها ، وهذا السلطـان السياسي كان يعتز بسلطان اقتصادي عظيم ، فقد كان مقدار عظيم جداً من التجارة في يد قريش ، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان ديني قوي مصدره الكعبة التي كان يحج اليها أهل

---

[1] طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

الحجاز وغير أهل الحجاز من عرب الشمال . فقد اجتمع لقريش اذن سلطان سياسي واقتصادي وديني . وأخلق بمن تجتمع له هذه السلطات أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية . وبيئة ثالثة هي بيئة الطائف ، كان لها شيء من السلطان الاقتصادي ولكنها لم تكن تداني البيئة المكية . وبيئة رابعة في شمال الحجاز، هذه هي البيئة العربية في يثرب وما حولها . ولكنا نظن ان أحداً لا يفكر في أن يقول ان هذه العربية الفصحى كانت لغة هؤلاء الناس من اليهود أو من الأوس والخزرج فضلاً عن أن هذه البيئة على ثروتها وقوتها لم تكن تداني قريشاً فيما كان لها من سلطان .

لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية . وكانت هذه الأسواق التي يشار اليها في كتب الأدب ، كما كان الحج ، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش »[1] .

وبعد أن انتهى (الدكتور طه حسين) من إصدار قراره ، قال : « ولكن ما أصل لغة قريش ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تطورت في لفظها ومادتها وآدابها حتى انتهت الى هذا الشكل الذي نراه في القرآن ؟ ». وكان جوابه على هذه الأسئلة قوله : « كل هذه مسائل لا سبيل الى الإجابة عليها الآن ، فنحن لا نعرف أكثر من أن هذه اللغة لغة سامية تتصل بهذه اللغات الكثيرة التي كانت شائعة في هذا القسم من آسيا . ونحن نكاد نيأس من الوصول في يوم من الأيام الى تأريخ علمي محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام . وكيف والقرآن أقدم نص صحيح وصل الينا في هذه اللغة ، ونحن نرى اللغة فيه كاملة متقنة تامة التكوين قد تجاوزت الوجود الطبيعي الى هذا الوجود الفني الراقي الذي يظهر في الآداب»[2].

وخلاصة رأي (الدكتور طه حسين) أن عربية قريش هذه ، التي نزل بها القرآن الكريم ، إنما سادت قبيل الاسلام ، ولم تكن سيادتها تتجاوز الحجاز . إذ يقول : « فالمسألة إذن هي أن نعلم : أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .
٢ في الأدب الجاهلي (١٠٧) .

فنتوسط ونقول : انها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل الى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية الّتي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية . ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز . فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنباً الى جنب »[1] .

وكان المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) ، قد تعرض لهذا الموضوع وبحث فيه قبل (الدكتور طه حسين) ، في كتابه : « تأريخ آداب العرب » ، الذي طبعه سنة (١٩١١ م) ، فذهب مذهب الأسلاف في أن العربية بدأت بـ (اسماعيل) فلما خرج أولاده من ديارهم وانشعبت قبائلهم ، تنوعت لهجاتهم ، وتباينت ألسنتهم ، حتى ظهرت قريش من بينهم ، فأخذت وأعطت ، وهذبت الألسنة واستخلصت منها أعذبها وأسماها ، ثم لا تزال تهذب في اللغة وتشذب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام ، بنزول الوحي بها . وكانت القبائل : « بطبائعها متباينة اللهجات،مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ؛ ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تأريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس . فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مُستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس »[2] .

فهذا دور من أدوار تهذيب اللغة وتنقيتها ، قامت به قريش ، قامت به في مسكنها وموطنها مكة ، وقامت بدور آخر ، كان آخر الأدوار الّتي قامت فيها قريش في تهذيب العربية،هو الدور العُكاظي ، وهو « حالة من أحوال الحضارة، ولذلك اقتضى الصناعة اللسانية ، فكان العرب يرجعون الى منطق قريش ، كما

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٥) .

٢ الرافعي تأريخ آداب العرب (١/٨٥ وما بعدها) .

كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفصح منها . وهـذا هو الدور الأخير من أدوار التهذيب اللغوي إذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها إلا موت الضعيف وتحوله الى شكل أثري لا منفعة منه للمجموع المكوّن على هذه الطريقة ، ولكنه يدل على أصل التكوين »[1] .

ثم توّج عمل قريش في تهذيب اللغة بنزول القرآن بلسانها « فإن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميت ويحيي ، ثم كانوا لا يعدون في اعتبارهم اياه انه ضرب من تلك الضروب التي كانت لهم من خوارق العادات : كالسحر والكهانة وما اليها ، وهو الذي افترته قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء الى النبي »[2] . ثم « ان القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبي صلى الله عليه وسلم ، من اللغة القرشية وما اتصل بها ، كان ذلك مغمزاً فيه ، إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه ، وبين ما يأثرونه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فيهوّن ذلك على قريش ، ثم على العرب ، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه ، فتنشق الكلمة ، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء ، الى حال لا يلتئم عليه أبداً ، ولو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالي وأقامهم عليه ، لكان في الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذي ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته »[3] .

ومجمل حجج الباقين القائلين ان العربية الفصحى هي عربية قريش ، ان قريشاً « كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لهـا عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية،وكان العرب يجتمعون اليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك ان هنالك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات

---

١ تأريخ آداب العرب (١/٨٧ وما بعدها) ، (أسواق العرب) .
٢ تأريخ آداب العرب (١/٤٦) .
٣ المصدر نفسه (١/٤٧) .

القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها اليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوق عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردّوه منها كان مردوداً فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي ،فأنشدهم قصيدته: هل ما علمت وما استودعت مكتوم . فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : طحا بك قلبٌ في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

واذن فنحن لا نعدو الواقع اذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك ان الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية انها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه،وأيضاً فإنه كان يرسل اليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الاسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو انهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان ارسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة »[1] .

---

١ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٣٣ وما بعدها) .

وبعد ، فلقد عرضت عليك رأي المستشرقين في العربية العالية : عربية القرآن الكريم ، وعربية الشعر الجاهلي . ثم عرضت عليك رأي علماء العربية فيهـا من متقدمين ومن معاصرين ، وقد رأينا أن المستشرقين وعلماء العربية معاً ، لم يستندوا كلهم على سند جاهلي مكتوب ، ولا على نص مدوّن بهذه العربية، لسبب واحد مفهوم معقول ، هو عدم ورود نصوص جاهلية مدوّنة بهذه اللغة فلم يكن أمامهم من سبيل سوى اللجوء الي الموارد الإسلامية للاستعانة بهديها في استنباط رأي علمي بهذا الموضوع ، وهذا ما فعلوه .

أما قول علماء العربية إن عربية القرآن الكريم عربية (اسماعيلية) ، بمعنى أنها عربية أخرى تختلف عن عربيـة العرب الجنوبيين ، فرأي مقبول ، على شرط أنه اصطلاح يعـبر عن معنى اصطلح عليه . فقد أشير الى (الاسماعيليـين) في التوراة . وهم – كما سبق أن قلت – قبائل عربية شمالية كانت تقطن في القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب،وكانت حدودهم الغربية على اتصال بالعبرانيين. ولا أعتقد أن أحداً من أصحاب الفقه في العربية ، يركبه الشطط فيقول إنه نزل بلغة عربية جنوبية ، أو بلغة ثمود أو لحيان أو الصفويين ، أو يقول إن الشعر الجاهلي ، قد نظم بلهجة من هذه اللهجات ، فكلام مثل هذا ، حتى لو صدر من أحد ، فإنه هراء يدل على جهل قائله بأبسط الأشياء .

وأما دعوى أن هذه العربية وحدها هي العربية الفصيحة الصحيحة،وأن ما عداها من عربيات ، فلغات فاسدة رديئة ، فدعوى يمكن قبولها والتسليم بصحتها ، لو ان في وسع القائلين بها اثباتها بالأدلة المادية الملموسة ، أي بأدلة النصوص الجاهلية المكتوبة ، مع اثبات ان هذه اللغة الفصيحة كانت وحدها لغـة الأدب والتدوين عند جميع العرب ، وان الجاهليين كانوا لا يكتبون إلا بها ، وأن ما سواها من اللهجات ، كانت لهجات كلام ، أي لغات العامة والسواد ، تكلموا بهـا كما نتكلم نحن اليوم فيما بيننا بلهجات محلية ، نسميها لهجات عامية ، فإذا كتبوا كتبوا بالعربية الفصيحة . ولكنهم عاجزون عن اثبات ذلك ، ثم ان النصوص الجاهلية تناهض دعواهم هذه ، فكل ما لدينا من نصوص جاهليـة ، مكتوب بلهجات عربية أخرى ، خلا خمسة نصوص كتبت بعربية نبطية ، أي بعربيـة فيها ألفاظ واردة في العربية الفصحى ، ولكن الإرمية أو النبطيـة متحكمة في أسلوبها وفي قواعدها وفي الكثرة الغالبة من كلماتها بحيث تمنعها من أن تعـدّ في عداد العربية

الفصيحة . لذا ، فنحـن لا نخالف المنطق والعلم ، إن أظهرنا اعتراضنا عليهـا ورفضناها ، وما كان لنا لنعترض عليها ، لو ان الأمر كان على العكس ، لو ان غالبية النصوص الجاهلية كانت بهذه اللغة ، أو ان بعضاً منها على الأقل ، ولو بعضاً قليلاً ، كان بهذه العربية الخالصة ، أو اننا لا نملك نصاً جاهلياً بتاتاً، بأية عربية كانت ، لا بهذه العربية ، ولا بالعربيات الأخرى ، أما وأن لدينا اليوم الألوف من النصوص الجاهلية ، وهي كلها بلهجات عربية أخرى ، ولا نملك نصاً واحداً مدوناً بهذه العربية الخالصة ، لذا ، فنحن لا نظلم أنفسنا ، ولا نظلم غيرنا ، ان رفضنا دعواهم المذكورة، وقلنا ان اللغات التي موّنتنا بالنصوص المذكورة ، هي لغات فصيحة بالنسبة للناطقين بها ، وفي نظرنا أيضاً ، وهي لغة أدب بالنسبة لأصحابها الكاتبين بها .

والقول بأن العربية الفصيحة هي وحدها العربية الصحيحة السليمة الفصيحة ، وأن ما عداها من لغات عربية فلغات رديئة فاسدة ، أو أنها دونها في الفصاحة، قول يمكن قبوله بالنسبة لأيام الإسلام،حيث صارت هذه العربية لغة الدين والحكم والفكر ، بها تُقوّم الألسنة ، وبها يدوّن الناس آراءهم . أمـا بالنسبة الى أيام الجاهلية ، فإننا لا نستطيع التسليم به ، لسبب بسيط ، هو أن أهل العربية الجنوبية مثلاً ،كانوا يكتبون وينطقون بلغاتهم ، فلغاتهم هي لغة التدوين والأدب عندهم، بقوا يكتبون بها ، الى أن دخلوا في الاسلام ، فأبدلوها عندئذ بهـذه العربية ، بحكم الدين . ودليل ذلك ، هذه النصوص المتأخرة المكتوبة بالمسند ، والتي لا يبعد تأريخها عن الاسلام كثيراً . فلو كانوا يرون أن هناك عربية أفصح منهـا ، أو أنهم كانوا يعلمون أن هناك عربية أرفع من عربيتهم شأناً ، يدوّن ويكتب بهـا بقية عرب الجزيرة وأنها لغة الثقافة والعلم ، لما نبذوها وعدلوا عنها الى عربيتهم، وشذوا عن بقية اخوانهم العرب ، بتمسكهم بالكتابة بها وحـدها . وينطبق هذا القول على قوم ثمود والصفويين واللحيانيين والنبط ، فقد كتب كـل قوم منهم بلغتهم ، ولم يكتبوا بهذه العربية ، وتدوينهم بلغاتهم ، دليل على ثبوت فصاحتها عندهم ، وليس في قول (ابو عمرو بن العلاء) : « ما لسان حمـير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] ، ما يدل على ازدراء شأن الحميرية ؛ أو

---

١ طبقات ابن سلام (٤ وما بعدها) .

الغض منها ، وإنما هو تعبير عن حقيقة تأريخية ، هي أن الحميرية عربية أخرى، وهي حقيقة لا يجادل على صحتها أحد ، كما أن الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية عربيات أخرى . وكل هذه العربيات ، هي عربيات فصيحة بالنسبة لأصحابها ، لأنها لغة التدوين عندهم ، حيث لم يكن لأهل جزيرة العرب ، لغة أدب واحدة ، دوّن بها جميع الجاهليين ، حتى نقول إن النصوص الخارجة عليها، أي النصوص المدوّنة بلهجات أخرى ، هي نصوص عوام وسواد ، كتبوا بلغاتهم كما يكتب العامة بلغاتهم هذا اليوم ، مع وجود العربية الفصيحة .

وأما قولهم ان هذه اللغة العربية الفصحى هي لغة قريش ، لاجماع العرب كافة على ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وعدم ظهور أحد أنكر هذا الاجماع ، أو جادل فيه ، رغم ما كان من الشعوبية الأعجمية ومن الشعوبية الحميرية ، ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر[1] ، فقول لا يستند الى حجج تأريخية جاهلية ، بل هو يصطدم مع واقع النصوص الجاهلية الواصلة الينا ، وبعضها نصوص لا تبعد عن الاسلام بكثير ، وقد كتبت كلها بلهجات تختلف عن هذه اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، وفي اختلافها عنها دلالة ، على أن الشعوب التي تثبت تلك النصوص لم تكن تكتب بعربية القرآن . وفي هذه الدلالة تفنيد لقول من قال « إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت الى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن ، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران »[2] ، ثم انـي لم أتمكن من العثور على هذا الاجماع الذي أجمع العرب كافة عليه ، والذي لم يعارضه أحد حتى من الشعوبيين والحاقدين على قريش ، وانما وجدت القرآن ، وهو خير الشاهدين يقول : « وهذا لسان عربي مبين »[3] . و « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[4] .

---

١ طه حسين : في الأدب الجاهلي (١٠٥) .
٢ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف (١٣٤) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٤ يوسف ، الرقم ١٢ ، الآية ٢ .

« وكذلك أنزلناه حكماً عربياً »[1] . « وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً »[2] الى غير ذلك من آيات نصت نصاً صريحاً على أن لسان القرآن هو اللسان العربي ، فعينته بذلك وثبتته ، ولم أجد في القرآن آية واحدة ذكرت انه نزل بلسان قريش ولو كان قد نزل بلسانهم وكان لسانهم خير الألسنة وأفصحها ، لما سكت عن ذلك ، لما في النص عليه من أهمية ، بالنسبة الى العرب والى قريش المكابرين المناهضين للرسول ، ثم اني وجدت أن العلماء يذكرون أن في القرآن لغات أخرى ليست من لغة قريش ، وأن فيه ألفاظاً هي بلغة تميم ، أو بلغات أخرى مخالفة للغة قريش وأهل الحجاز ، وان لهم آراء في الأخبار الواردة في انه نزل بلغة قريش ، مثل أخبار تنسب الى (عمر) تارة ، وتنسب الى (عثمان) والى غيره تارة أخرى ، وهي أخبار لا ندري مبلغ درجتها من الصحة أو الباطل ، يظهر انها وضعت تحت تأثير من العصبية السياسية التي ظهرت منذ أيام الرسول فيما بين الأنصار والمهاجرين ، ثم صارت عصبية قحطانية يمانية ، جعلت العرب عربين : فإما الى قحطان وإما الى عدنان ، وليس بينهما جد ثالث .

ثم إنه لو كان قد نزل بلسان قريش ، وكان لسان قريش أفصح ألسنة العرب وأبينها وأبلغها وأكملها ، ولذلك كان نزوله بها حجة للخصوم وإفحاماً للمشركين واحراجاً لهم واعجازاً لهم ، فلِمَ لم يذكر القرآن ذلك ، ولم يبين أنه نزل بلسان قريش أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وإنه انما نزل بلسانهم ليكون حجة عليهم واعجازاً لهم في أن يأتي أبلغهم بآية مثل آياته ، وفي ذكر قريش اذن إفحام لكل العرب . ولكنا نجده على العكس يخاطب قريشاً والعرب بقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[3] ، و « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله »[4] ، فهو يحاججهم على أن يأتوا بمثله ، وباللسان الذي نزل به ، وهو لسان عربي مبين ، لا لسان بعض منهم ، أي بلسان قريش . ولو كان لسان هذا البعض هو أكمل الألسنة وأبلغها وأعذبها وأسلسها وأنقاها كان من الضروري ذكر ذلك إفحاماً للخصوم ،

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٧ .
٢ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٧ .
٣ البقرة ، الرقم ٢ ، الآية ٢٣ .
٤ الاسراء ، الآية ٨٨ .

فعدم النص على ذلك اللسان ، هو أبلغ جواب على أنه لم ينزل به ، وعلى أن لسانهم المذكور لم يكن أكمل لسان عربي .

وأما العوامل التي أوجدها المحدثون في تفسير سبب سيادة لغة قريش على غيرها من اللغات عند ظهور الاسلام ، وهي: السيادة السياسية ، والسيادة الاقتصادية والسيادة الدينية ، وهي عوامل تتصل بها عادة سيادة اللغات [1] ، فهي عوامل وضعوها وضعاً وتخيلوها من غير سند أو دليل ، أقاموها على تصورات أخذوها من أقوال لأهل الأخبار، لا يركن اليها ، ولا يعتمد عليها . وقد حاولت جهدي أن أعثر في مؤلفات القائلين بها على سند واحد يثبت سيادة قريش السياسية على غيرها من القبائل عند ظهور الاسلام ، سيادة قوة وفتح ، أو سيادة نفوذ واعتبار فلم أجد فيها دليلاً واحداً يمكن أن يكون حجة لإثبات تلك السيادة . وكل ما وجدته فيها أحكاماً عامة مطلقة لم تقم على حجة ولا دليل [2] . ثم راجعت الموارد القديمة علني أجد فيها شيئاً ، يثبت هذا التفوق ، فلم أجد فيها أي شيء أيضاً يدل عليه ، بل وجدت العكس ، وجدت أن سادات مكة مثل عبد المطلب وغيره كانوا يراجعون حكام اليمن ويتقربون اليهم ، لينالوا منهم العطف والرعاية، والهبات والألطاف ، وكانوا إذا سمعوا بتبوء ملك منهم كرسي الحكم ، ركضوا اليه يهنئونه ، داعين له بالعمر الطويل ، وبالتوفيق في الحكم ، ثم وجدت فيها أن سادتها كانوا يراجعون حكام العراق وبلاد الشأم واليمن والحبشة ، ويتوددون اليهم بالهدايا ، لكسب عطفهم ، وللحصول على مساعدات منهم ، لتيسير سبل الاتجار مع الأرضين التي كانوا يحكمونها ، وأنهم كانوا يصانعون سادات القبائل ويؤالفونهم ، لضمان حق مرور تجارتهم بأرضهم بأمن وسلام ، في مقابل اتاوات تدفع لهم ، أو هدايا تحمل اليهم ، ثم رأيت ما كان من أمر (هاشم) واخوته من عقدهم الإيلاف الذي أشير اليه في القرآن [3] . ثم وجدت ان أهل الأخبار يقولون ان (قيصر) أعان قصياً على خزاعة [4] ، وأن (عثمان بن الحويرث)

---

١ في الأدب الجاهلي (١٠٦ وما بعدها) .

٢ في الأدب الجاهلي (١٠٥ وما بعدها) ، شوقي ضيف (١٣١ وما بعدها) .

٣ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ .

٤ المعارف (٦٤٠) ، جواد علي ، المفصل (٤/٣٩) .

قد توسط لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة [1]. ورأيت أن أهل الجاهلية، كانوا يعيرون قريشاً بأنها لا تحسن القتال، وانها تجاري وتساير من غلب، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير، وبحلف حليف، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائـــل. فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حيّة الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي) صاحب الحيرة، بـ (سعد بن أبي وقاص)، سأل عنه، فقيل: «رجل من قريش»، فقال: أمـــا إذا كان قرشياً فليس بشيء، والله لأجاهدنه القتـــال. إنما قريش عبيد من غلب، والله ما يمنعون خفيراً، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير» [2]، فهل في هذا الكلام بعد — إن صح بالطبع — ما يشير الى نفوذ سياسي.

بل وجدت أن أهل الأخبار يذكرون أن (قصي بن كلاب)، وهو مجمع قريش وموطد حكمها على مكة إنما بسط نفوذه عليها بمساعدة الروم لـه؛ حيث يقولون: «وجـــاء قصي بن كلاب، فجمع معداً — وبذلك سُمّي مجمعاً — واستعان ملكَ الروم فأعانه، وحارب الأزدَ فغلبهم واستولى على مكة» [3]. وكان الأزد على حدّ قول هذه الرواية قد طردوا جرهم عن مكة واستولوا عليهـــا، فجاء (قصي) وأزاحهم عنهـــا، بمعونة (ملك الروم)، فما كانت قريش لتزيحهم عنها لولا هـــذه المعونة، وقوم يستعينون بالأجانب للاستيلاء على قرية فقيرة هي كل ما ملكوا هل يعقل بعد أن يكون لهم نفوذ سياسي على النحو الذي تصوروه وذكروه!

وقد وجدت انهم كانوا يصطنعون الأحابيش والقبائل، للدفاع عن مدينتهم، وانهم استعانوا بالقبائـــل يوم (الأحزاب) في قتالهم المسلمين. وليس في هذا الاصطناع دلالة على سيادة سياسية، وانما هو دليل الضعف وشراء القلوب وتأليفها بالمال. فإذا كان في هذا الشراء معنى السيادة السياسية، فهو اذن أمر آخر.

وقد رأينا انهم كانوا يصانعون الصعاليك والخلعاء، للاستفادة منهم، وللاستعانة بهم في حماية أنفسهم [4]، ورأينا ان قريش الظواهر كانوا يفخرون على قريش مكة

---

1 المفصل (٤/٣٩).
2 الطبري (٣/٥٧٢ وما بعدها)، (دار المعارف)، المفصل (٤/٣٧).
3 الخزانة (٢/٣٢٤)، (هارون).
4 رسائل الجاحظ (٧٠)، (السندوبي)، جواد علي، المفصل (٤/٦٨).

بأنهم أصحاب قتال ، وانهم يقاتلون عنهم عن البيت[1] ، ثم رأينا أشياء أخرى من هذا القبيل ، تدل كلها على ان قريشاً كانوا ضعفاء غير محاربين ، شأن كل الحضر ، بالنسبة الى الأعراب ، وانهم عمدوا لضعفهم هذا الى رشوة سادات القبائل بالهدايا وبالمال وبإشراكهم برأسمال قوافلهم ، لتأمين مرور أموالهم وتجاراتهم بأرضهم بأمن وسلام . فهل يقال بعد كل هذا انه قد اجتمع لقريش سلطان سياسي ،صار في جملة عوامل سيادة لغة قريش في جزيرة العرب قبيل الاسلام ؟[2] ونحن نعلم ، ان من أهم مقومات السيادة السياسية،ضرورة وجود القوة العسكرية، فالقوة العسكرية ، هي التي بسطت اللغة اليونانية في العالم القديم ، وهي التي نشرت اللغة اللاتينية في أنحاء الانبراطورية الرومانية ، وهي التي أوصلت اللغة العربية في آسية الى حدود الصين ، وفي اوروبا الى الأندلس وسواحل المحيط ، وهي التي جعلت الانكليزية اليوم لغة عالمية ، فكيف نتصور اذن خضوع العرب الشماليين قبل الاسلام أو قبيله ، للغة قريش ، مع ما نعرفه من ضعف قريش في قدرتها على القتال ، ولا سيما في ذلك العالم الذي كان القتال فيه شيئاً مألوفاً ، بل هو عنده من مستلزمات الحياة ، لأنه من وسائل الرزق بالنسبة للأعراب المساكين الذين حرمتهم الطبيعة من خيراتها ، بل حتى من ضروريات الحياة ، عالم لا يحترم فيه إلا القوي الجبار .

ونحن إذا أخذنا بأثر السلطان السياسي في سيادة اللغات ، وجب علينا حينئذ البحث عن البيئات التي جمعت بين القوة والرهبة العسكرية والنفوذ السياسي ،وهي بيئات توفرت في اليمن ، وفي مملكة الحيرة ، التي بلغت حدودها في أيام (امرىء القيس) صاحب نص النمارة ، المتوفى سنة (٣٢٨ م) حدود نجران ، والتي هيمنت على اليمامة والبحرين . وملوك الحيرة،عرب ، لغتهم ولغة أتباعهم العربية . ففي مثل هؤلاء ، الذين كان لهم سلطان سياسي وسلطان عسكري ، يجب التفكير لا في أناس حضر مسالمين قليلين مثل قريش ، ونحن نعلم أن قريشاً كانوا يتوددون الى ملوك الحيرة ، والى ساداتها ، وأن شعراء جزيرة العرب كانوا يقصدونهم من مختلف أنحائها ، باستثناء العربية الجنوبية ، لإنشادهم شعرهم في مدحهم ،

---

١ جواد علي ، المفصل (٤/ ٢٨) .

٢ طه حسين ، في الأدب الجاهلي (١٠٦) .

رجاء تحقيق مطلب ، أو نيل جائزة ، كما كانت الوفود تقدم اليهم ، وتخطب أمامهم ، وكان لهم ديوان بالعربية وبالفارسية ، لكتابة الرسائل الى عمالهم على الأمصار والى سادات القبائل بالعربية ، والى الفرس بالفارسية ، كما كان الفرس يكتبون اليهم بالعربية ، كما أجمعت على ذلك الموارد العربية والموارد الفارسية التي نقل منها المؤرخون أخبار الحيرة الى العربية. وكان لهم — كما يقول أهل الأخبار — ديوان شعر فيه أشعار الفحول وما مدح به النعمان بن المنذر وأهل بيته [1]، وكانت لهم مدارس تدرس الأطفال العربية ، وكذلك كانت لأهل الأنبار ولأهل عين التمر مدارس تدرس العربية، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب، ولما جاء (خالد بن الوليد) الى الحيرة وسأل سادتها : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ! فقالوا له : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقالوا له : ليدلك على ما نقول انه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقتم [2] . فقال تكلم (خالد) معهم بالعربية ، وتفاهم معهم وأيدهم في أن لسانهم هو اللسان العربي الذي لا لسان لهم غيره ، كما أن لسانه هو اللسان العربي . وبهذا اللسان كان يتكلم ملوك الحيرة ويسمعون الشعر ، ويخاطبون الوفود وأتباعهم ، وبه كانوا أنفسهم ينظمون أشعارهم ، لم يجدوا صعوبة في التفاهم مع أحد ، ولم يجد أهل مكة ولا غيرهم ممن كان يأتي الحيرة، صعوبة في التخاطب والتفاهم مع أهلها ، فهل يعني هذا أن أهل الحيرة ، كانوا يتكلمون بلغة قريش وأنهم بفضل تكلمهم بهذه اللغة كانوا يتفاهمون مع الوافدين اليهم من مكة وغيرها من أنحاء جزيرة العرب ! وأنهم لو لم يكونوا يعرفون عربية قريش ، لكان أمر التفاهم معهم صعباً ! اذن فعربية أهل الحيرة ، هي عربية قريش ، أخذوها منهم بسبب نفوذهم السياسي ، وغلبة لسانهم على ألسنة العرب ! ولكن لو كان الأمر كذلك ، فلِمَ كان جواب أهل الحيرة لخالد حين سألهم : ويحكم ما أنتم ! أعرب ؟ نحن عرب عاربة وأخرى متعربة ، وليدلك على ما نقول ، إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، ولم يقولوا له ، إنه ليس لنا لسان إلا

---

١ ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (٢٣) .

٢ الطبري (٣/٣٦١) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .

بالقرشية ، أو بعربية قريش أو بعربية قومك ، وأمثال ذلك من عبارات يقتضيها الموقف للتقرب من القائد المنتصر ، ولإثبات أنهم مثله ، وهو قرشي يتكلمون بعربيته القرشية المبينة ! فهل يعتزون بتكلمهم بلسان قريش ، أفصح ألسنة العرب ويتباهون به ! ولو كان ذلك اللسان لسان الأدب الرفيع عندهم لما سكتوا من تسميته بلسان قريش أبداً !

ثم خذ ما ذكره أهل الأخبار عن فتح (الأنبار) تراهم يقولون : « ولما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إياد لو انهم أمم ... أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق اذا ... ساروا جميعاً والخط والقلم[1]

ولو كان أهل الأنبار يكتبون بلغة قريش ، لما قال أهل الأخبار ان (خالد) وجدهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها،ولقالوا حتماً انهم كانوا يكتبون بلسان قريش. ثم ان نصهم دوماً على ان لسانهم كان عربياً ، وديوان أهل الحيرة انما كان بالعربية ، وان كتابتهم انما كانت بالعربية ، دليل في حد ذاته على ان المراد بالعربية ، العربية المطلقة ، لا المقيدة ، أعني عربية قريش .

الحق أقول : انني اذا فكرت تفكير علماء العربية المحدثين ، الذين نسبوا تفوق اللغات على اللهجات الى السيادة السياسية والسيادة الاقتصادية وأمثال ذلك من سيادات ، فإني لن أفكر في موطن أينعت فيه العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشأم والعراق ، فقد أمدتنا بلاد الشأم بنصوص وإن كانت — كما سبق أن قلت — قد دونت بلهجة نبطية ، لكنها لم تتمكن مع ذلك من التستر على لهجة أصحابها الأصلية . ففي نص (النمارة) مثلاً الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨ م) ، عبارات مثل (ملك العرب كله) ، و (ملك الاسدين ونزرا وملوكهم) ،

---

١ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الأنبار) .

و (هرب مذحجو) ، و (مدينة شمر) ، و (ملك معدو) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، و (هلك سنة) ، يفهم منهـا بكل جلاء ووضوح ان أصحابها كانوا يتكلمون بلهجة عربية شمالية ، هي هذه اللهجة التي نسميها العربية الفصيحة ، والتي تستخدم (ال) أداة للتعريف . وفي نص (شرحيل بن ظالم) ، الذي يعود تأريخه الى سنة (٥٦٨) للميلاد الذي هو : « انا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعـد مفسد خيبر بعام » ، وهو نص لا يبعد عن ميلاد الرسول إلا بسنتين ، نرى عربية (ال) واضحة ظاهرة طاغية على هذا النص ، بحيث تشعرك ان النص وان كان كالنص السابق قد دوّن بلهجة متأثرة بالنحو النبطي ، غير ان أصحابـه كانوا يتكلمون بعربية شمالية ، فهم اذن ممن كانوا يتكلمون بعربية (ال) بكل تأكيد ، بدلالة هذه النصوص . وعربية (ال) هي عربية الشعر الجاهلي .

وحيث ان صاحب نص (النمارة) هـو الملك (امرؤ القيس) ، من ملوك الحيرة ، وقد كتب أصحابه شاهد قبره ، باللغة التي بينتها ، ووضعوه على قبره، فلغة أصحابه اذن ، هي لغة (ال) ، أي العربية الفصيحة . فنحن نستطيع أن نستنبط من ذلك ، ان عرب الفرات في العراق كانوا يتكلمون بهذه اللغة في القرن الرابع للميلاد ، أي قبل أن تظهر سوق (عكاظ) ، وقبل أن يولد (النابغة) الذبياني ، حاكم هذه السوق عـلى زعم أهل الأخبار ، وقبـل أن تقوم قريش بالغربلة المزعومة للغة ، وقبل بروز قريش وولادة (قصي) بزمن طويل .

ثم إن ملوك الحيرة على الأخص ثم ملوك الغساسنة كانوا كعبة الشعر والشعراء، اليهم كان يذهب الشعراء ، يقفون على أبوابهم ساعات وأياماً ليسمح لهم (الحاجب) بالدخول على الملك لإنشادهم أشعارهم أمامهم ، وقد كانوا قد اتخذوا — كما يقول أهل الأخبار — أيامـاً يسمح فيها للشعراء بالتباري في انشاد أشعارهم أمامهم ، وعرض ما عندهم من بضاعة نفيسة في الشعر ليراها الشعراء المجتمعون عنـده ، ولم نسمع أن الشعراء كانوا يقصدون تجار قريش للتباري أمـامهم بإنشاد الشعر ، أو أنهم كانوا قد اتخذوا موسماً يقصده الشعراء من سائر أنحاء جزيرة العرب للتباري بقول الشعر ، لا في موسم الحج ولا في غيره . إن سادة مكة تجـار ، والتاجر لا يعرف إلا الكسب وجمع المال ، وما شأنه وبضاعة الشعر ! لقـد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة قدوة لملوك بني أمية ولبني العبّاس في تبنّيهم الشعر والشعراء،

وفي ترويج سوقه وتنشيطه ، وإعطائه قوة وصولة ، قد يكون عن طبيعة فيهم وطبع ، وقد يكون عن سياسة وغرض ، لاتخاذ الشعراء محطات اذاعة أو صحف للترويج بسياسة ملك ، وللحط من شأن خصمه ومنافسيه ، وللرد على الشعراء المعارضين . على كل فقد كانوا يستذوقون الشعر ويميزون الجيد منه من الفاسد ، ويظهرون عيوبه أمام الشعراء،ويحسنون الى الشعراء من أجاد منهم ، ومن لم يجد، فكان هذا التشجيع في جملة العوامل المشجعة على نظم الشعر . وإذا كان لبني أمية فضل على الشعر الجاهلي بالاستماع إليه من أفواه الرواة ، وبالحث على حفظه وتدوينه . وإذا كان لبني العباس فضل على الشعر والعربية والعلوم بتشجيعهم العلماء واستدعائهم الى مجالسهم للاستماع اليهم ، فصاروا بذلك جميعاً حماة العربية ، فإن ملوك الحيرة وملوك عرب الشأم ، كانوا قد مهدوا الجادة قبلهم لمن ذكرت ، ورفعوا بعملهم المذكور من مستوى العربية ، وعملوا عملهم في صقلها وفي توحيدها ، وفي تقريب الألسنة بعضها من بعض والناس على دين ملوكهم ، وأكثر شعراء الجاهلية كانوا على اتصال إما بهؤلاء الملوك ، وإما بأولئك .

وإذا أضفنا الى هذا التشجيع ، والسيادة السياسية التي كانت للملوك الحيرة على نجد والبحرين ، عامل التقدم الثقافي الذي كان لعرب الحيرة والأنبار والقرى العربية في العراق وفي بلاد الشأم على أهل البوادي ، بل وعلى أهل مكة كذلك ، الذين تعلموا خطهم من أهل الحيرة ، لزم علينا القول ان العربية المبينة التي درست في مدارس عرب العراق ، كانت قد تقدمت في العراق أكثر من أي مكان آخر في جزيرة العرب بالنسبة لأيام الجاهلية ، ولعلّ هذا التقدم هو الذي أكسب العراق شرف وضع علوم العربية ، وتفرده من بين سائر الأقطار الإسلامية ، بجمع الشعر الجاهلي وقواعد العربية وعلوم الشعر واللغة ، وإلا فلا يعقل ظهور هذه العلوم في هذه الأرضين من غير ماضٍ ولا علم سابق، ولا أسس بنى عليها المسلمون بناءهم الجديد .

وأما ان تلك السيادة السياسية ، كانت في حدود ضيقة ، في حدود القبائل القريبة من قريش ، والمواضع التي كانت لها مصالح بها ، فذلك موضوع آخر ، له ما يبرره ، فقد كان لسادات مكة مصالح اقتصادية في الطائف ، وكان لهم أملاك وبساتين ، ولهم بيوت يقضون بها صيفهم ، كما كانت لهم مصالح مشابهة مع المواضع الأخرى ومع القبائل ، لا مجال لنكرانها أبداً . ولكن ما صلة هذه

الأمور باللغة ، ومن قال من القدماء إن قريشاً فرضت لغتها على أهل تلك المواضع والقبائل فرضاً ، أو ان أدباء تلك المواضع أو تلك القبائل ، أخذوا لغة أدبهم من قريش ؟ أو ان سياسة قريش كانت ذات نفوذ واسع عميق ، تركت أثراً كبيراً في النفوس جعلت العرب من أجل ذلك يمجدون لغة أهل مكة ، ويعتبرونها اللغة العالية ، أما لغاتهم فلغات رديئة دونها في المنزلة والمكانة، مع اننا نعلم ما للعصبيات القبلية من أثر في التعصب الى اللهجات ، ثم اننا نرى ان كتب أهـل الأخبار واللغة ، تذكر ان القبائل التي كانت تجاور مكة ، كانت تتكلم بلهجاتها الخاصة بها ، وان أهل الطائف ، أي ثقيف ، كان لهم لسانهم الخاص ، وان (أهل الحجاز) ، أي قريش وغيرهم ، كانوا يتكلمون بلهجات خاصة ، سمّاها علماء اللغة لغات (حجازية) ، ولم يسموها (قرشية) ، ولو كانت تلك اللهجات، لغة قريش ، لما دعاها العلماء (لغة أهل الحجاز) ، أو (حجازية) ، وقالوا : (ما الحجازية) ، وعلى (لغة أهل الحجاز) ، ولقالوا : (لغـة قريش) وعلى (لغة قريش) ، وهكذا، أضف الى ذلك اننا قلما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة قريش عن بقية لغات العرب ، وانما نقرأ أمثلة على اختلاف لغة أهل الحجاز مما يدل على وجود فرق بين اللغتين ، وان لغة قريش ، لهجة من لهجات أهل الحجاز ، لا انها الأصل . وقد رأينا وجود (الغمغمة) في لغة قريش ، وقد نص علماء اللغة أنفسهم على وجودها في تلك اللغة[1] .

ثم من في استطاعته اليوم اثبات ان عرب اليمامة أو عرب نجـد ، أو عرب البوادي ، كانوا تحت تأثير لغـة قريش ، أو تحت تأثيرها السياسي ، ولذلك كانوا ينظمون شعرهم بها ، ويخطبون بها ، والنصوص التي عثر عليها في اليمامة وفي مواضع من نجد تثبت خلاف ذلك ، تثبت بالدليل القاطع ان لهجة نصوصهم لم تكن على شاكلة لغة قريش ، فكيف نصدق رأي من يرى ان أعراب باطن جزيرة العرب ، كانوا ينظمون الشعر بلسان قريش ! مع وجود هـذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها ، والتي لا يزال العلماء يعثرون عليها الى يومنا هـذا ، لا في نجد واليمامة والبحرين فقط ، وانما في أرض الحجاز نفسها ، وعلى مسافات غير بعيدة من يثرب ومن مكة ، ومن الطائف ، وهي بلهجات تختلف عن لهجة

---

١ « الغمغمة : الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة » ، تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .

القرآن الكريم ، وبخط يختلف عن الخط الذي دوّن الوحي به ! وليست هـذه النصوص مغرقة في القدم ، حتى يعترض معترض ، فيقول اننا نقول : إن لغة قريش ، صارت لغة الشعر ، ولغة الأدب ، مع ظهور الشعر الجاهلي ، أو قبله بزمن غير بعيد ، لأن بين هذه النصوص ، نصوص لا يرتقي عهدها عن الاسلام إلا بزمن يسير !

وأما ما يقصونه علينا من نفوذ السلطان الاقتصادي الذي كان لقريش وعـن أثره في سيادة لهجة قريش على لهجات العرب ، فأنا أقرأ أن مكة كانت مدينة تجار وتجارة ، وبيع وشراء ، واستيراد وتصدير ، وليس من حق أحد أن ينكر ذلك ، بعـد أن نص القرآن على اتجارهم ، وعلى وجود رحلتين لهم : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وبعد أن زخرت كتب الأخبار والتأريخ بأخبار تجارة رجالها . ولكن هل كانت مكة ، المدينة المتاجرة الوحيـدة في جزيرة العرب ؟ والجواب : كلاّ ، فقد كانت لأهل اليمن تجارة مع مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان سادات اليمامة والبحرين من الأثرياء الثقـال في بلادهم ، وكانوا أصحاب تجارات ، وكانت اليمامة خاصة ، ريف مكة تمونها بالميرة والمنافع ، وكان ساداتها إذا غضبوا عليها قطعوا الميرة عنها ، فيصيبها من ذلك غم كبير ، وتضطر عندئذ الى مصالحتهم . فلما جاءهم ثمامة بن أثال الحنفي ، سيد أهل اليمامة ، وقالوا له: « يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ، قال : لا أدري ما تقولون ، إلا أني أقسمت بربّ هذه البنية لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم . وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمـامة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم ، كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وان ثمامة قد قطع عنّا ميرتنا وأضرّ بنا ، فإن رأيت أن تكتب اليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خل بـين قومي وميرتهم »[1] . وكان تجـار البحرين يحملون تجارتهم من أقمشة ومن تجارة البحر الى مكة ، كما كان ملوك الحيرة يبعثون بلطائمهم الى الأسواق ومنها سوق عكاظ ، وكان الحضر وأهل القرار في كل جزيرة العرب تجاراً ، ومنهم أهـل

---

١ الاستيعاب (٢٠٦/١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

يثرب ، ويهودها ويهود وادي القرى ، ويعود سبب اشتهار مكة بالتجارة دون غيرها من قرى ومدن جزيرة العرب ، الى القرآن الكريم ، فإليه وحده يعود فضل اشتهارها بالتجارة ، لما جاء فيه من ذكر عن قساوة تجار قريش وغلظهم تجاه الفقراء ، ومن أكلهم أموال اليتامى والأرامل والبنات ، ومن تعاطيهم الربا ، ومن اتجارهم برحلتي الشتاء والصيف الى غير ذلك من أمور حملت علماء التفسير والأخبار على التنقير عن أخبار تجارة مكة وعلى جمع ما حصلوا عليه في كتبهم ، ولو نزل في القرآن الكريم شيء عن تجارة وتجار مواضع أخرى مسماة باسمها لحصت تلك المواضع بعنايتهم من دون شك ولا ريبة ، ثم إن مدينة الرسول ، وقد اشتغل الرسول نفسه بالتجارة ، وكان والده وبقية عشيرته تجاراً ، وكانت زوجه خديجة تاجرة ، فحمل كل هذا علماء السيرة على البحث عن تجار مكة وعن تجارتها قبل الإسلام ، وعن المواضع التي تاجروا معها . فظهرت مكة من ثَمّ وكأنها المدينة الوحيدة التاجرة في جزيرة العرب !

وأما ما يذكرونه عن النفوذ الديني الذي كان لقريش على العرب ، فالذي أعرفه من أمر الدين عند أهل الجاهلية ، انهم كانوا بين مشرك ، وهم الكثرة الكاثرة ، وبين يهود ، وهم قلة ، وبين نصارى ، وهم أكثر من اليهود عدداً ، وبين جالية مجوسية ، قلدها في دينها نفر من العرب لا يعبأ بعددهم . أما الشرك ، فقد تتبعناه في الجزء السادس من هذا الكتاب ، فوجدنا ان لكل قبيلة صنماً ، كانت تتقرب اليه وتنذر له وتستعين به في حربها وغزوها ، ولم تكن العرب تحج الى صنم واحد ، هو صنم قريش ، بل كانت تحج الى أصنامها ، ووجدنا ان (هبل) هو صنم أهل مكة وكفى . ثم رأينا ان لأهل نجران كعبة ، ولأهل يثرب محجة ، ولإياد كعبة ، ولثقيف محجة ، وللقبائل الأخرى محجات ، وللنبط محجة ، ولأهل العربية الجنوبية معابدهم ، ولم نقرأ في أي نص من نصوص أهل الجاهلية انهم حجوا الى مكة ، أو ان أحداً منهم ذهب اليها لغرض من الأغراض الدينية أو أي غرض آخر ، ولم يرد اسم مكة في أي نص من هذه النصوص . ولم نسمع في أخبار أهل الأخبار ، ان قوافل من عرب العراق أو عرب بلاد الشأم أو نجد أو العروض ، كانت ترحل في موسم الحج الى مكة لفرض تأدية الحج ، أو أداء العمرة في رجب ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك الحيرة قيل انه حج الى مكة ، ولم أقف على اسم ملك من ملوك كندة أو بقية العرب ذكر انه حج

في جاهلية الى مكة ، اللهم إلا ما زعموه من حج التبابعة اليهـا ، وقد تعرضنا لطبيعة أمثال هذه الدعاوى القحطانية التي وضعتها العصبية الى اليمن في الاسلام ، وكلها أساطير وخرافات . ولو كان الحج الى مكة عاماً عند كل مشركي جزيرة العرب ، لما سكتت الأخبار عن ذكر من كان يفد الى الحج من الأماكن البعيدة ، ولظهر أثره في الشعر على الأقل .

وأما اليهود والنصارى والمجوس ، فقد كانوا على دينهم ، لا يحجون البيت ولا يتقربون اليه . فلهم عبادتهم الخاصة بهم . فلا نفوذ لقريش اذن عليهم من ناحية الدين .

نعم ، قد يقال لي : ولكن ما قولك في هـذا الاجـماع الذي نراه في كتب التواريخ والأخبار من حـج التبابعـة الى مكة ومن تقربهم الى الكعبـة بالكسوة والألطاف ، وقد كانوا أول من كساها من العرب ؟ ثم ما قولك في هذا الشعر الذي قالوه في مدح البيت وفي التقرب اليه وفي الايمان بالله وبرسوله قبل ظهوره بل قبل مولده بمئات من السنين ؟ ثم ماذا تقول من اشادة (عـدي بن زيد) العبادي بالبيت وقسمه به في شعره ، وهو يخاطب النعمان بن المنذر ، الملك الغاضب عليه[1] ؟ وماذا تقول في قول القائلين ، من الشعراء الجاهليـين الآخرين في تعظيم البيت وفي التقرب اليه ، وقسمهم به[2] ؟ ومن مجيء العرب الى مكة من كل حدب وصوب للعمرة أو للحج ؟ ثم ماذا ستقول في أشياء أخرى من هذا القبيل تفنـد كلها قولك ، وتثبت وجود نفوذ قريش على القبائل وخضوع القبائل لها في أمور الدين ؟

أما حج التبابعة البيت ، فهو حج ولد في الاسلام ، أولدته العصبية القحطانية العدنانية ، التي تحدثت عنها ، وأما الكسوة ، فهي من مولدات ومخترعات هذه العصبية أيضاً . وأما الشعر الذي نسب الى التبابعة ، فهو من فصيلة الشعـر الذي روي على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن ، وأما المحجات ، فقد بحثت عنها في الجزء السادس من هذا الكتاب[3] . وقد سبـق لي أن تحدثت عن مخترعات أخرى

١ تاج العروس (٥/٥٣٤) ، (ودع) .
٢ مثل زهير ، والنابغة ، وعوف بن الاحوص ، جواد علي ، المفصل (٦/٤٣٠) .
٣ (ص ٤٤٤ وما بعدها) .

كثيرة غير هذه ، أوجدتها العصبية القحطانية العدنانية ، منها خلق أنبياء قحطانيين ، وجعل العربية الأولى ، عربية قحطانية ، وجعل العرب العدنانيين عرباً مستعربة ، الى غير ذلك من ابتكارات، أوجدها القحطانيون ، بعد أن ذهب الحكم منهم ، وصاروا تبعاً لقريش في الاسلام ، فأخذوا ينبشون الماضي ويبحثون في الدفاتر العتيقة ، ويضعون ويفتعلون ، للغض من خصومهم ، ولإظهار انهم كانوا هم اللب والأصل ، وان خصومهم جاء اليهم الحكم عفواً ، من غير أصالة ولا مجد تليد ، فهم أصل كل مجد وفخار .

وقد تعرض العلماء لهذا الموضوع القائم على العصبية ، فقال (ابن فارس) : « فأما من زعم أن ولد اسماعيل — عليه السلام — يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية ... فليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب . ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات فلسنا ننكر أن تكون لكل قوم لغة . مع أن قحطان تذكر أنهم العرب العاربة وأن مَنْ سواهم العرب المتعربة ، وأن اسماعيل — عليه السلام — بلسانهم نطق ، ومن لغتهم أخذ، وإنما كانت لغة أبيه صلى الله عليه وسلم ، العبرية »[1] . فأنت أمام رأيين متناقضين ، يدعي أصحاب كل رأي منهما أنهم هم العرب ، وأن لسانهم هو اللسان العربي الفصيح المبين ، وأن من سواهم فغتم ، وأصحاب ألسنة فاسدة رديئة .

وأما ما زعموه وحكوه عن أدوار تهذيب اللغة ، ومن انفتاق العربية بلسان اسماعيل الى اختتامها بالدور العكاظي ، وهو آخر أدوار التهذيب اللغوي ، فأقول انها أقوال بنيت على أخبار صنعتها العواطف والمشاعر العصبية الضيقة التي ظهرت بأجلى مظاهرها في صدر الإسلام ، عصبية قبلية قديمة كانت بين يثرب ومكة ، أو بين اليمن ومكة ، إزدادت شدة وقوة في الإسلام ، بسبب استيلاء قريش على الحكم ، فاستغلت العواطف الدينية لتأييد هذه العصبية السياسية . بجعل قريش تاجرة جزيرة العرب ، وزعيمتها في اللغة ، وموطن الفصاحة والبلاغة ، وبجمع علماء اللغة الذين كانوا يأخذون ويعطون ويقررون كل ما هو سلس من الكلم وما هو بليغ وفصيح ، حتى جعلوا كلام الله المنزل على رسوله بلسان عربي مبين ، لسانَ قريش ، والله تعالى يقول : « قرآناً عربياً ، ولم يقل قرشياً »[2].

---

١ الصاحبي (٥٦) .

٢ ابن كثير ، فضائل القرآن (٧٧) .

والعربية عربية العرب جميعاً من أنصار ومهاجرين ، أهل بادية وقرى . « قال الأزهري : وجعل الله عز وجلّ ، القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبة الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً لأنـه من صريح العرب »[1] . فلسان القرآن ، لسان العرب جميعاً من مهاجرين وأنصار ، لا لسان قريش خاصة ، والنبي وان كان من قريش ، لكنه كان عربياً من صريح العرب ، ودعوته ، لم تكن دعوة ضيقة خاصة بقريش ، إنما كانت دعوة عامة جاءت الى كل العرب، قوم النبي ، ولهذا نزل بلسانهم وبهذا جاءت الآية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[2] ، ثم الى الناس عامة لحديث : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحـد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عامة »[3] .

وأما ما زعموه من تخير قريش وانتقائها أفضل لغات العرب ، حتى صار لسانها أعرب الألسنة ، فزعم بني على خبر « روي عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، انه قال : قريشٌ هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة »[4] ، وعلى خبر ينسب الى قتادة نصه : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها »[5] . وهو خبر لا زال يردد ويكرر يوضع بين أقواس تارة وبغير أقواس تارة أخرى ، استشهاداً به حتى وكأنه صار آية نزلت من السماء ، مع كون (قتادة) من الضعفاء ، وقد تحدث عن (ابن عباس) مع انه لم يلتق بـه ، ونسب له أقوالاً شاعت بين الناس ، مع انه لم يره ولم يسمع منه ، فهل يؤخذ بعد بقوله على انه حجة ، أو كأنه آية نزلت من السماء ! وهل نقبل خبره عن

---

١ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٢ سورة ابراهيم ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (١٣/١٢١) ، تفسير الألوسي (١٣/١٦٦) .
٣ تفسير ابن كثير (٢/٥٢٣) ، (سورة ابراهيم) .
٤ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٥ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .

اجتباء قريش أفضل لغات العرب ، على انه حجة يستدل بها على أدوار التهذيب!

وأنت لو رجعت الى خبر : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم ان قريشاً أفصح العرب وأصفاهم لغة . وذلك ان الله – جل ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في أمورهم . وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم .. الخ »[1]، تجده منقولاً نقلاً حرفياً في كل موضع تعرض الى أفصح العرب ، أو العربية الفصحى ، أو اللغة التي نزل بها القرآن ، بسند أحياناً وبغير سند أحياناً أخرى، حتى ظهر وكأنه خبر متواتر ، وإجماع لم يخرج عليه عالم من العلماء ، فأخذ به المحدثون ، وقالوا قولهم المذكور ، ولكنك لو تتبعت الخبر ، وعملت رأيك في حرفية نصه في كل الموارد ، ثم وقفت على آخر مورد قديم ذكره ، ترى انه خبر آحاد ، ورواية واحدة ليس غير ، اكتسب هذا الاجماع بسبب وروده بالحرف في تلك المؤلفات ، فهو لا يفيد قطعاً ، وانما حكمه حكم الأخبار الآحاد.

ثم ان ما ذكروه من صفاء لهجة قريش ومن فصاحتها ، يعارضه قولهم بوجود (غمغمة) في لغتها . فقد قالوا : الغمغمة : « الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة »[2] ، كما يعارضه قولهم بوجود التضجع في لغة قريش ، فلما تحدث (ثعلب) عن معايب اللغة ، قال : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضجع قريش ، وعجرفية ضبّة »[3] ، مما يدل على انه قصد بـ (تضجع قريش) ، عيباً من العيوب في الفصاحة . وفي وصف لغة قريش بالتضجع مناقضة لابتداء كلامه بـ « ارتفعت قريش في الفصاحة عن .. » ، كما لا يخفى . وعلماء العربية والأخبار يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، وهو شيء مألوف عنهم ، لأنهم كانوا يعمدون الى الرواية والاملاء عن ظهر قلب في الغالب ، لا عن كتاب مدوّن وصحف مكتوبة ، فلا غرابة إن ظهر هذا التباين في كلامه في هذا المكان .

---

١ الصاحبي (٥٢) .
٢ تاج العروس (٦/٩) ، (غمم) .
٣ المزهر (٢١١/١) .

ثم ان علماء العربية ، حين يبحثون في النحو أو في الصرف ، أو في مفردات اللغة عن الغريب والشاذ ، يذكرون فيما يذكرون لغة قريش ، ولغة أهل الحجاز ، فيقولون : « ... لغة قريش »[1] ، و « بلغة قريش » ، كما يقولون: « لغة تميم » ، ولغة طيء ، ولغة يمانية ، ولغـة أسد ، وغير ذلك . ولكنهم يقولون أيضاً : « يقول أهل الحجاز : قَتَر يَقْتِر ، ولغة فيها أخرى يقتُر بضم التاء ، وهي أقل اللغات »[2] ، وجاء : « وفي أمالي القالي : لغة الحجاز ذَأى البقْل يذأى ، وأهل نجد يقولون : ذوى يذوي »[3] الى غير ذلك ، وفي ذكرهم لغـة قريش ولغة أهل الحجاز ، مع اللغات الأخرى في مثل هذه المواضع دلالة بينة على ان العربية الفصحى ليست عربية قريش ، وإنما عربية أخرى ، هي العربية التي نص عليها في القرآن ، أي العربية التي نزل بها الوحي ، وإلا كان من السخف ذكر لغة قريش ، حين الإشارة الى الغريب والشاذ ومواضع الاختلاف .

وأما استشهادهم بحديث : « أنا أفصح العرب ، بيـد اني من قريش » أو « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعـد » ، أو « أنا أفصح من نطق بالضاد ، بيد اني من قريش »[4] ، لإثبات أن قريشاً كانوا أفصح العرب ، بل أصل الفصاحة ، فالحديث من الأحاديث الغريبـة الضعيفة ، رواه أصحاب الغريب ، كما نص على ذلك العلماء[5] ، فهو لا يفيـد حكماً علمياً لضعفه هذا ، ولا يصلح أن يكون أساساً لاستشهاد . وقد يكون من موضوعات العصبية العدنانية القحطانية، وقد يكون من الأحاديث التي رويت من باب الاشادة بقريش لكونهم قوم الرسول ، وبالإشادة بذكرهم وتعظيمهم في كل شيء وجعل لسانهم أفصح الألسنة خدمـة في رأيهم للإسلام وللرسول وللقرآن الكريم . وليس هذا بشيء غريب ، فقد عهدنا أهل الأخبار يروون شعراً ونثراً على ألسنة التابعة والأقوام الماضية بل والجن والكهان في الحث على الايمان بالرسول ، قبـل ميلاد

---

١ تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) ، المزهر (١/٢١٥) .
٢ المزهر (١/٢١٥ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢١٥) .
٤ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (١١) ، (عبدالسلام محمد هارون) ، وورد « ميداني » ، (من أجل اني) ، أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالي بني سعد ، بيد أني من قريش) .
٥ المزهر (١/٢٠٩ وما بعدها) .

الرسول بزمن ، وقبل ظهور الاسلام . وهو مقبول عندهم ، ودليل ذلك تسطيره في كتبهم وروايتهم له .

ولو تجوزنا وقبلنا بالحديث ، واعتبرناه حديثاً صحيحاً ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم منه ما فهموه هم من انه عنى ان قريشاً أفصح العرب ، وانه صار أفصح العرب ، من أجل انه من قريش ، لأن معنى (بَيْدَ) على تفسير علماء العربية هو : (غير) و (على) ، والأول أعلى . « يقال رجل كثير المال ، بيد انه بخيل . معناه غير انه بخيل »[1] ، ولو أخذنا بالتفسيرين المذكورين قلنا يجب أن يكون معنى الحديث على هذا النحو : « أنا أفصح العرب ، غير اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، أو « أنا أفصح العرب ، على اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد » ، ومعناه بعبارة مبسطة أنا أفصح العرب ، وان كنت من قوم منهم ، هم قريش ، لهم لسانهم ، وقد نشأت في بني سعد . وقريش كما نعلم بعض العرب ، لا كل العرب . وليس في هذا المعنى أية دلالة على تخصيص قريش بالفصاحة ، وعلى ان لسانها أفصح الألسنة . وكل ما فيه إشادة بفصاحة الرسول وحده ، وإفادة بأنه أفصح العرب ، فلا أحد أفصح وأنطق منه ، فهو حديث يفيد التخصيص لا التعميم ، وهو خاص بفصاحة الرسول . وهو لذلك لا يمكن أن يكون حجة على تفضيل لسان قريش على الألسنة الأخرى ، ولأجل تحويله الى حجة فسّروا لفظة (بيد) تفسيراً جعل الفصاحة للرسول ولقومه فقالوا : « ويأتي بيد بمعنى : من أجل . ذكره ابن هشام »[2] ، فصار معنى الحديث : « أنا أفصح العرب ، من أجل اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر » . فالرسول وفق تفسيرهم هذا ، أفصح العرب من أجل انه من قريش ، ففصاحته مستمدة منهم ومن (بني سعد بن بكر) ، وصارت قريش في نظرهم أفصح العرب لساناً ، وأصفاهم لغة . مع انهم يذكرون فيما يذكرون عن كلام الرسول ، ان (عمر بن الخطاب) قال للرسول يوماً : « يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من ظهورنا .. »[3] ، وان رجلاً آخر سأله بقوله : « يا رسول الله ما أفصحك ! فما رأينا الذي هو أعرب منك .

---

١ تاج العروس (٣٠٨/٢) ، (باد) .
٢ تاج العروس (٣٠٨/٢) ، (باد) .
٣ المزهر (٢٠٩/١) .

قال : حق لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين . وقال الخطابي : اعلم ان الله لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ثم أمده بجوامع الكلم . قال : ومن فصاحته أنه تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، كقوله : مات حتف أنفه ، وحمي الوطيس ... الخ »[1] . وفي حديث (عمر) إن صح : « ولم تخرج من بين أظهرنا »[2] صراحة بتعجب عمر من هذه الفصاحة التي كانت للرسول مع أنه لم يخرج من بين أظهرهم ، أي من مكة ، ولو كان لسان قريش أفصح الألسنة لما قال عمر للرسول قوله المذكور ، الذي يدل على أن الفصاحة في خارج قريش ، وعند الأعراب . وفي جواب الرسول على الرجل من قوله : « حقّ لي ، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسان عربي مبين »[3] ، — إن صح هذا الحديث — تفنيداً لقول القائلين بنزوله بلغة قريش ، ولو كان قد نزل بلغتهم لقال : « بلسان قرشي مبين » ولم يقل أحد من العلماء إن اللسان العربي ، هو لسان قريش ، بل نجدهم يقولون دائماً : لسان قريش ، ولغة قريش ، ونزل بلسان قريش ، ويذكرون هذا اللسان مع الألسنة الأخرى ، مثل لسان تميم ، وهذيل ، وبني سعد بن بكر .

وأما ما قالوه من أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول ، لم تجد صعوبة في التفاهم معه،وان الرسول حين أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ليعظهم ويعلمهم ما وجد صعوبة في التفاهم معهم ، وأنهم لو لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى ، لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً ، « وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الاسلام »[4] ، فيعارضه ما ذكروه من أنه « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من

---

١ المزهر (٢٠٩/١) .

٢ المزهر (٣٥/١) .

٣ المزهر (٣٥/١) .

٤ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي (١٢٢ وما بعدها) .

وفود العرب الذين لا يوجه اليهم الخطاب ، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة، حتى قال له علي بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ، وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ! فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه عما يجهلون معناه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[1] . وفي هذا الخبر — إن صح — دلالة على الضد ، دلالة على ان العرب كانت على سجيتها ولسانها في كلامها ، وانها لم تكن تنطق بلسان قريش بل بألسنتها ، وإلا لما تعجب عليّ وغيره من كيفية تفاهم الرسول مع القبائل وعدم تمكنهم هم من فهم كلامهم ، مع انه واياهم من أب واحد ، أي من قريش . ثم من أكد لنا ان معاذ بن جبل ، وهو من الأنصار لم يجد صعوبة في تفاهمه مع أهل اليمن ، وان وفود اليمن لم تجد صعوبة في تفاهمها مع الرسول ، ومن أين جاء هذا التأكيد ؟ والذي نعلمه ان الموارد لم تتحدث عن ذلك ، بل الذي رأيناه هو العكس ، وهو ما ذكرته في خبر عليّ مع النبي . أما لو أخذنا بما نجده في الموارد من كلام الوفود مع الرسول وجواب الرسول على كلامهم ، وكله بهذه العربية المبينة ، فقد قلت مراراً إن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ولا كلام الوفود مع الرسول ، بل ولا كلام الرسول وحده ، أي حديثه ، وان ما نقرأه من نصوص لا يمثل الأصل ، وربما مثل المعنى ، وقد يكون لا هذا ولا ذاك ، وانما روايات موضوعة ، قد يحتمل أن يكون مع الوفود أناس يحسنون التكلم بالعربية المبينة ، وان بين أصحاب النبي من كان من العربية الجنوبية ومن القبائل التي كانت تتكلم بلهجات متباينة ، فكانوا يقومون له بدور التفاهم والتقريب بين كلام الرسول وكلام الوفود .

وأما ما زعموه من دور (عكاظ) في تهذيب اللغة ، وأثر قريش فيه ، فلئن كان لعكاظ أثر في تباري العرب في النثر وفي الشعر ، فإنك لا تستطيع إرجاع هذا الأثر الى عمل وفعل جماعة معينة ، وليس في الذي تحدث به الرواة من أخبار عن (عكاظ) ما يحصر فعل هذا التهذيب بقريش ، وما قريش إلا كغيرهم من

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٣٣٥) ، (رواية اللغة) .

قصاد هذا المكان من حيث المجيء للبيع والشراء والإتجار . لم تكن الحكومة لهم بعكاظ ، وإنما كانت لتميم ، وتميم من أشهر الناس في فنون الخطابة والكلام . ودليل ذلك ، ما يورده أهل الأخبار عن خطبائهم وحكمائهم من كلام ، وما ينسبونه اليهم من حكم وخطب بليغة ، ثم إن هذه السوق لم تظهر إلا في أيام الرسول وقبل خمس عشرة سنة من الإسلام . وقيل إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع (المختار بن عوف) سنة تسع وعشرين ومائة [1] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (عكاظ) سوق «كانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون» ، وأنهم كانوا «يقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك» [2] ، وذكروا ان الشاعر النابغة الذبياني كان يأتيها فينشد الناس من شعره ، «وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية [2] فأنشدته» [3] ، وذكروا أن في شعر (أمية بن خلف) الخزاعي ، اشارة الى مكانة هذه السوق عند الشعراء ، حيث يقول :

ألا من مبلغ حسان عني   مغلغلة تدب الى عكاظ

فأجابه (حسان) في أبيات تشير أيضاً الى هذه الأهمية ، وذلك بقوله :

أتاني عن أمية زور قول   وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر ان بقيت لكم كلاماً   ينشر في المجنة مع عكاظ
قوافي كالسلاح إذا استمرت   من الصم المعجرفة الغلاظ [4]

فلم يشر حسان الى أثر قريش في هذه السوق ، ولم يشر أمية الى قريش كذلك ، والذي يفهم من الشعرين أن ذكر عكاظ فيهما ، هو بسبب تجمع الناس في هذه

---

١ الخزانة (٢/٥٠٣ وما بعدها) ، (بولاق) .
٢ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) ، اللسان (٧/٤٤٨) ، (عكظ) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٦١) ، (خنساء بنت عمرو) .
٤ تاج العروس (٥/٢٥٤) ، (عكظ) .

السوق ، فما يقال فيها ويصرخ على رؤوس الأشهاد ينتشر في كل مكان ، ويأخذ صداه بين الحاضرين ، ثم يذهب الى الغائبين ، ولهذا كانت أيضاً الموضع الذي يعلن فيه الناس خلع من يريدون خلعه للتبرؤ من جرائره ، شأنها في ذلك شأن (سوق مجنة) ، وهي أيضاً من أسواق الجاهلية وكانت على أميال من مكة [1] ، وأنت ترى ان (حسان) قد ذكر أنه سينشر شعره فيها وفي عكاظ . مما يدل على أنها كانت ذات أهمية أيضاً من حيث النشر والاعلان ، وأنها مثل عكاظ ، ومثل أي سوق أخرى كبيرة من حيث تجمع الناس فيها والاعلان عمّا يقع لهم من أحداث .

وأما ما ذكروه من انشاد حسان للنابغة شعره :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ومن رد النابغة عليه بقوله : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . فحكاية شك فيها العلماء ، وإن كان هذا الشاهد من شواهد سيبويه . لأن الاعتراض لا يدور على الشاهد ، وانما على القصة . وقد ذهب بعض العلماء الى انها خبر مجهول لا أصل له . وهناك قوم أنكروا هذا البيت أصلاً ، ومنهم من روى ملاحظة النابغة المزعومة بشكل آخر [2] ، وفي الشكلين ما يوحي الى ان القصة مفتعلة ، وضعها الرواة لإيجاد مخرج للبيت .

ولم أجد في المراجع المعتبرة القديمة نصاً ، يفيد ان الأمر كان لقريش في الحكم بين الشعراء أو الخطباء في سوق عكاظ . والنابغة الذي جعلوه حكماً يحكم في أمر الشعر لم يكن من قريش ، بل هو من (بني ذبيان) ، وهو الحكم الوحيد الذي نص أهل الأخبار على اسمه . وزعموا انه كانت له قبة حمراء من أدم ، وكان ينشد شعره ، واليه تتحاكم الشعراء في أيهم أشعر ، وكل الشعراء الذين ذكروهم هم : الأعشى ، والخنساء ، وحسان في قصة منمقة طريفة [3] . ولم أعثر حتى الآن على اسم حاكم آخر ، آلت اليه حكومة الشعر في عكاظ ، لا من قريش ولا من غير قريش . فأين اذن موقع قريش في هذه السوق من الإعراب .

---

١ تاج العروس (٩/١٦٤) ، (جنن) .
٢ خزانة (٣/٤٣٠ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٨٩) .

وأما ما زعمه بعض أهل الأخبار من ان العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فـلا يُعْبأ به حتى يأتي مكة فيعرضه عـلى قريش ، فـإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله ، وإن لم يستحسنوه طُرح وذهب فيما ذهب ؛ وما روي عن (أبي عمرو بن العلاء) من قوله : كانت العرب تجتمع في كـل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش »[1] . فروايات من نوع الروايات التي لا تتمكن من الوقوف على أرجلها، ولم نجد في كتب التأريخ والأخبار ما يؤيدها،وضعت لتبرير القصص الذي نسجوه عن أسطورة تعليق المعلقات . ثم إننا لم نسمع بخبر الشعر الذي استحسنوه وأجازوه ، غير شعر المعلقات ، ولو كان ما نسب الى (أبي عمرو بن العلاء) أو غيره حقاً ، من استحسان شعر وطرح شعر ، لمـا سكت رواة الشعر من الإشارة الى الشعر الذي استحسنه أهل مكة فنال بذلك شرف الاختيار والسيادة والرفعة ، ولما غضوا النظر غضاً تامـاً عن الاشارة الى الشعر الذي لم يستحسنوه فسقط وذل ، وفي ذكر الشعر الفاشل أهمية كبيرة في نظر الشعراء الخصوم ، وفي نظر القبائـل التي كانت تبحث وتتجسس عـلى الهفوات والسقطات لاتخاذها مغمزاً تنال بهـا القبائل بعضها بعضاً ! ثم كيف سكتت قريش عن هذا الشرف الذي كان لهـا قبل الاسلام ، وقد رووا أنها نظرت فإذا حظها في الشعر أيام الجاهليـة قليل ، فاستكثرت منه في الاسلام ، وأنها أضافت كثـيراً الى شعر (حسان) للإساءة اليه ، ولو كان هذا الشرف المزعوم ، لما سكتوا عنه ، ولمـا سكت من تبسط في تأريخ مكة ، أو كتب في السيرة عن الاشارة اليه ، لما فيـه من أهمية كبيرة بالنسبة للتأريخ، ثم اننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يشير الى ذلك ، مع تعرضه للشعراء ، كما لا نجد في كتب الحديث أي شيء يدل على وجوده ، مع أنهـا تعرضت للشعر ، ولسماع الرسول له ، وقد ذكرت أنـه كان يسأل الصحابة أن ينشدوا شعر الشعراء له ، الى غير ذلك مما هو مدوّن في بطون هذه الكتب .

وأما ما زعموه من ان العرب كانت تعرض أشعارها عـلى قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي ، فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت ومـا استودعت مكتوم ، فقالوا :

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب اللغة (١٨٦/١) .

هذا سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل ، فأنشدهم قصيدته : طحا قلب في الحسان طروب ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[1] . فخبر آحاد ، وان تواتر في الكتب ، لم يروه (ابن سلام) ولا (ابن قتيبة) ، وهو من نوع خبر تعليق المعلقات من الموضوعات التي أولدها أهل الأخبار .

وفي الجدل الذي وقع بين علماء النحو وغيرهم في جواز أو عدم جواز الاحتجاج بالشعر على غريب القرآن ومشكله ، دلالة بينة على اجماع الطرفين على ان كتاب الله انما نزل بلسان عربي مبين ، ولم ينزل بلسان قريش ، الذي هو حرف من اللسان العربي . فقد قال المنكرون للاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، إن معنى ذلك جعل الشعر أصلاً للقرآن، مع ان الشعر مذموم في القرآن والحديث ، فردّ عليهم القائلون به بقولهم : « ليس الأمر كما تزعمون من انا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : إنا جعلناه قرآناً عربياً[2] ، وقال : بلسان عربي مبين[3] .

وقال ابن عباس : «الشعر ديوان العرب ؛ فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[4] ».

ولو كان القرآن قد نزل بلسان قريش ، لما احتاج الناس الى الشعر للاستشهاد به على فهم المشكل والغريب ، وكان عليهم الرجوع الى شعر قريش ونثرهم للاستشهاد به في توضيح ما فيه من مشكل وغريب ، لا الى شعر العرب وكلامهم من غير قريش ، ثم إن في قولهم بوجود مشكل وغريب فيه ، وحروف خفي أمر فهمها على العلماء ، هو دليل في حد ذاته على انه لم ينزل بلسان قريش ، وانما بلسان عربي مبين ، فلو كان قد نزل بلسانهم لما خفي أمره على رجالهم ، من مثل أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال قريش .

ونجد في المسائل المنسوبة الى (نافع بن الأزرق) ، التي سألها على ما يذكر الرواة (ابن عباس) في تفسير القرآن بالشعر ، دلالة على أنه كان يرى أن

---

١ الاغاني (٢١/١١٢) .
٢ الزخرف ، الاية ٢ .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ .
٤ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٥) .

القرآن إنما نزل بلسان عربي ، لا بلسان قريش،فقد روي ان (نافع بن الأزرق) قال لـ (نجدة بن عويمر) : « قم بنا الى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه فقالا : إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال : ابن عباس : سَلاني عما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : عن اليمين وعن الشمال عزين[1] ، قال : العزون : الحلق الرقاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ؛ أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتّى يكونوا حول منبره عزينا »[2]

وهي أسئلة مهمة اقترن جواب كل سؤال منها بشعر ، من شعر شعراء الجاهلية والمخضرمين مثل : (عبيد بن الأبرص) ، و (عنترة) ، و (أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب) ، و(لبيد) ، و (طرفة بن العبد) ، و (مالك ابن عوف) ، و (عبدالله بن الزبعرى) ، و (حسان بن ثابت) ، و (عديّ ابن زيد) العبادي ، و (أمية بن أبي الصلت) ، و (أبو ذؤيب) ، و (أبو محجن الثقفي) ، و (امرؤ القيس) ، و (الأعشى) ،و(النابغة) ، و (حمزة بن عبد المطلب) ، و (زيد بن عمرو) ، و (عبدالله بن رواحة) ، و (زهير بن أبي سلمى) ، و (عمرو بن كلثوم) ، و (عبيد بن الأبرص) ، و (كعب بن مالك) ، و (أحيحة الأنصاري) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (مالك بن كنانة) ، و (أبو طالب) و (مهلهل) ، و (الحطيئة) ، و (أوس بن حجر) ، وشعر آخر لشعراء لم يشر الى أسمائهم ، وإنما كان يقول : « أما سمعت قول الشاعر » ، وقد أمكن تشخيص بعضه ، ولم يهتد الى قائل البعض الآخر ، كما استشهد بشعر نسبه الى التبابعة[3] . وهي أجوبة مهمة ، ان صح بالطبع انها صحيحة ، وأنها من أسئلة (نافع) وأجوبة (ابن عباس) ، تفيد في تشخيص ذلك الشعر : وفي تثبيته ، وإن كان من الصعب علينا التصديق

---

١ المعارج ، الاية ٣٧ .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٥ وما بعدها) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٥٦ ــ ٩٠) .

بصحة هذه الأسئلة والأجوبة ، التي أرى أنها وضعت في أيام العباسيين ، ويمكن بالطبع التوصل الى تثبيت زمان وضعها ، بالبحث عن أقدم مورد وردت إشارة فيه اليها ، فحينئذ يمكن تعيين الزمان الذي وضعت فيه بوجه تقريبي .

وفي تفسير الغريب والمشكل من القرآن بالشعر ، وقول علماء التفسير إن اللفظة من ألفاظ قبائل أخرى غير قرشية ، وفي استفهام رجال قريش ، وفي جملتهم رجال كانوا من أقرب الناس الى الرسول ، مثل (أبي بكر) و (عمر) عن ألفاظ وردت في القرآن لم يعرفوا معناها ، مثل (أبّاً)[1] ، وفي رجوع (ابن عباس) الى الأعراب ، يسألهم عن ألفاظ وردت في القرآن أشكل عليه فهم معناها ، وفي اعتماده في تفسيره للقرآن على الشعر ، أقول في كل هذا وأمثاله دلالة واضحة على ان القرآن لم ينزل بلسان قريش ، وانما نزل بلسان العرب ، ولو كان قد نزل بلغة قريش ، كان استشهاد العلماء بالشعر وبلغات العرب في تفسير القرآن شيئاً عبثاً زائداً ،وكان عليهم تفسيره وتبيين معناه وتوضيحه بالاستشهاد بلغة قريش وحدها ، لا بالشعر الجاهلي الذي هو شعر العرب ، وبكلام العرب .

ولو رجعنا الى كتب التفسير والسير ، نجد انها قد فسرت الغامض من ألفاظ القرآن بالشعر . فقد استعان قدماء المفسرين في تفسير لفظة (سجى) بالشعر ، فأورد (الطبري) مثلاً بيتاً من شعر (أعشى بني ثعلبة) في تفسير معناها ، هو قوله :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم   وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وبقول أحد الرجاز :

يا حبذا القمراء والليل الساج   وطرق مثل ملاء النساج[2]

واستعان (ابن هشام) ببيت شعر لأمية بن الصلت ، في تفسيرها ، وهو قوله :

إذ أتى موهنا وقد نام صحبي   وسجا الليل بالظلام البهيم[3]

---

١ « وفاكهة وأبا » سورة عبس ، الاية ٣١ ، الاتقان (٤/٢) .
٢ تفسير الطبري (١٤٥/٣٠) .
٣ سيرة (١٦١/١) ، (حاشية على الروض) .

وفسّر (الطبري) (عائلا) بقول الشاعر :

فما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يعيل[1]

ونجد في تفسير الطبري ، وفي كتب التفسير الأخرى أمثلة لا تعد ولا تحصى من هذا القبيل، فسر فيها العلماء غريب ألفاظ القرآن وما صعب فهمه من الألفاظ بالشعر ، حتى لا تكاد تقرأ صفحة أو جملة صفحات من كتب التفسير ، إلا وتجد فيها شعراً ، استشهد به في تفسير كلمة أشكل فهمها على العلماء ، فاستعانوا بالشعر لتوضيح معناها[2] .

ولم يقف الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الناحية المذكورة وحدها ، بل استعين به في تفسير وتعليل أمور أخرى وردت في القرآن أشكل فهمها على العلماء ، من ذلك أوجه العربية وقواعد النحو ، فلما استقرى علماء العربية الشعر الجاهلي ولغات العرب ، واستنبطوا منها القواعد ، وجدوا ان بعضها لا يتماشى مع ما جاء في كتاب الله ، فعمدوا الى التأويل والبحث عن مخرج يوجهون ما جاء فيه وفق قواعد النحو التي قرروها ، ولا سيما المواضع التي اختلف علماء النحو فيها ، وجاءوا فيها بآراء مختلفة ، في التوفيق بين القراءات في القرآن مثلاً ، أو في الأمور المعضلة منه بالشعر ، فقد اختلف قراء مكة ، وقراء البصرة ، والكوفة والشأم في الآية : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة »[3] . وأورد (الطبري) آراء علماء اللغة والنحو ، ثم استشهد بقول طرفة بن العبد :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[4]

وأورد (الطبري) بيتين من الشعر للنابغة في تأويل الآية : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف ترضى » ، اختلف

---

١ تفسير الطبري (١٤٩/٣٠) .

٢ أورد « الطبري » آراء المفسرين المختلفة في تفسير لفظة : « عضين » ، وللتوكيد على المعنى جاء بالشعر في تفسيرها ، راجع تفسيره (٤٥/١٤) ، (بولاق) .

٣ سورة البلد ، رقم ٩٠ ، الاية ١١ وما بعدها .

٤ تفسير الطبري (١٣٠/٣٠) ، بولاق .

في تأويلها علماء النحو[1] . وأورد بيتاً شاهداً على جواز وضع (افعل) في موضع (فعيل) الوارد في تفسير كلمة واردة في سورة « والليل اذا يغشى »[2] . وهناك مواضع كثيرة اختلف علماء النحو في تأويلهـا بالنسبة لمذاهبهم في أوجه النحو ، فاستشهد كل عالم منهم بشاهد من الشعر ، لتأييد رأيه في صحة ما ذهب اليـه على زعمه ، وقلما استشهد المفسرون والعلماء بشعر من شعراء قريش ، أو بكـلام من كلامهم ، في تفسير القرآن ، فلو كان كتاب الله قد نزل بلغتهم لكان من اللازم ، ايجاد مخارجه بالاستشهاد بلغة قريش ، لا بالشعر الجاهلي وبكلام القبائل الأخرى .

وأنا لا ابتعد عن الصواب ، إذا ما قلت إن القرآن قد ساعد في جمع الشعر الجاهلي وفي حفظه ، بسبب اضطرار العلماء على الاستعانة به ، في دراسة كتاب الله وفهمه ، وفي تثبيت قواعد اللغة التي وضعت لتحصين العربية ، وجعلها في متناول يد مَن لا علم له بها ، يستعين بها على النطق بها ، وفقاً لمنطق العرب،وربما حمل ذلك البعض على انتحال الشعر للاستشهاد به في ايجاد مخرج في تأويل آية أو تفسير كلمة وردت في كتاب الله .

إذن فقول من يقول ان لغة القرآن هي لغة قريش ، وإن لغـة قريش هي العربية الفصحى ، وانها لغة الأدب عند الجاهليين ، قول بعيد عن الصواب ، ولا يمكن أن يأخذ به مـن له أي إلمام بتأريخ الجاهلية ووقوف عـلى نصوص الجاهليين ، أخذ من روايات آحاد ، وجدت لها انتشاراً في الكتب القديمة بنقلها بعضها عن بعض من غير نص على اسم السند والمرجع ، فصارت وكأنها أخبار متواترة صحيحة أضاف المحدثون عليها عامل النفوذ السياسي والاقتصادي،والديني ، لإكساء الفكرة القديمة ثوباً جديداً يناسب العصر الحديث ، لتأخذ شكلاً مقبولاً . أما لو سألتني عن لغة القرآن الكريم ، فأقول إن القرآن قد ضبطها وعينها ، إذ سمّاها (لساناً عربياً) ، واللسان العربي ، هـو لسان كل العرب ، لا لسان بعض منهم ، أو لسان خاصة منهم ، هم قريش ، ولو كان هذا اللسان ، هو لسان قريش لنزل النص عليه في كتاب الله .

---

١ والليل ، الرقم ٩٢ ، الاية (١٩ وما بعدهـا) ، تفسير الطبـري (١٤٦/٣٠) ، (بولاق) .
٢ تفسير الطبري (١٤٥/٣٠) .

إن قريشاً قوم من مضر في رأي علماء الأنساب ، فلسانهم على هذا لسان من ألسنة مضر . وقد ورد « عن ابن مسعود : أنه كان يُستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر »[1] ، وورد عن (الأصمعي) قوله : « جرم : فصحاء العرب . قيل : وكيف وهم اليمن ؟ فقال : لجوارهم مضر »[2] . فإذا كانت الفصاحة والعربية في مضر،فحري إذن نزول القرآن بلغة مضر ، لا بلسان قريش .

لقد تمسك علماء اللغة بقول بعضهم : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصحُ العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك ان الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قُطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج،ويتحاكمون الى قريش ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[3] . كما تمسكوا بقولهم : « كانت قريشٌ أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر

١ المزهر (١/٢١١) .
٢ الفائق (٢/٤٥٩) .
٣ المزهر (١/٢١٠) .

لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] . وعلة ذلك « ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل ، ولو علم ان أهل المدينة باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، ترك تلقي ما يرد عنها »[2] .

« وقد شك بعضهم في هذا القول ، لأن قريشاً كانت تسكن مكة وما حولها وهم من أهل المدر ، وقريش تجار ، والتجارة تفسد اللغة ، وكان هذا مما عيب على اليمن من ناحية لغتهم ، لأن رسول الله نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن واسترضع فيهم ، فتعلم الفصاحة منهم ، وأن كثيراً من غلمان قريش في عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يُرسل الى بني سعد لتعلم اللغة والفصاحة ، ومن أجل هذا ظنوا أن هذا الرأي موضوع لإعلاء شأن قريش في اللغة ، لأن رسول الله منهم .

والذي يظهر لي أن سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها أمر غير الفصاحة ، وأن سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم أهل وبر ، وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش فهم أهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل الى الشأم ومصر وغيرها ويتاجر مع أهلها ، ويسمع لغتهم ، فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ممن خالط الأمم الأخرى »[3] .

---

١ المزهر (١/٢١١ وما بعدها ، ٣٤٣) .
٢ الخصائص (١/٤٠٥) .
٣ ضحى الاسلام (٢/٢٤٧) .

فما قالوه من ان الاتصال والاختلاط بالأعاجم ، يولد الفساد في اللغة ، يتناول قريشاً قبل غيرهم من العرب نظراً لما كان لهم في الجاهلية من اتصال ببلاد الشأم واليمن ، وبالعراق وبالحبشة ، ولوجود جاليات أعجمية ، وعدد كبير من الرقيق بينهم ، وما وجود المعربات في لغتهم إلا حجة على تأثر لسانهم بالأعاجم وأخذهم منهم ، فهل يمكن أن يكون لسان قريش اذن أصفى ألسنة العرب وأنقاهـا مع وجود هذه الأمور التي أخذناها من ألسنة أهل الأخبار ؟

الفصل الاربعون بعد المئة

اللسان العربـي

والآن فلسان من ، هو هذا اللسان العربي ، لقد علمنا انه لم يكـن لسان العرب الجنوبيين ، ولا لسان قوم ثمود أو اللحيانيين،أو الصفويين ، لأن نصوصهم تثبت انه قد كان لهم لسان آخر ، يختلف عن هذا اللسان . وذكرنا انـه ليس بلسان قريش ، وانما قريش كغيرهم عرب من العرب ، فهل هو لسان العدنانيين؟ وجوابنا : كلا ، فقد علمنا ان العدنانية عصبية ظهرت في الاسلام، وانها مضرية سميت عدنانية ، وقلنا ان الثقات من الرواة وقفوا في ذكر النسب عند (عدنان) ورووا ان النبي نهى عن الانتساب الى ما بعده ، وقلنا ان اسمه لم يرد في شعر شاعر جاهلي ، خلا ما نسب الى الشاعر (العباس بن مرداس) ، من قوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا   بمذحج حتى طردوا كل مطرد[1]

وما نسب الى لبيد ، وهو من المخضرمين ، من قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدا[2]

وقلنا أشياء أخرى تثبت ان (العدنانية) لم تظهر إلا في الإسلام ، وان اسم

---

١ وفي رواية بغسان ، مكان « بمذحج » ، ابن هشام (٦/١) ، ابن سلام ، طبقات (٥)
٢ طبقات ابن سلام (٥) .

(عدنان) لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وربما ظهر قبيل الاسلام ، ولهـذا فلا يعقل أن تكون العربية ، عربية العدنانيين .

إذن ، فهل هي عربية مضر ؟ فقد ورد في الأخبار أن (عمر بن الخطاب) ، « لما أراد أن يكتب الامام ، أقعد له نفراً من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر »[1] ، ونجد أهل الأخبار يذكرون أنه قال : « لا يملينّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش ، أو غلمان ثقيف »[2] . وليس بين الخبرين تناقض ، لأن قريشاً من مضر ، فيمكن حمل الخبرين على أنهما قصدا شيئاً واحداً ، هـو أن القرآن نزل بلسان قريش ، وقريش من مضر ، ولكن مضر قبائل عديدة ، سبق أن تحدثت عنهـا في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون نزول القرآن إذن بلغات هذه القبائـل على هذا التفسير ،وتكون العربية الفصحى اذن عربية (مضر) ، أي عربية القبائل التي يرجع أهل الأخبار نسبها الى (مضر) ، أو حلف مضر بتعبير علمي أصح ، وليست عربية جماعة معينة منها ، مثل قريش .

ولكن أهل الأنساب ، يجعلون لمضر أخاً هو (ربيعة) ، وأخوين آخرين ، هما (إياد) و (أنمار) على رأي من جعل (أنماراً) ابناً من أبنـاء نزار ، فما هو حال لسانهم ؟ هل يعدّ لسانهم لسان مضر ، أم كانت لهم ألسنة أخرى؟ أما النصوص الجاهلية ، فلا جواب فيها على هذا السؤال ، لأنها لا تعرف عن لسان هؤلاء الأخوة شيئاً ، ولم يرد فيها أي شيء من أسمائهم وأسماء قبـائلهم ، ثم ان هذه القبائل لم تترك لنا كتابة نستنبط منها شيئاً عنهم ، اذن فنحن لا نستطيع أن نتحدث عنهم ولا عن لسانهم بأي شيء يستند الى دليل جاهلي مكتوب . وأما الموارد الاسلامية ، فتجعل لسانهم لسان مضر ، وكيف لا تجعل لسانهم مثل لسان مضر ، وهم اخوة من أب واحد . فإذا قلنا إن لسان مضر ، هو اللسان العربـي الفصيح ، وجب علينـا القول بأن لسان إخوته كان مثل لسانه ، وإذن فاللسان العربي الفصيح ، هو لسان هذه المجموعة المكونة من ولد (نزار) وهي من ولد اسماعيل في النهاية على رأي أهل النسب والأخبار .

---

١ ابن كثير ، فضائل القرآن (٢٠) .

٢ ابن كثير ، فضائل (٢٠) ، المزهر (٢١١/١) .

اذن فنحن أمام مجموعتين من العربيات ، مجموعـــة تكوّن العربية الجنوبية ، ومجموعة تكوّن العربية الشمالية ، وهي عربية الاسماعيليين ، وذلك على مذهب أهل الأخبار .

أما أنا ، فأسمي هذه العربية ، عربية (ال) ، من سمة (ال) أداة التعريف التي تنفرد وتتميز بها عن بقية المجموعات اللغوية العربية : مجموعة (ن) (ان) ، أي المجموعة العربية الجنوبية ، ومجموعة (ه) (ها) ، أي المجموعة التي تعرّف الأشياء بهذه الأداة : (ه) (ها) ، وتشمل اللحيانية ، والثمودية ، والصفوية . فكل منا استعمل (ال) أداة للتعريف ، هو في نظري من الناطقين بهذه اللغة مهما كان نسبه وفي أي مكان كانت اقامته ، ولذلك فالعربية الفصحى هي عربية مضر وعربية ربيعة ، وعربية إياد وعربية أنمار وعربية كلب وكندة والأزد وكل المستعملين لهذه الأداة ، حتى يظهر المستقبل نصوصاً جديدة، قد تأتي بأداة أخرى لتكوّن مجموعة جديدة من المجموعات اللغوية .

نعم إن عربية (ال) لهجات ، لها خصائص ومميزات ، تحدثت عن بعضها في فصل (لغات العرب) ، ولكن الفروق بينها لا تختلف عن الفروق التي نجدها بين لهجات مجموعة (ن) ، أو بين لهجات مجموعة (ه) ، لأنها فروق ليست كبيرة بحيث ترتفع الى مستوى الاستقلال عن بقية اللهجات .

العربية الشمالية والعربية الجنوبية :

وقد اصطلح المستشرقون على رجع اللغات التي ظهرت في جزيرة العرب الى أصلين : أصل شمالي يقال للغات التي تعود اليه : اللغات أو اللغة العربية الشمالية، وأصل جنوبي يقال للغات التي ترجع اليه: اللغات أو اللغة العربية الجنوبية[١] .

وهذا التقسيم التقليدي للهجات العرب انما خطر ببال المستشرقين من النظريـــة العربية الاسلامية التي ترجع العرب الى أصلين : أصل عدناني ، وأصل قحطاني. ونظراً الى عثورهم على كتابات عربية جنوبية تختلف في لغتهـــا وفي خطها عن العربية القرآنية ، رسخ في أذهانهم هذا التقسيم،وقسموا لغات العرب الى مجموعتين لسهولة البحث حين النظر في اللغات واللهجات .

---

١ Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 2.

وبين العربيتين تباين واختلاف ، ما في ذلك من شك . من ذلك ان الفعل في العربيات الجنوبية وليد المصدر ، وان أداة التعريف فيها تكون في أواخر الكلم ، لا في أوائلها كما هو الحال في عربيتنا ، وان حرف (الميم) هو أداة التنكير في العربيات الجنوبية ، الى فروق أخرى ، تحدثت عنها في الجزء السابع من كتابي القديم (تأريخ العرب في الاسلام) .

وإذا كنا لا نزال في جهل عن حقيقة اسم (عدنان) ، الذي لم نعثر عليه حتى اليوم في نص من نصوص المسند ، فإن في وسعنا التحدث عن (قحطان) ، الذي سبق أن أشرت الى أن أهل الأنساب أخذوه من التوراة . فهو اسم مهما قيل فيه ، فقد أخذ من مصدر قديم يعود الى ما قبل الميلاد . ثم انه أورد في النص العربي الجنوبي الذي وسم بـ (Jamme 635) ، الذي دونه قائد الجيش (ابكرب احرس بن ابلم) ، (أبكرب أحرس بن ابل) ، أو (أبكرب أحرس) من (آل ابل) (آل ابال) ، وذلك لمناسبة عودته سالماً من حرب قادها بأمر ملكه وسيده الملك (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان ، ابن الملك (علهان نهفان) ملك سبأ وذو ريدان . وقد شمل القتال أرضاً واسعة ، هي (أشعران) ، أرض الأشعريين و (بحر) ، والقبائل القاطنة حول مدينة (نجران) ، ثم الأحباش الذين كانوا يحاربون معهم ويؤازرونهم في قتالهم ضد السبئيين ، ثم سكان مدينة (قريتم) (قرية) الذين كانوا من (كاهل) (كهلم) ، ثم في الصدامين اللذين وقعا مع (ربعت) (ربيعة) (ذ آل ثور) ، (ربيعة) من (آل ثور) ، ملك (كدت) (كندة) وقحطان (قحطن) ، وكذلك ضد (أبعل) أي سادة مدينة (قريتم)[1] .

ويفهم من النص ان (ربعت ذ الثورم) ، هو اسم رجل ، اسمه (ربيعة) من (آل ثور) . وكان كما يقول النص ملكاً على (كندة) و (قحطان)[2] . ويذكر أهل الأخبار ، ان (كندة) اسم قبيلة وأبو حي من اليمن ، وهم من نسل (ثور بن مرة بن أدد بن زيد) ، وقيل (بنو مرتع بن ثور) ، أو

---

١ الاسطر ٢٢ ــ ٢٩ من النص .

٢ السطر ٢٦ ــ ٢٧ من النص ، (ربعت ذ الثورم ملك كدت وقحطن) ، REP. EPIG. 4304.

(كندة بن ثور) ، وقيل ان ثوراً هو مرتع ، وكندة هو أبوه ، الى غير ذلك من آراء[1] ، تريك ان شيئاً من الواقع كان عند أهل الأخبار عن هذه القبيلة ، غير انهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عنه . وترى من هذا النص ان (آل ثور) اسم أسرة كانت تحكم قبيلتي (كدت) (كندة) و (قحطان) ، وان رئيسها إذ ذاك هو (ربيعة) الذي لم يرد اسم والده . وقد جعل أهل الأخبار من (آل ثور) رجلاً جعلوه أباً لقبيلة كندة ، ثم حاروا في نسبه . ويتبين من هذا النص ان (قحطان) كانوا في هذا العهد تحت حكم (ربيعة) الذي هو من (آل ثور) .

وقد جعل (جامة) حكم (شعر أوتر) الذي سبق أن تحدثت عنه بتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب[2] في حوالى السنة (٦٥) قبل الميلاد[3] ، وقد بنيت آراء بقية الباحثين في وقت حكمه ، فنكون بذلك قد وقفنا على اسم قحطان وكندة في نص يعود عهده الى حوالى القرن الأول قبل الميلاد . وقد كانتا مثل أهل (قرية) وأهل (نجران) في حرب مع السبئيين . وهذا النص هو أقدم نص عربي جنوبي وصل فيه اسم (قحطان) و (كدت) (كندة) الينا حتى الآن .

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة (قحطان) و (كدت) (كندة) ، وذلك بسبب عدم وصول كتابات منها الينا ، ولكننا لا نستبعد احتمال كون لغتها من مجموعة اللغات العربية الجنوبية ، لأن مواطنها كانت في العربية الجنوبية في هذا العهد ، أما بطون (كندة) التي نزلت (نجداً) والتي ذهب بعضها الى العراق ، فنحن لا ندري إذا كانت لهجتها قد تغيرت ، فصارت عربية شمالية ، بدليل نظم (امرىء القيس) الكندي وبقية شعراء الكندة الشعر بهذه العربية ، أم أنها كانت تتكلم بالعربيتين ، إلا أن شعراءها كانوا ينظمون الشعر بالعربية المعهودة مجاراة للقبائل الشمالية التي كانت تجاورها والتي احتكت بها ، وقد تكون هذه البطون قد هاجرت من العربية الجنوبية قبل الميلاد ، فأقامت بنجد ، وتعربت من ثم بالعربية الشمالية ، وقد تكون (كدت) قبيلة عربية جنوبية غير (كندة)،

---

١ تاج العروس (٤٨٧/٢) ، (كند) .
٢ (ص ٣٦٩ وما بعدها) .
٣ JAMME, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis, p. 391.

بقيت في اليمن الى الاسلام ، إذ ورد اسمها في نص (أبرهة) أيضاً ، ونظراً الى التشابه فيما بين (كدت) (كدة) و (كندة) ربط النسابون بين الإثنين، وجعلوا نسب كندة (كدت) . فتكون (كندة) بذلك من القبائل العربية الشمالية، و (كدت) من القبائل العربية الجنوبية ، أقول هذه الآراء على سبيل الاحتمالات لأني من الأشخاص الذين يكرهون البت في الأمور العلمية لمجرد حدس أو ظن، ومن غير دليل علمي مقنع . والبت في مثل هذه الأمور لا يكون مقبولاً عندي إلا إذا استند على نص جاهلي ، أو بدليل معقول مقبول ، وحيث أننا لا نملكه الآن ، فأترك هذه الاحتمالات الى المستقبل علّه يتمكن من العثور على نصوص جاهلية تكشف القناع عنها ، وتأتي الينا بالجواب الواضح الصحيح .

ولكننا نجد في الوقت نفسه — وكما سبق أن ذكرت — ان هنالك لهجات عربية مثل الثمودية والصفوية ، تستعمل (الهاء) أداة تعريف بدلاً من الألف واللام في عربيتنا ، فيقال (هملك) ، و (هدار) بمعنى (الملك) و (الدار) . وذلك كما في العبرانية ، إذ تستعمل الهاء فيها أداة للتعريف ، ويقوم (ذ) فيها مقام الاسم الموصول كما عند طيء في قديم الزمان ، الى خصائص أخرى تجعلها مجموعة أخرى لا هي عربية جنوبية ولا هي عربية شمالية .

كما تبين من دراسة بعض الكتابات الجاهلية ، مثل الكتابات التي عثر عليها في (القرية) وفي جبل (عبيد) ، وفي شمال خشم كمدة ان لها خصائص انفردت بها عن المجموعتين ، وقد وردت فيها أسماء كثيرة لم ترد في الكتابات العربية الجنوبية وفي عربية (هـ) ، مما يجعلها أهلاً لأن تكون موضع دراسة خاصة في المستقبل ، لعلها تكون مجموعة لغوية جديدة قائمة بذاتها ، أو حلقة مفقودة بين اللغات الجاهلية المندثرة .

ووجود مثل هذا التباين الذي اكتشف من الكتابات ، هو الذي دفعني إلى التفكير في اعادة النظر في تقسيم اللغات العربية الى مجموعتين، وعلى التفكير بتقسيمها الى مجموعات ذات خصائص لغوية متشابهة، تستنبط بالدرجة الأولى من أداة التعريف التي هي المميز الوحيد الذي يميز بين لهجات الجاهليين .

ونلاحظ ان عربية الـ (ن) (ان) مصطلحات غير موجودة في العربية الفصيحة لكنها موجودة في العبرانية . وفيها عدد غير قليل من الكلمات المجهولة في اللغات

السامية الأخرى ، صعب على العلماء إدراكهـا بسبب ذلك ، فاكتفوا باستخلاص معناها من وضعها في الجمل ، وذلك بصورة تقريبية [1] . كما نلاحظ ان الأسماء فيها ، تختلف عن الأسماء المعروفة عند العرب الشماليين ، وان الأسماء الواردة في كتابات المسند المتأخرة ، تختلف بعض الاختلاف عن الأسماء الواردة في النصوص القديمة ، فقد تغلبت البساطة على الأسماء المتأخرة ، حتى صارت تشاكل أسماء العرب الشماليين المألوفة عند ظهور الاسلام . وقد لاحظ (الهمداني) هذه الظاهرة، فعبر عنها بقوله : « فربما ثقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية ، وسمع بها الناس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم وهو هو [2].

وخير ما يمكن أن نفعله في نظري لمعرفة المتكلمين بالعربية الفصحى ، هو أن نقوم بالبحث عن الخصائص النحوية والصرفية واللفظية التي تميزها عن بقية العربيات، فإذا ضبطناها استطعنا تعيين من كان يتكلم بها . ولما كنّا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، صار من الصعب علينا التوصل الى نتائج علمية ايجابية مرضية، تحدد القبائل والأماكن التي تكلمت بها تحديداً صحيحاً مضبوطاً ، غير أن المثل العربي يقول : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فإذا عسر علينا الحصول على نتائج كلية مقنعة ، فلا بأس من الرضا بالحصول على جزء أو بعض من نتائج قد تقدم لنا معرفة وعلماً . ونحن إذا سرنا وفق حكمة هذا المثل ، ودرسنا خصائص هذه العربية ، نجد أن من أولى ميزاتها استعمالها (ال) أداة للتعريف ، تدخلها على أول الأسماء النكرة ، فتحيلها الى أسماء معرفة ، بينما نجد العربيات الأخرى التي عثر على نصوص جاهلية مدوّنة بها تستعمل أدوات تعريف أخرى . ولما كنّا نعرف المواضع التي عثر فيها على هذه النصوص ، صار في إمكاننا حصرها، وبذلك نستطيع التكهن عن المواضع التي كان يتكلم أهلها بالعربية التي تستعمل (ال) أداة للتعريف ، أي هذه العربية الفصحى . ولما كانت العربية الجنوبية قد استعملت الـ (ن) (ان) أداة للتعريف ، تلحقها في أواخر الأسماء المنكرة ، وحيث أننا لم نتمكن حتى الآن من الحصول على نص في هذه الأرضين استعمل (ال) أداة للتعريف فباستطاعتنا القول : إن سكانها لم يدوّنوا بالعربية القرآنية ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٤٦ وما بعدها) .
٢ الاكليل (١٣/١) .

بل كان تدوينهم وكلامهم بالعربية الجنوبية التي كانت تضم جملة لهجات . ولما كان آخر نص عثر عليه مدوّن بالمسند ، يعود تأريخه الى سنة (٥٥٤) للميلاد[1] ، صار في إمكاننا القول بأن العربية الجنوبيـــة كانت وبقيت لساناً للعرب الجنوبيين الى ظهور الاسلام .

ونظراً لعثور الباحثين على كتابات مدوّنة بالمسند ، في (القريـة) أو (قرية الفأو) وفي مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وفي مواضع من (وادي الدواسر)، وفي مواضع تقع جنوبي خشم العرض ، فإن في استطاعتنا القول إن أهل هـــذه الأرضين كانوا يكتبون بالمسند[2] ، ويتكلمون بلغات عربية جنوبية ، اختلفت بعض الاختلاف عن العربيات الجنوبية المستعملة في العربية الجنوبية . فهي إذن من المناطق التي لم يتكلم أهلها بالعربية القرآنية . ونظراً لما نجـده من وجود بعض الاختلاف بين عربية هذه المنطقة وعربية العربية الجنوبية ، فإننا نستطيع القول بأنهـــا تكون مرحلة وسطى بين العربيات الجنوبية والعربية القرآنية ، وحيث أن كثيراً من هذه الكتابات لم يكتب لهـــا النشر ، ولوجود كتابات أخرى لم يتمكن الباحثون من نقشها أو تصويرها ، فمن المحتمل في رأيـي مجيء يوم قد يعثر فيه عـــلى لهجات جديدة ، قد تزيح الستار عن أسرار اللغات عند الجاهليين ، وقد تكون مجموعات لغوية جديدة من مجموعات اللغات العربية عند أهل الجاهلية .

وقد عثر في العربية الشرقية على كتابات جاهلية مدوّنة بالمسند هي وإن كانت قليلة ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبـــاحث في تأريخ تطور الكتابة عنـــد العرب ، وللباحث في اللهجات العربية الجاهلية . فقد ثبت منها أن أصحاب هذه الكتابات كـــانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية ، وإن كتبوا بالمسند . ويلاحظ من النص الذي هو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا بن عين ابن شصر) أنه استعمل لفظة (ذ) بمعنى (من) ونأسف لأن هـذه النصوص القليلة قصيرة،وفي أمور شخصية ، قد خلت من أداة التعريف ، لذلك لا نستطيع تثبيت لهجتها بصورة أكيدة[3] .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٢/١) .

٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١٩٥/١ وما بعدها) .

٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (١٩٣/١ وما بعدها) .

واستناداً الى النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، التي استعملت الـ (هـ) (ها) أداة للتعريف ، نستطيع أن نقول إن أصحاب هـذه اللهجات يكوّنون مجموعة من اللغات قائمة بذاتها ، تختلف عن العربية الجنوبية وعن العربية القرآنية. وهي تشارك العبرانية في استعمال الأداة المذكورة في التعريف،ولكنها تقارب عربية (ال) في استعمال المفردات .

وأما النبط ، وهم عرب من العرب الشماليين ، فقد استعملوا أداتين للتعريف، أداة هي حرف الألف الممدود اللاحق بآخر الاسم ، مثل (ملكا) بمعنى (الملك) ، و (مسجدا) ، بمعنى (المسجد) ، وأداة أخـرى ، هي أداة (ال) التي نستعملها في عربيتنا . وفي استعمال النبط لأداتـين للتعريف ، دلالة على تأثرهم بالآراميين وبالعرب المتكلمين باللغة العربية القرآنية ، أو العرب المستعملين لأداة التعريف (ال) بتعبير أصح . والنبطية نفسها ، لغة وسط ، جمعت بين الآرامية والعربية ، فبينما نجدها تستعمل الآرامية ، اذا بها تخلط معها ألفاظاً وتراكيب عربية فصيحة . وذلك بسبب اختلاط النبط بالآراميين وتأثرهم بثقافتهم ، واحتكاكهم بالأعراب،وكونهم عرباً في الأصل[1] . ومعنى هذا ان العرب الذين كانوا يجاورون النبط ، وهم عرب البوادي كانوا من المتكلمين بأداة التعريف (ال) ، سمة العربية الفصيحة .

وأما النصوص المدونة بنبطية مشوبة بمصطلحات عربية ، وأهمها نص (حرّان) الذي يعود تأريخه الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، فإنه يفصح عن قوم عرب أو نبط لاستعمالهم (ال) أداة للتعريف في الألفاظ : (التج) بمعنى (التاج) ، وفي (الأسدين) ، بمعنى (أسد) ، وفي (الشعوب) . وأرجح كونهم عرباً ، لاستعمالهم جملاً عربية فصيحة بينة في هذا النص ، مثـل : (ملك العرب) ، و (مدينة شمر) ، و (نزل بنيه الشعوب) ، و (فلم يبلغ ملك مبلغه) ، فهذه جمل عربية ، أصحابها عرب ، وإن كتبوا بالنبطية ، وقد تفصح عن عربية أهل الحيرة في ذلك الوقت ، لأن الملك المتوفى ، وهو (امرؤ القيس) ، هو من ملوك الحيرة ، والنص المكتوب ، هو شاخص قبره ، فمن المعقول تصور أن الكتابة كتبت بلغة أهل الحيرة في ذلك العهد[2] .

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٠٥/٧ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (٢٧٣/٧ وما بعدها) .

ويظهر من استعمال كتابة (زبد) التي يعود عهدها الى سنة (٥١٢) للميلاد ، لجملة « بسم الإلـه » ، أن صاحبها وان كتب بالنبطية ، غير أنه كان من النبط المستعملين لـ (ال) أداة للتعريف . وأما الكتابة المعروفة بكتابة (حران) ، فإنها أقرب هذه النصوص الى العربية القرآنية . كما يتبين ذلك من نصها العربي ، وهو:

انا شرحيل بر ظلمو ، بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ ، بعد مفسد خيبر بعم .

أي : (أنا شرحيل) (شراحيل) بن ظالم ، بنيت هذا المرطول سنة ٤٦٣ ، بعد خراب (غزو) خيبر بعام . ويقابل تأريخ هذا النص سنة (٥٦٨) للميلاد[1] .

وعربية هذا النص ، عربية واضحة ، ليس فيها ما يحاسب عليه بالقياس الى عربيتنا ، إلا جملة (بر ظلمو) المكتوبة على وفق القواعد النبطيـة . ويلاحظ أنها استعملت (ال) أداة للتعريف ، ولاحظت قواعد النحو في جملة : « بنيت ذا المرطول) المستعملة في عربيتنا ، مما يدل على أن صاحبها كان يراعي الإعراب في لسانه . وأنه من قوم كانوا يراعون قواعد الإعراب في كلامهم .

إذن فنحن أمام قوم عرب ، نبط ، لسانهم العربي من مجموعة (ال)، أي من العربية المستخدمة لـ (ال) أداة للتعريف ، منازلهم أطراف بـلاد الشأم ، وشواطىء الفرات العربيـة . واذا تذكرنا أن السريان كانوا على الحيرة (حيرتا دي طيابة) ، وأنهم كانوا يطلقون لفظة (طيـاية) في مرادف (عرب) ، عرفنا إذن ، أن أهلها كانوا من العرب[2] ، ولما كان نص (النمارة) قـد كتب بنبطية متأثرة بعربية (ال) ، نستطيع أن نقول ان عرب الحيرة كانوا من المتكلمين بهذه العربية .

يتبين لنا مما تقدم ، ان العرب الذين كانوا يقطنون الحيرة والأنبار، أو عرب العراق بتعبير أصح ، ثم عرب بلاد الشأم ، وعرب البوادي ، وجزيرة العرب باستثناء المواضع التي أمدتنا بالكتابات ، كانوا يتكلمون بعربية (ال) أي العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ودوّن بها الشعر الجاهلي . وهي عربية أساسية ، جمعت شمل لغات ولهجات ، على نحو ما وجدنا في العربية الجنوبية من اشتمالها على جملة لهجات ، وما وجدناه في اللهجة العربية الشمالية الغربية ، المستعملة لـ (ه) (ها) أداة للتعريف .

---

١ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٨٠/٧) .
٢ المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام (١٥٦/٣) .

فأهل نجد وبادية الشأم ، وعرب العراق وبلاد الشأم والحجـاز ، كانوا هم المتكلمين بهذه العربية التي تعرّف النكرة بأداة التعريف (ال) ، وذلك قبـل الاسلام ، أما المواطن الأخرى ، فلها لهجاتهـا الخاصة ، وبينها لهجات تأثرت بخصائص مجموعة (ال) . وقد غلب الاسلام هذه العربية على اللهجات الأخرى ، فصارت الأكثرية تتكلم بها ، إلا في المواضع المنعزلة ، التي بقيت شبه مستقلة ، حيث احتفظت ببعض خصائص لهجاتها القديمة ، كالذي نراه اليوم في مهرة وفي الشحر وفي مواضع أخرى من العربية الجنوبية التي تتكلم بلهجات لا نفهمها عنهم هي من بقايا اللهجات الجاهلية .

وللوقوف على خصائص اللهجات المكونة لعربية الـ (ن) (ان) ، أرى ان من الضروري وجوب ارسال بعثات علمية الى العربية الجنوبيـة لدراسة اللهجات المحلية ، وهي عديدة وتسجيلها على الأشرطة من أفواه المتكلمين بها ، وللدراسة قواعدها النحوية والصرفية وأصول نظم الشعر عند المتكلمين بها ، وتفيدنا دراسة نظم الشعر — خاصة — عند العرب الجنوبيين الحاليين فائدة كبيرة في الوقوف على أسس نظم الشعر عندهم أيام الجاهلية ، وعلى الفروق الكائنة بين نظمهم قبـل الاسلام ، ونظم بقية العرب الجاهليين . ولا بد أيضاً من مقارنة نظمهم في الوقت الحاضر ، بنظم الأعراب في المملكة العربية السعودية ، للوقوف على الفروق بين النظمين ، وستكون هذه الفروق هادياً لنا في الوقوف على الفروق التي كانت بين النظم عند شعراء الجاهلية في بلاد الشأم والعراق ونجد والبحرين واليمامة والحجـاز والعربية الجنوبية .

وسوف تساعدنا دراسة لهجات المملكة الأردنية الهاشمية ، المملكة الـتي كانت تعرف بـ (ادوم) في التأريخ ، وكذلك لهجات أعالي الحجاز في الوقت الحاضر ، فائدة كبيرة في الوقوف على خصائص لهجة عربية الـ (هـ) (ها) ، وفي استنباط قواعدها منها . فلا بد وأن تكون في اللهجة (البلقاوية)[١] ، وفي اللهجات المحلية الأخرى بقايا من تلك اللغة ، مندمجة مع عربيـة (ال) التي تغلبت على لسانهم منذ الفتح الاسلامي الذي بدأ لتلك البلاد عام (٦٣٣) للميلاد[٢] . ولا بد من دراسة

---

١ نسبة الى البلقاء

٢ Andrzej Czapkiewicz, Sprachproben Aus Madaba, Polska Akademia Nauk, Krakow, 1960.

أصول نظمهم في لغاتهم الدارجة هذه للإهتداء بها على أصول النظم عندهم قبل الاسلام ، وعلى المؤثرات التي أثرت على نظمهم في الوقت الحاضر ، مع دراسة خصائص نظمهم ومـا يمتاز به عن أصول النظم عند بقية العرب في الوقت الحاضر أيضاً .

ولما كنا لا نملك نصوصاً جاهلية بعربية (ال) غير مـا ذكرته من النصوص النبطية المشوبة بعربية (ال) . ولما كانت هذه العربية ذات لهجات ولغات،عرفت أسماؤها وضبطت في الاسلام،وبينها فروق ومميزات ، كما بينت ذلك في الملاحظات البسيطة السطحية التي جمعها عنها علماء العربية،ولما كنا لا نملك عن هذه اللهجات غير تلك الملاحظات التي أوجزتها في فصل : لغات العرب ، فإن من اللازم ضم دراسة ما سيقوم به علماؤنا في المستقبل عن اللهجات الحالية في مختلف أنحاء جزيرة العرب الى دراسة العلماء المتقدمين ، لتكمل احداهما الأخرى ، وستتولد منهما ولا شك دراسة علمية قيمة ، تفيدنا في الإهتداء الى معرفة خصائص اللغات العربيـة قبل الإسلام .

لقد توصلت من دراسة ملاحظات أولئك العلماء ، الى أن هذه اللهجات لم تكن تختلف في كيفية النطق بالحروف ، وفي القواعد الصرفية فقط ، لكنهـا كانت تختلف فيما بينها في القواعد النحوية أيضاً ، مثل حذف الياء من الفعل المعتـل بها إذا أُكد بنون في لغة طيء وفزارة[1] ، ومثل (ذو) الطائية التي يلازم اعرابهـا بالواو في كل موضع[2] ، ومثل إعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجراً، في لغـة بلحرث ، وخثعم ، وكنانة[3] ، ومثل (هَلُمَّ) في لغة أهل الحجاز التي تلزم حالة واحدة على اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً ، وتلزم في كل ذلك الفتح ، بينما تتغير بحسب الإسناد في لغة نجد من بني تميم[4] ، الى غير ذلك من أمور تحدثت عنها في فصل : لغات العرب ، وهي لو جمعت في مكان واحد ودرست بعناية ودقة ، دلت على أن الفروق بين هذه اللهجات في القواعد هي أعمق بكثير مما يظن .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٢) .
٢ المصدر نفسه (١/١٤٤) .
٣ كذلك (١/١٤٥) .
٤ أيضا (١/١٤٨) .

ومع وجود هذه الاختلافات والفروق ، كان بإمكان المتكلمين بهـذه اللغات الثانوية المتفرعة من المجموعات اللغوية ، التفاهم فيما بينهم ، كما يتفاهم العراقيون والمصريون وأهل المغرب بعضهم مع بعض مع تكلمهم بألسنة ذات لهجات مختلفة . فكان في استطاعة أهل نجد التفاهم مع عرب الحيرة ، وفي استطاعة أهـل مكة التفاهم مع أهل الحيرة ، والعكس بالعكس ، مع وجود صعوبات بالطبع في فهم النطق باللهجة ، وفي إدراك مخارج بعض الحروف واختلاف القبائل في النطق بها ، ووجود كلمات غريبة في لغة ، قد لا توجد في لغة أخرى . إلا ان هذه الفروق لم تكن شديدة عميقة ، بحيث جعلت فهم العرب بعضهم بعضاً أمراً صعباً ، أو صيرت اللغات وكأنها لغات أعجمية ، لا يفهم المتخاطبون بها أحدهم الآخر . ودليل ذلك اننا نجد الوفود التي وفدت الى المدينة ، لمبايعة الرسول على الاسلام، تكلم الرسول وتتفاهم معه ومع أصحابه ، وتخطب أو تنشد الشعر أمامه ، وهو يفهمهم ، وهم يفهمونه من دون صعوبة ولا كلفة كبيرة ، لأن أمر هذه اللغات لم يكن على نحو ما تصوره بعضهم من التباين والاختلاف ، والبعد بين الألسنة . اللهم إلا ما كان من أمر أهل العربية الجنوبية ، فقد كانوا يرطنون ، بدليـل ما جاء في كتاب رسول الله الى (عياش بن أبي ربيعة المخزومي) حين أرسله برسالة الى أبناء (عبد كلال) الحميري ، فقد قال له فيها : « وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا ، فقل : ترجموا »[1] . وربما كان منهم من لا يفقه عربية المسلمين ، الناطقين بعربية (ال) ، فكان يترجم لهم بعض من لهم علم وفقه بالعربيات الجنوبية وبعربية القرآن .

وبدليل ثان ، هو أن المسلمين لما حاصروا القصر الأبيض من قصور الحيرة، سمعوا أهل القصر ، يصرخون : « عليكم الخزازيف » ، « فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأسُ القصر من رجـال متعلقي المخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف — وهي المـداحي من من الخزف »[2] ، فلم يفهم المسلمون معنى (الخزازيف) في بادىء الأمر لكنهم عرفوا أنهم يعنون شيئاً له صلة بالدفاع عن القصر ، ثم عرفوه ، بعد نزول سيل من (الخزف) عليهم . وكان أهـل (الحيرة) ينطقون بالعربية ، فلما قال

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٢) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .
٢ الطبري (٣/٣٦٠ وما بعدها) .

(خالد بن الوليد) لأصحاب عدي بن العبادي : « ويحكم ! ما أنتم ! أعرب؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عديّ : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت »[1] . وقد كانت لهم مدارس تدرس العربية ، كما تحدثت عن ذلك في موضع آخر ، ومنهم أخذ أهل مكة كتابتهم ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار . فنحن نجد أن العرب كانوا يتكلمون على مقتضى سجيتهم التي فطروا عليها ، ومع ذلك فقد كانوا يتفاهمون ويدركون المعاني ، ولو كانوا من قبائل متباعدة ، ومن أماكن متنائية . « قال ابن هشام في شرح الشواهد : كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات »[2] .

ولما حاصر (خالد بن الوليد) الأنبار ، « تصايح عرب الأنبار يومئذ من السور ، وقالوا : صبح الأنبار شرٌّ »[3] . ولما اطمأن بالأنبار « وأمن أهل الأنبار وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب . نزلنا الى قوم من العرب قبلنا »[4] . فأهل الأنبار مثل أهل الحيرة عرب ، كانوا يتكلمون العربية ، وهي عربية فهمها خالد ومن كان معه من رجال قبائل ، ولو كانت عربيتهم عربية قريش ، لما سكتوا من النص عليها ، لما في ذلك من تقرب الى قريش . قال الأزهري : « وجعل الله ، عزّ وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، عربياً ، لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب ، في باديتها وقراها العربية ، وجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم عربياً ، لأنه من صريح العرب ، ولو أن قوماً من الأعراب الذين يسكنون الباديةَ حضروا القرى العربية وغيرها ، وتناءوا معهم فيها ، سمّوا عرباً ولم يسمّوا

---

١ الطبري (٣/٣٦١) ، (حديث يوم المقر وفم فرات بادقلي) .

٢ المزهر (١/٢٦١) .

٣ الطبري (٣/٣٧٤) .

٤ الطبري (٣/٣٧٥) .

أعراباً » . « والعربية هي هذه اللغة » . « والعرب : هذا الجيل »[1] .

أما او سألتني رأيي في هذه الخطب التي دوّنها أهل السير والتواريخ والأخبار للوفود التي وفدت على الرسول لمبايعته ، أو عن حديث الصحابة معه قبل الهجرة أو بعدها ، فأقول لك بكل صراحة ، إن هذه النصوص : نصوص كلام الرسول مع الصحابة ، ونصوص كلام الصحابة معه ، هي نصوص وردت الينا بأفواه الرواة ، كلامها كلامهم ، وعباراتها عباراتهم ، أما المعاني ، أي المضامين ، فهي التي أخذت بالرواية ، وفي بعضها زيادات أو نقصان ، ظهرت بسبب طبيعة الاعتماد على الذاكرة لا الكتابة والتدوين . فنحن اذن أمام نصوص ، لا يمكن أن نقول انها أصيلة ، لأنها لم تؤخذ من محاضر جلسات ، ولا من كتّاب كانوا يكتبون كل ما كان يقع ويحدث ، وينقلون الكلام نقلاً أميناً صادقاً ، كما ينقل الشريط المسجل للأصوات ، أصوات المتكلمين ، وانما رويت بعد الحادث بأمد، قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً ، وبعضها أحاديث شخصية ، ليست مهمة ، وقد تكون من الموضوعات ، ولا غرابة في ذلك فكتب التراجم والحديث والسير، مليئة بتكذيب كثير من هذه الأمور ، التي افتعلت ، إما من الرواة أنفسهم ، وإما من آلهم ، وإما عصبية ، أو عن مذهب وعقيدة .

أفصح العرب :

وموضوع أفصح العرب موضوع لا أرى انه قد كان لأهل الجاهلية علم به ، إذ كان لكل قوم منهم لسان يستعزون به ويتعصبون له ، يرون انه لسانهم العزيز. ولا يكون فصاحة إلا اذا كان هنالك لسان أدب رفيع ، يكوّنه رجال الأدب من ناثرين وشعراء ، يكون لساناً مقرراً محترماً يتبعه الجميع ، تعقده وحدة شاملة وشعور بوجود أواصر دم وتأريخ واحد وثقافة واحدة ، وقلم يكتب به ، فإذا اجتمعت كل هذه وأمثالها وأضيفت اليها وجود حكومة كبيرة تتخذ ذلك اللسان لساناً عاماً لها ، ثم تقوم بتشجيع الأدباء والعلماء وتحسن اليهم ، صار ذلك اللسان اللسان المحظوظ المأثور المقدم على سائر الألسنة ، وصارت اللهجات الأخرى ،

---

١ اللسان (١/٥٨٦ وما بعدها) ، (عرب) .

ألسنة ثانوية بعده ، تعدّ دون اللغة المذكورة في الرتبة والمنزلة والفصاحة ، كما حدث في الاسلام ، حيث اعتبر اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم،لسان الاسلام والمسلمين ، لسان الدين والدولة ، به تكتب دواوين الدولة ، وبه يؤلف العلماء ويكتب الأدباء ، وينظم الشعراء ، وبموجب قواعده المقررة يتعلم اللسان كيفية الكتابة والنطق،من خالفها أو أخذ بألفاظ خارجة على قواعد نحوها وصرفها عدّ عامياً جلفاً من سواد الناس وسوقتهم .

ومدار الفصاحة في نظر علماء العربية كثرة استعمال العرب للكلمة ، سئل (أبا عمرو بن العلاء) : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : أحملُ على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات . فما أكثرت العرب من استعماله من غيره ، فهو فصيح . وأما الفصاحة في المفرد : فخلوصه من تنافر الحروف ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس اللغوي . والتنافر ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعُسر النطق بها ، مثل (الهعخ) و (مستشزر)[1] . والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها الى أن ينقر عنها في كتب اللغة ، أو أن تكون قليلة الاستعمال ، وأضاف بعضهم الى ما تقدم : ألا تكون الكلمة مبتذلة[2] . وآراء أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا الكتاب ، لعدم وجود مكان في حدوده .

وقد وضعت هذه الحدود في الاسلام ، أما ما قبله فلا علم لنا برأي الجاهليين في الفصاحة وفي الفصيح ، ولكننا نستطيع بالقياس الى ما عندنا من كتابات ، أن نقول : إن العرب الجنوبيين كانوا يدونون بلهجاتهم المعروفة ، وهي : المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية ، وفقاً لقواعد لهجاتهم وبألفاظهم ، فهي بالنسبة لهم لغاتهم الفصيحة ، لغة التدوين والكلام،ولما قضى السبئيون على استقلال حكومات معين وحضرموت وقتبان وأوسان ، وتكونت منها حكومة واحدة ، ضعفت الخصائص اللغوية التي ميزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض ، واندمجت

---

١ من قول امرىء القيس :
غدائره مستشزرات الى العلا
المزهر (١/١٨٥) .

٢ المزهر (١/١٨٤ وما بعدها) .

بلغة السبئيين التي صارت لغة الحكومة ، وصار العرب الجنوبيون يكتبون بها الى ظهور الاسلام . فهذه اللغة ، هي اللغة الفصحى عندهم وقلمها هو المسند .

أما بالنسبة الى العرب الآخرين ، فالظاهر أن عربية (ال) ، كانت قد تغلبت عند ظهور الاسلام على العربيات الأخرى ، وفي ضمنها عربية الـ (ه) (ها) ، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتكلمة بها ، وباستعمال حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة وحكومة كندة لها ، مما حمل الخطباء والشعراء والكهنة والسحرة على النطق بها ، وبلهجاتهم الخاصة بهم ، وهي لهجات كانت متقاربة لكنها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفية النطق بالكلم ، أي في مخارج الحروف ، وفي خصائص نحوية وصرفية ، إلا أن هذه الفروق والاختلافات لم تخرجها مع ذلك عن وحدة اللغة ، وهي كلها في نظر أصحابها عربية فصيحة ، وقد كانت تتقارب باحتكاك القبائل بعضها ببعض ، وبتوسع نفوذ ملوك الحيرة في جزيرة العرب ، وبتنقل الشعراء والخطباء بين القبائل ، وبتأثر العرب بالأحداث السياسية العالمية ، وبظهور النزعة الى تكوين حكومات مدنية تحل محل الحكومات القبلية الضيقة ، وبتوغل المبشرين والمثقفين العرب بين القبائل ، يدعونهم الى النصرانية التي كانت قد جاءت من الحيرة ، بنصرانية شرقية عربية ، متأثرة بالإرمية ، لكنها اضطرت الى التعرب بالتدريج ، وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الاسلام بلغة (ال) ، فصارت بنزول الوحي بها أفصح ألسنة العرب ، وصار قلمها قلم الاسلام المقرر . وبذلك نبذ المسند ، وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين ، ومات التراث العربي الجنوبي بموت لسانه وقلمه .

وبانتصار الاسلام على الشرك ، والاسلام دين ودولة ، دعوته الى (أمة) ، المواطنون فيها اخوة ، وله لسان ، هو اللسان الذي نزل به القرآن ، صار هذا اللسان أفصح الألسنة منذ ذلك الحين ، بل لسان أهل الجنة ، وصار من الواجب على المسلمين تثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المنزل به ، خدمة لدين الله الذي شرف هذا اللسان باتخاذه لساناً له . ورعاية قلمه الذي ثبت كتاب الله ، وقام العلماء بضبط قواعده وجمع مفرداته ، والبحث في كل ما يتعلق باللسان من علم . قام بهذه المهمة علماء المصرين : البصرة والكوفة ، وكان لا بد لهم من رسم حدود ، ومن وضع قواعد في كيفية تثبيت العربية ، وفيمن يصح أخذ هذه القواعد من ألسنتهم ، الى غير ذلك من أمور اتبعوها في جمع علوم العربية .

وحين شُرع بوضع قواعد العربية ، كان الاسلام قد حطم حدود جزيرة العرب ، وتخطاها ، قد غلب الساسانيين ، وأبعد الروم عن بلاد الشأم ومصر وما وراءها ، وقد جمع العرب بالأعاجم ، والعجم بالعرب ، وشبك ألسنة الأعاجم بلسان العرب ، ولسان العرب بألسنة العجم ، واضطر العلماء الى وضع قواعد فيمن يجب أخذ لسان العرب منهم من العرب ، وفيمن لا يجوز الأخذ منهم ، بسبب اتصالهم بالعجم ، وما طرأ على لسان بعضهم من خبث نتيجة لهذا الاتصال. فكانت تعاليمهم ألا تؤخذ العربية إلا من عرب بقوا بمعزل عن الأعاجم ، فلا « يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل الشأم ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف ، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم ، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب »[1] .

وذكر أن قريشاً كانوا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وأجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، أما الذين نقل عنهم اللسان العربي من « قبائل العرب ، هم : قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[2] . وروي أن أفصح العرب عُليا هوازن ، وسفلى تميم[3] .

وروى (الجاحظ) أن (معاوية) قال يوماً : « من أفصح العرب ؟ فقال

---

١ المزهر (١/٢١٢) .
٢ المزهر (١/٢١١) .
٣ المصدر نفسه .

قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفُرات ، وتيامنوا عن عنعنــة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . قال : من هم؟ قال قريش »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن أثر المحيط في تكوين اللغة ، فقال : «وكاختلاف ما بين المكّي والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال: ان هذيلاً أكراد العرب، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحُزون ، وبين من نزل النجود وبــين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وان اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن ، وكذلك في الشمائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مشوب ولا معلهج ولا مذرّع ولا مزلج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عـدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البريّة من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة »[2] .

فرأى (الجاحظ) ان بين العدنانيين والقحطانيين فروقاً كبيرة في اللغة ، غير ان بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين فروقاً لغوية ، كالذي أورده من أمثلة على الفروق التي تكون بين من ينزل الجبال ، أو من ينزل السهول ، وبين من ينزل النجود ، ومن ينزل الأغوار ، ثم الخلافات التي تقع بين بطون القبائل عند تشتتها وتفرقها . ثم تحدث عن لغة عليا تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن ، ولغات أهل الحجاز . وهي قبائل تحدث عنها علماء اللغة .

وقد ذكر (الرافعي) ان « الفصاحة اشتهرت في مضر ، حتى عُرفت اللغة بالمضرية ، ومن أشهر قبائلها كنانة — ومن بطونها قريش — ثم تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وضبّة ، ومزينة »[3] . وقال أيضاً : « وأفصح القبائل الذين

---

١ الجاحظ (٢١٣/٣) .
٢ رسائل الجاحظ (١٠/١ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٢٥/١) .

هم مادة اللغة فيما نص عليه الرواة : قيس ، وتميم ، وأسد ، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجُشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف . قال أبو عبيدة : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العربَ بيد اني من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر — وكان مسترضعاً فيهم — وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء؛ أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم »[1] .

« وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتهامة ،وقد بقيت معادن الفصاحة زمناً بعد الاسلام ، واليها كان يرحل الرواة ، حتى إن الكسائي لما خرج الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد ، وجلس في حلقته ، قال له رجل من الأعراب : تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك ؟ قال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة . فخرج اليهم ولم يرجع حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب .

ولم تزل هوازن وتميم وأسد متميزة بخلوص النية وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة »[2] .

وقد ترك الأخذ عن (حاضرة الحجاز) أي مكة « لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم »[3] ، فلم يأخذوا منهم . وقد قرأنا قبل قليل أسماء القبائل التي أدخلها علماء اللغة في القائمة السوداء المقاطعة التي لم يجوّزوا الأخذ منها ، وذلك حين شروعهم بتدوين اللغة أيضاً للسبب المذكور وهو اتصالها بالأعاجم ، وتأثر ألسنتها بلغات من اتصلت بهم من عجم .

واللغات في نظر (ابن جني) على اختلافها كلها حجة « ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال ما ، ولغة تميم في تركه ، كلّ منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١٢٧/١ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (١٢٨/١) .
٣ المزهر (٢١٢/١) .

غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها، وتعتقد ان أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد نسباً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا »[1] .

أعود الآن فأكرر ما سبق أن قلته من اننا اليوم في حاجة ماسة ، الى وجوب تسجيل كل ما أورده علماء اللغة عن لغات العرب ولهجاتها ، فصيحة كانت تلك اللغة أو رديئة ، ولا سيما في الأمور التي شذت فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، في الشعر أو في النثر ، تسجيل كل الأسماء الجاهلية التي عرف بها العرب قبل الاسلام ، مع بيان أسماء الرجال الذين تسموا بها وأسماء القبائل التي هم منها ، والمواضع التي كانوا بها ، لنتعرف بذلك على أصول هذه القبائل ، والأماكن التي جاءت منها ، والأثر الذي تأثرت به من القبائل المجاورة لها ، فنحن نعرف اليوم ، ان أهل العربية الجنوبية ، كانت لهم أسماء وردت في المسند لم تكن شائعة بين العرب الشماليين ، وقد كانت خاصة بهم ، ثم نعرف اليوم ان الأسماء الواردة في النصوص العربية الجنوبية المتأخرة المقاربة للاسلام ، اختلفت بعض الاختلاف عن الأسماء القديمة المركبة المضافة ، مما يدل على وقوع تغير في الذوق اللغوي عند العرب الجنوبيين قبيل الاسلام ، وعلى الميل الى اختزال الأسماء وتبسيطها ، على نحو ما كان عند العرب الشماليين ، ومثل هذه الدراسة ، تكون ذات قيمة كبيرة في الوقوف على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت على جزيرة العرب قبيل ظهور الاسلام . وهذا التغير الذي أشير اليه هو شيء طبيعي ، وقع قبل الاسلام ، كما وقع في الاسلام ، فقد ماتت الأسماء الجاهلية ، مثل (امرؤ القيس) ، و (معدي كرب) ، و (شرحبيل) ، و (شرحئيل)، و (عبد عوف) ، و (عبد مناة) ، و (عبد أسد) ، في الاسلام ، وحلت محلها أسماء إسلامية ، وماتت ألفاظ جاهلية ، بسبب إماتة الاسلام لها ، أو إعراضه عن استعمالها ، أو بسبب تغير الذوق ، فلم تعد تصلح للاستعمال ، وولدت ألفاظ إسلامية لم تكن معروفة عند الجاهليين ، ونشأت معان جديدة لألفاظ جاهلية قديمة لم تكن تعبر عن هذه المعاني قبل الاسلام .

كذلك ، نحن في حاجة الى تدوين شعر الشعراء على حسب القبائل التي ينتمي اليها قالة الشعر ، لنتمكن بذلك من دراسة خصائص شعر كل قبيلة ، وما ورد

---

١ المزهر (٢٥٧/١) .

فيه من لغتها ، على أن نهتم بصورة خاصة ، بالأصول الأولى لهذا الشعر ، أي بأقدم الروايات التي ورد فيها ، ثم ندون الى جانبها الروايات المختلفة التي ورد فيها على ألسنة علماء الشعر واللغة ، والتعديلات التي أدخلها العلماء عليه ، لنرى ما فعله العلماء في الشعر الجاهلي،وطبيعة ذلك الشعر بالنسبة الى اللغات ، وخصائص كل شعر .

ونجد في كتاب (الإكليل) ملاحظات ثمينة تفيدنا كثيراً في دراسة اللهجات العربية الجنوبية ، وقد أخذها من كلام الناس في أيامه . من ذلك ما ذكره في كتابه (الإكليل) من قوله نقلاً عن كلام (أبي نصر) : إن « حمير تطرح مثل هذه الألف في كلامها ، فنقول : إذا أردت أن تقول للرجل : اسمع واذهب: سِمَع وذِهَب ، وغِضَب في اغضب وشرب في اشرب »[1] . وهي لغة لا تزال تستعمل في بعض القبائل اليمانية[2] . ومن ذلك استعماله لفظة (القدمان) في قوله : « وقرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل فخففتها العرب وأبدلت فيها الحروف الذلقية، وسمع بها الناسُ مخففة مُبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل أنه غير ذلك الإسم ، وهو هو »[3] . ولفظة (القدمان) من الألفاظ العربية الجنوبية التي ترد بكثرة في كتابات المسند ، ترد مع أسماء بعض الأشهر التي يتكرر اسمها، على نحو قولنا في العربية : (ربيع الأول) و (ربيع الثاني) ، و (جمادى الأولى) و (جمادى الآخرة) ، فيستعملون (قدمن) (قدمان) للأول ، أي الأقدم والمتقدم ، ويستعملون (اخرن) (اخران) للثاني ، أي الآخر والمتأخر ، وتعني (قدمان) القدامى والقدماء كذلك .

ونجد في ثنايا كتابه مصطلحات وألفاظاً أخرى من هذا القبيل استعملها هو ، أو نقلها عن غيره ، أو من الكتب ، وهي ترجع الى اللهجات العربية القديمة ، وقد لا نجد لها وجوداً في معاجم اللغة . كذلك يجب البحث في كتب (سعيد ابن نشوان) الحميري وفي كتب غيره من المؤلفين من أهل العربية الجنوبية الى يومنا هذا ، لنلتقط ما قد يكون في ثناياها من كلم عربي جنوبي قديم ، ومن

---

١ الاكليل (٢/٤٨) .
٢ المصدر نفسه (هامش رقم ٤) .
٣ الاكليل (١/١٣) .

أمثلة وجمل ، وأسماء أشهر وغير ذلك ، إضافة الى دراسة لهجات الأحياء منهم، ووجوب الحفر حفراً علمياً في مواضع الآثار لاستخراج ما فيها من نفائس مكتوبة أو غير مكتوبة لتعيننا في الوقوف على أصول لغة العرب الجنوبيين قبل الإسلام .

ولا بد لنا اليوم من وجوب القيام بمسح لغوي جغرافي ، للغات جزيرة العرب ولقبائل العراق وبلاد الشأم ، لمعرفة ما تبقى عندها من أثر للهجاتها القديمة . مسح عام لكلامها الذي تنطق به ، ولشعرها الذي تنظمه في الوقت الحاضر ، وللأسماء الغريبة التي تتسمى بها ، ومسح مثل هذا سيعين الباحثين كثيراً في الوقوف على أسرار اللهجات العربية قبل الإسلام .

الفصل الحادي والاربعون بعد المئة

المعربات

والاختلاط بين الأمم ، بمختلف وسائله ، ومن ذلك الاتصال التجاري، يؤدي الى حدوث تفاعل في اللغة ، فقد يولد هذا الاحتكاك ألفاظاً جديدة يطلقونها على أشياء لم يكن لأهل تلك اللغة علم بها ، وقد يضطر أصحابها الى استعمال المسميات الأجنبية كما هي ، أو بشيء من التبديل والتغيير ليناسب النطق بتلك اللغة . وقد وقع ما أقوله في كل اللغات ، ويقع الآن أيضاً ، وسيقع في المستقبل الى ما شاء الله ، لا استثناء في ذلك ، ولا تفاضل ، ولا امتياز . فاللغـــات كلها ، ومنها اللغة العربية في جاهليتها واسلاميتها ، تخضع لهذا الحكم والقانون .

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة مـا ، أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها . فكل اللغات مهما بلغت من النمو والكمال والسعة ، لا بد لها من أن تأخذ وأن تطور مدلول مفرداتها أو تضع مفردات جديدة لأمور لم تكن معروفة وموجودة عندها . ولا نعرف لغة ما من اللغات الميتة أو الحية ، انفردت بنفسها انفراداً تاماً ، فلم تأخذ شيئاً ولم تعط شيئاً .

والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثل اللغات الأخرى، وفي جملتها اللغات السامية أخذت وأعطت ، قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ولا تزال تأخـــذ وتعطي ما دام أصحاب اللسان العربي باقين في هذا الكون . والأخذ والعطـــاء ووضع مفردات جديدة في لغة ما ، هما من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكامل في تلك

اللغة . ومن دلائل هذا الأخذ والعطاء ، ما حدث في العصور الاسلامية : من أخذ وعطاء بين العربية واللغات الأعجمية ، فطعمت العربيةُ الفارسيةَ والتركية والرومية وغيرها بمادة غزيرة من الكلمات ، كما أخذت هي حاجتها منها . ومن دلائله أيضاً ما يقع اليوم من وضع المصطلحات لمعاني لا عهد للعربية بها من قبل كمخترعات تظهر دوماً ومعاني علمية ليس للعلماء عهد بها ، ولا بد من وضع ما يقابلها في العربية ، بوضع لفظ عربي ، أو تعريب المصطلح وتكييفه وفق النطق العربي إن كان من غير الممكن إخضاعه للمفردات العربية .

وقد يزعج هذا الرأي فريقاً من الناس يذهبون الى أن العربية لغة نقية صافية لم تتأثر بغيرها من اللغات ، فلم تأخذ من اللغات شيئاً ، ولم يدخل اليها لفظ أجنبي ، أو ان ما دخل اليها من دخيل معرب هو قليل ، وهم في منطقهم هذا محافظون متزمتون لا يعترفون بنظرية الأخذ والعطاء في اللغات . فإذا قلت لهم إن اللفظة الفلانية لفظة معربة وأصلها أعجمي ، أجابوك : ولكنها وردت في القرآن الكريم ، ووردت في شعر فلان ، وفلان من الشعراء الجاهليين . واذا قلت لهم : ولكن دخولها العربية كان قبل الاسلام بزمن ، وقبل ذلك الشاعر بزمن طويل ، وأن الجاهليين نسوا أصلها واستعملوها استعمال الألفاظ العربية ، فحكمها اذن حكم الألفاظ العربية في أيام ذلك الشاعر ، وعند نزول الوحي ، أجابوك أيضاً : وكيف نؤمن أنها معربة ، أفلا يجوز أن تكون عربية في الأصل ، وقد أخذها الأعاجم أنفسهم من العربية ، ومن أين لك الدليل على العكس ؟ واذا ذكرت لهم أن اللفظة الفلانية عبرانية في الأصل أو سريانية أو كلدانية ، قالوا : وكيف تثبت ذلك ، وهذه اللغات والعربية كلها من أصل واحد ودوحة واحدة ، فلمَ تحكم بأنها من أصل سرياني أو عبراني أو كلداني أو غير ذلك ، ولا تحكم بأنها عربية أصيلة ، وان وجودها في تلك اللغات ، هو بسبب اشتراكها والعربية في الأصل السامي . فهي في العربية أصيلة اذن ، وهي في تلك اللغات أصيلة أيضاً وقديمة بسبب مشاركتها للعربية في الأصل السامي .

وقد فات مثل هؤلاء ان القدامى من العلماء لم يفتهم أمر هذه المعربات، فأشاروا اليها ، ومنهم جمهور أصحاب كتب التفاسير والحديث والمعجمات، وأن من العلماء من ألّف في هذا الموضوع ، فألّف أبو منصور المعروف بالجواليقي كتاباً في هذا

الباب دعاه : (المعرب من الكلام الأعجمي)[1] . ولم ينتقده مع ذلك علماء يومه، ولا من جاء بعده لإقدامه على تأليف كتابه هذا ، ولم يقل أحد انه كان جاهلاً أو متحاملاً على العربية ، مسيئاً اليها ، لأنه أنكر أصول الألفاظ المذكورة في مؤلفه ، فعدّها أعجمية معربة مع انها عربيــة أصيلة ، لا شك في عربيتها ولا شبهة . قال (الجاحظ) : « ألا ترى ان أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمّون البطيخ الخربز، ويسمّون السميط الرزدق ، ويسمّون المصوص المــزور ، ويسمّون الشطرنــج الاشترنج ، في غير ذلك من الأسماء »[2] . ونجد في تفسير (الطبري) ، وهو من العلماء الثقات المحققين وفي تفاسير غيره من العلماء المدققين إشارات الى أصول ألفاظ وردت في كتاب الله ذكروا انها من المعربات،وقد نصوا على أصولها التي أخذت منها ، حسب علمهم واجتهادهم في ذلك الوقت ، لم يجــدوا في ذلك بأساً ولا انتقاصاً لحرمة القرآن ، أو مساً به .

وفي القرآن — كما يذكر العلماء — أكثر من مائة لفظة معربــة ، نصوا على أصولها حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم من الأعاجم ، وهي كلمات دخل بعضها العربية قبل الاسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها في لغة العرب،فأخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها ، فصارت بذلك عربية،وانما وردت في القرآن لأنها كانت قد تعربت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ، ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها[3] . وفي بعض هذه المعربات ألفاظ لم تكن مألوفة أو معروفة عند الوثنيين ، لأنها من ألفاظ أهل الديانات ، ونظراً لكونها تعبر عن أمور دينية ضرورية لا مثيل لها في العربية ، وكان من اللازم تعليم الناس اياها،لذلك وردت في القرآن .

وقد رجع العلماء أصول المعربات الواردة في القرآن الى لغات كانت شائعــة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذها العرب منها باحتكاكهم بأهلها ، مثل اليونانية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، والحبشية ، والهندية ، والقبطية ، والنبطية،

---

١ المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، لابي منصور موهوب بن أحمد بــن محمد بن الخضر الجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ .
٢ البيان والتبيين (١٩/١) .
٣ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (٥٨/٢) .

حتى ذهب (أبو ميسرة) ، وهو من العلماء التـابعين الى أن « في القرآن كل لسان » ، وروى مثله عن (سعيد بن جبير) ، و (وهب بن منبه)[1] . ولو راجعنا أقوال العلماء في هذه المعربات التي درسوها وتحدثوا عنها لوجدنا أنهم قد أخطأوا في تشخيص الكثير منها ، فلم يتمكنوا من الوقوف على أصولها ، لعـدم معرفة أكثر علماء العربية اللغات الأعجمية . نعم تمكن العارفون منهم بالفارسية من تشخيص المعربات عن الفارسية ، غير أن منهم من زاد عليها وبالغ فيها، فأدخل في المعرب عن الفارسية ما ليس من الفارسية بشيء . وأدخل ألفاظاً عربية أصيلة في طائفة المعربات،مع أنها عربية جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي النصوص الأخرى[2] ،وسبب ادخالهم لها ضمن المعربات ، هو عدم احاطتهم باللهجات العربية الجنوبية ، وباللهجات الجاهلية الأخرى . فتخبطوا في تعيين الأصول ، فترى بعض منهم يرجع معرباً الى أصل عبراني ، وتجد آخر يرجعه الى أصـل يوناني ، بينما يرجعه ثالث الى أصل حبشي ، وقع ذلك بسبب عدم وقوف العلماء عـلى اللغات الأجنبية واكتفائهم بالاستفسار من الأعاجم ، ممن لم يكن لهم علم بعلوم اللغات ، وإنما كانوا يعرفون الكلام بها ، إذ لم يكونوا من أصحاب التضلع والتخصص ، كما أن عصبية البعض منهم للسانهم دفعتهم أحيـاناً إلى الاختراع وصنع الأجوبة الكاذبة ، يضاف الى ذلك عامل الادعاء بالعلم والفهم ، مما يحمل صاحبه عـلى الوضع والكذب .

وبين الباحثين في المعربات الواردة في القرآن جدل في وجود المعرب فيه، منهم من قال بوجوده ، ومنهم من رد القول به ومنعه ، فقال : « انما أنزل القرآن بلسان عربـي مبين ، فمن زعم ان فيه غير العربية ، فقد أعظـم القول ، ومن زعم ان كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول » ، وقالوا : « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن انها بالفارسية أو الحبشية أو النبطيـة أو نحو ذلك ، انما اتفق فيها توارد اللغات ، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد » . وبالغ بعضهم في نفي المعربات ، حتى قال : « كـل هذه الألفاظ عربية صرفة ، ولكن لغة العرب متسعة جداً ، ولا يبعـد أن تخفى عـلى الأكابر

---

١ السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (١٠٦/٢) ، (تحقيـق محمد أبو الفضـل ابراهيم) .

٢ راجع الاتقان (١٠٨/٢ وما بعدها) ، حيث تجد أمثلة عديدة على ما أقول .

الجلة ، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح »[1] .

والذين ذهبوا الى وقوعه فيه ، يرون بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً . وعلل بعضهم سبب وقوعه في القرآن بقوله : « إن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن ، انه حوى علوم الأولين والآخرين ، ونبأ كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب » ، « وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم ، مرسلٌ الى كل أمة ، وقد قال تعالى : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو »[2] . وقال (ابن سلام) : « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية فصادق . ومال الى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون »[3] .

وقال (ابن النقيب) : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المُنزلة ، انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير »[4] . فهو من الذين يرون ان في القرآن كل لسان .

ولا يقوم جدل المانعين من وقوع المعرب في القرآن ، أو القائلين به على أساس اختلافهم في وقوع المعرب في العربية ، وانما انصب كل اختلافهم على وقوع المعرب في كتاب الله . فالمانعون يقولون – كما رأينا – ان الله يقول : « قرآناً عربياً »[5] و « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أأعجمي

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٥ وما بعدها) .
٢ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦ وما بعدها) .
٣ المصدر نفسه (٢/١٠٨) .
٤ السيوطي ، الاتقان (٢/١٠٦) .
٥ يوسف ، الاية ٢ .

وعربي »[1] ، فكل ما فيه هو عربي اذن ، والذين يجيزونه ، يقولون إن هذه الأحرف أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب ، فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهو صادق ، ومن قال أعجمية صادق[2] . فالخلاف اذن خلاف عقائدي لا صلة له باللغة ، وبوقوع المعرب أو عدم وقوعه في العربية .

وهناك فريق آخر جماعته من المحدثين في الغالب ومن غير العرب ، ذهب مذهباً معاكساً لمذهب من ذكرت تماماً . تطرف في رأيه تطرفاً مسرفاً وبالغ في أحكامه مبالغة منكرة . رجّع ألفاظاً عربية استعملها الجاهليون الى أصول أعجمية، وادعى انها من الألفاظ المعربة عن السريانية أو اليونانية أو اللاتينية أو العبرانية أو الفارسية ، لمجرد ورودها أو ورود مشابه لها في تلك اللغات ، وحجته في ذلك أن الجاهليين أميون أعراب وثنيّون ، وأن الألفاظ التي رأوا عجمتها هي ألفاظ حضارة لها مدلولات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حرفية أو غير ذلك ، ولهذا لا يمكن أن تكون من صميم العربية ، بل لا بد أن تكون طارئة عليها دخيلة في الأصل ، ثم عربت . وفي هؤلاء المتعصب لجنسيته ، مثل أن يكون سريانياً أو يهودياً ، لهذا رجع تلك الألفاظ الى لغته لتعصبه لها،والمتأثر بنظرية جهل الجاهليين وعدم وجود أي علم أو ثقافة لديهم ، والمتعصب على الاسلام ، لهذا رجع أكثر الألفاظ الحضارية الى النصرانية أو اليهودية أو الفارسية ، لإثبات أخذ الاسلام منها، وتعلم الرسول ديانته من تلك الديانات .

أما البحث العلمي الخالص ، فهو ما كان بعيداً عن كل الميول والاتجاهات والنزعات ودوافع التعصب ، قائماً على الحقائق والوقائع وفكرة البحث عن الحق للتوصل اليه . فالرأيان في نظري باطلان ، بعيدان عن جادة العلم . وواجب الباحث في مثل هذه الأمور أن يتريث أولاً ، وألاّ يبت في قرار إلا اذا كان متأكداً من سلامة السبل التي سار عليها في الوصول الى قراره ، ولا سيما أن العربية والعبرانية والسريانية كلها من هذا الأصل الذي يطلق علماء الأجناس واللغات عليه:

---

١ فصلت ، ٤٤ .
٢ السيوطي ، الاتقان (١٠٨/٢) .

الأصل السامي ، وتشترك كلها أو أكثرها في كثير من الألفاظ ، والحكم بأن هذه أخذت من هذه أو تلك ، حكم فج ناقص إذ لم يستند الى موارد ونصوص مرتبة ترتيباً تأريخياً . ثم ان العربية ليست عربية واحدة ؛ فإن هناك ألسنة عربية أخرى، مثل عربيات اليمن ، وهي لهجات عربية قديمة ذات نصوص يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد ، فلا يجوز التعميم بالاستناد الى لغة القرآن الكريم وحدها ، بل لا بد من تتبع ما جاء في اللغات العربية الأخرى . أضف الى ذلك أن أهل اليمن كانوا أصحاب حضارة وحضارتهم أرقى وأعلى درجة من حضارة بعض الساميين. ولذلك يدفعنا الواجب الى دراسة ما جاء في نصوصهم من ألفاظ ومسمّيات وآراء ومقارنتها بما جاء في النصوص الواردة في اللغات السامية الأخرى ، للحصول على رأي علمي في هذه الأمور . ولكننا مع ذلك نحن في وضع لا نتمكن فيه من البت في هذه الأمور ، لأن ما لدينا من نصوص جاهلية أغلبه من النوع الذي عثر عليه على ظاهر الأرض ، لأن الظروف لم تمكن العلماء حتى الآن من التنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في باطن مواطن الآثار، لاستخراج المطمور من الكتابات والآثار الأخرى ، والغالب أن يكون المطمور ذا أهمية كبيرة ، وسيعين المؤرخين في كتابة الأجزاء المفقودة من تأريخ العرب قبل الاسلام . وقد يكون من بين ما يعثر عليه ما هو أقدم من النصوص التي بين أيدينا . وعلى هذه النصوص ان رتبت ترتيباً زمنياً يوثق به ، يمكن أن يكون اعتمادنا في تثبيت المفردات، وفي تعيين زمن استعمالها في العربية وفي كونها عربية أصيلة أو معربة .

إن وجود المعربات دليل على اتصال الجاهليين بغيرهم ، واتصال غيرهم بهم. وعلى الروابط الفكرية التي كانت بين العرب وبقية الساميين،وبين العرب والشعوب الأخرى وجمعها وتصنيفها لذلك في مجموعات حسب الموضوعات يعطينا رأياً عن النواحي التي تأثر بها الجاهليون في أمور الحياة . غير ان هذا العمل عمل شاق ، ويجب أن يستند الى معجمات جامعة مرتبة ترتيباً تأريخياً ، تذكر الكلمة، ثم تذكر أصلها ومن أي أصل أخذت وفي أي زمن كان ذلك ، وأول من استعملها أو أقدم نص عربي وردت فيه ، وفي أي معنى استخدمت ، وهكذا . ولكننا لا نملك ، ويا للأسف ، مثل هذه المعجمات . وكل ما لدينا معجمات قديمة ، لم تنتبه لهذه الأمور ، ولم تميز الجاهلي من الاسلامي ، ولا اللفظ الوارد في عربية القرآن الكريم من اللفظ الوارد في اللهجات العربية الأخرى . فذكرت الألفاظ

الواردة في اللهجات العربية الأخرى على انها مرادفات ، ترد في عربيتنا على حين انها مسميات للشيء ذاته في اللغات العربية الأخرى .

والذين يقولون بعدم وقوع المعرب في كلام العرب ، كأنهم يتصورون ان العرب كانوا بمعزل عن العالم وانقطاع عن الناس . ولهذا لم يتأثروا بغيرهم ، ولم يؤثروا في غيرهم ، وأن عرقهم لذلك بقي صافياً نقياً سليماً ، لم تدنسه أعراق أعجمية ، ولم يمازج دمهم دمٌ غريب ، ولم تدخل لغتهم لفظة غريبة، بل بقيت نقية صافية على ما خلقها الله يوم خلق اللغات . وقد تكون في اللغات الأخرى ، كلمات دخيلة ، أما العربية فحاشاها من ذلك !

وهؤلاء لا يدرون انه قد كانت في سواحل جزيرة العرب قبل الاسلام مستوطنات يونانية ، نشأت في مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر العربي والخليج العربي ، وقد بقي أصحاب تلك المستوطنات في مستوطناتهم فلم يعودوا الى ديارهم ، ونسوا أصولهم وعاداتهم ، وصاروا عرباً مثل سائر العرب، يرجعون أنسابهم الى أصول عربية على عرف العرب والأعراب . وأن منهم من بقي عرقه الدساس يحنّ الى أصله، فقد ذكر المؤلفون اليونان ان بعض القبائل العربية الساكنة على السواحل ، كانوا يرحبون ببعض اليونان ، لاعتقادهم انهم يجمعهم واياهم صلب واحد .

يضاف الى ذلك الرقيق من الجنسين ، وقد كانت بلاد العرب تجلب عدداً كبيراً منه في كل عام ، تشتريه من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم ، وتوكل اليه القيام بأعمال مختلفة ، ولا سيما الأعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة فنية ودراية . ونحن نعلم أن العربي الصريح يأنف من الاشتغال بالحرف وزراعة الخضر ، ولذلك وُكِلَ الى هذا الرقيق أمر القيام بها ، فأدخل الى العربية كثيراً من الألفاظ الخاصة بالزراعة وبالحرف ، لم تكن معروفة في العربية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

يضاف الى ذلك أيضاً ، التجارة . فقد كان التجار من عرب وغرباء يتعاطونها في جزيرة العرب وفي خارجها ، يصدرون منها حاصلاتها وما تجمع فيها من سلع مستوردة من سواحل افريقية الشرقية والهند ، ويأتون اليها بما تحتاج اليه قبائلها وأهل مدرها وأهل إفريقية من بضائع مصنوعة أو منسوجة من حاصل الانبراطوريتين

الساسانية والرومية والأرضين المصاقبة لها . ومن الطبيعي أن يؤدي ذهاب التجار العرب الى أسواق العراق وبلاد الشأم ، واحتكاكهم بالفرس والروم ، الى الوقوف على أحوالهم والاتصال بهم والأخذ منهم والتأثر بثقافتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم ؛ ومن الطبيعي أن يؤثر التجار الروم والفرس بعض التأثير في نفوس زملائهم العرب في الأماكن التي ولجوها من جزيرة العرب ، وأن ينقلوا اليهم شيئاً من آرائهم وأفكارهم وتجاربهم في الحياة، وأن يعطوهم شيئاً من مصطلحات لغتهم التي لا تعرفها العربية ، ومن الأسماء الخاصة بالتجارة وبالبضائع التي يأتون بها الى جزيرة العرب لبيعها في أسواقها .

وكان للمبشرين شأن مهم في نقل التراث اليوناني والإرمي الى جزيرة العرب في أيام الجاهلية ، وبجهادهم المضني المتواصل وعملهم المتوالي، دخلت النصرانية في أماكن متعددة قاصية من بلاد العرب، حتى تمكنوا من تنصير قبائل وأمراء ورؤساء قبائل ، بطريقتهم الخاصة في الاقناع والتأثير ، وبالتطبيب ، وبالتقرب الى ضعاف الحال من الناس. وقد اتبعوا في التبشير وفي إدارة المؤسسات التبشيرية النظم الإدارية والدينية المتبعة في الكنيسة ، فجعلوا (بيث قطرايا) ، أي (قَطَراً) الموضع المعروف اليوم على ساحل الخليج ، كرسياً لـ (مطرابوليطي) ، يقيم فيه ، ويشرف على إدارة خمسة أساقفة ، يقيمون في (ديرين) و (مشمهيغ) أي (سماهيج) وهجر وبلاد (مازون) و (حطا) المسماة (بيط أردشير)[1] ، وهي الخط .

وفي موضع مثل نجران غلبت النصرانية على أهله، نظمت الكنيسة شؤون المدينة، فتولى رئيسها الديني ، وهو بدرجة (أسقف) ، الأمور الدينية ، وتولى (السيد) أمور الحرب وادارة المسائل الخارجية المتعلقة بعلاقة نجران بغيرها، وتولى (العاقب) الأمور الداخلية ، وهم جميعاً يؤلفون معاً مجلس المدينة فيديرون معاً أمور الناس، وينظرون في كل ما يحدث بينهم من نزاع وخصومات . وهكذا نظمت العلاقات بين كنيسة المدينة وحكامها ، وانسجم الحكم بين الجماعتين .

وقد أدخل التبشير ألفاظاً يونانية وسريانية ترد في الديانة وفي الحياة اليومية الى

---

١ أدي شير ، تأريخ كلدو وآثور ، المجلد الثاني ، (المقدمة) .

اللغة العربية ، ولا سيما المصطلحات الخاصة بتنظيم الكنيسة وبالحياة النصرانية ، كما كان لبعض الشعراء الجاهليين يد في إدخال بعض المصطلحات النصرانية الى العربية ، كالذي نجده في شعر (امرىء القيس) والأعشى وعدي بن زيد العبادي وغيرهم من كلمات ترد بكثرة عند النصارى ، نتيجة اتصالهم واحتكاكهم بهم ، فصارت بذلك تلك الكلمات من المعربات .

ويضاف الى من ذكرنا اليهود ، فقد كان لهم أثر في الجاهليين ، في يهود العربية الغربية خاصة ، أي في الحجاز ، في البقعة الممتدة من (يثرب) حتى بلاد الشأم ، وفي اليمن . فقد سكن اليهود في هذه المواضع ، وبنوا لهم مستوطنات فيها ، واختلطوا بعربها ، واحترفوا الحرف كما ذكرت ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد كانت (مدراشات) اليهود في يثرب وفي المستوطنات اليهودية الأخرى تلقن اليهود أحكام دينهم ، وتعلم أطفالهم القراءة والكتابة . وقد قصدها العرب وجلسوا فيها يستمعون الى يهود . وقد شاهدها الرسول بعد هجرته الى المدينة ، وحضر جدلاً كان قد وقع بين جماعة من يهود ، كما حضرها أبو بكر ونفر آخرون من الصحابة . وكان أحبارهم يدرسون فيها ويفتون ، كما كانوا يقيمون الصلوات واحتفالات الأعياد في (الكنيس) . ومن هؤلاء اليهود ومن (مدراشاتهم) انتقلت الألفاظ العبرانية الى العربية فعربت ، وفي جملة ذلك لفظة (مدراس) ، و (سفر) ، و (توراة) ، و (تابوت) ، و (حبر) ، و (كاهن) وغير ذلك من مصطلحات ، لأكثرها صلة بشؤون الدين .

ان الحاجة ، هي التي تحمل الناس على الأخذ والعطاء ، وبها نفسر اقتباس العرب للمعربات . فأسماء بعض الآلات والأدوات والطرق الفنية والأنسجة الدقيقة المصنوعة من الحرير وأسماء المأكولات النفيسة وأسماء النبات التي هي من أصل شمالي وبعض المشروبات وما شابه ذلك ، إنما دخلت العربية وعربت لأسباب عديدة ، أهمها أن الحياة في جزيرة العرب حياة عادية ، تكاد تجري على وتيرة واحدة ، فلم تساعد على ظهور الأمور المذكورة ، فاضطر الناس بحكم الحاجة الى أخذها من غيرهم واستيراد أشياء مادية وغير مادية من جيرانهم ، حتى في الأمور الفكرية والروحية ، مثل المعربات الدينية ، فإنها خضعت لحكم الحاجة ، فالنصارى

العرب استعملوا معربات من أصل سرياني ، لأنهم اضطروا الى استعمالها ، لأنها تعابير دينية لا وجود لها عند العرب الوثنيين أولاً ، ثم هي مصطلحات رسمية كنسية ، لم تتساهل الكنيسة في تغيير أسمائها ، ولهذا استعملها العرب على النحو المرسوم ، كما يستعمل الأعاجم المسلمون المصطلحات العربية ، لأنها مصطلحات اسلامية ليس لها مقابل في لغتهم ، أو لأنها مصطلحات دينية نحب المحافظة على تسميتها وان وجد لها مقابل في لغات الأعاجم .

وأكثر المعربات الجاهلية ، هي من أصل يرجع الى لغة بني إرم أو الى لغة الفرس ، ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والعبرانية واللاتينية والحبشية والقبطية ، وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل الى العربية عن طريق السريانية ، فقد كان السريان قد أدخلوها في لغتهم ، لأنها لم تكن معروفة عندهم ، ومن لغتهم هذه تعلمها الجاهليون .

والمعربات السريانية الأصل ، هي في الزراعة في الغالب ، وفي التوقيت ، ثم في موضوعات دينية وصناعية وتجارية وفي أمور أخرى . أما المعربات عن الفارسية فهي في موضوعات زراعية كذلك وفي أسماء المأكول والملبوس وأمور اجتماعية . وأما المعربات عن العبرانية ، ففي أمور خاصة بسكناهم بين العرب وبأمور دينهم وشؤونهم . وأما المقتبس عن اليونانية فهو في أمور حرفية ، وفي مصطلحات دينية ومصطلحات زراعية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر وما شاكل ذلك .

وتفسير وجود المعربات السريانية والفارسية بنسبة تزيد على نسبة وجود المعربات الأخرى ، هو ان المتكلمين بلغة بني إرم كانوا مزارعين في الغالب، وكانوا على اتصال بالعرب ، وقد خالطهم العرب وعاشوا بينهم ، واقتبسوا منهم ، حتى انهم كتبوا بلسانهم ، ودخل الكثير منهم في دينهم ، دين النصرانية ، ولا سيما قبيل الاسلام . وقد كانت أحوالهم الاجتماعية مشابهة للأحوال الاجتماعية عند العرب ، ولا سيما عرب بلاد الشأم والعراق . ووضع مثل هذا يؤدي بالطبع الى الاقتباس والأخذ والعطاء . وأما الفارسية ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد العراق وكان لهم نفوذ على العربية الشرقية ، وقد استولوا على اليمن قبيل الاسلام، ولهم تجارة مع أهل مكة وأماكن أخرى ، وبحكم هذه الصلات دخلت في العربية ألفاظ فارسية وصارت في عداد المعربات .

ونحن اذا تتبعنا صورة توزع المعربات بين العرب ، نجد ان توزيعها يختلف باختلاف الأمكنة ، فهناك أمكنة تأثرت بالمعربات الفارسية بالدرجة الأولى، وهناك مواضع تأثرت بالمعربات السريانية في الأكثر ، وهناك أقاليم تأثرت بالمعربات عن اليونانية أو الحبشية بالدرجة الأولى. ثم نجد ظاهرة أخرى في كيفية توزع المعربات وظهورها ، هي ظاهرة الحاجة والظروف السائدة في مكان ما. فيمكننا اذن ارجاع تأثر لهجات العرب الجاهليين بالمؤثرات اللغوية الأعجمية اذن الى عاملين : عامل الاختلاط بالأعاجم عن طريق الجوار أو السكن معهم في موضع واحد ، واستخدامهم لهم ومجيء الأجانب من تجار ومبشرين اليهم ، وعامل الحاجة التي كانت تدفع الى أخذ أشياء غير معروفة في بلاد العرب ، فتدخل العربية بأسمائها الأعجمية ، فإذا انقضى زمن عليها ، تدخل في ضمن اللسان العربي وتعرب ، حتى ليخيل الى من لا يعرف أصلها انها عربية الأصل والنجار .

ولما تقدم نرى ان المعربات عن السريانية والفارسية هي أظهر وأبرز في لهجات عرب العراق من المعربات الأخرى،وان المعربات عن السريانية واليونانية — اللاتينية أبرز وأوضح في لغة عرب بلاد الشأم من المعربات المنقولة عن الفارسية أو الحبشية. وان المعربات عن الحبشية واللهجات الافريقية ، هي أوضح وأكثر ظهوراً في لهجات العرب الجنوبيين من المعربات الأخرى ، وذلك بسبب اختلاط العرب الجنوبيين بأهل الساحل الافريقي الشرقي ووجود جاليات افريقية في العربية الجنوبية وجاليات عربية جنوبية في السواحل الافريقية المقابلة منذ أيام ما قبل الميلاد ، فأدى هذا الاختلاط والتجاور الى الأخذ والعطاء في اللغة . كما نجد المعربات عن الهندية والفارسية والإرمية ظاهرة بارزة على ألسنة أهل الخليج ، لاتصالهم بالهند وبفارس وبالعراق .

وأما مثال ظهور المعربات بسبب الحاجة ، فهو ما نجده في لهجة أهل يثرب وما حولها من مؤثرات فارسية وسريانية في الزراعة بصورة خاصة وفي نواح أخرى من نواحي الحياة الاجتماعية ، فقد استعمل أهل المدينة ألفاظاً فارسية في لهجتهم ، بسبب حاجتهم وظروفهم . فأرضهم أرض خصبة ذات آبار ومياه ، ولما كانوا في حاجة الى أيدي عاملة لتشغيلها لاستغلال مواردها استعانوا بالرقيق،وكان معظم الرقيق الذي جيء به ، من رقيق العراق الذي يرجع الى أصل فارسي ، أو نبطي متأثر بالفارسية ، لرخص ثمنه بالنسبة الى رقيق الروم،ولفطنته ولمهارته في الحرف

بالنسبة لرقيق افريقية ، وعن طريق هذا الرقيق دخلت المعربات الفارسية والنبطية المستعملة في الزراعة وفي أمور أخرى عرف بها الفرس والنبط الى (يثرب)[1] .

أما أهل مكة ، فلم تظهر المعربات الزراعية عندهم ، لعدم وجود حاجة لهم اليها ، بل استخدموا معربات أخرى في الأمور التي كانوا بحاجة اليها ، والتي لم يكن لها وجود عندهم ، وقد دخلت اليهم من أماكن مختلفة ، كان لهم تعامل معها ، ومن الرقيق والتجار الغرباء الذين كانوا يعيشون بها .

ولبعض المحدثين بحوث في الدخيل من السريانية على العربية ، من جملتها بحث للمستشرق (فرنكل) Fränkel ، دعاه (الألفاظ الآرامية الدخيلة على العربية) Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen . وكتابه هذا هو أشهر كتاب ألّفه المستشرقون في هذا الباب . كما ان لآباء الكنيسة الشرقيين مؤلفات وبحوثاً في الألفاظ السريانية في العربية ، وضعوها بالعربية ، نشر بعضها في مجلة المشرق ، ونشر بعض آخر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ونشر بعضه في كتب، مثل كتاب : (غرائب اللغة العربية) ، تأليف الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، وفيه باب خاص بالكلمات الدخيلة في العربية الداخلة فيها من الآرامية والعبرانية والفارسية واليونانية ومن التركية واللاتينية والايطالية والفرنسية ومن لغات أخرى[2] . وفي بعض هذه البحوث تسرع في الأحكام ، إذ فيها ألفاظ نسبت الى أصل سرياني ، وهي من الألفاظ الواردة في اللهجات العربية القديمة ، وفيها مما يرد في العربية وفي اللغات السامية الأخرى ، لأنه من المشترك الذي يرد في أصول الساميات .

وقد رأيت اختيار ألفاظ في الزراعة أو ألفاظ لها علاقة بها ، من القائمة التي أوردها (الأب رفائيل نخله اليسوعي) ، للألفاظ الآرامية الداخلة في العربية ، وذلك للوقوف عليها ، ولتكوين فكرة عنها ، وبعض هذه الألفاظ هو في رأيي مما استعمله العرب قبل الإسلام ، ووارد في النصوص الجاهلية ، فمن الصعب ارجاعه الى أصل آرامي من غير نص أو دليل منطقي مقبول ، وبعضه من النوع الوارد في العربية وله أصل عربي ، فلا يمكن أن يقال إنه من أصل آرامي ،

---

١ البيان والتبيين (١/ ١٠) .
٢ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ .

لمجرد وجود مرادف له أو لفظ مقارب له ، وبعض آخر هو من الألفاظ التي ترد في كثير من اللغات السامية فلا يجوز تخصيصه بالسرياني ، وارجاع أخذ العرب له من هذا الأصل .

ومن اللهجات في الزراعة وما يتعلق بها وبالفواكه والحبوب والأزهار وما شاكل ذلك : (آس) وهو من أصل سرياني هو (اسو) ، و (أب) بمعنى ثمرة من (أبو) ، و (ارف) و (أرفى) من أصل سرياني كـذلك بمعنى قسم الأرض وحددها ، ومن يمسح الأرض ويحددها . و (أكّار) بمعنى حرّاث ، أي من يحرث الأرض من أصـل Akoro ، و (أنبوب) ، من (أبوبو) Aboubo بمعنى قصبة وأنبوب أجوف وما بين عقدتين من القصب ، و (اندر) بمعنى بيدر ، من (ادرو) Edro و (باسور) بمعنى عنب غـير ناضج ، و (باكورة) ويراد بها أول الثمر من Bakorto و (بطيخ) ، أي البطيخ من fatiho ، و (بور) صفة للأرض من (بورو) bouro و (بيب)، بمعنى قناة ومجرى المـاء الى الحوض من أصل (بيبو) bibo ، و (بيـدر) من bayt-edro و (تبن) من (تبنو) ، و (تخم) بمعنى حدّ من أصل (تحومو) thoumo و (ترعة) ، بمعنى قنـاة عميقة من (ترعتو) و (توت) من (توتـو) touto و (ثوم) من toumo و (جبن) من أصل goubno والجريب من gribo ، و (جرام) بمعنى نواة من أصل garmo ، و (الجرن) ويراد به حجر منقور للماء وغيره من Gourno ، و (الحب) بمعنى الجرة الكبيرة من (حبو) Houbo و (حمص) من (حمصو) Hemso و (حندقوق) من Handqouqo ، و (خبيص) ، بمعنى حلوى مخبوصة ، من طحين وسمن وعسل وأصلهـا (حبيصو) Habiso ، و (الخردل) من (حردلو) Hardlo ، و (خس) من (خسو) Haco ، و (الخوص) الذي يكون على السعف من (حوصو) Houso ، والخوخ من Houho و (الدبرة) البقعة المزروعة أي الحقل من (دبرو) dabro و (دبس) أي الدبس من debcho و(دبق) من debeq و (درس) ، كأن نقول درس الحنطة مـن drach و (دقلة) أي نخلة من deqlo و (رُب) وهو ما يخثر من عصير الثمار من أصل Raubo و (رحى) من Rahyo و (رمّان) من أصـل Roumono و (ريحان) من Rihno و (زبن) بمعنى بـاع الثمر على شجره من Zaban بمعنى باع

و (زبون) بمعنى مشتري من Zobouno و (زفت) من أصل Zefto و (زق) من Zeqo و (زمـــارة) ، قصبة يزمر بها من Zamorto و (زيت) من Zayto و (زيتون) من Zaytouno و (سكة) مثل سكة المحراث من Sekto و (سكر) ما يسد به النهر ، من Chakro و (سلاء) أي شوك النخل من Salwo و (سمّاق) من أصل Sawmoqo ، وسنبل الحنطة من Seblo و(سنبل) بمعنى نبات طيب الرائحة من Sanboul و (شتلة) ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر من أصـــل Chetlo ، و (شرعوف) نبات وثمر من أصـــل Sour'afo و (شالم) و (شولم) و (شيلم) مـــن Chaylmo و (صعتر) من Setro و (صفصاف) من Safsofo و (مطمورة) ، وهي حفرة تحفر في الأرض يوسع أسفلها لحفظ الحبوب من matmourto و (عذق) أي عنقود عنب أو نخل من (عدق) 'daq و (عفص) من 'afso ، و (عقـــار) خمر ونبات يتداوى به ، وقد سمى العرب الخمر دواء من أصل 'egro ، و (عنب) من 'enbo ، و (عنقر) جذر القصب من 'eqoro بمعنى جـذر و (عود) وهو العود الذي يتبخر به من 'ouda و (غابة) من أصل 'obto بمعنى غابة كثيرة الأشجار ، وغدير بمعنى نهر وبركة يتركها السيل من gādiro ،و(غرب) نوع من الحور من أصل 'arbo ، و (فجل) من fouglo ، وفدان من أصل fadno ، و (فرث) ، من ferto و (الفروج) من Farougo ، و(الفرخ) من farahto و (فرع) بمعنى غصن من (فرعو) Fer'o ، و (فقح) مثل (فقح النبات) بمعنى أزهر من أصل (فقح) fqah ، و (فقاح النبات) أي زهره من أصل (فقحو) fagho ، و (فقد) ، بمعنى شراب من زبيب أو عسل من (فقودو) fqodo ، و (فُل) وهو زهر يشبه الياسمين من (فلو) Falo ، و (قثاء) من qtouto ، و (قش) من qecho ، و (قصر) وهو ما يبقى في الغربال من النفاية ، من أصل (قصرو) qisro أي قشرة الحنطة ، و (القطران) وهو سائل زيتي يستخرج من بعض الأشجار من أصل (قطرون) qotron ، و (القفيز) وهو مكيال من (قفيزو) qfizo ، و (قفص) من (قفسو) qafso ، و (قلة) بمعنى جرة كبيرة من (قلتو) qoulto ، و (قمح) أي حنطة ، من (قمحو) qamho ، و (كاث) وهو ما ينبت ممـــا انتثر من الزرع المحصود من koto ، و (كدّاس) الحب المحصود المجموع من

(كديخو) qdicho ، و (كرّ) بمعنى حمل ستة أوقار حمار ، أو ستون قفيزاً من (كورو) Kouro ، و (كرب) من أصل (كرب) Krab ، و (كُراث) من Karoto ، و (كرخ) بمعنى أجـرى وحول من (كرخ) Krak ، و (كرفس) من (كرفسو) Krafso ، و (كزبـرة) من (كوزبرتو) Kouzbarto ، و (كمثرى) من (كومترو) Komatro ، و (معين) نعت للماء الجاري على وجه الأرض من (مينو) m'ino ، و (نجر) من (نجر) Nagar ومنها النجار ، و (نشوق) من (نسكو) Nosko و (نطر) بمعنى حرس من (نطر) Ntar ومنهـا الناطور أي الحارس ، و (نُطّار) وهو ما يكون على هيأة رجل ينصب بين الزرع لإخافة الطيور وإبعاد الحيوانات المضرة به من (نوطورو) notoro ، و (نيطل) بمعنى دلو من (نطلو) notlo ، ونعناع من mon'o ، و (نورج) سكة المحراث من (نورجو) Norgo ، و (نير) وهي خشبة معترضة في عنقي ثورين بجران محراثاً من (نيرو) Niro ، و (هرطمان) من qourtomo ، وبل ووابل بمعنى المطر الشديد من (يبـل) Yibal ، و (ورد) من (وردو) Wardo ، و (وسق) بمعنى حمل بعير من (وسقو) Wasqo ، و (يتوع) ، كل نبات له لبن ، أي سائل أبيض في داخله يشبه اللبن من (يتوعو) Yatou'o [1] .

وقد وردت لفظة (الأبّ) في القرآن الكريم: « وفاكهة وأبّا . متاعاً لكم»[2]. وقد ذكر ان (عمر) قال : « قد عرفنا الفاكهة فما الأبّ ؟ قـال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف »[3] ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها ، مما يدل على أن اللفظة لم تكن معروفـة عندهم معرفة واضحة ، وفي كلام عمر : « إن هذا لهو التكلف » ، أو قوله : « ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا »[4] دلالـة على عدم وضوح معناها عنده وعند الناس . وهي بمعنى (ثمرة) في الإرمية من

---

١ غرائب اللغة (من الصفحة ١٧٢ الى الصفحة ٢١٠) .

٢ عبس ، الاية ٣١ ،

٣ تفسير الطبري (٣٨/٣٠) ، تفسير الالوسي (٤٧/٣٠)، تفسير ابن كثير (٤٧٢/٤ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١٤٢/١) ، (أب) .

Ebo ، وقد ذهب العلماء الى أن (الأبّ) ما تنبت الأرض للأنعام والماشية[1]، فهي في معنى آخر ، يخص العشب والكلأ وما تنبته الأرض ليعلفه الحيوان في رأي غالبية العلماء ، غير المعنى الوارد لها في السريانية .

وأما (الأرف) ، فبمعنى تقسيم الأرض وتحديدها ، ويقال لمن يمسح الأرض ويعين حدودها (ارفو) Arfo في الارمية[2] ، وقد ذكر علماء اللغة أن الارف الحدود بين الأرضين ، أو معالم الحدود بين الأرضين . « وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، الارف تقطع الشفعة ، وهي المعالم والحدود . هذا كلام أهل الحجاز ، وكانوا لا يرون الشفعة للجار »[3] .

وأما (الأكار) فيذكر علماء اللغة أنها من أصل (أكر) ، بمعنى (حفر)، والأكار بمعنى الحفّار والحرّاث والزارع . ومن ذلك حديث « أبي جهل : فلو غير أكار قتلني » ، أراد به احتقاره وانتقاصه[4] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (اكورو) Akoro في الأرمية التي هي « اكار »[5] .

وبين الألفاظ التي ذكرتها ألفاظ لا يوجد دليل على انها معربة من أصل إرمي لأننا نجد ان لها جذراً عربياً ، وهي ليست من المسميات التي لم يعرفها العرب حتى نقول انها استوردت من الخارج ، أو ان الحاجة حملت العرب على تعلمها من الرقيق الذي كان عندهم أو من المبشرين أو التجار الغرباء .

وأما المعرب عن الفارسية مما يخص الزراعه ، فأكثره في أسماء أثمار أو أزهار أو روائح وعطور ، مثل (الخربز) بمعنى البطيخ ، من أصل (خربوزة) . وفي الحديث عن أنس قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخربز والرطب » . وفي حديث عن عائشة : « يأكل البطيخ بالرطب »[6] . و (السيسنبر)

---

١ الموارد المذكورة .
٢ غرائب اللغة (١٧٢) .
٣ تاج العروس (٦/٣٩) ، (أرف) .
٤ تاجر العروس (٣/١٧) ، (اكر) .
٥ غرائب اللغة (١٧٣) .
٦ الجواليقي : المعرب (ص ١٣٧) ، فتح الباري (٩/٤٩٦) ، عون المعبود (٣/٤٢٧ وما بعدها) .

نوع من الريحان[1] ، و (الجل) بمعنى الورد[2] ، و (الجلاب) أي ماء الورد . وقد وردت اللفظة في حديث عائشة عن الرسول[3] . وذلك دليل على ان اللفظة كانت معروفة قبل أيام الرسول . ويلاحظ ان لفظة (بطيخ) هي من الألفاظ المعربة كذلك ، عربت من أصل (فطيخو) بلغة بني إرم[4] .

وقليل منه ما يخص آلات الزراعة أو الأرض ، مثل (بستان) والجمع (بساتين)[5] ، وذلك لأن غالبية الذين كانوا يفلحون الأرض ويزرعونها في العراق وفي بلاد الشأم ، هم من بني إرم أو من المتكلمين بلغتهم ، وباحتكاك العرب بهم تعلموا أسماء الآلات والأدوات وطرق حرث الأرض وزرعها ، وأسماء كثير من الزروع ومقاييس الأرض وطرق الاستفادة من الأرض ، فدخلت الى العربية . أما الفرس في العراق ، فلم يكونوا يباشرون زراعة الأرض وفلاحتها في العراق، وانما كان (مرازبتهم) وأثرياؤهم يمتلكون الأرضين الواسعة ، ويسخرون أهل البلاد في استغلالها لهم ، ولهذا لم تترك لغتهم أثراً كبيراً يشبه الأثر (الإرمي) من ناحية الزراعة في العربية .

أما المعربات في الزراعة عن اليونانية ، فأقل عدداً ، إذ لم يكن العرب على اتصال مباشر بالمزارعين اليونان ، لهذا لم يأخذوا عنهم كثيراً . والمعروف من المعربات في هذا الباب هو في أسماء ثمر نبات أو بذور ، أو ما يتعلق بحاصل عنب ، مثل الخمور ، فقد كان أهل الحجاز يستوردون الخمور من بلاد الشأم، وقد تعلمها أهل هذه البلاد من الروم بأسمائها اليونانية . ولما أخذها العرب من بلاد الشأم ، حرفوا الأسماء بعض التحريف لتلائم المنطق العربي .

ومن هذه المعربات : (الاسفنط) : وهي أجود الخمر المطيب من عصير العنب ، من أصل (افستين) Apsinthion ، كان الخمر يطيب به[6] . و (خندروس) ، ويراد بها نوع حنطة ، أو حنطة مجروشة من أصل Khandhros[7] ، و(خندريس) ويراد بها خمر معتقة ، ونعت لخمر مصنوعة من

---

١ الجواليقي (ص ٨٠ ، ١٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٥) .
٢ الجواليقي (ص ١١٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٦) فتح الباري ، لابن حجر (٣١٧/١) ، المزهر (٢٧٦/١) .
٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
٥ الجواليقي (ص ٥٣) .
٦ الجواليقي (ص ١٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) ، « وأخبرنا عن يعقوب أن « الخندرس » : القديمة . يقال : حنطة خندريس ، أي قديمة » ، الجواليقي (ص ١٢٥) .

الكرم اسمه Kantharios [1] . و (زنجبيل) ، وهي من أصل zinguiveri . ومن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم . وقد ذكرت في شعر منسوب الى الأعشى[2] . و (القرنفل) ، من أصل Kariofillon [3] . و (كافور) من Kafoura . وفي السريانية qafouro [4] . و (المسطار) ، ويراد بها الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب حديثاً [5] ، وأصلها (مسطس) Moustos [6] . و (نرجس) من أصل Narkisos [7] .

وبلاد الشام أكثر شهرة من العراق في الأعناب ، وهي مادة صالحة لصنع أنواع متعددة من الخمور . أما أهل العراق ، فقد استخرجوا خمرهم من التمر، فلم يعرف لهذا السبب بتنويع الخمور . وقد استغل سكان جزيرة العرب التمور أيضاً لاستخراج الخمور منها ، وذلك في الأماكن التي تكثر فيها النخيل ، وتقل أشجار الكروم . ولاتصال الحجاز ببلاد الشأم بالقوافل الكبيرة ، كانت الخمور من أهم السلع التي تستوردها القوافل من تلك البلاد .

ومن الألفاظ الآرامية التي دخلت في العربية ، ولها معان دينية لفظة (ابل) بمعنى تنسك من «ébal» ، و (تأبل) بمعنى (حزن) من «étébal» ، و (أبيل) بمعنى راهب من (أبيلو) «abilo» الإرمي بمعنى ناسك وراهب[8] . وقد جعلها (الجواليقي) فارسية الأصل[9] ، وهو خطأ منه . و (الباعوث) ، صلاة لثاني عيد الفصح في بعض الطوائف من أصل «bo'outo» بمعنى صلاة وطلب[10] ؛ و (برخ) بمعنى زيادة ونماء من (برختو) bourhto بمعنى بركة وعطية[11] . و (البيعة) من (بيعتو) Bi'to [12] . و (الدنح) ، ويراد بها عيد الغطاس ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٧) .
٢ الجواليقي (ص ١٧٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٥٩) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٥) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) ، الجواليقي (ص ٢٨٥ وما بعدها) .
٥ الجواليقي (ص ٣٢١) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢٦٩) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٧٢) .
٩ الجواليقي (ص ٣٠) .
١٠ الجواليقي (ص ٥٧) ، غرائب اللغة (ص ١٧٣) .
١١ الجواليقي (ص ٨١ وما بعدها) ، وغرائب اللغة (ص ١٧٤) .
١٢ الجواليقي (٨١) ، غرائب اللغة (ص ١٧٥) .

من أصل (دنحو) denho [1] . و (دير) أي بيت الرهبان ، من أصل دار [2] .
و (ديراني) نسبة الى (دير) ، من أصل Dayronoyo [3] . و (ربّاني) ، بمعنى عالم بشريعة اليهود ، وحاخام أي معلم من أصل (ربونو) Rabono [4] .
و (روح القدس) من (روح قدشو) Rouhqoudcho [5] . و (مزمور) من (مزمورو) Mazmouro [6] . و (سُلاّق) عيد صعود السيد المسيح، من Souloqo أي صعود [7] . و (صلاة) من (صلوتو) Slouto [8] . و (قس) (قسيس) من (قشيشو) Qachicho [9] . و (القوس) ويراد بها الصومعة ، من أصل Kaucho ، بمعنى عزلة [10] . و (ناقوس) من أصل noqoucho [11] .

وهناك ألفاظ أخرى لها معان دينية ، لم تكن شائعة معروفة إلا بين النصارى، لذلك لم أرَ حاجة الى الاشارة اليها ، ثم إن من الصعب البرهنة على انها كانت مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وبعض الألفاظ المذكورة معروف ، وقد ذكر في الحديث ، وهذا مما يدل علي شيوعه عند أهل الحجاز عند ظهور الاسلام ، وبعضه مما ورد في القرآن الكريم من آيات تعرضت للنصرانية في ذلك العهد .

وباتصال العرب باليهود في الحجاز ، دخلت في العربية ألفاظ ومصطلحات دينية ، عُربت ، مثل : (آمين) من أصل (امن) [12] ، و (اسرائيل) و (اسرائين) من (يسرائيل) (ي س ر ا ل) [13] ، و(تابوت) (ت ب ه) [14]

---

١ الجواليقي (ص ١٤٤) ، الاثار الباقية (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٧) ، غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٨٢) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٨٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٨٥) .
٧ الجواليقي (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ١٨٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ١٩٣) .
٩ غرائب اللغة (ص ٢٠١) .
١٠ الجواليقي (ص ٢٧٨) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٢) .
١١ الجواليقي (ص ٣٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٠٨) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ الجواليقي (ص ١٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .

بمعنى صندوق خشب و (تلمود)[١] و (توراة) من (تورا) بمعنى تعليم وشريعة[٢] ، و (جهنم) من (جي هنم) ، بمعنى وادي هنم ، وهو جنوب أورشليم ، أي القدس ، وقد كثر فيه قبل الميلاد إحراق الأطفال تضحية لإله العمونيين[٣] . و (حبر) من (حبر) (ح ب ر) بمعنى (الرفيق) في الأصل، ثم خصصت[٤] بعالم . و (اسرافيل) من (سرافيم) (س ر ف ي م) ، ملك من الملائكة الكبار[٥] . و (سبت) اسم يوم ، من (شبث) بمعنى يوم الراحة، واستراح[٦] . و (سبط) ، قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر ، من (شبط)[٧]، و (ميدراس) ، بمعنى معهد تدرس فيه التوراة ، من (مدرش)، (مدراش)، أي بحث وشرح نص[٨] .

ولفظة (نبي) (نابى) Nabi المستعملة في عربيتنا من الألفاظ الواردة في التوراة ، وردت (٣٠٠) مرة في مواضع مختلفة منها[٩] . وترد في لغة بني إرم أيضاً ، حيث وردت على هذه الصورة : Nbiyo [١٠] . وقد ذكر علماء اللغة أنها من المعربات[١١] .

وأخذت العربية من العبرانية ألفاظاً قليلة ذات صلة بالحرف ، مثل (تابوت) بمعنى صندوق من (تبا) Teba ، ويراد بها معنى صندوق في العبرانية[١٢] . و (فطيس) من (بطيش) Pattich بمعنى مطرقة[١٣] . و (قدوم) من (قردم) (قردوم) qardom بمعنى فأس ، و (كرزن) من (كرزن) بمعنى فأس كبيرة[١٤] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٣ الجواليقي (ص ١٠٧) ، غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٤ ولفنسون ، اليهود في جزيرة العرب (ص ٢٠) .
٥ الجواليقي (ص ٨) ، غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢١٣) .
٩ Hastings, p. 767.
١٠ غرائب اللغة (٢٠٦) .
١١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٢٠٥) .
١٢ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢١٢) .
١٤ المصدر نفسه .

وقد احترف اليهود الحدادة والصياغة والنجارة في الحجاز ، وتكسبوا منها ، ورآهم الجاهليون ، وهم يعملون بآلاتهم ، فتعلموا منهم أسماء الآلات المذكورة وغيرها ، واستعملوها على النحو المذكور .

ويلاحظ ان الباحثين في المعربات من المستشرقين والشرقيين ، رجعوا أصول ألفاظ يهودية الى السريانية ، وهي يهودية في الأصل ، وقد أخذتها السريانية من العبرانية بواسطة النصرانية ، بدليل ورودها في اليهودية قبل ظهور النصرانية بزمن.

أما المجوسية ، ديانة الفرس ، فلم تترك أثراً يذكر في العربية من ناحية المعربات ذات المعاني الدينية ، لقلة اتصال العرب بها، وعدم اهتمام المجوس بنشر دينهم ، وقلة عددهم في جزيرة العرب . ولهذا كانت أكثر الألفاظ الدينية التي عرفها الجاهليون ، قد دخلت فيهم من اليهودية والنصرانية،بسبب اتصال اليهودية والنصرانية بالجاهليين اتصالاً مباشراً .

ولفظة (المجوسية) نفسها هي من الألفاظ المعربة ، فهي من أصل Magush في الفارسية القديمة ، و Mugh في الفارسية الحديثة ، و Maghos في اليونانية ، وقد انتقلت من الإرمية الى العربية [1] . وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يمجسانه ، أي يعلمانه دين المجوسية » [2] . وذكر أن اللفظة قد وردت في بيت شعر جاهليّ هو :

أحار أريكَ برقاً هبَّ وهناً كنار مجوس تستعر استعارا

يقال إن صدر البيت لامرىء القيس وعجزه للتوأم اليشكري ، « قال أبو عمرو ابن العلاء : كان امرؤ القيس معنّاً عريضاً ينازع كل من قال إنه شاعر،فنازع التوأم اليشكري ، فقال له : إن كنت شاعراً فلمّط أنصاف ما أقول وأجزها ، فقال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أصاح أريك برقاً هب وهناً

فقال التوأم :

كنار مجوس تستعر استعارا

---

١ Shorter Ency., p. 298. غرائب اللغة (٢٦٩) .

٢ تاج العروس (٤/٢٤٥) ، (مجس) .

فقال أمرؤ القيس :

أرقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم :

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا »

الى آخر الشعر[1] . وإذا صح هـذا التمليط ، تكون هذه اللفظة قد وردت فيه لأول مرة في شعر جاهلي .

ومن الألفاظ التي لها صلة بالمجوسية لفظة (موبذ) و (موبذان) ، بمعنى الرئيس الديني للمجوس . من أصل (موبد) ، بمعنى كاهن ورجل دين عند الفرس القدماء[2] .

وفي باب المأكولات والمشروبات وما يتعلق بهما ، نجد المعربات عن الفارسية أبرز وأظهر من المعربات المأخوذة من لغة بني إرم ، او من لغة الروم واللغات الأعجمية الأخرى . فـ (الباذق) ، وهو ضرب من الأشربة ، من أصل فارسي ، هو (باذه) (باده) بمعنى خمر ، أي شراب مسكر[3] . ولفظة (باطية) ويراد بها إناء زجاج للشراب ، من أصل (باديه) أي جرة[4] . و (البالغاء) ، بمعنى الأكارع من أصل (پايها) بمعنى أرجل[5] . و (الجلاب) أي مـاء الورد ، من أصل (كُلْ آب) ، و (كُلْ) بمعنى ورد،و(آب) بمعنى ماء[6] . و(الجوزينج) (الجوزينق) من الحلاوات ، وتعمل من الجوز . من أصل (كوزينة)[7] . و (الخربز) البطيخ ، من أصل (خربوزة)[8] و (الخشكنان)[9] ، و(الخشكار) ،

---

١ اللسان (٢١٣/٦ وما بعدها) ، (مجس) .
٢ غرائب اللغة (٢٤٦) .
٣ المعرب ، للجواليقي (ص ٨١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) ، الخفاجي ، شفاء الغليل وما دخل في كلام العرب من الدخيل .
٤ المعرب (ص ٨٣) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) ، الدراسات الادبية ، ١٩٥٣ ، الجزء (٢ و٣) ، (ص ٩) ، التبادل اللغوي بين العربية والفارسية ، لجلال الدين همايوني ، السنة الثانية ١٩٦١ م ، (ص ٣٧٥) ، (صور من التعريب ونقل المعاني من الفارسية الى العربية) .
٥ المعرب (ص ٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
٦ المعرب (ص ١٠٦) ، ابن حجر ، الفتح (٣١٧/١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .
٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
٨ المعرب (ص ١٣٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
٩ المعرب (ص ١٣٤) .

أي خبز مصنوع من قشر الحنطة والشعير ، من أصل (خشك) ، بمعنى يابس وآرد ، بمعنى طحين[1] . و (خوان) بمعنى مائدة[2] ، و (دوق) بمعنى لبن استخرج زبده ، من أصل (دوغ) ، بمعنى لبن حامض[3] . و (فالوذج) (الفالوذ) (الفالوذة) ، نوع من الحلواء ، من أصل (فالوده) (پولاد)[4] .
ويذكر أهل الأخبار : أن عبدالله بن جدعان كان يطعم العرب هـذا الطعام ، فمدح[5] . و (القند) ، السكر[6] ، و (الكعك) ، من أصل (كاك)[7] .
و (اللوزينج) نوع من الحلواء ، من أصل (لوزينه)[8] ، و (الأنبار) أهراء الطعام ، واحدها (نَبْرٌ) ، و (أنابير) جمع الجمع[9] ، من أصل (انباشتن) بمعنى خزن[10] . و (الدَّرمك) ، وهو الدقيق الأبيض ، أي لبـاب الدقيق ، و (الجردق) ، و (السميذ)[11] .

و (السكباج) ، وهو لحم يطبخ بخـل ، من أصل (سركه باچة) ، و (السكبينج) دواء ، وصمغ شجرة بفارس ، و (السكرجة) قصاع يؤكل فيها صغار[12] ، و (الزيرباج) ، و (الاسفيداج) ، و (الطباهج) ، و (النفرينج) من ألوان الطبيخ[13] .

وسبب ذلك ان الفرس كانوا أرفع مستوى من بني إرم في الحياة الاجتماعية ، وأكثر تقدماً في الحياة البيتية منهم ، فتفننوا في المأكل والملبس،وتنوعوا في المطبخ وافتنّوا في تنويع الأكل ، وأوجدوا لكل طعام اسماً ، لم تعرفه لغة بني إرم ،

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٢٦) .
٢ المعرب (ص ١٢٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٦) ، الخفاجي (ص ٨٧ وما بعدها) .
٣ المعرب (ص ١٥٥) ،غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٤ المعرب (ص ٢٤٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩) .
٥ مجمع الامثال (٢/٧٣) .
٦ المعرب (ص ٢٦١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .
٧ المعرب (ص ٢٩٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٣) .
٨ المعرب (ص ٢٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٤) .
٩ المعرب (ص ٢٠) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١٠ غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
١١ المزهر (١/٢٧٥) .
١٢ تاج العروس (٢/٥٩) ، (سكبج) .
١٣ المزهر (١/٢٧٦) .

لأنهم لم يكونوا يعرفون تلك الأطعمة ، وباحتكاك العرب بالفرس وببني إرم الذين اقتبسوا من الفرس بعض تلك المأكولات تعلموا منهم أنواع الأطعمة ، وأخذوا منهم أسماءها أيضاً ، ودخلت على بعضها الصنعة ، لتحويلها وفق قواعد النطق العربي .

وينطبق ما قلته عن المعربات الفارسية في الأكل والمشروبات وما يتعلق بهما ، على المعربات من الفارسية في العطور والروائح والطيب وما يتعلق بها ، وعلى بعض العوائد الاجتماعية ، ولا سيما بين العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بالفرس . فقد تأثروا بحكم هذا الاتصال بهم ، واقتبسوا منهم بعض عوائدهم ، مثل استخراج ماء الورد المسمى (جلاب) ، وهو (ماء الورد) للتطيب به[1] . وقد وردت لفظة (الجل) ، ومعناها الورد في بيت شعر للأعشى[2] . وكذلك (الجلسان) ، وقد ذكر ان (الجلسان) من (كلشان) (كلشن) ، أي ما ينثر من الورد على الحاضرين في العرس ، وذكر انها الورد ، أو قبة يجعلون عليها الورد[3] . و (القمقم) ، قنينة لماء الزهر أو نحوه (قمقمة)[4] . وتعني لفظة كوكوميون Koukkoumion ، وهي (قمقم) وعاء من نحاس لتسخين الماء في اليونانية[5] . ولعل احدى اللغتين قد استعارتها من الأخرى . وقد رجع بعض علماء اللغة اللفظة الى الرومية ، أي اليونانية ، وذكر ان اللفظة وردت في بيت شعر لعنترة[6] . و (مسك) من (مشك)[7] . و (نافجة) وعاء المسك ، من أصل (نافه) من (ناف) بمعنى سرة[8] .

واستعارت العربية من الفارسية ألفاظاً من الألبسة والأنسجة والخياطة ، وذلك

---

١ المعرب (ص ١٠٦) .

٢ وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بقصابها .
المعرب (ص ١١٥) .

٣ المعرب (ص ١٠٥ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٣) .

٤ المعرب (ص ٢٦٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٤١) .

٥ غرائب اللغة (ص ٢٦٦) .

٦ وكأن ربا أو كحيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم
المعرب (ص ٢٦٠) .

٧ المعرب (ص ٣٢٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .

٨ المعرب (ص ٣٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

مثل (ابريسم) وهي من أصل (أبريشم)[1] و (استبرق) من أصل (استبرك) ، أي ثوب حرير مطرز بالذهب[2] . وقد ذكر علماء اللغة أنها من (استفره) و (استروه)[3] . و (بركان) (برنكان) ، كساء ، من (برنيسان)[4] . و (تخريص) (دخريص) من أصل (تيريز)[5] ، وورد أن (البنيقة) معربة كذلك من أصل (بنيك) في معنى (التخريص) و(الدخريص)[6] . و (جربان) ويراد بها جيب القميص من أصل (كريبان)[7] ، و (الجوالق) ، من أصل (كوال) (جوال) ، ومعناها عدل كبير منسوج من صوف أو شعر[8] . و (الخسرواني) ، وهو الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، وهو منسوب الى الأكاسرة أي الملوك[9] . و (الدخدار) وهو الثوب ، من أصل (تخت دار)[10] . و (الديباج) من أصل (ديوباف) أي نساجة الجن[11] ، و (السبيج) ، وهو قميص بلا كمين ولا جيب ، من أصل (شبي) ، أي ليلي[12] . و(سربال)، من أصل (سر بال)[13] . و (سروال)[14] . و (الشوذر) الملحفة والإزار ، من أصل (جادر)[15] . و (الطيلسان) من (طيلسان) (تالسان)[16] . و (الفرند) ، الحرير من (برند)[17] . و (الكرباس) ، ثوب خشن من (كرباس)[18] .

---

١ غرائب اللغة (ص ٢١٦) ، المعرب (ص ٢٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٣ المعرب (ص ١٥) .
٤ المعرب (ص ٥٦) ، غرائب اللغة (ص ٢١٨) .
٥ المعرب (ص ٨٧ ، ١٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٢١) .
٦ المعرب (١٤٣) .
٧ المعرب (ص ٩٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٢) .
٨ المعرب (ص ١١٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٤) .
٩ المعرب (ص ١٣٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٥) .
١٠ المعرب (ص ١٤١) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
١١ المعرب (ص ١٤٠) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
١٢ المعرب (ص ١٨٢ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٣ غرائب اللغة (ص ٢٣٣) .
١٤ المعرب (ص ١٩٦) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٤) .
١٥ المعرب (ص ٢٠٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٧) .
١٦ المعرب (ص ٢٢٧) ، الجمهرة ، لابن دريد (٤١٣/٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩)
١٧ المعرب (ص ٢٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٣٩ وما بعدها) .
١٨ المعرب (ص ٢٩٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .

وقد عرف الجاهليون ألقاب بعض القادة العسكريين والاداريين في الانبراطوريتين اليونانية والفارسية ، فأدخلوها في العربية ، لأنها ألقاب رسمية نعت بها أولئك الموظفون الكبار ، وعرفوا بعض الرتب الكنسية كذلك . فما دخل الى العربية من اليونانية واستعمل عند الجاهليين لفظة (بطريق) ، من أصل Patrikios [1] . وقد وردت في بعض الرسائل المنسوبة الى الغساسنة،ويراد بها درجة قائد في الانبراطورية البيزنطية . ولفظة (أسقف) ، وقد ورد في كتب السير : ان وفد نجران حين قدم على الرسول ، كان يتألف من رؤساء المدينة أصحاب الحل والعقد ، ويلقبون بـ (السيد) و (العاقب) و (الأسقف) . والسيد عندهم صاحب رحلتهم ، والعاقب أميرهم وصاحب مشورتهم الذي يصدرون عن رأيه ، والأسقف حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم[2] . ولفظة (أسقف) هذه من أصل يوناني هو Episkopos[3] .

وأما (قيصر) التي يراد بها في العربية (انبراطور) الروم ، أي ملكهم ، فإنها من أصل لاتيني هو (سيسر) Caesar . وترد في كتب السير في معرض الكلام على الكتب التي أرسلها الرسول الى الروم والفرس والحبشة وبعض الأمراء[4] .

ومن المصطلحات المأخوذة من الفارسية في هذا الباب ، (الأسوار) ، وهو الرامي ، وقيل الفارس،وقائد الفرسان[5] ، من أصل (أسب سوار) ، و (اسب) الحصان ، و (سوار) على ظهر أي راكب ، ومعناها راكب الحصان أي فارس[6] ، وتجمع (أسوار) على (أساورة) . وترد في الكتب أحياناً مضافة (أساورة الفرس) ، وتجمع على (أساور) و (أساورة) أيضاً ، وقد وردا جميعاً في الشعر[7] .

وأما (الأشائب) ، ومفردها (أشابة) ، فمعناها الأخلاط من الناس من

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٥٥) .
٢ طبقات ابن سعد (٢٥٧/١) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٥٢) .
٤ طبقات ابن سعد (٢٥٩/١) .
٥ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) ، الجمهرة (٢١٥/٢) ، اللسان (٥١/٧) .
٦ غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٧ الجواليقي (ص ٢٠ وما بعدها) .

أصل (آشوب) . وذكر أنها عربية خالصة،من (أشب الشيء) بمعنى خلطه[1].
وترد لفظة (أنبار) و (الأنبار) ، وتعني أهراء الطعام ويقال للواحد (نبر)
أيضاً وأمـــا (الأنابير) جمع الجمع . وقد اشتهر موضع (الأنبار) على نهر
الفرات على مقربة من الفلوجة ، وكان مأهولاً بالعرب عنـــد ظهور الإسلام ،
وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أهل الحجاز ينسب أخذ
أهل مكة الكتابة الى قوم منهم ذكروا أنهم تعلموها من أهل الأنبار[2] .

و (الإيوان) في العربية ، الرواق . وهو مكان متسع من بيت تحيط بـــه
ثلاثة حيطان ، من أصل (أيوان) eyvan [3] . وأما (الدهقـان) ، فحاكم
اقليم ، من (ده) بمعنى ضيعـــة و (خان) بمعنى رئيس قبيلة ، وذلك في
الفارسية القديمة . وقد وردت اللفظة في بيت شعر للأعشى . وتجمع على (دهاقين)[4].
وأما (كسرى) ، فملك من ملوك الفرس ، وهو (خسرو) Khosrow في
الفارسية . ولكن الجاهليين جعلوا اللفظة لقباً لملوك إيران ، يقابـل (شاه) أي
الملك ، وصارت عندهم مثـــل : (قيصر) للروم ، وتُبَّع لليمن ، والنجاشي
للحبشة [5] . واما (المرزبان) ، فالرئيس من الفرس ، وتفسيرها (حافظ الحدّ)
في مقابل حاكم ووالي ولاية ، وتجمع على (المرازبة)[6] .

وأما لفظة (الهربذ) وتجمع على (الهرابذة) ، فخادم النار عند المجوس . وقيل:
رئيس خدام النار الذين يصلون بالمجوس ، وقد تكلمت بها العرب قديماً . وقد
وردت هذه اللفظة في بيت شعر لامرىء القيس[7] . وأما (موبذ) و (موبذان)
فحاكم المجوس ، بمثابة القاضي عند المسلمين ، من (موبد) وهو الكاهن ورجل
دين عند المجوس[8] .

---

١ الجواليقي (ص ٢٧) . غرائب اللغة (ص ٢١٦) .
٢ الجواليقي (ص ٢٠ ، ٢٩) . غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٩) ، غرائب اللغة (ص ٢١٧) .
٤ الجواليقي (ص ١٤٦) ، اللسان (٢١/١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٩) .
٥ الجواليقي (٢٧١ ، ٢٨٢) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٢) .
٦ الجواليقي (ص ٣١٧) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٥) .
٧ الجواليقي (ص ٣٥١) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

أما أسماء النقود ، فإنها معربات يرجع أصلها الى الفارسية أو اليونانيـــة أو اللاتينية . فقد كان الجاهليون يتعاملون مع الفرس والأرضين الخاضعة للانبراطورية الرومية ، ولهذا تعاملوا بنقود هاتين الانبراطوريتـين . وهـــي نقود مضروبة من المعادن. وتعاملوا بها في بلادهم أيضاً كما نتعامل نحن بالنقود الأجنبية. فـ (النـّمـّي ّ) مثلاً ، هي فلوس رصاص كانت تتخـذ أيام ملك بني المنذر ، يتعاملون بها في الحيرة ، هي من أصل رومي ، أي يوناني ، هو noummiyon . وقـد وردت في بيت للنابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنـّمـّي ّ سفسير[1]

وقد نسب هذا البيت لأوس بن حجر أيضاً[2] .

فيظهر من ذلك ان (بني المنذر) كانوا قد أخذوا اللفظة من اليونانية ، أي من نقود نحاس ضربها الروم ، فضربوها هم في الحيرة ، وتعامل بها الناس .

وأما (الدينار) ، وهو نقد كان معروفاً متداولاً بين الجاهليين ، مستعملاً في أسواق مكة وبقية مواضع الحجاز وجزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وقـــد ذكر في القرآن الكريم[3] ، فإنه نقـــد روماني يساوي عشرة دراهم ، ويعرف بـ denarius في اللاتينية[4] .

وأما (الدرهم) فاسم نقد يوناني ، يسمى دراخمي dhrakhmi في اليونانية، وقد شاع استعماله إذ ذاك . وقد وردت التسمية في بيت شعر هو :

وفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[5]

ويفيد هذا البيت أن الحكومة كانت تأخذ إتاوة من الأسواق من التجار والباعة، وأن ما يباع يدفع عنه مكس ، قدره درهم[6] .

---

١ الجواليقي (ص ١٨٥) ، اللسان (١٥/٣٤٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧١) .
٢ الجواليقي (ص ١٨٥ ، ٣٣٠) .
٣ آل عمران ، الاية ٧٥ « ومنهم من ان تأمنه بدينار » .
٤ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) ، « وقيل : أصله بالفارسيـــة دين آراي : الشريعة جاءت به » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٧١) .
٥ الجواليقي (ص ١٤٨) .
٦ « الدرهم الفضة المطبوعة المتعامل بها » ، المفردات في غريب القرآن (ص ١٦٨) .

ولفظة (مكس) ، هـــي أيضاً من الألفاظ المعربـــة ، عربت من أصل (مكسو) Makso في لغة بني إرم[1] .

و (الدانق) نقد أخذت تسميته من الفارسية ، من (دانك)[2] . وقد بقي مستعملاً في الاسلام . وقد عرف الخليفة (أبو جعفر المنصور) بـ (الدوانيقي) نسبة الى هذا النقد .

وأما (الفلس) وتجمع على (فلوس) ، فإنه نقد من نحاس ، وأصله في اليونانية (فولس) follis[3] . وقد عبر عنه بمعنى نقود أيضاً ، فقيل في العامية (فلوس) ، وقصد بها نقود .

ومن المعربات المستعملة في تقويم النقد وفحصه ، لفظة (شقل) بمعنى الوزن[4] ، أي وزن النقد لمعرفة مقدار معدنه المؤلف منه . ولفظة (قسطار) ،ومعناها ناقد الدراهم ، أي الناقد الماهر العارف بالنقد ، من أصل لاتيني هو quaestor[5] .

وتظهر هذه المعربات ان أهل الحجاز ونجد والعرب الشماليين كانوا قد استعملوا النقد البيزنطي والساساني في أسواقهم وفي تجارتهم ، وكانوا عالة على الأعاجم في استعمال النقد . وذلك مما يدل على ان تعاملهم التجـــاري مع الانبراطوريتين كان وثيقاً . وقد بقيت هذه النقود الأعجمية مستعملة في الاسلام كذلك،وبقيت أسماؤها حية حتى بعد تعريب النقد ، ولا يزال اسم الدينار والدرهم والفلس الى هذا اليوم .

أما العرب الجنوبيون ، فكان لهم نقد خاص بهم . تحدثت عنه في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام . وقـــد ذكرت أن بعض العلماء رجع تأريخ أقدم نقد عربـي جنوبي عثر عليه سنة (٤٠٠) قبل الميلاد[6] . ويظهر أن أهل الحجاز لم يتعاملوا به كثيراً،بدليل عدم وجود ذكر له في المؤلفات الاسلامية، وفي الأخبار الواردة عن أيام الرسول . وقد ذكرت أن أسمـــاء تلك النقود أسماء

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٠٦) .
٢ الجواليقي (ص ١٤٥) ، غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٣) .
٤ غرائب اللغة (ص ١٩١) .
٥ الجواليقي (ص ٢٦٣) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٦ الجزء الثامن (ص ٢٠٠ وما بعدها) .

عربية جنوبية لا صلة لها بأسماء النقود التي تحدثت عنهـا ، ومن تلك الأسماء : (بلط) ويجمع على (بلطات) ، وهو اسم نقـد من ذهب . و (خبصت) (خبصة) ، نقد من نحاس ، و (رضى) ، قيل إنها اسم نقد ، وقيل إنهـا صفة للنقد . بمعنى رضية وصحيحة غير مزيفة ولا منقوصة ، لأن النقد كان على أساس الوزن والنوع في ذلك العهد . وذكرت أيضاً بعض الألفاظ التي استعملوها في الصيرفة وفي نقد النقود .

ومن الألفاظ اللاتينية التي دخلت الى العربية (لبرجد) ، وهو ثوب مزدان بالذهب ، وثوب غليظ مخطط من أصل Paragauda [1] . و (برذون) من أصل burdo و Burdonis [2] ، و (دينـار) من أصل denarius ، وهو نقد من المعدن[3] ، و (سجل) وقد تحدثت عنها [4] و (سجلاّط) من أصل (سجلاّطس) Sigillatum ، ثياب كتّان موشاة ، وكأن وشيها خاتم وتزدان بصور صغيرة [5] . و (سجنجل) ، وتعني المـرآة ، أو سبيكـة فضة مصقولة ، استعملت استعمال المرآة ، من أصل Sexaangulus التي تعني (المسدس الزوايا) في اللاتينية . وقد وردت في بيت لامرىء القيس[6] . و (الصراط) ، بمعنى الطريق ، من أصل لاتيني هو Strata بمعنى طريق كبير مبلط[7] . وقد عرف الرومان ببراعتهم في شق الطرق العسكرية لاستعمالها في التجـارة وفي الأغراض العسكريـة . و (الصاقور) الفأس لكسر الحجارة ، من أصل لاتيني هو Securis [8] .

ويظهر أثر الأخذ من اليونانية واللاتينية والفارسية والارمية في المكاييل والموازين كذلك ، وذلك عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشأم . أما عرب الجنوب فقد كانت لهم أسماء للمكاييل والموازين خاصة بهم ، اختلفت عن الأسماء المستعملة عند العرب الشماليين المذكورين وذلك كما تحدثت عنها في الموضوع الخاص بالمكاييل

---

١ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٧٧) .
٣ الجواليقي (ص ١٣٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٤ « والسجيل ، حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي » ، المفردات في غريب القرآن (ص ٢٢٣) .
٥ الجواليقي (ص ١٨٤) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٦ الجواليقي (ص ١٧٩) ، غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٨) .

والموازين عند الجاهليين في الجزء الثامن من كتابي : تأريخ العرب قبل الإسلام[1].

ومن هذه المعربات (المُدّ) ، وهو نوع مكيال للحبوب ، وهو من أصل لاتيني هو Modius[2] و (الجريب) ، من أصل إرمي هو (جريبو) Gribo[3]. و (الرطل) من أصل يوناني هو : Litra[4] ، و (الأوقية) من أصل يوناني هو uncia, ounguiya[5] ، و (مثقال) من أصل matqolo ، وهـو وزن في الإرمية[6] . و (قيراط) ، وهو جزء من أربعة وعشرين مـن أجزاء شيء ، أو حبة واحدة من أربعة وعشرين حبة . وكان القدماء يزنون بالحب . واللفظة من أصل يوناني هو Keration[7] . و (قنطار) ، وهو مئة رطل ، من أصل لاتيني هو Centenarium Pondus[8] . و (الكر) ، وهو ستة أوقار حمار ، وهو مكيال لأهل العراق ، وقد ورد ذكره في الحديث ، هو (كرو) Kouro في لغة بني إرم[9] . وغير ذلك من أسماء ذكرتها في الجزء الثامن من هذا الكتاب . ولا حاجة بنا الى اعادة ذكرها .

وأخذت العربية من اللغة (السنسكريتية) بعض الألفـاظ الخاصة بالمحاصيل الخاصة بالهند ، مثل الفلفل وبعض الأسمـاء المتعلقة بالتوابل والعقاقير والأطياب والجواهر[10] .

وقد أشار علماء اللغة الى ألفاظ شائعة على الألسنة ، لكنها أعجميـة الأصل تأتي في نوع المعرب . ذكر (الثعالبي) أمثلة منها في كتابه (فقه اللغة) ، وقال عنها انها : « أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية مستعملة ، هي : الكف ،

---

١ (الصفحة ٤١٠ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ٢٨٠) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٤ غرائب اللغة (ص ٢٥٨) .
٥ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٤) ، Ency. Islam, II, p. 1025
غرائب اللغة (ص ٢٥٤) .
٦ غرائب اللغة (ص ١٧٦) .
٧ غرائب اللغة (ص ٢٦٧) .
٨ غرائب اللغة (ص ٢٧٩) .
٩ العرب قبل الاسلام (٨/٤١٩) .
غرائب اللغة (ص ٢٠٣) .
١٠ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٢٠٥) .

الساق ، الفرش ، البزّاز ، الوزّان ، الكيّال ، المسّاح ، البيّاع ، الدلاّل ، الصرّاف ، البقال ، الجمّال ، الحمّال ، القصاب ، البيطار ، الرائض ، الطرّاز ، الخراط ، الخياط ، القزّاز ، الأمير ، الخليفة ، الوزير ، الحاجب، القاضي ، صاحب البريد ، صاحب الخبر ، السقّاء ، الساقي ، الشرّاب ، الدخل ، الخرج ، الحلال ، الحرام » الى غير ذلك من ألفاظ تجدها في كتابه وفي كتب اللغة التي نقلت منه[1] .

وفي بعض الذي ذكره ، ما هو فارسي حقاً ، أو من مصدر أعجمي آخر ، لم يعرفه (الثعالبي) ، لأنه لم يعرف من اللغات الأعجمية غير الفارسية ، فنسب أصل تلك الألفاظ اليها ، ولكن البعض الباقي هو عربي ، ما في أصله العربي من شك ، ولا يمكن أن يكون من المعربات .

ونجد في المعاجم وفي كتب اللغة كلاماً عن هذه المعربات، ففي كتاب (المزهر) وكتب اللغة المعتبرة صفحات نص فيها على الألفاظ المعربة من مختلف اللغات[2] . فلا أرى بي حاجة هنا الى ذكر تفاصيل أخرى عن الألفاظ المعربة بتفصيل كل ما نص عليه العلماء من المعربات . ولكني أود أن أبين ان علماء اللغة لم يكونوا على علم باللغات الأعجمية ، ولذلك لم يتمكنوا من رجع المعربات الى أصولها الحقيقية ، فأخطأوا في ذكر الأصول . ونظراً الى ان فيهم من كان يتقن الفارسية فقد رجع أصول كثير من الألفاظ الى أصل فارسي ، لأنه وجد أن الفرس نطقوا بها ، ولم يعلموا انهم أخذوها هم بدورهم من غيرهم ، فصارت من لغة الفرس، أو انهم وجدوا بعض الألفاظ قريبة من أوزان الفارسية للكلمات ، فظنوا انها فارسية ، مع انها من أصل آخر . وفعل بعض منهم ذلك عصبية منهم الى الفارسية لأنهم من أصل فارسي ، فتمحلوا لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس وتعصباً لهم[3] .

وفي شعر الأعشى معربات عديدة مقتبسة من الفارسية ، قد يكون أخذها من عرب الحيرة وبقية عرب العراق ، وقد يكون أخذها من الفرس مباشرة لاتصاله

---

١ المزهر (١/١٢٣) .
٢ المزهر (١/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (١/٢٠٦) .

واختلاطه بهم في العراق . واقتبسها إما ليحكي عما شاهده ورآه في العراق، فاستعمل الألفاظ الفارسية الشائعة هناك ، وإما أن يكون قد تعمد إدخالها في شعره لُيري الناسَ أنه حاذق بثقافة الفرس واقف على حضارتهم ولغتهم ، كالذي يفعله بعض من يدرس في بلاد الغرب من استعماله ألفاظاً أعجمية في لغته ليلمح للناس بأنه قد تثقف بثقافة الأجانب ، وتلك في نظره ميزة يفتخر بها على الناس .

وقد زعم أن الأعشى رحل الى بلاد بعيدة ، فبلغ عمان وحمص وأورشليم وزار الحبشة وأرض النبيط وأرض العجم ، وقد ذكر ذلك في بيتين من الشعر[١] . والى زيارته هذه للعراق ولأرض العجم ينسب أهل الأخبار ورود الألفاظ الفارسية في شعره .

وفي بعض المعجمات وكتب اللغة مثل لسان العرب والمعرب للجواليقي ، أبيات للأعشى يرد فيها وصف لأحوال الفرس وعرب العراق ، وقد استعمل فيها ألفاظاً فارسية لها مناسبة وصلة بذلك الوصف . منها ما يتعلق بالملابس ، ومنها ما يتعلق بالأشربة والخمور والأفراح ، ومنها ما يتعلق بالمناسبات مثل الغناء والأعياد[٢] .

وشاعر آخر نجد في شعره معربات فارسية ، هو (عدي بن زيد العبادي) . وهو من أهل الحيرة ، المقربين الى ملوكها والى الفرس ، الحاذقين بالعربية وبلغة الفرس . وقد كان كاتباً باللغتين ، كما كان أبوه بليغاً باللسانين ، وتولى رئاسة ديوان العرب عند الأكاسرة . وهو نصراني ، ولهذا استعمل في شعره ألفاظاً نصرانية اقتبست من السريانية ، وأشار بحكم نصرانيته الى عادات نصرانية ، كما كان حضرياً مترفاً غنياً أدخل الى بيته وسائل الترف والراحة المعروفة في ذلك اليوم ، ولهذا فإن لجمع شعره جمعاً تاماً ونقده وتحليله واستخراج صحيحه من منحوله أهمية كبيرة في اعطاء رأي عن الحياة الفكرية والثقافية لعرب العراق قبيل الاسلام .

وبعد ، فإن اللغة التي نبحث عن وجود المعربات فيها ، هي اللغة العربية التي

---

١ وطوفت للمال آفاقه — عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره — وأرض النبيط وأرض العجم
راجع ديوان الاعشى ، المعرب (ص ٣٢) .

٢ المعرب (ص ١٦ ، ١٨ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٩) ومواضع أخرى .

نزل القرآن بها . أما اللهجات والألسنة العربية الجنوبية ، فإن أثر هذه المعربات فيها كان قليلاً ، ونجد في كتاباتها ألفاظاً عربية جنوبية ، مكان تلك المعربات . ومعنى هذا بُعد تلك اللهجات عن المؤثرات الأعجمية الشمالية . وسبب ذلك رقي المتكلمين بها ، وتقدمهم في الحضارة بالقياس الى بقية سكان جزيرة العرب والى ابتكارهم أنفسهم لكثير من الأشياء ، فكان من الطبيعي أن تكون أسماؤها بلغة الصانعين لها .

ولدي ملاحظة ، هي ان وجود المعربات في العربية الحجازية ، يدل دلالة صريحة واضحة ، على ان المتكلمين بها كانوا قد تأثروا بالحضارات الشمالية أكثر من تأثرهم باخوانهم العرب الجنوبيين ، وان اتصالهم الفكري كان بالشمال أكثر منه بالجنوب ، ولا يقتصر هذا التأثر على المعربات فقط،بل يشمل كل المؤثرات الثقافية الأخرى ، كالذي رأيناه في مواضع متعددة من الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب . فكأننا أمام ثقافتين مختلفتين وشعبين متباينين ،بالرغم من اتصال حدود الحجاز باليمن ، وقرب المسافة بينهما ، حتى اللغة نجد بوناً شاسعاً بينها وبين اللغات العربية الجنوبية ، وهذا ما حمل بعض العلماء على القول : ما لغة حمير بلغتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، ففرق بين اللسانين .

أما (أمية بن أبي الصلت) فقد وردت في شعره معربات من أصل سرياني في الغالب ، يظهر أنه أخذها من المنابع النصرانية التي قيل إنه وقف عليها . فقد ذكر أنه كان قد قرأ كتب أهل الكتاب ، ووقف على أخبارهم وعقائدهم ، وإن اتصاله بهم أثر في رأيه الذي كونه لنفسه في الأديان . وأرى أن من اللازم توجيه العناية لدراسة ما تبقى من شعره للوقوف على أصوله ، وعلى درجة تأثره بالتيارات الفكرية والآراء الدينية لأهل الكتاب ، وعلى الألفاظ المعربة عن السريانية أو غيرها التي ترد في شعر هذا الشاعر ، وذلك بعد التأكد من صحة الشعر .

ومن المعربات الواردة في شعر (أمية) لفظة (تلاميذ) جمع تلميذ ، وذلك في هذا الشعر المنسوب اليه :

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقامتنا وفيها نولد
وبها تلاميذ على قذفاتها حُبسوا قياماً فالفرائص ترعد

وفي هذا الشعر :

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمه جهل ولا هرم
لا كشفت مرة عنّا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دغم

وذكر أن (المتلمد) الواردة في شعر ينسب له أيضاً ، بمعنى متلمذ ، وأن لفظة (التلاميذ) قد ترخم في الشعر على (تلام) ، كما جاء في شعر (الطرماح)، و (غيلان بن سلمة) الثقفي ، وهو من الشعراء المخضرمين[1] . ووردت لفظة (التلاميذ) في شعر لبيد ، في هذا البيت :

فالماء يجلو متونهن كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا[2]

وقد ذكر علماء اللغة أن التلاميذ : غلمان الصاغة ، وهي فارسية[3] .

معرفة المعرب :

قال علماء العربية : تعرف عجمة الإسم بوجوه :

١) النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية .

٢) خروجه عن أوزان الأسماء العربية نحو إبريسم ، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي .

٣) أن يكون أوله نون ثم راء نحو نرجس ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .

٤) أن يكون آخره زاي بعد الدال ، نحو مهندز ، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية .

٥) أن يجتمع فيه الصاد والجيم ، نحو الصولجان والجص .

---

١ رسالة التلميذ ، للبغدادي ، نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) (ص ٢٢٢ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان لبيد (ص ٣١) ، القصيدة رقم ٤ ، البيت ٢٠ .

٣ شرح ديوان لبيد (٣١) ، رسالة التلميذ (٢٢١) .

٦) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق،والجردقة، والجرموق ، والجوسق، والجلاهق ، وجلنبق .

٧) أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً عن حروف الذلاقة ، وهي : البـاء ، والراء ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون . فإنه متى كان عربياً ، فلا بد أن يكون فيه شيء منها . نحو سفرجل ، وقِرطَعْب ، وجحمرش .

هذا وقد تتبع بعض علماء العربية كلام العرب ، فوجدوا بعض حـالات إذا اجتمعت فيها حروف معينة دلت على أصل أعجمي ، من ذلك قولهم :

١) الجيم والتاء لا تجتمعان في كلمـة من غير حرف ذي لقيّ ، ولهـذا ليس الجبت من صميم العربية .

٢) الجيم والطاء لا تجتمعان في كلمة عربية ، ولهـذا كان الطاجن والطيجن مولدين ، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي .

٣) لا تجتمع الصاد والطاء في كلمـة من لغتهـم ، أما الصراط ، فصاده من السين .

٤) يندر اجتماع الراء مع اللام إلا في ألفاظ محصورة : كوَرَل ونحوه .

٥) قال (البطليوسي) : لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداذ .

٦) ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية محضة ، الشينات كلها في كلام العرب قبل اللامات[1] .

أقسام الأسماء الأعجمية :

« قال أبو حيان في الارتشاف : الأسماء الأعجمية عـلى ثلاثة أقسام : قسم غيرته العربُ وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصل والزائد والوزن حكم

---

١ المزهر (٢/٢٦٨ وما بعدها) ، الرافعي ، تأريخ آداب العـرب (١/٢٠٢ ومـا بعدها) .

أبنية الأسماء العربية الوضع ، نحو درهم وبهـــرج . وقسم غيرته ولم تلحقه بأبنية كلامها ، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله ، نحو آجر وسفسير . وقسم تركوه غير مغير ، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يعد منها ، وما ألحقوه بها عدّ منها ؛ مثال الأول خراسان ، لا يثبت به فُعالان ، ومثال الثاني : خُرَّم ألحق بسُلّم ، وكُركُم ألحق بقُمقُم[1] .

إبدال الحروف :

وهناك حروف لا تتكلم بها العرب إلاّ ضرورة ، فإذا اضطروا اليها حوّلوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف الى مخارجها ، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل (بور) إذا اضطروا قالوا (فور) . لأن (بور) ليس من كلام العرب . وحرف (ب) حرف غير عربي . وقد يحولون الـ (پ) الى (ب) ، كما في (سابور) ، وأصله (شاپور) .

وقد يحول حرف الـ (پ) الى(P) الى (ف) عند تحويل الأعلام الأجنبية الى عربية . مثـــل Platon ، اسم الفيلسوف اليونـاني ، (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) الذي حـــول الى (افلاطون) . وذلك بتحويل حرف (الباء) الى (ف) ، وبتحويل حرف (التاء) الى (طاء) . وقد اتبع المعربون قاعدة تحويل (التاء) الواردة في الأعلام الأعجمية الى حرف (طاء) في الغالب ، فحول Aristotelès (٣٨٤ — ٣٢٢ ق. م) الى (أرسطوطـــاليس) . و Plotinos الاسكندري (٢٠٥ — ٢٧٠ م) ، الى (فلوطـــين) . ولو زالت هــذه الطريقة معروفة فـ (تهران) عاصمة ايران ، هي (طهران) .

والعرب يعربون الشين سيناً ، فيقولون : نيسابور ، وهي نيشابور . وقـــد أبدلوا بالإضافة الى حرف (الشين) حرف (الپاء) (باءً) . فالأصل (نيشاپور) ، ومثل ذلك : (سابور) ، فالأصل هو (شاپور) .

« وقال بعضهم : الحروف التي يكون فيها البدل في المعرب عشرة : خمسة يُطرد إبدالها ، وهي : الكاف ، والجيم ، والقاف ، والباء ، والفاء . وخمسة

---

١ المزهر (٢٦٩/١ وما بعدها) .

لا يطرد إبدالها : وهـي : السين ، والشين ، والعين ، واللام ، والزاي . فالبدل المطرد : هو في كل حرف ليس من حروفهـم كقولهم : كُرْبج ، الكاف فيه بدل من حرف بـين الكاف والجيم ، فأبدلوا فيه الكاف ؛ أو القاف نحو قربق . أو الجيم نحو جَوْرب ، وكذلك فِرند هو بـين الباء والفاء فمرّة تبدل منها الباء ومرّة تبدل منها الفـاء . وأما ما لا يطرد فيه الإبدال ، فكل حرف وافق الحروف العربية كقولهم اسماعيل أبدلوا السين من الشين ، والعين من الهمزة ، وأصله إشمائيل . وكذلك قفشليل أبدلوا الشين من الجيم والـلام من الزاي ، والأصل قفجليز . وأما القاف في أوله فتبـدل من الحرف الـذي بين الكاف والجيم »[1] .

---

1 المزهر (١/٢٧٤) .

الفصل الثاني والاربعون بعد المئة

النثر

النثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيد بالوزن والقافية ، وهو الجزء المقابل للشعر ، من أجزاء الكلام . وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأي ، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة ، لكونه كلاماً مرسلاً حراً لا يتقيد بقيود ، خالياً من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب ، إلا انه دون الشعر في التأثير في النفوس وفي اللعب بالعواطف ، لما في الشعر من سحر الوزن والقافية، والإنشاد بأنغام متباينة مؤثرة ، لا سيما اذا ما اقترن بعزف على آلات طرب . ولوجود القافية والوزن في الشعر ، ولكونه أبياتاً ، سهل حفظه،وصار من الممكن خزنه في الذاكرة أمداً طويلاً ، ومن هنا امتاز على النثر ، الذي لا يمكن حفظه بسهولة ، ولا خزنه في الذاكرة ، لعدم وجود مقومات الخزن المذكورة فيه .

والنثر الذي نقصده ونعنيه ، هو النثر الذي يبحث عنه مؤرخ الآداب، لكونه قطعة فنية ، تعبر عن عاطفة انسانية ، وعن مظاهر الجمال والذوق والتأثير في النفوس ، فيه صياغة وفن في حبك القول ، وتفنن في طرق العرض ، وإغراء في تنميق الكلم ودبج الكلمات ، وحلاوة وطراوة وسحر وبيان ، فهو كلام عال لا يشبه كلام العامة ، ولا مما يتخاطب به الناس ، ولا مما يتعامل به في التجارة والمكسب أو في الدوائر ، وانما هو من قبيل كتب الأدب ، ومن قبيل الأمثال والخطابة والمراسلات الأدبية وما شاكل ذلك من وجوه . ولهذا ، نستبعد من هذا النثر ، ما وصل الينا من نصوص جاهلية ، لأنها كتبت في أغراض أخرى ،

كتبت في تقديم نـذور ، وفي معاملات : من بيع وشراء ، وتثبيت ملك ، أو تحديد حدود ، أو في قوانين وأوامر ، ولم تكتب في أغراض أدبية خالصة .

وبين أيدينا خطب طويلة ومتوسطة وقصيرة ، نسبها الرواة الى خطباء جاهليين، زعموا أنهم كانوا في أيامهم آية في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأساطير وقصص زعم أهل الأخبار أنها أخبار صحيحة وروايات مروية،وأصول منافرات ومفاخرات ومعاتبـات ومشاتمات ، زعموا أنها جرت في الجاهلية ، وانتقلت أصولها بنصها وفصها وحروفها وكلمها من رواتها الى الإسلاميين ، فـدوّنت في كتبهم ، كما رووا حكماً وأمثالاً وآقوالاً ، زعموا أنها لحكماء من أهل الجاهلية حفظهـا الناس حفظاً ، ورووها رواية رجـلاً عن رجل ، وجيلاً عن جيل ، حتى وصلت مرحلة التدوين . وكل هذا المسجل الذي نتحدث عنه ، هو من مدوّنات أهـل الإسلام ، ليس فيه من مدوّنات أهل الجاهلية أي شيء .

وبين هذا النثر ، خطب منمقة مزوّقة ، نسبت الى ملـوك وسادات العرب البائدة ، الذين بادوا قبل الإسلام بعهد طويل ، ومـات معهم أدبهم بالطبع ، وخطب نسبت الى التبابعة ، وقد هلكوا أيضاً قبل الاسلام ، وكـلام نسب الى أنبياء جاهليين ، والى الجن أيضاً ، رواه أهل الأخبار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإفصاح عـن كيفية وصول تلك الخطب وذلك الكلام اليهم ، مع أنهم كرّروا القول بأن كلام بعضهم كان كلاماً آخر يخالف كلامنـا ، وأن عربيتهم لا تشاكل عربيتنا ، فكيف نقلوها ودوّنوها إذن في الاسلام ؟ ان نثراً من هذا النوع هو نثر مصطنع بالطبع صنع على لسان أولئك الماضين ، من غير شك ولا شبهة ، فهو من هذه الناحية مكذوب مرفوض .

وأما النثر المنسوب الى العرب الذين عاشوا قبيل الاسلام ، أو أدركوا الاسلام، فالصحيح فيه أقـل من المصنوع ، خاصة نصوص الخطب والحكم والمواعظ ، والقصص والأيام ، والوفادات والخطب الطويلة ، لأن من المستحيل على الذاكرة، حفظ الكلام المنثور بالحروف والكلمات حفظ أشرطة التسجيل له أو للغناء أو الموسيقى، مهما وهب الله تلك الذاكرة من قوة في قدرة الأخذ والحفظ . ثم هي إذا حفظته اليوم ، فلا بد وأن تتعثر به غداً ، ثم يزداد تعثرها به بعد ذلك . هذا رسول الله يذكر (قس بن ساعدة الإيادي) ، فيقول : « رحم الله قساً كأني أنظر

اليه على جمل أورق ، تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه »[1] ، وإذا راجعت نص خطبة (قس) في الموارد ، تجـد الرواة على اختلاف شديد فيما بينهم في ضبط نصّها[2] ، وهذا حديث رسول الله التام ، أي المروي بالنص ، وبالطرق الصحيحة تراه يرد أحياناً بعبارات مختلفة مع اتحاد المعنى ، مما يدل على أن رواته قد أجهدوا أنفسهم جهد طاقتهم في حفظه ، لكنهم عجزوا عن حفظه حفظ الكتاب للمكتوب . خذ صيغ التشهدات في الصلاة مثلاً ، وهي قصيرة العبارة ، لا طول فيها ، تجد الصحابة والفقهاء يختلفون مع ذلك في ضبطها ، فترى نص تشهد (ابن مسعود) يختلف بعض الاختلاف عن نص تشهد (ابن عباس) ، وعن نص تشهد (عمر) ، وعن نص تشهد (أبي سعيد الخدري) ، وعن تشهد (جـابر) ، مع قول (ابن مسعود) : « علمني رسول الله التشهد وكفّي بكفّه ، كما يعلمني السورة من القرآن » ، وقول (أبي سعيد الخدري) : « وكنّا لا نكتب إلا القرآن والتشهد » ، وقول (جابر) : « كان رسول الله يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن »[3] ، بل خذ القرآن ، وهو كتاب الله المحفوظ المدوّن ، الذي حفظه بعض الصحابة ، وتلوه على الرسول ، وحرصوا على المحافظة على نصه حرصهم على حياتهم ، بل أشدّ منها ، ودوّنوه ساعة الوحي ، وأمام الرسول ، ظهرت مع ذلك فيـه قراءات ، بسبب اختلاف مدارك الصحابة في فهمه وفي حفظه ، وبسبب اللهجات وعيوب الخط ، فإذا كان هذا ما حدث في أيام الرسول وبعد وفاته بقليل ، وقد وقع في أعز كلام بالنسبة للمسلمين ، فهل يعقل بعد،التصديق بصحة النصوص المروية لخطب طويلة ، زعم أنها قيلت في قصور كسرى ، أو بحضرة ملوك الحـيرة ، أو الغساسنة ، أو تبابعة اليمن ، أو الكلام المروي عن قوم عاد وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم وغيرهم ممن هلكوا وبادوا قبل الاسلام بزمن طويل .

ثم كيف نصدق بخطب زعم انها قيلت في الجاهلية ، مثل خطبة (النعمان بن المنذر) أمام كسرى ، أو خطب الوفد الذي أرسله هذا الملك الى (كسرى) ليكلمه في أمر العرب[4] ، وهي خطب طويلة منمقة ، على حين يذكر العلماء ان

---

١ الاصابة (٣/٢٦٥) ، (رقم ٧٣٤٣) .
٢ الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٤٦٤ وما بعدها) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨٢ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (١/١٤٧ وما بعدها) .

« الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم، وانما رويت بالمعنى».
وسبب ذلك ، انهم وجدوا ان من غير الممكن اثبات النص بالرواية من غير تبديل ولا تغيير قد يقع عليه ، وخشية وقوع هذا الخطأ في كلام الرسول ، وهو أعز كلام ، وعليه تترتب الأحكام في الحلال والحرام ، جوّزوا الرواية بالمعنى. ولهذا تركوا الاستشهاد بالحديث « على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب »[1] ، ولو وثق العلماء من أن لفظ الحديث ، هو لفظ الرسول حقاً « لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية . وانما كان ذلك لأمرين : أحدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يقل بتلك الألفاظ جميعها ، نحو ما روى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن ، خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فتعلم يقيناً انه صلى الله عليه وسلم ، لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا يجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل انه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب، ولا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة والاتكال على الحفظ. والضابط منهم من ضبط المعنى . وأما من ضبط اللفظ فبعيد جداً ، لا سيما في الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى»[2] .
« وفي سنن الترمذي ، عن مكحول عن واثلة بن الأسقع قال : اذا حدثناكم على المعنى فحسبكم ، ورواية الذهبي في سير أعلام النبلاء : اذا حدثتكم بالحديث على معناه فحسبكم »[3] .

لقد وجد الصحابة ان من الصعب عليهم حفظ كلام الرسول بالنص والحرف، وهم معه في كل وقت ، يحدثهم ويحدثونه ، فيشق عليهم ضبط كلامه ، وهم لا يكتبونه ولا يكررونه عليه ، وليس من الممكن أن يجلس رسول الله ، ثم يطلب من أصحابه إعادة كل كلام كلمهم به ، فسأله أحدهم : « يا رسول الله ني أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمعه منك ، يزيد حرفاً أو ينقص

---

١ خزانة الادب (١/٥) ، (طبعة بولاق) .
٢ خزانة الادب (١/٥ وما بعدها) ، (بولاق) ، أعلام النبلاء ، للذهبي (٣/٢٥٩) .
٣ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .

حرفاً . فقال : اذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس »[1].
وكان من الصحابة من يروي حديثه تاماً ، ومنهم من يأتي بالمعنى ، ومنهم من يورده مختصراً ، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعاً اذا لم يخالف المعنى .
وروي عن (مكحول) ، « قال دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ليس فيه ولا تزيد ولا نسيان ! فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئاً ؟ فقلنا : نعم ومـا نحن له بحافظين جداً . إنا نزيد الواو والألف وننقص ، فقال : هذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألونه حفظاً ، وانكم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى ألا يكون سمعنا لها منه إلا مرة واحدة؟ حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى .

وكان ابن أبي ليلى يروي الشيء مرة هكذا ومرة هكذا بغير إسناد ، وانما جاء هذا من جهة حفظه ، لأن أكثر من مضى من أهل العلم كانوا لا يكتبون، ومن كتب منهم فإنما كان يُكتب لهم بعد السماع،وكان كثير منهم يروي بالمعنى فكثيراً ما يعبر عنه بلفظ من عنده فيأتي قاصراً عن أداء المعنى بتمامه ، وكثيراً ما يكون أدنى تغيير له محيلاً له وموجباً لوقوع الإشكال فيه ، وقد أجاز الجمهور الرواية بالمعنى »[2] .

ولتجويزهم رواية الحديث بالمعنى ، لم يحتج أئمة النحو المتقدمين من المصرين بشيء من الحديث في النحو ، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقـل عن العرب « ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث ، لكـان الأولى في اثباته فصيح اللغة كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لأنـه أفصح العرب »[3] .
جرى على ذلك الواضعون الأولون لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، والخليل ، وسيبويه من أئمة البصرة، والكسائي ، والفراء ، وعلي بن المبارك الأحمر ، وهشام الضرير من أئمة الكوفة . فعلوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى

---

١ العراقي ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (٣/٥٠) ، أبورية (٧٨) .
٢ أبورية ، أضواء على السنة المحمدية (٨١) .
٣ الخزانة (١/٤ وما بعدها) .

القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية[1] .

وإذا كان هذا موقف ذاكرة الصحابة من كتاب الله ومن حديث رسوله ، فهل يعقل أن تكون حافظتهم أقوى وأشد حفظاً واكثر دقة في رواية كلام هو دون كلام الله وكلام رسوله ، فنصدق قول من قال إن (سلمة بن غيلان) الثقفي مثلاً دخل في ناس من العرب على كسرى ، فطُرح لهم مخادٌ عليها صورته ، فوضعوها تحتهم ، إلا سلمة بن غيلان فإنه وضعها على رأسه ، فقال له : ما صنعت ؟ قال : ليس حق ما عليه صورة الملك أن يبتذل ، وما أجد في جسدي عضواً لا أكرم ولا أرفع من رأسي فجعلتها فوقه . فقال له : ما أكلك ؟ فقال : الحِنطة . فقال : هذا عقل الحنطة[2] . أو أن نصدق بكلام وفد (طي) إلى (سواد بن قارب) الدوسي ، وامتحانهم إياه ، ثم جوابه المسجع على سجعهم[3] ، أو كلام الكاهنة (عفيراء) الحميرية[4] ، أو كلام (ابنة الخس)[5] ، أو كلام (عبد المطلب) ، وغيره من سادات قريش مع تبابعة اليمن وحكامها الحبش ، وهو كلام مضبوط بالحروف والكلمات ، ترويه كتب أهل الأخبار على أنه كلام صحيح صادق ، لم ينله تغيير ولا اعتراه تبديل ، وكأنه قد سجل على شريط (تسجيل) ، أو على اسطوانة ، لم تلعب بها يد إنسان .

جاء في (لسان العرب) : « قيل لسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الأمي لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب،وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة احدى آياته المعجزة ، لأنه ، صلى الله عليه وسلم ، تلا عليهم كتاب الله منظوماً ، تارة بعد أخرى ، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب ، اذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص »[6] ، فإذا كان هذا شأن الخطيب ،

---

١ الخزانة (١/٥) .
٢ المصون (١٩٨) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٩٩ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٦) .
٥ في جملة كتب « ثعلب » : كتاب : تفسير كلام ابنة الخس ، الفهرست (١١٧) ، (الفن الثاني من المقالة الثانية من كتاب الفهرست في أخبار العلماء) .
٦ اللسان (١٢/٣٤) .

وهو مرتجل الخطبة ، وصاحبها لا يستطيع إعادة نصها ، فكيف يكون حال السامع الذي يسمعها سماعاً ولا يكتبها على صحيفة ، فهل يجوز اذن لنا التصديق بصحة نصوص هذه الخطب الجاهلية وما يروونه عن الجاهليين من أدب منثور !

السجع :

وقد جعل (الجاحظ) كلام العرب أنماطاً ، جعله « في الأشعار ، والأسجاع، والمزدوج ، والمنثور »[1] .

والسجع في تعريف العلماء له : الكلام المقفى ، أو موالاة الكلام على رويّ واحد . وقيل : السجع أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي . وسجع يسجع سجعاً : نطق بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن[2] . وقد ألِف (الكهان) النطق بالسجع ، حتى غلب على كلامهم ، واختص بهم ، كما اختص الشعر بالشعراء ، فعرف لذلك بـ (سجع الكهان) . « ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم ، في جنين امرأة ضربتها الأخرى ، فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجل منهم : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ، فاستهل . ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وفي رواية : إياكم وسجع الكهان . وفي الحديث انه ، صلى الله عليه وسلم ، نهى عن السجع في الدعاء . قال الأزهري : انما كره السجع في الكلام والدعاء لمشاكلة كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنونه ، فأما فواصل الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع ، فهو مباح في الخطب والرسائل »[3] . وروي الحديث على هذه الصورة : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت احداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله ان دية جنينها غُرّة ، عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وورثها ولدها ومن معهم . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطلّ ، فقال رسول

---

١ الحيوان (٢١٦/٧ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٢ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .
٣ تاج العروس (٣٧٦/٥) ، (سجع) .

الله ، صلى الله عليه وسلم : انما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع »[1] .

قال الجاحظ في معرض كلامه على السجع وقول الرسول : أسجع كسجع الجاهلية[2] . « وكان الذي كره الأسجاعَ بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شقّ وسطيح ، وعزّى سلَمة ، وأشباههم : كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ، كقول بعضهم : والأرض والسماء والعُقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العُشراء ، للمجد والسناء .

وهذا الباب كثير . ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع ابن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون ، وينفرون بالأسجاع ؟ وكذلك ربيعة بن حذار .

قالوا : فوقع النهيُ في ذلك الدهرِ ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة ، زال التحريم .

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخُطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم[3] .

وقد كان الكهّان حكّاماً كذلك ، يفصلون في الخصومات بين الناس . يأتي اليهم المتخاصمون ، وبعد أن يؤكدوا لهم رضاهم وقناعتهم بحكمهم ، يحكمون بينهم فيما يرونه . وينسب الناس الى الكهان إدراك الغيب برئي يأتي اليهم فيلقي لهم بما يراه ويعلمهم من المغيبات عما يسألون ، ولذلك ورد : أن الكهانة هي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع ، وورد : الكاهن القاضي بالغيب ، وكل من أدل بشيء قبل وقوعه[4] .

---

١ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (١٩٦/٧) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، صحيح مسلم (١١٠/٥) .
٢ البيان والتبيين (٢٨٧/١) ، (لجنة) .
٣ البيان (٢٨٩/١ وما بعدها) « لجنة » ، (٢٢٩/١) ، (عبد السلام هارون) .
٤ بلوغ الارب (٢٦٩/٣) .

ويفهم من روايات أهل الأخبار ومن كتب الحديث والموارد الأخرى ، أن الكهانة كانت شائعة في الناس، فكانوا يقصدونهم في كل شيء لاستشارتهم وللأخذ برأيهم وللفصل في الخصومات والمنازعات . وقد منعها الاسلام ، حتى ورد في كتب الحديث : إن من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر[1] .

ونجد في بطون الكتب أمثلة من سجع الكهان . وهو يستحق الدرس والبحث، لتحليل عناصره ، وبيان صدقه من كذبه ، وصحيحه من فاسده . وفي بعضه مثل ما نسب الى (زبراء الكاهنة) ، محاكاة لأسلوب السور القصيرة من القرآن الكريم[2] . وهو مرحلة مهمة من مراحل تطور أسلوب الكلام عند العرب ، وهو حري اذن بالدراسة وبالبحث .

وقد أشير الى قول الكهان في القرآن الكريم في آية : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون »[3] ، و « انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون »[4] . فقد زعموا انه كاهن ، وزعموا انه مجنون[5] ، فوبخوا لزعمهم هذا ، وقيل لهم ان « محمداً ليس بكاهن فتقولوا هو من سجع الكهان »[6] . « وكانت قريش يدعون انهم أهل النهي والأحلام »[7] ، « فقال الله أم تأمرهم أحلامهم بهذا أن يعبدوا أصناماً بكماً صماً ، ويتركوا عبادة الله ، فلم تنفعهم أحلامهم حين كانت لدنياهم »[8] ، فانزعجوا منه وقالوا عنه انه كاهن ، وانه شاعر ، وانه مجنون . وفي اتهامهم الرسول بأنه كاهن ، وبأن القرآن « هو من سجع الكهان »[9] ، دلالة على وجود السجع عند الجاهليين ، وانه كان من نمط الكلام الذي اختصوا به . فلا مجال اذن للشك في وجود السجع عندهم ، وان كنا نشك في صحة نصوص السجع المنسوب اليهم .

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٠) .
٢ راجع كلامها لجماعة من قضاعة في بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٣ الطور ، الرقم ٥٢ ، الاية ٢٩ .
٤ الحاقة ، الرقم ٦٩ ، الاية ٤٢ ، تفسير الطبري (٢٩/٤١) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٦ تفسير الطبري (٢٩/٤١ وما بعدها) .
٧ تفسير النيسابوري (٢٧/٢٥) ، (حاشية على الطبري) .
٨ تفسير الطبري (٢٧/١٩) .
٩ تفسير الطبري (٢٩/٤١) .

ويذكر أهل الأخبار ، أن (ضماداً) لما قدم مكـة معتمراً ، « سمع كفار قريش يقولون : محمد مجنون . فقال : لو أتيت هذا الرجل فداويته ، فجـاءه فقال له : يا محمد إني أداوي من الريح ، فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك . فتشهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضماداً فقال : أعدها عليّ ، فأعادها عليه ، فقال : لم أسمع مثل هذا الكلام قط ، لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هـذا قط »[1] . فالكهنة والسحرة والشعراء هم طبقة خاصة ، كانوا يؤثرون في عواطف السامعين باستعمالهم أسلوباً خاصاً من الكلام ، هو أسلوب السجع ، بالنسبة الى الكهنـة والسحرة ، والشعر بالنسبة الى الشعراء . أما الخطباء ، فقد كانوا سجاعاً في الغالب ، لكنهم كانوا يستعملون المرسل من النثر أيضاً بأساليبه المختلفة .

وقد ذكر (الجاحظ) أن (الكهان) كانوا « يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[2]، هذه (زبراء) تنذر (بني رئام) ، عن أنباء ستقع ، فتقول « واللوح الخافق والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختْلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود لينـذر ثُكلا ، لا تجدون معه معلا ، فوافقت قوماً أشارى سكارى ، فقالوا : ريح خجوج ، بعيدة مـا بين الفُرُوج ، أتت زبراء بالأبلق النتوج . فقالت زبراء : مهـلاً يا بني الأعزة ، والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد ، فقال لها فتى منهم يقال له هُذيل بن منقذ: يا خذاق ، والله ما تشمين إلا ذَفَر إبطيك، فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعم فقتلوهم أجمعين »[3] .

وهذا كاهن (بني أسد) (عوف بن ربيعة) ، يأتيه (رئِه) ، فيتكهن لقومه قائلاً : « يا عبادي ! قالوا : لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أول من يُسلب ، قالوا : من هو يا ربنـا ؟ قال :

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٤١/٤) ، (الطبقة الثانية من المهاجرين والانصار) .

٢ البيان والتبيين (٢٨٩/١ وما بعدها) .

٣ الامالي للقالي (١٢٦/١ وما بعدها) .

لولا : أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم انه حجر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته »[1] .
وهذا (خنافر بن التوءم) الحميري الكاهن ، وكان قد أوتي بسطة في الجسم ، وسعة في المال ، وكان عاتياً ، يأتيه (رئيه) بعد غيبة طويلة ، فيقول : (خنافر) فيجيبه : (شصار ؟) ، فقال : « اسمع أقل » ، قال خنافر : قل اسمع ، فقال : عه تغنم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد الى غاية . قال خنافر : أجل ، فقال : كل دولة الى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت النحل ، ورجعت الى حقائقها الملل ، انك سجير موصول ، والنصح لك مبذول ، وإني آنست بأرض الشأم ، نفراً من آل العذام ، حكاماً على الحكام ، يذبرون ذا رونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت ، فقلت بم تهيمنون ، وإلام تعترون ؟ قالوا : خطاب كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار النار ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، ابتعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر ، قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر ، وان خالفت أصليت سقر ، فآمنت يا خنافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لا عن تلاق ، قلت : من أين أبغي هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرين ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال : الحق بيثرب ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، فهناك أهل الطول والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم املس عني . فبت مذعوراً أراعي الصباح ، فلما برق لي النور امتطيت راحلتي ، وآذنت أعبدي ، واحتملت بأهلي حتى وردت الجوف ، فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقابها ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الاسلام وعلمني سوراً من القرآن ، فمن الله علي بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة» .

---

١ الاغاني (٩/٨٤) .

وهكذا أسلم — على حد قول أهل الأخبار — والفضل يعود في ذلك الى (رئيه) (شصار) الذي أسلم قبله ، وهو من الجن ، والجن مثل البشر ، منذ ظهـر الاسلام بين مسلم وكافر . ولما أسلم (خنافر) ، قال شعراً يحمد الله فيه على أن منّ عليه بالاسلام ، ويذكر (رئيه) (شصار) بالخير ، إذ لولاه لكان في نار جهنم[1] .

وأسندوا له قوله :

ألم ترَ أن الله عاد بفضله   وأنقذ من لفح الجحيم خنافـرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها   لأصليت جمراً من لظى الهون جائرا

وهو خبر يرجع سنده الى (ابن الكلبي) . وقد ذكر في الأخبـار المنثورة لابن دريد . وقد ذكر انه أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن[2] . لا أدري كيف حفظه (ابن الكلبي) ورواه عن والده ، الـذي صنعه ووضعه ، إلا أن يكون والده قد حضر المحاورة فكان يسجلها ، وهو ما يعد من المستحيلات .

وقد أمات الاسلام (الكهانة) ، فقد اجتثها وحاربها ، وحث على نبذ سجع الكهان وأساليب الكهان في الملبس ، فكان منهم من قاوم ، ثم انخذل ، بدخول قومه في دين الله ، فدخل معهم فيه . وفي كتب أهل الأخبار قصص على نمط قصة اسلام (خنافر) ، وكلام دار بينهم وبين (رئيهم) ، دوّنه أهل الأخبار بالحروف والكلم ، لم يتركوا منه حرفاً ، وكأنهم كانوا كتاب ضبط محضر جلسات أمروا بتدوين كـل محضر ساعة وقوعه . وتجد أخبار الكهان ، وما لاقوه من عنت من (رئيهم) حين أدركوا الاسلام ، وما أخبروا به من قرب ظهور الرسول كأخبار العراف اللهبي (العائف)[3] ، و (الغيطلة) الكاهنة[4] ، والكاهن (خطر)[5] ،

---

١ الامالي (١/١٣٤ وما بعدها) .

٢ الاصابة (١/٤٥٧) ، (٢٣٤٢) ، الاستيعاب (١/٤٥٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ ابن هشام ، سيرة (١/١١٨) ، (حاشية على الروض) ، (١/١٣٥ وما بعدها) ، (أخبار الكهان) .

٤ ابن هشام (١/١٣٧) ، الروض الانف (١/١٣٧) .

٥ ابن هشام (١/١٣٨) .

والكاهن (سواد بن قارب) الدوسي[1] ، و (ابن الهيبان)[2] ، والمأمور الحارثي[3] ، وغيرهم وغيرهم .

ولسجع الكهان ، طريقة خاصة به ، ميزته عن سجع غيرهم ، فهو قصير الفقرات ، يلتزم التقفية وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، يعمد الى الألفاظ العامة المبهمة المعماة ، والى تكوين الجمل الغامضة، ليمكن تأويلها تأويلات متعددة ، وتفسيرها بتفاسير كثيرة ، لا تلزم الكاهن ، فيقع في حرج ، كالذي يقع لو تكلم بكلام واضح صريح . فيظهر بمظهر الجاهل الكاذب . أما السجع المنسوب الى الخطباء ، ففقره أطول ، وكلمه أوضح ، طويل النفس ، متحرر نوعاً ما من قيود سجع الكهان ، بين الفقر تطابق في الطول ، وفي فقره بيان مشرق ، فواصله كفواصل الشعر من دون وزن. جهد صاحبه أن يجعل الفواصل واضحة صافية ، ذات مقاطع مستقلة في الغالب بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ، وقد يكون مرسلاً ، خالصاً من تساوي الجمل والتزام القافية ، فهو بين سجع وازدواج وترسل . وقد يكون مزدوجاً ، فهو سجع خفيف مقبول .

وبالاضافة الى السجع ، واستعمال الألفاظ الغامضة المبهمة ، والإيماءة والرموز والتكنية عن الأشياء ، تهرباً من التصريح ، وحذر افتضاح الأمر ، كان الكاهن يلحف في الأسئلة ويمعن في الاستفسار ، حتى يستنبط من ذلك بفطنته وذكائه ما يريد السائل ، فيعطيه جواباً مائعاً ، شأن جواب السحرة والعرافين ، كما كان يعمد الى القسم بظواهر الطبيعة من كواكب ونجوم،وشمس وقمر،ورياح وعواصف وسحب ، وليل ونهار ، وشجر وحجر،وأمثال ذلك مما نجده في خطبهم وأقوالهم، وهو شيء يلفت النظر ، ويبعث على التعجب من قسم القوم بهذه الأمور . ولكن المتتبع الدارس لعقائد القوم في الجاهلية ، ولحياتهم الاجتماعية لا يعجب من ذلك ، كما لا يعجب من قسمهم بالخبز ، والملح ، واللبن ، والقوس ، والعصا ، فإن لهذه الأمور وأمثالها معاني عميقة عند أهل الجاهلية ، فقدت أكثريتها معانيها في

---

١ ابن هشام (١٤٠/١) .

٢ ابن هشام (١٤١/١) .

٣ الامالي (٢٧٦/١) ، الاغاني (٧٠/١٥) .

الاسلام ، بسبب إبطاله لتلك العقائد ، وان بقي حشد منها في نفوس الناس الى هذا اليوم ، بسبب رسوخه في العقل والدم .

وفي القرآن قسم بالسماء ، وبالعاديات ، وبالتين والزيتون ، وبغير ذلك[1] ، ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب ، ففسروا وتأولوا ، ولو فكروا ان هذا النوع من القسم ، هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الاسلام ، وأن القرآن انما نزل بلسان العرب ، ولذلك اتبع طريقتهم في القسم ، لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم ، عرفوا السبب ، ولا زال الأعراب على سجيتهم القديمة في القسم بهذه الأشياء ، يقسمون بها كما يقسم المتحضر بأعز شيء عنده .

والسجع في الواقع باب من أبواب الشعر ، والمرحلة الأولى من مراحله ، والبذرة التي أنبتت الشعر العربي . ويتكون من فقرات . واذا أخذنا الشعر البدائي الذي يكون المرحلة الأولى من الشعر ، نرى انه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن السجع . و (الكلام المسجع) ، هو ضرب من ضروب الشعر عند غير العرب . وقد طوّر الشعراء السجع ، وأوجدوا منه الشعر ، واذا درسنا أول الشعر العبراني ، أو أوليات الشعر عند الشعوب السامية ، وعند الشعوب الآرية ، نجد انه نمط من أنماط هذا الكلام الذي نسميه (السجع)[2] . وهو لا زال يعد شعراً عند كثير من شعوب هذا اليوم .

والمزاوجة والازدواج بمعنى واحد . وازدوج الكلام وتزاوج أشبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن[3] ، والازدواج لون من ألوان الإفصاح عن الشعور بأسلوب من أساليب الأدب المنثور ، أخف على النفس من السجع ، وأسهل انقياداً لأنامل الكتاب منه . وهو على كل حال لون من ألوانه ، خففت قيود قوافيه ، حتى صار على هذا الشكل . ومن الازدواج قول أحد بني أسد يخاطب رجلاً شيخاً مات ابن له : « اصبر أبا أمامة ، فإنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته » . فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وُعِدته ، والله لئن لم أجزع النفس ، لا أفرح بالمزيد »[4] .

---

١ تفسير الطبري (٣٠/١٥٣ وما بعدها) .

٢ Goldziher, History of Classical Arabic Literature, p. 8.

٣ تاج العروس (٢/٥٥) ، (زوج) .

٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .

وقد تحدث (الجاحظ) في أثناء حديثه عن الشعوبية ومطاعنها على خطباء العرب عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة ، وعند المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك ، ثم عن أخذهم المخصرة ، عند مناقلة الكلام ، فقال : « وبمطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لم يقفّ ، وبالأرجاز عند المتح ، وعند مُجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادة والمحاورة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المنثور في خطب الحمالة ، وفي مقامات الصلح ، وسلّ السخيمة ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن . مع الذين عابوا من الاشارة بالعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ، وخدّ وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا استحفرت في كلامها ، وافتنّت يومَ الحفل في مذاهبها ، ولزومهم العمائم في أيام الجمُوع ، وأخذ المخاصر في كل حال ، وجلوسها في خطب النكاح ، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة ، وأكد شأن المحالفة ، وحقق حُرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتماسح بالأكف ، والتحالف على النار ، والتعاقد على المِلح ، وأخذ العهد المؤكّد واليمين الغموس ، مثل قولهم ما سرى نجم وهبت ريح ، وبل بحر صوفة ، وخالفت جرةٌ درة »[1] . فنحن إذن أمام طرق من الكلام ، كل طريق منها يؤدي الى نوع من الكلام ، يستخدم في حالة من الحالات ، فمساجلة الخصوم ، تكون بالموزون والمقفى ، والمنثور الذي لا يقفى ، أي المرسل ، أما في حالة الشدة والعمل ، مثل المتح ، أي الاستقاء من البئر ، وفي حالات البناء ورفع الحجر ، وفي القتال ، فتستعمل الأرجاز ، لتنشيط المهمة . وأما السجع ، فيستعمله الكهان ، ويستخدم في المنافرة والمفاخرة ، وأما المنثور ، أي الكلام المرسل ، الخالي من السجع والازدواج ، فيستعمل في الحمالة ، أي تحمل ديات قوم لا مال لهم ، فيقوم غيرهم بتحمل مبلغ الدية ، وفي مقامات الصلح ، ودفن الأحقاد والصغائن ، الى غير ذلك من حالات . فالسجع ، إذن غير النثر ، وغير

---

١ البيان والتبيين (٣/٥ وما بعدها) .

المزاوجة ، وغير الرجز . وقد جعل (الجاحظ) الكلام المنثور : أسجاعاً ، وازواجاً ، ومنثوراً[1] . فهذه في نظره أساليب النثر .

وأنا إذ أصف أسلوب النثر عند الجاهليين ، لا أعني اني أثق بصحة هذا النثر المنسوب اليهم ، وأثبت صحة نصه ، وانما أنا أصفه مستنداً في وصفي هذا على المدون المعمول عليهم ، الوارد الينا في بطون الكتب ، لأنه وإن كان في نظرنا مصنوعاً موضوعاً ، لكنه صيغ على كل حال وفق أسلوب الجاهليين ، وعلى نمط كلامهم ، إذ لا يعقل أن يكون الرواة قد اخترعوا تلك الأنماط من الكلام اختراعاً ، وأوجدوها من العدم ايجاداً ، فهم إذ وضعوا على ألسنة أهل الألسنة من العرب ، فإنما وضعوا عن تقليد ومحاكاة، وعلى نمط كلام سابق كان مألوفاً عند أهل الجاهلية الذين أدركوا الاسلام. ودليل ذلك أثره في خطب الخطباء الذين خطبوا أمام الرسول ، وفي خطب الخطباء الذين عاشوا في صدر الاسلام . فأنا حين أرفض النصوص ، لا أزعم انه لم يكن لهم نثر ، وان النثر انما ظهر وعرف في الاسلام ، بل أقر انه قد كان لهم نثر ، وكانت لهم خطب وكان لهم كلام ، ولكن أقول إن هذه النصوص المثبتة المدوّنة ، هي نصوص لا يجوّز العقل أن تكون صحيحة أصيلة مضبوطة ، لما قلته من عدم قدرة الذاكرة على المحافظة على أصالة النثر .

وأود أن أستثني الأمثال الجاهلية من هذا التعميم الذي عممته على نصوص النثر الجاهلي ، فالأمثال بحكم ايجازها وكثرة انتشارها على الألسنة ، ولكونها أداة تعليمية تحفظها الذاكرة ، ولا تخطىء فيها كثيراً ، حافظت لذلك على أصلها ونصها ، ودليل ذلك اننا لا نزال نضرب الأمثال بها حتى اليوم ، ثم إن منها ما قد ضرب به مثلاً في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي خطب الخلفاء الراشدين وكتبهم ، ولهذا فنحن لا نبتعد عن العلم إن قلنا بصحتها من حيث النص والمعنى ، أي من حيث الضبط بالكلم ومن حيث المحافظة على المعنى[2] . أما بقية النثر ، فأنا على رأيي من عدم إمكان القول بصحة نصوصه،وإن كنت أوافق على جواز بناء بعض النصوص على معان جاهلية ، فيكون النص في هذه الحالات من وضع

---

١ البيان والتبيين (٤/٢٨) .

٢ بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٢٩) .

االروة ، أما المضمون فجاهلي ، تطور وتزوق حسب الأفواه التي روته ودبجته ، بحيث ظهر على الصورة التي وصلت الينا .

وإذا كان الحال على هذا المنوال ، فأين يا ترى نجد النثر ؟ وجوابي أنك لا تجد النثر الصحيح المنثور بهذه العربية البينة الفصيحة إلا في القرآن الكريم . فالقرآن الكريم ، لكونه كتاب الله وقد دوّن ساعة نزوله ، دوّنه كتبة عند نزول الوحي ، وأخذه عنهم كتبة آخرون وحفظه الحفاظ ، وقرأ الكثير منهم ما كتبه من آي أو ما حفظه منها ومن السور على الرسول ، فأيد قراءتهم،وثبت كتابتهم ، فهو لهذا الكتاب الوحيد المنزل بلسان عربي مبين . لا شبهة في ذلك ولا شك . أرشدنا الى أساليب الجاهليين في فنون القول ، بمخاطبته لهم بلسانهم وبطرق بيانهم ، وبأسلوب محاججتهم ، وضرب لهم الأمثال بأمثالهم ، كي تكون عبرة مقبولة عندهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، بلسان عربي مبين ، يفهمه كل العرب ، ففيه إذن نجد نثر العرب ، وإن كان هو أبلغ النثر ، وفيه نجد حياة الجاهليين وعقليتهم .

وقد وصف (الجاحظ) أسلوب القرآن بقوله : « خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج »[1] .

ثم نجد هذا النثر في الحديث ، في الحديث النبوي ، وفي الحديث موضوع وضعيف ، إلا ان فيه ما لا يشك في صحته . وفيه ما روي بالمعنى ، لتجويزهم الرواية عن الرسول بالمعنى ، خشية الخطأ في النص ، والتقول عليه ، ومن تقوّل على رسول الله متعمداً ، تبوأ مقعده في النار . وقد روي الحديث رواية ، أي مشافهة ، غير ان من العلماء من ذكر ان (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، كان قد كتب حديث الرسول ، وذلك انه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له . وروي عنه انه قال حفظت عنه ألف مثَل ، وروي عن (ابي هريرة) قوله: « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر حديثاً مني ، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو ، فإنه كان يكتب »[2] . ولكننا لم نسمع بما حل

---

١ البيان والتبيين (٣٢) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ١٩٥٩ م) .
٢ الاستيعاب (٣٣٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، الاصابة (٣٤٣/٢) ، (رقم ٤٨٤٧) .

بالصحف التي دوّن بها (عبدالله) حديث الرسول ، ولا أدري اذا كان ما روي عنه في المساند ، مثل مسند (أحمد بن حنبل) قد نقل من تلك الصحيفة نقلاً أم رواية[1] .

وهناك روايات تذكر ان (همام بن منبه) ، أخذ عن (أبي هريرة) ، حديث رسول الله ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ (الصحيفة الصحيحة) في مقابل (الصحيفة الصادقة) المنسوبة لعبدالله بن العاص ، ونجد نقولاً منها في البخاري ، وفي مسند (أحمد بن حنبل)[2] . وقد نشرت هذه الصحيفة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[3] . وهذه الصحيفة ، إن صح انها من وضع (همام بن منبه) وانها أصيلة ، ذات أهمية كبيرة بالطبع ، لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة (عبدالله بن عمرو بن العاص) ، وان كانت دونها في المنزلة ، لأنها أخذت عن لسان (أبي هريرة) ، وأخذ (عبدالله) حديثه من فم الرسول ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه ، أما حديث (عبدالله) ، فربما كان بلسانه أيضاً ، غير انه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه ، فهو أقرب الى الصحة من صحيفة (همام) . وربما كان (عبدالله) ، قد دوّن حديثه بحضرة الرسول ، فإن هذا الموضوع ، لا زال مجهولاً ، لم يبحث بحثاً علمياً صحيحاً ، وهو ينتظر من الباحثين من يقوم بالبحث عنه .

ويظهر من أحاديث تنسب الى الرسول مثل حديث : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه »[4] ، ومن أخبار تنسب الى (أبي بكر) و (عمر) في النهي عن كتابة الحديث ، مثل ما نسبوا الى (عمر) من انه كتب الى الأمصار من كان عنده شيء من الحديث فليمحه ، ومن انه أنشد الناس أن يأتوه بصحف الحديث ، فلما أتوه بها أمر بتخريقها ، ثم قال :

---

١ راجع في موضوع الحديث : أبورية ، أضواء على السنة المحمدية .

٢ مسند الامام أحمد بن حنبل (٢/٣١٢ وما بعدها) ، لقد تحدثت عن « همام بن منبه » في أثناء حديثي عن « موارد تأريخ الطبري » ، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الاول فما بعده .

٣ المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) ، (الجزء الثاني والثالث) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٤٦) .

٤ أبورية ، أضواء (٤٦) .

مثناة كمثناة أهل الكتاب ! ومثل ما نسب الى (علي) من قوله : « اعزم على كل من عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك النـاس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »[1] ، وأمثال ذلك مما نسب الى الصحابـة في النهي عن كتابة الحديث ، وفي الحث على تحريق ما قد كان عندهم من صحف وكتب أو إمحائه ، انه قد كان عند الصحابة صحف فيها حديث رسول الله كتبت في أيام الرسول وبعده ، كانوا يراجعونها ويستعزون بها ، وكان في بعضها ما يشك في صحته وفي صدوره من الرسول ، ولخوف الرسول وصحابته من أن يأتي يوم تكون فيه تلك الصحف مرجعاً للناس مثل رجوعهم للقرآن ، يتخذونها سنداً لهم ، اتخاذ اليهود للمثناة ، أي (المشنا) ، أمروا باتلافها وبالنهـي عن التدوين . والاكتفاء بالحديث مشافهة ، وبنشره بالرواية . وهي طريقة غير مأمونة أيضاً ، فالتدوين أضمن منها وأسلم ، ولكنها طريقة كانت متبعة في ذلك الحين ، لأسباب لا أستطيع أن أتحدث عنها في هذا المكان ، لأن الحديث عن تدوين حديث رسول الله وعن ورود النهي عن تدوينه يخرجنا عن الحدود المرسومة لهذا الكتاب . على كل فإن أخذ المحدثين بمبدأ رواية حديث الرسول بالمعنى ، كان هو السبب الذي حمل علماء النحو واللغة على عدم الاستشهاد به في شواهد القواعد واللغة ، كما بينت ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

وفي رسائل الرسول وكتبه ووصاياه وخطبه وأوامره ، وفي خطب الوفود التي كانت تفد عليه ، وفي خطب الصحابة ، أمثلة على طبيعة وأسلوب الخطب عند الجاهليين ، ولا سيما القديم من تلك الخطب الذي ألقاه الخطباء أمام الرسول قبل دخولهم في الاسلام ، فهو في الواقع استمرار لأسلوب الخطاب في الجاهلية ، ألقي بالطريقة المألوفة عندهم التي تمثل التفكير الجاهلي ، والعقلية الجاهليـة أيام ظهور الاسلام . وإن كنت أشك في صحة كثير من الخطب والرسائل المنسوبة الى الرسول ذلك لأننا إذا درسنا نصوص هذه الرسائل ، نجد أصحاب السير والتواريخ يروونها بصور مختلفة ، وفي اختلافهم هذا ، دلالة على أن الرواة لم ينقلوها من أصـل مكتوب ، وإنما أخذوا النص بطريق المعنى والرواية ، فوقع من ثَمّ هذا الاختلاف. أضف الى ذلك فعل التزوير ، فقد نص المؤرخون وأرباب السير عـلى أن بعض

---

١ المصدر نفسه (٤٦ وما بعدها) .

أهل الكتاب وسادات القبائل والرجال ، قدموا للخلفاء كتباً مزورة فيها إقرار قرار وإحقاق حق ، للمطالبة بتنفيذ ما جاء فيها ، وفي حديث : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار »[1] ، وحديث آخر يشبهه هو : « إن الذي يكذب عليّ يبني له بيتاً من النار » ، وأحاديث أخرى من هذا القبيل[2] ، دلالة على وقوع الكذب على الرسول في حياته وبعد وفاته .

وقد ورد أن الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتبـاين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حـين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه اليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة : حتى قـال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحـد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معنـاه من تلك الكلمات ، ولكنهم كانوا يرون هذا الإختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه »[3] .

فإذا كان الأمر من اختلاف لغات العرب على هذا النحو ، وإذا كان الصحابة ومنهم الخلفاء ، وهم عـلى ما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، لم يفهموا كلام الوفود ، فهماً صحيحاً ، حتى كان الرسول يفسر لهم ما كان يقوله للوفـود ، وما كانت الوفود تقوله له ، فكيف نصدق بصحة نصوص خطبهم وكلامهم ، وقد ألقيت بلهجاتهم الخاصة ، ولم يكن هناك كتبة ولا مدونون ، يدونون محاضر جلسات الرسول مع الوفود ، ومحاضر كلامه معهم ، وما كان يقع بحضرته من نقاش وكلام ؟

وأنت إذا راجعت خطب الرسول التي خطبها في (حجة الوداع) تجدها وقد

---

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (١٢٢) ، (تحقيق اكرم ضياء العمري) ، (من كذب علي ، فليتبوأ مقعده من النار) ، « والله ما قال متعمدا ، وأنتم تقولـون متعمدا » ، أبورية ، أضواء (٦٢) .

٢ أبورية ، أضواء (٥٩ وما بعدها) .

٣ الرافعي (٣٢٥/١) .

رويت بصور مختلفة [1] ، وفي هذا الاختلاف دلالة بينة على أنها لم تنقل من أصول مكتوبة ، وإنما أخذت من الأفواه ، وإلا لما جاز عقلاً وقوعـه أبداً . وسبب ذلك ، أن الناس في ذلك الوقت ، لم يكونوا قد تعودوا لا في الجاهلية ولا في الاسلام اتخاذ كتّاب لتدوين ما كان يقع لهم من أحداث ، ولم يكن عندهم مراسلون يرافقون الملوك والحكّام وسادة القبائل والوفود ، لوصف مواكب الملوك ومشاهدهم وحروبهم ، وخطبهم ومفاوضاتهم مع سادات القبـائل . وكذلك كان الحال في الاسلام ، بـل ولا رواة لهم ذاكرة قوية ، لحفظ أحاديث المجالس والأحداث ، واذاعتها بين الناس ، لأن العناية بحفظ الأحداث والتواريخ وتخليدها تقتضي وجود وعي بأهمية تدوين التأريخ ، ولم يكن هذا الوعي معروفاً آنذاك . ولهذا جاءت أخبار الحوادث عن طريق شهود عيان رووا ما شاهدوه لأصحابهم، كما يروي أي إنسان ما قد يقع له من أمور لأصدقائه،وهؤلاء قصوا تلك المرويات على أصحابهم وعلى من جاء بعدهم بلغتهم ، وبهذه الطريقـة وصلت الأخبار الى المدوّنين عندما بُدىء بالتدوين.وليس من المعقول بالطبع محافظة الذاكرة على النصوص الأصلية للخطب وللكلام ، ولقول الراوي الأول للأحداث . وليس من المعقول أيضاً وصولها سالمة نقية من كل تغيير أو تبديل أو تحريف ، ولا سيما في الأمور العاطفية التي تضرب على أوتار العصبية . ولهذه الأسباب وغيرها فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى صحة هذه الأخبار المروية من الأفواه ، لما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من زيف أو من تحريف عن عمد أو من غير عمد . ولو كانت الذاكرة تعي كل كلام وتحفظ كل حديث بالحرف والكلمة ، لما أجاز العلماء رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذ كان من الصعب حفظه بالحرف . ولا أظن أن أحداً يقول إن حفظ أخبار الجاهلية ونصوص كلام رجالها،أهم عند العرب من حفظ حديث الرسول .

وأنا أشك في صحة أكـثر ما نسب الى (مسيلمة) من كـلام وقرآن . وهو (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، المكنى بـ (أبي ثمامة) ، والمنعوت بين

---

١ راجع كتب السير والتواريخ في خطبة الوداع ، الطبري (٣/١٤٩ وما بعدهـا) ، البيان والتبيين (٢/٣١) ، ابن الاثير (٢/١٤٦) .

المسلمين بـ (الكذاب)[1] . واسمه الصحيح (مسلمة) ، وقد صغر في الاسلام، ازدراءً بشأنه . فقد روي انه صنع قرآناً مضاهاة للقرآن ، غير انهم لم يتحدثوا بشيء عن قرآنه . واذا صح ما ذكره أهل الأخبار من انه ادعى الوحي بمكة أو باليمامة قبل الاسلام ، وانه نزّل على نفسه آيات زعم انها تنزيل من الرحمان ، فيكون قد باشر بتأليف قرآنه قبل الوحي[2] .

وذكر ان في حقه نزلت الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ، ولم يوح اليه بشيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] . فقد ذكر علماء التفسير ان عبارة : « أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه بشيء »، نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة ، فيما كان يسجع ويتكهن به . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أخي بني عامر بن لؤي ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فيما يملي : عزيز حكيم ، فيكتب : غفور رحيم فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل، فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الاسلام ، ولحق بقريش . وقال لهم : لقد كان ينزل عليه عزيز حكيم ، فأحوله ثم أقول لما أكتب،فيقول : نعم سواء »[4].

وكان من حديث (مسيلمة) ان قريشاً قالت للرسول : « بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمان ، وإنا والله ما نؤمن بالرحمان أبداً »[5] ، وذكر أهل الأخبار ان قريشاً « حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم : دق فوك ، انما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[6] ، لأنهم كانوا قد سمعوا بدعوته الى عبادة الرحمان ، قبل نزول الوحي على الرسول . وورد « انهم لما

---

١ « وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان ابن ذهل ، بن الدول بن حنيفة . يكنى أبا أمامة ، قيل أبا هارون ، وكان يسمى بالرحمان فيما روى عن الزهري قبل مولد عبدالله والد النبي » ، الروض الانف (٢/٣٤٠) ، الاشتقاق (٢٠٩) ، (كذاب اليمامة) ، مروج الذهب (٢/٣٠٣) ، المعارف (٩٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٥٤) ، اليعقوبي (٢/١٢٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٢ تحدثت عنه بتفصيل في الجزء السادس من هذا الكتاب في فصل : أنبياء جاهليون .

٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ .

٤ تفسير الطبري (٧/١٨١) .

٥ تفسير الطبري (١٥/١١١) .

٦ اليعقوبي (١/١٢٠) ، الروض الانف (٢/٣٤٠) .

سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن قالت قريش : أتدرون ما الرحمن ؟ هو كاهن اليمامة ! » . وقد قالوا لمسيلمة : رحمان ، وقالوا أيضاً فيه : رحمان اليمامة [1] .

وأنا لا أستبعد احتمال مجيئه الى مكة قبل الاسلام . فقد ذكر انه تزوج (كبشة) (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس)[2] ، وهي من مكة ، فلا يعقل عدم مجيئه الى مكة وإقامته بها بعض الوقت ، ومجيئه اليها بين الحين والحين . ومن هنا كان لأهل مكة علم بدعوة مسيلمة الى عبادة (الرحمان) .

وقد زعم أنه « كان يقول : أنا شريك محمد في النبوة ، وجبريل عليه السلام ينزل عليّ كما ينزل عليه ، وكان رجّال بن عنفوة من رائشي نبله ، والحاطبين في حبله ، والساعين في نصرته . وكان مسيلمة يقول : يا بني حنيفة ، ما جعل الله قريشاً بأحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم . ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وجد الناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه ، فقام يوماً خطيباً ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه . أما بعد ، فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذّاب في ثلاثين كذّاباً قبل الدجال ، فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب ، وأظهروا شتمه وغيبه وتصغيره ، وهو باليمامة يركب الصعب والذّلول في تقوية أمره ، ويعتضد برجال بن عنفوة ، وهو ينصره ويذب عنّه ويصدق أكاذيبه ، ويقرأ أقاويله التي منها : والشمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها . والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها وأطفأ نورها فمحاها »[3] .

« ومنها : سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسّر على الحُبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين أحشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم

---

١ الخزانة (٢/٢٨٥) ، (هارون) .

٢ كتاب نسب قريش (٢٠) ، الروض الانف (٢/١٩٨ ، ٣٤١) ، المحبر (٤٤٠) ، امتاع ألاسماع (١/٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) ، الجزء السادس من هذا الكتاب (ص ٩٦) .

٣ ثمار القلوب (١٤٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٥٩) ، المعارف (١٧٨) ، التنبيه ، للمسعودي (٢٤٧) .

من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السرّ وأخفى ، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى .

ومنها : اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشمس سراجاً، والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضة وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمّاناً ، وعنباً ، وريحاناً ، وحنطة وزؤاناً .

وكان أبو بكر إذا قرع سمعه هذه الترهات يقول : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من إلّه »[1] .

« وكان رجّال بن عنفوة صاحب مسيلمة قدم المدينة مراراً ، وقرأ القرآن وأظهر الايمان ، وأسرّ الكفر . ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالس في أصحابه ، إذ سمع وطئاً من خلفه ، فقال : هذا وطء رجل من أهل النار ، فإذا هو رجّال بن عنفوة . فلما قدم وفد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم – وفيهم مسيلمة إلا انه لم يلقه – وأظهروا الاسلام وأرادوا الانصراف ، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود ، وقال : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا : لا ، إلا رجل منا يحفظ رحالنا – يعنون مسيلمة – فقال صلى الله عليه وسلم : ليس بشرّكم مكاناً . فلما رجع الوفد الى مسيلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : قد سمعتم قول محمد فيّ : ليس بشرّكم مكاناً ، وقد أشركني في الأمر بعده ، فعليكم به . ولما انصرفوا الى اليمامة أعلن مسيلمة النبوة ، وادعى الشركة ، وفتن أهل اليمامة ، وانقسموا بين مصدّق ومكذّب ، وراضٍ وساخط . وكتب مسيلمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاباً قال فيه : الى النبي محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أُشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون ولا يعدلون . وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين ، فلما قرىء الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهما : ما تقولان ؟ قالا : نقول ما قال أبو ثمامة ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما .

---

١ ثمار القلوب (١٤٧ وما بعدها) .

وأملى في الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتاباً يذكر فيه انه جعل له الأمر من بعده ، فصدّقه أكثر بني حنيفة .

وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم، ويبارك لمولودهم، وجاءه قوم بمولود لهم فمسح رأسه فقرع . وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولود له بطول العمر ، فمات من يومه .

وكان ثمامة بن أثال الحنفي يقشعر جلده من ذكر مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه : إن محمداً لا نبي معه ولا بعده ، كما ان الله تعالى لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمد في نبوته . ثم قال : أين قول مسيلمة : يا ضفدع نقي نقي ، كم تنقين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشرب تمنعين، من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إلـه إلا هو اليه المصير . فقالوا : أوقح عن يقول مثل ذلك مع مثل هذا ! »[1] .

وقد روي قول (مسيلمة) في الضفدع على هذا النحو : « يا ضفدع بنت ضفدعين : نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين »[2] . وروي أن وفد اليمامة لما قدم على (أبي بكر) بعد مقتل مسيلمة ، « قال لهم : ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستعفوه من ذلك ، فقال : لتقولنّ . فقالوا : يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشارب[3] تمنعين ، ولا الماء تكدرين ... في كلام من هذا كثير . فقال أبو بكر : ويحكم ! إنّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ ولا بر ، فأين ذهب بكم »[4] ؟ ، أو أنه قال : « هذا كلام ما أتى من عند إلّ ، أي من عند الله . وهو في الأسماء الأعجمية إيل ، مثل إسرافيل ، وجبريل ، وميكائيل ، وإسرائيل ، واسماعيل »[5] . وقيل الإلّ

---

١ ثمار القلوب (١٤٨ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٢/١٨٠) .
٣ في الاصل « الشراب » ، وفي الموارد الاخرى الشارب .
٤ الفائق (٣/١٢٢) .
٥ الاكليل (٢/٧) .

الربوبية ، والأصل الجيد والمعدن الصحيح ، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن . ويجوز أن يكون بمعنى النسب والقرابة ، من قوله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة » . وقول حسّان :

لعمرك إن إلّك من قريش كإلّ السقب من رأل النعام[1]

وقد ذكر (الطبري) في مقدمة تفسيره ، أن القرآن لما نزل على الرسول ، « أقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، إلا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ما قد تيقن أنه غير قادر عليه ، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستوراً ومن عيّ لسانه ما كان مصوناً ، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق ، فقال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ... ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة »[2] . والطبري وإن لم يصرح باسم قائل هذه الحماقات ، لكنه قصد به مسيلمة من غير شك .

أما أن تلك الآيات آيات قالها (مسيلمة) حقاً ، فتلك قضية لا يمكن إثباتها، فلما قتل ، وضع أصحابه عليه أموراً كثيرة ، قد يكون في جملتها هذه الآيات . أما قرآنه الذي قيل إنه وضعه يضاهي به القرآن ، فقد هلك بهلاكه ، ولم أجد أحداً ذكر أنه وقف عليه ، ونقل منه ، ولعلّه كان كلاماً لم يسجل في حياة مسيلمة ، وإنما كان محفوظاً في صدر صاحبه وفي صدور أتباعه ، ودخل من دخل من أصحابه في الاسلام طمس أثر ذلك القرآن .

وقد دوّن (الرافعي) الآيات التي أخذتها من تفسير الطبري ، على هذه الصورة: « والمُبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ... لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه،

---

١ الفائق (٣/١٢٣) .

٢ تفسير الطبري (١/٥) .

والمُعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[1] ..

ونسب (الرافعي) له قوله : « والشاءِ وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون .

وقوله : « الفيلُ ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » . وروي انه « جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا »[2] ، أو انه قال : « ألم ترَ الى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى »[3] . روي انه قال هذه الآيات لسجاح لما أراد الدخول بها ، فقالت : « وماذا أيضاً ؟ قال : أوحى إليّ : ان الله خلق النساء أفراجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن قُعساً إيلاجاً ، ثم نخرجها اذا نشاء إخراجاً ، فينتجن لنا سخالاً انتاجاً . قالت أشهد انك نبي ، قال : هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وبقومك العرب ! قالت : نعم ، قال :

ألا قومي الى النيك فقد هُيي لك المضجع
وإن شئتِ ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقناكِ وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع . قال بذلك أوحى إليّ . فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت الى قومها ، فقالوا : ما عندك ؟ قالت : كان على الحق فاتبعته فتزوجته ، قالوا : فهل أصدقك شيئاً ؟ قالت : لا ، قالوا : ارجعي اليه ، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق ! فرجعت ، فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن ، وقال : ما لك ؟ قالت أصدقني صداقاً ، قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث بن ربعي

---

١ تأريخ آداب العرب (٢/١٧٩) .
٢ سيرة ابن هشام (٢/٣٤١) ، (حاشية على الروض) ، ابن كثير ، البداية (٦/٣٢٦) ، الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .
٣ الباقلاني ، اعجاز (٢٤٠) .

الرياحي ، قال : عليَّ به ، فجاء ، فقال : نادِ في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر »[1] . وأما (سيف) فذكر انه صالحها « على أن يحمل اليها النصف من غلاّت اليمامة ، وأبت إلا السنة المقبلة يسلفها ، فبـاح لها بذلك ، وقال : خلفي على السلف من يجمعه لكِ ، وانصرفي أنت بنصف العام ، فرجع فحمل اليها النصف ، فاحتملته وانصرفت به الى الجزيرة »[2] .

وذكر أن (سجاح) لما دخلت قبة (مسيلمة) ، « قالت له : اخبرني بما يأتيك به جبريل ؟ فقال لها : اسمعي هذه السورة : انكن معشر النساء خلقـن أمواجاً ، وجعل الرجال لكن أزواجاً ، يولجن فيكن إيلاجاً ، لا ترون فيـه فتوراً ولا إعوجاجاً ، ثم يخرجونه منكن إخراجاً ، فقالت له : صدقت ، والله إنك لنبيّ مرسل » ، وهي قصة أخذت من موارد سابقة ، مثل الطبري ، غير أنها غيرت فيها بعض التغيير ، تنتهي بأنه رفع عن قومها صلاة العشاء والصبح لأجل المهر[3] .

وزعم أن « من قرآن مسيلمة الذي يزعم أنه نزل عليه ، لعنـة الله عليه : والنازعات نزعاً ، والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات ذرواً ، فالطاحنات طحناً ، والنـازلات نزلاً ، فالجامعات جمعاً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، والشـاردات ثرداً ، فالآكلات أكلاً ، والماضغات مضغاً ، فالبالعات بلعاً »[4] .

وقد اتخذ قتل (مسيلمة) فخراً ، فادعى قتله بنو عامر بن لؤي ؛ وادعى بعض الخزرج قتله ، وادعى (بنو النجار) قتلـه ، وادعى (حبشي) قاتل حمزة قتله ، وكان (معاوية يدعي قتله) ويدعي ذلك له (بنو أمية) . وذكر أن (عبد الملك بن مروان) قضى لمعاوية بقتل مسيلمة[5] ، وهـو قضاء سياسي لا أصل له بالطبع .

---

١ الطبري (٣/٢٧٣ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٧٥) .
٣ نزهة الجليس (١/٤٧٣ وما بعدها) .
٤ نزهة الجليس (١/٤٧٤) .
٥ البلاذري ، فتوح (٩٩) .

ويظهر ان بني حنيفة بقوا على تعلقهم بمسيلمة ، حتى بعد مقتله وذهاب أمره. ففي خبر ينسب الى (ابن مُعَيْز) السعدي انه مــر على مسجد بني حنيفة ، فسمعهم يذكرون (مسيلمة) ، ويزعمون انه نبي ، فأتى (ابن مسعود) فأخبره ، فبعث اليهم الشرط ، فجاءوا بهم فاستتابوا فخلي عنهم ، وقدم (ابن النواحة) فضرب عنقه[1] . هذا ، ويدل تعلق (بني حنيفـة) وغيرهم من عرب اليمامـة بمسيلمة ، واستماتتهم في الدفاع عنه ، وتذكرهم له حتى بعد هلاكه ، على انه كان شخصية مؤثرة قوية ، سحرت أتباعها ، حتى انقادوا له هذا الانقياد. وقد نص (ابن حجر) على قتل (ابن مسعود) لابن النواحة ، إلا انـه لم يذكر ان ذلك كان بسبب اعتقاده بنبوة (مسيلمة) ، وانما ذكر انه « كان قد أسلم ثم ارتد فاستتابه عبدالله بن مسعود ، فلم يتب فقتله على كفره وردّته »[2]. واسم (ابن النواحة) (عبادة بن الحارث) أحد بني عامر بن حنيفة[3] .

ويروى ان (الأخطل) الضبعي ، قال في مسيلمة :

لهفاً عليك أبا ثمامة   لهفاً على رُكْنَيْ شمامه
كم آيةٍ لك فيهمُ   كالبرق يلمع في غمامه

وكان (الضبعي) شاعراً ، زعم انـه ادعى النبوة ، وكان يقول : لمضر صدر النبوة ، ولنا عجزها ، وقد ضرب عنقه (عمر بن هبيرة) ، ومن شعره:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل   متى جعل الله الرسالة تُرتبا[4]

أي راتبة في واحد .

وسئل (الأحنف بن قيس) رأيه في مسيلمة ، فقال : « ما هو بنبي صادق ولا بمتنبيء حاذق »[5] .

---

١ الفائق (١/٦٠٣) ، الاصابة (٣/١٤٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٢ الاصابة (٣/١٤٣) ، (رقم ٦٦٥١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٧) .
٤ المؤتلف (٢٢) .
٥ أمالي المرتضى (١/٢٩٢) .

وأنا لا استبعد ما نسب الى (مسيلمة) من دعوى نزول الوحي عليه ، وتسمية ذلك الوحي (قرآناً) أو كتاباً أو سفراً ، أو شيئاً آخر ، ولكني استبعد صحة هذه الآيات التي نسبتها الكتب اليه ، وأرى أن أكثرها ورد بطريق آحاد ، فلما نقلها الخلف عن السلف ، وكثر ورودها في الكتب ظهرت وكأنها أخبار متواترة ، وصارت في حكم ما أجمع عليه . وقد رويت بعض الآيات مثل : آية الضفدع ، بصور متعددة مختلفة ، مع أنها أشهر وأعرف آية أو آيات نسبت اليه، فما بالك بالآيات الأخرى ، ثم إننا نجد الرواة يناقضون أنفسهم كثيراً فيما نسبوه اليه ، وبعضه مما لا يعقل صدوره من مسيلمة ، مثل شعره الذي قاله لسجاح ، حين أراد الدخول بها . وهل يعقل أن يقول إنسان يدعي النبوة مثل هذا الكلام الفاحش أمام الناس ، ليدون ويسجل عليه !

وقد ذكر (ابن النديم) أن لابن الكلبي مؤلفاً خاصاً ألفه في مسيلمة دعاه : « كتاب مسيلمة الكذاب » ، لم يصل الينا ، وله كتاب آخر في بني حنيفة اسمه: « كتاب أيام بني حنيفة » ، وهم قوم مسيلمة ، وكتاب دعاه : « كتاب أيام قيس بن ثعلبة »[1] .

وزعم أن من كلام (طليحة) الأسدي الذي قاله لأصحابه : « والحمام واليمام، والصرد والصوّام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »[2] .

وروى (الطبري) سجعاً من سجع (سجاح) ، وكانت نصرانية راسخة في النصرانية ، قد علمت من علم تغلب ، هو قولها لأتباعها : « عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » ، فلما جاءت مع قومها اليمامة ، قال لها مسيلمة : « لنا نصف الأرض ، وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش ، فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة

---

١ الفهرست (ص ١٤٨) .

٢ الطبري (٣/٢٦٠) ، (دار المعارف) .

خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجّار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبـار ، رب الغيوم والأمطار .

وقال أيضاً : لمّا رأيت وجوههـم حسُنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوماً ، وتكلفون يوماً ، فسبحان الله ! اذا جاءت الحياة تحيون ، والى ملك السماء ترقون ! فلو انها حبة خردلة ، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولأكثر الناس فيها الثبور .

وكان مما شرع لهم مسيلمة ان من أصاب ولداً واحداً عقباً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمسك ، فكان قد حرّم النساء على من له ولد ذكر »[1] .

وبلاغة الكلام معروفة عند الجاهليين ، فقد كانوا ينعتون المتكلم الجيد بالبليغ ، وفي القرآن الكريم : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً »[2] . والبليغ الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ونهاية مرامه[3] . سأل (معاوية) (صحار بن عياش) العبدي[4] ، ما البلاغة ؟ فقال : لا تخطىء ولا تبطىء . أو أنه قال له : مـا البلاغة ؟ قال : الإيجاز . قال : ما الايجاز ؟ قال : أن لا تبطىء ولا تخطىء . وكان قد دهش من فصاحته وبلاغته ، فقال له : ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا فنقذفة كما يقذف البحر بزبده[5] .

وقد ميز (الطبري) وغيره من العلماء بين الخطباء وبين الفصحاء والبلغـاء ، فالخطباء هم من جماعة صناع الكلام ، وصناعتهم صناعة الخطب ، وذكر بعدهم (البلغاء) ، صناع البلاغة ، ثم (الشعر) والفصاحة ، فجعل للشعر في مقابل الفصاحة ، ثم السجع والكهانة ، وقال : « كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم

---

١ الطبري (٣/٢٧١ وما بعدها) .
٢ النساء ، الرقم ٤ ، الاية ٦٢ .
٣ تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .
٤ « صحار بن عباس ؟ » .
٥ تاج العروس (٦/٥) ، (بلغ) ، الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .

وفصيح »[1] ، فالخطيب هو الذي يخطب باسم الوفد أو القوم ، وله لذلك عندهم مقام جليل ، لأنه عقل من يتكلم باسمهم ولسانهم ، والبليغ من يتحدث ويتكلم في المجالس والأندية ، بكلام بليغ رصين ، والفصيح من يفصح ويعرب بلسانه ، ونجدهم يقولون أحياناً خطيب فصيح ، وشاعر فصيح ، فالفصاحة صفة تلحق بالمتكلم ناثراً كان أو كان شاعراً .

وللبيان عند العرب مقام كبير . وقد أشاد القرآن بالبيان ، فقال : « الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »[2] . فجعل البيان في جملة ما علمه الله الانسان . ونعت القرآن بأنه نزل « بلسان عربي مبين »[3] ، ووصف القرآن بقوله : « طس، تلك آيات القرآن وكتاب مبين »[4] . وينسب الى الرسول قوله: « إن من البيان لسحراً »[5] . وورد في المثل : « جرح اللسان كجرح اليد . هو في شعر امرىء القيس » . يضرب في تأثير الوقيعة[6] ، وفي أثر القول في فعل الناس .

وروي أن ذوي الفهم والعلم من قريش تأثروا ببلاغة القرآن وفصاحته، فروي أن (الوليد بن المغيرة) ، وكان من بلغاء قريش وفصائحهم ومن علمائهم بالشعر، لما دخل على (أبي بكر) يسأله عن القرآن « فلما أخبره خرج على قريش . فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون » ، أو أنه قال لما سمع القرآن : « والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وان له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر » ، أو أنه قال: « سمعت قولاً حلواً أخضر مثمراً ، يأخذ بالقلوب . فقالوا : هو شعر . فقال : لا والله ما هو بالشعر ، ليس أحد أعلم بالشعر مني ، أليس قد عرضت عليّ الشعراء شعرهم ! نابغة وفلان وفلان . قالوا : فهو كاهن . فقال : لا والله ما هو بكاهن ، قد عرضت

---

١ تفسير الطبري (١/٥) .
٢ سورة الرحمن ، تفسير الطبري (٢٧/٦٧) .
٣ النحل ، الاية ١٠٣ ، الشعراء ، الاية ١٩٥ .
٤ النمل ، الاية ١ .
٥ البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، العسكري ، جمهرة (١/١٣) .
٦ الزمخشري ، المستقصى (٢٠/٥٠) ، (رقم ١٨٧) .

عليّ الكهانة . قالوا : فهذ سحر الأولين اكتتبه . قال : لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو اذا سحر يؤثر »[1]، او أنه قال أشياء اخرى من هذا القبيل، اتفقت في المعنى والمقصد ، واختلفت في العبارات .

كما روي أن قوماً من قريش ومن غيرهم ، أسلموا بتأثير بيان القرآن عليهم، فقد روي ان (عمر بن الخطاب) أسلم على ما يقال حين سمع القرآن . روي عنه انه قال : « خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني الى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح بسورة الحاقة ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن . فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش . فقرأ : انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . فقلت كاهن . قال : ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون حتى ختم السورة . قال : فوقع الاسلام في قلبي كل موقع »[2] . وهي رواية تخالف ما جاء في خبر اسلامه ، من انه كان قد خرج يريد قتل الرسول ، فتلقاه (نعيم بن عبدالله) النحّام ، وكان من المسلمين ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : « اريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسب آلهتها ، فاقتله » ، فقال له (نعيم) : « أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » ، فرجع عمر عامداً الى اخته وختنه وعندهما (خباب بن الأرت) معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها ، فلما سمعوا حس عمر ، أخذت (فاطمة) الصحيفة . فلما دخل (عمر) ، قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، ثم قال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فأبت أخته اعطاءها إلا أن يغتسل ، فاغتسل عمر ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها وتأثر بها فأسلم[3] .

---

١ تفسير الطبري (٢٩/٩٨ وما بعدها) ، سورة المدثر .

٢ الاصابة (٢/٥١٢) ، (رقم ٥٧٣٨) ، الروض الانف (١/٢١٨) ، ورووا له شعرا ، ذكروا أنه قال بعد اسلامه ، رواه « ابن اسحاق » الروض الانف (١/٢١٨).

٣ ابن هشام (١/٢١٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (١/٢١٦) .

ورووا أن (سويد بن الصامت) ، صاحب صحيفة لقمان ، كان ممن أعجب بالقرآن ، ورووا أن (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل) ، وكان من أكابر قريش ومن علماء النسب ، قدم على النبيّ ، فسمعه يقرأ (الطور) ، فأثرت القراءة فيه ، وقد أسلم فيما بعد ، بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح[1] .

والفصاحة في معنى البلاغة ، فهي مرادف لها في الاستعمال . والفصيح هو البين في اللسان والبلاغة ، ولسان فصيح ، أي طلق[2] . وقد اشتهر (قس بن ساعدة الايادي) في الفصاحة حتى ضرب به المثل فيها ، فقيل : أفصح من قس، وأنطق من قس[3] ، وأبين من قس ، أي أفصح[4] ، وأبلغ من قس . وقد ذكره (الأعشى) بقوله :

وأبلغ من قسّ وأجرأ من الذي ... بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

كما ذكره الحطيئة بقوله :

وأبلغ من قس وأمضى إذا مضى ... من الريح إذ مسّ النفوس نكالها[5]

ونسبوا الى (قس) قوله ينصح ولده : « إنّ المعا تكفيه البقلة . وترويه المذقة، ومن عيّرك شيئاً ففيه مثله ، ومن ظلمك وجد من يظلمه ، ومتى عدلت على نفسك عدَل عليك من فوقك ، وإذا نَهيْتَ عن شيء فانْهَ نفسك ، ولا تجمع ما لا تأكل ، ولا تأكل ما لا تحتاج اليه ، وإذا ادخرت فلا يكوننّ كنزك إلا فعلك . وكن عف العيلة، مشترك الغنى ، تسد قومك . ولا تشاورن مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً ، وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ولا تضعنّ في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك . وإذا خاصمت فاعدل،

---

١ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٢/١٩٧) ، (فصح) .
٣ الزمخشري ، المستقصى (١/٣٩٣) ، (رقم ١٦٧٧) .
٤ المصدر نفسه (١/٣٢) ، (رقم ٩٩) ، العسكري ، جمهرة (١/٢٤٩) ، (رقم ٣٣٦) .
٥ المستقصى (١/٢٩) ، (رقم ٨٨) .

وإذا قلت فاقتصد . ولا تستودعن أحداً دينك وإن قربت قرابته ، فإنك اذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً ، وكان المستودَع بالخيار في الوفاء والغدر ، وكنت له عبداً ما بقيت . وإن جنى عليك كنت أولى بذلك ، وان وفّى كان الممدوح دونك»[1].

وقد اشتهرت (إياد) بالفصاحة والبيان ، وبقدرة في اللسان . وقد ظهر منهم جملة خطباء[2] . واشهرت (بنو أسد) بالخطابة كذلك ، قال (يونس بن حبيب) : « ليس في بني أسد إلا خطيب ، أو شاعر ، أو قائف ، أو زاجر ، أو كاهن ، أو فارس . قال : وليس في هذيل إلا شاعر أو رام ، أو شديد العدو »[3] .

والآن ، وبعد أن انتهينا من الكلام على النثر ، نقول هل كان للجاهليين أدب منثور ؟ أي مدونات من الأدب المنثور . لقد ذهب البعض الى انه لو كان للجاهليين أدب منثور مدون ، لعدّ عجيباً اختفاء آثاره هذا الاختفاء الكلي، حتى من أحاديث العرب المنقولة[4] . والواقع ان من غير الممكن في الوقت الحاضر البت علمياً في هذا الموضوع ، لأننا لا نملك أدلة علمية ، لنستنبط منها أحكاماً تؤيد أو تنفي وجود التدوين في الجاهلية . أما مسألة عدم ورود نصوص أدبية منثورة الينا ، أو عدم ورود إشارات الى وجودها في الجاهلية ، فإنها أمور لا يمكن أن تكون حجة على اثبات عدم وجود التدوين عند الجاهليين ، إذ لا يجوز انها كانت ، ولكنها تلفت ، بسبب كونها كانت مكتوبة على مواد سريعة التلف ، فهلكت ، كما هلكت مدونات صدر الاسلام ، حيث لم يصل من أصولها إلا النزر اليسير ، وهو نزر يشك في أصالته وصحته .

وذهب بعض الى وجود أدب منثور ، إذ لا يعقل وجود أدب منظوم ، ثم لا يكون للعرب أدب منثور . ويتجلى طراز هذا الأدب في الأمثلة والحكم المنسوبة

---

١ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ، المصون في الادب (الكويت ١٩٦٠) ، (ص ١٧٩ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٤٢/١ وما بعدها) .

٣ البيان والتبيين (١٧٤/١) .

٤ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (ص ٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العلم للملايين) ، (بيروت ١٩٦٤) .

الى الجاهليين . أما مؤلفات وكتب ، وصحف مدونة فلم يصل منها الينا أي شيء. ولكن ذلك لا ينفي عدم وجودها عند أهل الجاهلية . وقد تحدثت عن موضوع التدوين عند الجاهليين في موضع آخر من هذا الكتاب .

وللجاحظ رأي في كلام العرب ، فهو يرى أن « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام « فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده» ، على حين يكون كلام العجم «عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتُب »[1] . وقد حصر أصناف البلاغة عند العرب بالقصيد والرجز ، وهما من الشعر ، وبالمنثور ، وهو الكلام المرسل ، وبالأسجاع ، وبالمزدوج وما لا يزدوج من الكلام[2] .

أما موضوع وجود ترجمات جاهلية عربية للتوراة والانجيل والكتب الشرعية الأخرى المعتبرة عند أهل الكتاب ، فموضوع لم يتفق عليه الباحثون حتى الآن . نعم ورد في الأخبار أن الأحناف كانوا قد وقفوا على كتب الله،وقرأوها بالعبرانية وبالسريانية ، وأنهم كتبوا بهما وبالعربية[3] ، ولكن هذه الأخبار غامضة غير واضحة ، يجب أخذها بحذر ، كما ورد أن بعض الرقيق من أهل الكتاب ممن كان بمكة كان يقرأ كتاب الله ، وكانت قريش ترى رسول الله يمرّ عليه ويجلس عنده ويستمع اليه ، فقالت إنما يتعلم (محمد) منه[4] ، ولكن الأخبار الواردة عن هذا الموضوع لا تشير الى أن هذا الذي زعم أنه كان يعلم الرسول ، كان قد دوّن ترجمة كتب الله ، أو تفاسيرها بالعربية ، وأن الناس قد وقفوا عليها .

وأما ما ورد من أمر (عمرو بن سعد بن أبي وقاص) (عمرو بر سعد

---

١ البيان والتبيين (٣/ ٢٨ وما بعدها) .

٢ البيان والتبيين (٣/ ٢٩) .

٣ Georg Graf, Geschichte der Christlischen Arabischen Literatur, I, S. 34

٤ النحل ، الاية ١٠٣ ، تفسير الطبري (١٤/ ١١٩ وما بعدها) .

بر أبي وقاص) المذكور في تأريخ (ميخائيل السوري) (المتوفى سنة ١١٦٩ للميلاد) البطريق (البطريارك يوحنا) بطريق اليعاقبة ، ترجمة (الانجيل) من السريانية الى العربية ثم ما جاء من وقوع خلاف بين (عمرو) وبين (البطريارك) بشأن الترجمة ، ثم من استعانة (البطريارك) بعد ذلك برجال من (تنوخ) ، و (عاقولا) ، و (طيء) ، كانوا يتقنون العربية والسريانية للقيام بالترجمة . ولترجمة التوراة ، مع رجل يهودي ، فإنه خبر غير مؤكد ، وقد شك فيه بعض الباحثين ، وربما وضع للطعن في (البطريارك) ، وضعه خصومه عليه[1] .

ولم تأت جهود (بومشتارك) وتلامذته بنتائج مؤكدة مقبولة عن اثبات وجود كتب للصلاة بالعربية ، ترجمت من السريانية اليها قبل الاسلام[2] . ومن المحتمل أن رجال الدين كانوا يعظون نصارى العرب في الجاهلية بالعربية ، أما نصوص الصلاة ، فكانوا يلقونها عليهم بالسريانية . وربما كان الحال على هذا المنوال بالنسبة الى رجال الدين المتنقلين مع الأعراب ، فقد كانوا يتنقلون معهم ، يعلمونهم ويرشدونهم بالعربية ، ولكنهم لم يكونوا قد ترجموا كتب الصلوات ترجمة مدونة بلغتهم . وقد ورد ان رجال الدين كانوا يحملون (الدفة) معهم ، حيث تحل القبائل ، لترتيل الصلوات على المذابح المتنقلة ، فعل ذلك رجال الدين مع (بني ثعلب) وقبائل من اليمن وغيرها[3] . وينطبق ما أقوله على العرب الجنوبيين أيضاً ، فلم يعثر حتى الآن على دليل يثبت وجود ترجمات بعربيات جنوبية للتوراة أو الإنجيل أو الكتب الدينية الأخرى . ولكن هناك أخباراً يذكرها أهل الأخبار تشير الى وجود مثل هذه الترجمات ، غير اننا لا نتمكن من التسليم بها ، لما فيها من عناصر تدعو الى الشك في أمرها وعدم إمكان الأخذ بها في الوقت الحاضر .

---

١ Michael der Syrer, chronique de Michel le Syrien, II, p. 326, Paris, 1855, Georg Graf, I, 35, F. Nau, un Colloque du Patriarche Jean avec l'emir des Agaréene in Journal Asiatique, II, Ser., 5, (1915), 225 - 279.
وقد جعله « عمرو بن العاص » ، وجعله « لامانس » « سعيد بن عامر » .

٢ Islamic, 4 (1931), 562. ff.

٣ Georg Graf, I, S. 38.

وقد ورد ان عرب بلاد الشأم من لخم وجذام وغسان وقضاعة وتغلب وكلب وغيرهم ، « وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية »[1] ، وقُصد بالعبرانية السريانية، ولهذا لم يأخذ علماء اللغة عنهم . غير انهم لم يشيروا الى ما كانوا يقرأون، ويظهر انهم قصدوا بذلك الصلوات والكتب المقدسة ، يقرأونها عليهم بالسريانية وربما ترجموا ما قرأوه عليهم الى العربية .

١ المزهر (٢١٢/١) .

الفصل الثالث والاربعون بعد المئة

الخطابة

والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الفكري عند الجاهليين. وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته في الدفاع عن قومه والذبّ عنهم والتكلم باسمهم ، فهو في هذه الأمور مثل الشاعر، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء ، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم ، وأوردوا نماذج من خطبهم . ومنهم من اشتهر بنظم الشعر ، وعدّ من الفحول ، مثل عمرو بن كلثوم[1] .

قال (الجاحظ) : « وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[2] . وذكروا ان الشعراء كانوا في أرفع منزلة عند العرب،وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر الى قوم اتخذوه أداة للتكسب وسعوا به في كل مكان ، فوضعوه أمام الملوك والسوقة ، سلعة في مقابل ثمن ، واستجداءً لأكف الناس ، فأنف منه الأشراف وتجنبه السادة ، ونبهت الخطابة . وصار للخطيب شأن كبير ، ارتفع على شأن الشاعر . ولخص (الجاحظ) ذلك بقوله : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر

---

١ بلوغ الارب (١٧٤/٣) .
٢ البيان والتبيين (١١٤) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) .

الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[1] .

وكانوا يحبّون في الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ويذمون الضئيل الصوت. وأن يكون مؤثراً شديد التأثير في نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخذ بألبابهم . وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو تفاوضوا في أمر ، أو أرادوا تأجيج نيران الحروب ، أو عقد صلح ، أو البت في أي أمر جلل . ولذلك صارت الخطابة من امارات المنزلة والمكانة ، فصارت في ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم في المحافل والمجامع العظام .

وقد ذكر (الجاحظ) ، أن حمل العصا المخصرة دليل على التأهب للخطبة . والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ، ومقصور عليهم، ومنسوب اليهم . حتى انهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم ، إلفاً لها ، وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها : والإشارة بها »[2] . ولا يخطب أحدهم إلا وعنده عصاً أو مخصرة ، جرى على ذلك عرفهم حتى في الاسلام . « قال عبد الملك ابن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي » ، وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة[3] . وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسيّ ، ويشيرون بالعصا والقنا ، ومنهم من يأخذ المخصرة في خطب السلم ، والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وذكر أن من عوائدهم أن يكون الخطيب على زيّ مخصوص في العمامة واللباس[4] . وأن يخطب الخطيب وعلى رأسه عمامة ، علامة المكانة والمنزلة عند الجاهليين . وذكر أيضاً أن من عوائدهم ألا يخطب الخطيب وهو قائد إلا في خطبة النكاح . كما ذكر أن منهم من كان

---

١ البيان والتبيين (١/٢٤١) .

٢ البيان والتبيين (٦١) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر) ، (بيروت ،المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٩ م) ، البيان والتبيين (٣/١١٧) ، (هارون) .

٣ البيان والتبيين (٣/١١٩ وما بعدها) .

٤ بلوغ الارب (٣/١٥٢ وما بعدها) ، البيان (١/٣٧٠ وما بعدها) .

يخطب وهو على راحلته[1] . وذكر (الجاحظ) أن الشعوبية طعنت على « أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب ، والاتكاء والاعتماد على القوس ، والخدّ من الأرض ، والإشارة بالقضيب » . وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قليل التلفت ، نظيف البزة ، وأن يخطب قائماً على نشز من الأرض ، أو على راحلته ، وأن يحتجز عمامته ، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[2] .

وقد كان بين الخطباء من كان يقول الشعر بالإضافة الى علو شأنه بالنثر. غير ان العادة ، ان الشعراء لم يبلغوا في الخطابة مبلغ الخطباء ، وأن الخطباء دون الشعراء في الشعر . « ومن يجمع الشعر والخطابة قليل »[3]. ومن الشعراء الخطباء: (عمرو بن كلثوم) التغلبي ، و (زهير بن جناب) ، و (لبيد)[4] ، و (عامر ابن الظرب العدواني)[5] .

وذكر (الجاحظ) ان العرب استعملت الموزون ، والمقفى ، والمنثور في مساجلة الخصوم ، والرجز ، في الأعمال التي تحتاج الى تنشيط وبعث همة ، وعند مجاثاة الخصم ، وساعة المشاولة ، وفي نفس المجادلة والمحاورة ، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعملت المنثور في الأغراض الأخرى[6] ، وقال أيضاً: « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ،وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحد من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ،

---

١ البيان (١/١١٨) ، (٢/٢٠) .
٢ البيان والتبيين (٢٢) ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (انتقاء الدكتور جميل جبر ، المطبعة الكاثوليكية) ، البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها) .
٣ البيان والتبيين (١/٤٥) .
٤ ومن شعر لبيد ، قوله :
وأخلف قسا ليتني ولو أنني ... وأعيا على لقمان حكم التدبر
البيان والتبيين (١/١٨٩ ، ٣٦٥) .
٥ البيان والتبيين (١/٣٦٥) .
٦ البيان والتبيين (٣/٦ وما بعدها ، ٢٨) .

وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب»[1].

ويظهر ان من الخطباء من استعمل السجع في خطبه ، ولا سيما في المفاخرات والمنافرات وأمور التحكيم[2] ، وهو في الغالب . ومنهم من كان يستعمل الكلام المرسل وذلك في الأمور الأخرى . ولغلبة السجع على الخطب ، قال بعض علماء اللغة : « الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ونحوه »[3] .

وقسم (الجاحظ) الخطب على ضربين ، فقال: « اعلم ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين ، منها الطوال ، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذات الفقر الحسان والنتف الجياد . وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم الى حفظها أسرع »[4] .

وقد اقتضى النظام الاجتماعي والسياسي في الجاهلية أن يقيم العرب للخطابة وزناً خاصاً في المفاوضات التي تكون في داخل القبيلة للنظر في أمورها وفي شؤونها الخاصة بها في أيام السلم وفي أوقات الغزو والغارات ، في حالتي الهجوم والدفاع . وأقاموا لها وزناً خاصاً بالمناسبة للمفاوضات التي جرت بين القبائل ، أو بين القبائل والملوك . ثم في المفاخرات وفي المنافرات . فكل هذه الأمور وأشباهها استدعت ظهور أناس بلغاء اعتمدوا على حسن تصرفهم في تنظيم الكلم وفي تنسيق الجمل وفي التلاعب بالألفاظ للتأثير على القلوب والأخذ بمجامع الألباب . فربّ كلمة كانت تقيم قبيلة وتقعدها لتلاعب الخطيب بقلبها بسحر بيانه وفي كيفية اختيار ألفاظه واستخدامه مواضع الإثارة التي يعرف أنها ستثير النار الدفينة في أفئدة سامعيه.

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٨ وما بعدها) .
٢ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٣ تاج العروس (١/٢٣٨) ، (خطب) .
٤ البيان والتبيين (٢/٧) .

ولهذا كانوا لا يختارون لمن يتكلم باسم قومه إلاّ من عرف بسحر لسانه وقوة بيانه، ليتمكن بما وهب من مرونة وتفنن في كلامه من التغلب على خصمه وافحامه، ولما مات (أبو دليجة) (فضالة بن كلدة) رثاه (أوس بن حجر) بكلمة مؤثرة تعبر عن مبلغ شعوره وشعور قومه للفاجعة الأليمة التي جعلت قوم الخطيب في لبس وبلبال ، لعدم وجود من سيحل محله في الدفاع عنهم ، اذ حفلوا لدى الملوك ، فيقول :

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذْ أمسوا من الخطب في لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وافضال[1]

وندخل في الخطباء جماعة عرفت بإلقاء المواعظ والنصائح في أمور الدين والأخلاق والسلوك وفي التفكير ، وهم قوم تأثروا بالمؤثرات الثقافية التي كانت في أيامهم بسبب وجود اليهود والنصارى بينهم، وبسبب اتصالهم بالرهبان والمبشرين في داخل جزيرة العرب وفي خارجها ، فأخذوا يحثون قومهم علي التعقل والتأمل والتفكر في أمور دينهم ودنياهم ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والتقرب الى الأوثان ، وهي حجارة صلبة ، أو من خشب أو معدن لا يسمع ولا يجيب. وينسب اليهم ، انهم كانوا على دين ابراهيم، على ألسنة العربية الأولى دين الفطرة دين التوحيد . وينسب اليهم أيضاً ، انهم كانوا يقرأون ويكتبون ، لا بالعربية وحدها ، بل بالعبرانية والسريانية أيضاً ، وانهم كانوا يتدارسون التوراة والانجيل وكتب الأنبياء ، الى غير ذلك من دعاوى قد تكون وضعت عليهم . وهم قوم سبق أن تحدثت عنهم ، وقلت عنهم انهم الأحناف .

واذا درسنا الأغراض التي توخاها أهل الجاهلية من الخطابة ، نجدها تكاد تتجمع في الأمور الآتية : التحريض على القتال، وإصلاح ذات البين ، ولمّ شعث ، لكثرة ما كان يقع بينهم من تنافر وتشاحن ، ثم السفارات الى القبائل أو الملوك، لأغراض مختلفة ، مثل التهنئة والتعزية ، أو طلب حاجة ، وحلّ معضل ، أو انهاء خصومة ، ثم الجلوس لحل الديات وانهاء نيران الثأر ، ثم التفاخر والتنافر والتباهي بالأحساب والأنساب والمآثر والجاه والمال ، ثم في الوفادات حيث تقتضي

---

١ كارلو نالينو (٩٨) ، ديوان أوس (١٠٣) ، نقد الشعر لقدامة (٣٥) .

المناسبة إلقاء الخطب ، أو في الحث على التعقل والتفكر وتغيير رأي فاسد ، كما في خطب قس بن ساعدة الإيادي وفي خطب الأحناف ، ثم في المناسبات الأخرى مثل تعداد مناقب ميت ، أو خطب الإملاك وما الى ذلك .

ومن أشهر الخطب المنسوبة الى الجاهليين ، الخطب التي زعم ان (أكثم بن صيفي) ، و (حاجب بن زرارة) ، وهما من (تميم) ، و (الحارث بن ظالم)، و (قيس بن مسعود) ، وهما من (بكـر) ، و (خالد بن جعفر) ، و (علقمة بن علاثة) ، و (عامر بن الطفيل) من (بني عامر) ، قالوها في مجلس كسرى ، يوم أرسلهم (النعمان بن المنذر) اليه ، ليريه درجة فصاحة العرب ومبلغ بيانهم وعقلهم ، مما أثار إعجاب (كسرى) بهم ، حتى عجز عن تفضيل أحدهم على الآخر ، مما جعله يقـر ويعترف بذكاء العـرب وبقوة بيانهم وبقوة عقلهم ، فقدرهـم لذلك حق قدرهم وأكرمهم . وهـي خطب مصنوعة موضوعة ، قد تكون من وضع جماعة أرادت بها الرد على الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من قدر العرب ، ومن لسان العرب ، ومن دعوى الإعجاز في لغتهم، فصنعت هذا المجلس ، وعملت تلك المحاورة والخطب في الرد عليهم،وهي تتناول صميم ذلك الجدل .

وأكثر ما نسب الى زيد وأمثاله من الأحناف مختلق ، وضع عليهم فيما بعد . وأكثر ما ورد عنهم في شرح حياتهم هو من هذا النوع الذي يحتاج الى إثبات .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من الجاهليين قالوا عنهم إنهم كانوا مـن خطباء الجاهلية المشهورين المعروفين ، وقد أدخلوا بعضهم في المُعَمَّرين . والمُعَمَّر في عرفهم من بلغ عشرين ومئة سنة فصاعداً ، وإلاّ ، لم يعدوه من المعمرين[1] . وعلى رأس من ذكروا : (دويد بن زيد بن نهـد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميري)، فهو إذن من حمير . وقد ذكر أنه عاش أربع مئة سنة وستاً وخمسين سنة ، ونسبوا اليه وصية أوصى بها بنيه[2] . ولكنهم لم يذكروا متى عاش ، وفي أي زمان مات ، وكيف أوصى بنيه بهذه اللهجة الحجازية ، لهجة القرآن الكريم، وهو من حمير ، وحمير لها لسانها وكتابتها .

---

١ بلوغ الارب (١٥٧/٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (١٥٧/٣ وما بعدها) .

وذكر أهل الأخبار اسم (زهير بن جناب بن هبل) في ضمن المشهورين في قوة البيان والفصاحة والمنطق عند الجاهليين ، ويذكرون أنه كان على عهد (كليب ابن وائل) ، وانه كان لسداد رأيه كاهناً ، ولم تجتمع قضاعة إلا عليه وعلى (رزاح بن ربيعة) ، وقالوا إنه : « كان سيد قومه وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم »[1] . وقد ذكروا له وصية أوصى بها بنيه، وأبيات شعر ، زعموا أنه نظمها .

وذكروا أيضاً (مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معديكرب بن مضحى)، زعموا أنه كان قيلاً حدباً على عشيرته،محباً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء وأخطب الخطباء ، وزعموا أيضاً أنه أصلح بين القيلين : (سبيع بن الحرث) و (ميثم بن مثوب بن ذي رعين) ، وأوردوا ما دار بينهم من نقاش وحوار[2] ضبطوه وسجلوه ، حتى لكأن كاتب ضبط كان حاضراً بينهم كُلّف تسجيل محضر ذلك الحديث .

وعدّ (الحارث بن كعب المذحجي) من هذه الطبقة البليغة التي اشتهرت بسحر البيان . وقد زعم أهل الأخبار أنه كان على دين (شعيب) النبيّ ، وهو دين لم يكن قد دخل فيه غيره وغير (أسد بن خزيمة) و (تميم بن مرّ) . وقد ذكروا له وصيّة لأبنائه ، أوصاهم بها حين شعر بدنو أجله ، بعد أن عاش على زعمهم ستين ومئة سنة[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن هذا الدين ، دين شعيب . وليس في الوصية المنسوبة اليه ما يميزه عن غيره من الخطباء ، مثل قس بن ساعدة الايادي أو غيره من المتألهين الرافضين لعبادة الأوثان .

وعدّ علماء الأخبار كعب بن لؤي في جملة الخطباء القدماء ، وذكروا انه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة على البر . وكان رجلاً طيباً خيراً ،

---

١ الاغاني (٢١/ ٩٣ وما بعدها) . بلوغ الارب (٣/ ١٥٩) .

٢ بلوغ الارب (٣/ ١٦١ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٣/ ١٦٤) .

فلما مات ، أكبروا موته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل[1] .

وكان ابن عمار عمرو بن عمار الطائي خطيب مذحج كلها ، وكان شاعراً كذلك ، فبلغ النعمان حسن حديثه ، فاستدعاه ، وحمله على منادمته . وكان النعمان أحمر العينين والجلد والشعر ، وكان شديد العربدة ، قتالاً للندماء ، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته ، ولكنه لم ينته ، فلما قتله النعمان ، رثاه أبو قردودة ، وهجا النعمان[2] .

وعدّوا (عبد المطلب) في جملة خطباء قريش ، الذين كانوا يخطبون في الملمات وفي الأمور العظيمة ، وكان وافد أهل مكه على ملوك اليمن ، فإذا مات ملك منهم ، أو تولى ملك منهم العرش ، ذهب الى اليمن معزياً ومهنئاً . فهو خطيب القوم اذن[3] .

ومن خطباء (غطفان) في الجاهلية : (خويلد بن عمرو) ، و (العُشَراء بن جابر) من (بني فزارة) ، وخويلد خطيب يوم الفجار[4] .

وأما بقية من ذكر أهل الأخبار من خطباء الجاهلية ، فهم : (أبو الطّمَحان القيني) ، واسمه حنظلة بن الشرقي من (بني كنانة بن القين)[5] ، و (ذو الاصبع العدواني) وهو من حكام العرب كذلك[6] ، و (أوس بن حارثة)[7] ، و (أكثم ابن صيفي التميمي) ، وهو من حكام العرب أيضاً . وقد ذكر ان (يزيد بن المهلب) كان يسلك طريقته في خطبه ووصاياه[8] ، و (عمرو بن كلثوم) ، وهو من الخطباء الشعراء البارزين في الفنين . وقد ذكروا له خطبة نصح ووصية ذكروا انه أوصى بها بنيه ، في الأدب والسلوك[9] ، و (نعيم بن ثعلبة الكناني) ،

---

١ البيان (١/٣٥١) ، (هارون) .
٢ البيان (١/٢٢٢ وما بعدها ، ٣٤٩) ، البيان والتبيين (١/٣٤٩) ، (هارون) .
٣ الاشتقاق (٤٣) .
٤ البيان والتبيين (١/٣٥١) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٦٨ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/١٦٩ وما بعدها) .
٧ بلوغ الارب (٣/١٧٠ وما بعدها) .
٨ بلوغ الارب (٣/١٧٢ وما بعدها) .
٩ بلوغ الارب (٣/١٧٤) .

وكان ناسئاً ، ينسيء الشهور ، وقيل : انه أول من نسأها . وكان يخطب في الموسم[1] ، و (أبو سيّارة العدواني) ، واسمه (عميلة بن خالد الأعزل)[2] ، و (الحارث بن ذبيان بن لجأ بن منهب اليماني)[3] .

وفي الملمات والأوقات العصيبة وفي الوفدات على الملوك يُختار خيرة الخطباء المتكلمين المعروفين بأصالة الرأي وبسرعة البديهة والجواب ، ليبيضوا الأوجه ، ويؤدوا المهمة على أحسن وجه . ولما قدم النعمان بن المنذر الحيرة ، بعد زيارته لكسرى،وتفاخره عنده بقومه العرب،وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث الى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحارث بن عباد (الحارث بن ظالم) ، وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري ، وهم خيرة من عرفهم في أيامه بالأصالة في الرأي وبقوة البيان ، وطلب منهم الذهاب الى كسرى والتكلم معه ، ليعرف عقل العرب وصفاء ذهنها . فذهبوا وتكلموا ، فأعجب بهم ، وقدرهم حق تقدير[4] .

وذكر عن حاجب بن زرارة : أنه وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق ، فاستأذن عليه ، وتحدث معه ، فأرضاه ، وأذن عندئذ لتميم أن يدخلوا الريف . وقد وفد ابنه عُطارد على كسرى أيضاً بعد وفاة والده[5] .

وأدرك (الربيع بن ضبيع الفزاري) الاسلام كذلك ، ويذكر أهل الأخبار أنه أدرك أيام عبد الملك بن مروان[6] . وإذا كان هذا صحيحاً ، فيجب أن يكون قد عاش معظم أيامه في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان طفلاً ، أو شاباً ، وإن ذكر أهل الأخبار أنه كان من المعمرين .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٧٥ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٣/١٧٦) .

٣ بلوغ الارب (٣/١٧٧ وما بعدها) .

٤ العقد الفريد (٢/٤ وما بعدها) « وفود العرب على كسرى » .

٥ العقد الفريد (٢/٢٠) .

٦ بلوغ الارب (٣/١٦٦) ، أمالي المرتضى (١/١٨٣) ، الاقتضاب (٣٦٩) ، الدرر اللوامع (١/٢١٠) .

ومن الخطباء عطارد بن حاجب بن زرارة ، وقد خطب أمام الرسول[1] . ومن خطباء غطفان في الجاهلية : خويلد بن عمرو ، والعشراء بن جابر بن عقيل[2]. وكان الأسود بن كعب ، المعروف بالكذاب العنسي ، الذي ادعى النبوة من الخطباء كذلك[3] .

وذكر أهل الأخبار اسم : (قيس بن عامر بن الظرب) ، و (غيلان بن سلمة الثقفي) في جملة حكام العرب . وذكروا انه كان قد خصص يوماً له يحكم فيه بين الناس ، ويوماً ينشد فيه شعره . وذكروا من حكام قريش عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وأبا طالب والعاص بن وائل[4] .

وعدّوا (قيس بن زهير العبسي) من خطباء الجاهلية المعروفين ، وقد ذكروا عنه انه جاور (النمرَ بن قاسط) بعد (يوم الهباءة) ، وتزوج منهم . ثم رحل عنهم الى (عمار) ، فتنصر بها ، وعف عن المآكل ، حتى أكل الحنظل الى ان مات[5] . وله أمثلة مذكورة في كتب الأمثال[6] . وقيل فيه : « أدهى من قيس بن زهير » ، ومن أقواله : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » ، وله أمثال عديدة[7] . وذكر انه طرد إبلاً لبني زياد ، وباعها من عبدالله بن جدعان ، وقال في ذلك شعراً[8] .

وأما (سحبان بن زفر بن إياس) المعروف بـ (سحبان بن وائل الباهلي) ، فإنه خطيب ضرب به المثل في الفصاحة فيقال : (أخطب من سحبان وائل) ، و (أفصح من سحبان وائل) ، و (أنطق من سحبان) ، و (أبلغ من سحبان) ، لمن يريدون مدحه واعطاءه صفة البيان . وذكر أنه عاش في الجاهلية

---

١ البيان (٣٢٨/١) .
٢ البيان (٣٥٠/١ وما بعدها) .
٣ البيان (٣٥٩/١) .
٤ مجمع الامثال (٤١/١) .
٥ بلوغ الارب (١٦٥/٣ وما بعدها) .
٦ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (٢٦٨/١ ، ٢٩٩) .
٧ جمهرة الامثال (٤٥٧/١) .
٨ جمهرة الامثال (٣٤٤/١) .

وعاش في الاسلام حتى أدرك أيام معاوية[1] . وقد عرف بخطبته (الشوهـــاء) ، قيل لها ذلك لحسنها . وذلك انه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب[2] . « وكان اذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر بل كان يسيل سيلاً »[3] . وقد ورد انه توفي سنة (٥٤ هـ)[4] .

ذكر انه دخل على معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا ، لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحي اليمانون انني   اذا قلت أما بعد اني خطيبها

فقال له معاوية : أخطب ، فطلب عصا ، فلما أحضرت له خطب جملـــة ساعات ، فقال له معاوية : أنتَ أخطب العرب ، قال : أو العرب وحدها ، بل أخطبُ الجن والانس[5] .

وقد اشتهرت إياد وتميم بالخطابة وبشدة عارضة خطبائها وبقوة بيانهم[6] . وقد ذكر ان معاوية ذكر تميماً ، فقال : « لقد أوتيت تميم الحكمة ، مع رقة حواشي الكلم »[7] . وهناك قبائل أخرى أخرجت خطبـاء مشهورين ، نسبت اليهم خطب بليغة . وقد يكون من الأعمال المفيدة النافعة ، وضع دراسة خاصة بعدد الخطباء الذين نبغوا في القبائل ، وبدراسة خطبهم ، وبمساكن أولئك الخطبـــاء ومهاجر قبائلهم ، فإن دراسة علمية مثل هذه تعيننا كثيراً على الوقوف على تطور هـــذه اللغة العربية التي نزل بها القـرآن الكريم ، والقبائل التي تكلمت بها سليقةً وطبعاً .

وذكر (الجاحظ) أن شأن (عبد القيس) عجب ، « وذلك أنهم بعـــد

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٦) ، تاج العروس (١/٢٩٤) ، (سحب) ، ثمار القلـــوب (١٠٢ وما بعدها) ٠

٢ البيان (١/٣٤٨) ، (لجنة) ، وعرفت خطبة قيس بن خارجة بالعذراء ٠

٣ الاصابة (٢/١٠٨) ، (رقم ٣٦٦٣) ٠

٤ كارلو نالينو (١١٨) ٠

٥ أبو هلال العسكري ، جمهرة الامثال (١/٢٤٨ وما بعدها) ٠

٦ البيان والتبيين (١/٥٣) ٠

٧ البيان والتبيين (١/٥٤) ٠

محاربة إياد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة . وهذا عجب »[1] . وذكر (الجاحظ) أن (معاوية) كان يعجب من فصاحة (عبد القيس) ، ولما اجتمع بـ (صحار ابن العباس) (صحار بن العياش) ، المعروف بـ (صحار العبدي) ، عجب من بلاغته وفصاحته ، فقال له ، ما هذه البلاغة فيكم ؟ قال : شيء يختلج في صدورنا ، فنقذفه كما يقذف البحر بزبده . قال : فما البلاغة ؟ قال : أن تقول فلا تبطيء ، وتصيب فلا تخطيء[2] . وورد في (كتاب الحيوان) ، للجاحظ ، أنه قال له : « ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء»[3]. وله كلام فيما يجب أن يقال عند تذكر الاحسان[4] .

وكان نسابة ، وله مع (دغفل) النسابة محاورات[5] . وقد ذكر (ابن النديم) ، أن له من الكتب : (كتاب الأمثال)[6] ، وقد أشاد (الجاحظ) بعلمه في الأنساب ، وذكره فيمن ذكر ممن ألف في كتب النسب ، من أمثال (ابن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) ، و (أبي اليقظان) ، و (أبي عبيدة) ، و (دغفل بن حنظلة) النسابة ، و (ابن لسان الحمرة) ، و (ابن النطاح) اللخمي[7] .

وكان لبني عبد القيس ، اتصال بمكة قبل الاسلام ، لهم معها تجارة . يرسلون اليها التمر والملاحف والثيساب والتجارة المستوردة من الهند . وقد أشير اليها في خبر إسلام (الأشج) : (أشج) عبد القيس ، واسمه (المنذر بن عائذ بن الحارث بن المنذر بن النعمان) العبدي . فقد أرسل ابن أخته (عمرو بن عبد القيس).

---

١ البيان والتبيين وأهم الرسائل ، انتقاء الدكتور جميل جبر ، (بيروت ١٩٥٩ م) ، (المطبعة الكاثوليكية) ، (ص ٢٤) .
٢ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) ، البيان والتبيين (١/٩٦) ، المصون (١٣٩).
٣ الحيوان (١/٩٠ وما بعدها) .
٤ الحيوان (٣/٣٦٧) .
٥ الاصابة (٢/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٦ الفهرست (١٢٨) ، (المقالة الثالثة) .
٧ الحيوان (٣/٢٠٩) .

الى مكة عام الهجرة ، ومعه تجارة من تمر وملاحف ، فلقيه النبي ، وهداه الى الاسلام ، وكان مثل قومه نصرانياً ، فأسلم ، وتعلم سورة الحمد واقرأ باسم ربك ، فلما باع تجارته وعاد، أخبر خاله (الأشج) بإسلامه ، فأسلم وكتم إسلامه حيناً ، فلما كان عام الفتح ، خرج مع وفد من أهل (هجر) وعبد القيس ، وصل المدينة ، وقابل الرسول ، وأعلنوا إسلامهم ، فقدموا بلادهم،وحوّلوا (البيعة) مسجداً[1] .

وممن اشتهر من (بني عبد القيس) بالخطابة والفصاحة : (صعصعة بن صوحان) العبدي ، وأخواه : (سيحان) و (زيد) . وقد شهد (صفّين) مع (علي) ، وكانت له مواقف مع معاوية ، وقد مات في خلافته . « وقال الشعبي كنت أتعلم منه الخطب » ، وله شعر[2] .

وذكر في أثناء تحدث أهل الأخبار عن (الردة) وادعاء (لقيط بن مالك) الأزدي النبوة ، ان (الحارث بن راشد) ، و (صيحان بن صوحان) العبدي جاءا على رأس مدد من (بني ناجية) و (عبد القيس) ، لمساعدة (عكرمة) و (عرفجة) ، و (جبير) ، و (عبيد) ، فاستعلاهم ، فلما وصل المدد انهزم (لقيط) ، وقتل ممن كان معه عشرة آلاف[3] . ولعل (صيحان) هذا هو أخ (صعصعة بن صوحان) .

ومن منازل (عبد القيس) (دارين) و (الزارة) ، وكان بها رهبان وبيع[4] ، ويظهر ان النصرانية كانت متفشية بين (عبد القيس) ، وردت اليها من العراق . وكان (بنو عبد القيس) من العرب المتحضرين بالنسبة الى أعراب البوادي ، ولهم اتصال بالعالم الخارجي ، وقد قام المبشرون بنشر الكتابة بينهم ، ولا بد وأن تكون كتابتهم بالقلم العربي الشمالي ، الذي كان يكتب به النصارى العرب . ونجد في قرى البحرين أناساً من مختلف الأجناس ، بسبب اتصالها بالبحر

---

١ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) ، (٣/٥) ، (رقم ٥٩٠٣) .
٢ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) ، البيان (١/٩٦) ، جمهرة الامثال (٢/١٤٤) .
٣ الاصابة (٢/١٩٣) ، (٤١٣٣) .
٤ الاصابة (٢/١٧١) ، (رقم ٤٠٤١) .

ومجيء الأقوام اليها من الهند وايران والعراق ، فظهرت فيها ثقافة ، امتصت غذاءها من مختلف الثقافات .

وهناك من اشتهر بالخطابة وكان قريب عهد من الاسلام ، أو أدركه وأسلم، منهم : (قس بن ساعدة الإيادي) . وقد رآه الرسول ، وسمعه يتكلم ، وهو راكب على جمل أورق . ويذكر أن الرسول قـال : « يرحم الله قساً ، إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »[1] . وقد عدّه بعض الباحثين من النصارى، ولكن معظم أهل الأخبار يرى أنه كان على الحنيفية ، أي على التوحيد ، لا هو من يهود ، ولا هو من النصارى[2] .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه « كان من حكماء العرب وأعقل من سمع به منهم وهو أول من كتب من فلان الى فلان ، وأول من أقر بالبعث من غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على مـن ادعى واليمين على من أنكر »[3] . وأنه أول من خطب على شرف ، وأول من اتكأ عند خطبتـه على سيف أو عصا[4] . وكان أحكم حكماء العرب ، وأبلغ وأعقل من سمع به من إياد . وبه ضرب المثل في الخطابة والبلاغة[5] . روي أن الرسول سمع كلام (قس ابن ساعدة) الإيادي ورواه ، ذكر (الجاحـظ) أن رسول الله « هو الذي روى كلام (قس بن ساعدة) وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهـو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه »[6] . وذكر في موضع آخر من كتابه (البيان والتبيين) أن الرسول قال : « رأيتـه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعـوا وعُوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٥٥) ، نزهة الجليس (١/٤٢٩) .

٢ المصدر نفسه .

٣ مجمع الامثال (١/١١٧) ، جمهرة الامثال (١/٢٤٩) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الخزانـة (٢/٩٠) ، (عبـد السلام محمد هارون) .

٥ ثمار القلوب (١٢١ وما بعدها ، ١٢٧) .

٦ البيان والتبيين (١/٥٢) .

وهو القائل في هذه : آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر وآثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا .

وهو القائل : يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد . أين المعروف الذي لا يشكر ، والظلم الذي لم يذكر ، أقسم قس قسماً بالله ، إن لله ديناً هو أرضى له من دينكم هذا .

وأنشدوا له :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها بصائر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر[1]

وقد اشتهر قس بخطبته التي خطبها بسوق عكاظ ، وبأبيات من الشعر رويت عن (أبي بكر الصديق) . وبفصاحته وبلاغته ضرب المثل ، فقيل: « أبلغ من قس »[2] . وقد استشهد ببعض شعر (قس) في كتب الشواهد[3] . وذكر انه أول من قال : أما بعد في العرب .

وفي رواية من روايات أهل الأخبار : ان أول من قال : « أما بعد » ، هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة[4] . زعيم قريش ، وأحد خطبائها المشهورين .

---

١ البيان والتبيين (٣٠٨/١) .
٢ مجمع الامثال (١١٧/١) ، البيان والتبيين (٣٠٩/١) .
٣ الخزانة (٢٦٣/١) ، (بولاق) .
٤ المرزباني ، معجم الشعراء (ص ٣٤١) ، الخزانة (٣٤٧/٤) ، (بولاق) ، (الشاهد السابع والستون بعد الثمانمائة) .

وذكر بعض أهل الأخبار : أنه قيل لقُس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة : قال : معرفة الرجل نفسه ، قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قيل له : فما أفضلُ المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجه[1] .

وقد وردت في الخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة الإيادي هذه الجملة : « إن في السماء لخبراً » . ويلاحظ أن العبرانيين كانوا يراقبون السماء لأخذ الأخبار عما سيقع لهم من أحداث منها . وقد تخصص بذلك نفر منهم ، عرفوا بـ (خبرى شمايم) ، أي المخبرون عما يقع في السماء ؛ و (قـرى شمايم) ، أي قراء السماء[2] . وكان العرب يراقبون السماء كذلك ، استطلاعاً للأخبار ، وفي الجملة المنسوبة الى (قس) تعبير عن ارتقابه وقوع أمر مهم .

و (قس) من المعمرين ، زعم بعض أهل الأخبار أنه عمر سبعمائة سنة ، وزعم بعض آخر أنه عاش ثلثمائة وثمانين سنة ، « وقال المرزباني : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة » . وقال بعضهم انه أدرك نبيّنا ، وسمعه ، وجعلـه بعضهم في الصحابة ، وأماته بعضهم قبل البعثة . وقـال قوم إنه أول من آمن بالبعث من أصل الجاهلية[3] . وفي الذي يرويه أهل الأخبار عـن خطبة قس ورواية النبي لها تصادم في الروايات . وقد ذكر ذلك العلماء[4] ، واني أرى أن القصة موضوعة ، وهي من هذا النوع الذي وضع للتبشير بقرب ظهـور دين جديد .

وقد أشير الى قس في أبيات نسبت الى الحطيئة والأعشى ولبيد . وقد ضرب الحطيئة به المثل في البيان ، وبقوة تأثيره في نفوس السامعين . أما الأعشى فقـد وصفه بالحلم ، وأما لبيد فقد قال فيه :

وأخلفن قساً ليتني ولعلني وأعيا على لقمان حكم التدبر

---

١ العقد الفريد (٢/٢٥٤) .

٢ Hastings, Dict., Vol., I, p. 194.

٣ الخزانة (٢/٨٩ وما بعدها) ، (عبد السلام محمد هارون) ، البيان والتبيين (١/٥٢) ، (عبد السلام محمد هارون) ، الخزانة (١/٢٦٣) ، (بولاق) .

٤ السيرة الحلبية (١/٢١٠) ، اللآلىء (١/٩٥) .

ويقولون : وانما قال ذلك لبيد ، لقول قس :

هل الغيب معطى الأمن عند نزوله بحال مسيء في الأمور ومحسن
وما قد تولى فهو لا شك فائت فهل ينفعني ليتني ولعلني ؟

ونسبوا اليه أبياتاً من الشعر[1] .

وورد ان (الجارود بن عبدالله) من (بني عبد القيس) ، وكان سيداً في قومه لما قدم على رسول الله ، وأسلم مع قومه ، قال له الرسول : « يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا من بين يـدي القوم كنت أقفو أثره . كان من أسباط العرب فصيحاً ، عمّر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ، فهو أول من تأله من العرب ، كأني أنظر اليه يقسم بالرب الذي هو له ليبلغن الكتاب أجله وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكار وليالٍ خلا لهنّ نهارُ

في أبيات آخرها :

والذي قد ذكرتُ دلّ على الله نفوساً لها هدى واعتبار

فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : عـلى رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن اني أحفظه . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، فإني أحفظـه : كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته : يا أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتـم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، الى آخر ما أورده من الوعظ »[2] .

و (الجارود) ، هو (بشر بن عمرو بن حنش بن النعمان) ، وقيل هـو

---

١ المرزباني ، معجم (ص ٣٣٨) .
٢ الخزانة (٢/٨٩) ، سيرة ابن سيد الناس (١/٦٩) .

(أبو المُعلى) ، (الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة)[1] ، وقيل: (الجارود بن المعلى) ، ويقال ابن عمرو بن المعلى ، وقيل الجارود بن العلاء ، وقيل الجارود بن عمرو بن حنش ، وقيل اسمه بشر بن حنش ، الى غير ذلك من أقوال تدل على اضطراب أهل الأخبار في معرفته ، وكان نصرانياً ، وكان شاعراً ، وأوردوا له شعراً يعلن إيمانه بالرسول ، وبأنه حنيف حيث كان من الأرض . قيل إنه قتل بفارس في أيام عمر سنة (٢١) ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

وذكر (الجاحظ) أن من خطباء العرب : (الصباح بن شفي) الحميري، زعم أنه كان من أخطب العرب ، وقيس بن شمّاس ، وثابت بن قيس بن شماس ، خطيب النبي ، فقد أوكله الرسول بالردّ على خطاب من كان يخطب أمامه من الوفود ، فهو الناطق باسمه بالنثر ، كما كان (حسان) الناطق باسم الرسول شعراً . وذكر أن من خطباء العرب (الأسود العنسي) ، و (طليحة ابن خويلد) الأسدي، تنبأ في خلافة أبي بكر في بني أسد بن خزيمة ، وعاضده (عيينة بن حصن) الفزاري ، فوجه (أبو بكر) اليه خالد بن الوليد، فهزمه، وأسر (عيينة) سنة (١١) للهجرة ، وقد أسلم (طليحة) ، واستشهد بنهاوند سنة (١١) من الهجرة[3] . وذكر (الجاحظ) : (مسيلمة) بعد (طليحة) ، فقال : « وكان مسيلمة الكذّاب ، بعيداً عن ذلك كله »[4] ، أي انه نفى الخطابة عنه .

ومن الخطباء النابهين أصحاب الرأي والبيان ، خطيب عاش في الجاهلية والاسلام وقد أسلم وحسن إسلامه ، هو : سهيل بن عمرو الأعلم ، أحد بني حِسْل بن معيص . يقال انه كان مؤثراً جداً ، أخاذاً يأخذ بعقول الناس ، حتّى ذكر ان عمر قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، انزع ثنيتيه السفليين حتّى يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

١ خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات (٦١) .
٢ الاصابة (٢١٨/١) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .
٤ البيان والتبيين (٣٥٩/١) .

لا أمثل ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً . دعه يا عمـــر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده . فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، قام خطيباً ، فقال : « أيها الناس ، إن يكن محمـــد قد مات ، فالله حي لم يمت ، وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بـرّ ، وجاريةً في بحـــر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ، إن لم يتم الأمر ، أن أردها عليـــكم » . فسكن الناس[1] .

وهو الذي قال يوم خرج آذن عمر ، وبالباب عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلان ، وفلان ، فقال الآذن : أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ أين عمار ؟ فتمعرت وجوه القوم ، فقال سهيل : لمَ تتمعر وجوهـــكم ؟ دُعُوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعدّ الله لهـم في الجنة أكثر[2] . وفي هذا الجواب دلالة على عقـــل فاهم للواجب مدرك لمهمات رئيس الدولة، ولما يجب أن تقوم الحكومة عليه ، لا يبالي بالعنعنات القديمة وبالعرف القبيلي الجاهلي .

وروي « أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتد من ارتد من العرب ، قام سهيل بن عمرو خطيباً . فقال : واللهِ إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعهـــا الى غروبها ، فلا يغرنـكم هذا من أنفسكم – يعني أبا سفيان – ، فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكنه قـــد جثم عـــلى صدره حسد بـني هاشم . وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمدينة »[3] . وقد كان مخلصاً في عقيدته مطيعاً لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر « الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو

---

١ البيان (٣١٧/١) ، (من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) ،الاصابة (٢٩/٢) ، (وقم ٣٥٧٣) ، الاستيعـــــاب (١٠٧/٢ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٥٨/١) ، (عبد السلام محمد هارون) .

٢ البيان (٣١٧/١) « لجنة » .

٣ الاستيعاب (١٠٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) ، البيان والتبيين (٣١٧/١) .

وأبو سفيان بن حرب ، وأولئك الشيوخ من قريش ، فخرج آذنه . فجعل يأذن لأهل بدر ، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم . وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ! انه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت الينا ! فقال سهيل بن عمرو ، وقال الحسن : ويا له من رجل ، ما كان أعقله ، أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه . ثم قال : أيها القوم ! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله الى ما سبقوكم اليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة ، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام »[1] . فالرجل مؤمن ، صاحب مبدأ ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم ، لا بالرئاسة والنسب والجاه ، كما كان يريد أبو سفيان وقومه .

وقد نعت بـ (خطيب قريش)[2] ، لفصاحته وقوة بيانه ، ولهذا اختارته قريش ليكون لسانها حين فاوضت الرسول على الصلح في الحديبية . وقد تكلم فأطال الكلام وتراجع مع الرسول حتى وافق على تدوين كتاب الصلح[3] . وكان هو لسان قريش يوم وضع الرسول يده على عضادتي باب الكعبة ، فقال : « ما تقولون » ؟ فقال سهيل : « نقول خيراً ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت »[4] .

وتعد (ابنة الخس هند الإيادية) ، وهي بنت (الخس بن حابس) ، رجل من إياد ، من النساء المعروفات بالفصاحة . وقد رووا عنها الأمثال . وذكر ان والدها هو (خس بن حابس بن قريط) الإيادي . وقال بعض أهل الأخبار ان ابنة الخس من (العماليق) . والإيادية هي (جمعة بنت حابس) الإيادي ،

---

١ الاستيعاب (١٠٩/٢ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٩٢/٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .
٣ الطبري (٦٣٣/٢ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٩٢/٢) ، (رقم ٣٥٧٣) .

وكلتاهما من الفصاح . وذكر بعض آخر ، ان الصواب ان ابنة الخس المشهورة بالفصاحة واحدة ، وهي من (بني إياد) . واختلف في اسمها ، فقيل هند وقيل جمعة . ومن قال انها بنت حابس ، فقد نسبها الى جدها[1] .

وممن ضرب به المثل في الفصاحه (سحبان بن زفر بن إياس) الوائلي ، وائل باهلة . خطيب مفصح يضرب به المثل في البيان ، أدرك الجاهلية وأسلم ، ومات سنة (٥٤ هـ)[2] . شهرته في الاسلام ، كشهرة (قس) في الجاهلية . واشتهر (هيذان بن شيخ) (هيدان بن سنح) ، بكونه خطيب (عبس) ، وذكر أن النبي قال للنابغة الجعدي : لا يفضض الله فاك ، وقال لهيذان : رب خطيب من عبس[3] .

والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن اسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء . ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء ، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الاسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين . بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الاسلام . ففي المناسبات مثل عقد زواج ، لا بد للخاطب من خطبة يخطبها أمام العروس والحاضرين ، يذكر فيها مناقب موكله ومناقب الأسرة التي رغب العروس في مصاهرتها ولعلها هي التي حملت الناس على نعت هذه المناسبة بـ (الخِطْبة) و (بخطبة العروس) ، حتى قيل : « جاء يَخْطِبُ فلانة لفلان » ، وان فرق العلماء بين (الخُطبة) التي هي الموعظة والكلام ، وبين (الخِطبة) التي هي طلب المرأة ، بالحركة ، فذكروا أن الأولى هي بضم الخاء والثانية بكسرها[4] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) .

٢ الخزانة (٤/٣٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) .

٣ البيان والتبيين (١/٢٧٣) ، الاصابة (٣/٥٨١) ، (رقم ٩٠٢٨) .

٤ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ١٥٠) .

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت الى خطباء جاهلين ، يخرج المرء من قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنهـا ، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل ، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصلية كتبها الخطباء بأنفسهم ، أو دونها كتاب شهود كانوا حضوراً وقت القاء الخطب . ونحن وإن تعودنا على اعتبار هـذه الخطب ، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة . لكننا لا نستطيع اقناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا . واذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب اليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة الى خطباء الجاهليـة ، هي نصوص دقيقة صحيحة ، أو ان أكثرها صحيح لا شك لأحد في صحته ، وذلك لأسباب: منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم « وكان الخطيبُ من العـرب اذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص »[1] ، ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة (قس بن ساعدة) ، ومنهم أناس حضروا خطابه ، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهليين تبلغ عدة صفحات .

وكيف يصدق انسان بصحة ما ينسب الى الجاهليين من خطب وأقوال ، وهو يعلم ان خطبة (حجة الوداع) ، قد اختلف الـرواة في رواية نصها اختلافـاً كبيراً[2] ، واذا كانوا قـد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعـد من أهم خطب الرسول ، لما جاء فيها من بيان وأحكام ، وكلام الرسول أفضل كلام للمسلم ، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهليين ، على انه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى ! واذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله بالمعنى ، لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص ، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهليين ، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى ،مع ان كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول في نظر المسلمين من دون شك .

---

١ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .

٢ راجع نصها في تاريخ اليعقوبي (٢/٩٩ وما بعدها) ، (طبعة النجف) .

والأمر بالنسبة للشعر الجاهلي من حيث الصنعة والافتعال أهون أمراً في نظري من موضوع الخطب الجاهلية ، فالشعر كلام موزون مقفى وهو غير طويل ، يمكن حفظه بسهولة ، ويمكن خزنه في الذهن أمداً طويلاً ، أما النثر ، فليس من السهل حفظه حرفياً ؛ واذا حفظ ، فلا يمكن للذاكرة مهما كانت قوية أن تحافظ على صفائه الى أجل طويل ، لا سيما اذا كانت الخطب طويلة ، لا تعاد قراءتها إلا في المناسبات . وللسبب المذكور ولخوف المسلمين من التقول على الرسول بما لم يقله من حروف وألفاظ وجمل ، جوّزوا رواية حديثه بالمعنى ، لصعوبة حفظ النص ، فهل تعد خطب الجاهليين أكثر أهمية من حديث الرسول ، حتى نقول انها نصوص مضبوطة صحيحة ، لا غبار على صحتها ، ولا شك من نصها !

وطابع الخطب ، السجع وقصر الجمل والإكثار من الحكم والأمثال ، والتفصيل والإزدواج . ويرد غالب السجع في كلام الكهان لذلك وسم بهم ، فقيل (سجع الكهان) . والسجع في كلام العرب أن يأتلف أواخر الكلم على نسق كما تأتلف القوافي ، وأن يكون في الكلام فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وذكر أن الرسول قال لأحدهم وكان يتكلم سجعاً : أسجع كسجع الكهان ! وفي رواية إياكم وسجع الكهان ، وفي الحديث أنه نهى عن السجع في الدعاء . وإنما كره السجع في الكلام لمشاكلته كلام الكهنة[1] . قال (الجاحظ) : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيّاً من الجنّ ، مثل حازي جُهينة ، ومثل شق وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ؛ كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجدُ بني العشراء، للمجد والسّناء » . « فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم

---

١ تاج العروس (٥/٣٧٦) ، (سجع) .

وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلّة زال التحريم » . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في ذلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهونهم[1] . واتبع الخطباء في الاسلام وبعض الكتاب اسلوب السجع في خطبهم وفي كتبهم ، ولا زال السجع محبوباً عند كثير من الناس ، ولهذا فهم يكتبون به .

وأغلب الخطباء هم سادات قبائل وأشراف من أهل القرى ومن أصحاب المكانة والجاه والكهنة والحكام . ومنازلهم تحتم عليهم الخطابة في المناسبات ، لأنهم ألسنة قومهم ، فللكلام أثر في نفوس العرب ، يثير الحرب ويهدىء الأعصاب ويعقد السلم ، ويفض المشكل ، فصار من ثم للخطيب أثر كبير في الجاهلية . وكانت القبائل تفتخر بكثرة ما عندها من خطباء . وذكر (الجاحظ) أن رجلاً من حمير قام في مجلس لمعاوية اجتمع فيه الخطباء ، فقال : إنا لا نطيق أفواه الكيال ، عليهم المقال ، وعلينا الفعال[2] . ومعناه : إنا لا نستطيع الكلام كما يفعل غيرنا ، ولذلك فأنا لا أريد أن أتسابق معهم ، ثم اننا معشر عمل لا قول. و (الكمال) ، بمعنى الجمال ، جمع جمل، نطق بها بالكاف على لغة أهل اليمن القديمة ، لأن لسان حمير ينطق الجيم كافاً مفخمة .

ويلاحظ أن اكثر الذي ذكره أهل الأخبار من كلام الخطباء ، هو وصايا زعم أهل الأخبار أن أولئك الخطباء أوصوا بها أبناءهم ، وذلك حين تقدمت بهم السن ، وحين شعروا بدنو أجلهم . وهي تمثل خلاصة تجارب الموصي ومجمل ما حصل عليه من اختبارات في هذه الحياة . وهي على الجملة حكم ، وآراء في الدنيا ، ومواعظ ، لا تخطر إلا على بال رجل سئم من الحياة ويئس منها ، أو من زاهد متصوف متدين يؤمن بإله وبحساب وكتاب ، وجد ان الحياة مدبرة ، وانها زائلة فانية ، لا تدوم لأحد ، لذلك يريد أن يوصي أبناءه بما وجده فيها وخبره ورآه .

ولم يهمل أهل الأخبار ذكر أهل العي والبلادة ، وهم على قلتهم وضآلة

---

١ البيان والتبيين (١/٢٩٠) .
٢ البيان والتبيين (١/٣٩٨) .

عددهم مجتمع خاص قائم بذاته ، فأشاروا الى نوادرهم وبعض قصصهم، وجعلوا رأسهم وحامل لوائهم في الجاهلية شخصاً ضربوا به المثل في العيّ ، دعوه (باقلاّ) وجعلوه من قيس بن ثعلبة . وقالوا : إن من حماقته وعيّه أنه اشترى عنزاً من الظباء بأحد عشر درهماً ، فقيل : بكم اشتريتها ؟ فأطلق كفّيه ومدّ أصابعه وأخرج لسانه ، أي يعده بلسانه وأصابعه ، فنفرت العنز ، فعُير بذلك . وفيه يقول الشاعر :

يلومون في حمقه باقلاّ　　كأن الحماقة لم تخلق[1]

١　شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٧٩) .

فهرست